

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل : .....

الرقم التسلسلي : .....

قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي  
و الأمير شكيب أرسلان . دراسة تاريخية وفكرية مقارنة  
- الجزء الأول -

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور :

- عبد الكريم بوصفصاف

إعداد الطالب :

- بشير فايد

تاريخ المناقشة : / /

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
عبد الرحيم سكفالي	أستاذ التعليم العالي		جامعة منتوري قسنطينة
عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي		الجامعة الإفريقية أدرار
سعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي		جامعة الأمير عبد القادر
إسماعيل زروخي	أستاذ التعليم العالي		جامعة منتوري قسنطينة
رابح مرابي	أستاذ محاضر		جامعة منتوري قسنطينة
قدادرة شايب	أستاذ محاضر		جامعة 8 ماي 45 قالمة

السنة الجامعية: 1430هـ / 1431هـ - 2009م / 2010م .

# الإهداء

إلى روح والدي الذي كانت غاية المنى لديه رؤية أبنائه يحققون النجاحات في دراستهم وفي حياتهم المستقبلية .

إلى روح أخي عبد المالك و اختي صورية الذان التحقا بالرفيق الأعلى وهما في زهرة شبابهما .

إلى والدتي التي صبرت وتحملت وكافيت من أجل تربيتنا وتعليمنا ، جزاها الله عنا كل خير .

إلى أخي نور الدين وأختاي وهيبة وسهام .

إلى زوجتي وابني عبد المالك .

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد العلمي .

# شكر وتقدير

اعترافا لذوي الفضل بفضلمهم ، يسعدني ويسرني كثيرا أن أتوجه بعظيم شكري وخالص امتناني لأستاذي الفاضل : الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف المشرف على هذه الأطروحة ، اعترافا له بفضله الكبير في انجازها ، وهو الذي كان وسيظل مثلي الأعلى في الجد والاجتهاد والإخلاص في العمل .

كما أوجه شكري وتقديري واحترامي لإدارة وأساتذة قسم التاريخ والآثار وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة منتوري - قسنطينة - على المساعدات التي قدموها لي في شتى المجالات .

كما اتقدم بالتحية و الشكر الى كل السادة الاساتذة اعضاء لجنة المناقشة على تحملهم عبء قراءة هذا و تقييمه .

كما لا يفوتني في هذا المقام أيضا أن أتقدم بشكري وتقديري إلى السادة الأفاضل : عبد الحليم خلفة صاحب مكتبة خدمات الإعلام الآلي بحي الإخوة بن عزيز عموشة ، عبد الكريم خلفة ، الأنسة حياة عنان ، و الأنسة بكاي وردة على ما بذلوه من مجهودات جبارة لإخراج هذه الأطروحة في شكل جيد وحلة أجمل ، وعلى تضحيتهم بعطلتهم الصيفية حتى يكون العمل جاهزا في الأجال المطلوبة .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(( و من احسن قولاً ممن دعا الى الله و عمل صالحاً و قال انني من المسلمين )) . سورة فصلت – الآية 33 .

صدق الله العظيم .



نحن لا نصور المكتوب وإنما نعيد إنتاجها وتجميعها على شكل أرشيف

## الفصل الأول :

الجزائر و لبنان في عصر

البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان

**تمهيد :**

انطلاقاً من نظرية أن الإنسان ابن بيئته، خصصنا هذا الفصل للحديث عن مميزات البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، التي ولد ونشأ وتعلم فيها المصلحان والمفكران الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، فلا شك أن البيئتين الجزائرية واللبنانية قد كان لهما دوراً رئيساً في تنشئة وتكوين شخصية وفكر الرجلين. وهو ما سيظهر عبر فصول هذه الرسالة . فلقد عاش البشير الإبراهيمي أغلب حياته في ظل الاحتلال الفرنسي، الذي أحكم سيطرته على الجزائر منذ سنة 1830م ، ولم يغادرها إلا سنة 1962م بعد ثورة مسلحة دامت سبع سنوات ونصف، انتهج خلالها سياسة تستهدف الهيمنة على العقول والأبدان ، بعد أن تمكن من الاستيلاء على الأرض ؛ فمارس القمع والإقصاء والتهميش ومصادرة الحقوق السياسية والمدنية ، ولجأ إلى التفقير والتجهيل ونشر الأمية بين صفوف الجماهير، وأحكم قبضته على الدين ومؤسساته وشجع الطريقة المنحرفة والدروشة والدجل باسمه، وحارب العلماء ورجال الدين الحقيقيين أمثال الإبراهيمي والمتقفين الوطنيين بالتضييق والإبعاد والنفي والسجن . وعلى النقيض من ذلك فتح الباب امام غلاة المعمرين القادمين من مختلف البلدان الأوروبية، للتمتع بكل الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التي لم تكن متاحة لهم حتى في بلدانهم الأصلية . ومنه يمكن القول أن الجزائر في عصر الإبراهيمي، كانت تتميز ببيئتين : الأولى تشمل معظم المجتمع الجزائري المحروم من أبسط الحقوق الإنسانية ، والثانية أوروبية تضم مجتمع المعمرين ؛ الذين أطلقت إدارة الاحتلال يدهم في القمع والبطش والاستغلال . أما فترة الحرية ، فقد كانت قصيرة جداً بالنسبة للإبراهيمي، لم تزد عن حوالي ثلاث سنوات ، كانت فيها الجزائر في مرحلة انتقالية، لم يقم خلالها إلا بنشاطات محدودة بسبب تقدمه في السن واعتلال صحته من ناحية، ووضعته في الإقامة الجبرية إلى غاية وفاته في ماي 1965م من ناحية ثانية. وعليه فقد اقتصرنا على إبراز السمات العامة ؛ لأوضاع الجزائر طيلة الاحتلال الفرنسي فحسب .

بينما اختلف الأمر بالنسبة للأمير شكيب ،الذي عاش في بيئة تميزت بمرحلتين : هما

المرحلة العثمانية والمرحلة الاستعمارية الفرنسية ؛ تباينتا في بعض الجوانب وتشابهتا في

جوانب أخرى ، و لكن و مهما يكن فان المرحلة العثمانية كانت الافضل بالنسبة للامير شكيب لانالمحتل الفرنسي عمد الى القضاء على بعض المظاهر الايجابية التي تميز بها لبنان في أواخر الحكم العثماني مثل الحرية الثقافية والدينية، وفي المقابل شجع المظاهر السلبية الكثيرة التي لم تنفع الإصلاحات في التقليل منها ، تجذر الفساد وهيمنة رجال الإقطاع واستفحال التعصب العرقي والطائفي. ولما كان شكيب من أوائل اللبنانيين الذين تصدوا لذلك ، كان مصيره المطاردة والعيش في المنفى ، حيث لم يستطع العودة إلى البلاد إلا سنة 1946م تاريخ حصولها على الاستقلال.

وعليه فقد استعرضنا في هذا الفصل ، أنظمة الحكم السياسية والإدارية والقضائية وانعكاساتها في البلدين ، وعمدنا إلى دراسة وتحليل الأوضاع الاقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والضرائب والمالية . والأمر ذاته بالنسبة للحياة الاجتماعية، التي عالجت فيها طبقات المجتمع . والعلاقات السائدة بين مختلف مكونات المجتمع في البلدين . أما في الحياة الثقافية ، فقد تطرقنا إلى وضعية التعليم بكل أنواعه ، ومدى ارتفاع أو انخفاض مستوى الأمية ، بالإضافة إلى واقع الإعلام وبعض الفنون الثقافية . كما تحدثنا بإيجاز عن واقع الحياة الدينية ، والتي تتميز باختلاف أساسي بين الجزائر و لبنان ، من حيث الديانات السائدة ، أو دور المؤسسات الدينية ، أو مستوى الحرية الدينية الموجود . هذا وقد قمنا بمقارنة كل ما استعرضناه في كل مبحث من المباحث التي احتواها هذا الفصل ، حتى يمكننا الوقوف على مدى تأثير البيئتين الجزائرية واللبنانية ، في تشكيل آرائهما في مختلف القضايا العربية الإسلامية الكبرى ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والحضارية ، التي حاولا معالجتها انطلاقا من رصيدهما الفكري والعلمي والثقافي ، الذي اكتسباه أثناء مرحلة الطفولة والشباب من ناحية ، ومن رحلاتهما وأسفارهما ، التي ساهمت هي أيضا بقسط وافر في ذلك من ناحية أخرى .

**المبحث الأول : الوضع السياسي في الجزائر ولبنان .****01 - الوضع السياسي في الجزائر :**

عاصر الإبراهيمي قيام ثلاث جمهوريات ، تداولت على الحكم بفرنسا ، بدءا بالجمهورية الثالثة ( 1870 م - 1940 م ) ، التي خلفت الإمبراطورية الثانية بزعامة " نابليون الثالث " ( Napoléon III ) ( 1808م - 1873 م ) ، ثم الجمهورية الرابعة ( 1846م - 1958م ) ثم الجمهورية الخامسة ابتداء من سنة 1958م (\*) و إلى غاية الاستقلال . و لكن بالرغم من تعدد هذه الأنظمة السياسية ، التي كانت تظهر و تسقط في ظروف معينة ، فإنها لم تختلف في نظرتها للجزائر ، فقد كانت النظرة الاستعمارية مشتركة فيما بينها <sup>(1)</sup> . إذ لم يعرف الجزائريون في الواقع ، إلا الحكم العسكري البوليسي ، الذي ظل مسلطا عليهم ، طيلة الوجود الاستعماري في بلادهم .

أما على المستوى الإداري ، فقد بقي نفس التنظيم المعمول به من قبل ، حيث يتم تعيين الحاكم العام من السلطات المركزية في باريس ، و الذي يكون تحت تصرف وزارة الداخلية ، يساعده مجلس الحكومة ، و مجالس مالية مهمتها استشارية و ليست تشريعية . و على رأس العملات الثلاث ( الجزائر ، قسنطينة ، وهران ) كان يوجد ولاية ، يعينون تعيينا من قبل الحكومة الفرنسية .

و قد قسمت هذه العملات إلى دوائر ، و الدوائر إلى بلديات ، و كانت هذه الأخيرة نوعان : بلديات كاملة الصلاحيات ( Communes en pleins exercices ) ، تسود حيث يكون عدد الأوروبيين معتبرا ، و تخضع لنفس القوانين المطبقة في فرنسا . و بلديات غير كاملة الصلاحيات ( مختلطة ) ( Communes Mixtes ) ، توجد حيث يكون هناك عدد الأوروبيين محدودا جدا ، تسير من قبل مسؤول إداري <sup>(2)</sup> برتبة متصرف إداري ( Administrateur ) يعين من طرف الحاكم العام أو عامل العمالة ، يساعده في مهامه ممثلون أوروبيون و آخرون

(\*) - مازالت الجمهورية الخامسة ، هي النظام الحاكم بفرنسا ، لغاية الآن .

(1) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1930م - 1945م ، ج 3 ، ط 3 ، م و ك ، الجزائر : 1986 م ، ص 54 .

(2) - المرجع نفسه ، ص ص 15 - 16 .



مسلمون ، الذين يفوق عددهم نسبة 90% من إجمالي سكان البلدية (1) . لقد كان هذا النوع من البلديات نوعا شادا ، عرفته الجزائر دون غيرها من المستعمرات الفرنسية الأخرى ، بل فإنه لم يكن معروفا في العالم بأسره (2) .

هذا في شمال البلاد ، أما جنوبها فكان يخضع للنظام العسكري ، و هو ما جعله في شبه عزلة تامة اقتصاديا و اجتماعيا و سياسيا ، كما كان يوجد به نوع ثالث من البلديات ، هو البلديات الأهلية ( Communes indigènes ) ، التي كان عددها محدودا جدا (3) .

و منه نستخلص ، أن السياسة الاستعمارية في المجال الإداري ، قد كانت تهدف إلى تحقيق عملية الإلحاق ، التي دشنها الملك " لويس فيليب " ( Louis philippe ) ( 1773 م - 1850 م ) ، عندما أصدر مرسوم 22 جويلية 1834 م (4) .

تدعمت هذه المنظومة الإدارية ، بفرض سلسلة من القوانين: (( من شر ما عرفه البشر في عالم التشريع الإنساني )) ، ومنها على الخصوص " قانون الأهالي " ( Code D'indigénat ) ، الذي صدر في فترة حكم الجمهورية الثالثة عام 1871م ، وتضمن جملة من التعليمات والأوامر الصادرة ، عن الضباط العسكريين ، والمسؤولين الإداريين ، والجهات الموكل إليها النظر، فيما يرتكبه الجزائريون من جنح ، مع العلم أن ذلك من مهام المؤسسة التقليدية وهي القضاء . فعلى سبيل المثال فرض على الجزائري حمل رخصة التنقل من مكان لآخر داخل الجزائر، فإذا لم تكن بحوزته يعاقب وهكذا... الخ (5) .

(1) - Cherif Benhabyles : L'Algérie Française Vue par in indigène , édition oriental , Alger , 1914 , PP , 50 - 51

(2) - عبد الكريم بو الصفصاف : الأبعاد الثقافية و الاجتماعية و السياسية في حركتي محمد عبده و عبد الحميد بن باديس ، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة ، ج 1 ، جامعة تونس الأولى ، تونس : السنة الجامعية 1996 م - 1997 م ، ص 28 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 16 .

(4) - جوان غليسي: الجزائر الثائرة ، تعريب خيرى حماد ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت : 1961م ، ص 15.

(5) - CL Aude Collot : Les institutions de L'Algérie Durant la période coloniale 1830- 1962 , édition C.N.R.S et O.P.U , Alger , 1987, p 94.

وقد مكن هذا القانون ، من تحويل الجزائري ، إلى إنسان بدون حقوق ، عليه فقط أن ينفذ بطريقة آلية ، أوامر المسؤول الإداري أو الأهلي (1) . و لقد لقي هذا القانون ، معارضة و استنكارا حتى من الفرنسيين أنفسهم ، لبشاعته و عدم إنسانيته ، فقد وصفه أحدهم قائلاً أنه يمثل : (( أقصى إجراء في الوقائع الاستعمارية يمكن لقوة استعمارية أن تشنه للضغط على رعاياها ، و لكنه في الوقائع الإنسانية يمكن اعتباره من بقايا العصور الوسطى و محاكم التفتيش )) (2) . و قد ظل هذا القانون البغيض مسلطاً على الجزائريين ، منذ صدوره ، و إلى غاية جلاء الاحتلال عن البلاد (3) .

و من بين تلك القوانين أيضاً ، قانون 19 ديسمبر 1900 م ، الذي أعطى للمعمرين قوة مراقبة ميزانية الجزائر ، و شبكة الخطوط الحديدية ، و المواصلات و الغاز و الكهرباء ، و الإشراف على الأشغال العامة ، و استغلال موارد البلاد ، و السلطة الكاملة على الجزائريين ، و هو ما كان " نكبة قاسية " عليهم . علاوة على ذلك فإنه منح للمعمرين حق الانتخاب ، و التمثيل في المجالس النيابية و المالية ، و الحكومية ، و مراقبتها . و قد كان بإمكان المعمرين أيضاً ، الضغط على السلطات الاستعمارية ، لكي يحصلوا على القوانين التي تخدم مصالحهم الخاصة (4) .

في ظل هذا الوضع ، و جدت الجزائر نفسها و مع مرور الزمن : (( خاضعة لسلطتين : سلطة قانونية و هي سلطة باريس ، و سلطة فعلية و هي الجزائر . أما سيدنا المعمر فإنه يمارس كلا السلطتين : فهو فرنسي في باريس و جزائري في الجزائر ، أما الجزائري فلا حول و لا قوة

(1) - Djilali Ben Amrane : L'émigration Algérienne en France ( Passé , Présent , -  
Devenir) , S N E D , 1983 , Alger , P 24 .

(2) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1900 م - 1930 م ، ج 2 ، ط 3 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 م ، ص ص 90 - 251 .

(3) - عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصرة ( الفترة الأولى 1920 م - 1936 م ) ، م و ك ، الجزائر : 1986 م ، ص 28 .

(4) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ص ص 86 - 87 .

و لا سلطة له لا هناك و لا هنالك ، في باريس غائب محجور و في الجزائر قاصر محجور ((<sup>(1)</sup>).

إضافة إلى ذلك ، سنت قوانين أخرى ، كقانون التجنيد الإجباري الصادر في : 02 فيفري 1912 م ، الذي تضمن تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي ، باعتبارهم رعايا فرنسيين (\*) ، رغم المعارضة الشديدة من قبل غالبية الجزائريين . و ما تلاه من قوانين اضطهادية أخرى ، كقانون حالة الطوارئ و الرقابة ... إلخ<sup>(2)</sup> ، و التي جعلت المجتمع الجزائري يعيش تحت رحمة الإجراءات الاستثنائية<sup>(3)</sup> ، على عكس الأوروبيين ، رغم أنهم كانوا يشغلون معهم نفس المكان و هو الجزائر .

أما فيما يتعلق بالتمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي ، فكان يقتصر على المعمرين ، أما الجزائريون فلم يسمح لهم إطلاقا بالعضوية فيه ، و لو كملاحظين من سنة 1830 م و إلى غاية سنة 1947 م<sup>(4)</sup> . و بعد هذا التاريخ سمح لهم ، أن يمثلوا مواطنيهم في المجلس بثلاثة عشر نائبا ، و العدد الحقيقي كان يجب أن يكون مائتا نائب ، بالنظر إلى التفوق العددي الذي كان لصالحهم ، حيث كان عشرة أشخاص يقابلون فرنسيا واحدا<sup>(5)</sup> .

(<sup>1</sup>) - فرحات عباس : ليل الاستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال ، د ط ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب : د ت ، ص 125 .

(\*) - أورد أبو القاسم سعد الله : أن عدد الجزائريين الذين جندوا في الحرب العالمية الأولى 1914 م - 1918 م ، جنودا و عمالا ، قدر بـ 252000 مجندا ، و هذا اعتمادا على إحصائيات مستنقاة من مصادر فرنسية ينظر أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1900 م - 1930 م ، مرجع سابق ، ص 203 .

(<sup>2</sup>) - المرجع نفسه ، ص 204 .

(<sup>3</sup>) - المرجع نفسه ص 186 .

(<sup>4</sup>) - عبد الكريم بو الصمصاف ، المرجع السابق ، ص 34 .

(<sup>5</sup>) - الفضيل الورثياني : الجزائر الثائرة ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 1992م ، ص 388 .

وعلاوة على ذلك ، امتدت يد الإدارة الفرنسية، حتى إلى الشؤون المدنية للجزائريين، بعد أن ظلت مستقلة إلى غاية 1882م ، من خلال فرضها تبديل أسماء العائلات الجزائرية، بمقتضى مرسوم 23 مارس 1882م من نفس السنة (1) .

ومن جانب آخر ؛ وأمام التذمر العام، الذي كان يبديه الشعب الجزائري عامة ، والحركة الجزائرية خاصة ، من السياسة الاستعمارية في كل الميادين ، وعلى كافة الأصعدة، كانت فرنسا تلجأ من حين لآخر، إلى التظاهر بأنها تأخذ مأخذ الجد مطالب الجزائريين ، موهمة إياهم بحسن نواياها في التكفل بها ، وفي حقيقة الأمر كانت تلجأ إلى هذا الأسلوب ، الذي يعتمد على المراوغة ، من أجل ربح الوقت من جهة ، و امتصاص غضب الجزائريين من جهة أخرى(2) .

فكثيرة هي اللجان التي شكلت ، و اتخذت من الإصلاح شعارا لها ، و منها على الخصوص لجنة : " الثمانية عشر " التي تم تشكيلها سنة 1891 م من أعضاء مجلس الشيوخ ، برئاسة السياسي الشهير " جول فيري " (( Jules Ferry )) ( ( 1832 م ، 1893 م ) ) ، و لقد لخصت أعمالها في ثمانية عشر بندا على النحو التالي : (( التعليم ، الأحكام العدلية الإسلامية و محاكمها ، الضرائب و الجبايات ، إعانة الفقراء و المساكين ، الملك المشاع و تأسيس الملكية أخذ الملك للمصلحة العامة ، أخذ الجار بذنب الجار و هو ما يعبر عنه في الإصلاح الحديث ( الضمان المشترك ) ، القوانين الزجرية ، التجنيد ، التجنيس ، الانتخابات العمومية ، مجلس الشورى العام ، المجلس الأعلى ، النيابة الأهلية في البرلمان ، المجلس الجنائي ، الرباء ، وظيفة الوالي العام )) . و قد قامت هذه اللجنة باستجواب وفد من الجزائريين ، الذين وعدتهم بالنظر في مطالبهم ، نظرة عناية و تفحص ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث (3) .

(1) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2 ، مرجع سابق ص، 184 .

(2) - بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م - 1965 م ، مذكرة

ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : السنة الجامعية 2000م - 2001 م ، ص 32 .

(3) - عبد الرحمان بن إبراهيم ابن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 17 - 18 .

و هناك لجان أخرى شكلت ، خلال النصف الأول من القرن العشرين ( ق 20 م ) ، بهدف دراسة أوضاع الجزائريين ، و تقديم اقتراحات بذلك إلى الحكومة الفرنسية ، للقيام بإصلاحات سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية لصالح الأهالي ، و لكن دون جدوى فهذه اللجان على سبيل المثال ، عندما تقدم تقاريرها إلى الجهات المسؤولة ، تطل هذه الأخيرة بعد تردد كبير على الجزائريين ، بمشاريع و اقتراحات تسميها إصلاحات ، و في هذا السياق نذكر قانون 04 فيفري 1919 م ، الذي حاولت من خلاله فرنسا ، ترضية الجزائريين الذين شاركوا إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918 م ، نتيجة للحملة التي شننتها مختلف التيارات و الشخصيات الوطنية ، و على رأسها الأمير خالد ( 1875 م - 1936 م ) (\*) ، الذي طالب بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ، في مذكرة بعث بها إلى الرئيس الأمريكي " ولسن " ( Wilson ) (\*\* ) ، و مؤتمر الصلح المنعقد ب : " فرساي " ( Versailles ) بفرنسا سنة 1919 م . و لكن كالعادة ، فإن هذه الإصلاحات كانت عكس تطلعات الشعب الجزائري ، أو كما وصفها الأستاذ : " عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون " <sup>(1)</sup> ، قائلا : (( جاء قانون إصلاحات 04 فبراير 1919 م و كأنه يحمل الحلوى التي تقدم ، كتلهيه للأولاد و الصغار )) ، فقد تضمن منح بعض الامتيازات لبعض الجزائريين ، مقابل التخلي عن شخصيتهم الإسلامية .

( \* ) - الأمير خالد : حفيد الأمير عبد القادر ، عرف عنه استماتته في الدفاع عن انتمائه العربي ، فكثيرا ما كان يردد في وجه المستعمرين : (( أنا عربي و أريد أن أبقى عربيا )) ، درس في معهد " لويس لوجران " ( Louis Le Grand ) الشهير ، ثم في الكلية الحربية بـ : " سان سير " ، و كان يتقاضى منحة حكومية ، دخل الحياة السياسية سنة 1913 م ، و ساند برنامج " الجزائر الفتاة " " الشبان الجزائريون " فكان ذلك بداية المشاكل بينه و بين الإدارة الاستعمارية ، خاصة و أنه كان يتمتع باحترام الناس . انتخب مستشارا بلديا ، ثم مستشارا عاما ، كما عين مندوبا ماليا . اعتزل الحياة السياسية سنة 1929 م ، باتفاق بينه و بين الإدارة . هاجر إلى المشرق لمدة قصيرة ، عاد بعدها إلى الجزائر ، مجددا نشاطه السياسي سنة 1924 م ، تحالف مع الشيوعيين ، فكر في الهجرة إلى الإتحاد السوفياتي ، مثل ظهور نجم شمال إفريقيا سنة 1926 م ، نهاية الدورة السياسية . توفي سنة 1936 م . محمد حربي : الثورة الجزائرية سنوات المخاض ، ترجمة صالح عياد و صالح المثلوثي ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1994 م ، ص ص 175 - 176 .

( \*\* ) - توماس وود درو ولسن ( Thomas Woodrow ) : ظل رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ، من : 1913 إلى 1921 .

( 1 ) - عبد الرحمان بن إبراهيم ابن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 72 - 73 .

و نفس الشيء بالنسبة لإصلاحات سنة 1947 م ، التي قال عنها الشيخ البشير الإبراهيمي (1) : (( إصلاحات الجزائر التي شكلت لها إدارة كاملة ، و حشر فيها من الموظفين جند ، و خصص لها في الميزانية مال ، و قدر لها من العمر مال ، و لم يكن لها من العمل إلا التقارير و الملفات و أسماء المشروعات ، و يقال أنها أخذت بالحسم و الحزم ، فبدلت اللقب و الاسم ، و انتقلت من تنفيذ العهود و الشرائط إلى وضع الخرائط و البركة في الأوراق )) .

إن هذا الوصف الساخر لإصلاحات 1947 م ، إن دل على شيء فإنما يدل على هشاشة سياسة فرنسا الإصلاحية اتجاه الأهالي المسلمين ، فهي تريد الإبقاء على الجزائر ، لكن بدون تكلفة ، يدفعها في ذلك زبائنها المستوطنون في الجزائر ، بل فإنها كانت تسعى دائما إلى إبقاء الجزائريين مستعبدين ، يخدمون المصالح الاستعمارية ، دون أن يكونوا طرفا في الإفادة منها .

فإصلاحات 1947 م في الواقع ، لم تأتي إلا لتزيد الشقة اتساعا ، و الهوة عمقا ، بين الجزائريين و الفرنسيين ، لأنها جاءت مكشوفة هذه المرة على كافة المستويات : في مسألة التمثيل النيابي ، الانتخابات ، اللغة العربية ، الصحافة ... إلخ . ذلك أن دستور الجزائر ، كما عرف في الصحافة آنذاك ، قد نص على جملة من الإصلاحات الخاصة بالمسلمين الجزائريين ، و لكن أيا من هذه الإصلاحات لم يجد سبيلا من التطبيق (2) .

وبعد اندلاع الثورة التحريرية بأربع سنوات، كانت فرنسا ما تزال متشبثة بسياسة الإصلاحات ، التي تعد مطلبا من مطالب الجزائريين ، فبعد مجيء الجنرال " شارل ديغول " ( Charles De Gaulle ) سنة 1958 م إلى سدة الحكم في فرنسا، أراد أن يحيي سنة أسلافه في مجال الإصلاح ، فبادر بالإعلان عن ما يعرف ب : " مشروع قسنطينة 1958م - 1963م " ، بهدف خنق الثورة التحريرية ، وعزلها عن الجماهير الشعبية ، باستقطاب أكبر عدد ممكن من الجزائريين وجلبهم إلى صف سلطات الاحتلال ، من خلال المشاريع الاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها المشروع . و بالرغم من هذه المشاريع ( الاقتصادية و الاجتماعية ) ، التي طرحت بسخاء ، إلا أنها لم تحقق الهدف المنشود ، من قبل رجل فرنسا القوي ، و كان

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ( عيون البصائر ) ، ج 3 ، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م ، ص 507 .

(2) - بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 33 .

مصيرها الفشل (1) . لأن هدفه لم يكن الإصلاح ، و إنما تقسيم الشعب الجزائري ، و تقسم الثوار الذين كانوا يخوضون حربا شرسة ضد قواته ، بالإضافة إلى عزل الثورة عن أصدقائها ، و تجنيدهم إلى صف فرنسا (2) .

و مجمل القول ، أن الإصلاحات الفرنسية في الجزائر ، كانت كلها مشاريع لذر الرماد في العيون ، تلجأ إليها السلطات الاستعمارية ، كلما أرادت أن تهدأ من الغليان الشعبي ، أو النشاط المتصاعد للحركة الوطنية (3) . اعتقادا منها أن كل ما يناله الأهالي من حقوق ، من شأنه أن ينقص من حقوق المستوطنين . و من جانب آخر ، كان التصعيد في ممارسة العنف و القمع ، كلما أصر المسلمون على تغيير الأوضاع ، و الإحراز على حقوقهم (4) . لكن سياسة العناد المنتهجة ، كانت تحول دون أن يسمع ، قادة الاستعمار الفرنسي : (( صرخات الوطنيين و المصلحين المدوية )) (5) . و سيكتشف هؤلاء فيما بعد ، العواقب الخطيرة لتلك السياسة المتوترة ، حيث أصبح الأهالي يفكرون ، في استرجاع حقوقهم ، بأساليب أخرى أكثر فاعلية و هي الثورة .

أما في الميدان القضائي : فقد عملت السلطات الفرنسية منذ بداية الاحتلال ، على إلغاء القضاء الإسلامي ، أو احتوائه على الأقل ، و تقزيم دوره في حياة الأهالي ، ليحل محله النظام القضائي الفرنسي ، بنفس مؤسساته الموجودة في فرنسا ، وقد لجأت إلى ذلك ، لاعتقادها أن العدالة تشكل عنصرا هاما من عناصر السيادة ، التي لا تمكن تركها في يد الأهالي . ولكي

(1) - بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 34

(2) - أبو القاسم سعد الله : خلاصة تاريخ الجزائر ( المقاومة و التحرر 1830 م - 1962م ) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2007 م ، ص 184 .

(3) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 296 .

(4) - أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ( مذكرات ) ، ج 2 ( 1925 م ، 1954 م ) ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م ، ص 250 .

(5) - عبد المالك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ( 1925م ، 1954م ) ، ط 2 ، م و ن ت ، الجزائر : د ت ، ص 21 .

يتسنى لها فرض نظامها القضائي ، أجبرت فرنسا الأهالي على قبوله ، والاحتكام إلى مؤسساته<sup>(1)</sup> .

ولكنها عمليا ، وجدت صعوبات جمّة في تطبيق ذلك ، بسبب خصوصية المجتمع الجزائري ، الذي يختلف اختلافا كليا وصارخا مع الواقع الاجتماعي الفرنسي ، ولهذا تم اللجوء إلى أسلوب الإلغاء التدريجي للقضاء الإسلامي ، والتنشيط المرحلي للمؤسسات القضائية الفرنسية في الجزائر . ولما كان القضاة الفرنسيون ، المكلفون بالنظر في قضايا الجزائريين ، يجهلون جهلا تاما طبيعة وخصوصية المجتمع الجزائري ، تم الاعتماد على مترجمين قضائيين ، يتقنون اللغة العربية لمساعدتهم ، بمقتضى مرسوم 26 ديسمبر 1842م<sup>(2)</sup> .

أما القضاة المسلمون ، فلم يسمح لهم بالنظر ، في الأحوال الشخصية للأهالي كالزواج والطلاق والإرث... الخ ، بموجب قانون 25 ماي 1892 م<sup>(3)</sup> ، حيث انتزعت منهم القضايا المدنية والجنائية تدريجيا ، أما أحكامهم التي كانوا يصدرونها ، فقد كانت تخضع للاستئناف أمام " غرفة الاستئناف الإسلامية"<sup>(4)</sup> . وقد ظل القضاء الإسلامي تابعا لوزارة الحربية الفرنسية ، إلى أن جاء مرسوم 31 ديسمبر 1859 م ، الذي جعله تابعا لوزارة العدل مثل القضاء الفرنسي<sup>(5)</sup> .

(1) - رمضان بورغدة : الجزائريون و العدالة الفرنسية في عمالة قسنطينة خلال القرن 19م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، جامعة منتوري قسنطينة الجزائر : السنة الجامعية 1999م - 2000 م ، ص ص 75 - 101 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 76 وما بعدها .

(3) - ( C ) , OP-Cit , pp . 110-173 .

(4) - IBID , p- 179 .

(5) - Charles Robert Ageron: Histoire de l'Algérie Contemporaine ( 1871-1919) ,



من جانب آخر ، وبغرض استكمال مشاريع التنصير والإدماج في منطقة القبائل أصدرت السلطات الفرنسية مرسوم 29 أوت 1874م ، الذي ألغى العمل نهائيا بالقضاء الإسلامي بالمنطقة ، وجعل محله القضاء الفرنسي<sup>(1)</sup> .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

و في سنة 1902 م ، تم إنشاء المحاكم الزجرية ، بسبب ثورة "عين التركي" (\*) التي اندلعت في نفس السنة ، لتضاف إلى " مجلس العقوبات " ( Cours Criminelles ) الذي كان يتقاضى أمامه الجزائريون قبل ذلك<sup>(2)</sup> .

و رغم قيام فرنسا بفرض هذه السياسة القضائية الظالمة ، فإن الأهالي قاموا بعدم الاحتكام أمام القضاة الفرنسيين ، و هو ما يفسر قلة القضايا المعروضة على المحاكم الفرنسية ، و ضخامتها في المحاكم التي يقاضى فيها قضاة مسلمون<sup>(3)</sup> .

و من هنا يتبين لنا أن العدالة الفرنسية لم تتصف الجزائريين ، بعد أن حرّموا من عدالتهم الإسلامية الخاصة بهم ، التي كانت تستمد أحكامها من الشريعة الإسلامية السمحة ، و هي الوحيدة التي تتلاءم مع طبيعة المجتمع الجزائري بهويته العربية و الإسلامية ، و الدليل على ذلك الفشل الذريع الذي آلت إليه السياسة القضائية الفرنسية في الجزائر ، طيلة فترة الاحتلال<sup>(4)</sup> .

(1) - Charles Robert Ageron : Les Algériens Musilmans et la France ( 1871-1919) ,

Tome 1 , P.U.F , Paris , 1986,P 211 .

(\*) - اندلعت بسبب مناوشات، حدثت بين أبناء القرية و رجال الدرك الفرنسي ، ثم تحولت الى مواجهات .

(2) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ص 91 .

(3) - رمضان بو رغدة ، المرجع سابق ، ص 82 .

(4) - بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 9 .

## 02- الوضع السياسي في لبنان :

بدأ تاريخ لبنان الحديث ، إثر انتصار العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول ، في موقعة " مرج دابق " (\*) عام 1516م ، على المماليك بقيادة " قانصوه الغوري " ، وبعد هذا النصر دخل لبنان ضمن حظيرة الدولة العثمانية ، وظل كذلك طيلة أربعة قرون . وقد تم تقسيم سورية من الناحية الإدارية إلى ثلاث ولايات هي :

- ولاية دمشق : وضمت سنجق صيدا ، و سنجق بيروت والقدس ونابلس وغزة وتدمر .
- ولاية حلب : ضمت جميع أنحاء الشمال السوري .
- ولاية طرابلس : ضمت حمص وحماة .

وهكذا فإن لبنان ، كان مجزأً بين ولايات طرابلس ودمشق ، وفي عام 1560 م تم إعلان صيدا ولاية رابعة ، وعليه فقد مثل مجيء الأتراك بداية عهد جديد بالنسبة للبنان (1) . ويمكن تحديد لبنان تاريخياً أيام العهد العثماني ، بالمنطقة التي تبدأ من قمم جبال لبنان الشرقية، وتمتد لتصل إلى غاية البحر ، حكمها المعنيون ثم الشهابيون . وقد نشأت فيها سلطة سياسية ، عرفت نمواً وتطوراً منذ القرن 17م . وإلى يومنا هذا ، جعلت لبنان يتخذ طابعاً

(1) - زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية، بيروت: 1975، ص ص 282-283 .  
(\*) - كان من نتائج معركة "مرج دابق" :

1- الرفع من المعنويات العسكرية والنفسية للعثمانيين، لمواصلة حملتهم، للقضاء على الدولة المملوكية.  
2- تأمين سيطرتهم على بلاد الشام، وفتح طريق مصر والحجاز في الوقت نفسه أمام العثمانيين.  
3- مثلت عاملاً لإتمام وحدة الأناضول . فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً - مطلع العهد العثماني - أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت : 2007م، ص 130.

خاصا ، وشخصية مميزة ، ووحدة سياسية تولت الأسر والحكومات المتعاقبة على البلاد ، مهمة رعايتها والمحافظة عليها (1) .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

ويعد لبنان أكثر البلاد العربية ، التي تزخر بالطوائف أو العصبية المحلية ، التي كان لها دور أساسي في تاريخه السياسي الحديث والمعاصر ، نذكر منها : الدرّوز ، الموارنة ، المتاولة ، المسلمون السنة .

\* الدرّوز: ينحدرون من الشيعة الإسماعيلية ، ومن جماعات عربية وفارسية ، نزحت إلى جنوب لبنان ، مع مرور الزمن حققت الاندماج ونشأ منها " الدرّوز " في منتصف القرن الحادي عشر . وقد اختلفت التفسيرات بشأن لفظ " الدرّوز " ، فهناك من أرجعه إلى أصل فارسي ومعناه "الخياط " ، نسبة إلى داعية فارسي يدعى " محمد بن إسماعيل الدرزي " . أما الدرّوز أنفسهم ، فإنهم يرفضون هذه التسمية ، ويفضلون تسميتهم ب : " الموحدين " ، ومعناه الذين يؤمنون بإله واحد . وهم يختلفون عن المسلمين ، في كونهم لا يسمحون بتعدد الزوجات ، وبإقامة صلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في أبنية تتميز ببساطتها وتشفها تسمى " الخلوات " . وقد كان لهم دور مؤثر ، في كل الأحداث التي شهدتها ولاية الشام ، خلال العهد العثماني (2) .

\* الموارنة : يعدون أهم طائفة في مسيحية في لبنان ، بفعل الدور السياسي ، الذي قاموا به في تاريخ البلاد ، ودورهم الريادي في تقرير مصير لبنان وإدارة سياسته . وطدوا علاقاتهم بالصليبيين في وقت مبكر ، حيث عملوا معهم كأدلاء يرشدونهم إلى الطرق والمعابر . استطاعوا تحقيق الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر ، فقام البابا " جريجوريوس الثالث عشر " بإنشاء مدرسة باسم المدرسة المارونية ، بهدف تعليم رجال الدين

(1) - عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : 2005م ، ص 269 .

(2) - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ص 275-276 .

الموارنة، ليتسنى لهم القيام بواجباتهم الدينية، على نحو أفضل من ذي قبل . شغلوا وظائف الكتابة والتفتيش والحسابات عند العثمانيين ، من أشهر أسرهم آل " الخازن" وآل " حبيش" ( 1 ) .  
\* المتاوله : هم شيعة أصلهم وكيفية نشوئهم يكتنفه الغموض ، اسم " المتاوله" جمع "المتوالي" وهو من أتباع علي بن أبي طالب ، علاقتهم وثيقة بإيران وحكامها، عوملوا بشدة من قبل جيرانهم الدروز، ومن السلطات العثمانية فيما بعد ، فقد حاول والي صيدا " أحمد باشا

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

الجزار " إبادتهم . امتد نفوذهم في الجنوب فيما يعرف بجبل عامر، ومنطقة البقاع وبعلبك ، وكانت لهم جالية في دمشق ( 2 ) .

\* المسلمون السنة : يمثلون سكان طرابلس بشكل خاص ، والسهول الساحلية، والمدن الساحلية من الشمال إلى الوسط ، حملوا لواء القتال ضد الصليبيين والقضاء على الطوائف التي ارتدت على الإسلام في لبنان وسورية ، ووطدوا سيادة السنة على المنطقة ( 3 ) .

وقد كانت العلاقات بين هذه الطوائف تتميز بالتعايش الودي ، وبالصراع والاقنتال حينما يتزايد النفوذ الأجنبي في لبنان ، خاصة في سنة 1840م لما انتقلت البلاد من الحكم المصري إلى الحكم العثماني من جديد ، حيث عادت المشاحنات ونشبت اضطرابات خطيرة ، في جبل لبنان بين المسيحيين و الدروز ، قامت إثرها ثلاث حروب أهلية أعوام 1841م و 1845م و 1860م، هاته الأخيرة تعد أكبرها . وقد ساعدت عوامل عدة ، على إذكاء هاته الفتن الطائفية منها : السياسية الداخلية العثمانية ، و تركيز السلطة في الحكم المباشر و تشجيعها للصراعات الحزبية و الطائفية ، فضلا عن الدور الخطير ، الذي كان يقوم به المبعوثون الأجانب ، و خاصة الإنجليز ، لإثارة روح الحقد و الكراهية بين أفراد الطائفتين المسيحية والدرزية ( 4 ) .

(1) - المرجع نفسه ، ص 277 ، 278 ، 279.

(2) - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 279 - 280.

(3) - المرجع نفسه ، ص 280 و ما بعدها.

(4) - زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 294 - 295 .

و تجدر الإشارة إلى أن الحكم العثماني في المشرق العربي ، كان حكما غير مباشر ، باعتبار أن فكرة الحكم لدى العثمانيين كانت بسيطة جدا ، و تتمثل في أن الدولة تضطلع بوظائف محددة ، لا ينبغي أن تتجاوزها و هي :

أولا : الدفاع عن ولايات الدولة أو ممتلكاتها و مهاجمة البلاد المجاورة ، و هي مهمة تقع على كاهل الجيش .

ثانيا : للجيش وظيفة أخرى هامة أيضا ، هي الحفاظ على الأمن في الداخل ، تم جباية الأموال الأميرية ( الضرائب ) ، و توزيعها في وجوهها المختلفة ، الأمر الذي يتطلب إنشاء إدارة مالية. ثالثا : القيام بالفصل في المنازعات بين الناس ، مما يستلزم إنشاء نظام قضائي .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

رابعا : اعتبار الوظائف الأخرى عدا الصحة و التعليم ، خارج نطاق مسؤولية الدولة العثمانية ، و بالتالي تترك للأفراد و الهيئات و الجماعات<sup>(1)</sup>.

و لما ولد الأمير شكيب أرسلان سنة 1869م ، كان لبنان يحكم بمقتضى النظام " الأساسي " ( Règlements Organiques ) الذي تم التوقيع عليه في 09 جوان 1861 م في الأستانة ، من قبل كل من الدولة العثمانية و فرنسا و إنجلترا و روسيا و بروسيا و النمسا ، و أصبح بموجبه للبنان متصرف مسيحي كاثوليكي ، يعين من طرف الباب العالي و يكون مسؤولا لدى الأستانة ، على أن يكون عثمانيا من غير اللبنانيين ، مع موافقة الدول الستة على تعيينه ، يساعده في شؤون الحكم مجلس إداري يتألف من اثني عشر عضوا يمثلون مختلف الطوائف ( أربعة عن الموارنة ، ثلاثة عن الدروز ، اثنين عن الروم الأرثوذكس ، واحد عن الروم الكاثوليك ، واحد عن السنة ، واحد عن الشيعة ) . كما تم تقسيم المتصرفية بموجب هذا القانون ، إلى سبع مناطق إدارية أو أقضية ، على رأس كل منها قائمقام يقوم بتعيين المتصرف من بين أفراد الطائفة التي تشكل الأغلبية السكانية . أما الأقضية فقسمت على نواحي ، و كل ناحية يكون عليها مدير معين من المتصرف .

أما القرى فيرأس كل منها مختار أو شيخ منتخب من طرف الأهالي ، لإدارة الشؤون المحلية . و في المقابل أقر النظام الأساسي ، أن المتصرف يساعده في الحفاظ على الأمن

(1) - زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ص 287 - 288 .

فصائل من الدرك اللبناني ، التي أوكلت لها أي أيضا الشرطة القضائية ، و جعل الضرائب أساسا للميزانية ، فإذا كان هناك فائض يسلم إلى الباب العالي ، و إذا حدث عجز قامت السلطة العثمانية بسده . كما نص النظام الجديد ، على إسناد القضاء على محاكم ابتدائية واستئنافية، وعلى إلغاء العمل بالإقطاع ، وتحقيق المساواة بين اللبنانيين كافة أمام القانون .

وقد ظل هذا القانون ساري المفعول ، طيلة الحكم العثماني الذي امتد إلى غاية سنة 1918م ، ولم تطرأ عليه إلا تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف السياسية والداخلية المستجدة<sup>(1)</sup>.  
وجدير بالذكر هنا ، أن الأمير شكيب أرسلان تولى سنة 1902 منصب قائمقام مسقط رأسه قرية " الشوف " ، بتعيين من المتصرف " نعوم باشا " صديق عمه المعتزل من المنصب الأمير  
الفصل الأول :

---

"مصطفى أرسلان" ، استمر فيه إلى غاية 1907م<sup>(2)</sup> ، ثم استقال منه بسبب خلافاته الشديدة مع الولاة العثمانيين ، الذين كانوا يغرقون في الفساد<sup>(3)</sup> .  
استمر الوضع في لبنان على هذا الشكل ، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى ، التي أدت إلى تأزم الحالة السياسية في البلاد، بفعل الوعي الذي تنامي بين اللبنانيين من جهة، واشتراكهم في تأليف الجمعيات والهيئات العربية في بيروت واسطنبول وباريس من جهة ثانية، فانخرطوا على اختلاف طوائفهم مع غيرهم من العرب في الحركة القومية العربية . فكان رد فعل الأتراك اتجاههم ، القمع والاضطهاد ، حيث عينوا " جمال باشا " حاكما على سورية ولبنان وفلسطين ، والذي أمعن في البطش بتهمة معاداة الدولة العثمانية ، وإعدامهم شنقا في ساحات دمشق وبيروت .

وقد استماتت الدولة العثمانية ، في محاربة حركة الوعي العربي في هذه المرحلة ، مستخدمة كل الوسائل المتاحة ، ولكنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الانسحاب من سوريا ولبنان بعد انتصار الحلفاء ، فاسحة المجال لفرنسا التي بسطت سيطرتها على لبنان، تنفيذًا

---

(1) - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 413 وما بعدها.

(2) - لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، م 1 ، ج 1 ، ط 4 ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت : 1973 ، ص 33 .

(3) - محمد شيا : شكيب أرسلان ومقدمات الفكر السياسي، سلسلة كتاب الفكر العربي ، د ط ، بيروت : 1983م ، ص 56.

لاتفاقية " سايكس بيكو " 1916م ، فعينت عليه قنصلها السابق في بيروت " جورج بيكو " مفوضا ساميا ، ومنحته صلاحيات سياسية وإدارية واسعة (1) .

وفي 20 أبريل 1920م ، أقر المجلس الأعلى للحلفاء المجتمع في " سان ريمو " بايطاليا ، الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، ثم قام بعد ذلك المفوض السامي الفرنسي الجنرال " غورو " بإصدار مرسوم 31 أوت 1920م ، الذي ضم بموجبه بيروت والبقاع و مدن طرابلس وصيدا وصور وضواحيها إلى متصرفية جبل لبنان ، لتصبح كلها دولة واحدة ، وفي اليوم الموالي أعلن "غورو" قيام دولة " لبنان الكبير " كدولة مستقلة ، تحت مظلة الانتداب الفرنسي ، لينتهي بذلك نظام المتصرفية في لبنان ، رغم بروز بعض حركات المعارضة التي لم تفلح في : " توحيد النضال السياسي والاجتماعي اللبناني ، وصهره في بوتقة وطنية مدنية خالصة" ، ويعود الفصل الأول :

---

ذلك إلى الفكرة الطائفية المستحكمة ، والتي غذتها الحزبية والظروف المحلية، وتحول أغلب الزعامات الإقطاعية القديمة إلى زعامات طائفية ، غايتها تمثيل الطائفة التي تنتمي إليها ، وليس المصلحة اللبنانية (2) .

ورغم ذلك لم يستسلم اللبنانيون للواقع الجديد ، بل قاموا بعدة ثورات ، أشهرها ثورة 1920م في جبل " عامل " ، وثورة 1925م التي أظهر فيها المجاهدون الشيعة في جنوب لبنان الكثير من الشجاعة والبطولة (3) .

اختارت سلطات الاحتلال ، أن تحكم لبنان حكما مباشرا ، حتى و إن سمحت بوجود مجلس تمثيلي منتخب سنة 1922م ، الأمر الذي كرس السيطرة الفرنسية الكاملة على الحياة اللبنانية ، لأن السلطة الحقيقية ظلت في أيدي الفرنسيين ، رغم الانتخابات التي كانت تجري ، و تغير وجوه حكامها الذين تعاقبوا على الحكم في لبنان ، فكان في النهاية تذمر عام من اللبنانيين إزاء ذلك الوضع .

---

(1) - زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ص 302 - 303 .

(2) - عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 451 .

(3) - زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 309 .

كما لم يغير من الأمر شيئاً ، لا ددستور 23 ماي 1926م ، و لا إنشاء الجمهورية اللبنانية في السنة ذاتها برئاسة رئيس لبناني مسيحي منتخب ، إذ بقي الوضع السياسي يدار من قبل المفوضين الساميين و المستشارين الفرنسيين الذين تم توزيعهم على جميع الإدارات . و أثناء الحرب العالمية الثانية التي اندلعت سنة 1939 م ، عرف لبنان موجة من القلق و الاضطراب ، بسبب سياسة فرنسا التي تميزت أكثر بالقمع و السيطرة على المراكز الحساسة ، فلم تترك للبنانيين من مظاهر الحكم الوطني إلا رئاسة الجمهورية . و لما سقطت في يد الجيوش النازية ، حدث تجاذب بين حكومة " فيشي " ( Vichy ) و الجنرال " شارل دوغول " ( Charle de gaulle ) حول لبنان ، انتهى بغزوه من قبل القوات الديغولية الإنجليزية ، بعد أن خاضت معارك كثيرة دامت شهرا و نصفا ضد الفيشيين ، فأصبحت البلاد لفترة وجيزة تحت الحكم الديغولي بمساعدة حلفائه الإنجليز .

و لم يتمكن لبنان من الحصول على سيادته الوطنية التامة إلا في سنة 1946 م ، بعد توحيد حزبي وطائفي و شعبي كبير ، في سبيل التحرر و الاستقلال ، كان له صدى قويا في الفصل الأول :

---

العالم كله ، وسط تعاطف عربي كبير ، أجبر الفرنسيين على الخضوع للأمر الواقع ، فأعادوا الزعماء اللبنانيين إلى مراكزهم في الحكم ، و تم الجلاء عن البلاد في نهاية شهر ديسمبر من سنة 1946 م ، بالاتفاق مع بريطانيا (1) .

و هكذا يتبين لنا ؛ وجود اختلافات أساسية في الأوضاع السياسية التي عاش فيها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ فقد عاش الأول طيلة حياته التي امتدت لحوالي 76 سنة ، في بيئة سياسية استعمارية صرفة ، لم يرى فيها إلا القمع و الاضطهاد السياسي و التضيق على الحريات و انتهاك حقوق الإنسان على نحو غير مسبوق في التاريخ الإنساني ، و إقصاء الأهالي ؛ الذين جعلت منهم عنصرا منبوذا في وطنهم بمنظومة إدارية و قانونية ، شرعت أساسا لخدمة مصلحة العنصر الأوروبي كاملة ، و لم تراعي منح حتى الحد الأدنى من الحقوق السياسية و المدنية للأهالي ، الذين يشكلون الأغلبية و يؤدون كل الواجبات . بينما عاش الثاني ( الأمير ) في عهدين سياسيين مختلفين ؛ أما الأول فيتمثل في عهد المتصرفية التي مثلت تطور سياسيا و إداريا في نمط الحكم العثماني في لبنان ، الذي عرف

---

(1) - ينظر زاوية قدورة ، المرجع السابق ، ص 309 و ما بعدها .



خلاله لبنان بعض الجوانب الإيجابية : كالأستقرار في الأوضاع السياسية ، و مشاركة أكثر لمكونات المجتمع اللبناني في إدارة شؤونهم المحلية ، وفق معايير طائفية لم تغفلها السلطات العثمانية ، فحتى و إن لعب دورا كبيرا في ترجيح كفة طوائف على حساب الأخرى ، فضلا عن التطور الذي حصل في أكثر من مجال ، مثلما سنوضحه في المباحث الموالية . أما سلبيات هذه المرحلة فتتمثل في : تزايد التدخل الأجنبي في لبنان ، مستفيدا من الامتيازات الاقتصادية و العسكرية و الدينية و التي كان السلاطين العثمانيون ، يمنحونها للدول الأوروبية فوق الأراضي اللبنانية ، و كان من نتائجها ؛ قيام تلك الدول بإثارة الفتن و الحروب الداخلية ، كما حدث بين الموارنة و الدروز على سبيل المثال .

أما العهد الثاني ؛ الذي بدأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، و انتقلت فيه إدارة لبنان من العثمانيين إلى الفرنسيين ، فقد كان احتلالا حقيقيا ، حتى و إن سمي انتدابا ، حكمت خلاله فرنسا البلاد بالقمع و التعسف و مصادرة الحريات ، رغم تظاهرها بتحقيق بعض الإصلاحات السياسية التي ظلت شكلية ، و لم تغير من واقع الأمر شيئا . تماما مثلما دأبت على فعله طيلة الفصل الأول :

---

احتلالها للجزائر ، حيث تفردت بإنشاء اللجان و تضخيم عدد أعضائها ، وإعمال الدعاية الكبيرة لها ، وبمنحها الأوقات الطويلة لتستكمل تحقيقاتها و تحرياتها، لينتهي بها الحال إلى تدوين تقارير طويلة تبرز فيها الأوراق و الحبر لا غير على حد وصف الشيخ البشير الإبراهيمي .

و عليه فإن الإبراهيمي و أرسلان ، يتقاطعان في كون كليهما عاشا في ظل استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسي ، و يمكن الاختلاف برأينا في الجانب السياسي هو أنه أوجد في الجزائر وضعاً شمل كل مكونات الشعب الجزائري ، حيث طال التعسف و القمع و الاضطهاد وإقصاء الجميع دون استثناء ، حتى أولئك الجزائريين الذين أظهروا تأييدا للاحتلال و حاولوا التقرب من إدارته بكل الطرق ، عساها أن تقبل التعامل معهم و تقتنع بأهمية الدور السياسي الذي يمكن أن يلعبوه لصالحها مع أقرانهم الجزائريين ، مع ما يوفره لهم ذلك من مصالح و امتيازات. والعلة في هذا النهج السياسي الفرنسي بسيطة ؛ وهي كون أن الجزائر كانت في نظر كل القادة الذين تعاقبوا على الحكم في فرنسا من سنة 1830م و إلى غاية 1962م ، مقاطعة فرنسية كانوا لا يملون من نعتهم ب : " فرنسا الجنوبية " ( La France Du Sud ) ، ينبغي أن تكون جزءا لا يتجزأ من " فرنسا الشمالية " ( La France Du nord ) التي تمثل " الوطن الأم

( Métropole ) ، مع اعتبار الجزائريين أهالي ( Des indigènes ) أي مواطنين من الدرجة الثانية لا يحق لهم بأي شكل من الأشكال ، التمتع ولو ببعض الحقوق التي يتمتع بها المواطنون الفرنسيون والأوروبيون ، لأن منحهم حقوقهم السياسية ، يعني من وجهة النظر الفرنسية الاستعمارية إسقاط مبررات ضم الجزائر إلى المجال الفرنسي ، والمتمثلة في جعلها لتكون متنفسا اقتصاديا واجتماعيا لفرنسا فقط .

أما في لبنان ، فقد اختلف الأمر في جوانب عدة ، من غير أن يعني ذلك أن الوضع فيه لم يكن احتلالا، ففي الوقت الذي تعاملت فيه فرنسا مع الجزائريين في ما يخص انتهاك حقوقهم المدنية والسياسية بعدل وإنصاف ، فإنها في المقابل كرست الطائفية في سياستها اللبنانية، حيث اجتهدت في منح الطوائف المسيحية حقوقها كاملة ، وشجعتها على تبوأ المناصب الإدارية والسياسية ، حتى جعلت منهم قوة سياسية كبيرة في البلاد . بينما أقصت و همشت الطوائف الإسلامية وخاصة السنية منها ، ربما على نحو شبيه بما حدث في الجزائر .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

ومن هنا فقد دفع هذا الوضع بالإبراهيمي و أرسلان، على حد سواء ، إلى العمل في الاتجاه الذي يجعلهما ينتقدان ويهاجمان السياسة الاستعمارية الفرنسية في بلديهما ، في المنابر الإعلامية والسياسية ، داخل الجزائر ولبنان وخارجهما ، الأمر الذي جعلهما في نظر الإدارة شخصين خطيرين يهددان مصالحها ، يستوجب الأمر وضع حد لنشاطهما بالمضايقة والنفي والسجن ، وبمحاولة تأليب الجميع ضدهما ، كما سنبرزه في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، حيث خصصنا مبحثا لمواقف فرنسا من الرجلين . أما المبحث الموالي ، فسنكرسه للحديث عن الوضع الاقتصادي في الجزائر لبنان في عصر الإبراهيمي و أرسلان .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

## المبحث الثاني : الوضع الاقتصادي في الجزائر ولبنان :

### 01- الوضع الاقتصادي في الجزائر :

لقد كانت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لها ، تتمتع باقتصاد زراعي تقليدي ، يتمشى و متطلبات المجتمع الجزائري آنذاك ، و لكن بعد الاحتلال تغير نمط الاقتصاد الجزائري ، فأصبح اقتصادا موجها من قبل السلطات الاستعمارية ، بغرض خدمة مصالح الاقتصاد الفرنسي ، و الذهاب بعيدا في استغلال الجزائر أرضا و شعبا .  
و لتحقيق هذه الأهداف ، شرعت الإدارة الاستعمارية ، مباشرة بعد الاحتلال ، في اغتصاب ملايين الهكتارات ، من أخصب الأراضي في الجزائر ، و نهب خيراتها و مواردها ، و احتكار جميع الأنشطة الاقتصادية فيها من زراعة و صناعة و تجارة <sup>(1)</sup> ، و تجميع كل ذلك في يد المعمرين ، المتعطين للاستعمار و الاستغلال .

(1) - ينظر مجلة حضارة الإسلام ، العدد 06 / ديسمبر 1965 م .

(\* ) - هو الجنرال " توماس روبير بوجو " ( THOMAS ROBERT BUGEAU ) ، دوق " إسلي " -

ISLY - ، ماريشال فرنسا و الحاكم العام للجزائر بين 1840م - 1847م .

و طبقا لهذه السياسة ، سخرت الحكومة الفرنسية كل الإمكانيات و الامتيازات و المغريات المادية و المعنوية ، و في هذا الصدد تحدث الجنرال " بوجو " ( Bugeaud ) ( \* ) ، في مجلس النواب سنة 1840م قائلا : (( إننا في حاجة إلى جحافل دهماء من المعمرين الفرنسيين و الأوروبيين و لكي تجلبوهم فمن اللازم عليكم الاستيلاء على أراضي خصبة لا يطير غرابها ، و حيث ما وجدتم مياه متدفقة ، و أراضي رعوية أنزلوا المعمرين بها و لا يهتمهم أمر أربابها ، يجب توزيع هذه الأراضي للأوروبيين حتى يصبحوا أصحابها و أربابها . و يصير أصحابها الأولون نسيا منسيا . و أخيرا يجب علينا أن نجعل نصب أعيننا هدفا متينا محكما ، و أن ننشأ إقليما فرنسيا و لذا فإننا في أمس الحاجة إلى غزو واسع يشبه غزوات القوط ( \*\* ) ، و إن لم نفعل هذا تكون نتيجتنا أوهن من نسيج العنكبوت " .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

إن هذا التصريح ، يوضح بدقة الأسس التي بنت عليها ، السلطات الفرنسية سياستها الاقتصادية في الجزائر ، في قطاع الزراعة الذي كان يمثل عصب الاقتصاد الجزائري ، قبل الاحتلال .

و في ذلك أيضا ، كتب " فاران " ( FARRAND ) ( <sup>1</sup> ) ، أحد أنصار فرنسة الجزائر قائلا : (( يجب أن نستولي شيئا فشيئا ، بدون هوادة و لا شفقة على جميع مراتعهم و مراعيهم ، و ننقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة ، فلا يجدون ما يسدون به رمقهم فيصبحون حينذاك بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يثوروا أو ينخرطوا في جيش فرنسا للدفاع عنها )) . هذا الكلام يؤكد أن السلطات الاستعمارية ، كانت ترمي إلى تفجير و تجويع الأهالي بكل الوسائل ، لأن النشاط الزراعي كان المهنة الرئيسية لأغلبهم .

( \*\* ) - القوط أو الغوط ( GOTHs ) : شعب من شعوب الجرمانية القديمة ، استقر خلال القرن الثالث الميلادي شمالي البحر الأسود ، ظلوا في صراع متواصل مع الإمبراطورية الرومانية . أقاموا في حوض الدانوب أثناء القرن 4 م و اعتنقوا الأريوسية . قاموا بالتراجع أمام زحف الهون سنة 375 م و انقسموا إلى فرعين : القوط الشرقيون الذين سيطروا على البلقان ، و اتحدوا مع روما ، و قاموا بغزو إيطاليا ، وانقرضت الدولة سنة 555م . أما القوط الغربيون ، فقد احتلوا روما سنة 410 م ، ثم أخرجوا منها ، و استقروا غربي فرنسا سنة 418 م ، و ثم قاموا بغزو إسبانيا سنة 476 م ، و بها أسسوا مملكة ظلت قائمة حتى الفتح العربي سنة 711 م . المنجد في اللغة و الاعلام ، ط 40 ، دار المشرق ، بيروت : د ت .

(<sup>1</sup>) - فرحات عباس ، المصدر السابق ، ص 74 .

فالزراعة إذن ، كانت أول قطاع اقتصادي تمت الهيمنة عليه ، و بما أن الأرض هي محوره فقد كان يتم يوميا الاستيلاء على أجودها ، و تسليمها للوافدين أصحابها الجدد ، بينما يطرد أصحابها الشرعيون إلى الجبال و المناطق الصحراوية ، مع العلم أن فلاحه الأرض كانت تعيل نسبة 70% من المجتمع الجزائري ، إلى غاية تلك الفترة . و قد بلغت المساحة الريفية المصادرة ، من سنة 1840م و إلى غاية 1950م : 2.703.000 هكتار ، لصالح 52 ألف مزارع أوروبي ، بينما كان بحوزة 532 ألف مزارع جزائري 2.672.000 هكتار<sup>(1)</sup> ، 75% منها غير صالحة للزراعة و الرعي <sup>(2)</sup> .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

و قد استمرت عمليات المصادرة ، ليصبح ما يقارب 93% تقريبا من الأراضي الساحلية ، التي تتميز بخصوبة عالية في يد المعمرين ، كما كان متوسط ما يملكه المستوطن الأوروبي 108 هكتار مقابل 14 هكتار للجزائري ، و هذا إلى غاية الاستقلال <sup>(3)</sup> . إن المساحات الشاسعة المستولى عليها من قبل المعمرين ، حولت خصوصا لزراعة الكروم ، إذ وصلت مساحتها سنة 1935م إلى أربعمئة ألف هكتار من جملة المساحة المصادرة ، بعد أن كانت قد بلغت 226 ألف هكتار سنة 1926 م . أما إنتاجها من الخمر ، فقد قدر بـ : 193.000.000 هكتار لسنة 1954 م ، و قد كان إنتاج الكروم يمثل 75% من إجمالي المنتج الفلاحي الجزائري ، و قد وفر لفرنسا سنة 1953م مبلغ 55 مليار ف.ف. قديم . أما أملاك الاستيطان الريفية ، فكانت تدر دخلا سنويا صافيا ، قدره 93 مليار ف.ف. قديم ، على الاقتصاد الفرنسي <sup>(4)</sup> . و لاشك أن الأهمية الكبيرة للكروم في اقتصاد الجزائر ،

(1) - رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية 1931م - 1956 م ، ط2 ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1981م . نقلا عن كوليت و فرانسيس جونسون : الجزائر الثائرة ، ترجمة علوي الشريف و آخرون ، وزارة الإرشاد المصرية : 1957م ، ص ص 132 - 133 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 87 .

(3) - حسن عبد الرحمان سلوادي : عبد الحميد بن باديس مفسرا ، م و ك ، الجزائر : 1988م ، ص 18 .

(4) - شارل روبيير أجيرون : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ط 2 ، دم ج ، الجزائر : 1986 م ، ص 126 .

هي التي جعلت المؤرخ الفرنسي " شارل روبير أجيرون " ( CHARLES ROBERT ) ( AGERON ) (1) يصفه بـ : (( اقتصاد الكرمة )) .

أما المساعدات التي كانت تقدم للمزارعين ، فقد كان يستأثر بها المعمرون لوحدهم ، فعلى سبيل المثال ، كانت قروض الصندوق الجزائري للزراعة ، توزع بنسبة 99% عليهم (2) .

و في المقابل من ذلك ، كان الفلاح الجزائري الذي يفلح عادة ، أرضا قليلة المساحة و الخصوبة بطرق بدائية ، عاجزا عن توفير متطلبات أسرته ، و غير حر في التصرف في منتوجاته ، لأنه كان رهينة للشركات الاحتكارية ، التي كانت تشتريها منه بأثمان زهيدة جدا ، و تعيد بيعها محققة أرباحا خيالية .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

أما تربية المواشي ، فقد كانت تعاني هي الأخرى ، من مشاكل عديدة كضيق الأراضي الرعوية التي استولى عليها المعمرون ، و لم يترك لهم سوى الأراضي الجبلية الجذباء ، و نقص المياه المخصصة لسقي المواشي خاصة في مواسم الجفاف ، و هو ما أدى إلى تراجع النشاط الرعوي بشكل كبير ، بسبب نزوح الفلاحين إلى المدن الكبرى ، بحثا عن العمل و ظروف معيشية أفضل (3) .

و منه فإن سلطات الاحتلال ، بمصادرتها للأراضي الزراعية و الرعوية ، التي كانت في حوزة الأهالي ، و التي تمثل محور نشاطاتهم اليومية ، و توجيهها للإنتاج الزراعي الجزائري ، خدمة للمصالح الاستعمارية ، و متطلبات الاقتصاد الفرنسي ، تكون بذلك قد أحدثت تغييرا كبيرا في بنية الاقتصاد الجزائري ، هذا من ناحية ، و دفعت بالسواد الأعظم من السكان إلى البطالة و الفقر ، من ناحية ثانية ، كما سنوضحه في مبحث آخر من هذا الفصل .

(1) - المرجع نفسه ، ص 95 .

(2) - الفضيل الورثياني ، مصدر سابق ، ص 40 .

(3) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، مرجع سابق ، ص 40 .

أما فيما يخص قطاع الصناعة : فقد حاول الفرنسيون إقامة صناعة في الجزائر ، و لكن هذه الصناعة ظلت محدودة و خفيفة ، لا تزيد عن المناجم و السكك الحديدية ، و بعض الصناعات الخفيفة كالمحاجر ، و الهدف من ذلك هو محاولة إبقاء الجزائر متخلفة صناعيا خوفا من فقدان المعمرين لليد العاملة الرخيصة ، و لاعتقاد الفرنسيين أن تطوير الصناعة في الجزائر ، سيزرتب عنه إخراج الأهالي من الفقر و الجهل و التخلف (1) . و هو مالا يتوافق مع الأهداف الاستعمارية عامة ، و أطماع المعمرين خاصة ، الذين وصفهم إحدى الصحف الفرنسية المحافظة بـ : (( الكولون الأغنياء طغاة الجزائر )) (2) . و هو وصف يعكس حقيقة المكانة الاقتصادية ، التي أصبح المعمرون يتمتعون بها في الجزائر ، على حساب سكان البلد الأصليين . في حين كانت الجزائر ، تزخر بالصناعات التقليدية ، التي تتمركز في كل أنحاء البلاد ، و تتميز بالتنوع و الجودة ، و الإقبال الكبير عليها من طرف الأهالي ، لكنها عرفت

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

تراجعا تدريجيا ، و أصبح و جودها ينحصر في بعض المدن القديمة و التاريخية ، كقسنطينة و تلمسان و بجاية و غيرها (3) . أما نظام الضرائب ، فأقل ما يقال عنه أنه لم يكن عادلا ، فقد بلغت القسوة بمستخلصي الضرائب الفرنسيين ، أنهم كانوا : (( يأخذون قهرا من الرجل البرنس الذي يكتسي به )) (4) . و في الوقت الذي كان فيه المعمرون ، يدفعون ضرائب محدودة ، كان الجزائريون يدفعون أنواعا مختلفة من الضرائب : كالزكاة و العشور ، إضافة إلى الحراسة الليلية للغابات ، و أعمال السخرة المختلفة (5) .

(1) - عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق ، ص 50.

(2) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ج 2، ص 352. نقلا عن مجلة " إفريقيا الشمالية " ، جوان 1922 ، ص ص 269 - 270 .

(3) - عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق ، ص 50 .

(4) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 40 .

(5) - المرجع نفسه ، ص ص 89 - 90 .

لقد أدت هذه السياسة الضرائبية ، إلى الزيادة في معاناة الأهالي ، بسبب كثرتها و ارتفاع مبالغها ، مما كان يجبرهم في كثير من الأوقات ، على بيع ما تبقى لهم من أراضي و مواشي ، من أجل تسديدها . و خلال الحربين العالميتين ، عملت فرنسا على تكثيف استغلالها للجزائريين خدمة لأغراض الحرب ، فأتت الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال ، تم إفراغ مخازن الغذاء بكل ما تحتويه من كميات ، بحجة تموين فرنسا " أم الوطن " فاننتشرت المضاربات و السوق السوداء في تجارة الموارد الغذائية . و زاد في تأزم الأوضاع أكثر الجفاف ، حتى أصبح الناس يتناولون الأعشاب ، و يشربون مياه الآبار العفنة ، مما أدى إلى انتشار الأوبئة و الأمراض الفتاكة ، التي كادت أن تأتي على سكان البلاد بأكملهم (1) .

إن هذه السياسة الاقتصادية المتحيزة لصالح المستوطنين ، قد نجم عنها نتائج وخيمة على الأهالي المسلمين ، ومنها انتشار ظاهرة البطالة بقوة ، فقد وصل عدد العاطلين سنة 1954م ، من جملة سكان الأرياف فقط مليون عاطل (2) ، بعد أن كان هؤلاء من قبل ملاكاً زراعيين . أو عمالاً أو تجاراً يعيشون في ظروف أحسن . أم الذين كان لهم حظ العمل ، فكان يوم واحد من الشغل مثلاً خلال الفترة الواقعة ما بين 1930م - 1940م ، لا يكاد يكفي لشراء قوت يوم واحد ، مع العلم أن تجارة الأهالي قد انخفضت بشكل كبير ، وأصبحت بالكساد ، حتى الفصل الأول :

---

أصبح القنطار الواحد من الحلفاء ، يباع بمبلغ لا يزيد عن ثمانية فرنكات قديمة في أحسن الظروف ، في حين كان سعر خبزة واحدة تزن 600 غرام ، يتراوح ما بين خمسة وتسعة فرنكات قديمة . وفي سنة 1953م ، كان لشراء كبش يجب بيعه من عشرين إلى ثلاثين قنطاراً من الحلفاء (3) .

ومن هنا يتضح لنا ؛ الاختلال الكبير الذي أحدثه الاحتلال الفرنسي في الاقتصاد الجزائري التقليدي ، خلفاً وضعاً اقتصادياً قاسياً ، حيث انقسمت الجزائر إلى مجتمعين : الأول قليل العدد كثير السطوة متعطش للاستثمار والاستغلال ، تحركه في ذلك غرائز حيوانية

---

(1) - المرجع نفسه ، ص 184.

(2) - شارل روبيير أجيرون ، المرجع السابق ، ص 132 .

(3) - الجيلالي صاري ، محفوظ قداش : المقاومة السياسية 1900م - 1954م ، ( الطريق الإصلاحية والثوري ) ، د ط ، م و ك ، الجزائر : د ت ، ص 165.



متأججة. أما المجتمع الثاني الذي يفوق الأول أضعافا مضاعفة ، فإنه كان يعمل فقط ، ويعاني من الفقر والجوع والمرض ، والجهل القاتل والإقصاء والتهميش من قبل سلطات الاحتلال . وهو ما سنتطرق إليه بصورة مفصلة ، في المبحث الموالي الذي سنكرسه للوضع الاجتماعي للجزائر ولبنان في عصر كل من الشيخ البشير الإبراهيمي الأمير شكيب أرسلان .

وعلاوة على كل ذلك ، لم تترد فرنسا في الاستجداد بالجزائريين بعد نهاية الحربين العالميتين الأولى والثانية ، لإعادة بناء نفسها بعد أن أصابها الخراب والدمار ، ولإرجاع الصحة والتوازن للاقتصاد الفرنسي المنهار ، وخاصة في سنتي 1946م و 1947م ، حيث أضحى المهاجرون الجزائريون ، يمثلون نسبة ( 10% ) من إجمالي اليد العاملة المستوردة ( 750 ألف عامل حسب لجنة التشغيل التابعة للمحافظة العامة للتخطيط الفرنسيين ) (1) .

وقد زاد هذا النهج الاقتصادي ، من اتساع الشقة بين المجموعة الأوروبية والمجموعة الجزائرية ، وغذى الروح الوطنية لدى الأهالي المسلمين ، وقد انتبه إلى خطر هذه السياسة الكثير من الكتاب والمفكرين الفرنسيين ، فحذروا فرنسا من التماذي في ذلك النهج ، خوفا من انهيار الإمبراطورية الفرنسية في شمال إفريقيا ، ولكن تصلب المعمرين في موقفهم إزاء المسلمين الجزائريين وإيقائهم مستعبدين حال دون ذلك .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

وقد كان الإبراهيمي ، واحدا من ملايين الجزائريين ، الذين عانوا من تداعيات ذلك ، فعاشوا تلك الأوضاع المزرية ، حتى أنه اضطر إلى بيع الشحم في الأسواق الشعبية ، لإعالة أسرته بعد وفاة والده ، بالرغم من أن أسرته كانت معروفة بنشاطاتها التجارية ، وهو ما يعني يسر حالها (2) .

(1) - الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 382 .

(2) - بشير فايد ، المرجع السابق ، ص 15 .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

---

## 02 - الوضع الاقتصادي في لبنان :

كان الإقطاع هو النظام السائد في لبنان ، خلال العهد العثماني الذي امتد كما هو معلوم إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث سيطرت مجموعة من الأفراد على أغلب الأملاك الزراعية ، عن طريق النفوذ العشائري ، أو الهبة التي كانت تمنحها الدولة ، لمن كان يقدمها لها خدمة ، أو بغرض استرضائهم و شراء تأييدهم لها . فقد وهبت على سبيل المثال " لمصطفى باشا التركماني " أحد كبار الأعيان في لبنان ، مساحات واسعة من الأرض ، موزعة على نحو مائة قرية فلاحية ، في المنطقة الممتدة على محور حمص حماه ، مكافئة له على إخضاعه لبدو بادية الشام ، و منع اعتداءاتهم على القرى المجاورة ، و على قطعان الماشية .

و كان الإقطاعي ، يوكل شخصا ينوبه في الإشراف على المزارع و المزارعين ، فيعاملهم معاملة الأبقان أو العبيد ، فالمقابل الذي كان يأخذه الفلاح ثمنا لعمله ، يخضع لاقتطاعات عديدة بأسماء مختلفة : أجور الشوباحي ( أي مرافق الإقطاع ) ، و الوقاف ( أي ثمن القهوة و ذبائح ) ... إلخ ، فلا يبقى في النهاية للفلاح ما يسد به رمقه (1) .

فالأسر الإقطاعية ( المقطعية ) ، كانت هي صاحبة النفوذ المحلي ، لها أملاك شاسعة ، جعلتها تبدو مثل الأسر الإقطاعية في المعنى الأوروبي للفظه . أما الأمراء و المقدمون و المشايخ ( المقطعية ) ، فكانوا يتولون مسؤولية جباية الأموال المنوطة بالأمير ، في المناطق المختلفة بلبنان (2) .

و تجدر الإشارة إلى أن لبنان ، قد عرف خلال العهد العثماني محاولات للنهوض بقطاع الزراعة ، باستيراد المواشي لتحسين الأصناف المحلية ، و استقدام خبراء زراعيين و مهندسين مدنيين متخصصين في مجال الري من إيطاليا ، بهدف توجيه الفلاح اللبناني في تحسين وسائل و طرق الزراعة . و قد حققت هذه السياسة عدة إنجازات ، مثل زراعة شجرة التوت لتربية دودة الحرير ، التي توسعت فشملت كافة الجبال الساحلية ، و استقطبت عددا لا

الفصل الأول :

الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

بأس به من الفلاحين ، و ساهمت في تنمية صناعة الحرير ، التي كانت تغطي أكثر من مليون و ستمائة فرنكا ذهبيا لمنطقتي طرابلس و صيدا . أما معامل الحرير فقد بلغ عددها أربعمائة معمل ، منها 75 معملا كبيرا يعمل بها ما بين 10 و 12 ألف عامل سنة 1899 م (3) .

لقد بدأ لبنان منذ القرن 19 م ، يصدر خاماته الزراعية للصناعة الأوروبية ، بعد أن كان فيما سبق الفلاحون اللبنانيون ، ينتجون من أجل مسؤوليهم الإقطاعيين و لاستهلاكهم الشخصي . أما المصدرة فتمثلت في الحرير و القطن و التبغ و الفواكه و الصوف و القمح ... و غيرها ،

(1) - ملحم قربان : تاريخ لبنان السياسي الحديث ( الاستقلال السياسي ) ، ج 1 ، د ط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت : 1981م ، ص 66 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 66 . نقلا عن كمال سليمان الصليبي : " العثمانيون انتقوا الشهابيين ليتسلموا التزام كسروان و المناطق اللبنانية الدرزية " ، جريدة النهار ، عدد 28 مارس 1975 م ، ص 10 .

(3) - ملحم قربان ، المرجع سابق ، ص 67 . نقلا عن جبرائيل منس : الاقتصاد اللبناني ، محاضرات في الأكاديمية اللبنانية سنة 1953م ، ص 7 .

مثمًا كان عليه الحال في الأقاليم الشامية الأخرى . و لذلك فقد ازدادت صادرات الدولة العثمانية من المواد الزراعية و الغذائية نحو فرنسا، من 12,6 مليون ف ف في أوائل القرن التاسع عشر (ق 19م) ، إلى مائة مليون و نيف بعد عام 1856م ، لا يقل عن 20% منها كان مصدرها الشام (1) .

و في الغالب ، لم يكن الفلاح المنتج للخامات الزراعية المعدة للتصدير ، يقوم بتسويقها بنفسه ، بل كان يعطيها للإقطاعيين أو للدولة في شكل ضرائب عينية ، لكنه في مرحلة متأخرة أخذ شيئًا فشيئًا يبيعها بنفسه ، بعد اتساع التداول النقدي هذا على المستوى الخارجي ، أما داخليا فقد كان تبادل السلع محدودا ، لأن الفلاحين كانوا يلبون كل احتياجاتهم بفضل إنتاجهم الخاص ، و كانوا في نفس الوقت فلاحين و نجارين و حائكين . لكن الأمر اختلف بالنسبة للفلاحين ، الذين انخرطوا في عملية الإنتاج لصالح التصدير ، خاصة مربى دودة القز ، و مزارعي التبغ و القطن ، و أصحاب بساتين الفواكه ، إذ أصبحوا يبيعون منتوجاتهم في السوق ، و يشترون في مقابلها جزءا كبيرا من المواد الاستهلاكية ، بما فيها الخبز (2) .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

و قد ساعد الإنتاج المتزايد ، على تنشيط التجارة الخارجية ، التي تحولت مع مرور الزمن إلى مورد آخر من الموارد الوطنية ، و كانت سفن تجار فلورنسا ( ايطاليا ) هي التي تؤمن الأسواق الخارجية ، و صفقات بيع منتوجات لبنان من الصابون و زيت الزيتون و الحرير و القمح ، و غيرها من أنواع الحبوب (3) . أما التجار الفرنسيين فقد كانوا يلاقون الترحاب

---

(1) - فلاديمير لوتسكي : الحرب الوطنية التحريرية في سوريا 1925م - 1927م ( صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الإمبريالية الفرنسية ) ، تعريب محمد زياب ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، دار الغرابي ، بيروت : 1987م ، ص 36 . نقلا عن :

N.VERNEY et G. DAMBMAN : les puissances étrangères dans le levant , en syrie et en palestine , PARIS , 1900 , P 550 .

(2) - فلاديمير لوتسكي، المرجع نفسه ، ص 37 . نقلا عن أ. روبين : سوريا المعاصرة و فلسطين ، بطرسبرج : 1919م ، ص 230 .

(3) - ملحم قربان ، المرجع السابق ، ص 67 . نقلا عن جبرائيل منس : الاقتصاد اللبناني ، محاضرات في الأكاديمية اللبنانية سنة 1953 م ، ص 7 .

و المعاملة التفضيلية ، حيث بني لهم على سبيل المثال ، نزل في مدينة " صيدا " . بنمط  
عمراني رائع و تحصينات كبيرة ، أدهشت الملوك الأوروبيين (1) .

ومن الواضح هناك أن النظام الإقطاعي ، الذي ظل متبعاً في لبنان أثناء فترة الحكم  
العثماني للبنان ، رغم أنه كان استغلالياً للمجتمع اللبناني ، الذي يمثل فيه الفلاحون النسبة الغالبة  
من اليد العاملة ، التي تكاد تحصل على ما يسد حاجتها من الغذاء ، إلا أنه في المقابل  
سمح بإيجاد فائض في الإنتاج الزراعي والغذائي بكميات متزايدة ، كانت توجه للتصدير خاصة  
للدول الأوروبية الرأسمالية الصناعية ، الأمر الذي ساهم في تنويع مداخيل البلاد من الأموال ،  
التي كانت تساعد على تنمية الموارد الداخلية ، والرفع من المستوى المعيشي للسكان .

وفي هذا الصدد أيضاً ، اشتهرت ولاية طرابلس بتجارة الحرير ، وبتصدير القطن ،  
وبكثرة الأجانب غير المسلمين بها وخاصة الفرنسيين والإنجليز ، الذين كانوا في أغلبهم  
يحترفون التجارة ، ويمتلكون مراكز تجارية فيها . كما أقيمت في هذه الولاية مؤسسات دينية  
 واجتماعية واقتصادية مختلفة ، مما جعلها تشهد ازدهاراً عظيماً ابن العهد العثماني (2) .

وبهدف إصلاح الاقتصاد اللبناني ، الذي كان يعاني من سيطرة الاحتكار وتنوع وارتفاع  
الضرائب ، وكثرة الفساد والرشوة ، بادرت الدولة العثمانية إلى إطلاق سياسة الإصلاحات منذ  
القرن الثامن عشر ، ليس في لبنان فحسب بل في كامل الإمبراطورية ، اثر الوعي الذي أخذ  
ينخر كيانها بعمق اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، وقد تفاعل المجتمع اللبناني مع حركة  
الإصلاح تلك .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

استهدف الإصلاح الجانب المالي بشكل خاص ، حيث ركز على تثبيت قاعدة الضرائب  
وأصول جبايتها ، لكن اللبنانيين شأنهم كشأن معظم شعوب السلطنة العثمانية ، لم يستفيدوا من  
ثمرات هذا الإصلاح ، بسبب استفحال عادات الفساد والرشوة وشراء الحظوة في أوساط  
المسؤولين والموظفين العثمانيين على مختلف مستوياتهم . ولكون هذا الإصلاح فرض ضرائب

---

(1) - المرجع نفسه ، ص 67. نقلاً عن سعيد عقل : " أربع حقبات صنعت استقلال لبنان " ، جريدة النهار ،  
22 جانفي 1974 م .

(2) - فاضل بيات ، مرجع سابق ، ص 206 .

جديدة ، إلى جانب الضرائب التقليدية ، فضايف بذلك من الخسائر الاقتصادية ، وفاقم من المشكلة الاقتصادية والاجتماعية على الساحة اللبنانية (1) .

ولما انتقل حكم لبنان من السلطة العثمانية ، إلى الاحتلال الفرنسي بداية من سنة 1918م كما هو معلوم ، الذي انتهج سياسة اقتصادية تخدم المصلح الاقتصادية الرأسمالية الفرنسية . ففي الميدان الزراعي ، سعت فرنسا إلى الإبقاء على ملكية الأرض الإقطاعية ، وتعزيزها وتوسيعها ، وإلى تأمين الأراضي للاستعمار الزراعي الفرنسي ، بتدمير الملكية الفلاحية تدريجياً وبالدرجة الأولى الأراضي المشاعة . ولم يحتفظ الإقطاعيون في ظل الاحتلال الفرنسي بأراضيهم وثوراتهم فحسب ، بل بفرقهم المسلحة وحق محاكمة الفلاحين ، وغير ذلك من الامتيازات ، التي جعلتهم يمثلون سلطة محلية ، كانت بمثابة جهاز مساعد للسلطات الاستعمارية . كل ذلك انعكس سلباً على الإنتاج الزراعي ، فتدهورت تربية دود القز ، وتراجع محصول القمح والشعير والقطن والكروم .

وقد قاوم الفلاحون اللبنانيون بشدة السياسة الزراعية الفرنسية في بلدهم ، بالقيام بانتفاضات وثورات شعبية ، مثل انتفاضة حوران 1920م ، التي دفعت سلطات الاحتلال ، إلى إطلاق " قانون الإصلاح الزراعي " ، لامتصاص غضب الفلاحين ، والذي لم يمس سوى نسبة ضئيلة جداً من الأراضي الزراعية في البلاد ، فظلت الملكيات الكبيرة هي المسيطرة ، مع ما تتسم به من طرق استغلال إقطاعية سبق وأن تحدثنا عنها في بداية هذا المبحث .

وكان من نتائج هذه السياسة الزراعية ، إضافة إلى تدهور الإنتاج الذي تطرقنا إليه ، الإفقار المتزايد للفلاح اللبناني ، ودخول البلاد في أزمة زراعية ، أدت إلى انخفاض الإنتاج

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

الموجه إلى التصدير ، كما كان عليه الحال في العهد العثماني ، بل وصل الأمر إلى أن أصبحت السلع الأوروبية تتدفق بصورة متزايدة ، أمام العجز في الإنتاج المحلي (2) .

(1) - بنظر مجموعة من الباحثين : الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية ، ط 1 ، الفنار ، لبنان : 2001م ، ص 7 وما بعدها .

(2) - ينظر فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 101 وما بعدها .

أما في قطاع الصناعة ، فينبغي التذكير بأن الرأسمال الأجنبي ، لم يعمل على خلق الصناعة المحلية فحسب ، بل سعى للقضاء عليها . كما أن التدابير التي اتخذت ، أدت إلى فقدان الصناعة الوطنية اللبنانية لأسواقها التقليدية العربية والعثمانية ، وتردي أوضاعها على نحو خطير ، وإفلاس آلاف الحرفيين ، وغلق الكثير من معامل الحرف الصغيرة وحتى الكبيرة نسبيا .

وزاد من تفاقم الوضع إقدام الاحتلال ، على تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة ، فرضت الرسوم الجمركية على انتقال السلع فيما بينها ، لأن لكل دويلة منها وضعت لها شروط الحياة الاقتصادية بها ، من ضرائب وقوانين زراعية وتجارية وما شابه ذلك ، كل ذلك أدى إلى تدمير السوق الداخلية ، فكان قطاع الصناعة المتضرر الأكبر من ذلك <sup>(1)</sup> .

أما في المجال المالي ، فقد فرضت العملة السورية الجديدة المتمثلة في النقود الورقية ، التي ترتب عنها آثار وخيمة على مستوى السوق ونظام القروض ، ومدا خيل الحرفيين وأجور العمال ، وحياة جميع الفئات السكانية عدا المضاربين الماليين ، مما خلف سخطا كبيرا لدى الجميع .

أما في ميدان الضريبة ، فقد تم الإبقاء على نظام الضرائب العثماني ، مع استبدال الضرائب العينية بالضرائب النقدية ، وظل هذا النظام قائما طيلة الاحتلال ، مع بعض التعديلات البسيطة التي أدخلت عليه ، بهدف زيادة عائدات الخزينة . ولم يؤدي ذلك إلى أي تحسين في وضع الفلاحين ، لأن المبالغ التي كان يستخلصها جباة الضرائب الحكوميون ، لم تكن أقل مما كان يحصل عليه الفلاحون من مداخيل . و زيادة على الضرائب العثمانية القديمة ، أبقّت الإدارة الاستعمارية على بعض الضرائب الاستثنائية التي كانت قد فرضتها أثناء الحرب ، كما أقرت على نحو متواصل عددا لا يحصى من الغرامات و التعويضات . و سيطر رجال المال الفرنسيون ، على البنك العثماني و بنك سوريا ، و وضعوا أيديهم على الشركات الكبرى ، مثل الفصل الأول :

---

شركة التبغ و ميناء بيروت ، و محطات الطاقة الكهربائية و النقل البحري و البري و الهاتف ، بدعم من أكبر بنوك فرنسا و هي : " بنك باريس و البلاد المنخفضة " ( Banque de Paris et

---

(1) - ينظر المرجع نفسه ، ص . 110 وما بعدها .

Société Foncière ) " ، بنك القرض الزراعي الجزائري التونسي " ( des Pays Bas  
D'Algérie et Tunisie ) ، الذي فتح فروعاً له في لبنان و سوريا ، و بنك " الشركة العامة  
الفرنسية ) " ( Société Générale ) ، و " الشركة الجزائرية " ( Compagnie  
Algérienne ) التي فتحت أيضاً عدداً من الفروع في البلاد . و كان هدف جميعها ، تحقيق  
أقصى ما يمكن من الأرباح ، و نهب ثروات لبنان و المنطقة (1) .

وعلى ضوء ما جاء في المبحث ؛ نستخلص أن الأوضاع الاقتصادية في البلدين كانت  
متشابهة إلى حد ما ؛ فبغض النظر عن المرحلة العثمانية التي كان فيها الاقتصاد اللبناني يلبي  
الاحتياجات الأساسية للسكان من المواد الغذائية والزراعية ، وتعدى ذلك إلى أن أصبح يوفر  
للبلد فائضاً إنتاجياً هاماً يتم توجيهه نحو التصدير حتى إلى الدول الأوروبية ، رغم النظام  
الإقطاعي المنتهج ، الذي كان يقترب في خصائصه إلى إقطاع العصور الوسطى الذي ودعته  
أوروبا خلال عصر النهضة . فإن الذي حدث خلال الاحتلال الفرنسي ، يمكن وصفه بالانقلاب  
الاقتصادي الهائل في الجزائر ، وبتحالف الرأسمالية مع الإقطاع في لبنان ، فإذا كان النمطان  
مختلفان ، فإن النتيجة واحدة وهي ، الإمعان في استغلال الجزائر ولبنان أرضاً وشعباً .

فلقد هيمنت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، هيمنة تامة على الحياة  
الاقتصادية ، و غيرت كل شيء في الاقتصاد الجزائري ، بدءاً بالاستيلاء على الأراضي  
الزراعية والرعيوية الخصبة في السهول الساحلية والهضاب والمناطق الداخلية ، ومنابع المياه  
والغابات والمناجم والمحاجر ، وبجلب التقنيات الفلاحية الجديدة التي لم يعهدها الفلاح الجزائري  
؛ المتمثلة في : الآلات والأسمدة والمبيدات الحشرية وأنظمة السقي وبناء السدود  
والمخازن... الخ ، وبفرض اقتصاد السوق الذي سبب الإفلاس للمجتمع الفلاحي الجزائري لجهله  
التام به . وتوجيه كل ذلك لصالح مجتمع المعمرين ، الذي كان يتقوى بالمساعدات السخية التي  
كانت تغدقها عليه السلطات ، فتحول إلى دولة داخل دولة على حد وصف البعض له . وهم  
الفصل الأول :

---

(1) - ينظر فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 94 وما بعدها .



الذين تجردوا من كل القيم والأخلاقية والإنسانية من أجل الأموال وجني الأرباح ، بغض النظر عن الطرق المؤدية إلى ذلك. وقد أبلغ " فرحات عباس " حين قال<sup>(1)</sup> : بأنه لا ذمة ولا ضمير لهم ، وبأن انتشارهم في البلاد كان بمثابة البلاء المستطير . وتحولوا مع تعاقب الوقت إلى آلة تنبت كل شيء ذا قيمة لدى الأهالي ، وإلى مشكلة حقيقية ليس للجزائريين فحسب بل لفرنسا ذاتها ، حيث بلغ بهم الأمر حد القيام بمحاولات للاستقلال عنها خلال الثورة التحريرية الكبرى . وهو ما يفسر دفاعهم العنيف عن فكرة الجزائر فرنسية ، ورفضهم المطلق لأي تفاهم مع الجزائريين ، أو مجرد طرح فكرة إعادة النظر في الوضع الفرنسي في الجزائر ، فإن دل ذلك على شيء إنما يدل على الحياة المريحة والممتازة التي كانوا يحيونها ، على حساب سكان البلاد المحليين الذين كانوا يكدحون دون أن ينالوا شيئاً .

والأمر ذاته حدث في لبنان مع اختلاف في الشكل لا في المضمون ، إذ انتهى الأمر إلى سياسة اقتصادية يمكن القول عنها أنها فريدة في نوعها ؛ وهي تحالف الرأسمالية الفرنسية مع الإقطاع المحلي اللبناني ، فلم تحدث هذه الظاهرة في أي مكان من العالم في حدود علمنا ، لأن الرأسمالية والإقطاع لا يمكن لهما أن يسودا من الناحية العلمية في مكان واحد ، لكن ذلك تحقق في لبنان وبنجاح لصالح المستعمر الخارجي ( الانتداب ) والمستعمر المحلي ( رجال الإقطاع ) على حساب اللبنانيين الذين تضرروا كثيرا من هذه السياسة المنتهجة ، ومن التدابير التي اتخذت على مستوى مختلف القطاعات الاقتصادية وخاصة قطاع الزراعة . فحتى وإن كان الوضع سيئاً أثناء الحقبة العثمانية ، إلا أنه ساء أكثر لما تولى الفرنسيون زمام الأمور في البلد ، الذي تعرض حسب المؤرخين إلى عمليات نهب واستغلال لم يشهد مثيلاً لها حتى أيام الأتراك. وهو ما يبرر كون أن الفرنسيين ؛ أبقوا على كل الأنظمة العثمانية القديمة في كل ما هو اقتصادي ، وأدخلوا عليها بعض الإضافات ، حتى تستجيب لأهدافهم التي تأتي على رأسها تنمية الاقتصاد الفرنسي وازدهاره .

وإذا كانت فرنسا ، قد أولت عناية كبيرة لقطاع الزراعة في الجزائر ولبنان ؛ فإنها في المقابل قد سعت منذ البداية إلى تحطيم البنية الصناعية الموجودة ، رغم أنها لم تكن ترقى إلى المستوى المطلوب آنذاك ، لمنع قيام أي نهضة صناعية بالبلدين ؛ يمكن لها أن تتنافس أو تهدد

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

---

(1) - فرحات عباس ، المرجع السابق ، ص 95.

الصناعة الفرنسية ، لأن المطلوب فقط هو الحصول على الخامات الزراعية والمنجمية وتوجيهها إلى الصناعة الفرنسية في " الوطن الأم " ، التي كانت متعثرة بفعل شح مصادر تموينها بتلك المواد والخامات . فلا غرابة أن نجد أن هذا القطاع في غاية البدائية والتخلف ، عشية استقلال البلدين .

وفاقت سياستها في المجالين الضريبي والمالي من الوضع ، فالضرائب كانت تنمو باطراد نوعا وكما ، وقضت على كل ما يملكه السكان في الجزائر ولبنان وخاصة في المناطق الريفية ، مع فارق في كون أنها شملت كل الفئات الاجتماعية في الجزائر ، في حين أنها استهدفت في لبنان بصورة محددة المسلمين الشيعة وسنة ، واستثنت المسيحيين وعلى رأسهم الموارنة ؛ الذين لم يتضرروا من ذلك ، لأن إدارة الانتداب عملت على جعلهم وسيطا اقتصاديا بينها وبين المجتمع المحلي ، وهو ما نجحت فيه . أما المؤسسات المالية التي أنشأتها ، فكانت بغيتها تقديم القروض للمعمرين في الجزائر ، والإقطاعيين المسيحيين والرأسماليين الفرنسيين في لبنان ، وتسهيل حركة تصدير السلع والبضائع إلى فرنسا وأوروبا .

ومن الطبيعي ؛ أن تترب نتائج وخيمة لهذا الوضع الاقتصادي على الحياة الاجتماعية للمجتمعين الجزائري واللبناني ، وهو ما سنقف عليه في المبحث الآتي بعنوان : الوضع الاجتماعي للجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان.

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

---

## المبحث الثالث : الوضع الاجتماعي في الجزائر ولبنان :

### 01- الوضع الاجتماعي في الجزائر :

كان سكان الجزائر في أواخر العهد العثماني ، ينقسمون إلى طبقات و مجموعات طائفية ، تتميز عن بعضها البعض بنمط المعيشة و أسلوب الحياة ، و تباين مصادر الرزق ، و طبيعة علاقاتها مع الحكام . فسكان المدن كانوا يتكونون من عدة مجموعات طائفية و مهنية<sup>(1)</sup> ، تأتي الأقلية التركية ، التي تتشكل في أغليبتها من الجنود الأتراك " الإنكشارية " في المرتبة الأولى ، من حيث المكانة الاجتماعية ، رغم عدد أفرادها الذين لا يتجاوزون العشرة آلاف فرد ( 10.000 ) . و إضافة إلى العمل في الجيش ، كانوا يمارسون الوظائف الإدارية ، أو التجارة بفتح دكاكين القماش و المجوهرات و المواد الكمالية ، أو الإشراف على بساتينهم التي كانوا يملكونها في ضواحي المدن . ثم تأتي طبقة " الكراغلة " ، التي تكونت عن طريق تزواج الجنود الأتراك بنساء جزائريات ، قدر عددهم في أوائل القرن التاسع عشر ( ق 19 م ) بعشرين ألف نسمة ( 20.000 ن ) ، احتلوا المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي ، بفضل علاقاتهم الخاصة بالأهالي ، و لاشتغالهم بالزراعة و التجارة و المهن الحرة و حتى في الوظائف الإدارية من ناحية ، و بالسلطات العثمانية من ناحية أخرى .

ثم طبقة " الحضر " ( البلدية ) التي يقطن أفرادها بالمدن ، و هم من أصول أندلسية و شريفية ، يزاولون التجارة و التعليم و القضاء و ركوب البحر ، و كان منهم الكثير من الفقهاء و العلماء<sup>(2)</sup> .

أما فيما يخص المراتب الدنيا ، فكانت توجد مجموعات " البرانية " ، التي هاجرت إلى المدن الكبرى من مختلف أنحاء الوطن ، بحثا عن العمل و حياة اجتماعية أفضل . و منهم " الميزابيون " ( منطقة ميزاب ) ، و " البساكرة " ( بسكرة ) ، و " الزنوج " و " الجيجيليون " ( منطقة جيجل ) ، و الأغواطيون ( منطقة الأغواط ) ، و جماعة " القبائل " .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

---

<sup>(1)</sup> - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي البوعبدلي : الجزائر في التاريخ ( العهد العثماني ) ، ج 4 ، م و ك ، الجزائر : 1984م ، ص 87 .

<sup>(2)</sup> - المرجع نفسه ، ص ص 92-94 .

أما بالنسبة للجماعات الأجنبية ، فكانت هنالك الجالية اليهودية ، التي بلغ عددها عند بداية الاحتلال ثلاثون ألف نسمة ( 30.000 ن ) ، يتمتع أفرادها بنفوذ اقتصادي كبير ، و مجموعة " الدخلاء " و تتألف من التجار الأجانب و قناصل الدول الأوروبية ، و أفراد البعثات الدينية و الإرساليات التبشيرية و الأسرى المسيحيين (1) .

أما سكان الريف ، فيمثلون غالبية سكان البلاد ، إذ كانت نسبتهم تفوق 95% من مجموع السكان ، و يتألفون من عدة جماعات و منها : " قبائل المخزن " ، التي تقوم بمهام و أعمال فلاحية و عسكرية و إدارية ، و تمثل حلقة الاتصال بين الأرياف و المدن . و قبائل " الرعية " ، التي كانت تخضع لسلطة " البايات " عن طريق " القياد " و الشيوخ ، و تعامل عادة بأسلوب القسوة و الاضطهاد ، خاصة في استخلاص الضرائب (2) .

و بناء على هذا التعريف المختصر ، نلاحظ أن المجتمع الجزائري كان مجتمعا طبقيًا ، في شكل هرمي من حيث الامتيازات و المكانة الاجتماعية ، تختص فيه كل جماعة سكانية أو طائفة مهنية ، بأدوار نشاطات محددة تكمل بعضها البعض .

و رغم وجود بعض الطبقات المهمشة ، إلا أن المجتمع الجزائري في عمومه ، كان يعيش في هدوء و انسجام ، في حين كان المستوى المعيشي ، يختلف من المدن إلى الأرياف ، حسب مداخيل كل مجموعة سكانية (3) .

أما بعد الاحتلال ، فقد تغير الوضع الاجتماعي ، بسبب سياسة الاستيطان التي انتهجتها فرنسا ، و التي أدت إلى انقسام المجتمع الجزائري إلى مجموعتين اجتماعيتين مختلفتين : المجموعة الأوروبية و الجالية اليهودية ، و المجموعة الجزائرية الإسلامية .

فالمجموع الأوروبية ، كانت تنمو باستمرار ، و تتغذى بالمهاجرين الأوروبيين ، الذين كانوا يتدفقون على الجزائر ، و قد شجعهم في ذلك تلك التسهيلات و المساعدات السخية المقدمة لهم كالتكفل بسفرهم ، و حصولهم مجانًا على أخصب الأراضي الجزائرية ، التي كانت

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

(1) - ناصر سعيدوني ، المهدي البوعبدلي ، المرجع السابق ، ص ص 99 و ما بعدها .

(2) - المرجع نفسه ، ص 105 و ما بعدها .

(3) - صلاح العقاد : المغرب العربي ، ط 3 ، المكتبة الأنجلو المصرية : 1969م ، ص ص 160-161 .

تصادرها الإدارة الاستعمارية من الجزائريين المالكين الشرعيين لها . فتمكنوا مع مرور الزمن ، من السيطرة على المصالح الاقتصادية و الحيوية في البلاد (1) .

و رغم التباين العرقي ، و عواطف البغض و الكراهية ، التي كانت تسود فيما بينهم ، إلا أنهم كانوا يشتركون في نظرة الحقد و العنصرية الطافحة اتجاه الجزائريين ، لا يرون فيهم سوى " سلالة مقهورة " ، يحق لهم التصرف فيها كما يتصرفون في أملاكهم الخاصة (2) . و الدليل على ذلك هو ، رفضهم قبول اندماج الجزائريين ، الذين نجحت الكنيسة في تنصيرهم ، داخل المجتمع الفرنسي ، إذ ظلوا ينظرون إليهم على أنهم مسلمون و فقط (3) .

أما اليهود ، فأصبحوا من المجموعة الفرنسية ، بعد أن منح لهم قانون " كريميو " ( CREMIEUX ) الصادر في 22 أكتوبر 1870م ، حق التجنس بالجنسية الفرنسية ، فانتقل عددهم من 34 ألف نسمة سنة 1830م ، إلى مائة و ثلاثون ألف نسمة (130.000 ان ) سنة 1950م (4) . و لم تفعل فرنسا ذلك ، إلا لتستقطب هؤلاء إلى صفها ، و تستخدمهم كأداة قمع إضافية لصالحها ضد الجزائريين .

و قد عملت السلطات الاستعمارية ، على منع أي تقارب بين اليهود و المسلمين ، عن طريق زرع الفتن بين الطرفين ، ثم تتدخل بعد ذلك لصالح اليهود ، و على سبيل المثال حوادث 05 أوت 1934م بقسنطينة ، التي كان المعتمي فيها اليهود ، و الضحية المسلمون ، ف بدلا من أن تميل السلطات الفرنسية إلى العدل و الإنصاف بين الفريقين ، مالت إلى صف اليهود ، و عاقبت المسلمين الذين كانوا مظلومين (5) .

أما المجموعة الجزائرية ، التي كان يقدر عدد أفرادها سنة 1830م ، بعشر ملايين نسمة ، بناء على رأي أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين ، فإنها تعرضت إلى الإبادة الجماعية ، من قبل قادة الجيش الفرنسي في الثلاثينات و الأربعينات من القرن التاسع عشر ميلادي ( ق 19م ) ، مما عرضها للانهايار في الريف أو المدينة على حد سواء . ففي المدينة ، الفصل الأول :

(1) - عبد الكريم بو الصفصاف ، المرجع السابق ، ص ص 62 - 63 .

(2) - ابو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 27 .

(3) - عبد الكريم بو الصفصاف المرجع السابق ، ص 64 .

(4) - عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 432-438 .

(5) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 114 .

قضت على مكانتها البرجوازية الاستعمارية قضاء تاما (1) ، و في الريف تم تفجير السكان و تجهيلهم و نفيهم إلى الجبال و الفيافي و القفار ، حتى تحول الفلاحون إلى بؤساء و مشردين أما إذا أرادوا الاستمرار في الحياة ، فكان عليهم قبول العمل في مزارع المعمرين و ضيعاتهم ، بأجور زهيدة و لساعات تعمل طويلة قد تصل في اليوم الواحد إلى أربع عشر ساعة (14) ساعة (2) .

و قد أدت هذه السياسة الاقتصادية المتبعة ، إلى انتشار الفقر و الجوع و المرض و الموت ، على نطاق واسع ، فعلى سبيل المثال ارتفع عدد الوفيات من 11850 حالة سنة 1939م إلى 133388 وفاة سنة 1942م ، أي بزيادة تقدر بـ 108% (3) . فكانت الأوبئة و المجاعات إضافة إلى عمليات الإبادة و التطهير (4) ، أحد الأسباب الأساسية المؤدية إلى الوفيات ، ففي سنة 1849م فقط حصد وباء الكوليرا في مقاطعة قسنطينة لوحدها 9434 نسمة ، و توسع ليؤدي إلى إبادة قبائل عن آخرها (5) .

و في هذا الصدد أيضا ، تعد مجاعة أواخر الستينيات من القرن 19م ، من أخطر المجاعات التي شهدتها البلاد ، لكونها امتدت إلى نصف البلاد تقريبا ، و لما خلفته من عدد هائل من الضحايا . فقد بدأت إرهابات تلك المجاعة المدمرة منذ سنة 1866م ، و وصلت إلى ذروتها سنة 1867م ، و استمرت حتى سنة 1870م ، مخلفة خسائر بشرية فادحة تراوحت ما بين مائتي ألف ( 200.000 ) و خمسمائة ألف ( 500.00 ) قتيل ، و الآلاف من اليتامى

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

---

(1) - AGERON (CH .R) Histoire de L'Algérie... OP-çit , P60 .

(2) - AGERON (CH .R) Histoire de L'Algérie... , P.55-58.

(3) - DJALALI BENAMRANE , OP-CIT,PP.35-38

(4) - ينظر فرانسو مسبيرو : سانت آرنو أو الشرف الضائع ، ترجمة مسعود حاج مسعود ، د ط، دار القصة للنشر ، الجزائر : 2007 م .

(5) - A.NOUS CHI : " Constantine à la Veille de la Conquête " , cahiers de Tunisie , N:11;TR,1955,PP210-214 .

و الأرامل ، و المرشدين الهائمين على وجوههم بحثا عن جذور النباتات و أوراق الأشجار ، و حتى لحوم البشر لأكلها ، كما ورد في بعض التقارير الفرنسية (1) .

و في واقع الأمر ، أن عدد سكان الجزائريين كان يتراوح على نحو خطير طيلة الاحتلال ، فإذا لم تكن هناك مجاعات أو أوبئة ، تولى الجيش الفرنسي المهمة ، مثلما حدث في يوم الثامن ماي 1945م ، الذي ارتكبت فيه مجازر وحشية في كل من سطيف و قالمة ، خراطة ، يندى لها جبين البشرية ، و التي فاقت في وحشيتها أي تصور ، ضد أبرياء عزل خرجوا من ديارهم إلى الشوارع ، يهتفون بطريقة سلمية بنهاية الحرب العالمية الثانية 1939م - 1945م ، و بسقوط الديكتاتوريات العسكرية ، و يطالبون فرنسا التي كانوا إلى جانبها خلال الحرب بالأرواح (\*) و الأموال ، أن تقي بوعودها ، و تعاملهم بمعاملة الصديق الذي وجدته إلى جانبها في أعسر الأوقات . فتتظر إلى مطالبهم بعين الاحترام و التقهم ، لكنها كافأتهم على تلك التضحيات ، بقتل أكثر من خمسة و أربعين ألف جزائري رجالا و نساء و أطفالا و شيوخا ، و بإحراق الديار و إتلاف الثمار ، و بانتهاك الحرمات الإنسانية . و قد دفعت تلك الأعمال الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى اعتبارها أعمالا لو شهدها فرعون لتبرأ منها و لأفتخر بعدم ارتكابه لها ، و هو الذي كان يذبح الأنبياء و يستحي النساء (\*\*\*) (2) .

الفصل الأول : الجزائر و لبنان في عصر البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان

---

(1) - للمزيد من التفاصيل حول المجاعة ينظر رمضان بورغدة : " أضواء جديدة على المجاعة و تداعيتها على المجتمع الجزائري في أواخر الستينات من القرن 19 م " ، مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قسنطينة : العدد 05 / أوت 2009 م ، ص 135 و ما بعدها .

(\*) - قدر الشيخ الفضيل الورثيلاني ، عدد القتلى بسبعين ألف ( 70.000 ) قتيل ، و المعتقلين بثمانين ألف ( 80.000 ) معتقل ، ردا لجميل الجزائريين الذين شاركوا في الحرب إلى جانب فرنسا ، بنصف مليون من خيرة شبابهم جنودا و عمالا . الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 86 .

(\*\*) - ينظر مقالنا بعنوان : " مجازر 8 ماي 1945م كما تحدث عنها الشيخ الإبراهيمي " ، من كتاب : محاضرات ملتقى مجازر 8 ماي 1945م في الذاكرة الوطنية ، و لاية سطيف : 2005م ، ص 120 و ما بعدها . و للإطلاع على بعض جرائم الاحتلال الفرنسيين في الجزائر ينظر سعدي بزيان : جرائم فرنسا في الجزائر ، د ط ، دار هومة ، الجزائر : 2009 م .

(2) - مقتطف من محاضرة ألقيتها ، خلال الملتقى الوطني : " مجازر 8 ماي 1945م بداية نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر " ، أيام 5 و 6 و 7 ماي 2008 م ، جامعة فرحات عباس سطيف .

و الأمر ذاته ، حدث خلال الثورة التحريرية 1954م - 1962م (1) .  
و هكذا يمكن القول ؛ أن الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، قد أحدث خلا كبيرا في تركيبة المجتمع الجزائري و في بنيته التحتية ، و قد أدى إلى ذلك إلى إضعاف أدائه السياسي و العسكري في البلاد ، و إضعاف دور العائلات الكبرى ، التي كانت تمد المجتمع بالإطارات الوطنية المختلفة ، التي يوكل إليها أمر الإشراف على إدارة شؤون البلاد ، و تقليص نفوذها الذي كانت تتمتع به قبل الاحتلال على جميع الأصعدة (2) مثلما كان عليه الأمر بالنسبة لعائلة الحداد التي قادت ثورة 1871م بالشرق الجزائري ، و حتى تلك التي سعت إلى التقرب من الإدارة الاستعمارية ، لاقت المصير ذاته ، بعدة وسائل و طرق ، و منها تأليب العائلات المعادية لها ضدها و تشجيعها ماديا و معنويا ، بهدف تقويض المكانة الروحية و السياسية التي كانت تتمتع بها في بلاد القبائل خاصة ، و في بقية جهات الجزائر عامة (3) .  
و قد دفعت هذه الظروف ، بفئة هامة من الجزائريين ، إلى الهجرة إلى خارج البلاد ، نحو الأقطار العربية و الإسلامية خاصة ، و نحو فرنسا و أوروبا عامة ، و قد كان لهذه الهجرة الأثر الطيب على المستويين الفكري و السياسي في الجزائر ، إذ أدت إلى الإسراع في خلق ووعي سياسي و ثقافي و تطور فكري ، ظهرت ثمارهما الأولى بعد الحرب العالمية الأولى ، من خلال النضال السياسي ، الذي تبلور في شكل حركات سياسية و إصلاحية (4) .  
و بهذا الشكل ، تكون سلطات الاحتلال الفرنسي ، قد قضت على الانسجام الطبقي ، الذي كان بين مختلف فئات المجتمع الجزائري ، في الأرياف و المدن على حد سواء ، في أوائل عهد الاحتلال ، بسبب سياسة الاستيطان التي أدت إلى تقسيم المجتمع ، إلى قسمين متباينين في الفصل الأول :

(1) - ينظر شهادة السفاح " الجنرال بول أوساريس " ( PAUL AUSSARES ) في كتابه : شهادتي حول التعذيب ( مصالح خاصة : الجزائر 1959م - 1959م ) ، د ط ، ترجمة مصطفى فرحات ، دار المعرفة ، الجزائر : د ت .

(2) - AGERON (CH.R) : HISTOIRE DE L'ALGERIE , OP-CIT, P.57 .

(3) - بشير فايد : " جوانب من حياة الشيخ سي عزيز بن الحداد " ، مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية ، كلية الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 04 / جوان 2006 ، ص 67 ، 68 ، 70 .

(4) - عبد الكريم بو صفصاف ، المرجع السابق ، ص 67 .



العرق و الثقافة و المكانة الاجتماعية . فالمجتمع الأول يمثل المعمرين ، المتدفقين باستمرار على الجزائر ، و الذين احتكروا جميع الأنشطة الاقتصادية ، و يتمتعون بكل الحقوق المدنية و السياسية .

أما المجتمع الثاني ، فهو الذي يشكل الأغلبية المسلمة ، التي كان ينظر إليها على أنها مجرد وسيلة استغلال ، يتصرف فيها المعمرون كما يشاءون . و من هنا تمكنت فرنسا ، من تقويض أركان المجتمع الجزائري ، و تفكيك تركيبته الاجتماعية و نمط حياته الذي كان عليه قبل الاحتلال .

و لم يختلف الأمر كثيرا عنه في لبنان ، حيث سادت العبودية بأشبع صورها في المناطق الريفية ، التي كانت تستوعب النسبة الأكبر من إجمال سكان البلاد ، الذين يحترفون الزراعة و الرعي و بعض البضائع التقليدية .

و قد تساوى في ذلك الوجود العثماني و الانتداب الفرنسي ، حيث وضعا السلطة الاجتماعية في يد العائلات و العصبية العرقية الكبرى ، التي مارست حتى صلاحيات الدولة في الإقطاعات التي كانت تحت طائلة نفوذها و سطوتها . و ظلت تدافع عنها بكل ما أوتيت من قوة ، حتى تضمن ديمومة ذلك الوضع ، الذي أتاحه لها النظام العثماني الذي لم يجد أي إشكال في تثبيت و توحيد المنظومة الإقطاعية ، طالما أن ذلك يمنح له الاستقرار في الأوضاع و استمرار تدفق المنافع الاقتصادية عليه . و لما جاءت حكومة الانتداب الفرنسي ، تعزز موقفها أكثر خاصة بالنسبة للعائلات و الجماعات المسيحية المارونية .

و إذا كان الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، قد أوجد مجتمعين : أوروبي يملك و يسيطر و ينتفع بكل شيء ، و آخر لا يملك شيئا و يقاوم من أجل بقائه ، فإنه في المقابل قد أوجد في لبنان برجوازية إقطاعية مسيحية قوية محلية ، موروثه عن العهد العثماني التي تقوت أكثر بعد ذهابه ، مرتبطة مصالحها بمصالح الأقلية الأوروبية المتحالفة معها . استطاعت أن تتمفصل تدريجيا في أهم دوائر السلطة و القرار ، و هو ما لم تنتظن إليه فرنسا في الجزائر إلا في الفترة الأخيرة من وجودها هنالك ، حيث سعت لخلق ما يسمى بالقوة الثالثة ، بعد أن شعرت بـدنو رحيلها عن البلد .

الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

## 02- الوضع الاجتماعي في لبنان :

كما سبق وأن اشرنا إليه في المبحث السابق في جزئه الذي خصصناه للحديث عن الوضع الاقتصادي في لبنان ، أن النظام الذي كان سائدا سواء في المرحلة العثمانية أو الفرنسية هو النظام الإقطاعي ، الذي كانت له تداعيات و انعكاسات كبيرة على المجتمع اللبناني المؤلف بصورة خاصة من الفلاحين ، الذين كانوا يعملون في ظروف لا إنسانية في أغلب الأحيان ، بفعل تسلط البرجوازية الإقطاعية التي استمرت في هيمنتها الاقتصادية و السياسية على البلاد ، حتى بعد رحيل العثمانيين و استبدالهم بالفرنسيين الذين أبقوا على الأوضاع ذاتها ، مع بعض التعديلات الطفيفة ، التي رؤوا أنها ضرورية لتحسين و رفع درجة الاستغلال المادي ، الذي جاؤوا لأجله إلى منطقة الشام بصفة عامة .

فقد كان أولئك الفلاحون ، يعيشون جنبا إلى جنب مع الحيوانات الذين يسهرون على تربيتها و رعيها ، في أكواخ يعتم أجواها الظلام و الرطوبة ، مبنية من الطين أو الحجارة . أما طعامهم اليومي فلا يتعدى خبز الشعير أو الذرة مع اللبن ، أما اللحم فلم يكن يستهلك إلا في الأعياد الكبرى ، في حين كانوا يلبسون الثياب الرثة و القذرة . و قد وصف أحد الكتاب ذلك الوضع بالقول : (( أن كل شيء في حياة الفلاحين كان يوحى بالبؤس المدقع الموروث من زمن طويل ، و من النادر أن تجد قرية سليمة لأن الأطلال كانت منتشرة في كل مكان ، خراب شامل للأرض و للناس الذين كانوا يزرعونها )) (1) .

و الوضع ذاته كان يعيشه العمال في قطاع الصناعة ، الذين كانوا يتقاضون لقاء عملهم اليومي المضمني ، أجرا زهيدا لا يكفي إلا لسد الرمق ، يعانون من سوء التغذية باستمرار ، و يسكنون الأكواخ ، و يعيشون في فقر مدقع . و لم يكن يوم العمل خاضعا لأي قانون ، يبدأ من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، أي أن المدة تتراوح ما بين 14 و 16 ساعة في اليوم(2) .

الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان

الفصل الأول :

(1) - فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 33 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 56 ، نقلا عن فؤاد الشمالي : نقابات العمال ، مطبعة الراية ، بيروت :

1929 م ، ص 9 .

و قد بلغ الجشع بأرباب العمل ، أنهم كانوا يستغلون استغلالا بشعا النساء و الأطفال على حد سواء ، أما ظروف العمل فكانت غير صحية على الإطلاق : أكواخ ضيقة و قذرة ، و أقبية رطبة و مظلمة . لا أثر للضمان الاجتماعي و لا لأنظمة السلامة ، و حرمان تام من كل الحقوق المهنية <sup>(1)</sup> .

في لبنان و في غيره من المناطق الأخرى من الشرق العربي ، كانت العائلات الكبرى ذات العصبية القوية ، هي التي تتبوأ المكانة الاجتماعية الأولى في البلاد ، تضطلع بمهام جباية الضريبة للدولة على مساحة محددة من الأرض عرفت بـ " المقاطعة " ، و لذلك سمي أفراد تلك العائلات بـ : " المقاطعيون " ، الذين دأبوا على حمل ألقاب الشرف مثل : ( أمير و شيخ ) . و أصبحوا طرفا فاعلا و مؤثرا في شبكة العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية ، تلجأ إليهم السلطة للعب دور الوسيط الطبيعي بينها و بين بقية الفئات الاجتماعية المشكلة للنسيج الاجتماعي اللبناني ، إدراكا منها لأهمية نفوذها الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي ، و هو تحالف يمكن التعبير عنه بالمصالح المتبادلة بين الطرفين . تحتاج إليهم السلطة لكي تتمكن من إظهار سيادتها و فرضها في أرض الواقع ، و يحتاجون هم إليها لضمان تفوقهم الاجتماعي الذي يدر عليهم الامتيازات و السلطة الجزئية التي يمارسونها ، بتفويض من السلطة السياسية . و هو الأسلوب الذي ظل الباب العالي متمسكا به ، طيلة المدة التي خضعت فيها المنطقة لسلطانه .

و في الواقع ، تمكن بعض " المقاطعية " ، من الحصول على امتيازات أوسع ، جعلت منهم فئة متميزة سياسيا و اجتماعيا و قانونيا عن كل العائلات : كمارسة القضاء داخل دوائرهم في القضايا التي لا تقتضي إصدار أحكام بالإعدام ، و تنفيذ قرار المحاكم الدينية . فضلا عن الإستئثار لوحدهم بالوظائف السامية في بلاد الأمير و جيشه ، و حق حمل الأسلحة و الظهور بمظهر شبه اقتطاعي .

و كان الحيز الجغرافي ، الذي تمارس في العائلات المسيطرة نفوذها على مجموعات عائلية من المزارعين ، موزعة بين قرى عديدة تسمى : " المقاطعة " أو : " المقطوعة " ، حيث تنهض العائلة بأكملها بمهمة جباية المستحقات المالية إزاء مصلحة الضرائب ، و بقدر ما ينجح الفصل الأول :

---

(1) - فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 56 و ما بعدها .

أولئك الأعيان في أداء دور الوسيط بين الدولة و الفلاحين ، بقدر ما يحصلون على المزيد من الصعود الاجتماعي ، الذي يغدقه عليهم الباب العالي .

سمح هذا الوضع فقط ، للمشايخ و الأمراء و رجال الدين المارونيين ، من الاستئثار باستثمار تثنى الأراضي الزراعية ، مقابل ثلث يتمثل في قطع صغيرة يقوم باستغلالها بعض متوسطي الحال من الفلاحين ، بينما كانت أكثرية السكان لا تملك شيئاً ، تمضي معظم أوقاتها في البحث عن العمل ، فإن وجدته يكون عن طريق " المراجعة " التي تعني عقد شراكة بين طرفين : مالك الأرض و الفلاح ( الشريك ) الذي يبيع له قوة عمله ، و هو عقد موثق يضمن التبعية المطلقة للفلاح لدى الشيخ ، و تبدأ الشراكة بدفع الفلاح مبلغاً من المال يقدر بربع قيمة المحصول السنوي ، و هو بمثابة ضمان حسن عناية الفلاح بالأرض و الأشجار و ما تحويه من هياكل .

و من أشهر العائلات التي حظيت بهذا الوضع الاجتماعي المريح و المتميز : " المعنيون " الذين كانوا على رأس المناطق الدرزية في الجبل ، و تمكنوا من انتزاع الاستقلالية الذاتية للمنطقة ، و " الشهابيون " الذين انتموا إلى المعنيين بالمصاهرة ، و بسطوا نفوذهم على " وادي النيم " ، و احتلوا المرتبة الأولى على رأس " الهرمية الاجتماعية العائلية " ، باعتبارهم تابعين مباشرة إلى السلطان عن طريق الوالي (1) .

و مع تزايد النفوذ الأوروبي في البلاد ، الذي انتهى بفرض الانتداب الفرنسي ، شهد الوضع الاجتماعي اللبناني تحولات عدة و أساسية تتمثل في ؛ صعود فئات اجتماعية جديدة أبرزها الطائفة المارونية ، التي شكلت مع مرور الزمن برجوازية مسيحية : (( استمدت ديناميتها من كونها الوسيط المميز للنشاط الاقتصادي الأوروبي . بينما لم يحظ الأعيان المسلمون ... بأي دعم يرفعهم إلى مستوى طبقة جديدة . و قد منحت الثروة المكتسبة نفوذا لأصحابها بفضل المواجهة الحديثة بين الشرق و الغرب ، تلك المواجهة التي عاناها سواد الفئات الاجتماعية الأخرى التي بقي الإبهام يلف حاضرهم و مستقبلهم )) (2) .

(1) - ينظر عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 33 و ما بعدها .

(2) - المرجع نفسه ، ص 73 .

و إذا كان هذا هو الحال في المناطق الريفية الواسعة ؛ عائلات أرستقراطية كبرى تهتمين على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في الأرياف بفعل نفوذها السياسي ، فإن القسم الأكبر من سكان المدن كان متكونا من الطبقات الوسطى ، أي من مختلف الشرائح البرجوازية الحضرية الصغيرة ، التي تتألف من الحرفيين و المستخدمين في التجارة ، صغار الموظفين و المستخدمين و رجال الدين ، و فئة المثقفين الشباب و خاصة الطلاب منهم . عددهم كان قليلا ؛ لكون أن الغالبية الساحقة من السكان كانت تقطن في الأرياف ، و تمارس نشاطا رئيسيا هو الزراعة ، و عليه فقد كانت المدن غير متطورة ، و بمثابة مراكز تجارية و إدارية أكثر منها صناعية ؛ من أهمها بيروت و حمص و حماه و طرابلس<sup>(1)</sup> .

و علاوة على سكان الأرياف و المدن ؛ كان هناك ما يسمى بالبدو الرحل ، الذين ذهبوا بعض التقديرات إلى كونهم كانوا يمثلون حوالي 10% من إجمالي السكان في لبنان و سوريا معا ، ينتقلون باستمرار و انتظام بين مناطق الرعي الشتوية و الصيفية في الصحراء ، ففي فصل الخريف تنتقل إلى الشرق و يسمى هذا بالتشريق ، و في فصل الصيف تنتقل إلى الغرب و يعرف ذلك بالتغريب . هذا و رغم حالة الترحال الدائم ، إلا أنها لم تكن تعيش بمعزل عن المجتمع الحضري ، حيث ظلت الصلات بينها و بين السكان الحضريين قوية جدا ، خاصة في جانبها الاقتصادي . و غني عن الإشارة أن بعض أفراد هذه العائلات ، كثيرا ما يتحولون إلى رعاة لقطعان المواشي لدى المشايخ ؛ كمحاصيين ( لهم حصة معينة منها ) أو كأجراء مستخدمين أو كعبيد ؛ فقد تزايد عدد العبيد لعوامل عدة منها : الحروب القبلية ، و فقدان القبائل الضعيفة لمراعيها و قطعانها ، بالإضافة إلى ضم القبائل التي تجرد من ملكيتها قسرا إلى القبائل الأقوى منها .

و كما سلف ذكره أنه ؛ كان من نتائج هذه المعطيات الاجتماعية وجود أقلية مسيطرة و مستغلة ، و أغلبية فقيرة و محرومة خاصة في الأرياف ، في العهدين العثماني و الفرنسي على حد سواء ، الأمر الذي غذى انعدام الاستقرار السياسي ، فكثيرا ما كانت التجمعات السكانية الريفية الفقيرة ، تعبر عن تدمرها من الوضع في شكل انتفاضات و ثورات مثل : ثورات الفلاحين في الجبل أعوام 1854م و 1858م و 1859م ، و ثورات منطقة جبل الدروز بين 1886م

(1) - فلاديمير لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 25 و ما بعدها .

و 1887م.... و غيرها . و التي لو تؤدي إلى أي نتائج إيجابية لصالح الفلاحين ، نتيجة للقمع الشديد الذي ردت به عليها السلطات العثمانية ، بتأييد من الدول الأوروبية في بعض الأحيان ، أو لتواطؤ بعض قادتها .

أما أثناء الانتداب الفرنسي ؛ فقد قاوموا بشدة و بعنف سياسة الحكومة الفرنسية ، التي أبقت على نفس السياسة السائدة خلال المرحلة العثمانية ؛ مع إضافة ضرائب جديدة و غرامات و تعويضات ، و عمدت إلى مصادرة الأراضي الواسعة الخصبة ، كما كانت تقوم به في الجزائر و تونس و المغرب ، توطيدا و توسيعا للملكيات الاقتصادية الكبرى ، و تأمينا للمزيد من الأراضي للاستعمار الاستيطاني . فلا غرابة أن تكون غالبية الثورات و الانتفاضات ضد حكومة الانتداب ، قد اندلعت في المناطق الريفية و تزعمها فلاحون (1) .

و بالإضافة إلى المقاومة عن طريق الثورات و الانتفاضات التي لم تتوقف ؛ لجأ أبناء الطبقات الفقيرة في لبنان إلى أسلوب آخر للمقاومة و هو الهجرة الخارجية ؛ فآلاف الفلاحين و الحرفيين الصغار المفلسين ، كانوا يتركون لبنان سنويا بحثا عن حياة اجتماعية أفضل في الولايات المتحدة الأمريكية و المكسيك و الأرجنتين و البرازيل ... إلخ . فبعض التقديرات أشارت أن عدد اللبنانيين المغتربين المنتشرين في كل أنحاء العالم ، ناهز حوالي نصف سكان لبنان ، و هذا عشية الانتداب الفرنسي ، و هو ما يدل على أن الوضع الاجتماعي كان مزريا و في غاية السوء . هاته الهجرات ، و إن لم تغير شيئا كثيرا في حياة اللبنانيين في تلك الأثناء ، حيث كان عدد معتبر منهم يضطر إلى العودة حاملا معه الخيبة اليأس (2) ، إلا أنها شكّلت ظاهرة لبنانية مميزة ، سمحت فيما بعد و لغاية الآن ؛ بوجود مغتربين لبنانيين يتبعون مراكز رفيعة في مختلف دول العالم و خاصة في قارة أمريكا ؛ في حقول العلم و الصناعة و التجارة و السياسة و الطب ، و المهن الحرة ، بل أن منهم من أصبحوا وزراء و رؤساء و أعضاء في المجالس النيابية ، و هي ظاهرة لا ينافسهم فيها إلا السوريون و الفلسطينيون ، كما أدت إلى

(1) - ينظر فلاديمير لوتكسي ، المرجع السابق ، ص 41 و ما بعدها .

(2) - المرجع نفسه ، ص 57 .

جعل لبنان بلداً من أكثر البلدان انفتاحاً على العالم، ثقافياً و سياسياً و اقتصادياً و فكرياً و إنسانياً ، و لا يزال كذلك (1) .

هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى ؛ فقد ظلت نسبة الأمية مرتفعة كثيراً في لبنان (40% سنة 1930م) ، خاصة في الريف اللبناني لاسيما عند الإناث ، كما أنها كانت أكبر لدى أبناء الطوائف الإسلامية من الطوائف الأخرى ، و النسب المئوية التي سجلت عام 1935م ، توضح ذلك : 83% بين الشيعة ، 66% بين السنة ، 53% بين الدروز ، 53% بين الأرثوذكس ، 48% بين الموارنة ، 38% بين الكاثوليك . بالرغم من أن التعليم الطائفي الخاص ، جعل من لبنان يحتل المركز الأول بين دول الانتداب (2) . لكنها تظل نسبا ضعيفة، بالمقارنة مع نظيرتها في الجزائر ، التي كان فيها المجتمع أمياً بالكامل ؛ نتيجة للذهنية الاستعمارية الفرنسية العنصرية ، التي كانت ترى في فتح مدرسة عربية حرة ، جريمة تستوجب إدخال صاحبها إلى السجن ، و الزج به في نفس الزنزارة مع اللصوص و المجرمين . حتى تتشأ أجيال من الجزائريين تجهل حقوقها و واجباتها ، و جل همها العمل لدى مجتمع المعمرين في ظروف أقل ما يقال عنها أنها لا إنسانية .

و في الأخير نسجل أن ، الجزائريين و اللبنانيين على حد سواء ، قد قاوموا بأشكال مختلفة هذا الوضع ، بالثورات الشعبية المستمرة و النضال السياسي و الهجرة الداخلية و الخارجية ، فرار من المآزق الاجتماعي الخطير الذي دفعهم إليه المحتل الفرنسي، بسياسته الاقتصادية القائمة على الاستغلال و النهب للثروات . و هو ما حصل مع الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، اللذان أمضيا جزءاً معتبراً من حياتهما خارج بلديهما بحثاً ، عن فضاءات أفضل تسمح لهما باستكمال تكوينهما العلمي و الثقافي و نضالهما الفكري و السياسي ، و هو ما كان مستحيلاً في ظل التجويع و التفقير و التجهيل ، هذا الأخير يعد إحدى أكثر الحلقات سواداً في التاريخ الاستعماري ، كما سيظهر في المبحث القادم .

(1) - ينظر مالك شارل : لبنان في ذاته ، د ط ، مؤسسة بدران و شركائه للطباعة و النشر ، بيروت :

1984م ، ص 17 . و ما بعدها .

(2) - فتوني علي عبد : البلاد العربية و التحديات الثقافية المعاصرة ، ط 1 ، دار الفارابي ، بيروت : 2007م

، ص ص 36 - 37 .

**المبحث الرابع : الوضع الثقافي في الجزائر ولبنان****01- الوضع الثقافي في الجزائر :**

قبل الاحتلال كانت الجزائر تشهد انبعاثا مستمرا للثقافة العربية و الإسلامية ، تتولى رسالتها المدارس و الزوايا و المساجد و الكتاتيب القرآنية . و من مظاهر هذا الانتعاش الثقافي ؛ انتشار المؤسسات التعليمية في الأرياف و المدن على حد سواء ، و انخفاض نسبة الأمية بشكل ملفت للنظر ، بالمقارنة مع الدول الأوروبية نفسها و على رأسها فرنسا (1) . فقد تميز التعليم في الجزائر حينئذ ، بالانتشار الواسع و النظام المحكم ، لاسيما في الحواضر العلمية كقسنطينة و بجاية و الجزائر و تلمسان ، بفضل نخبة من المعلمين و الأساتذة ، الذين كانوا يسهرون على ترقية التعليم و تطويره و نشره بين مختلف الأوساط الشعبية . و لعل ما يؤكد ذلك ، ظهور مثقفين بارزين من الطراز العالي قبل و عشية الاحتلال الفرنسي ، أمثال : ابن حمادوش الجزائري (\*) و ابن العنابي (\*\* ) ، و حمدان بن عثمان خوجة (\*\*\*) ، و غيرهم الذين تركوا مؤلفات راقية في مختلف العلوم و الفنون و الآداب .

(1) - فرحات عباس ، المصدر السابق ، ص 60 .

(\*) - ابن حمادوش الجزائري ، ولد في مدينة الجزائر سنة 1107 هـ ( 1695 م ) ، و توفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان و تاريخ مجهولين ، تقلد عدة وظائف دينية ، إضافة إلى العلوم الشرعية و اللغوية ، فقد تخصص في علوم الطب و الفلك و الرياضيات و الصيدلة و الحساب ، كما عرف برحلاته خارج الجزائر من أجل الإطلاع و الاستكشاف . ينظر أبو القاسم سعد الله : رحلة ابن حمادوش الجزائري ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1982 م .

(\*\*) - ابن العنابي : ولد سنة 1189 هـ ( 1775 م ) ، و توفي سنة 1267 هـ ( 1851 م ) ، من أسرة كانت لها مكانة دينية و فكرية هامة ، كان يتمتع بثقافة كبيرة في العلوم الشرعية ، تولى عدة مناصب منها منصب القضاء الحنفي في عهد الداوي أحمد باشا ، و عرف عنه أنه كان شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها لإنفاق 05 جويلية 1930 م . ترك آثار فكرية عديدة ، منها كتاب " السعي المحمود في نظام الجنود " . ينظر عمر بن قينة : شخصيات جزائرية ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1983 م ، ص 21 و ما بعدها

(\*\*\*) - حمدان بن عثمان خوجة : من المولودين ( الكراغلة ) ، ولد حوالي سنة 1773 م و من المحتمل بالجزائر العاصمة ، أما وفاته فمن المرجح أنها كانت بين سنتي 1840م-1841م ، سافر إلى الكثير من البلدان الإسلامية و المسيحية ، خلف لنا عدة آثار من أشهرها كتاب " المرأة " ( LE MIROIR ) الذي ألفه سنة 1883م . للمزيد ينظر : حميدة عميرواي : دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية



غير أن انتشار العلم و المعرفة في الجزائر ، لم يصل إلى المستوى الإنتاج المادي ، مثلما أصبح عليه الوضع في أوروبا في ذلك العصر ، و إنما كانت الثقافة الجزائرية ثقافة أدبية و روحية و فكرية ، لم تتحول إلى توظيفها بعد ، إلى الحياة المادية كالصناعة و التجارة وغيرها من الأساليب التكنولوجية ، التي أصبحت تبحث في مجاهل الكون و أسرار البر و البحر على حد سواء .

و من ثمرات الازدهار التعليمي و الثقافي ، أن أربعين بالمائة (40%) من السكان الذكور ، كانوا يحسنون الكتابة و القراءة ، و احتواء كل قبيلة و حي عصري على مدرسة<sup>(1)</sup>. أما بعد الاحتلال ، فقد انقلبت الموازين و تغيرت الأوضاع ، إذ تم انتهاج سياسة تعليمية ، تعتمد على التجهيل و الفرنسة و الإدماج و التغريب<sup>(2)</sup>. و نجاح هذه السياسة : (( يكمن في العزل القسري للمقومات الحضارية للتراث العربي الإسلامي في الجزائر و تغيير الهوية الثقافية السائدة ، و من ثم على الجزائر أن تكون فرنسية في كل شيء ، و أن تنسى ذاكرتها و جسور اتصالها بالماضي دفعة واحدة و إلى الأبد ))<sup>(3)</sup> . إن هذا الكلام يحدد بدقة ، الخطوات التي سطرته السلطات الفرنسية ، لتحقيق الأهداف السالفة الذكر .

و في هذا السياق ؛ تم الاستيلاء على مراكز الثقافة العربية و الإسلامية من مساجد و مدارس و زوايا ، و تحويلها إلى مراكز للثقافة الفرنسية و للهيئات التبشيرية المسيحية ، أو إلى تكنات و إسطبلات و متاجر ، لأن هذه المراكز هي التي كانت تحتضن التعليم التقليدي في الجزائر ، أما الأوقاف الإسلامية فقد لاقت المصير نفسه ، الذي لقيته نفس المؤسسات الإسلامية الأخرى ، و التي كانت تمويلها و تمنحها الديمومة و الاستقرار<sup>(4)</sup> .

إن هذا الهجوم الاستعماري الشرس على الثقافة العربية الإسلامية ، كان ينبع من إدراك قادة الاحتلال الفرنسي ، أن هذه الثقافة هي العائق الرئيس ، الذي يمكن أن يقاوم ما كانت تسعى

(1827م-1840م) ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1987 م .

(1) - FANNY COLONNA : instituteurs Algériens 1883-1939 , O.P.U , ALGER , 1975,PP .27-30

(2) - رابح تركي ، المرجع السابق ، ص 104 .

(3) - عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق ، ص 87 .

(4) - رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص ص 93-95 .

إليه من مسخ و تشويه (1) ، و من ثم وجب تجريد الشعب الجزائري منها ، و طمس معالمها و مسخها و : (( صبها في قوالب تلاءم أهدافه ، و مخططاته لتضمن لوجوده البقاء )) (2) . و قد صرح بهذه السياسة أحد الفرنسيين قائلا : (( إننا لم ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن و يتكلمون اللغة العربية ، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ، و أن نقلع العربية من ألسنتهم )) (3) . و من هنا فقد كان على سبيل المثال ، فتح مدرسة في نظر الفرنسيين : (( أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة و الذخائر ، استعدادا للثورة ، و أخطر من فتح محششة يدار فيها الأفيون و الكوكايين و بقية السموم )) ، كما قال الشيخ " الفضيل الورثياني " (4) .

فكانت القرارات و المراسيم في هذا الصدد ، تتهاطل بلا انقطاع ، و منها مرسوم 1892م ، الذي منع على المدارس القرآنية استقبال التلاميذ أثناء ساعات الدراسة اليومية للمدارس الفرنسية (5) ، و فرض تقديم طلبات رخص فتح المدارس العربية ، و كانت في غالب الأحيان ترفض أو لا يحصل أصحابها على الرد إطلاقا (6) . و قرار 13 فيفري 1933م ، الذي منع العلماء و رجال الجمعية ، من التدريس في المساجد و إقامة حلقات الوعظ و الإرشاد بها . و قانون 8 مارس 1938 م ، الذي نص على منع أي شخص أو منظمة من إنشاء مدرسة و التعليم فيها ، و الذين يخالفون ذلك ، يتعرضون للسجن أو الترخيم أو معا (7) . و ما أكثر معلمي اللغة العربية ، الذين حوكموا أو غرموا و سجنوا مع اللصوص و المجرمين على حد سواء ، بحقد و كراهية كبيرين : (( فلقد شهدت المحاكم في الجزائر مناظر مخجلة

(1) - أحمد محساس : " التعليم و الثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية " مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 85 جانفي / فيفري 1985 ، ص 57 .

(2) - حسن عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 28 .

(3) - الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ( 1929م - 1940 م ) ، مصدر سابق ، ص

(4) - الفضيل الورثياني ، المصدر السابق ، ص 90 .

(5) - FANNY CC , OP-çit , P.6 .

(6) - رابح تركي : " الصراع بين جمعية العلماء و إدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر ما بين 1933م - 1939م " ، مجلة الثقافة ، المرجع نفسه ، ص 125 .

(7) - المرجع نفسه ، ص ص 195-197 .

يساق فيها معلوم اللغة العربية في موكب اللصوص و القتل و المجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد ، و قد تنال رحمة القضاة الفرنسيين بعض القتلة و اللصوص و لكن ما جربت يوما أن تنال معلم اللغة العربية أبدا )) (1) . و على سبيل المثال ؛ فقد بلغ سنة 1948م و حدها ، عدد المعلمين الذين حوكموا بتهمة التعليم " الحر " ، حوالي ثلاثين معلما و مديرا (2) . و سعيا أيضا إلى فرنسة الألسنة و العقول (3) ، تم إبعاد اللغة العربية من الإدارة و فرض اللغة الفرنسية كلغة لغة رسمية في جميع الميادين (4) ، و تشجيع استعمال اللغة العامية في الكتابة و المدارس (5) . كل هذا من أجل تحطيم اللغة العربية ، التي كانت بالنسبة للفرنسية : (( بمثابة الصخرة الغيور ، و العدو الحقود اللدود )) ، على حد تعبير الدكتور " عبد المالك مرتاض (6) .

أما بالنسبة للتعليم في المدارس الفرنسية ، فقد سمحت فرنسا لفئة قليلة من الجزائريين ، بارتياح تلك المدارس على غرار أبناء الجالية الأوروبية ، لحاجتها الشديدة لخلق نخبة ثقافية و سياسية مفرنسة ، تستعملها كأداة هدم لمقومات الشخصية الجزائرية ، و لحاجتها إليها في تولي بعض المناصب الإدارية ، التي يتطلب أن يشغلها أبناء الأهالي (7) ، لكن في حدود ضيقة ضيقة خوفا من أن يتحول المتعلم الجزائري المفرنس ، إلى سلاح ضد فرنسا ذاتها (8) .

(1) - الفضيل الورثياني ، المصدر السابق ، ص 90 .

(2) - العربي الزبيري : المتفقون الجزائريون و الثورة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، م و ن ا ، الجزائر : 1995م ، ص 72 .

(3) - عبد المالك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ( 1925م - 1954م ) ، ط 2 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 ، ص 21 .

(4) - رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص ص 92-93 .

(5) - عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 29 .

(6) - عبد المالك مرتاض ، المرجع نفسه ، ص 35 .

(7) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 198 .

(8) - رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص 104 .

فكانت هذه المدارس ؛ التي تستقبل في صفوفها بعض الجزائريين ، تقدم لهم تعليماً يمجّد كل ما هو فرنسي حضارة و ثقافة و جغرافية ، و يمقت كل ما هو عربي و جزائري (1)، وفق منهاج تربوي محكم ، يحاول تنشئة أجيال جزائرية مقطوعة الصلة بمقوماتها و جذورها (2) ، ليجعل في النهاية هؤلاء المتعلمين الفرنسيين يرددون بصوت مرتفع : (( أجدادنا هم القولا - سكان فرنسا الأقدمون - ، الرومان هذبونا و مدنونا ، أكبر رجالنا نابليون بونابرت ، قديستنا القومية جان دارك ... إلخ )) (3) .

أما الظروف التي كانوا يتعلمون فيها فهي غير مناسبة تماماً ، عدد محدود للحجرات الدراسية التي تعرف اكتظاظاً كبيراً ، و تعتمد في اختيار أضعف المعلمين ، و فارق شاسع في الميزانية المخصصة لهم ، مقارنة مع نظيرتها التي تخصص لأبناء الأوروبيين (4) . و هو ما يفسر انخفاض نسبة التمدرس خاصة في الأرياف ، إذ كان يلتحق بالمدرسة الفرنسية ، طفل جزائري واحد من بين خمسين أو سبعين طفلاً وصلوا إلى سن التمدرس (5) .

أما بالنسبة للتعليم العالي ، فلم يكن مفتوحاً إلا في وجه أبناء الأعيان المتعاونين مع السلطات الاستعمارية ، و لذلك فإن نسبة الطلبة الجزائريين ، كانت لا تزيد عن 15/1 من مجموع الطلبة الجامعيين (6) .

و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تم الاستيلاء حتى على المكتبات العمومية ، و نهب مخطوطاتها و كتبها و إحراقها ، و هذا منذ أيام الأولى للاحتلال ، مثل ما حدث لمكتبة " الأمير

(1) - عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 20 .

(2) - رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 104 .

(3) - أحمد توفيق المدني : حياة كفاح (مذكرات) ، ج 2 ( 1925م - 1954م ) ، ش و ن ت ، الجزائر : د ت ، ص 32 .

(4) - رابح تركي ، المرجع نفسه ، ص 104 و ما بعدها .

(5) - أحمد محساس ، المرجع السابق ، ص 73 .

(6) - المرجع نفسه ، ص 67 .

عبد القادر " ( 1807م-1883م ) الذي كان يفتني آثار الجيش الفرنسي في الصحراء ، بأوراق كتب مكتبته المبعثرة <sup>(1)</sup> .

و قد وصف الزعيم المصري " محمد فريد " (1868م-1919م)<sup>(2)</sup> ، الذي زار الجزائر في أوائل القرن العشرين ، الحالة التي آلت إليها الثقافة في البلاد قائلا : (( أصبحت و ليس فيها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع ، و قل الطالب و المطلوب و هجرت ربوع العلم ، و خربت دور الكتب ، و صارت الديار مرتعا للجهلاء ، و كادت تتدرس اللغة العربية الفصحى ، و باختصار فحالة التعليم بالقطر الجزائري سيئة جدا ، و لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات بل ربما تتدرس اللغة العربية مع مرور الزمن فلا حكومة تسعى في حفظها ، و لا تدع الأهالي يؤلفون جمعيات لفتح المدارس لمنعها أي اجتماع خوفا من أن تشتغل جمعياتهم بالأمر السياسي )) . و الحق أن " محمد فريد " و رغم قصر مدة إقامته بالجزائر ، إلا أنه استطاع أن يلاحظ الوضع المتردي الذي وصلت إليه الأوضاع الثقافية في الجزائر آنذاك ، فجاء وصفه السابق معبرا عن ذلك بأدق تعبير .

و في هذا الصدد أيضا ، قال السيد " مطران " ( MOTRAN ) الذي كان وزيرا فرنسيا سابقا ، و زار الجزائر رفقة وفد من كبار الفرنسيين سنة 1954 م ، و أدلى بشهادته عما شاهد و رأى ، و مما جاء فيها : (( إن مليونين من أبناء المسلمين ، لا يتلقون أي تعليم على أي مقعد مدرسي ، و ذلك بعد أن بسط عليهم النظام الاستعماري رحمته طيلة 125 عاما ، و رأينا أن المسلمين لا يشاركون في التعليم الابتدائي إلا على نسبة 10% و ليس لهم بالتعليم العالي إلا ثلاثمائة طالبا ، و رأينا الأبواب العلمية كلها موصدة في وجه المسلمين ، و خرجنا من كل ذلك بنتيجة عظيمة ، إذا كنا في فرنسا نجهل معنى العنصرية ، فهي في القطر الجزائري القانون الرئيسي المعمول به )) <sup>(3)</sup> . إن شهادة السيد " مطران " هاته ، إضافة إلى تصويرها للوضع

<sup>(1)</sup> - رابح تركي : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، مرجع سابق ، ص 94 .

<sup>(2)</sup> - عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 30 . نقلا عن محمد فريد بك : " التعليم و المدارس في الجزائر " ، جريدة اللواء ، عدد 612 / 13 أكتوبر 1901 .

<sup>(3)</sup> - الفضيل الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص ص 191-192 .

الثقافي الشاذ الذي كانت تحياه الجزائر ، فإنها ذات مصداقية كبيرة ، لكون صاحبها شخصية سياسية مرموقة في الأوساط السياسية الفرنسية .

أما فيما يتعلق بالإعلام ، فإن الجزائر قد عرفت الصحافة في وقت مبكر منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر ( ق 19م ) ، لكنها كانت صحافة فرنسية لا تخدم إلا المصالح الاستعمارية . و في مطلع القرن العشرين (ق20م) ، بدأت في الظهور صحافة جزائرية إصلاحية باللغة العربية ، و لكنها كانت تتعرض إلى التوقيف و المصادرة ، و تعاني معاناة شديدة من مشكل التمويل .

و قد كانت السلطات الإدارية الاستعمارية ، تبرر رقابتها المشددة على تلك على الصحافة الجزائرية ، بحجة تهديدها للأمن العام ، تطبيقا لقرار 28 أوت 1939م ، الذي أعطى للإدارة حق مراقبة المطبوعات و حتى منعها أو وقفها . و بهدف تشويه صورة الصحف الجزائرية كانت تتعتها بالصحف " المعادية " و " التخريبية " <sup>(1)</sup> . و قد عانى الشيخ البشير الإبراهيمي كثيرا من هذه التعسفات الإدارية ، التي كانت تحد من حرية الرأي و الكتابة و الصحافة .

(1) - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص ص 33-45 .

**02- الوضع الثقافي في لبنان :**

على خلاف ما كان عليه الوضع الثقافي في الجزائر ، الذي تميز بالجمود و الركود كنتيجة طبيعية للسياسة الاستعمارية الفرنسية ، التي أمعنت في التجهيل و زرع الأمية وسط الجزائر ، و إقصاء و تهميش فئاته المثقفة . فإن الوضع الثقافي في لبنان ، قد عرف ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ازدهارا و نموا ، بفضل انتشار المدارس و إنشاء المطابع و الصحف و تشكيل الجمعيات .

فبحكم أن لبنان بلد متعدد الطوائف ؛ فقد سعت كل طائفة لإنشاء مدرسة خاصة لتعليم أبنائها ، لاسيما بعد انتشار الإرساليات الأجنبية ، فظهرت مدارس كثيرة متنوعة الاتجاهات ، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف : المدارس العثمانية ، المدارس الأجنبية ، المدارس الوطنية .

**- المدارس العثمانية :** كانت تابعة للدولة و شملت :

- الكتابيب : مثلت النمط القديم في التعليم ، الذي يقوم على تحفيظ القرآن الكريم ، ثم مبادئ القراءة و الكتابة و الحساب .

- المدارس الرشدية : مدارس ابتدائية ، لم تكن متقدمة علميا و حضاريا بالقدر الكافي ، تدرس العلوم الدينية و اللغة التركية ، و مبادئ اللغتين العربية و الفارسية دون اللغات الأوروبية ، أما مدة الدراسة فكانت أربع سنوات في هذه المرحلة .

- المدارس الإعدادية : يتولى فيها التدريس أساتذة من دار المعلمين ، و تقوم بتدريس اللغة التركية و الحساب و الهندسة ، و القانون العثماني و اللغة الفرنسية مع استثناء اللغة العربية ، أما مدة الدراسة فيها فكانت ثلاث سنوات .

- المدارس السلطانية : أنشأت في مراكز الولايات فقط ، لاستقبال الطلبة الناجحين في المرحلة الإعدادية . و الدراسة فيها قسمان : القسم العالي و يشمل شعبتي الآداب و العلوم لمدة ست سنوات . أما القسم العادي ، فتدرس فيه مناهج المدارس الإعدادية باللغة التركية ، و من أراد متابعة دراسة فيتعين عليه الالتحاق بمدارس الأستانة العالية ( العليا ) (1).

(1) - منى حسين الدسوقي : الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية ، ط 1 ، المكتبة العصرية

- المدارس العالية ( العليا ) : تشمل دار المعلمين و المعلمات ، و دار الفنون و مكاتب الفنون و الصنائع المختلفة ، تقبل فقط الطلبة الذين في حوزتهم شهادات في من المدارس الرشدية و الإعدادية و السلطانية .
- المدارس الرشدية العسكرية : ينتقل إليها الطلبة بعد إكمالهم الدراسة في المرحلة الابتدائية ، و بعد إتمام الدراسة بها يلتحقون ، بالمدرسة الإعدادية العسكرية فيخرجون منها برتبة ضباط .
- المدارس الأجنبية ( التبشيرية ) : كانت تقوم بإنشائها الإرساليات و البعثات الدينية الأجنبية ، و خاصة منها : الآباء العازاريون اليسوعيون ، المبعوثون الأمريكيون (1) . و من أشهر تلك المدارس : المدارس المارونية في بيروت ، المعهد البريطاني الإغريقي الكاثوليكي ( Le collège patriarcal grec –catholique de Beyrouth ) ، المعهد الجهوي لزحلة ( Le collège Régional de ZAHLE ) ، و مدرسة الأطباء الثلاث بيروت ( L'école des trois docteurs de Beyrouth ) (2) ، و مدارس البنات الانجليزية و الأمريكية ، و مدارس الراهبات و الكليات اليوسوعية ... ، و غيرها من المدارس التي أنشأها الأجانب بعد حوادث عام 1860م .
- المدارس الوطنية : كانت الطوائف المسيحية السباقة إلى الإفتتاح المدارس في لبنان ؛ و من أقدم تلك المدارس : " الكلية الوطنية " في بيروت للمعلم " بطرس البستاني " ، التي أسسها عام 1863م ، و " المدرسة البطريركية " للروم الكاثوليك التي أنشئت سنة 1865م ، و مدرسة " الحكمة " للمطران " يوسف الدبس " عام 1865م ... إلخ . و من الكليات الإسلامية : " الكلية العثمانية الإسلامية " في بيروت عام 1908م ، التي درس بها نخبة من المتعلمين و المثقفين " كجورجي زيدان " (1861م-1914م) و الشيخ "مصطفى الغلاييني " (3) .

(1) - منى حسين الدسوقي : المرجع السابق ، ص 22 ، 23 ، 24 .

(2) - BERGER – LEVRAULT : La Syrie et le liban sous l'occupation et mondât français 1919-1927 , éditeurs Nancy , paris , strasbourg , 1929.P 96 .

(3) - ينظر منى حسين الدسوقي ، المرجع نفسه ، ص 124 و ما بعدها .



و على ضوء كل ذلك ، يظهر أن التعليم في لبنان خلال العهد العثماني ، كان مرتبطا بالديانات و المذاهب ، لأن الدولة العثمانية لم تنظر إلى التعليم كوظيفة من وظائفها الأساسية ، إذ ركزت جل اهتمامها على حماية أراضيها ، و محاولة التوسع متى سمحت لها الظروف بذلك ، و على بناء نظام داخلي للحكم يضمن لها الاستقرار و يحفظ لها وجودها . و هو ما يفسر تركيز سلاطينها كل جهودهم من أجل تعزيز القوة العسكرية ، و ضمان ولاء المقاطعات الخاضعة للإمبراطورية . فأخذت جميع الطوائف المسيحية و الإسلامية و اليهودية على عاتقها مهمة الاضطلاع بالتعليم و إدارة شؤونه ، مستفيدة من الامتيازات و التنظيمات التي توفرها الدولة . كما استغلت الدول الكبرى هذا الوضع ، لفتح الطريق أمام البعثات التبشيرية الغربية لمزاولة نشاطها في الإمبراطورية بصورة عامة و في لبنان بصورة خاصة . و كان من نتائج ذلك أن أصبحت المقاطعات اللبنانية ، من أكثر أجزاء السلطنة ازدهارا في ميدان التربية و التعليم ، حيث كان الإمام بالقراءة و الكتابة واسع النطاق في بيروت و صيدا و طرابلس و أغلب مناطق الجبل . مع تفوق واضح للطوائف المسيحية ، بسبب الدعم الغربي لها ، لتتحول إلى مدخل استخدمته تلك الدول للنفوذ إلى المنطقة . على حساب الطوائف الإسلامية ، التي كان حظها ضعيفا في الحقل التعليمي و التربوي ، لافتقادها للدعم الكافي المقصور على السلطنة ، و لحذرهما الشديد من تلك السياسة التي رأت فيها محاولات لطمس هويتها و مقوماتها الحضارية (1) .

أما أثناء الانتداب الفرنسي ؛ فقد استمرت حرية التعليم القائم على الطائفية و المذهبية ، مع تدخل متزايد لحكومة الانتداب في شؤونه ، باشتراط الحصول على الموافقة الرسمية لفتح المدارس ، و السعي لطمس معالم الثقافة و الحضارة العربية خدمة لأهدافها الاستعمارية ، من خلال جعل اللغة العربية لغة ثانوية ، تقتصر على بعض المدارس التي تستقبل أبناء الطبقات الفقيرة من اللبنانيين ، في مقابل فرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية للتعليم ، و تكريس المناهج و الأساليب و أنظمة الامتحانات و المراتب العلمية و معادلتها ، و الكتب المدرسية الفرنسية

(1) - ينظر علي عبد فتوني ، المرجع السابق ، ص 10 و ما بعدها .

المعتمدة في العملية التربوية . و قد استمر هذا الوضع ، حتى بعد حصول لبنان على استقلاله لسنوات طويلة (1) .

و الدور ذاته كان للإرساليات الأجنبية و الطوائف الدينية في مجال الطباعة ، فقد تم تأسيس أول مطبعة في لبنان سنة 1610م في " دير قزحيا " بإيعاز من البابا الماروني ، و التي طبعت كتاب " المزامير " باللغة السريانية و اللغة العربية ، انتشرت بعد ذلك المطابع في كامل لبنان على يد كبار القساوسة ، الذين أدركوا أهمية فن الطباعة في نشر الأفكار و توعية الناشئة و هذا و قد مثل تأسيس المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1834م ، أكبر حدث في مسار حركة الطباعة بالمنطقة ، على مستوى نوعية المؤلفات و كميتها المطبوعة ، حيث تزايدت الكتب المدرسية و المؤلفات العلمية ، التي نهل من معينها كتاب و مفكرو النهضة الحديثة . كما قدمت تلك المطبعة يد المساعدة للمؤسسات المحلية ، فيما يتعلق بالحصول على المطابع ، و المعدات التي تحتاج إليها ، و تدريب العمال على تقنيات العمل المطبعي ، و قد أدى التنافس الطائفي إلى ظهور المطبعة الأرثوذكسية و المطبعة الكاثوليكية ، فكان من ثمار ذلك ازدياد حركة الوعي في كامل البلاد ، و تبلور عوامل النهضة من صحافة و مدارس . و سرعان ما استقطبت الحركة المطبعية ، أبرز كتاب النهضة و مفكريها ، الذين اهتموا بالتصحيح و التأليف و الترجمة . و من أشهر المطابع التي ظهرت بعد المطبعة الأمريكية : " الجوائب " لأحمد فارس الشدياق (1861م-1898م) التي ظهرت عام 1870م ، " المعارف " لبطرس البستاني (1898م-1969م) عام 1867م ، " المطبعة الوطنية " 1865م ، المطبعة الشرقية " 1858م لإبراهيم النجار ، " المطبعة السورية " بيروت 1857م ... إلخ (2) .

لقد ساهمت الحركة المطبعية النشطة ، التي شهدها لبنان في العهد العثماني و أثناء فترة الانتداب الفرنسي ، في ازدهار الترجمة و خاصة الكتب الدينية ( التوراة و الإنجيل ) ، من لغاتها الأصلية إلى العربية ( و التوراة من العبرية ، و الإنجيل من اليونانية ) . و في إصدار الكثير من المعالم و دائر المعارف التي مازالت ذات قيمة علمية لغاية الآن ، إضافة إلى الكتب اللغوية و الأدبية الراقية و دواوين الشعر . أما الجرائد و المجالات ، فقد بلغ عددها سنة 1892م

(1) - للمزيد ينظر على عبد فتوني ، المرجع السابق ، ص 29 و ما بعدها .

(2) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 84 و ما بعدها .

أربع عشرة جريدة و مجلة (1) ؛ و من أبرزها : " مرآة الأحوال " 1855م ، " السلطنة " 1857م ، " حديقة الأخبار " 1858م ... و كلها مسيحية . أما الجرائد الإسلامية فلم تظهر إلا في سنة 1875م ، أين أنشأت جريدة " ثمرات الفنون " . و فضلا عن الصحف الدينية ، كانت هناك الصحف السياسية مثل : " نفيير سوريا " لبطرس البستاني ، و " لسان الحال " لخايل سركيس (1842م-1915م) ، و العلمية مثل : " الحقوق " ، " الشفاء " ، " التجارة " ، " النحلة " . و الأدبية كـ : " الجنان " ، " الزهرة " ، " المقتطف " ، " الهلال " . و منها من كانت جامعة ؛ فشملت الاجتماع و العمران و العلم و الأدب و التاريخ ، و النقد و السياسة : " كالنبراس " التي أسسها الشيخ مصطفى الغلاييني .

و مجمل القول أن الصحف في لبنان ، كانت نتاجا لجهود الأفراد و الجماعات ، و ليس نشاطا رسميا تقوم به الدولة ، فقد اضطلعت كل جريدة بمهمة نشر دعوة مؤسسها ، و الترويج لأفكاره الدينية أو الطائفية أو القومية (2) .

كما عرف لبنان في عصر شكيب أرسلان ، ازدهار فن المسرح ، حيث يعد البلد العربي الذي ولدت فيه أول مسرحية عربية على يد " مارون النقاش " ( 1815م - 1855م ) ، الذي أقام مدة من الزمن في إيطاليا أين مثل روايته " البخيل " ، ثم تلا ذلك العمل بروايات أخرى . و قد لاقى عمله التمثيلي هذا ، مقاومة شديدة ، ولخشية العامة من أن يكون المسرح عاملا مفسدا للأخلاق و الآداب ، لكن الأمر اختلف فيما بعد ، إذ وصل عدد الروايات المسرحية سنة 1915م إلى أكثر من 900 رواية (3) .

(1) - فيليب حتي : تاريخ لبنان ، مرجع سابق ، ص 561 و ما بعدها .

(2) - منى حسين الدسوقي ، المرجع السابق ، ص 26 و ما بعدها .

(3) - فيليب حتي ، المرجع نفسه ، ص 569 .

(\*) - أورد جورج أنطونيوس أن : أن اللغة العربية الفصحى عرفت انحطاطا و فسادا كبيرين في بلاد الشام خلال القرن 18م ، ظهرا في استخدامها لدى العامة بدون ضوابط و في الإنتاج الأدبي الذي اتصف بالمحدودية و الانكماش و قلة الإبداع ، رغم محاولات النهوض بها في تلك الأثناء . جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عباس ، ط8 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1987م ، ص ص 101-102 .

و لقد استفادت اللغة العربية كثيرا من هاته الحركية الثقافية ، إذ تحولت بفضل أولئك الكتاب و الأدباء اللبنانيين ، من لغة لا يتعدى استخدامها حدود العامة و الشعر و الدين (\*)، إلى : (( لغة مرنة طيعة تصلح للتعبير عن العلوم التكنولوجية و الفلسفية و الشعرية و عن العلوم الطبيعية بدقة و وضوح )) . و هي اللغة الغنية بجذورها ، و من تلك الجذور ، استطاع أولئك الكتاب و الأدباء صياغة كلمات فريدة ، وفق قوانين الاشتقاق العربي المتعارف عليها . تماما مثلما كان عليه الحال في القرن التاسع الميلادي ، لما نقلت العلوم و الفلسفة الإغريقية إلى بغداد (1) .

و بناء على ما تم عرضه يتضح لنا ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان قد نشأ في بيئتين ثقافيتين مختلفتين ؛ فقد ذهبت فرنسا بعيدا في سياستها التجهيلية للمجتمع الجزائري ، إدراكا منها أن الأمية هي عامل أساسي لتكريس بقائها في الجزائر ، فإذا فتحت أبواب العلم و المعرفة و الثقافة أمام الأهالي ، فسيصبح وجودها في البلد مهددا في أية لحظة . لأن ذلك سيسمح في تقديرها بقيام نهضة وطنية شاملة ، تجعل من محاربة الاستعمار و القضاء عليه ، هدفا رئيسيا لها .

و هو ما دفع الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ إلى أن يصرخ عاليا في وجه فرنسا قائلا : (( و ليقع الاستعمار أو ليطر فإننا نتعلم لغتنا و ديننا ، و لو في سم الخياط ( ثقب الإبرة ) أو على مثل حد الصراط ( الجانب الحاد من السكين ) )) (2) . و هو رد عنيف من لدن الإبراهيمي ، يحمل في ثناياه تحديا كبيرا لفرنسا ، التي أرادت بسياستها الثقافية تلك ؛ أن تحول الجزائر إلى بلد للجهل و الجهلاء . و منه فإن فرنسا ؛ قد اتبعت في المجال الثقافي خطين متوازيين في وقت واحد : الخط الأول هو تهديم أسس الثقافة العربية و الإسلامية في البلاد ، و الثاني هو نشر الأمية من أجل التحكم في الشعب الجزائري و استمرار بقاء الاستعمار في بلاده .

(1) - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 570 .

(2) - ينظر محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق .

و خلافا لذلك ، فإنه و بالرغم من أن النهضة الثقافية في لبنان ، قد قادت بها الطوائف الدينية و الجماعات المذهبية و العرقية ، و الإرساليات التبشيرية المسيحية الغربية ، على اختلاف ولائها المذهبي و السياسي ، فإن ذلك لم يمنع من جعل لبنان بلدا منتجا للفعل الثقافي و الفكري و الأدبي فحسب ، بل يتبوأ مركز الريادة في العالم العربي الإسلامي . و لا غرابة أن يكون المهدي ، الذي انطلقت منه الطلائع الأولى للحركة القومية العربية الحديثة ، بغض النظر عن خلفياتها و الأطراف المستفيدة منها . و بالتالي يمكن القول أن الفترة التي عاشها الأمير شكيب أرسلان ؛ و خاصة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تعد من أخصب الفترات في تاريخ الثقافة العربية في لبنان بصورة خاصة ، و في المشرق العربي بصورة عامة . وهو ما يفسر كون أن الجزائريين كانوا ، يقصدون الحواضر العلمية في مصر و الشام و الحجاز ، لتحقيق طموحاتهم العلمية و المعرفية ، التي اصطدمت في بلادهم بالجهل و الجمود اللذان كانا يخيما على بلادهم و يكادا أن يطبقا عليها . و بطبيعة الحال أن فرص الوصول إلى ذلك ، لم تكن متاحة للجميع ، حيث يتطلب الأمر إمكانات مادية معتبرة ، و استعدادا بدنيا و نفسيا كبيرين ، لبعد المسافة بين الجزائر و المشرق العربي ، و التكاليف المالية الكبيرة ، التي تتطلبها إقامة الطلبة هنالك . و في هذا عانى الشيخ البشير الإبراهيمي كثيرا ، حتى استطاع أن يحقق مبتغاه . و هو ما لم يكن مطروحا بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، الذي وجد المجال مفتوحا أمامه ، لكي يلم بثتى العلوم و المعارف ، في كنف أسرته الغنية ، التي كانت إمكاناتها المادية تسمح لها بتوفير تعليم راق جدا له و لإخوته في البيت العائلي ، دون الحاجة حتى إلى الذهاب إلى المدارس ، المنتشرة في لبنان و الشام ، و هو ما سنكتشفه أثناء حديثنا عن نشأة و تعليم الرجلين في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

و الحق أن - القحط الثقافي - الذي دفع فئة معتبرة من الجزائريين ، إلى مغادرة الجزائر باتجاه المشرق حيث فرص التعليم أكثر و شروط العليم أفضل ، بقدر ما كان مرهقا لهم و لعائلاتهم ماديا و معنويا ، فإنه من جانب آخر ساهم في استمرار و تعزيز أواصر التقارب بين المغرب و المشرق ، و خاصة أن الدول الاستعمارية الكبرى و على رأسها فرنسا ، قد سعت بكل الطرق إلى قطع الصلة الحضارية التي تربط بين طرفي العالم العربي . فكان من

ثمار ذلك اجتماع القوى المؤثرة في العالم العربي الإسلامي : (( على مناصرة القضايا المصيرية التي تمس - العرب - و المسلمين بغض النظر عن مراكز وجودها بفضل ... شعورها العميق بالانتماء لأمة واحدة ، و تعرضها لعدو مشترك )) . فكلما استجبت مؤامرة تمس بلدا من تلك البلدان ، أسرع العلماء و المصلحون إلى تشكيل الجمعيات ، لإظهار المناصرة له و حشد الجماهير و الرأي العام للدفاع عنه . و بفضل كل ذلك ، حفظت الصلات الحضارية بين الجناحين العربيين ، و ساهم بقدر كبير في تحرير تلك البلدان من نير وقيود الاستعمار الغربي (1) .

---

(1) - ينظر مولود عويمر : أعلام و قضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر ، تصدير أبو القاسم سعد الله ، ط 1 ، دار الخلدونية ، الجزائر : 2007 م .

**المبحث الخامس : الوضع الديني في الجزائر ولبنان :****01 - الوضع الديني في الجزائر :**

كان الإسلام ، هو الدين الذي يدين به تسعة و تسعون بالمائة ( 99% ) من الجزائريين ، قبل سقوط الجزائر بين مخالب الاستعمار الفرنسي ، و كانت أماكن العبادة من مساجد و زوايا منتشرة في المدن و الأرياف ، يؤمها الناس من كل مكان ، لأداء شعائرتهم بكل حرية و اقتناع ، و كان هناك تعايشا بين المذهبيين السائدين في البلاد و هما المذهب الحنفي ( مذهب الدولة العثمانية ) ، و المذهب المالكي ( مذهب الجزائريين ) . كما كانت يسود المجتمع فكرة التضامن الإسلامي ، بين كافة عناصر السكان ، بل كانت كل من الديانتين المسيحية و اليهودية محترمة ، يؤدي أصحابها طقوسهم الدينية في كنائسهم أو معابدهم ، بكل حرية أيضا .

و لكن مع سقوط البلاد ، تحت ضربات قوات الاحتلال ، شرعت فرنسا في محاصرة الدين الإسلامي و مؤسساته ، و مقاومته في كل مكان بروح صليبية حاقدة ، نلمسها في تصريحات رجال الدين المسيحيين و القادة السياسيين و العسكريين الفرنسيين ، و منهم الكاردينال : " شارل لافيغري " ( CHARLES LAVIGERIE ) (\*)<sup>(1)</sup> ، الذي صرح بأنه يتعين على فرنسا بأن تحرر الشعب الجزائري من قرآنه .

و بناءا على هذا التصريح ؛ و غيره من التصريحات رجال الدين الآخرين ، راحت إدارة الاحتلال تخضع شؤون الدين الإسلامي لسلطتها ، ناقضة بذلك ما التزمت به في معاهدة 05 جويلية 1830م (\*\*\*) ، التي تعهدت فيها باحترام الدين الإسلامي و مقدساته و رموزه<sup>(2)</sup>.

(\*) - شارل لافيغري ( CHARLE LAVIGRIE ) : هو لافيغري شارل مارسيل ألمان ، ولد سنة 1825م في مدينة " بايون " بجنوب فرنسا ، تولى منصب رئاسة أسقفية الجزائر ، و قام بتأسيس فرقة ( الآباء البيض ) ، التي تكفلت بمهمة التبشير المسيحي في شمال و وسط إفريقيا .

<sup>(1)</sup> - عبد الرحمان سلوادي ، المرجع السابق ، ص 29 .

(\*\*) - معاهدة 5 جويلية 1830 م : تم تحريرها من طرف قائد الحملة الفرنسية على الجزائر (دوبر مون ) ( DEBOURMONT ) ، و وقع عليها الداوي حسين .

<sup>(2)</sup> - خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية في الجزائر 1830م - 1871م ، د ط ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1992 م ، ص 20 .

إذ بدأت بالاستيلاء على المساجد ، و قامت بتحويل أغلبها إلى كنائس و مصالح إدارية و عسكرية و تجارية ، بل هدمت البعض الآخر بحجة المصلحة العامة ، و توسيع الشوارع و الحدائق و المساحات العمومية ، مما أدى إلى تناقص أعدادها تناقصا كبيرا في كل أنحاء الجزائر . و على سبيل المثال فقد كان بمدينة الجزائر وحدها سنة 1830م مائة و ستون ( 160 ) مسجدا ، لم يبقى منها سنة 1961م إلا حوالي ثمانية مساجد . و من أشهر المساجد التي تعرضت إلى الاعتداء ، مسجد ( كتشاوة ) (\*) الذي تم تحويله إلى كنيسة كاتدرائية ، في عهد " الدوق دوروفيقو " ( DUC DORIFIGO ) ، تحمل اسم القديس " سانت فليب " ( SAINT PHILLIPE ) . و قد اختير هذا المسجد بالذات ، نزولا عند رغبة " دورو فيفو " الذي طالب جنوده ، أن يختاروا له أجمل مسجد في مدينة الجزائر ، فكان له ما طلب (1) ، و المصير ذاته لقيه مسجد " حسين باي " بقسنطينة ، إذ حول إلى كنيسة راقية .

أما المساجد التي أبقت عليها السلطات الاستعمارية و عددها قليل ، فقد عينت للإشراف عليها ، شريحة من الجزائريين كونتهم تكويننا خاصا باللغة العربية و الفرنسية ، منفذين لأوامرها ، لا يتصرفون في شؤون تلك المساجد ، إلا بإذن من الحكام المحليين في كل مدينة أو قرية . و قامت بإبعاد الأئمة و علماء الدين الجزائريين ، الذين كانت ترى في بقائهم خطرا على سياستها الاستعمارية في البلاد (2) . بل فإنها عمدت ، إلى إسناد الإشراف على بعض الهيئات الدينية الإسلامية ، إلى موظفين مسيحيين ، و لبعض الجنود الجزائريين الذين حاربوا مع فرنسا في الحرب الكونية الأولى ، مكافأة لهم على جميلهم (3) .

أما بشأن الأوقاف ، فقد تم الاستيلاء عليها بمقتضى قرار 07 ديسمبر 1830م ، لتصبح من أملاك الدولة الفرنسية ، بأنواعها المختلفة : ( أوقاف الطرق ، العلوم ، أوقاف مكة و المدينة ، أملاك الجيش ) (4) . و لقد كانت هذه الأوقاف ، بمثابة مراكز اجتماعية

(\*) - كتشاوة : و معناها باللغة التركية سوق الماعز .

(1) - عبد الحميد خزار : " جذور الحركة التصيرية في الجزائر " ، مجلة الرواسي ، جمعية للإصلاح

الاجتماعي و التربوي ، باتنة ، الجزائر : العدد 07 / فيفري / مارس 1993 م ، ص 101 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 196 .

(3) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 193 .

(4) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص ص 24-25 .



و اقتصادية ذات منفعة عامة ، تتكفل باحتياجات الفقراء من تعليم و مسكن و طعام ، و إلى غير ذلك من الخدمات العامة و الإنسانية (1) . و قد أوكل أمر تسييرها إلى وكلاء ، يجهلون تماما طرق تسييرها ، اغتتموا الفرصة لتحويل جزء من عائداتها لحسابهم الخاص (2) .

مع العلم أن هذه الأوقاف ، كانت تمثل في كامل أنحاء الجزائر نحو 66% من إجمالي الأملاك العقارية و الزراعية ، و يعود ذلك إلى : ( شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد و الزوايا و أضرحة الأولياء و أندية العلم و الحرمین الشریفین خاصة ) . و قد بررت الحكومة الفرنسية إغتصابها للأوقاف ، بأن الجزائريين غير مؤهلين لتسييرها إداريا و ماليا ، لأنها مهام من إختصاص الإدارة الفرنسية (3) .

و حتى الركن الرابع في الإسلام و هو الصوم ؛ لم يسلم من يد الإدارة الإستعمارية ، إذ عمدت إلى إنشاء " لجنة الأهلة " ، من موظفين و قضاة و أئمة ممن يأتزمون بأوامرها ، بغرض التفريق بين المسلمين في بدء الصوم و في يوم العيد ، و هو ما خلق إضطرابات كبيرة في مواعيد هذه الشعائر الدينية الهامة (4) . والمصير نفسه لقيه الحج ، إذ كانت السلطات الفرنسية لا تمنح رخص الحج للجزائريين الراغبين في أداء هذه الفريضة ، إلا بعد أن يدفعوا الرشوة (5) . وقد حدث في الكثير من المرات ، أن قامت بمنع الحج عن بعض الجزائريين ، بقرارات رسمية مثل قرار سنة 1908م ، الذي أصدره الحاكم العام " جونار " ( JONARD ) (6) و رغم صدور قرار 07 ديسمبر 1905 م ، الذي فصل أمور الدين الإسلامي عن سلطة الحكومة الفرنسية ، إلا أن فرنسا استمرت في تدخلها و تسييرها لشؤون الدين الإسلامي ، طيلة فترة الاحتلال ، في الوقت الذي حررت فيه الديانتين المسيحية و اليهودية .

(1) - عبد الحميد خزار ، المرجع السابق ، ص 101 .

(2) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص ص 24 - 25 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 18 .

(4) - صالح خرفي : الجزائر و الأصالة الثورية ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م ، ص ص 171-172 .

(5) - ينظر مجلة حضارة الإسلام ، العدد 6 ، مرجع سابق ، ص 85 .

(6) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 110 .

و لكي تبرر اعتدائها هذا على الدين الإسلامي ، و تسكت الاحتجاجات الشديدة من لدن الأهالي ، كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، تحاول إقناعهم بأن تدخلها في أمور دينهم ، هو من مصلحة المسلمين (1) .

و هكذا ، ففي الوقت الذي كانت فيه السلطات الاستعمارية تحاصر الدين الإسلامي و مؤسساته ، كانت الكنيسة الكاثوليكية تقود حملة تبشيرية واسعة النطاق ، مستخدمة الجمعيات التنصيرية ، و الرهبان و القساوسة الذين كانت ترسلهم إلى الجزائر ، بهدف تمسيح أكبر عدد ممكن من المسلمين ، و ضمهم إلى أحضان الدين المسيحي . معتمدة في ذلك القيام بالأعمال الخيرية : كإنشاء المستشفيات ، و دور اليتامى و العجزة و المدارس للبنين و البنات ، و توزيع الصدقات المالية و الطعام على الفقراء و المعوزين ، و خاصة أثناء الكوارث الطبيعية : كالمجاعات و الأوبئة و الجفاف ، مثلما حدث في سنوات 1866 م - 1869 م ، التي عرفت فيها الجزائر مجاعة رهيبية . بسبب الجفاف ، حصدت مئات الآلاف من الضحايا ، و جعلت الجياع ينتشرون في كامل البلاد ، يقتاتون من الجذور و الأعشاب ، و من المزابل و الفضلات . فظهر الكاردينال " شارل لافيغري " ، الذي إستغل ظروف تلك المأساة الإجتماعية ، و أنقذ الكثير من الجياع و المرضى من الهلاك ، بإسم الصليب و فرنسا ، و جمع ما يقارب ألف و ثمانمائة ( 1800 ) طفل مشرد و يتيم و مريض ، و وزعهم على العديد من المراكز التي أنشأت خصيصا لهم ، قصد معالجتهم و تنصيرهم . و كانت عمليات التبشير و التنصير ، تتركز في مراكز محددة من البلاد : كالقرى الفقيرة و الجبلية ، و منطقة القبائل (2) . و قد سار على هذا الدرب ، كل المبشرين الذين جاؤوا بعد الكاردينال " لافيغري " .

و من ناحية أخرى ، و عملا بسياسة فرق تسد ، عملت فرنسا على خلق الصراعات المذهبية بالجزائر ، كذلك الصراع الذي إندلج بين الإباضيين و المالكيين في " غرداية " حول الأذان ، فقد كان هناك تقليد قديم في المدينة ، يقر أن آذان الصلوات لا يرفع إلا من مسجدها

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 119 .

(2) - ينظر خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 105 و ما بعدها .

القديم ، فخالف ذات يوم المالكية هذا التقليد و كانوا أقلية في المدينة ، برفع الأذان من مسجدهم الصغير ، فاستغلت فرنسا هذه الحادثة ، لتزيد في هوة الخلاف و الخصام بين الفريقين (1) .  
و جملة القول ، أنه بالرغم من المجهودات الجبارة ، التي بذلتها السلطات الفرنسية للقضاء على الإسلام و مؤسساته ، باعتمادها على جيوش جرارة من المبشرين المسيحيين ، و بتحالفها مع شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، الذين كانت لهم اليد الطولى في نشر البدع و الخرافات ، و تشويه وجه الإسلام السني الصحيح ، إلا أن الجزائريين ظلوا متمسكين بدينهم ، ملتزمين بأداء فرائضه ، محافظين على مقدساته و أخلاقه و مبادئه السامية ، معتمدين على أنفسهم ، في إعادة بناء المساجد و الزوايا و المدارس القرآنية ، التي تشكل حجر الزاوية في حياتهم اليومية .

و الواقع أنه ، حتى الأئمة و المفتين الذين كونتهم فرنسا تكويننا خاصا ، للإشراف على المؤسسات الدينية الإسلامية ، قد تحولوا بدورهم إلى مصلحين وطنيين ، ينشرون العلم بين مواطنيهم ، و يذودون عن الإسلام و حماه في الجزائر ، و قد كانوا يمثلون الانطلاقة السليمة ، للحركة التجديدية التي قادها الشيخ عبد الحميد ابن باديس ( 1889 م - 1940 م ) و الشيخ البشير الإبراهيمي ( 1889 م - 1965 م ) ، و رفاقهما بعد الحرب العالمية الأولى (2) .

(1) - أحمد توفيق المدني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 212 .

(2) - بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية ( 1920 م - 1965 م ) ، مرجع سابق ، ص 31 .

**02 - الوضع الديني في لبنان :**

يتميز لبنان عن كل البلاد العربية و الإسلامية ، بتعددته الدينية و الطائفية و المذهبية ، حيث ينقسم سكانه وفقا للانتماء الديني إلى مسيحيين و مسلمين ، و بدورهم ينقسم المسيحيون إلى عدة طوائف هي : الموارنة ، الأرثوذكس الشرقيين ، الكاثوليك الشرقيين و البروتستانت . أما المسلمين ، فينقسمون إلى شيعة و سنة و دروز .

و من المعروف أنه خلال القرن الخامس الميلادي ، كان أغلب سكان لبنان و سوريا قد اعتنقوا الدين المسيحي ، و كانت السريانية هي اللغة السائدة بينهم <sup>(1)</sup> . و لمعرفة أسباب هذا الانقسام داخل الديانة الواحدة ، ينبغي الرجوع إلى الأزمان الأولى للمسيحية في المنطقة ، حيث تكونت الطوائف المسيحية الأولى في الشرق انطلاقا من جذع مشترك ظهر في " أنطاكية " ، التي كانت تمثل مركز الولاية الرومانية في سوريا ؛ و هي مدينة واسعة تعيش فيها نصف مليون من السوريين من يهود و يونان و رومان ، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى حاضرة أسقفية الشرق ، أين بشر القديس " برنابا " (\*) و القديس " بولس " (\*\*\*) و القديس " بطرس " (\*\*\*) ، و هي في وقتنا الحالي أرض تابعة للجمهورية التركية . و قد انفجر هذا الجذع المشترك لأول مرة ؛ في القرن الخامس ميلادي ، لما انفصل " النساطرة "

(1) - عارف العبد : لبنان و الطائف ( تقاطع تاريخي و مسار غير مكتمل ) ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2001م ، ص 31 .

(\*) - القديس " برنابا " : هو رفيق " بولس الرسول " في التبشير الديني المسيحي ، من أصل قبرصي . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - القديس " بولس " : اشتهر بلقب رسول الأمم ، كان في البداية من أعنف مضطهدي المسيحية ، و بعد أن عمد " حننيا " على طريق دمشق ، اندفع متفانيا في التبشير بين مدن آسيا الصغرى و اليونان . كان اسمه قبل اهتدائه " شاوول " ، قتل في روما بقطع الرأس سنة 67 م . خلف أربع عشر رسالة ، وجهها إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*) - القديس " بطرس " : ( نحو 10 ق م - 67 م ) هو سمعان بن يونا أول رئيس على الكنيسة ، احترف صيد السمك ، إدعى أن المسيح قد وضعه رئيسا على الرسل ، أقام في أنطاكية ، و قتل في روما أيام " نيرون " . المنجد في اللغة و الأعلام .

أو " النسطوريون " ، الذين يؤمنون بمذهب " نسطوريوس " بطريك القسطنطينية عام 428 م ، الذي أدين من مجمع أسس عام 431 م ، و حكم عليه بالنفي في صحراء مصر عام 435 م ، بتهمة التمييز بشيء من الإفراط في شخص المسيح الطبيعة البشرية على حساب طبيعته الإلهية. و إنفصال " اليعاقبة " القائلون بطبيعة واحدة للمسيح ، و المنشقون بعد مجمع " خلقيدونية " في 451م ، و تكوينهم للكنيسة " اليعقوبية " أو " المونوفيزية " القائلة بالطبيعة الواحدة حيث سميت باسم يعقوب البرادعي ، و هو راهب سوري ، و " أوديسا " و هي كنيسة تتبع إلى اليوم مطران أنطاكية ، و تنتشر كنائسها في سوريا و العراق و فلسطين و قبرص و مصر و أرمينيا و الحبشة.

و إنفصال الأقباط ، الذين أسسوا لأنفسهم كنيسة قومية في مصر ، مع إحتفاظهم بولائهم لبطريك الأسكندرية ، الذي أدين من قبل مجمع " خلقيدونية " لإعلانه دعم المذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة . و انفصال الأرمن ، الذين تهيكلوا في كنيسة أرمينية غريغورية ( أورسولية ) ، و رفضوا القبول بقرارات مجمع " خلقيدونية " لعام 451 م . و قد أدى التنافس بين بيزنطة و روما ، إلى تركيس الانقسام المسيحي في المنطقة ، لينتهي الوضع في لبنان و في الشرق الأدنى ، بانقسام المسيحيين فيه إلى كاثوليك و أرثوذكس و بروتستانت (1) .

و في هذا الصدد ، تعد الطائفة المارونية من أهم الطوائف المسيحية في لبنان ، التي أقامت علاقات جيدة في وقت مبكر مع الصليبيين ، و مع الفرنسيين منذ 21 ماي 1250 م تاريخ حصولهم على تعهد من فرنسا بحمايتهم ، و الذي مثل بداية لود تقليدي بين المسيحيين و الغرب في لبنان (2) ، لازال مستمرا إلى يومنا هذا . و الحماية ذاتها تمتعت بها الطوائف المسيحية الأخرى ، خاصة أثناء فترة الحكم العثماني للمنطقة ، فقد تنافست الدول الكبرى آنذاك ممثلة في بريطانيا و روسيا و فرنسا لاحتواء تلك الطوائف ، بالتقرب إليها عن طريق

(1) - ينظر لورانت شابري ، آني شابري : سياسة و أقليات في الشرق الأدنى ( الأسباب المؤدية إلى

الانفجار ) ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة : 1991م ، ص 399 .

(2) - ينظر عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، د ط ، دار المعرفة

الجامعية ، القاهرة : 2005 م ، ص 277 ، 278 ، 279 .

المساعدات المتنوعة التي كانت تقدمها لها ، و البعثات التبشيرية المسيحية التي تغلغلت في وقت مبكر في المنطقة ، و تمكنت من تحويل ولاء تلك الطوائف إلى الدول الكبرى ، الراعية للتبشير بدلا من الحكم المحلي (1) .

أما الإسلام فقد اعتنقته أكثريته سكان سوريا ، عند ظهوره و انتشاره في المشرق (\*)، و لقد تأثر سكان المناطق اللبنانية و خاصة الجبلية منها ، تأثرا كبيرا بهذا الدين الجديد عقائديا و ثقافيا و اجتماعيا ، في حين كان هذا التأثير قليلا نسبيا في الجهات الساحلية و الداخلية (2) ، و لم يسلم معتقوه في لبنان كما في أغلب البلاد العربية و الإسلامية من الانشقاق و الانقسام ، الذي بدأ كما هو معلوم في القرن التاسع الميلادي بعد وفاة الرسول (ص) ، حيث كان أوائل المنشقين الخوارج و الشيعة (3) . ثم استمر الوضع بعد ذلك في التصاعد ، إلى أن أصبح العالم العربي و الإسلامي ، يعج بالمذاهب و الفرق السنية و الشيعية على حد سواء .

ينتشر المسلمون السنة في منطقة طرابلس بشكل خاص ؛ و في السهول و المدن الساحلية حتى الوسط ، و هم الذين تحملوا عبئ القتال ضد الصليبيين ، و دحر الطوائف التي خرجت عن طوع الإسلام في لبنان و سوريا ، و وطدوا سيادة السنة (4) . بينما يتركز الشيعة في وسط البلاد ، و هم فرع من الشعبة الإسماعيلية أو الفرقة السبعية ، التي سيطرت في القرن التاسع على كامل العالم الإسلامي تقريبا ، و تقوم على النظام السري ، و على عقيدة دينية فلسفية مستلهمة من الفكر القديم و لاسيما " الأفلاطوني " ، و قد وضعت لنفسها هدفا واضحا هو إسقاط النظام القائم ، بغية : (( إقامة مجتمع أكثر عدلا يديره الإمام ، الرئيس الشرعي للإنسانية أكملها)) (5) أما الدروز ؛ الذين أثير و لا يزال الكثير من الجدل حول أصولهم و حقيقة

(1) - للمزيد من التفاصيل ينظر مجموعة من الباحثين : الأقليات و القوميات في السلطنة العثمانية بعد

1516 م ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية ، ط 1 : لبنان ، 2001 م .

(\*) - فتح العرب المسلمون لبنان انطلاقا من طرابلس ، زمن الخليفة الراشد " عمر بن الخطاب " ، حيث تحولت إلى قاعدة صناعية و زراعية و تجارية و بحرية هامة . زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 275 .

(2) - عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 31 .

(3) - ينظر لورانت شابري ، أني شابري ، المرجع السابق ، ص 83 و ما بعدها .

(4) - ينظر عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 280 و ما بعدها .

(5) - ينظر لورانت شابري ، أني شابري ، المرجع نفسه ، ص 105 و ما بعدها .

معتقداتهم الدينية ، كما بيناه في الفصل الثاني من هذه الدراسة ؛ في معرض حديثنا عن أصول عائلة شكيب أرسلان ، فيتمركزون في الجنوب و تحديدا في منطقة " الشوف " ، و يستلهمون عقيدتهم من التصورات الإسماعيلية ، التي نمت و تطورت لديهم لتصبح نظرية دينية قائمة بذاتها ؛ بعيدة كل البعد عن أصلها الأول و عن العقيدة الإسلامية ككل ، فقد : (( إتجهت نحو جميع التصورات الدينية في عصر انبثاقها ، و تحت مشعل التوحيد دمجت عناصر صادرة عن المسيحية و اليهودية بعضها مع بعض إلى جانب اقتباسات من الغنوصية و الأفلاطونية الجديدة و الفارسية ... )) . و قد انكفأت الطائفة على نفسها في الجبل لاسيما جبل "جرمون" و " الشوف " ، متجنبة الاختلاط بالطوائف الأخرى أو التبشير لمنهجها ، منتظرة عودة " الحاكم بأمر الله الفاطمي " المخلص لإتباعها (1) .

و يوعز هذا التوزيع الجغرافي للطوائف المسيحية و الإسلامية ، إلى الغزوات و الحملات منذ أيام الصليبيين وصولا إلى الأيوبيين و من ثم المماليك ، حيث نزع الموارد من الشمال إلى " كسروان " و " جبيل " ، و حلوا محل الشيعة الذين جمعوا أنفسهم في جبل "عامل" و "البقاع" . و بينما توجه سكان الساحل إلى تجارتهم ، و سكان جبل " عامل " إلى عزلتهم و تقويتهم ، توجه الدروز و الموارد في " الشوف " ، كل ذلك شكل نواة دولة لبنان الحديثة بتنوعها الديني و الطائفي و المذهبي (2) .

و كنتيجة لهاته الفسيفساء الدينية و المذهبية ، كان من الطبيعي أن تؤثر على المجتمع اللبناني ، بشكل إيجابي أو سلبي لاعتبارات محلية و إقليمية و خارجية . فهناك العلاقات بين المسيحيين و المسلمين بغض النظر عن الطائفة أو المذهب ، و التي تتحكم فيها بالدرجة الأولى العوامل التاريخية ، فقد ظل المسيحيون يحتفظون بمشاعرهم الدينية إزاء المسلمين أصحاب الدين الجديد ، حتى لما كانت تحكمهم دول إسلامية سنية أو شيعية . و هناك العلاقات المسيحية

(1) - للمزيد من التفاصيل حول أصول الطائفة الدرزية و اعتقاداتها الدينية و الفكرية ، ينظر لورانت شابري ، أني شابري ، المرجع السابق ، ص 114 و ما بعدها .

(2) - عارف العبد ، المرجع السابق ، ص 33 .

المسيحية ؛ إذ لم تمنع الوحدة في الدين من وجود صراعات و خلافات عميقة بين الطوائف المسيحية ذاتها . و أخيرا العلاقات بين الطوائف المسلمة فيما بينها ، التي كانت كثيرا ما تتفجر إلى مواجهات مسلحة مثلما كان عليه الحال بين السنة و الدروز . لكن هذا لا ينفي وجود فترات للتسامح الديني ، و التعايش السلمي ، بفضل وجود أمراء متسامحين بنو سياساتهم على الترفع عن التعصب الديني ، و المساواة بين الطوائف الدينية المختلفة (\*) .

فخلال فترة الحكم العثماني عموما ، كان التوتر على أشده بين السلطة الحاكمة من جهة ، و بين الدروز و الموارنة من جهة ثانية . فكثيرا ما كان يحدث الاصطدام بين هذه الأطراف ، و لقد لعبت عوامل عدة في إذكاء ذلك و منها : سياسة تركيا الداخلية ، و تركيز السلطة في الحكم المباشر ، و سعيها لضرب تلك الطوائف بعضها البعض ، زيادة على الدور الخطير الذي قام به المبعوثون الأجانب و خاصة الإنجليز منهم ، بإثارة الحقد و البغضاء بين المسيحيين و الدروز (1) .

و الواقع أن تلك أن تلك الإصطدامات ، كانت تنتهي في كل مرة بمذابح و مجازر بين الدروز والعثمانيين و الدروز و المسيحيين ، و من أشهرها : ما حدث في " حاصبا " عام 1845 م ، و ثورة جبل " حوارن " سنة 1851 م ، و " دير القمر " ، و " حاصبا " الثانية سنة 1860 م ، التي ارتكبت فيها أعمال وحشية من قبل عدة أطراف و منها الأتراك و الأكراد ، و كان " للأمير عبد القادر " ( 1807 م - 1883 م ) ، دور كبير في إخمادها و إنقاذ المسيحيين من مذبحه حقيقية كادت أن تأتي عليهم (2) .

أما الشيعة ، و بحكم أن السلطة العثمانية كانت أكثر تمسكا و دفاعا عن المذهب السني ، فقد كان وضعهم أكثر صعوبة ، حيث انكمش تأثيرهم المذهبي ، و انحصر في المدن الصغيرة و القرى في جنوب لبنان ، و استمر تراثهم علي أيدي بعض العائلات من العلماء . بل أدى

(\*) - تعد في هذا الصدد ، فترة حكم الأمير " فخر الدين " المعيني ، أفضل مثال على إمكانية وجود التسامح الديني في لبنان ، و هو المسلم السني . ينظر زاوية قدورة ، المرجع السابق ، ص 273 و ما بعدها .

(1) - زاوية قدورة ، المرجع السابق ، ص 295 .

(2) - للتوسع في ظروف و ملابسات و نتائج تلك الأحداث ، ينظر سهيل زكار : تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، د ط ، التلويين للدراسات و الترجمة و النشر ، دمشق - حلبوني : 2006 ، ص 232 و ما بعدها .



العداء بين الطرفين بالحكام الأتراك إلى القيام بإعدامات لعلماء شيعة ، و منه فقد تطلع الشيعة ، إلى الترويج لمذهبهم خارج لبنان و المناطق التي تقع خارج السيطرة العثمانية (1) ، و ظل شعورهم كأقلية مذهبية حيا ، عبروا عنه بتوجه سياسي خاص يرمي إلى الاستقلال عن السلطنة العثمانية ، التي مارست عليهم أجهزتها الإدارية سياسة قهرية مميزة ، كرد فعل منها على الصراع الذي نشأ بينهما و بين الدولة الصفوية الشيعية في إيران ، و كنتيجة لتحامل بعض علماء السنة في دمشق عليهم باستصدار فتاوى دينية تبيح قتلهم و إهدار دمائهم (2) .

و غني عن التنويه ، أن السلطة العثمانية الحاكمة ، و علاوة على تشجيعها و دعمها للسنة ، فإنها شجعت كذلك التعاليم الصوفية في لبنان - تماما مثلما فعلت في الجزائر على سبيل المثال وصفها الطريقة الخلوتية (\*) المتأثرة بتعاليم " ابن عربي " و الطريقة الشاذلية (\*\*)

(1) - ألبيرت حوراني ، المرجع السابق ، ص 45 و ما بعدها .

(2) - ينظر محمد سعيد بسام : " الحركة الوطنية في جبل عامل في أواخر عهد الدولة العثمانية " ، مجلة الفكر العربي ، لبنان : العدد 39 - 40 / جوان / أكتوبر 1985 م .

(\*) - الخلوتية : أسسها محمد الخلوتي الفارسي ، الذي توفي في القيصرية سنة 1039 م ، في وسط تركيا الأسيوية ، أما الذي وضع أسس الطريقة فهو تلميذه عمر الخلوتي ، الذي نظم التعلم بطرق استمدها من أستاذه ، و أضفى عليها طابعا خاصا ينفرد عن غيره ، أما مبادئ الطريقة فهي كالآتي :

- وجوب العزلة مع كل شروطها - الزهد المرفوق بالذهول و الذكر و المقدس - اليمين المغلظة ( الطاعة المقدسة ) - العهد بين الشيخ و العضو التابع - معرفة أسماء الله السبعة المعبرة عن الصفات السبعة الحفية للروح ( السر المطلق ) - العبودية الإنسانية في السياسة - المعارضة و الكره و الحقد و الانتقام من السلطة الزمنية . عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931م - 1945 م ( دراسة تاريخية و إيدولوجية مقارنة ) ، رسالة ماجستير منشورة ، م م و م ، م و إن إ ، الجزائر : 1996م ، ص ص 180-181 .

(\*\*) - الطريقة الشاذلية : تنتسب هذه الطريقة إلى الشاذلي طعوج الدين أبي الحسن علي بن عطية علاوة بن عبد الجبار الشاذلي ، ولد سنة 593/1196 هـ و توفي سنة 656/1196 هـ ، بقرية " غمارة " قرب " سبته " بالمغرب الأقصى . تلقى تعليمه على يد أستاذه " عبد السلام المشيش " الذي اكتشف فيه النبوغ و الذكاء ، فنصحته بالذهاب إلى تونس حيث يقع جبل أزلاس في ملتقى الشاذلية الذي اشتق منها اسمه و ذلك سنة 625 هـ ، و هنالك عرف مذهبه نجاحا و رواجاً كبيرين ، مما جعله يتعرض لمعاملة شديدة سببها مضايقة الحكام

القادمة من الحواضر الصوفية في المغرب الأقصى فارس و مراكش ، و تعاليم الطريقة النقشبندية (\*) (1) .

و وفقا لذلك ؛ لا يمكن اعتبار ما تعرض له الدروز و الشيعة أثناء العهد العثماني اضطهاد دينيا بل سياسيا إن جاز التعبير ، فالعثمانيون لم يضايقوا أفراد تلك الطوائف بسبب تعاليمها المذهبية ، و إنما بفعل مواقفها السياسية ، التي كانت متعارضة في أغلب الأحيان مع سياسة الدولة العثمانية و مصالحها في المنطقة ، فحرية إقامة الشعائر الدينية و إقامة المؤسسات الخاصة بها و الإشراف عليها كانت مكفولة للجميع . كما أن هذا الوضع لم يكن ثابتا في كل مراحل الحكم العثماني للبنان ، بل كانت الفجوة تتقلص في بعض الأحيان ، لاعتبارات ظرفية و لرغبة السلطة في تجاوز الانسداد الحاصل .

كما لا يمكن أن نغفل ، أن الوضع الجيد الذي تمتع به المسيحيون في بعض الفترات ، ليس مصدره رغبة الباب العالي ، في جعلهم يعيشون في وضع أفضل من الطوائف الأخرى ، و إنما مرده إلى الحماية الدينية التي مارستها بعض الدول الأوروبية ، و على رأسها فرنسا و بريطانيا اتجاه المسيحيين داخل السلطة العثمانية ، ضمن إطار الاتفاقيات التي تعرف بـ : " الامتيازات " ( CAPITULATIONS ) (2) ، و هم الذين صنفهم القانون العثماني

التونسيين له . فاتخذ القرار بالانتقال إلى مصر ، التي فرض فيها نفسه على جميع علمائها بما فيهم العز بن عبد السلام الذي أضحى من أصدقائه المقتربين . و تتخلص تعاليم هذه الطريقة في : الروحانية النقية الطاهرة ترك الخلق لله وحده ، القيام بالصلاة في كل الأوقات و في كل مكان و في أي ظرف ، إسقاط جميع مظاهر اللعب و الصخب التي كانت تتميز بها الطرق الصوفية الأخرى . ينظر عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى ، مرجع سابق، ص 182 و ما بعدها (\*)- النقشبندية : نسبة إلى بهاء الدين محمد النقشبندي ( ت 791 هـ - 1389 م ) ؛ صوفي كبير من أهل بخاري ، أسس الطريقة النقشبندية التي انتشرت في الصين و الهند و تركستان و تركيا . دفن في بخاري ، من أشهر كتبه : " الأرواد البهائية " ، " سلك الأنوار و هدية السالكين " . المنجد في اللغة و الإعلام .

(1)- ينظر ألبرت حوراني : تاريخ الشعوب العربية ، ج 2 ، ترجمة نبيل صلاح الدين ، مراجعة عبد الرحمان الشيخ ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : 1997 م ، ص 45 و ما بعدها .

(2)- مجموعة باحثين : الأقليات و القوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516 م ، مرجع سابق ، ص 34 .

ضمن فئة " أهل الذمة " ، و فرض عليهم دفع الجزية مقابل أن تتولى الدولة حمايتهم ، و منح لهم الحق في إنشاء مؤسساتهم الخاصة بإشراف رؤسائهم الروحيين .  
ولا ريب أن أفضل وضع استفادوا منه ؛ كان أثناء فترة الانتداب الفرنسي على لبنان ، لما شجعت فرنسا الانقسام الطائفي ، ودفعت به أكثر نحو البروز والتشعب ، بتوزيعها لمناصب الإدارة العليا على المخلصين والموالين لها من المسيحيين المؤيدين للانتداب ، حتى وان قامت ببعض المبادرات لصالح المسلمين ، لإظهار نفسها في ثوب الحاكم العادل الذي يساوي بين رعاياه ؛ كتشجيع فتح المدارس القرآنية ( Les écoles coraniques ) ، وتشجيعهم على إحياء المناسبات والأعياد الدينية على غرار الطوائف اللبنانية الأخرى<sup>(1)</sup>.

وهكذا كان الوضع الديني في لبنان أفضل بكثير منه بالجزائر ، بحيث أن الموقف في الجزائر كان في غاية الحساسية و الخطورة ، لأن المجتمع الجزائري وجد نفسه أمام محتل يريد أن يقبر له دينه ، و يعيده إلى الديانة المسيحية التي تركها مع مجيء الفتح الإسلامي ، في مخطط مدروس استهدف ضرب المؤسسات الدينية من مساجد و مدارس و كتاتيب قرآنية ، لأن قادة الاحتلال كانوا يعون جيدا بأن مشروع ( الجزائر الفرنسية ) ( L'ALGERIE FRANCAISE ) ، لن يتكسر إلا إذا جرد الجزائريون من هويتهم الوطنية ، و مقوماتهم الشخصية متجسدة في الإسلام و اللغة العربية . و حري بنا هنا أن نقول ، أن ما وقع في الجزائر في هذا المضمار ، هو أشبه بمحاولة اقتلاع شجرة من بيئتها الطبيعية ، و زرعها في بيئة أخرى ، لا يمكن لها أن تحيي فيها مهما وفرت لها من شروط و عناية . الأمر الذي تطلب بذل جهود معتبرة من قبل علماء و مثقفيها الوطنيين ، من أجل إفشال ذلك المخطط . من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ و غيرهما من أقطاب الحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

أما في لبنان، فبالرغم من التشابك الديني والمذهبي المعقد الذي يتميز به ، إلا أن الحرية في ممارسة الشعائر والطقوس كانت مكفولة للجميع وفي كل مراحل تاريخ لبنان الحديث والمعاصر . فإن حدثت فتن واقتتالات طائفية بين مكونات الشعب اللبناني ، فإن السبب فيها لم

(1) - عبد فتوني علي ، المرجع السابق ، ص 29 وما بعدها .

يكن الحكم العثماني لأنه كان سنيا حنفيا، وإنما أسباب سياسية بالدرجة الأولى، بفعل تعدد وتعقد الميول والولاءات والعلاقات في المنطقة إقليميا ودوليا. فلم نعثر من خلال اطلاعاتنا، في أي فترة من الفترات أن أتباع ديانة ما أو مذهب ما، اضطهدوا لأنهم يخالفون الآخر عقيدته أو مذهبه، أو منعوا من القيام بشعائرهم وطقوسهم الدينية، لأن المجتمع اللبناني الواسع في حقيقة الأمر، يتألف من مجتمعات طائفية ومذهبية صغيرة منغلقة على نفسها دينيا وجغرافيا وثقافيا، الأمر الذي يوفر حماية تلقائية للأتباع والمعتنقين.

فلب القضية إذن، كان في الولاءات السياسية التي تتحكم فيها الخلفيات الدينية والمذهبية وحتى الاقتصادية، فالمسيحيون وجدوا أنفسهم في تحالف أشبه بالطبيعي مع الدول الأوروبية المسيحية الكبرى، التي كانت تطمح في أملاك الإمبراطورية العثمانية، وتسعى لاقتسامها فيما بينها. ولأن العلاقة بين تلك الأطراف، كانت تتم خارج إرادة الحكام العثمانيين في أغلب الأحيان، كان من الطبيعي أن تكون ردود أفعال إزاء ذلك، تمثلت في حملات التأديب والقمع بغية استعادة السيطرة على الوضع. والمثال الثاني على ذلك الدروز، الذين تعرضوا لعمليات التضييق والعنف وحتى المجازر رغم عقيدتهم الإسلامية، لكون ولائهم المذهبي و السياسي كان متصلا بقوة سياسية إقليمية مناوئة للباب العالي، المتمثلة في إيران التي كان يحكمها الصفويون الذين لم يخفوا أطماعهم التوسعية في المنطقة. فكان من الطبيعي في الأعراف السياسية، أن تتصرف السلطات العثمانية مع المسيحيين و الدروز على ذلك النحو الذي أشرنا إليه. مع التنبيه على أنه وجد من المسيحيين و من الدروز، من كانت علاقاته ممتازة و وطيدة بالحكام العثمانيين المحليين و بالباب العالي، مثل الأمير شكيب أرسلان الذي حضي بمكانة خاصة لدى أعلى المستويات، بل تمكن من الحصول على عضوية " مجلس المبعوثان " ( البرلمان العثماني ) في الأستانة، مخالفا لتوجهات نسبة كبيرة من أهل طائفته، و تحمله للانتقادات العنيفة التي كانت توجه له في هذا الإطار، و لكنه استمر في نهجه السياسي بعزيمة وإصرار، و ظل مؤيدا للخلافة إلى غاية إغائها سنة 1924م. بل أنه قاتل من أجلها، في جبهات الحرب العالمية الأولى في ليبيا و البلقان مثلما سيظهر في الفصل الثاني من هذه الأطروحة.

**خاتمة الفصل :**

بعد هذه المقارنة، بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، في كل من الجزائر ولبنان، في عصري الإبراهيمي و أرسلان ، نخلص إلى أن الأول ؛ قد عاش على غرار بقية الجزائريين ، ظروفًا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية استثنائية ، ربما لم يسبق أن شهدتها شعوب المستعمرات الأخرى في التاريخ الحديث والمعاصر ، بسبب سياسة حكومات الاحتلال ، التي استهدفت السيطرة على الأبدان والأرواح ، بشتى الطرق والوسائل ، لإبقاء وجودها في البلاد ، وضمان استمرار استغلالها أرضا وشعبا.

بحيث اعتبرت فرنسا الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية ، تطلق عليهم اسم : " الأهالي " ( Les Indigènes ) بدل الجزائريين ، يؤدون الواجبات و لا ينتظرون الحقوق ، إذ لا يتساوون مع الأوروبيين لا في الانتخاب و لا في حرية إبداء الرأي ، و لا في الاستفادة من الميزانية و فرص العمل ، و المشاريع الاقتصادية و المرافق الاجتماعية . و في مقابل ذلك ، كان المعمرون يستأثرون بكل الحقوق السياسية و المدنية ، التي قد تفوق تلك التي كان يتمتع بها أقرانهم في بلدانهم الأصلية .

بينما عاش الأمير شكيب، خلال عهدين مختلفين ، العهد العثماني وتميز عموما بالاستقرار ، رغم بعض الفتن والاضطرابات ؛ التي كانت تندلع من حين لآخر ، بسبب صراعات طائفية أو مذهبية ، أو ضد استبداد وتعسف الحكام المحليين ممثلي الإمبراطورية العثمانية ، أو المجتمع الإقطاعي الذي كان يستغل المجتمع اللبناني بأشجع صور الاستغلال ويعامله معاملة العبودية والاحتقار ، متقويا بالدعم الطائفي والعثماني معا . وهنا يمكن أن نشبه الإقطاعيين اللبنانيين بالمعمرين الفرنسيين والأوروبيين في الجزائر ، فكلاهما كان يفتقد إلى القيم والأخلاق والإنسانية ، لا هم له سوى جمع الأموال والثروات ، بكل الوسائل والطرق ، ولا يبالي إن هلك المجتمع كله جوعا وفقرا ومرضا . وبعد رحيل العثمانيين دخل لبنان في مرحلة أكثر استبدادا وانحطاطا ، حيث تؤكد للبنانيين أن شعار المساعدة والتطوير الذي رفعته الدول المنتدبة في المنطقة ، لم يكن في حقيقة الأمر سوى غطاءا للريغبة في الاستغلال و الهيمنة ،

و لو بالتحالف مع الجماعات الإقطاعية ، التي استفادت أكثر من الانتداب الذي ضمن لها الحماية و التغطية السياسية . بل أنهم تمكنوا من الاستئثار بالمناصب السياسية و الإدارية الحساسة في الدولة ، و لم يكتفوا بذلك بل راحوا يمارسون صلاحيات ليست من اختصاصهم كالسلطة القضائية في المناطق التي تقع في دائرة نفوذهم ، و هو مؤشر خطير على إستراتيجية فرنسا في لبنان خاصة و المنطقة عامة .

أما بخصوص القضاء في الجزائر ؛ فقد عمدت السلطات الفرنسية ، إلى تعطيل ثم إلغاء المنظومة القضائية الإسلامية نهائيا ، التي كانت تتخذ من الشريعة الإسلامية و خصوصية المجتمع الجزائري ، مصدرا لأحكامها . و لما وجدت صعوبات جمة في بداية الأمر ، بسبب الفروقات الصارخة ؛ بين المنظومتين القضائيتين الفرنسية و الجزائرية هذا من جهة ، و الإختلاف الكلي و الحادم بين الواقع الإجتماعي الجزائري و نظيره الفرنسي من جهة ثانية ؛ إتبعَت سلطات الإحتلال أسلوب التدرج ، في حرمان الجزائريين من التقاضي و فق أوامر الشريعة الإسلامية ، إلى أن جاء مرسوم 29 أوت 1874م ، الذي أقبر نهائيا القضاء الإسلامي في الجزائر .

أما بخصوص القضاء في لبنان ؛ فقد عانى المجتمع اللبناني كثيرا من التعسف العثماني في هذا المجال ، حيث لم تكن المؤسسات القضائية تتمتع بالإستقلالية المفترضة و مدعمة بالمنظومة القانونية المطلوبة ، التي تكفل لجميع المواطنين المساواة و العدالة أمام القانون ، مهما كانت الميولات السياسية أو الإلتماءات الدينية أو الطائفية أو المذهبية . فكثيرا ما كان الناس يعدمون بالجملة من طرف الضباط و القادة العسكريين ، دون المرور عبر المؤسسة القضائية ، التي يعد الفصل في المنازعات بين المواطنين و المسؤولين و الحكام من صميم مهامها . و لعل أسوء ما إنحدرت نحوه السلطات السياسية العثمانية في لبنان ، هو أن تمنح جانبا من السلطة القضائية للإقطاعيين . و في ظل حكومات الانتداب ، لم يتغير شيء في هذا المضمار ، حيث ساء الأمر أكثر ، لأن تلك الحكومات وضعت من أولوياتها تكريس الطائفية ، و التعامل مع مكونات المجتمع اللبناني بلا عدل و لا المساواة ؛ فقد تمتعت الطوائف المسيحية بكل حقوقها

السياسية والمدنية بما فيها القضاء العادل ، في حين حرمت الطوائف المسلمة من حقوق المواطنة تلك ، وظلت تعاني الاستبداد و الظلم و التعسف .

أما على الصعيد الاقتصادي ، فقد تشابهت الأوضاع في البلدين إلى حد كبير ، حيث تعرض كلاهما إلى أشنع أنواع الاستغلال و النهب للأموال و الثروات . ففي الجزائر ؛ قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية ، بتحطيم بنية الاقتصاد الجزائري ، الذي يعتمد على قطاع الزراعة بالدرجة الأولى ، عن طريق مصادرة الأراضي الزراعية ذات المردودية الإنتاجية العالية ، و بالتهديد و الطرد و سن قوانين نقل الملكية الزراعية و الحيل القانونية . كما تم الاستيلاء على الأراضي الرعوية و الغابات ، لتضييق الخناق على قطاع الرعي ، الذي كان يمثل نشاطا أساسيا لغالبية السكان ؛ الذين وجدوا أنفسهم ، إما : في بطالة أو عمالا في مزارع وضيعات المعمرين ، يتقاضون أجورا زهيدة و في ظروف عمل مأساوية .

و الواقع أن المعمرين ؛ لما إستولوا على تلك المساحات الزراعية و الرعوية ، قد أحدثوا تغييرا جذريا في طرق إستغلالها و طبيعتها الإنتاجية ، إذ جلبوا معهم وسائل و تقنيات زراعية جد متطورة آنذاك ، و قاموا بتجميع تلك الأراضي في شكل شركات و مستثمرات فلاحية ضخمة ، بحوزتها مئات الآلاف من الهكتارات ، التي تنتج محاصيل صناعية ؛ موجهة أساسا لخدمة الإقتصاد الفرنسي خاصة و الأوروبي عامة : كالكروم و الحوامض و التبغ ... إلخ .

أما قطاع الصناعة ؛ فقد ظل تقليديا لعدم اهتمام سلطات الإحتلال بتطويره ، فاقترنت على بعض الصناعات الصغيرة ، الموجهة لتلبية بعض احتياجات المعمرين ، في حين تلاشت أهمية الصناعات التقليدية الجزائرية تدريجيا ، حتى في المدن التاريخية التي كانت مهدها لها . أما نظام الضرائب ، فقد كان رحيفا بالمعمرين ، محففا في حق الجزائريين ، لم يراعي ظروفهم الاقتصادية و الإجتماعية .

وفي لبنان ، أدى النهج الإقتصادي المتبع من قبل الدولة العثمانية و نظام الإنتداب الفرنسي على حد سواء ؛ إلى تكوين مجتمعين متباينين في الوضع و المكانة ؛ مجتمع " المقطاعجية " الذي ضم إلى جانبه كبار رجال الدين المسيحيين ، و الحكام و المسؤولين

و الأعيان المحليين ، زيادة على المعمرين الفرنسيين ، و استأثر بكل وسائل الإنتاج من أراضي زراعية و رعوية ، عالية الجودة و الخصوبة ممتدة الأطراف . و مارس العبودية البائدة ، على الفلاحين اللبنانيين الذين يمثلون في المقابل المجتمع الثاني ، الذي يقدم لأسياده الإقطاعيين ، الإنتاج الوفير بكل أنواعه بدءا بالحبوب و انتهاء بالحرير ، يعمل لساعات طوال و يعيش في ظروف هي أقرب إلى الهمجية أو البدائية ، مثلما أكدت عليه أغلب الكتابات التي تمكننا من الإطلاع عليها .

و لعل الوصف المفيد في هذا الإطار ، هو الجشع الذي كان يدفع مجموعة اجتماعية و طائفية و سياسية قليلة العدد ، إلى استعباد غالبية المجتمع ، فحتى أولئك الفلاحين الصغار الذين كانوا يستغلون أراضيهم بأنفسهم ، كان مصيرهم الإفلاس و التحول إلى عبيد لدى " المقطاعجية " . و الحال نفسه بالنسبة للحرفيين و الصنائعيين في المدن ، الذين كانوا لا يصمدون أما المد الإقطاعي ، الذي زحف على كافة القطاعات الاقتصادية . و أمام المنظومة الضريبية ، التي كانت تأتي على كل ما استطاع الفلاح أو الحرفي اللبناني توفيره ، بعد كل ما يتعرض له من قهر و استغلال .

و عليه نستخلص أن السياسة الاقتصادية في الجزائر و لبنان في عصر الإبراهيمي و أرسلان ، قد أحدثت خلا كبيرا في اقتصاد البلدين ، فجعلتهما في خدمة المعمرين و الإقطاعيين ، و في خدمة اقتصاديات فرنسا و أوروبا معا .

فكان من الطبيعي ؛ أن تنعكس هاته الأوضاع الاقتصادية سلبا على المجتمعين الجزائري و اللبناني ، ففي الجزائر اهتز الانسجام الطبقي الذي كان سائدا بين مختلف الفئات الاجتماعية في الأرياف ، أو في المدن دون استثناء منذ بداية الاحتلال ، نتيجة لسياسة الاستيطان ؛ التي أدت إلى تقسيم المجتمع إلى قسمين متباينين في العرق و الثقافة و المكانة الاجتماعية ، فالمجتمع الأول يمثل المعمرين المتدفقين باستمرار على الجزائر ، الذين احتكروا لأنفسهم كل الأنشطة الاقتصادية ، و تمتعوا بجميع الحقوق المدنية و السياسية . أما المجتمع الثاني ؛ الذي يتألف من الأغلبية الجزائرية المسلمة ، التي كان ينظر إليها على أنها مجرد وسيلة استغلال ، يتصرف



فيها المعمرين كما يشاءون . و من هنا ، تمكنت فرنسا من تقويض أركان المجتمع الجزائري ، و تفكيك تركيبته الاجتماعية التي كان عليها قبل الاحتلال .

و إذا كان المجتمع الجزائري، قد أفسد انسجامه و فكك تركيبته الاستيطان الأوروبي ، فإن نظيره اللبناني قد انتهى إلى المصير ذاته ، لكن على نحو آخر ، فالانقسام و عدم الانسجام هما خاصيتان ملازمتان له منذ قرون عدة ، كما سبق الحديث عن ذلك ؛ نظرا لفسيفسائيته الدينية و الطائفية و المذهبية . و لما جاء الحكم العثماني و بعده الانتداب الفرنسي ، تعاضمت الفوارق الاجتماعية بصورة خطيرة ، و تقلصت معها إمكانات التعايش الاجتماعي بين تلك المكونات المتنافرة أصلا . فأنتج ذلك مجتمعات متباينة في كل شيء بدل مجتمع واحد ، تعيش على رقعة جغرافية صغيرة جدا . تتجاذبها جهات مختلفة محلية و إقليمية و دولية ، و هو الوضع الذي لازال قائما في البلاد إلى غاية هاته اللحظة ، و يشكل أكبر عامل ضعف للمجتمع و الدولة اللبنانيين .

أما فيما يتعلق بالميدانيين : الديني و الثقافي ؛ فقد اختلفت أوضاعهما في الجزائر و لبنان، ففي الجزائر كان الوضع في غاية الخصوصية و التفرد ؛ إذ انتهجت فرنسا سياسة أخطر من الميادين السابقة ، لأنها أدركت بفكرها الاستعماري ؛ أن تحكمها في الحياة الثقافية و الدينية : هو الضمان الأكبر لبقاء و استمرار السيطرة العسكرية و الاقتصادية .

ففي الميدان الثقافي ؛ حاربت التعليم العربي الحر بثتى الطرق ، و سمحت بتعليم فرنسي محدود ؛ لأبناء الجزائريين المتعاونين معها خدمة لمصالحها الاستعمارية . مما أدى إلى انحطاط ثقافي و فكري و علمي كبير ، خيم على الجزائر مدة طويلة من الزمن .

أما في الميدان الديني ؛ فقد احتكرت فرنسا لنفسها حق التصرف في شؤون الدين الإسلامي ، رغم أنها دولة علمانية ، فقامت بإلحاقه بالحكومة عن طريق التدخل في مؤسساته و شعائره ، كما سعت إلى تشويبه ؛ بتشجيع الطرق الصوفية المنحرفة ، و التحالف معها ضد علماء الدين الأحرار ، الذي توسمت فيهم الخطر على سياستها . فضلا عن فتح أبواب البلاد على مصراعها ، أمام الحركات التبشيرية المسيحية الكاثوليكية .

بينما تمتع المجتمع اللبناني ، بحياة ثقافية و دينية أفضل بكثير منها في الجزائر ، فبالنسبة للميدان الثقافي شهد لبنان انتشارا و رواجا كبيرا للثقافة و الفكر أواخر ، العهد العثماني و طيلة فترة الانتداب الفرنسي ، بالرغم من أن الوصاية العثمانية قد أسقطت كما هو معلوم الثقافة من دائرة اهتمامها ، و تركتها للسكان المحليين لينهضوا بها بأنفسهم . و بالرغم من أن حكومات الانتداب الفرنسي قد سمحت بالنشاط الثقافي ، لكن في الحدود التي لا تتعارض مع مصالحها الاستعمارية في لبنان ، مع تدعيم ذلك بفتح المجال أمام البعثات التبشيرية المسيحية التي أحدثت ثورة كبيرة في الصناعة الثقافية ، من خلال جلب المطابع العصرية ، و إصدار الصحف و المجلات ، و إنشاء الجمعيات الثقافية و العلمية و الأدبية . أما الجانب الديني ، فنستطيع القول أن حاله كان أفضل منه بكثير في الجزائر ، لأن الحرية الدينية لم تتعرض إلى مضايقات كبيرة فلم تمنع المكونات و الجماعات الدينية اللبنانية ، من تعلم تعاليمها الدينية أو نشرها ، أو من بناء مؤسساتها و الإشراف عليها مثلما حدث في الجزائر .

و لعل النقطة السلبية الوحيدة في هذا الصدد ، هو الصراعات و النزاعات و الفتن ؛ التي كانت تندلع من حين لآخر ، تغذيها العصبية الدينية و الطائفية ، التي تتغذى بدورها من الخلفيات و الأهداف السياسية سواء في المرحلة العثمانية أو الفرنسية . و هو ما فشلت فرنسا في تحقيقه في الجزائر ، لأن المجتمع الجزائري هو من المجتمعات العربية و الإسلامية القليلة أحادية العرق و الدين .

و في الأخير ؛ لا شك أن الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و الدينية، السالفة الذكر ، قد لعبت دورا أساسيا في تنشئة الرجلين ، و في تكوينهما العلمي و المعرفي ، و بناء شخصيتهما من النواحي النفسية و الفكرية ، و في صياغتها مواقفهما من قضايا عصرهما : الوطنية و الإقليمية و الدولية ، كما سيظهر في الفصول الموالية من هذه الأطروحة .

**تمهيد :**

سبق التطرق في الفصل السابق ، إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية ، التي ولد وترعرع فيها كل من الإبراهيمي و أرسلان ، حيث سمح لنا ذلك ، بالوقوف على الجو العام ، والتحويلات المختلفة التي عرفتها بيئتهما ، التي أثرت في تكوين وبلورة أفكارهما وتصوراتهما الإصلاحية والتجديدية ، إزاء مجمل قضايا الأمة العربية الإسلامية ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وهو بلا شك تأثير جوهري ، كما سلفت الإشارة إلى ذلك .

وسيكون محور البحث في هذا الفصل ، حياة و آثار الرجلين : الإبراهيمي و أرسلان ، حيث عاشا حياة حافلة بالأحداث والنشاطات ، والنضال والإنتاج الفكري والعلمي والأدبي ، لكننا سنوجه عناية اهتمامنا فقط إلى الجوانب التي تخدم موضوع أطروحتنا هاته . اعتمادا بالدرجة على ما كتبه كل واحد منهما عن نفسه ، ثم على كتابات وشهادات من عاصروهما من شخصيات ومفكرين وتلامذة . ولعل ما استرعى انتباهنا في هذا المحور من الدراسة ، هو أنه وبالرغم من المادة الخبيرة الهامة التي تراكمت مع مرور الزمن حول حياة المفكرين ، إلا أن الكثير من نقاط الظل والغموض لا تزال في حاجة إلى إثراء أو تفسيرات . ومنها على سبيل المثال ؛ موقف الشيخ البشير الإبراهيمي من الثورة التحريرية في أيامها الأولى ، فرغم بيانات التأييد والمساندة ، التي كتبها وأمضاها تباعا باسم مكتب جمعية العلماء بالقاهرة منذ اليوم الثاني لاندلاعها ، إلا أن هاته القضية لم يحسم فيها إلى غاية الآن بالنسبة لبعض الأوساط الثورية والأكاديمية ، وفي حقيقة الأمر القضية لا تخص الإبراهيمي وحده ، وإنما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ككل . أما فيما يتعلق بالأمير شكيب ، فقد صادفنا من يشكك في حقيقة دوره ، على كافة المستويات والأصعدة ، وينتهي إلى الحكم على مساره السياسي و النضالي بخيانة مصالح الأمة لحساب أعدائها في الخارج . و الحق أننا لم نعثر في آثاره على ما يؤيد صحة هذا الرأي ، دون أن يعني ذلك أننا نتخذ بذلك موقفا منحازا للأمير .

و عليه فإننا لا ندعي ، أننا قد أتينا بالجديد في هذا الفصل ، لأن المادة التاريخية المتوفرة لدينا لم تسمح بذلك ، و لذلك نأمل في المستقبل القريب ، أن تظهر بعض المستجدات بخصوص تلك الإشكالات المبهمة في حياة الرجلين ، خاصة بالنسبة للإبراهيمي الذي لا زال الكثير من

مقربيه و تلامذته و مرديه على قيد الحياة ، و في هذا نعاتب نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " ، الذي لم يأتي بالجديد حول حياة والده ، إذ اكتفى بإيراد المعلومات التي نجدها متكررة في كل ما كتب عنه في هذا المضمار . و حتى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الحالية ، نعتقد أنها و رغم ما بذلته من جهد و نشاط ، للتعريف بالجمعية و تراثها و نضال أعضائها ، إلا أنها لم تتمكن من غاية الآن ، من إيفاء كل ذلك حقه .

و مهما يكن فإن الشيخ البشير و الأمير شكيب أرسلان ، و بالرغم من كل العقبات المتنوعة التي صادفها في حياتيهما ، إلا أنهما استطاعا أن يجعلوا من نفسيهما قطبان متميزان من أقطاب الفكر و الإصلاح ؛ ليس في مجتمعهما اللبناني و الجزائري فحسب ، و إنما في الأمة العربية و الإسلامية قاطبة . فقد إعترف لهما بالتميز و التفرد في العديد من المجالات ، معاصروهما بالدرجة الأولى ، ثم من ألف و كتب حولهما من سياسيين و مفكرين و أكاديميين و تلامذة ، إستههدنا بأراء و مواقف بعضهم عبر فصول هذه الدراسة ، وفق ما تدعو إليه الحاجة العلمية و المعرفية .

و نختم الحديث بشأن هذه النقطة ، بالقول أن الدراسات الأكاديمية التي سلطت الضوء على حياة و آثار المصلحين لا تزال محدودة ، بالرغم من مرور أكثر من 45 سنة على وفاة الإبراهيمي و حوالي 63 سنة على وفاة أرسلان ، خاصة فيما يتصل ببعض القضايا التي بقيت تثير الجدل حولها ، كما أشرنا إليه آنفا .

لقد كرس الإبراهيمي و أرسلان ، جهودهما و طاقتهما، لخدمة قضاياهما الوطنية و القومية ، و لم يتوقفا عن ذلك حتى و هما في أسوأ أوضاعهما الصحية و أرذل العمر ، و هي حسبنا دلائل كافية ، على مصداقية ما قدماه من عطاء و نضال و تضحيات . مع العلم أن الظروف المعاشية ، لم تكن تسمح البتة ببروز أعلام في الوطن العربي أو الإسلامي على شاكلتها ، و خاصة في الجزائر التي كان من نتائج السياسة الإستعمارية فيها ، أنه كان من النادر جدا أن تجد في مدينة بأكملها أو قرى مجتمعة شخصا يقرأ أو يكتب ، فكيف بعالم أو مفكر . لأن ذلك يعد من أكبر المستحيلات ، و لكن و رغم ذلك استطاعت عائلات عريقة بإمكاناتها الخاصة ، أن تصنع الإستثناء فكونت و خرجت طاقات علمية و فكرية و ثقافية ،

أخذت على عاتقها النهوض بالمجتمع ، بل و الدفاع عن مصالح الأمة كما حصل مع الشيخ البشير الإبراهيمي ، الذي لم يحض بنفس الظروف الجيدة التي وفرتها عائلة أرسلان لابنها شكيب . و لكنه و مع ذلك إستطاع أن يكشف عن قدرات فكرية و علمية هائلة ، تجلت في تحليله الدقيق للواقع العربي و الإسلامي ، و في جملة التصورات و الحلول التي حددها لمعالجته ، و أكثر من ذلك أنه أظهر تفوقا واضحا ليس على شكيب فحسب ، و إنما على عدد المفكرين و المصلحين في عصره ، في بعض الجوانب أو التفاصيل و الجزئيات .

و عليه فقد تتبعنا في هذا الفصل ، أهم مراحل حياة الشخصيتين ؛ بدءا بمولدهما الذي كان سنة 1889 م بالنسبة للإبراهيمي و 1869م بالنسبة لأرسلان ، ثم نسبهما العائلي ، ثم درسنا نشأتها و تعليمهما ، بالإضافة إلى رحلاتهما و أسفارهما ، و إعتينا بإستعراض موقف الإستعمار الفرنسي منهما ، و بالحديث عن وفاتهما و بإبراز ما خلفاه من آثار فكرية و علمية سلمت من يد الضياع و خاصة آثار الإبراهيمي ، التي إندثر جانب كبير منها ، بسبب الظروف الإستعمارية ، الأمر الذي حرم الأجيال الجزائرية و العربية و الإسلامية الصاعدة على حد سواء من الإستفادة منها .

## المبحث الأول : الإبراهيمي و أرسلان مولدهما و نسبهما

### 01 - البشير الإبراهيمي : المولد و النسب :

ولد محمد البشير الإبراهيمي ، بن محمد السعدي ، بن عمر بن محمد بن السعدي ، بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي ، صباح يوم الخميس الرابع عشر شوال عام 1306 هجرية ، الموافق لـ : 13 جوان 1889 م (\*)<sup>(1)</sup> ، بقبيلة " أولاد براهيم " بقرية " رأس الوادي " (\*\*\*) بدائرة سطيف و هي قبيلة عربية النسب ، تنتمي في أصولها إلى الأدارسة ، و قد قال في هذا الصدد : (( قبيلتنا تعرف بأولاد براهيم بن يحيى بن مساهل ، و ترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله (\*\*\*) الجزم - الجد - الأول للاشراف الأدارسة و إدريس هذا - يعرف بإدريس الأكبر و هو الذي خلص المغرب الأقصى بعد موقعة فح (\*\*\*) بين العلويين و العباسيين ، و إليه ترجع أنساب الأشراف الحسينيين في المغربين الأقصى و الأوسط ))<sup>(2)</sup> .

(\*) - أورد " محفوظ قداش " خطأ في كتابه : تاريخ الحركة الوطنية 1919م - 1951م ، الجزء الأول ص 22 ، أن الإبراهيمي ولد سنة 1880 م .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ( 1954م - 1964م ) ، جمع و تصدير أبو القاسم سعد الله ، ط 1 ، دار الأمة ، الجزائر : دت ، ص ص 98-90 .

(\*\*) - ذكر " شارل روبيير أجيرون " خطأ ، أن الإبراهيمي ولد في مدينة بجاية في كتابه تاريخ الجزائر المعاصرة ، الجزء الأول ، ص 222 . أما رأس الوادي فهي حاليا دائرة إدارية تابعة لولاية برج بوعريريج .

(\*\*\*) - إدريس ابن عبد الله : و يعرف بإدريس الأول ، مؤسس سلالة بني إدريس بالمغرب الأقصى ، رحل من مكة إلى مصر و منها إلى المغرب الأقصى ، حيث قامت قبائل البربر بمبايعته ، فتح تلمسان ، قتل سنة 791 م بأمر من الخليفة العباسي هارون الرشيد ، على ما يقال . المنجد في الأدب و العلوم .

(\*\*\*\*) - الفخ : واد بالقرب من مكة المكرمة ، فيه قتل العباسيون الحسين بن علي مع الكثيرين من أتباعه ، في ذي الحجة سنة 169 هجرية الموافق لـ : 11 جوان 786 م ، و قد دأب العلويون على الإحتفال بذكر هذه الحادثة إلى يومنا هذا . المنجد في الأدب و العلوم .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي ، المرجع نفسه ، ص ص 205 - 207 .

و يضيف الإبراهيمي على أن ؛ نسب قبيلته العربي ينتهي إلى قبيلة قريش (\*) أو هلال بن عامر (\*\*): (( فمما لا شك فيه أن نسبنا عربي صميم ، إن لم يكن في قريش فهو في هلال بني عامر لأن موطننا الحاضر من المجالات التي كان لبني هلال فيها مضطرب واسع لأول هجرتهم من صعيد مصر في أواسط المائة الخامسة )) .

و بناء على هذا ؛ نستنتج أن الإبراهيمي كان كثير الإهتمام بأصول قبيلته و عائلته ، و أنه كان شديد التحمس و الاعتزاز بأصله العربي ، على غرار عدد لا بأس به من الجزائريين آنذاك ، مكتفيا فقط بالقول أن أجداده ينحدرون من نسب عربي أصيل ، دون أن يتتبع ذلك عن طريق الشجرة التناسلية كما هو معروف ، و لسنا نعرف هل السبب في ذلك عدم توفرها لديه ، أم أنه لم يهتم بذلك لأسباب معينة ، قد تكون إنشغاله بالعمل التربوي و الإصلاحية ؟ .

و قد كان وحيد والديه من الذكور الذين توفوا كلهم <sup>(1)</sup> ، و ثالث أختين ، أما أمه فهي حدة بنت محمد (\*\*\*) <sup>(2)</sup> .

و عليه فإن الإبراهيمي ؛ ولد و ترعرع في كنف هذه القبيلة العربية العريقة ، الأمر الذي كان له كبير الأثر ، في تربيته و تنشئته ، و في بناء شخصيته و تشكيل فكره ، لأن مثل هذا العامل هو من الأهمية الكبيرة في هذه الجوانب ، كما يستضح في المبحث الثاني من هذا الفصل .

(\*) - قريش : قبيلة عربية عظيمة من كنانة من العدنانية ، أسياذ مكة و كبار تجار القوافل ، لها فروع كثيرة منها : أمية و نوفل و زهرة و مخزوم ، و أسد و جمح و سهم و هاشم و تيم و عدي . المنجد في اللغة و الاعلام .

(\*\*) - هلال بن عامر : قبيلة عربية عدنانية الأصل ، هاجر بعضها إلى مصر ، و جههم رفقة بني سليم الخليفة الفاطمي " منصور المستنصر " لمحاربة " المعز بن باديس الزيري " ، فقاموا بغزو إفريقيا ، و تمكنوا من إحتلال القروان و سوسة و تونس إثر " معركة حيدران " سنة 1052/هـ 443م ، أبطال القصة الشهيرة بسيرة بني هلال ، و هي قصة شعبية وجدت رواجاً شعبياً كبيراً في العالم العربي ، منذ العصور الوسطى ، المنجد في اللغة و الاعلام .

<sup>(1)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر السابق ، ص ص 89-90

(\*\*\*) - لم نتمكن من معرفة أسماء تواريخ وفاة إخوته الذكور ، و المكانة العائلية لوالدته .

<sup>(2)</sup> - محمد مهداوي : البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه ، ط 1 ، دار الفكر دمشق : 1988م ، ص 289 .

## 02- شكيب أرسلان المولد و النسب :

ولد شكيب أرسلان ابن الأمير حمود ( توفي سنة 1887 م عن 59 سنة ) ، ابن الأمير حسن ( ت سنة 1852م عن 57 سنة ) ، ابن الأمير يونس ( ت سنة 1820م عن 60 سنة ) ، ابن الأمير فخر الدين ( ت سنة 1770م ) ابن الأمير حيدر ( ت سنة 1722 م ) ، ابن الأمير سلمان ( ت سنة 1695 م عن 60 سنة )<sup>(1)</sup> ، في ليلة الإثنين الموافق للأول من شهر رمضان من شهر ست و ثمانين و مائتين بعد الألف للهجرة ( 1286 هـ ) ، الموافقة للخامس و العشرين من ديسمبر سنة ألف و ثمانمائة و تسعة و ستين ميلادية ( 1869م ) ، في " حارة الأمراء " بحي أرسلان بقرية " الشويفات " (\*)<sup>(2)</sup> ، التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة بيروت ، و تبعد عنها بحوالي عشرة أميال ، و عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ميل<sup>(3)</sup> . و تعد " الشويفات " بـ إحدى قرى مقاطعة " الشوف " الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الخلابة و الساحرة ، التي أبهر جمالهما الكثير من الشخصيات الأجنبية التي زارتها ، و منها الشاعر الفرنسي " لامارتين " ( LAMARTINE ) (\*\*\*) ، الذي كان يتردد عليها من حين لآخر ، فكتب فيها أروع قصائده الرومانسية . و قد لعبت المنطقة دورا بارزا في التاريخ منذ القديم ، حيث إكتشفت بها سنة 1974م ، مغارة قدر الخبراء عمرها بحوالي أربعة ملايين سنة<sup>(4)</sup> ، كما

(1)- شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، إعداد و تقديم سعيد المولى ، ط 1 ، دار العودة ، بيروت : ص 49 .

(\*) - الشويفات : مفردتها شويفة ، و سميت بهذا الإسم لأنها تقع على ثلاث ثلاث جمع تلة ، و الشويفة معناها التلة ، و قد كان عدد سكانها آنذاك حوالي عشرة آلاف نسمة ، و المهاجرون عنها حوالي ستة آلاف نسمة .

(2)- أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963م ، ص 15 .

(3)- المرجع نفسه ، ص 295 .

(\*\*\*) - لامارتين ( LAMARTINE ) : هو الفونس دولا مارتنين ، شاعر و سياسي فرنسي ، ولد في منطقة " ماسون " ، توفي سنة 1869 م .

(4)- جمال مشاعل : " الشوف تراث عريق فوق ذرى الجبال " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 461 ، ص ص 143 - 192 .



تم العثور على الكثير من الآثار الإغريقية و الرومانية و البيزنطية ، و منها قطع نقدية مكتوبة بالحرف الإغريقي تعود إلى سنة 220 ق م ، تحمل صور القائد " الأنطويوخس " آخر القادة المقدونيين الذين ورثوا الحكم عن الإسكندر المقدوني ( 356 ق م - 324 ق م ) (\*). أما الآثار و المعالم الإسلامية فتتواجد بها بكثرة ، و منها مقام نبي " أيوب عليه السلام " الذي يتواجد في إحدى القمم الجبلية .

و لأن المنطقة تتميز بكثرة الشلالات و المنابع المائية العذبة ، فإن سكان قرى " الشويفات " ، إحترفوا عبر العصور زراعة الخضر و الأشجار المثمرة ، و خاصة أشجار الزيتون ، التي تتكيف مع البيئة الجبلية للمنطقة <sup>(1)</sup> . والده هو الأمير " حمود بن حسن الأرسلاني " (\*\*)، الذي توفي سنة 1305 هـ الموافقة لـ سنة 1887م ، أي لما بلغ الثامنة عشر

(\*)- الإسكندر المقدوني : الملقب " بذي القرنين " ، ولد في مقدونية و توفي في بابل ، تعلم على " أرسطو " ، خلف أباه " فليبس " ، عزم على فتح الفرس فانتصر عليهم في " إيسوس " سنة 333 ق م ، ثم في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر " صور " سبعة أشهر ، ثم في مصر حيث أسس الأسكندرية سنة 332 ق م و أخيرا تتبع " دار يوس " في العراق ، و انتصر عليه في " كوكايل " بالقر من من " أربيل " سنة 331 ق م ، وتابع زحفه إلى أطراف فارس و تجاوزها إلى ضفاف نهر " السند " . المنجد في اللغة و الاعلام.

(<sup>1</sup>)- جمال مشاعل ، المرجع السابق ، ص ص 133 - 144 .

(\*\*) - حمود بن حسن الأرسلاني : عرف بالذكاء و الكرم و الشجاعة ، و بإجادته للغة العربية ، و معرفته للغة التركية ، و إهتمامه بالأدب و الشعر ، دفن بالشويفات . احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 16 .

أما والدته فهي سيدة شركسية (\*) ذات أصول عريقة ، عاشت أكثر من مائة عام ، كان شكيب يعبر عنها في أغلب الأحيان بـ: السيدة الوالدة ، أنجبت خمسة أولاد هم على التوالي : نسيب (\*\*\*) و شكيب مترجمنا ، حسن ، أحمد و عادل (\*\*\*)<sup>(1)</sup> . أطلق عليه والده إسم " شكيب " و هو إسم فارسي و معناه في اللغة الفارسية " الصابر " ، و مادة " الشكب " في اللغة العربية تدل على العطاء و الجزاء<sup>(2)</sup> .

(\*) - الشركس أو الجركس : شعوب قطنت سابقا شمال غربي القوقاز ، و الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ، هاجر أغلبها إلى تركيا و سوريا و الأردن . المنجد في اللغة و الاعلام .  
 (\*\*\*) - الأمير نسيب : ولد سنة 1248 هجرية ، إشتهر بقول الشعر الجزل ، تولى العديد من المناصب الإدارية في لبنان و منها مدير المنطقة " الشوف " ، كما كانت له نشاطات سياسية ، في أواخر أيامه إعتزل الإدارة و السياسة ، و انصرف إلى ممارسة الزراعة و كتابة الشعر . حازم صاغية : " البعد الذهني في الصراع العربي الإسرائيلي " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 443 / أكتوبر 1995 م ، ص 25 .  
 (\*\*\*) - الأمير عادل : شاعر و لغوي ، أختير نائبا عن جبل لبنان في " مجلس المبعوثان " العثماني ، خلال الحرب العالمية الأولى ، كما كان من المقربين من الأمير فيصل في دمشق ، و ترأس ديوان شقيقه " الأمير عبد الله " في الأردن مدة ثلاث سنوات ، قاد إقليم " البلان " خلال الثورة السورية عام 1925 م ، مثل سورية في هيئة الأمم المتحدة ، تولى وزارة الدفاع و الخارجية و التربية في سوريا . كان ضمن الوفد السوري الذي شكله " الحاج أمين الحسيني " مفتي فلسطين و رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ، للسفر إلى أمريكا في سبيل القضية الفلسطينية ، إثر حادثة " البراق " سنة 1929 م ، لقب " بأمير السيف و القلم " . حازم صاغية ، المرجع نفسه ، ص 25 و ما بعدها .

(1) - سامي الدهان : شكيب أرسلان حياته و آثاره ، ط 2 ، دار المعارف ، مصر : 1976م ، ص 63 .

(2) - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 15 .

أما نسب الأسرة الأرسلانية ، فضارب في تاريخ أنساب العرب ، حيث أن جدها الأكبر هو " الأمير أرسلان " الذي توفي سنة إحدى و سبعين و مائة هجرية ، و هو بدوره ينحدر من نسل الملك " المنذر بن ماء السماء اللخمي " ، و قد شكل هذا النسب العريق ، مصدر فخر و إعتزاز لأل أرسلان ، الذين كان لأجدادهم الأرسلانيين دور بارز في تاريخ المنطقة ، فهذا الجد " الأمير عون " كان ممن شاركوا في فتوح الشام رفقة الصحابي الجليل " خالد ابن الوليد " . و ممن إستشهدوا في معركة " أجنادين " (\*) ، أما " الأمير أرسلان بن مالك المنذري " ، فقد حارب ضد الروم في لبنان بأمر من الخليفة العباسي " أبي جعفر المنصور " (\*\* ) ، كما أبلوا البلاد الحسن في صدر الحروب الصليبية (\*\*\*) ، و في الفتوحات الإسلامية هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى فإن آل أرسلان ، فرع من الطائفة الدرزية ، إحدى الطوائف المؤلفة للنسيج الإجتماعي اللبناني ، إلى جانب السنة و الشيعة و الموارنة و الروم و الأرمن ... و غيرهم . و في هذا الصدد ، نسجل تضاربا كبيرا في نسب الطائفة الدرزية ، إذ اختلفت في ذلك المصادر القديمة و الكتابات الحديثة على حد سواء ، فمنها

(\*) - أجنادين : موقع بين الرملة و بيت جبرين في فلسطين ، حدثت فيه المعركة بين العرب و البيزنطيين ، إنتصر فيها العرب على البيزنطيين بقيادة " أرطيون " سنة 234 ق م . المنجد في اللغة و الاعلام .  
 (\*\*) - أبو جعفر المنصور : هو أبو جعفر المنصور ، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ولد في ذي الحجة سنة خمسة و تسعين هجرية ، تمت مبايعته سنة ست و ثلاثين مائة هجرية ، و قد دامت ولايته إثنين و عشرين سنة . عرف بالحزم و صواب الرأي ، و حسن السياسة و العطاء الجزيل . خلف سبعة أبناء هم : المهدي جعفر و سليمان و عيسى و يعقوب و جعفر الأصغر و صالح الملقب بالمسكين ، و بنت تسمى عالية ، دفن بمكة . علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب و معادن الجواهر ، ج 3 ، سلسلة الأنيس ، موفم للنشر ، الجزائر : 1989م ، ص 390 ، 389 ، 355 .

(\*\*\*) - الحروب الصليبية : إنطلقت الحروب الصليبية ، إثر دعوة وجهها البابا " أوربان الثاني " ، إلى المسيحيين لتحرير بيت المقدس ، و مجمع " كليرمون " - CLERMONT - في فرنسا عام 1095 م ، و الذي حضره إثنى عشر (12) مطرانا و ثمانين (80) أسقفا و تسعين (90) أبا . و قد دامت هذه الحرب الإستعمارية قرنين من الزمن ( 1096 م - 1291 ) ، شهد خلالها المشرق العربي الخراب و الدمار الذي عطل قوى الإبداع و التطور في الحضارة العربية الإسلامية . أحمد صارم " الغزو الصليبي للمشرق العربي بين الدوافع الحقيقية و الأهداف المعلنة " ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للثقافة و التربية و العلوم : العدد 26 / مارس 1994 م ، ص 108 .

من تتسبب الدروز على أنهم الفرقة الرابعة من الشيعة ، و أنهم من أتباع " أبي محمد الدرزي " الذي كان مواليا للخليفة الفاطمي " الحاكم أبي علي المنصور ابن عبد العزيز " ، كانوا إسماعيلية في البداية ثم تخلوا عنها ، و يعتقدون بألوهية الحاكم <sup>(1)</sup> .

و هناك من نسبهم إلى الفرس و العرب ، فقد ذهب الدكتور " فيليب حي " إلى أنهم من الفرس و العرب الذين ينحدرون من أصول فارسية ، حيث نزحوا إلى " وادي التيم " بسورية و استقروا هناك ، ليجد " الحاكم بأمر الله الفاطمي (\*) " في زعيمهم " الدرزي " الشخص المناسب للترويج لتعاليمه الباطنية ، التي ترجع في معظمها إلى العقائد الفارسية ، التي إمتزجت بعقائد و أفكار أخرى و منها : الأفلاطونية (نسبة على الفيلسوف أفلاطون ) و المسيحية و الزرادشتية و الهندوكية (ديانة الهنود ) و المعتزلة (فرقة إسلامية ) و الصوفية <sup>(2)</sup> .

أما " أمين طلع " <sup>(3)</sup> ، صاحب كتاب " أصل الموحدين الدروز " الذي يعد من أهم المراجع في تاريخ الدروز ، فذكر أن وجودهم في الشام يعود إلى القرن الثالث للهجرة ، لما نزحت بعض قبائل " بني ربيعة " من شبه الجزيرة العربية إلى لبنان ، و أستوطنت في منطقة " الجبل " و في قضائي " الشوف " و " المتن " ، و كانت " بسكنتا " هي عاصمتهم الأولى ، و يضيف أن آخرين منهم في أفضية " حاصيبا " و " راشيا " المعروفة باسم " وادي التيم " ، و في " البقاع " و " وادي العجم " و " غوطة دمشق " و " جبل الدروز " و " الجبل الأعلى " في شمال سوريا ، و في " صفد " و " جبل الكرمل " من أعمال فلسطين .

و نزل بنو تميم الله بن ثعلبة في وادي التيم المعروف " بالجهم " ، و نزل بنو كلب في البقاع الممتد بين " بلعبك " و " حمص " ، أما بنو هلال بن عامر بن صعصعة فقد إتخذوا جبل

<sup>(1)</sup> - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 16 .

<sup>(\*)</sup> - الحاكم بأمر الله الفاطمي : هو أبو علي المنصور بن العزيز بالله ، ولد بمصر يوم الثالث و العشرين ربيع الأول سنة 375 هجرية ، تولى الخلافة سنة 386 هجرية و عمره إحدى عشرة سنة ، إشتهر بالجدود بالمال و بسفك الدماء ، حاول نبش قبري الصحابييين عمر ابن الخطاب و أبي بكر الصديق لكنه فشل . أسس دار الحكمة ، و مكتبة دار العلم . أبي عبد الله محمد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، تحقيق و تعليق جلول أحمد البدوي ، م و ك ، الجزائر : 1984 م ، ص 57 و ما بعدها .

<sup>(2)</sup> - احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 19 . نقلا عن مجلة الهلال ، عدد مارس 1990 م ، ص 226 .

<sup>(3)</sup> - أمين طلع ، المرجع السابق ، ص 199 .

الدروز موطننا لهم ، و الذي كان يعرف فيما سبق بجبل بني هلال نسبة إليهم ، و لحد الآن مازال بنو عامر يسكنون القسم الشمالي من جبل الدروز و عاصمتهم " شهباء " .  
 أما بنو عجل بن عمر من آل عبد القيس ، فنزلوا بقضاء " الشوف " و عاصمتهم " بعقلين " و مازالوا هنالك لغاية الآن ، ثم جاء بعدهم إلى المنطقة بنو معن بن زائدة و عاصمتهم " دير القمر " ، تم التتوخيون و بني لخم مناذرة العراق الذين وفد منهم أميران بغرض مقاومة الروم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، و هما الأمير " عون " خلف " مالك " و هذا الأخير خلف " أرسلان " جد الأرسلايين ، الذين إستوطنوا مقاطعة " العزب " مثلما هم الآن بطلب من الدولة العباسية (\*) .

و بعد هذا السرد المفصل ، يرد أمين طلع على الكتابات التي تتسبب الدروز إلى القائد الصليبي " الكونت درو " ( DREUX ) و حتى إلى اليهود ، بالقول أنها إدعاءات لا سند لها ، لأن الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها " بطرس الناسك " (\*\* ) كانت في سنة 1096 م (\*\*\*) ، أما تاريخ الدروز فيرجع حسبه إلى ما قبل ذلك بقرن ، لأن " الحاكم بأمر الله الفاطمي " مؤسس الطائفة الدرزية و إمام مذهبها ، تولى الخلافة سنة 995 م (1) .  
 و الواقع أن هذا التضارب في نسب الدروز ، قد دفع بالأمير شكيب أرسلان نفسه إلى الرد على من إعتبرهم مشككين في عروبة قومه ، فألف كتابا أسماه : " بنو معروف أهل العروبة و الإسلام " ، أكد فيه أن الدروز عرب أقحاح و أن عروبتهم أصح من عروبة كل عرب الجزيرة العربية قاطبة ، معتبرا القول بأنهم من بقايا الصليبيين و اليهود رأي سخيف :  
 (( و يا ليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الإفرنج الصليبيين أسخنتهم أم ألوانهم أم تركيب رؤوسهم أم أخلاقهم أم عاداتهم أم لفظهم بالعربي الفصيح الذي لا يساويهم فيه أحد من

(\*)- لم تتمكن من معرفة السبب الحقيقي ، الذي دفع بالخلفاء العباسيين إلى الطلب من الأرسلايين أجداد الأمير شكيب أرسلان ، الإستقرار في المنطقة .

(\*\*) - بطرس الناسك ( نحو 1050 م -1115 م ) : راهب فرنسي دعا إلى الحملة الصليبية الأولى . المنجد في اللغة و الاعلام .

(\*\*\*) - هذا التاريخ خاطئ ، لأن دعوة بطرس الناسك كانت سنة 1095 م ، أما الحملة الصليبية الأولى فقد إنطلقت سنة 1096 م كما هو معروف .

(1)- أمين طلع ، المرجع السابق ، ص ص 20 - 21 .

جميع سكان سورية ؟ و كيف تمكن أن يتحولوا هذا التحول العظيم من إفرنج صليبيين إلى عرب أقحاح ؟ و متى وقع هذا التحول و أين و متى ؟ (( .

و إضافة إلى ذلك ، تحدى الأمير أصحاب هذا الرأي ، أن يأتوا بدليل من كتابات القدماء " كابن الكثير " ، أو " ابن خلدون " ، أو " ياقوت الحموي " ، أو " ابن عساكر " ، أو " الذهبي " أو " أبو شامة " ، أو " ابن النديم " ... أو غيرهم من المؤرخين العرب و المسلمين ، الذين يشهد لهم بالتمكن في هذا المجال . أما الأدلة التي ثبت حسبه عروبة الدروز ، فهي كالآتي :

01 - سحتهم العربية الخالصة و تشابههم فيما بينهم ، حيث يمكن التمييز بين الدرزي و غيره بسهولة .

02- فصاحة لغتهم العربية ، و إخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة ، فتجد الدرزي البسيط يتحدث لغة فصيحة ، تفوق فصاحة المتخصص في النحو .

03 - كون كل المصادر الدرزية و غير الدرزية ، تتفق على أنهم من نسل اثنتي عشر قبيلة عربية هاجرت من حلب إلى لبنان ، في أوائل العهد العباسي .

04 - كونهم من " الشيعة السبعية " ، أي القائلين بالأئمة السبعة و هم فرقة من الشيعة ، مع العلم أن شيعة سوريا هم عرب أقحاح .

05 - وجود بطون و أفخاذ في المجتمع الدرزي ، تتصل أنسابها على قبائل عربية ، و منها من مازالت الصلات بينها لغاية الآن .

و إذا كان الأمير لا ينفي ، وجود بعض العائلات الدرزية ذات أصول تركية أو كردية ، فإنه في المقابل يرفض أن يتخذ من ذلك دليلا ، يخرج حسب الطائفة الدرزية ، من النسب العربي .

فانه من جهة أخرى- وجدناه- يهاجم بشدة ، كل من ينفي عند الدروز صفة الإنتماء الإسلامي ، و يروج بأنهم من الفرق الباطنية الخارجة عن الدائرة الإسلامية ، قائلاً بأن قومه مسلمون يقيمون جميع الشعائر الإسلامية المفروضة ، و يتواصلون فيما بينهم بالرابطة الإسلامية<sup>(1)</sup> .

(1)- ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 71 و ما بعدها .

و يتصف الدروز بشكل عام ، بالقناعة المفرطة ، إذ لا يميلون إلى الهجرة و الترحال طلبا للثروة و المال ، أو إلى التأنق في اللباس و الطعام ، و لا إلى الإشتغال في المهن الشاقة التي تتطلب الجهد و الصبر ، فهذا الزهد دفع الكثيرين إلى إعتبارهم أصحاب كسل (1) .  
و يضيف إلى ذلك الشيخ محمد عبده ، في تقرير قدمه إلى والي بيروت سنة 1886م أنهم : (( قوم خلو من العلوم بالمرّة سذج كأنهم في بداية البداوة ، و لكنهم أذكيااء بجودة الفطرة ، و لا يخش على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ، و إنما يخاف على أبنائهم من ذلك و على كبارهم من الإنقياد السياسي للإنجليز )) (2) .

و يبدو من هذا الوصف ، أن الشيخ محمد عبده ، إنما يحاول أن يلفت انتباه المسؤولين العثمانيين في المنطقة إلى ضرورة التساهل مع الدروز و معاملتهم معاملة حسنة ، فقد يدفعهم تعسف بعض الولاة و القادة العسكريين ، إلى التحالف مع الإنجليز الذين بدأوا يمهدون الطريق للسيطرة على الشام ، مستغلين في ذلك تدمير الشاميين من السياسة العثمانية بصورة عامة .

و بناء على كل ما تم عرضه في هذا المبحث ، الذي أدرجناه للحديث عن مولد و نسب الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب ، نلاحظ أن الرجلين ينتميان إلى جيل واحد ، حيث الإبراهيمي ولد سنة 1889م ، بينما أرسلان ولد سنة 1869م ، أي جيل النصف الثاني من القرن 19م ، بالرغم من أن الأمير قد سبق الإبراهيمي بعشرين سنة . كما لاحظنا أيضا ، أن تاريخ مولدي الرجلين موثقان بدقة ، ويمكن تبرير ذلك بالمكانة الاجتماعية و الثقافية و العلمية للعائلتين اللتان انحدرتا منهما ، فعائلة الإبراهيمي كانت من أكبر وأعرق العائلات العربية في الجزائر ذاع صيتها في كل أنحاء البلاد وحتى خارجها ، أما عائلة الأمير شكيب فقد كانت تلعب دورا كبيرا و أساسيا في الحياة الاجتماعية و السياسية ، بل و حتى في بلاد الشام كلها .

و في معرض حديثنا عن نسب العائلتين ؛ لاحظنا أن الإبراهيمي قد تحدث عن نسبه العائلي بإقتضاب شديد ، مكتفيا بالقول أنها ذات أصول عربية عريقة تتصل بشكل و آخر بقبيلة

(1) - أمين طلع ، المرجع السابق ، ص 11 .

(2) - عبد المنعم حمادة : الأستاذ الإمام محمد عبده ، د ط ، مطبعة الإستقامة ، مصر : 1945 ، ص 14 .

قريش أحد أشهر القبائل العربية و أعرقها ، دون أن يوثق ذلك بالشجرة التتاسلية كما هو متعارف عليه في مثل هذه القضايا . و الأمر ذاته ، فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بأخوته ووالدته ، حيث لم نعثر على أي شيء مفيد في ذلك ، و قد إنتظرنا صدور مذكرات نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " ، لعلها تميظ اللثام عن ذلك ، لكن دون جدوى ، حيث تجنب الدكتور الحديث عن الأمور العائلية و الشخصية عن قصد حسبه ، مثلما أشار إليه في الجزء الثاني من المذكرات ، ردا على الاستفسارات ، أو الإنتقادات التي وجهت له منتقدة إياه تارة و ملاومة له تارة أخرى . إذا كنا قد وجدنا مبررا للإبراهيمي الوالد ؛ بقولنا أنه ربما يرجع ذلك إلى إنشغاله بالعمل التربوي و الإصلاحي الذي كان يأخذه منه كل وفته ، فحال دون أن يتوسع في الكتابة و ربما التأليف في أصوله العائلية ، فإننا لم نقف عند السبب الحقيقي الذي دفع بالإبراهيمي الإبن إلى الإحجام عن ذلك ، خاصة و أن نسب العائلة عربي عريق و لا يطرح أي إشكال ، كما هو الحال بالنسبة لآل أرسلان أجداد الأمير شكيب أرسلان ؟ .

و عليه ؛ فإنه إذا كنا قد وجدنا شحا كبيرا ، في المعلومات المتعلقة بعائلة الإبراهيمي ، فإننا عثرنا على كم كبير من المعلومات حول عائلة الأمير شكيب أرسلان ، سواء في كتابات الأمير ذاته ، أو في كتب غيره من المؤرخين و المؤلفين اللبنانيين و العرب على حد سواء ، بل وجدنا أنفسنا أمام موضوع جدير بالبحث و الدراسة و المناقشة ، و هو أصول الطائفة الدرزية التي تنتمي إليها عائلة الأمير شكيب ، بسبب تضارب المعلومات حول أصولها الحقيقية هل هي عربية أم أوروبية أم تركية ؟ ، و حول كونها إسلامية العقيدة أم غير ذلك ... ؟ . و في كل ذلك ، كان الأمير مدافعا مستميتا عن عروبة و إسلام طائفته مفتخرا بذلك ، مستغربا و متسائلا عن خلفيات من ينفون عنها العروبة و الإسلام ، و ينسبونها إلى الصليبيين و غيرهم ؟ .

و في واقع الأمر ؛ أنه لا دفاع الأمير شكيب أرسلان المؤكد لعراقة الطائفة الدرزية ، و لأحقيتها في موقع مرموق ضمن الدائرة الإسلامية ، و لا كتابات و أقوال المشككين في ذلك ، إستطاعت أن تزيل اللبس و الغموض عن حقيقة الدروز و إعتقاداتهم الباطنية ، التي تبدو حتى لنا كباحثين محايدين في حاجة إلى مزيد من البحث و الدراسة .

و هو الإشكال الذي لم يطرح إطلاقا ، بالنسبة لعائلة الإبراهيمي أو قبيلته ، على إعتبار أنها عربية مسلمة على المذهب المالكي ، الذي يعد المذهب الغالب لدى كل شعوب المغرب



العربي هذا من جهة . و من جهة أخرى تجب الإشارة ، إلى أن الإبراهيمي ينتمي إلى عائلة تنتمي بدورها إلى قبيلة كبيرة ، من ضمن نسيج إجتماعي قبلي كبير ، يتشكل منه القطر الجزائري آنذاك . بينما ينتمي الأمير إلى طائفة عرقية و دينية و مذهبية ، من جملة الطوائف الدينية و العرقية و المذهبية ، التي تعد الأساس الذي يقوم عليه المجتمع اللبناني منذ قرون ، و الدولة اللبنانية منذ إستقلالها و إلى غاية الآن .

و منه فإن الإبراهيمي ، ولد في عائلة لم يكن نسبها العربي و إنتماؤها العقائدي إلى الإسلام محل تشكيك أو إنتقاد ، بينما العكس بالنسبة لعائلة الأمير شكيب ، التي كتب الكثير حول أصولها و عقائدها ، و ما زالت هذه الإشكالية مطروحة لغاية الآن ، خاصة في السنوات الأخيرة ، بالنظر إلى الدور السياسي الذي أضحت الطائفة الدرزية تلعبه في لبنان ، سواء خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي إندلعت في نهاية القرن العشرين ، أو في مطلع القرن الحادي و العشرين .

**المبحث الثاني : نشأتها و تعليمها :****01 - الإبراهيمي نشأته و تعليمه :**

نشأ الإبراهيمي في عائلة جزائرية ذائعة الصيت ، توارث أفرادها العلم أبا عن جد منذ أكثر من خمسة قرون <sup>(1)</sup> ، يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء البلاد ، فتتكفل بكل مستلزمات إيوائهم و تعليمهم ، إلى أن حصلوا على مبتغاهم العلمي و المعرفي .

مما أكسبها مكانة متميزة وسط القبائل و العشائر ، حيث كانت ترجع إليها طلبا للإفتاء في القضايا الدينية ، وللصلح في النزاعات و الخصومات التي تنشأ فيما بينها ، وقد أكد هذا الدور العلمي و التربوي و الدين و الاجتماعي ، الذي كانت تقوم به عائلته بقوله <sup>(2)</sup> : (( كان لأجدادي تاريخ قديم ، في العلم يرجع إلى قرون ، وكانوا مرجعا في الفتوى الدينية و الصلح بين العشائر مهما شجر بينهم خلاف ، وكانوا ملاذا لطلبة العلم لا تخلوا بيوتهم من عشرات طالبي العلم يرحلون إليهم من أقاصي البلاد ، فيقومون بإطعامهم و تعليمهم ، و منهم من لا يخرج إلا عالما )) . و منه نستخلص أن طلبة العلم و المعرفة ، الذين كانوا يلوذون إلى عائلة الإبراهيمي ، قد كانوا يفضلونها على سائر العائلات الأخرى في المنطقة ، لحسن ضيافتها لهم ، و للمستوى العلمي الجيد الذي يجدونه لدى علمائها و شيوخها و معلميها .

في ظل هذا الجو العائلي المحفز ، نشأ الإبراهيمي على غرار أبناء العائلات الريفية الجزائرية المتعلمة ، ببساطة في العيش ، و محافظة في السلوك ، و استقامة في الأخلاق . فقام على تربيته و تعليمه في بداية الأمر ، عمه الشقيق الأصغر لوالده " محمد المكي الإبراهيمي " ، الذي كان عالما معروفا بوطن " ريغة " <sup>(\*)</sup> ، و فريد عصره في التمكن من علوم اللغة العربية و آدابها ، فكان محمد البشير يلازمه حتى في الطعام و النوم ، فضلا عن التعليم و قراءة القرآن على يديه <sup>(\*\*)</sup> ، و نعتقد أن هذه الملازمة <sup>(\*\*\*)</sup> هي التي مكنته من استظهار القرآن الكريم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 90 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 189 .

(\*) - وطن " ريغة " : إقليم يشمل عدة بلديات تابعة لولاية سطيف وهي : عين يولمان ، بوطالب ، أولاد

سيدي أحمد ، الحامة ، الرصفة . وقد عرف الإقليم عددا من مشاهير العلماء في الخطابة و اللغة و الفقه

و القضاء منهم : جمال الدين أبو محمد عبد الله بن سعيد بن قايد ، هارون بن النصر الريغي ... و غيرهم .

(\*\*) - محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 33 .

وعمره ثماني سنوات ، وحفظ " ألفية ابن مالك " و " تلخيص المفتاح " ، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من ذاكرة وحافظة (( خارقتين للعادة )) (1) .

ولما بلغ سن التاسعة من عمره ، أصبح يفهم مفردات القرآن الكريم وغريبه (2) ، وهي السنة نفسها التي أصيب فيها بعاهة العرج في رجله اليسرى ، نتيجة للإهمال والتقصير في العلاج ، وقد خلف ذلك في نفسه ألما حادا وحرنا كبيرا ، ذكر بأنه شغله عنهما شغفه بالعلم وتعطشه للمطالعة وقراءة الكتب ، في شتى التخصصات والمجالات (3) .

ولما وصل إلى سن الرابع عشرة ، حفظ " ألفية العراقي " في النثر والسير ، ونظم الدول " لابن الخطيب " (\*) ، ومعظم رسائله المجموعة في كتاب " ريحانة الكتاب " ، ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس والشرق العربي ، وكتب اللغة والأدب .

وعندما أصيب عمه بالمرض ولازم الفراش ، أذن له بالتدريس نيابة عنه لزملائه الطلبة وهو في سن الرابع عشرة ، ولما مات عمه واصل الأستاذ الشاب تدريس ما تعلمه من عمه ، وما أجاز له تدريسه إلى غاية اجتيازه سن العشرين .

لقد مثلت الثقة الكبيرة التي وضعها عمه فيه ، نقلة نوعية ومرحلة جديدة ومثيرة في حياته ، تحدث عنها بصراحة فريدة بقوله (4) : (( وما أشرفت على الشباب حتى أصبت بشر آفة يصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس ... وكدت أهلك لولا طبع أدبي كريم ،

(\*\*\*)- ذكر عادل نويهض أن الإبراهيمي تلقى تعليمه الأول على يد أبيه ، ثم في زاوية" ابن علي الشريف

" في " شلاطة " بجبال القبائل . ينظر عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر

الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت : 1980م ، ص 13 .

(1)- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 90-91 .

(2)-المصدر نفسه ، ص 209.

(3)- المصدر نفسه ، ص 90 .

(\*) - ابن الخطيب ، وزير ومؤرخ وأديب ، ولد في لوثة جنوبي غرناطة ، من أسرة هاجرت من الشام إلى الأندلس ، تعلم على يد كبار الشيوخ ، ولي الوزارة ، عرف بذني : " الوزارتين " : الأدب والسياسة ، اتهم بالزندقة فقتل ، له عدة مؤلفات : في التاريخ وتخطيط البلدان ، الشعر والأدب ، التصوف والطب ، أهمها : " الإحاطة في أخبار غرناطة " . المنجد في اللغة والأعلام .

(4)- محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 91 ، 92 ، 93 .

ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة )) . وهي ولا شك عوارض نفسية ، قد تغري الشباب الذين يتفردون عن أقرانهم ، بتلك القدرات الذهنية والفكرية ، والاستعدادات الذاتية ، التي كان يتمتع بها الإبراهيمي الشاب الطامح إلى بلوغ أعلى الدرجات العلمية . وهكذا فالإبراهيمي ؛ وبالرغم من أنه ولد في فترة كانت فيها الجزائر قد عرفت فيها تخلفا علميا و ثقافيا كبيرا ، بسبب السياسة الاستعمارية الفرنسية التي عملت على تجهيل الشعب الجزائري ، و تحطيم هويته الوطنية التي تركزت على العروبة و الإسلام ، و هذا عن طريق منع التعليم العربي الديني الحر ، و الاستيلاء على مراكزه من مدارس و مساجد و كتاتيب قرآنية . و بالرغم أيضا ؛ من إقامته في عمق الريف الجزائري ، بعيدا عن حياة المدن التي كانت توفر لساكنيها ظروفا أسهل للدراسة و التعليم ، إلا أنه أقبل على طلب العلم و المعرفة بشراهة و نهم كبيرين ، و تمكن في ظرف وجيز من أن يستوعب و يفهم ما كان يتجاوز سنه بكثير ، و ما كان يجد زملائه الطلبة صعوبة كبيرة في تحصيله . و ما قيام عمه " المكي الإبراهيمي " بإجازته للتدريس ، دون غيره من علماء و معلمي العائلة أو المنطقة ، إلا دليلا على ذلك . و لأن الجزائر أصبحت لا تلبى طموحاته العلمية و المعرفية ، بسبب السياسة الاستعمارية السالفة الذكر ، اتخذ الإبراهيمي سنة 1911م قرار الهجرة إلى المشرق العربي ، الذي كان مقصد طلاب العلم و المعرفة ، من كل أنحاء البلاد العربية و الإسلامية ، لما كانت تتوفر عليه من مؤسسات علمية ذات مستوى علمي مرموق ، بالمقارنة مع نظيراتها في المغرب العربي .

في سن الواحد و العشرين ، قصد الإبراهيمي المدينة المنورة (\*) ، التي سبقه إليها والده الشيخ " السعدي الإبراهيمي " فرارا من القمع و الإضطهاد الفرنسيين (1) ، فمر بتونس

(\*) - ذكر الشيخ أحمد حماني ، و هو أحد أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين ، أن البشير الإبراهيمي رحل إلى المشرق العربي فرارا من التجنيد الإجباري ، لكننا نعتقد بعدم صحة ذلك ، لأن الإبراهيمي لم يكن مؤهلا للخدمة العسكرية ، بالنظر إلى الإعاقة الجسدية التي كان يعاني منها ، و قد سبق الحديث عنها في بداية هذا المبحث . ينظر أحمد حماني : الصراع بين السنة و البدعة ، ج 1 ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 م ، ص 237 .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 9 - 10 .

و ليبيا (1) ، ثم القاهرة التي أقام فيها ثلاثة أشهر ، حضر خلالها دروس نخبة من علماء الأزهر ، من أمثال الشيخ " سليم البشري " ( 1867م - 1917 م ) ، و الشيخ " محمد بخيت " ( 1854م - 1935م ) ، و الشيخ " يوسف الدجوي " ( 1860م - 1946م ) ، و الشيخ " عبد الغني محمود " ( توفي سنة 1928 ) ، و الشيخ " السمالوطي " ، و " سعيد الموجي " .  
و اتصل بأمير الشعراء " أحمد شوقي " (\* ) و بشاعر النيل " حافظ إبراهيم " (\*\* ) ، كما حضر عددا من الدروس في دار الدعوة و الإسلام التي أسسها الشيخ " رشيد رضا " (\*\*\*) . و قد مكنته تلك الاتصالات و الدروس ، من الإطلاع على الأفكار الإصلاحية و التأثير بها ، و خاصة أفكار " رشيد رضا " ، الذي اعتبر وفاته فيما بعد خسارة كبيرة للعالم الإسلامي (2) .

(1) - محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 35 .

(\* ) - أحمد شوقي : ولد حوالي 1869م ، التحق في سن الرابعة بالكتاب على غرار أبناء جيله ، ثم بالمدارس الابتدائية و الثانوية ، أكمل تعليمه الثانوي سن 1885م ، فانتقل إلى مدرسة الحقوق لدراسة القانون لكنه أثر الإلتحاق بقسم الترجمة الذي فتح بها حديثا ، و تخرج منه سنة 1887م مع حصوله على منحة لدراسة الحقوق في فرنسا ، منحها إياه " الحديوي توفيق " . يعد من أعمدة البحث و الإحياء في الشعر العربي ، حيث واصل المسيرة التي بدأها البارودي في إستلهاج التراث العربي و الإستفادة منه ، مع التجديد فيه . مصطفى عبد الشافي ، المرجع السابق ، ص ص 32 - 33 .

(\*\*) - حافظ إبراهيم : ولد سنة 1871م في محافظة أسيوط ، حيث كان يعمل والده ، التحق بالمدرسة الحربية و تخرج منها سنة 1891م ، عمل في وزارة الحربية ثلاث سنوات و في وزارة الداخلية عام واحد . عين سنة 1911م في القسم الأدبي بدار الكتب المصرية في عهد وزير التربية " حشمت باشا " ، حيث مكث فيه إلى غاية وفاته سنة 1932م . يمثل شعره حلقة أخرى في حركة البعث و الإحياء ، فمن جهة سار على النهج القديم ، و دعا إلى التخلص من ما لا يتصل بالحياة المعاصرة من صور و أخيلة من جهة ثانية ، و زيادة على ذلك تطلع إلى الصور الإنسانية الرحبة الجذابة في الآداب الغربية . مصطفى عبد الشافي ، المرجع نفسه ، ص 20 و ما بعدها .

(\*\*\*) - رشيد رضا : ولد في قرية " قلمون " في طرابلس الغرب بلبنان سنة 1865م ، صاحب مجلة " المنار " ، و ناظر مدرسة الدعوة و الإرشاد الكلية بمصر ، تلميذ الشيخ محمد عبده ، بعد وفاة أستاذه واصل نشر تفسيره للقرآن الكريم . المنجد في الأدب و العلوم .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 9 - 10 .

الفصل الثاني :

الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان  
حياتهما وآثارهما

شد الرجال بعدها قاصدا المدينة المنورة عن طريق البحر ، من مدينة " بور سعيد " إلى " حيفا " بفلسطين ، و منها ركب القطار إلى المدينة (1) ، التي وصلها في أوائل سنة 1912م متخفيا مثلما فعل والده . و فيها درس على يد كبار علمائها الذين استقروا بها من شتى أنحاء البلاد العربية و الإسلامية ؛ مختلف العلوم : كعلوم التفسير و الحديث ، الفقه و التراجم ، أنساب العرب و أدبهم و دواوينهم ، علم المنطق و الحكمة الشرقية ، و أمهات كتب اللغة و الأدب (2) .

و حضر الدروس التي كان يلقيها الشيخ " عبد العزيز الوزير التونسي " في : الموطأ و فقه الإمام مالك ، و في التوضيح لابن هشام . كما لازم الشيخ " حسين أحمد الفيض الأبادي " ، في درسه لصحيح مسلم . و قد تأثر بهذين الشيخين تأثر كبيرا ، فقال (3) عنهما : (( و لقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى ، و لكني لم أرى مثل الشيخين فصاحة في اللسان و دقة في الملاحظة و الغوص عن المعاني و إستتارة الفكر ، و التقريب للمعاني القصية )) .

و أخذ علم التفسير ، عن الشيخ الجليل " إبراهيم الأسكوبي " (\*) ، و الجرح و التعديل و أسماء الرجال عن الشيخ " أحمد البنزرجي " (\*\*\*) و أنساب العرب و أدبهم الجاهلي و السيرة النبوية عن الشيخ " عبد الله الشنقيطي " ، و علم المنطق عن الشيخ " عبد الباقي الأفغاني " ، و أمهات كتب الأدب المشهورة عن الأديب " محمد العمري الجزائري " (4) .

و لم يكتف ، بما كان يتلقاه من كبار هؤلاء العلماء ، فراح يتردد على كبريات مكاتبات المدينة ، التي كانت تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب و المخطوطات النادرة : في علوم التفسير و الحديث و أصول الفقه ، و علم الكلام و الأدب و الأخلاق و التاريخ ، و علم المنطق ... إلخ . و من أشهر تلك المكاتبات : مكتبة شيخ الإسلام " عارف حكمت " ، مكتبة " السلطان محمود " ، مكتبة " الشيخ الوزير " ، مكتبة " بشير آغا " ، مكتبة " آل الصافي "

(1) - محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 35 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 9 - 10 .

(3) - المصدر نفسه ، ص ص ، 211 - 216 .

(\*) - إبراهيم الأسكوبي : من أصل لبناني ، كان يحسن عدة لغات .

(\*\*\*) - أحمد البنزرجي : هو من أجاز للإبراهيمي بجمع معارفه العلمية ، توفي بدمشق سنة 1919 م .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص ص 211 - 212 .

مكتبة " رباط سيدنا عثمان " ، مكتبة " عبد الجليل برادة " ، مكتبة الوزير التونسي " العربي زروق " (1) .

و لا شك أن ؛ هذه المكتبات العديدة العامرة بالمؤلفات و المخطوطات ، قد أشبعت تعطش الإبراهيمي للمطالعة و زيادة التبخر في مختلف العلوم و المعارف ، فضلا عن إحتكاكه بروادها من العلماء و الطلبة ، و هو ما كان يفتقد إليه في الجزائر .

و زيادة على ذلك ، كان يلقي الدروس تطوعا على شباب المهاجرين في المسجد النبوي الشريف (2) ، أين كانت له مع بعض زملائه الطلبة لمسات تجديدية على مضامينها و طرق إلقائها ، مستفيدا من خبرته في التدريس في الجزائر ، لما رخص له عمه " المكي الإبراهيمي " ذلك ، و هو في سن الرابع عشرة (3) .

و في المدينة المنورة أيضا ، تم أول لقاء بين الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ عبد الحميد ابن باديس ( 1889 م - 1940 م ) ، أثناء موسم الحج لعام 1913م ، تلتها لقاءات أخرى بشكل يومي عقب صلاة العشاء التي كانا يؤديانها في المسجد النبوي الشريف ، ليستمر سمرهما في بيت الإبراهيمي ، و هذا طيلة ثلاثة أشهر ، و هي الفترة التي أقام فيها ابن باديس بالمدينة المنورة (4) .

و قد مهدت تلك اللقاءات الثنائية ، إلى وضع تصور مشترك لمشاريعهما المستقبلية في الجزائر ، في ميادين التربية و التعليم و الإصلاح و مقاومة الاستعمار الفرنسي ، أثمرت فيما بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر العاصمة ، بتاريخ 05 ماي 1931م (5) .

توطدت صلات الود و التآلف و التعاون بين الرجلين ، لتزداد متانة و ارتباطا ، بعودتهما إلى أرض الوطن ، و قد وصف الإبراهيمي تميز تلك العلاقة قائلا (6) : (( فلقد و الله كنا

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 553 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 215 .

(3) - المصدر نفسه ، ص ص 93 - 219 .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 10 .

(5) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، المصدر نفسه ، ص 216 .

(6) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 553 .



إخوان صفاء ، و مازلنا إخوان صفاء ، حتى نجتمع عند الله راضين مرضيين إن شاء الله )) .  
و على هذا الأساس ظل الإبراهيمي ، يعتبر ابن باديس رائد علماء الشمال الإفريقي ، و أنه إليه يعود الفضل في النهضة العلمية و الأدبية و الاجتماعية و السياسية ، التي شهدتها الجزائر مع نهاية العشرينات ، و بداية الثلاثينات من القرن الماضي (1) .

و لكن مقام الإبراهيمي ، لم يطل كثيرا بالمدينة المنورة ، فقد اضطر إلى مغادرتها إلى بلاد الشام سنة 1916 م ، رغم تعلقه بها و تفضيله لها عن كل البلاد ، لمكانتها و للأجواء الروحية التي تسودها ، بسبب قيام الدولة العثمانية بترحيل كل سكان المدينة إلى سوريا و الأناضول بتركيا ، بسبب الحرب العالمية الأولى و ثورة " الشريف حسين بن علي " ، و عجزها عن تموين الجيش العثماني المتواجد هنالك و المقدر بخمسين ألف ( 50.000 ) جندي ، و المدنيين البالغين ثمانين ألف ( 80.000 ) مدني (2) .

و كان وصوله إلى دمشق في أخريات شتاء عام 1917 م ، و قد أنساه حزنه على هذا الترحيل الإجباري ، رغبته في لقاء العالمين الدمشقيين الكبارين " عبد الرزاق البيطار " (\*) و " جمال الدين القاسمي " (\*\* ) خاصة ، و بقية علماء سورية عامة ، الذين قرأ مؤلفاتهم أو سمع عنهم و عن منزلتهم العلمية (3) .

و منه نستنتج ، أنه كان يخطط مستقبلا لزيارة الشام ، بغرض لقاء علمائه و أدبائه ، قبل أن يقوم بذلك مرغما ، و لأن المنطقة لم تكن هي الأخرى أقل شأنًا من المدينة المنورة ، فيما يتعلق بانتشار المؤسسات التعليمية و المراكز الثقافية ، و ازدهار النشاط العلمي و الفكري بها .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 215 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 93 - 213 .

(\*) - عبد الرزاق البيطار : هو عبد الرزاق البيطار بن حسن بن إبراهيم البيطار ، ولد و توفي بدمشق ( 1834م - 1916م ) ، ملك ناصية علوم الدين و الأدب و التاريخ ، مصلح سلفي العقيدة ، له عدة كتب مطبوعة . خير الدين الزركلي : معجم الأعلام ، ج 5 .

(\*\*) - جمال الدين القاسمي : هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسن الحلاق ، ولد و توفي بدمشق ، من أئمة الشام و علمائه في الدين و الأدب ، سلفي العقيدة ، له عدة مؤلفات منها : " دلائل التوحيد " ، " الفتوى في الإسلام " ، ... إلخ . خير الدين الزركلي : معجم الأعلام ، ج 4 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 565 .

و لما إستقر به المقام بدمشق ، أخذ يلقي دروسا في الوعظ و الإرشاد ، و في الحديث و التفسير بالجامع الأموي : (( فكان يملئ الحديث من حفظه بالإسناد إلى أصوله القديمة ، ثم يشبعه تفسيرا و شرحا ، بما يوافق روح العصر و أحداثه )) . و قد مكنه هذا الأسلوب من إستقطاب شريحة هامة من أهل المدينة ، الذين أعجبوا بعلمه الغزير و حفظه الكثير و براعته في التفسير (1) .

عمل بعدها ، أستاذا للغة العربية في المدرسة السلطانية (\*\*\*) للصفوف النهائية المرشحة لنيل شهادة البكالوريا ، وهي المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق ، وقد كان يختار للتدريس فيها نخبة من العلماء والأساتذة البارزين من الشام وخارجه ، ثم أصبح أستاذا لآداب اللغة العربية و تطور فقه اللغة العربية ومراحلها وفلسفتها ، فتخرج على يديه مجموعة من الطلبة النجباء ، الذين أصبحوا فيما بعد أعلاما وأقطابا بارزين ، في دنيا الفكر والأدب والسياسة (\*\*\*) (2) .

ومن الطبيعي ، أن يتنافس أصحاب المدارس الأهلية في دمشق ، لضم الإبراهيمي لأطقمها التدريسية ، إذ أنه في ظرف وجيز ، استطاع أن يحجب إلى طلبته اللغة العربية وآدابها ، بفضل خبرته المحترمة في التدريس وعلمه الواسع ، وذاكرته القوية ومنهجه التربوي السليم . وأن ينال الحب والتعظيم منها لأخلاقه العالية ، ومثاليته وإنسانيته .

(1) - محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 39 .

(\*\*) - المدرسة السلطانية : اتخذتها السلطات العثمانية مدرسة ، وسمتها ( المكتب الاعداوي ) ثم أصبحت تعرف باسم ( مكتب عنبر ) . محمد مهداوي ، المرجع نفسه ، ص 93 .

(\*\*\*) - ومنهم الدكتورة : جميل جميل صليبا ، أمين الريحاني ، المحاييري ، عدنان الأتاسي ... وغيرهم .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 93 - 213 .

وقد بلغ تعلق طلبته به ، حد زيارته في بيته حتى في العطل المدرسية ، وفي ذلك يقول تلميذه الدكتور " جميل صليبا " (\*)<sup>(1)</sup> ، الذي تأثر به أيما تأثر : (( ... أعجبنا بسعة علمه ، وقوة ذاكرته ، واستقامة منهجه ، لأنه كان يملئ علينا البحتري وأبي تمام عن ظهر قلب من أولها إلى آخرها ، ويقرب معانيها من إفهامنا بالتفسير المحكم والشرح الدقيق والتحليل الأدبي الجميل ، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها ، ولعلنا لم نحب هذه اللغة إلا بتأثير الشيخ أولا ، فقد أحببناه حبا عميقا ، وانتقل هذا الحب منه إلى مادته ، ولا غرو فقد كان رحمه الله أعظم الناس في أعيننا ، وكان حبه إلى نفوسنا تواضعه ، ولطفه ووقاره ، وشجاعته وعفته ، وشعوره بكرامته ، وحرصه على القيام بواجباته ، وتعلقه بالقيم الإنسانية المثالية )) . هذا ويعد " صليبا " ، من أبرز التلامذة (\*\*\*) الذين كتبوا وتحدثوا عن أستاذهم الإبراهيمي ، خاصة فيما يتعلق بمنهجه التربوي ، والجوانب الإنسانية في شخصيته .

زيادة على ذلك ، عقد الكثير من اللقاءات والاتصالات والصدقات ، مع العلماء والمفكرين ورجال الأدب والثقافة في سورية ، مثلما كان يفعل أثناء إقامته بالمدينة المنورة ، كما كان يتردد باستمرار على مكتبة " آل القاسمي " الشهيرة ، ينقب في مخطوطاتها النفيسة وكتبها القيمة . وقد وصف إقامته بدمشق قائلا<sup>(2)</sup> : (( ولقد أقمت بين أولئك الصح الكرام أربع سنين إلا قليلا ، وأشهد صادقا أنها الواحة الخضراء في حياتي المجربة ، وأنها هي الجزء

(\*) - جميل صليبا : هو حبيب خوري داود صليبا ، ولد في قرية القرعون في لبنان سنة 1902م ، كان عضوا بمجمع اللغة العربية بدمشق ، وعميدا لكلية التربية بجامعة دمشق ، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون سنة 1927م ، له عدة مؤلفات في علم النفس والفلسفة . توفي بلبنان سنة 1976م محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 40.

(1) - جميل صليبا : " مقتطفات من مذكرات الدكتور جميل صليبا عن الشيخ البشير الإبراهيمي " ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 87 ، ماي / جوان 1985م ، ص ص 55- 56 .

(\*\*) - ومنهم الأساتذة : عبد القادر المظفر ، بهجت البيطار ، عبد الكريم الطرابلسي ، جودت المارديني ، قاسم ورضا القاسميين ، سعيد العزي ، عبد القادر المبارك ، محمد الخضر الحسين ( 1876م ، 1958م ) وهو : عالم جزائري اختص في علوم الشريعة والأدب واللغة ، تولى مشيخة الأزهر والزيتونة ، ودرس بالمدرسة السلطانية ... وغيرهم . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص 566.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي ، المرجع نفسه ، ص 566.

العامر ، في عمري الغامر )) .

و لم يقتصر نشاط الإبراهيمي في دمشق ، على التدريس والبحث والتنقيب في المكتبات العامة والخاصة ، بل شارك في النشاط السياسي ، وأبدى مواقف وآراء إزاء الأوضاع السياسية ، التي كانت تشهدها سورية في تلك الفترة الحساسة جدا من تاريخ المنطقة ، فقد رفض تأييد نقيب الأشراف " جمال باشا " (\*) الذي طلب منه أن يسخر قلمه ولسانه لخدمة سياسته ، بسبب سياسته الاستبدادية والقمعية واحتقاره للعنصر العربي . وهو موقف نحسبه جريئاً ، بالنظر إلى ما عرف عن ذلك القائد ، من قسوة وبطش بمعارضيه وخصومه .

كما انضم إلى الكثير من الأندية والجمعيات السورية ، التي كانت تسعى إلى توحيد صفوف العرب ، ومنها بصورة خاصة " النادي العربي " الذي أسسه الدكتور " عبد الرحمان شهبندر " : أحد قادة الرأي ، وزعماء الثورة العربية في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي . كما أيد الثورة العربية "والأمير فيصل " (\*\*\*) ، الذي دخل دمشق سنة 1918م ، بعد أن طرد الأتراك نهائياً من المنطقة (2) . هذا الأخير طلب من الإبراهيمي الرجوع إلى الحجاز ، للإشراف على إدارة التعليم هنالك ، لكنه رفض رغم إلحاح " فيصل " عليه ، لعدم رضاه على سياسة أبيه " الشريف حسين " (3) .

(\*)- نقيب الأشراف " جمال باشا " : عينته الدولة العثمانية واليا على سوريا في ديسمبر 1913م ، تظاهر في البداية بإحياء التراث العربي و اللغة العربية وأمجاد العرب ، لكي يخفي عداؤه للعرب ، فعمل تدريجياً على إبعاد الكتائب العربية المنضوية ، تحت لواء الجيش التركي ، من دمشق إلى الأناضول واستبدالها بكتائب تركية . عمل مديراً لفرع الجواسيس في جمعية الاتحاد والترقي ، قام بسلسلة من الإعدامات ضد المعارضين للحكم التركي بين سنتي 1915م - 1916م ، في دمشق وبيروت ، بتهمة التعاون مع الانجليز و " الشريف حسين " . للمزيد ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 240 وما بعدها .

(\*\*)- الأمير فيصل : هو الأمير فيصل بن الحسين بن علي بن الحسين الهاشمي ، ولد بالطائف سنة 1883م ، رحل مع والده إلى الأستانة سنة 1891م ، اختير نائبا عن مدينة جدة في مجلس النواب العثماني ، عين قائدا للجيش العربي المحارب في فلسطين إلى جانب الإنجليز لطرد الأتراك سنة 1920م ، بعد احتلالها من قبل القوات الأوروبية فر إلى أوروبا ، ثم نودي به ملكا على العراق سنة 1921م . توفي في سويسرا بالسكتة القلبية . خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج 5 .

(2)- محمد مهداوي ، المرجع السابق ، ص 41 .

(3)- محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 93- 94 .

فاستمر به المقام بدمشق ، إلى غاية سنة 1920م ، يقدم المساعدة للدولة العربية الناشئة ، من خلال مساهمته في تعريب الإدارة وتكوين الأطارات الحكومية ، وإلقاء المحاضرات على طلبة التعليم العالي بالنادي العربي (1) .

وبعد تسع سنوات من الغياب عن الجزائر ، قرر الإبراهيمي العودة إليها سنة 1920م ، مغادرا دمشق " الفيحاء " ، التي عاش فيها أحلى أيامه ، وأروى فيها ظمأه العلمي والمعرفي ، ولذلك كان يوم الوداع قاسيا عليه ، فقال فيه (2) بعد ثلاثين سنة : (( ويوم الوداع ما أقساك ، لا أنسى ما حبيت مواقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات ، وتلامذتي الأوفياء : جميل صليبا ، ونسيب السكري ، والأيوبي ، يقدمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات ، ما زلت محتفظا بها احتفاظا الشحيح بماله )) . وبناء على كلام الإبراهيمي هذا ، نستشف مدى تعلقه الكبير بدمشق خاصة وبالبيئة الشامية عامة ، لأن إقامته فيها مثلت نقلة عظيمة في حياته ، رغم أنه هاجر إليها مكرها ، إذ اكتشفه الدمشقيون بمجرد نزوله بعاصمتهم التاريخية ، فسارعوا إلى مجالسته وفتح المجال أمامه لممارسة وظيفته الطبيعية كما كان يسميها وهي التعليم ، رغم أن دمشق في تلك الأثناء كانت تحفل بكبار الأساتذة و العلماء والمفكرين والأدباء ، ممن لا يتيسر أمر منافستهم بسهولة ، فسجل وبنجاح كبير رغم حداثة سنه وقلّة خبرته ، اسمه في النهضة التعليمية التي أثمرت ، بعد أن أئبعت في سوريا عموما ودمشق خصوصا .

وتجاوز ذلك ، إلى المساهمة في الحياة السياسية ، بالمشاركة والانخراط في النوادي التي كانت تهتم بالشؤون السياسية ، وبإبداء رأيه ومواقفه بشجاعة وجرأة كبيرتين ، في الأحداث والتطورات التي عرفتها سوريا خلال وبعد الحرب العالمية الأولى ، رغم خطورة الأمر خاصة عند نهاية الحكم التركي بالمنطقة ، وما الإعدامات التي قام بها " جمال باشا " نقيب الإشراف في سوريا ، إلا دليلا على ذلك .

(1) - محمد خير الدين : مذكرات الشيخ محمد خير الدين ، ج1 ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1985م ، ص 412 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص ص 567 - 568 .

وخلص القول ، أن رحلة الإبراهيمي إلى المشرق العربي ، قد فتحت أمامه آفاقا علمية وفكرية وإنسانية رحبة ، لم يكن ليحدها لو بقي في وطنه الجزائر ، الذي تركه يعيش جفافا ثقافيا وعلميا وفكريا كبيرا ، بفعل السياسة الاستعمارية الفرنسية ، التي اتخذت من التجهيل الشامل لكل فئات الشعب الجزائري ، أداة إستراتيجية لضمان بقائها في البلاد ، وبالتالي استغلال مواردها البشرية والاقتصادية دون عناء .

---

**02 - شكيب أرسلان : نشأته و تعليمه :**

في عائلة أرستقراطية ، يعتز أبناءها بانتمائهم العرقي ، و بإمارتهم للأدب و العلم و السياسة منذ قرون ، نشأ الأمير شكيب أرسلان ، و تلقى دروسه و معارفه الأولى ، حيث أنه و بمجرد أن بلغ سن الخامسة من عمره ، إختار له والده رفقة شقيقه ( نسيب ) معلما يدعى الشيخ ( مرعي شاهين سلمان ) ، ليعلمهما في البيت المبادئ الأولى في القراءة و الكتابة .

و لما إنتقلت الأسرة إلى منطقة " عين عنوب " ، أحضر لهما الشيخ " أسعد أفندي فيصل " لتحفيظهما القرآن الكريم ، فحفظا جانبا منه عن ظهر قلب دون إكماله ، ثم إلتحقا بالمدرسة الأمريكية في حارة " العمروسية " ، بعد عودة الأسرة إلى قرية " الشويفات " ، و فيها تلقيا دروس الجغرافيا و الحساب و مبادئ اللغة الإنجليزية ... و غيرها .

و في سنة 1879 م أدخلوا مدرسة " الحكمة " ببيروت ، التي أسسها المطران " يوسف الدبس " (\*) ، رئيس الساقفة الطائفة المارونية ، و قد إشتهرت هذه المدرسة بتفوقها في اللغة العربية ، ظلا يدرسان بها مدة ثماني سنوات (1) .

و في مدرسة " الحكمة " ، تعلم الأمير شكيب و شقيقه نسيب ، على يد نخبة ممتازة من الأساتذة في تلك الفترة و منهم : الشيخ " عبد الله البستاني " (\*\*\*) الذي تعلم على يديه اللغة العربية .

(\*)- يوسف الدبس : مؤرخ و عالم مشهور ، عرف في زمانه بسعة الثقافة و بتبحره فيها ، ألف كتابا ضخما تحت عنوان : " تاريخ سورية " منذ الخليقة إلى يومه ، يتألف من ثمانية مجلدات ، و يعد من أضخم المؤلفات و أوسعها في هذا المجال . تعلم اللغات السريانية و اللاتينية و الإيطالية ، و علوم المنطق و اللاهوت ، ترقى في الكهنوتية حتى منصب أسقف على أبرشية بيروت و نواحيها . قام ببناء كنيسة تعد من أكبر كنائس سورية ، خلف العديد من المؤلفات في علوم المنطق و التاريخ . أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 24

(1)- أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 24 .

(\*\*) - الشيخ عبد الله البستاني : أستاذ جليل ، إشتهر بحبه للمفردات اللغوية و سعة معارفه ، حيث ظل طوال حياته ينقب عنها ، فجمعها في معجم كبير هو : " البستان " . له مؤلفات أخرى في النحو و التاريخ ، و قد تميز شعره بالجزالة و الفخامة . أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 66 .

و تلقى بعض دروس " ابن عقيل " (\*) على يد " الخوري بولس عواد " الذي أصبح مطرانا فيما بعد ، و اللغة الفرنسية على يد المعلم " شاكر عون " (\*\*\*) ، و اللغة التركية على يد ضابط يقال له : " عبد السلام بكمين الشام " (1) . و بفضل هؤلاء الأساتذة المختصين في اللغات ، تمكن الأمير من أن يستوعب الكثير من الألفاظ و المفردات التركية و الفرنسية الإنجليزية ، وهو لا يزال صغيرا ، و ذلك إلى جانب اللغة العربية شعرا و نثرا و نحوا ، حيث أخذ عنهم الشعر الجاهلي و المعلقات (\*\*\*) و شعر المخضرمين (\*\*\*\*) و حفظ الجيد منها ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى أصبح يقرض الشعر وينظمه بأسلوب متين ، ولغة نقية ، يتنافس في ذلك مع أخيه " نسيب " الذي كان الأفضل منه ومن زملائه في قرض الشعر .

(\*) - ابن عقيل : هو ابن عقيل بهاء الدين عبد الله ( 1298 م - 1367 م ) ، نحوي مصري من أئمة النحاة ، اشتهر بشرحه " ألفية ابن مالك " . المنجد في اللغة و الأعلام .  
 (\*\*\*) - شاكر عون : ولد سنة 1854 م ، أرسل بعد حوادث سنة 1861 م إلى مدرسة " فرساي " الثانوية بباريس ، مارس التعليم لسنوات في مدرسة " الحكمة " ، و " الشيخ عباس " ببغروت . من آثاره : ترجمته لكتاب " التاريخ العام " " لبوسويه " رفقة الشيخ عبد الله البستاني ، أنشأ مجلة " النديم " ، له مقالات عديدة في الأدب و علم الاجتماع ، عرف بتضلعه في اللغة الفرنسية تضلعا كبيرا. توفي سنة 1926 م . سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 67 .  
 (1) - سامي الدهان ، المرجع نفسه ، ص 66 .

(\*\*\*\*) - المعلقات : مجموعة من القصائد الطويلة الموثوق بصحتها ، اختلف في سبب تسميتها بالمعلقات ، فهناك من يرى بأنها سميت كذلك لنفاستها أي لمستواها الشعري الراقى ، بينما يرجعها آخرون إلى كونها كانت تعلق على أستار الكعبة . كما اختلف أيضا في عددها ، فهي سبع عند البعض و عشر عند البعض الآخر . و من أشهر شعراء المعلقات : امرئ القيس ، زهير بن أبي سلمة ، طرفة بن العبد ، أييب بن ربيعة ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، عنتر بن شداد . تعد من أهم مصادر الأدب الجاهلي . ينظر زبير دراق : المفيد الغالي في الأدب الجاهلي ، د م ج ، الجزائر : 1994 م ، ص ص 128-129 .

(\*\*\*\*\*) - الشعراء المخضرمون : هم الشعراء التي امتدت حياتهم بين العصر الجاهلي و العصر الإسلامي ، حافظ شعرهم على الطابع القديم ( الأغراض لم تتغير ) ، لكن الفكرة المتتوالفة أصبح يميزها المضمون الإسلامي ، فقد تحول مثلا المدح من مدح الزعماء و الشخصيات إلى مدح الإسلام و رسالته و الرسول (ص) من أشهرهم : " كعب بن زهير ، حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ، الحطيئة ... و غيرهم " .



وإذا كان الأمير ، أقل تفوقا في قرص الشعر من أخيه " نسيب " ، فإنه في المقابل أظهر نبوغا وجدارة في النثر ، حيث كان مدرسه وأساتذته يلجئون إليه كلما احتاجوا إلى خطيب أو شاعر أو كاتب . وقد اعترف له بموهبته الشعرية والخطابية الشيخ " محمد عبده " ( 1843م - 1905م ) ، لما زار مدرسة "الحكمة " ، إثر نفيه إلى بيروت خلال ثورة أحمد عرابي باشا(\*) ، حيث خاطبه بعد أن استمع إلى بعض أشعاره بقوله : (( إنني اعرف اسمك وستكون من أحسن الشعراء )) ، وهي شهادة يطمح إليها أي شاب طموح في مثل سنه .

وفي سنة 1887م ، دخل بمعية أخيه " نسيب " المدرسة السلطانية في بيروت ، أي لما بلغ سن الثامنة عشر ، وفيها أقاما سنة دراسية واحدة ، تلقيا خلالها دروس اللغة التركية والفقه ، وحضرا درس مجلة الأحكام العدلية على يد الشيخ " محمد عبده " ، وقد أحب الأمير هذا الأخير ولازمه في مجالسه الخاصة ، وانعقدت بين الشيخ وأسرة الأمير صداقة قال فيها : (( فكنا نزوره في منزله ببيروت وكان يزورنا ببيتنا بالجل ، وكان المرحوم والذي يجلس الأستاذ الشيخ كثيرا ، وكان الشيخ يجلس والذي كثيرا أيضا ويقول أنه من أعقل ما عرف في حياته )) .

وقد كان والد الأمير كثيرا ، ما يصطحب ابنه معه إلى بيت الإمام للسمر عنده ، فكان لذلك الأثر العظيم في تكوينه وتوجيهه ، حيث اتخذ منه : (( مثلا أعلى لحياته ، ورأى في أدبه وسيرته ودعوته للإصلاح وعمله لخير المسلمين طريقا يسلكها و شعارا يرمي إليه ، و نهجا يسير فيه ، حتى غدا يقلده في خطابه وفي آثاره ومقالاته )) .

ولما توفي والده سنة 1887م ، احتار الأمير فيما ينبغي أن يفعله ، وهو في حداثة سنه وضعف تجاربه في الحياة ، لتحقيق طموحاته البعيدة المتمثلة في أن يصبح زعيما من زعماء الإصلاح في العالم العربي ، على نهج أستاذه الملمم الشيخ " محمد عبده " يدفعه في ذلك التقدير الذي كان يلقاه ويسمعه من كل من عرفه أو احتك به <sup>(1)</sup> . فقرر السفر إلى سورية بغية

(\*) - ثورة أحمد عرابي باشا : اندلعت سنة 1881م بقيادة أحمد عرابي باشا ، الذي التف حوله الفلاحون والجيش والنواب ، بهدف إسقاط حكومة " رياض باشا " ، وإنشاء دستور حقيقي لمصر . ينظر زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 361 وما بعدها .

(1) - سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 67 - 68 .

الاتصال بأعلام الفكر والأدب والعلم والسياسة ومنهم بشكل خاص : الشيخ " محمد عبده " الذي غادر بيروت بعد انتهاء فترة نفيه ، و "سعد زغلول " ( 1838م - 1827م ) ( \* ) ، والشيخ " علي يوسف " صاحب " المؤيد " الذي تعرف عليه عن طريق زيارة أداها له في مقر الجريدة ، وقد أعجب الشيخ بالأمير ، وكلفه على الفور بأن يكتب افتتاحية العدد المنتظر صدوره (1) .

قصد بعدها مصر ، وهو في سن الواحدة والعشرين ، ليتمكن من الانضمام إلى حلقة أستاذه في القاهرة ، الذي أضحى يعرفه معرفة شخصية ، فلازمه مدة شهرين كاملين ، تعرف خلالها على ملازميه الذين سيكونون فيما بعد طلائع النهضة العربية الحديثة ومنهم : " أحمد زكي باشا " ( 1866م - 1934م ) ، وأدباء ومفكرون وساسة كثيرون .

لقد مثلت هذه البيئة الجديدة ، التي انضم إليها الأمير الشاب أكبر جامعة دخلها في حياته ، إذ سمحت له بأن يخرج منها وهو على اطلاع واسع بدروب الثقافة والفكر والأدب والسياسة ، وزادته يقينا بتجسيد أحلامه وأمانيه في الدفاع عن قضايا الإسلام ، والخلافة والعروبة و مقاومة الاستعمار ، وهو النهج الذي اختاره السيد " جمال الدين الأفغاني " وتلميذه الشيخ "محمد عبده " .

قرر الأمير بعد ذلك لقاء " الأفغاني " ، فسافر إلى " الأستانة " عبر باريس ، التي تعرف فيها على أمير الشعراء " أحمد شوقي " ( 1868م - 1932م ) ، وأصبحا يلتقيان يوميا في مقهى " داركور " ، كما استغل وجوده هنالك ليعالج من مرض كان قد ألم به . التقى بعدها بالأفغاني سنة 1892م ، وهو في الثانية والعشرين من العمر ، فدارت بينهما أحاديث حول مصر والشرق

( \* ) - سعد زغلول : ولد سنة 1838 م ، كان والده من أمراء المدفعية في عهد محمد علي باشا ، تخرج من المدرسة الحربية سنة 1854م ، اشتغل بوزارة الخارجية بالأستانة ، أتقن اللغة العربية والفارسية والتركية ، عينه الخديوي إسماعيل في سلاح الفرسان ، تولى وزارة الأوقاف ثم الحربية في عهد الخديوي توفيق ، انضم إلى الثورة العربية سنة 1882م ، فقبض عليه ونفي إلى " سرنديب " التي قضى فيها سبعة عشر عاما ، إلى غاية صدور العفو عنه سنة 1900م . يعد من أول المجددين في الشعر العربي الحديث ، حتى تعود إليه جزالته ورسائنه ، وتصوير شخصية الشاعر وبيئته وقومه وعصره ، تصويرا يتصف بالإخلاص والصدق . مصطفى عبد الشافي : في الشعر الحديث والمعاصر ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية : 1998م ، ص 13 وما بعدها .

(1) - سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 27 .

والغرب والإسلام ، والاستعمار والتبشير ، فأعجب به الأفغاني أيما إعجاب وقال له : (( أنا أهني أرض الإسلام التي أنبتك )) . وهي شهادة تقدير أخرى ، يحصل عليها الفتى الشاب ، بعد تلك التي نالها من الشيخ محمد عبده في مصر .

وبفضل هذه الرحلة ، تمكن الأمير من الوقوف على دسائس الاستعمار وخططه ، للاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين ، فاختر الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الغرب ، مطابقاً لموقف الأفغاني وعبده ، حتى لا يتفرق الشرق الإسلامي ولا تتفرق صفوفه (1) .

وبالنظر إلى ما تم عرضه ، بشأن نشأة وتعليم الأمير شكيب أرسلان ، نخلص إلى أن ، الوضع الأرستقراطي لعائلته كان له دور ايجابي في ذلك ، حيث نشأ في جو عائلي ممتاز كذلك الذي توفره العائلات الغنية لأبنائها ، يسرة في العيش وكثرة في الحوافز المادية والمعنوية ، التي لها بدون شك أهمية كبيرة في تنشئة الفرد وتحقيق رغباته . فبفضل ذلك ، تمكن من أن يدرس بشكل منفرد رفقة شقيقه " نسيب " على يد كبار علماء لبنان ، الذين كانوا يأتونه للبيت ، ويلقنونه العلوم والمعارف الضرورية المناسبة لتلك المرحلة من عمره ، وقد تجاوز ذلك إلى تعلم اللغات الأخرى من تركية وفرنسية وإنجليزية . وهي ظروف لاشك أنها لم تكن متاحة لكل أبناء جيله ، في مسقط رأسه " الشويفات " أو في كامل لبنان .

وقد رأينا كيف أن عائلته قامت بإرساله إلى مدرسة " الحكمة " ببيروت ، لاستكمال تعليمه بها ، وهي المدرسة التي كانت تستقبل أبناء العائلات اللبنانية الكبيرة ذات الجاه و الصيت ، ثم أرسلته بعدها إلى المدرسة " السلطانية " التي لا تقل عنها سمعة ومكانة . ولما أصبحت المدارس اللبنانية والجو الثقافي والعلمي بلبنان ، لا يلبيان طموحاته العلمية والمعرفية والثقافية ، أرسلته إلى سوريا ومصر ليحقق ذلك دون مشقة أو عناء . وقد مر بنا أن كبار العلماء ، كانوا يسعون للتقرب منه ومن أخيه " نسيب " وليس العكس ، بفعل نفوذه العائلي سياسياً ومادياً ومعنوياً ، ففي تلك الأوقات ليس من السهل ، لطفلين أو شابين مثل الأمير وشقيقه أن يصاحبا ويلازما ملازمة تامة ، علماء من طراز الشيخ محمد عبده على سبيل المثال .

(1) - ينظر سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 67 وما بعدها .

وعليه فإن الظروف التي نشأ وتعلم فيها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير أرسلان مختلفة تماما ، فالإبراهيمي ترعرع في عائلة اشتهرت بعلمائها وبتقديمها للعلوم والمعارف لكل من يقصدها من مختلف جهات الجزائر ، فوجد فيها كل ما ينبغي أن يتعلمه في حداثة سنه ، رغم السياسة الاستعمارية الفرنسية التي حاربت بلا هوادة ، هذا النوع من التعليم الذي كان يتم بعيدا عن سيطرتها . في حين أن الأمير شكيب أرسلان ، تمكن هو الآخر من الحصول على تعليم جيد ، وهولا يزال طفلا ليس لأن عائلته كانت مثل عائلة الإبراهيمي ، وإنما لأنها كانت قادرة ماديا على توفير تعليم راقى لأبنائها ، بجلب علماء كبار مهما كانت مكانتهم العلمية والثقافية هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، أن الظروف التي كانت سائدة في كل من الجزائر ولبنان مختلفتان تماما ، ففي الجزائر وكما مر بنا عرفنا أن فرص التعليم كانت ضئيلة جدا بالنسبة للجزائريين ، فالإبراهيمي كان محظوظا جدا ، لكونه ولد في عائلة تاريخها حافل بالعلم والعلماء ، فسياسة تجهيل المطبقة ، جعلت البلاد تغرق في جو من الجهل والامية والخرافة ، على نحو لم تعرفه من قبل . فآلاف العائلات الجزائرية ، لم تكن قادرة على تعليم أبنائها حتى مبادئ القراءة والكتابة ، فما بالك بالتعليم النوعي الذي تلقاه الأمير شكيب أرسلان في لبنان ، لضعفها ماديا تارة ، ولأن المدارس أصبحت مغلقة أو مهجورة تارة أخرى .

وإذا كان الأمير شكيب أرسلان ، قد استكمل تعليمه خارج لبنان في سورية ومصر ، فإن الأمر ذاته كان بالنسبة للبشير الإبراهيمي ، لكن مع اختلاف في الظروف ، فقد سافر الإبراهيمي إلى المشرق العربي فيما يشبه المغامرة ، بسبب بعد المسافة بين الجزائر والبلدان المشرقية ، وما يتبع ذلك من فقدان للأمن في الطريق ، وبسبب قلة ذات الحال ، حيث نجم عن السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر ، إلى إفقار العائلات الجزائرية الكبرى ومنها عائلة الإبراهيمي ، التي لم تعد لها نفس المكانة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها قبل الاحتلال . في حين سافر الأمير شكيب إلى سوريا ومصر ، برعاية مادية ومعنوية تامة من عائلته ، التي كانت تعد من أغنى العائلات في لبنان وربما في المشرق العربي ، ومن أكثرها نفوذا في المنطقة ، ولدى الدولة العثمانية التي سعت إلى التقرب من آل أرسلان ، منذ بداية عهدا بالشام بوسائل عدة : ومنها منحها مناصب إدارية سياسية ، تولى الأمير شكيب أرسلان واحدا منها .

وبالرغم من تلك الظروف والعوائق ، التي كانت تقف في وجه الطموحات العلمية للبشير الإبراهيمي ، فقد تمكن في النهاية من تلبية رغبته الشديدة ، في الاستزادة من العلم والمعرفة ، والتبحر في كنوز العرب وتاريخهم وذخائرهم الفكرية والتراثية ، وتحول إلى أستاذ مقدر ، اعترف له جميع العلماء والأدباء والأساتذة والطلبة ، بالبراعة والمهارة الفائقتين في تقديم المعارف الغزيرة لتلامذته ، بطرق ومناهج تربوية سليمة ، تغرس في الملتقي حب التعلم والتطلع إلى المزيد من المعارف . وبفضلها تمكن أيضا ، من الاحتكاك بالبيئات الاجتماعية والحضارية التي مر أو نزل بها ، فأكسبته المزيد من التعمق في فهم الواقع العربي والإسلامي آنذاك ، وسمحت له بالاتصال بكبار أساطين الفكر والعلم والأدب ، في مصر والمدينة المنورة ودمشق ، على تعدد تخصصاتهم العلمية وميولهم الفكرية .

والأمر ذاته بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، فحتى وإن كان لم يمتحن مهنة التعليم والأساتذية ، فإنه أظهر هو الآخر نبوغا وتفوقا كبيرين في شتى العلوم والمعارف ، وحتى في قرص الشعر ، باعتراف كبار أقطاب الفكر والعلم والأدب آنذاك من أمثال الشيخ " محمد عبده " والسيد "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "رشيد رضا" ، الذين توسموا كلهم فيه النبوغ والتفوق ، وتنبؤوا له بمستقبل زاهر في عالم الأدب والفكر والسياسة .

ولقد أظهر كل من الإبراهيمي والأمير ، ميولا للسياسة حتى وهما حديثي السن ، ولا يزالان في حاجة إلى المزيد من الوقت لتنمية وإنضاج شخصيتهما ، من خلال انخراطهما في الحركة السياسية التي كانت تشهدها كل من مصر وسوريا في تلك الأثناء ، وإبداء آرائهما ومواقفهما إزاء القضايا المطروحة آنذاك على الساحة العربية والإسلامية ، بجرأة كبيرة ، مثبتين أن المبادئ يجب أن تخضع للسياسة وليس العكس ، مخالفين بذلك الواقع السياسي العربي والإسلامي ، الذي كان يطبعه النفاق والانتهازية والجري وراء المصالح الشخصية الضيقة ، على حساب المصالح العليا للأمة ، دون تقدير للعواقب . وعليه يمكننا أن نعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، نموذجان حيان يقتدي بهما في هذا المجال ، لأخلاق العمل السياسي في عصرنا الحالي .

## المبحث الثالث : رحلاتهما وأسفارهما :

### 01- الإبراهيمي رحلاته وأسفاره :

بالإضافة إلى رحلته الأولى إلى المشرق العربي التي كانت سنة 1911م ودامت تسع سنوات ، كرسها للاستزادة في طلب العلم والمعرفة ، والإطلاع على التطورات الثقافية والسياسية ، التي كانت تشهدها المنطقة في تلك الفترة الحساسة من تاريخ العرب المعاصر ، قرر الشيخ البشير الإبراهيمي بحلول سنة 1952م ، شد الرحال مرة أخرى إلى المشرق العربي وبعض البلدان الإسلامية . طلبا للمساعدة من الأشقاء العرب والمسلمين ، لدعم النهضة العلمية والثقافية الناشئة في الجزائر ، بقبول بعثات طلابية من تلاميذ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، تدرس بمعاهد وجامعات تلك الأقطار على نفقاتها الخاصة ، ولتقديم المساعدة المالية للجمعية ، حتى يتسنى لها الاستمرار في نشاطها التربوي والإصلاحي ، بشكل منتظم ( \* ) .

فغادر أرض الوطن، يوم السابع من مارس 1952م ، باتجاه المشرق العربي عن طريق باريس ، ومنها ركب القطار نحو روما ، التي استقل في مطارها طائرة هولندية باتجاه القاهرة (1) وبمجرد حلوله بهاته الأخيرة ، سارعت العديد من الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية والإعلامية لتحيته والترحيب به . وخلال إقامته القصيرة بمصر ، والتي دامت تسعة أيام ، ألقى بعض الدروس وزار جامعة " الملك فؤاد " . قصد بعدها باكستان ، حيث إمتطى طائرة هولندية إلى بغداد ثم البصرة ، وأخيرا كراتشي عاصمة البلاد آنذاك ، فأستقبل إستقبال القادة والزعماء . وقد أرجع أسباب إختياره لباكستان ، كمحطة أولى في رحلته تلك إلى : ميولها الإسلامية ودأبها على إستقبال علماء الإسلام ومفكريه وكتابه ، وإستضافتها للمؤتمرات الإسلامية التي تعنى بالشؤون الإسلامية ، زيادة على إستعداد حكامها لتقبل النصائح والإرشادات ، وتبنيهم لقضايا الشعوب الإسلامية السياسية ، وأخيرا جهل الكثير من المسلمين بهذا البلد الإسلامي مما يتطلب التعريف به لديهم (2) .

الفصل الثاني : البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان حياتهما و آثارهما

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 29 .

(\*) - للمزيد من التفاصيل حول فلسفة الإبراهيمي في التربية والتعليم ، ينظر جريدة البصائر ، الأعداد : 106 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 .

(2) - ينظر محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه، ج4 ، ص 31 و ما بعدها .

ورغم أنه وجد صعوبة كبيرة في التواصل مع الباكستانيين ، بسبب جهل أغلبهم باللغة العربية ، إلا أنه تمكن من استقطابهم ونيل إعجابهم ، من خلال المحاضرات ودروس الجمعة التي كان يلقيها في المساجد ، فضلا عن كبار الشخصيات الباكستانية المرموقة (\*) التي استقبلته بشكل رسمي ، واستمعت باهتمام لنصائحه وتوجيهاته .

وعقد ندوة صحفية ، حضرها رجال الصحافة وممثلو وكالات الأنباء ، تحدث فيها عن الوضع السياسي في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة . كما أقيمت على شرفه العديد من حفلات التكريم ، التي لم يتركها تمر دون توجيه النقد والنصح لعلماء الدين المسلمين . شرع بعدها في رحلة منتظمة عبر القطار إلى المناطق الداخلية الباكستانية ، بغرض التقصي في أرض الواقع حول قضية كشمير (\*\* ) ، ومشكلة الحدود التي استحكمت بين الهند وباكستان (\*\*\*) .

وزيادة على ذلك ، ألقى العديد من الأحاديث الإذاعية تمحورت حول أخوة الإسلام ، وضرورة رجوع المسلمين إلى هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وصلاحية النظام الإسلامي لقيادة العالم الإسلامي . وحضر أشغال المؤتمر الإسلامي ، المنعقد بكراتشي في شهر ماي 1952م ، الذي ألقى خلاله خطبة ، حمل فيها مسؤولية تردي أوضاع الإسلام والمسلمين إلى العلماء ، بتعصبهم المذهبي واهتمامهم بقشور الدين ، وتركهم لكتاب الله وهدي الرسول " ص " (1) .

الفصل الثاني : البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان حياتهما و آثارهما

(\*) - منهم : الحاكم العام لدولة باكستان " غلام الله " ، ورئيس الوزراء " دولة خواجة " ، وزراء الدعاية والمعارف ، السيدة " فاطمة جناح أخت القائد محمد علي جناح " ... وغيرهم .

(\*\*) - كشمير : منطقة تقع في شمال غربي الهند ، تتقاسمها الهند وباكستان ، مساحتها 242.000 كلم<sup>2</sup> ، تمتد بها جبال " الهملايا " الشمالية وجبال " كاراكور " وحوض الهندوس الأعلى ، وتشمل ولاية " جمو " وكشمير في الهند ومقاطعة " يلتستان " في باكستان . من أهم مدنها : " سري نغر " ، " جمو " ، " سكار دو " . تشتهر بأوديتها الخصبة ، والفواكه ، زراعة الذرة الصفراء والأرز والتبغ ، تربية الماعز والغنم ، مناجم الفحم والبوكيت ، الصناعات التقليدية ، الأخشاب والأصواف والحريير . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*\*) - مازالت مشكلة الحدود بين الهند وباكستان لغاية الآن ، وفي كل مرة تكاد أن تؤدي إلى الحرب بين البلدين .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 79 .

ومع بداية شهر جوان من سنة 1952م قصد العراق ، و أقام فيه إلى غاية شهر أوت من نفس السنة فزار العديد من مدنه ، ملقيا عشرات المحاضرات الاجتماعية والدروس الدينية (1) ، والأحاديث الإذاعية (2) .

أما المحطة الثالثة في رحلته ؛ فكانت المملكة العربية السعودية ، التي أقام فيها من شهر أوت 1952م إلى شهر أكتوبر من نفس السنة ، قام فيها بالاتصال بالكثير من علمائها وفقهائها ورجال الإصلاح بها ، فضلا عن إلقاء المحاضرات والأحاديث والدروس الاجتماعية والدينية (3) .

وفي الفترة الممتدة من شهر أكتوبر 1952م وإلى غاية خريف 1954م ، زار كل من الكويت وبغداد ودمشق وعمان ومكة المكرمة والقدس ، انطلاقا من القاهرة التي اتخذها مركزا لنشاطه السياسي والعلمي ، طالبا الدعم المادي والمعنوي لمشاريع جمعية العلماء في الجزائر ، لتتمكن من الوقوف في وجه السياسة الفرنسية ، التي كانت تستهدف القضاء على الكيان الحضاري للمجتمع الجزائري ، بضرب مقوماته الشخصية ممثلة : في الدين الإسلامي واللغة العربية . وقد أثمرت تلك الجهود والمسااعي ، بقبول العديد من الحكومات العربية والإسلامية التكفل ، بتدريس المئات من الطلبة الجزائريين على نفقاتها الخاصة (4) .

وبمجرد وصول أخبار اندلاع الثورة التحريرية إلى مسامعه ، سارع الإبراهيمي إلى تأييدها عبر سلسلة من البيانات ، كان أولها في اليوم الثاني من شهر نوفمبر 1954م ، الذي اعتبر فيه الثورة رد فعل طبيعي من الشعب الجزائري ، ضد السياسة الفرنسية الظالمة ، التي عاملت بها شعوب المغرب العربي معاملة الحيوان ، دون أن تتعظ من تاريخها الإجرامي ، وحتى من تعرضها للاحتلال النازي وما فعله بالشعب الفرنسي . أما البيان الثاني ، فأصدره في اليوم الموالي ، أي في الثالث من شهر نوفمبر بعنوان : " إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر والمغرب العربي اليوم حياة أو موت : بقاء أو فناء " . تلتها بيانات أخرى باسم جمعية العلماء ، الفصل الثاني :

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 76 وما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 97 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ص 109 وما بعدها .

(4) - للاطلاع بشكل موسع ، على جهوده خلال هذه الفترة ، ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920م - 1965م ، مرجع سابق ، ص 126 وما بعدها .



حيا فيها الثوار ، مشددا على التحلي بالصبر والاستبسال ، لان المعركة من اجل الحرية ستكون حسبه طويلة جدا وباهظة الثمن (1) .

ونعتقد بأن تلك البيانات ، تؤكد إلى حد كبير ، أن الإبراهيمي كان من أوائل الشخصيات الجزائرية بالخارج ، التي تجاوزت بشكل ايجابي مع إعلان اندلاع الثورة التحريرية ، رغم الجدل الذي مازال يثار هنا وهناك ، حول حقيقة مواقف العلماء من الثورة (\*) .

وزيادة على تلك البيانات ، فإنه وظف كل ما في يوسعه لخدمة الثورة الجزائرية ، حيث لم يدع وسيلة اعتقد أنها تصب في مصلحة الثورة إلا ووظفها ، ومنها طلبه الجريء من شيخ جامع الأزهر ، أن يدعو الناس إلى الجهاد ، الامر الذي دفع بالضابط الفرنسي " سيرفي " ( SERVY ) إلى تحميل العلماء مسؤولية تدبير الثورة ضد فرنسا (2) . بالإضافة إلى التنقل بين مختلف الأقطار العربية والإسلامية ، انطلاقا من مصر ، يستنهض الهمم ويحث على بذل الدعم المادي والمعنوي للثورة ، رغم تقدمه في السن وتأثير الأمراض والعلل التي سكنت جسده (3) .

دون كلل أو ملل ، رغم أن حالته الصحية كانت تثير شفقة كل من يراه أو يلتقي به ، إلى أن حصلت البلاد على حريتها في يوم الخامس من شهر جويلية عام 1962م ، تلك الحرية التي قال فيها (4) : (( ... الحمراء اللعوب والزهراء الدعوب ، والحسنااء التي تبوأت القلوب ... التي طال شوقنا إليها وطلبناها بالكلام ، فلم تزد إلا إعراضا وازورارا ، حتى للتي هي أقوم ، فطلبناها بالحديد وخصنا دونها الهول والهائل ، وبذلنا في سبيلها المهج أمهرناها الأرواح ، الفصل الثاني : البشير الإبراهيمي و شكيب أرسلان حياتهما و آثارهما

(1) - للإطلاع على البيانات ينظر محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصدر سابق ، ص 37 وما بعدها.

(\*) - للإطلاع على جانب من ذلك الجدل ، ينظر جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر : العدد 543 ، 22-28 جويلية 2009م . و العدد 545 ، 05-11 أوت 2009م .

(2) - مولود قاسم نایت بلقاسم : ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 ، ص 67 .

(3) - ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية 1920م - 1965م ، مرجع سابق ، ص 134 وما بعدها .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 134 وما بعدها .

---

فأسلست وانقادت )) . وصف لا شك أنه في غاية الروعة والدقة ، لا يصدر إلا عن كاتب مبدع ، لم يذق طعم الحرية منذ أن رأى الحياة .

**02- أرسلان رحلاته وأسفاره :**

كان الترحال والسفر جزء لا يتجزأ من شخصية الأمير ، لا يستطيع أن يمكث في مكان ما إلا مدة وجيزة ، حتى وإن كانت ظروفه ميسورة وجيدة ، فقد فضل مغادرة لبنان مرة ثانية على أن يبقى فيه ، رغم المناصب الإدارية التي منحت له ، والتي كان الجميع يسعى وبكل الوسائل والطرق لتقلدها ، لما توفره لأصحابها من سلطة ونفوذ ومكانة اجتماعية مرموقة ، وقد أعرب صراحة عن كرهه لتلك المناصب بقوله : (( أكره المناصب وأعاف خدمة الحكومة )) ، اعتقاداً منه أن المنصب الإداري والسياسي ، يحد من حريته ويكبح طموحاته التي رسمها لنفسه ، وهي خدمة قضايا أمته : (( الذي يريد أن يهتم باستقلال الأمم عليه قبل ذلك أن يطالب باستقلال نفسه حتى لا يقال فيه طبيب يدوي الناس وهو عليل )) (1) .

وعليه ، فإن الأمير ، قد اختار طريق خدمة قضايا الأمة العربية والإسلامية وليس المصالح الشخصية الضيقة ، فما إن قامت إيطاليا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في ليبيا يوم 29 سبتمبر 1911م ، بحجة حماية مصالحها وحقوقها وحقوق الدول الأوروبية في ليبيا ، وشروعها في الاحتلال (2) ، حتى سارع إلى استنكار العدوان بشدة ، وراح يكتب إلى مختلف الجهات بما فيها السلطات العثمانية في الأستانة ، يدعو إلى مساعدة الليبيين ومدّهم بالمال والسلاح ، كما كتب إلى السيد " رشيد رضا " يحثه على ضرورة تحريض المصريين لنجدة الشعب الليبي ، حتى يتمكن من الصمود والاستمرار في المقاومة (3) .

ولم يكتف بذلك ، بل سافر إلى ليبيا متخفياً بغية الجهاد ، رفقة مجموعة من المتطوعين العرب بقيادة القائد العثماني " أنور باشا " (\*) ، حيث تسللوا خفية إلى فلسطين أولاً ثم إلى

(1) - نجيب البعيني : من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر ، ط1 ، دار المناهل ، بيروت : دت ، ص 380 .

(2) - جلال يحيى : المغرب الكبير ( العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ) ، ج3 ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981م ، ص 740 .

(3) - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 28 - 29 .

(\*) - " أنور باشا " (1882م - 1922م) : قائد تركي ، كان له الدور الكبير في خلع عبد الحميد سنة 1909م ، عين وزير للحربية سنة 1914م . كان يمثل رفقة " طلعت باشا " مثلثاً نافذاً في الحكم ، وقاد جيوش القوقاز والدردييل ، تم اغتياله سنة 1922م " بسمرقند " . المنجد في اللغة والأعلام .

مصر ثانيا للوصول إلى مدينة " بنغازي " الليبية ، وقد هلك الكثير منهم في الطريق في الصحراء بين " وادي الأردن " و " بئر السبع " ، بسبب العطش والمرض . كما أنهم وجدوا القوات الإنجليزية تحول بينهم وبين هدفهم ، فلم يتمكن سوى الأمير وبعض مرافقيه (\*) من المرور ، متخفين في هيئة الهلال الأحمر ، وكان شعار الأمير في ذلك : (( إن لم نقدر أن نحفظ صحاري طرابلس لم نقدر أن نحفظ صحاري الشام )) (1) .

وبعد رحلة طويلة ، وصل الأمير ومن بقي معه على قيد الحياة إلى جبهات القتال ، وانضم بسرعة إلى صفوف المدافعين عن " طرابلس " و " برقة " ، فكانت له مساهمات كبيرة في الحرب بأرائه السياسية والعسكرية ، وفي ذلك قال الزعيم الليبي " سليمان الباروني " : (( لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب أرسلان ، ونفذت بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة ، ولاستطعنا على الأقل إطالة الحرب لثلاث أو أربع سنوات أخرى )) (2) .

وتقديرًا للجهود السياسية والعسكرية ، التي بذلها الأمير لصالح القضية الليبية ، تلقى رسالة شكر وتقدير من القائد " عمر المختار " ( 1858م - 1931م ) ، باسم المجاهدين الليبيين ، الذين وجدوا في مقالات الأمير سندا معنويا لهم ، لما كانت تنقله من أخبار كفاحهم ضد الاحتلال الإيطالي من جهة ، وفضحها للجرائم التي كان الجنود الإيطاليون يقترفونها في حق الشعب الليبي الأعزل من جهة أخرى (3) .

وبعد عودته من الجبهة الليبية في شهر أوت 1912م ، انضم إلى الحرب التي اندلعت في " البلقان " في نفس السنة واستمرت إلى غاية سنة 1913م ، بين تركيا والحلف البلقاني المتكون من : اليونان وصربيا وبلغاريا والجبل الأسود ، هذا الأخير أعلن الحرب على الدولة العثمانية بدعم سري من بريطانيا ومن الروح القومية البلقانية المتطرفة ، خسرت خلالها تركيا كل

(\*)- منهم القائدان : " مصطفى كمال " ، و " عزيز المصري " .

(1)- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 60 ، 68 ، 69 .

(2)- شكيب أرسلان : شوقي وصدقة أربعين سنة ، مطبعة عيسى بابي الحلبي ، القاهرة : 1936م ، ص35.

(3)- لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 33 .

أراضيها الأوروبية ما عدا العاصمة " الأستانة " وشبه جزيرة " غاليبولي " (1) . وقد قام الأمير في هذه الحرب ، بمهمة المراقبة على بعثات الهلال الأحمر ، وتوزيع الإعانات التي جمعت في مصر على مسلمي " الروميلي " (2) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918م ، ووقوع المنطقة العربية في الشام تحت طائلة السيطرة الاستعمارية ، فضل الأمير المنفى ، فاستقر في البداية في بلدة " مرسين " التركية القريبة من الحدود السورية رفقة أسرته (3) ، وعمل على تشكيل لجان لمقاومة الفرنسيين والإنجليز ، لكنه غادرها بسبب صعود " الكماليين " ( نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك ) إلى السلطة في تركيا ، قاصدا سويسرا (4) .

وبهذا تنتهي مرحلة دافع فيها الأمير عن الدولة العثمانية ، من خلال مشاركته بنفسه في الحرب إلى جانبها ، وبسعيه لحشد الدعم المادي والمعنوي لها محليا ودوليا . لتبدأ مرحلة جديدة من حياته تمتد إلى غاية وفاته سنة 1946م ، قضاها متجولا في البلاد الأوروبية والأمريكية يدافع عن قضايا العرب والمسلمين ، وعلى رأسها قضية الاستعمار الذي لم يدخر جهدا ، في كشف مخططاته وأساليبه ، وفي فضح جرائمه لدى الرأي العام الأوروبي خاصة والدولي عامة . فحياة المنفى رغم قساوتها ، لم تكن لتتال من عزيمته النضالية ، ومن طموحاته التي رسمها لنفسه في بداية حياته ، وهو لا يزال شابا يافعا .

كانت سويسرا أول محطة أوروبية ، يقيم فيها الأمير مع المنفيين العثمانيين (5) ، توجه بعدها إلى " برلين " الألمانية ، التي اشترى بها بيتا لتكون مقر إقامته الدائم ، ومنها سافر إلى " جنيف " السويسرية لحضور أشغال المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد هناك سنة 1921م ، الذي عين فيه في منصب الأمين العام ، وقد طالب المؤتمر بمنح الاستقلال لكل من سورية

(1) - أحمد نجيب قاسم : التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، مصر : دت ، ص ص 248 - 249 .

(2) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والاسلام ، مصدر سابق ، ص 25 .

(3) - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 37 .

(4) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 79 .

(5) - شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 26 .

ولبنان وفلسطين ، وبحقهما في الاتحاد وإلغاء نظام الانتداب . كما اختير من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، كعضو في الوفد العربي المشكل ، للدفاع عن قضايا العرب أمام عصبة الأمم (1) .

وخلال المؤتمر ، التقى بالشيخ " رشيد رضا " ، وتم الإتفاق بينهما على أن تقوم مجلة " المنار " في مصر ، بنشر مقالات الأمير حول الحرب العالمية الأولى وكوارثها بعنوان : " كوارث سوريا في سنوات الحرب من تقتيل وتصليب ومخمصة ونفي - مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، هو الأمير شكيب أرسلان " ، استمر صدورها تسعة أشهر (2) .

في نفس السنة ، أجرى رفقة الشيخ " رشيد باشا " ، سلسلة من الاتصالات مع كبار المسؤولين الايطاليين ، قصد إقناع الحكومة الايطالية بالتعامل مع العرب على أساس المصالح المتبادلة ، مخالفة للسياسة الإنجليزية والفرنسية (3) .

كما أسس العديد من الجمعيات في برلين منها : " هيئة الشعائر الإسلامية " ، التي تألفت من ممثلي الجاليات الإسلامية المقيمة في ألمانيا بما فيهم موظفي السفارات ، بغرض التكفل الجيد بشؤونهم هنالك (4) ، و " النادي الشرقي " الذي أنتخب رئيسا له تحت إشراف مجلس برلين البلدي والجنرال " لوندوروف " ، وهو عبارة عن محفل اجتماعي لا يهتم بالأمر السياسي ، ضم ممثلين عن كل الأجناس الشرقية في ألمانيا منهم : العرب والأتراك والشركس ، المغاربة ، النصرى ، اليهود ، البراهمة... وغيرهم .

بطلب من " أنور باشا " ، سافر الأمير إلى موسكو في شهر جوان من عام 1921م ، بغرض الاطلاع عن قرب على الأوضاع الروسية ، و عما إذا كان في الإمكان استفادة العرب والمسلمين ، من الدعم والمساندة الروسيين سياسيا واقتصاديا . بالإضافة إلى ذلك ، استغل الفرصة للإلتقاء ببعض الأدباء الطاغستانيين ( طاغستان ) والقازاغيين ( القازاغستان ) ، وتناقش معهم في الكثير من القضايا والشؤون (5) .

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص ص 35-36 .

(2) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، د ط ، م رحاب، الجزائر: 1989، ص 13.

(3) - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 38 .

(4) - المرجع نفسه، ص 38 . نقلا عن مجلة الشورى ، العدد 25 / فيفري 1926م .

(5) - لوثرروب ستودارد ، المصدر نفسه ، ص ص 286-333 .

انتخب في شهر مارس 1922م ، أمينا عام لمؤتمر الشعوب المقهورة المنعقد في " جنوة " الإيطالية ، وفي شهر جويلية من نفس السنة زار " لندن " للاجتماع بالمسؤولين بشأن الانتداب على سورية ولبنان وفلسطين . وخلال عامي 1923م - 1925م ، أقام في مدينة " مرسين " التركية بالقرب من سوريا التي كانت تستعد للثورة على الانتداب ، وللقاء والدته وعائلته .

في شهر أكتوبر من عام 1925م ، قرر الأمير الاستقرار نهائيا في سويسرا ، بعد أن انتدبه المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد بالقاهرة ، بغية متابعة القضية السورية أمام عصبة الأمم ، فأقام أولا في مدينة " لوزان " إلى غاية 1930م ، انتقل بعدها إلى " جنيف " .

سافر إلى روما في شهر فيفري 1926م على رأس وفد سوري ، بغرض عرض القضية السورية أمام لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم ، فقابل رئيس اللجنة المركزي " تيودولي " ، وقدم له المطالب السورية التي لخصها فيما يلي : إلغاء الانتداب الفرنسي ، وحدة سورية ، وضع دستور لها ، تحديد العلاقة بين سورية وفرنسا (1) .

كما نشر في الصحف الإيطالية تقريرا ، كشف فيه الأوضاع السيئة التي آلت إليها سورية جراء الانتداب ، وتواطؤ فرنسا مع تركيا على حساب سوريا ووحدتها ، بضم أجزاء من الأراضي السورية إلى تركيا وهي " أنطاكية " و " الإسكندرونة " ، مما أثار غضب فرنسا من جهة واهتمام الملك الإيطالي من جهة أخرى . وقد ظل يصدر البيانات والمقالات ويعقد الأحاديث ، دفاعا عن وحدة سورية واستقلالها رفقة صديقه " إحسان الجابري " (2) .

شارك في نوفمبر 1925م ، في مؤتمر باريس للتفاوض حول استقلال ووحدة سورية ، وفي شهر جويلية 1926م ، انتخب عضوا في لجنة رئاسة مؤتمر الخلافة ، وهو حركة إسلامية نشأت إثر قيام " مصطفى كمال أتاتورك " بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وقطع كل الروابط بين تركيا والعرب و المسلمين (3) .

وفي شتاء سنة 1927م ، قام بزيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحضر مؤتمر عرب المهجر المنعقد في مدينة " ديترويت " بدعوة من الجالية العربية هنالك . كما نشر العديد

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 26 - 27 .

(2) - أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 39 . نقلا عن جريدة الشورى ، عدد 25 فيفري 1926 .

(3) - شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 27 .

من المقالات في الصحف العربية ، التي كانت تصدر هناك ، بالإضافة إلى مذكراته في جريدة " مرآة الغرب " بنيويورك (1) .

انتقل بعدها إلى موسكو ، استجابة لدعوة وجهت إليه من قبل القادة الروس ، لحضور الاحتفالات المخلدة لمرور عشر سنوات على قيام الثورة " البلشفية " ، ثم عرج على بلجيكا للمشاركة في مؤتمر مكافحة الاستعمار (2) .

وفي سنة 1929م قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، مرورا بمدينة " بورسعيد " المصرية ، التي كان له فيها لقاء بالسيد " رشيد رضا " ، أستقبل خلالها إستقبالا رسميا من طرف الملك السعودي " عبد العزيز آل سعود " ، الذي أحسن وفادته طيلة مدة إقامته في المملكة ، وقد توج رحلته تلك بتأليف كتاب عنونه بـ : " الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس المطاف " (3) .

وتميزت سنة 1930م بالنسبة للأمير بنشاطات وأعمال كثيرة ، منها تأسيسه لمجلة " الأمة العربية " ( LA NATION ARABE ) ، التي كانت منبرا هاجم فيه الإستعمار ، وناقش قضايا العدالة والحقوق ، باللغة الفرنسية التي كان يتقنها . ويعود سبب إختيار الكتابة بهاته اللغة الأخيرة ، الى إعتقاده بأنها الطريق المختصر للوصول الى العقل الأوروبي ، ففي الأوروبيين من ينظر بعين الإنصاف لقضايا العرب المسلمين ، التي تعمل الحكومات الإستعمارية على طمسها وإخفائها عنهم : (( لأن صيحتنا مع بعضنا البعض لا يعلمون منها شيئا ، وإن علم أحد منها بعض الشيء ، فتكون حكوماتهم التي هي أساطين الإستعمار وحيثان الأكل وطواغيت الظلم وأماثل الرياء والمكر ، فهي تكتم عن شعوبها كل حقيقة من جهة الشرق . فإذا ينبغي أن ندخل على رأيهم العام بالحقائق التي تدأب حكوماتهم بطمسها ويجب بذل ما نقدر عليه لتعديل هذا الرأي العام أو بعضه ليكون لهم منه خصماء ولا يتحدوا بإزاءنا)) (4) . لهذا السبب حرص الأمير حرصا شديدا ، على استمرار صدور المجلة بانتظام كل شهر ، رغم

(1) - سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 89 .

(2) - الطيب بنونة : نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان وبين الحاج عبد السلام بنونة ، ط 1 ، مطبعة دار الامل ، تونس : 1981 ، ص 129 .

(3) - أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 46 .

(4) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 239-281 .



أحواله المادية التي لم تكن ميسرة ، فكثيرا ما كان يتعرض لأزمات مالية ، تعجزه عن تلبية مطالبه المعيشية وتكاليف إصدار المجلة ، فقد اضطر إلى أن يرهن بيته في باريس ويبيع مزرعة له في دمشق ويرهن بيتا إشتهراه في برلين (1) .

وزار في السنة نفسها إسبانيا ، التي أسس فيها : " الجمعية الإسبانية الإسلامية " ، و "البيت العربي " بمدريد ، رفقة نخبة من الوطنيين المغاربة وعدد من الإشتراكيين الإسبان ، بهدف التنسيق والتعاون بين المغاربة ، وتوطيد الصداقة مع العرب والمسلمين ، ومن إسبانيا عرج على المغرب الأقصى (2) .

لقد دفعت المكانة المرموقة ، التي أضحى الأمير شكيب يتمتع بها على الساحتين العربية الإسلامية والأوروبية ، بإحدى الشخصيات الإنجليزية السامية أن تقترح عليه سنة 1930م عقد لقاء بينه وبين الزعيم الصهيوني " حاييم وايزمان " ، لتبادل الآراء بينهما حول القضية الفلسطينية لإيجاد حل يرضي الطرفين ، لكنه رفض المبادرة إنطلاقا من إيمانه بعدالة قضية الشعب الفلسطيني ، وبطلان المزاعم الصهيونية في فلسطين .

ومنه يتضح لنا أن الحكومات الإستعمارية ، حتى وإن لم تتفاوض مباشرة مع الأمير ، فإنها قد أدركت أنه يشكل طرفا أساسيا لا يمكن تجاهله ، في تعاطيها مع القضايا العربية والإسلامية ، فسعت إلى التقرب منه عن طريق الوساطات مثلما فعلت بريطانيا ، وعملت أخرى على مطاردته وتضييق الخناق عليه ، مثلما كانت تقوم به فرنسا ، دون أن تتمكن جميعها من تلبين مواقفه من سياساتها ، أو تحييده على الأقل .

وفي الفترة الممتدة بين 1931م و 1933م ، حضر المؤتمر الإسلامي العام المنعقد بالقدس ، وزار بلاد البلقان التي كانت له فيها إتصالات بالرئاسة الدينية الإسلامية هنالك ، وحضر مؤتمر الطلاب الشرقيين في روما ، ومنها عاد إلى سويسرا لزيارة الملك " فيصل " الذي كان يعالج في مدينة " بيرن " ، ولما توفي أم صلاة الجنازة على جثمانه .

وفي عام 1934 ، إلتقى بالزعيم الإيطالي " موسيليني " في روما ، وإستطاع أن يقنعه بإعادة 780 ألف مواطن ليبي الى وطنهم ، وإسترجاعهم لأراضيهم . كما شارك ضمن بعثة

(1) - الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص ص 133-134 .

(2) - أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 41 نقلا عن جريدة الشاب ، عدد 05 ماي 1937 .

المصالحة العربية بين ملك الحجاز وإمام اليمن رفقة " الحاج أمين الحسيني " وشخصيات عربية أخرى ، وقد تمكنت اللجنة من التوفيق بين الطرفين وعقد الصلح بين البلدين . كما حضر مؤتمرا إسلاميا في مكة ، وزار فلسطين في نفس السنة .

وبعد عام من توقيع معاهدة جلاء القوات الفرنسية عن سورية ، عاد شكيب إلى سورية حيث استقبل استقبال الزعماء ، نشط فيها العديد من المؤتمرات والمحاضرات ، بالإضافة إلى مشاركته في مؤتمر " بلودان " لدعم الشعب الفلسطيني ، الذي انتخب فيه نائبا لرئيس المؤتمر ، كما عين رئيسا للمجمع العلمي العربي بدمشق .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية سنة 1939م ، اتخذ من مقر إقامته في سويسرا مركزا لعقد الإتصالات مع العرب السوريين في أمريكا اللاتينية ، عن طريق الرسائل وكتابة المقالات الصحفية في مجلاتهم ، بهدف توجيه نضالهم السياسي وتأطيره . ومن جانب آخر ، انضم إلى المساعي السياسية التي كان يقوم بها الزعماء العرب ، ضد السياسة الفرنسية والبريطانية في الوطن العربي ومنهم بشكل خاص " الحاج أمين الحسيني " و " رشيد عالي الكيلاني " ، " علال الفاسي " ، " أحمد مصالي الحاج " الجزائري ( 1898م - 1974م ) ... وغيرهم ، إلى غاية سنة 1946م تاريخ عودته الأخيرة إلى لبنان ووفاته بها (1) .

واستنادا إليه ، نستنتج أن الإبراهيمي وأرسلان قد قضيا نسبة معتبرة من حياتهما في السفر والترحال ، دفاعا عن قضاياهما الوطنية والعربية والإسلامية . فقد بذل محمد البشير مساعي وجهودا جبارة ، في البلاد العربية والإسلامية ، التي ظل يتردد عليها طيلة عشر سنوات ، والتي كان لها الفضل الكبير في إنجاح المشاريع التربوية والإصلاحية ، التي باشرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، منذ تأسيسها مع مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ، بما استطاع أن يحصل عليه من مساعدات مالية للجمعية من جهة ، وتمكنه من إقناع حكومات تلكم الدول ، بقبول التكفل المادي بالبعثات الطلابية الجزائرية من جهة أخرى .

ولولا تلك الجهود أيضا ، لما تسنى للحكومات والشعوب العربية والإسلامية على حد سواء ، أن تطلع على حقيقة ما كان يحدث في الجزائر من طرف الاستعمار الفرنسي ، الذي

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 27 - 28 .

ربط بقاءه في البلاد ، بفصل الشعب الجزائري عن جذوره العربية والإسلامية ، واستبدالها بأخرى لاتينية .

وعلاوة على ذلك ؛ سجلنا العمل الدبلوماسي المتميز ، الذي قام به لصالح الثورة التحريرية ، منذ الأيام الأولى لاندلاعها ، لكسب الدعم المادي والمعنوي لها ، يدفعه في ذلك اعتقاده أنها الفرصة الأخيرة للشعب الجزائري للخروج من المأزق ، الذي وضع فيه لأكثر من قرن ، وهو ما حدث فعلا .

أما الأمير شكيب ؛ فقد قضى حوالي ثمانية وثلاثين سنة مترحلا ومسافرا ، زار خلالها الكثير من البلدان والدول في قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا ، بغرض القيام بمهام رسمية كالوساطات والمفاوضات ، أو قصد السياحة والبحث والتنقيب ، أو فرار من مطاردة الحكومات الاستعمارية ومخابراتها ، التي كانت ترصد كل تحركاته ، وتقتفي آثاره حيثما حل وارتحل .

التقى خلالها ، عددا هائلا من الساسة والمفكرين والزعماء والقادة ، والأدباء وكبار رجال العصر ، وربط معهم علاقات صداقة وتعاون ، كما اتصل بالكثير من الهيئات والجمعيات والمنظمات ، العاملة في حقول السياسة والأدب والفكر والعلوم ، وحقوق الإنسان والأعمال الخيرية ، فانفتحت أمامه أبواب الاطلاع والاحتكاك ، واكتساب التجارب والخبرات على مصراعها .

والظاهر أن كلا الرجلين لم يحصر نضاله في الدفاع عن قضيته الوطنية ، بل تعدى الأمر لديهما إلى القضايا الكبرى ، التي كانت تواجهها الأمة العربية والإسلامية مثل : الاستعمار والتخلف والانقسام والصراعات الحزبية والطائفية والمذهبية ... الخ . لأنهما أدركا مدى الارتباط الوثيق بين القضايا الوطنية و القومية ، وأنه لا يمكن لبلد أن يتحرر وينهض بنفسه لوحده ، دون أن يتلقى المؤازرة والمساعدة من البلدان الأخرى ، التي تشترك معه في روابط العرق واللغة والدين والجغرافية ، والوضع الواحد والمصير المشترك .

والملاحظ أن محمد البشير وشكيبا ؛ قد اختلفا في الوجهة التي اختارها لنشاطهما الإصلاحية والسياسية والدبلوماسية ، خارج الجزائر ولبنان ، فقد اختار البشير المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية غير العربية ، لأنه بلده كان في أمس الحاجة لتلك البلدان من أجل مساعدته على مقاومة السياسة الفرنسية ، والمسح والتجهيل والتشويه التي طالت كل شيء ،

وأضحت تهدد بفصله نهائياً عن مجاله الطبيعي العربي الإسلامي . ثم لاحتضان ثورته التحريرية الكبرى ، التي لا تزال في بدايتها في تلك الأثناء ، ولا يمكن لها أن تحقق أياً من أهدافها دون التقاف الشعوب والحكومات العربية والإسلامية معها ، من خلال تقديم كل أشكال وأنواع التضامن والنصرة اللازمين .

في حين اختار الأمير شكيب بصورة، خاصة أوروبا وأمريكا وآسيا ، حتى ينقل القضايا اللبنانية والسورية والعربية والإسلامية ، إلى قلب الدول الكبرى ، بتعريف الرأي العام بها الذي كان خاضعاً لتأثير مغالطات الإعلام الاستعماري ، و الجماعات السياسية والمالية الضاغطة هنالك ، وعلى رأسها الصهيونية التي استغلت جبروتها المالي وسطوتها الاقتصادية والسياسية ، للتعطيم على مشاريعها الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين ، بدعم من حكام بريطانيا وفرنسا ، على حساب المصالح الفلسطينية والعربية والإسلامية في فلسطين على سبيل المثال .

ومعناه أن أهدافهما كانت واحدة ، بينما الإستراتيجية اختلفت ، وبرأينا يمكن أن نضيف إلى ذلك سبباً آخر للاختلاف في الواجهة ، وهو أن الإبراهيمي كان أحادي اللغة ، حيث لم يكن يتقن سوى اللغة العربية التي كان علماً من أعلامها ، بل ومن مجدديها في القرون الأخيرة . أما بالنسبة لشكيب فقد اختلف الأمر ، حيث أنه كان متعدد اللغات : فبالإضافة إلى اللغة العربية التي كان يجيدها هو الآخر ، تمكن من إجادة لغات أخرى كالفرنسية والتركية والألمانية والسويسرية... وغيرها . مما يسر له سبل العيش والحركة والاتصال في تلك الدول ، وهو ما لم يكن متاحاً للإبراهيمي الذي كانت فرنسا تحرم شعبه من تعلم العربية فما بالك باللغة الفرنسية ، التي كانت تجود بتعلمها إلا على فئة محدودة من أبناء الجزائريين ، ممن لا تستطيع أن تستغني عن خدماتهم ، لكن في إطار جد ضيق ، لأنها لم تكن تثق حتى في المخلصين لها .

والمفقت للانتباه أن شكيباً ، قد بلغ به حماسه القومي والديني ، حد المشاركة في الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، و ضد الحركات الانفصالية المسيحية في البلقان ، بتحريض ودعم من الدول الأوروبية الكبرى ، كاشفاً عن حنكة قتالية وعسكرية هامة ، من خلال اقتراح الخطط العسكرية كما حدث في ليبيا ، والتي تأسف البعض لعدم اعتمادها وتنبأ بالنصر لو حدث

---

ذلك . كما أبان عن قدراته أيضا في حقل تقديم الخدمات الصحية والإنسانية للجرحى ، في جبهات القتال كما مر بنا .

أما الإبراهيمي ، وإن لم يسلك الطريق الذي سلكه شكيب في هذا المضمار ، لكنه في حقيقة الأمر تمنى المشاركة في الثورة التحريرية الجزائرية ، لما انتهت إلى مسامعه أخبار اندلاعها في القاهرة ، مبررا عجزه عن ذلك ، بالمهمة السياسية والدبلوماسية التي كان يقوم بها في الخارج ، وبتقدمه في السن وإصابته بالعديد من الأمراض والعلل التي سكنت جسده ، وجعلته يتحرك بصعوبة .

ومها يكن ، فقد تمكن محمد البشير وشكيب أرسلان ، من انجاز الأهداف التي رسماها ل نفسيهما أثناء ترحالهما وأسفارهما ، بل استطاعا أن يجلبا الانتباه والاهتمام والدعم للقضايا التي كانا يدافعان عنها ، إلى الحد الذي أزعجا فيه الدوائر الاستعمارية الغربية عامة والفرنسية خاصة ، وهو ما سيتضمنه المبحث الرابع من هذا الفصل ، الذي جاء تحت عنوان : موقف الاستعمار الفرنسي الإبراهيمي و أرسلان .

**المبحث الرابع : موقف الاستعمار الفرنسي منهما :****01- موقف الاستعمار الفرنسي من البشير الإبراهيمي :**

كانت إدارة الاحتلال الفرنسي ، تراقب تحركات الشيخ الإبراهيمي منذ أن عاد إلى المشرق العربي سنة 1920م ، مثلما كان عليه الأمر بالنسبة للشيخ " عبد الحميد بن باديس " ، حيث كانت تنتظر إلى كل ما يقوم به من أعمال تربوية وإصلاحية بعين الريبة والشك . وقد ازدادت مخاوف الإدارة من الإبراهيمي ، بسبب ما أظهره بعد المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد سنة 1936م بالجزائر العاصمة ، من تصعيد واضح في موقفه منها وبشكل علني ، فبمناسبة مرور مائة عام على احتلال مدينة قسنطينة ( 1837م - 1937م ) ، بادر إلى تحرير نداء دعا من خلاله الشعب الجزائري ، إلى إفساد الاحتفالات الفرنسية المخددة ، كما فعل مع " عبد الحميد ابن باديس " أثناء الاحتفالات المئوية لاحتلال الجزائر ( 1830م - 1930م ) (1) .

وبسبب بعض التقارير الإستخبارية ؛ التي اعتبرته بأنه ذو توجه وهابي ( الحركة الوهابية ) ، ويكن عداواً شديداً لشيوخ الطرق الصوفية ، الذين وجدوا أنفسهم في موقف دفاع عن النفس ، يتدخل في كل شيء حتى في طريقة دفن الموتى ، كما أنه لم يتردد في الإفصاح عن كرهه الشديد للدولة الفرنسية ولسياستها الاستعمارية .

وأضاف أحد تلك التقارير ، أنه تمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في الأوساط الشعبية ، لما يتمتع به من ذكاء وجرأة كبيرين ، فتحول بسرعة إلى ضمير حي للمجتمع التلمساني ( تلمسان ) (\*) ، الذي كان قبل سنوات قليلة تحت توجيه الزعامات الطرقية . وخلص التقرير إلى أن القضية الفرنسية قد ضاعت في المنطقة بسبب الإبراهيمي . وأوصى تقرير آخر ، بوضع حد لنشاط الشيخ ، حيث جاء فيه : (( إن هذا المشاغب المداهن ، والطموح البارد والمناور ، لا يجب أن يترك له الخيار ، فهو إما مع فرنسا أو ضد فرنسا )) (2) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 309 وما بعدها .

(\*) - قام مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بإيفاد الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تلمسان عاصمة الإقليم الوهراني ( الغرب الجزائري ) .

(2) - أبو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية 1933م - 1940م ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 101 / 1988م ، ص ص 97 - 98 .

ولهذه الأسباب ، استصدرت السلطات الفرنسية قرارا إداريا مؤرخا في 31 ديسمبر 1938م ، يقضي بغلق مدرسة دار الحديث (\*) ، التي أسسها الإبراهيمي بتبرعات أهل " تلمسان " دون سبب يذكر <sup>(1)</sup> . لتقوم الأكاديمية الفرنسية في شهر سبتمبر من سنة 1939م ، في تلمسان باحتلالها وإحاقها بمدرسة " دوفو " ( DEFAU ) الفرنسية في شهر سبتمبر من سنة 1939م ، بحجة ظروف الحرب <sup>(2)</sup> .

وبالموازاة مع هذه الإجراءات ؛ حاولت سلطات الاحتلال عن طريق أحد عملائها وهو القاضي " بن حورة " (\*\*\*) ، استدراج الشيخ للعمل لصالح دول المحور ( ألمانيا ، إيطاليا ) من خلال الأحاديث الإذاعية وكتابة المقالات الصحفية ، مقابل أن تسند إليه منصب " شيخ الإسلام " ، الذي كانت تفكر في إنشائه في الجزائر <sup>(3)</sup> .

مما دفع بالسلطات العليا في باريس ؛ ممثلة في رئيس الوزراء " دولاديه " ( DELADIER ) ، إلى إصدار قرار الإبعاد والنفي في حقه إلى منطقة " أفلو " الصحراوية بالجنوب " الوهراني " <sup>(4)</sup> ، بحجة واهية وهي أنه يشكل خطرا كبيرا على الأمن العام للبلاد <sup>(5)</sup> . فقام عامل تلمسان باعتقاله يوم 12 أبريل من سنة 1940م ، مباشرة بعد وصول الأمر من الوالي العام <sup>(6)</sup> .

(\*)-مدرسة " دار الحديث" : أطلقت عليها تسمية دار الحديث ، نسبة إلى " دار الحديث الأشرفية " التي تأسست منذ قرون في دمشق ، وكان من مدرسيها : الإمام " الحافظ محمد الدين النووي " ، و الإمام " النظار النقي الدين السبكي " . وقد احتوت على مسجد وقاعة للمحاضرات وأقسام للطلبة ، وتم افتتاحها في 27 سبتمبر 1937م ، بحضور المجلس الإداري لجمعية العلماء ، برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 309 وما بعدها .

<sup>(1)</sup> - المصدر نفسه ، ص 313 .

<sup>(2)</sup> - أبو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان ... " ، مرجع سابق ، ص 97 - 98 .

(\*\*\*) - انتقل إليه في مقره بتلمسان ، في محاولة لإقناعه بالعرض .

<sup>(3)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 19 .

<sup>(4)</sup> - محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 19 .

<sup>(5)</sup> - أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، مرجع سابق ، ص 152 .

<sup>(6)</sup> - أبو القاسم سعد الله : " الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان ... " ، المرجع نفسه ، ص 101 .

وهكذا فضل الشيخ الإبراهيمي، حياة المنفى والإبعاد ، على أن يكون أداة دعائية ضد دول المحور ، مخاطرا بحياته تماشيا مع شعاره الشهير : (( إن من يبيع قلمه ولسانه يكون قد ارتكب جريمة أقبح من بيع الجندي لسلاحه ))<sup>(1)</sup> . وقد مضى في موقفه هذا ، رغم مساعي الإدارة المحلية في " تلمسان " لإقناعه بالتراجع عنه ، ولما لم تفلح في ذلك قالت له : اذهب لتوديع أهلك واحضر حقيبتك ، أما هو فرد بأنه ودّع أهله وحقيبته جاهزة<sup>(2)</sup> . وهو رد يعكس استعداداه للتضحية ، من أجل المبادئ التي رسمها لحياته ، رغم إدراكه لما ينتظره في بيئة صحراوية مقفرة تكاد تخلو من السكان ، وهو الذي تعود على النشاط والحركة الدؤوبين .

ولما أصبح رئيس جمعية العلماء شاغرا بوفاة " ابن باديس " ، حاولت الإدارة الاستعمارية الممثلة في شخص الوالي العام ، التأثير على أعضاء المجلس الإداري للجمعية<sup>(3)</sup> ، للحيلولة دون اختيار الإبراهيمي رئيسا لها ، مقابل وعود بتقديم الدعم والمساعدة لهم ، لكن المجلس لم يأبه بتلك الضغوط والإغراءات ، فاختر الإبراهيمي بالإجماع رئيسا وبكل حرية ، وتم إبلاغه بالقرار في منفاه ، مفوتا بذلك على فرنسا فرصة احتواء الجمعية وتدجين أعضائها . وأمام الإقبال الشعبي المتزايد على الإبراهيمي في منفاه " بأفلو " ؛ عمد حاكم " أفلو " إلى إتخاذ مجموعة من الإجراءات : كمنع الناس من الإتصال به ، ونشر الأكاذيب عنه عن طريق الجواسيس والعملاء ، والدعوة إلى مقاطعته والتحرش به ، فضلا عن مراقبة بريده ، واستنطاق و طرد من استمروا في زيارته والاتصال به ، غير مكترئين بالأمر<sup>(4)</sup> .

كل ذلك لم ينل من عزيمته وتصميمه ، على مواصلة نشاطه الإصلاحية بالمنطقة ، حيث استطاع في ظرف قصير أن يجمع شريحة عامة من أهلها ، على تبني المشروع الإصلاحية وتقديم الدعم له ، زيادة على مهامه كرئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي ظل على

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 43 - 52 .

(2) - أحمد قصبية : " الشيخ البشير الإبراهيمي في منفاه بأفلو " ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 87 ، ماي / جوان 1985م ، ص 280 .

(3) - للإطلاع على تفاصيل المحاولة ينظر محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص 17 ، 20 ، 278 .

(4) - احمد قصبية ، المرجع نفسه ، ص 280 و ما بعدها .



إتصال دائم بمكتبها ، يزوده بالتعليمات والتوجيهات الإدارية والتربوية اللازمة (1) ، إلى غاية إطلاق سراحه يوم 28 ديسمبر 1942م ، مع بقاءه تحت الرقابة القضائية إلى أن تضع الحرب العالمية أوزارها (2) . فاخترت مدينة الجزائر ، مركزا لإدارة شؤون جمعية العلماء (3) ولتنتقلته إلى مختلف جهات الوطن ، لبث روح الإصلاح و غرس بذور النهضة (4) .

كما واصل نشاطه في الميدان السياسي بعزيمة كبيرة ، على خلاف ما كانت تريده السلطات الاستعمارية ، حيث كانت له إتصالات مكثفة مع مختلف قادة الحركة الوطنية ، على رأسهم "فرحات عباس" (\*) الذي كانت علاقته به قوية ، و التي توجت فيها بعد بتأسيس حزب " حركة أحباب البيان والحرية " بمدينة سطيف ، في الرابع عشر من مارس من سنة 1944م . كما قدم بتاريخ الثالث من شهر جانفي 1944م ، تقريرا مفصلا إلى لجنة الإصلاحات التي تشككت عقـب زيارـة " شارل دوغول " ( 1890م – 1970م ) ( CHARLES DE GAULLE ) إلى قسنطينة "في ديسمبر 1943م ، ضمنه وجهات نظره في المجالات التي ينبغي مباشرة إصلاحات فورية فيها وهي : القضاء الإسلامي ، المساجد والأوقاف ، التعليم العربي الحر (5) .

(1) - بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية الجزائرية " 1920م – 1965م " ، مرجع سابق ، ص 94 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 96 .

(3) - أحمد قصيبة : المرجع السابق ، ص 292 .

(4) - أحمد توفيق المدني : " الإبراهيمي كان أمة ، كان جبلا ، كان عصرا " ، مجلة الثقافة ، العدد 87 ، مرجع سابق ، ص 44 .

(\*) - فرحات عباس : ولد عام 1899 بجيجل ، بدأ الحياة السياسية منذ العشرينيات في " فيديرالية المنتخبين " رفقة الدكتور " ابن جلول " ، أسس في شهر ماي 1938م " اتحاد الشعب الجزائري " ، ثم " حركة أحباب البيان والحرية " في شهر مارس 1944م ، بعد ان تحالف مع العلماء ، وحزب " الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري " في ماي 1944م . انضم الى جبهة التحرير الوطني سنة 1955م ، ثم أصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية عام 1956م ، ثم رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ( 1958م - 1961م ) ، بعد الاستقلال شغل منصب أول رئيس للجمعية الوطنية ، لكنه سرعان ما استقال منه سنة 1963م ، توفي عام 1970م .

(5) - للاطلاع على محتوى التقرير ينظر الإبراهيمي : الآثار ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 135 وما بعدها .

ومع التطورات التي عرفتھا نهاية الحرب العالمية الثانية ، كثف من اتصالاته ولقاءاته ، حيث شارك في اجتماع انعقد بمخزن السيد " محمد علي عباس التركي " أحد كبار أثرياء الجزائر بحضور " فرحات عباس " و الشيخ " محمد خير الدين " ( 1902م - 1993م ) و " توفيق المدني " ، بغرض تدارس الأوضاع المستجدة بعد انهزام الألمان وحلفائهم في الحرب (1) .

وعقب المجازر الوحشية التي اقترفتها القوات الفرنسية يوم الثامن ماي 1945م ، بدعم من المعمرين المتعصبين في " سطيف و قالمة و خراطة " بشكل خاص ، والتي خلفت استشهاد أكثر من خمسة و أربعين ألف جزائري ، بالإضافة إلى الجرحى . هاجم الإبراهيمي بشدة تلك الأعمال الوحشية ، التي ارتكبت في حق جزائريين عزل وأبرياء ، لا ذنب لهم سوى أنهم خرجوا إلى الشوارع ، مبهجين بانتصار الحلفاء ، ومطالبين فرنسا الوفاء بالعهود التي قطعتها على نفسها خلال الحرب ، مقابل التضحيات الجسام التي قدموها لها في حربها ضد النازية و الفاشية (2) .

جرائم اعتبر أنها من الفظاعة ، بحيث أن فرعون لو شهدھا لتبرأ منها ولافتخر لعدم ارتكابه لها ، ولذلك فهي وصمة عار أبدي سيظل حسبه يلطخ جبين فرنسا ، مهما تقادم الزمن عليها : (( أما والله لو أن تاريخ فرنسا كتب بأقلام من نور بمداد من عصارة الشمس في لوح منحوت من صفحة القمر ، ثم قرضه عشاقها المتيمون باللؤلؤ المنثور بدل القرص المشعور ، والشعر المنثور ، ثم كتب في آخره هذا الفصل المخزي بعنوان " مذابح سطيف و قالمة و خراطة " لطمس هذا الفصل ذلك التاريخ كله )) (3) . وصف يعكس حجم الصدمة العنيفة التي أحدثتها تلك المجازر في نفسية الإبراهيمي ، فجاء رده أعنف على دولة لطلما ، تغنت بأنها إنما جاءت للجزائر لتنتشر المدنية والرقى في البلاد ؟ .

(1) - أحمد توفيق المدني : حياة كفاف ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 382 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 376 .

(3) - المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 283 .

وردا على هذا الموقف الجريء ، قامت الشرطة الفرنسية بمداهمة بيته واعتقاله يوم السابع والعشرين ماي 1945م ، أي بعد أسبوعين من تاريخ المجازر بتهمة تدبيرها والقيام بـ : " المؤامرة الكبرى " على فرنسا ، وهي تهمة تعاقب عليها القوانين الفرنسية بالإعدام <sup>(1)</sup> ، فتم حبسه بالسجن العسكري "باب الوادي " (\*) ، حيث وضع في زنزانة تحت الأرض تتعدم فيها أدنى الشروط الصحية لمدة ثلاثة أشهر ، فأصيب بعدة أمراض في يده وكتفه <sup>(2)</sup> ، وأمام تدهور حالته الصحية بشكل خطير ، سارعت السلطات الاستعمارية إلى نقله خارج السجن ، ولما استعاد بعضا من قواه ، حولته إلى السجن العسكري "بقسنطينة " ، حيث مكث فيه ثمانية أشهر <sup>(3)</sup> ، ليتم الإفراج عنه يوم السادس عشر مارس من سنة 1946م ، تنفيذًا لقرار التاسع مارس 1946م ، الصادر عن " الجبهة التأسيسية الفرنسية " ، المتضمن العفو الشامل عن مساجين أحداث الثامن ماي 1945م <sup>(4)</sup> .

ومباشرة بعد استرجاعه لحريته ، عاد إلى نشاطه بنفس الإرادة والعزيمة ، في الميادين التربوية و العلمية و الأدبية و السياسية والاجتماعية <sup>(5)</sup> . إلى غاية سنة 1952م ، تاريخ مغادرته لأرض الوطن باتجاه المشرق العربي والعالم الإسلامي ، للدفاع عن القضية الوطنية هنالك .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الإثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 379 .

(\*) - " باب الوادي " : حي من الأحياء العتيقة والشهيرة بمدينة الجزائر .

(2) - احد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 96 - 225 .

(3) - أحمد حماني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 269 .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 77 .

(5) - أحمد حماني ، المصدر نفسه ، ص 269 .

**02- موقف الاستعمار الفرنسي من شكيب أرسلان :**

لقد تميزت العلاقة بين الأمير شكيب والدولة الفرنسية بالخلاف والتوتر ، بسبب مواقفه المعادية للاستعمار الأوروبي من ناحية ، وللسياسة الفرنسية في البلاد العربية والإسلامية من ناحية ثانية . فقد مر بنا أن الأمير شارك في الحرب إلى جانب الليبيين ، ضد إيطاليا في حملتها العسكرية على ليبيا ، وفي حروب البلقان سنة 1912م دفاعا عن الدولة العثمانية .

وفضلا عن ذلك ، فإنه لما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م ، سارع في إبداء موقفه منها ، بإعلان تأييده للدولة العثمانية ، ضد دول الحلفاء التي كانت فرنسا واحدة منها . وقد بنا موقفه ذلك على كونه كان يعتقد بأن الخلافة العثمانية ؛ رغم ما وصلت إليه من انحلال وضعف ، مازالت تمثل عامل وحدة للعرب والمسلمين ، فحذر في هذا الصدد " الشريف حسين " أمير مكة ، الذي تزعم الثورة العربية المناهضة للأتراك ، من الثقة في الإنجليز حلفاء الفرنسيين الذين عقدوا معه حلفا يتم بموجبه التعاون العسكري بينهما ، لطرد الأتراك نهائيا من المشرق العربي قائلا له : (( قل بحرمة جدك ابن الشريف كم عقدا عقده الإنجليز ولم ينقضوه ؟ وكم عهدا أبرموه ولم يجعلوه أنكاثا ؟ أخالك تجهل التاريخ وتكابروا في المتواتر من شأنهم الإخلال بالعهود والمواثيق إلى الحد الذي تنكر فيه هذه الحقيقة التي تتجلى في جميع معاملاتهم سواء مع المسلمين أو مع سائر الأمم )) (1) .

وقد جاهر الأمير بموقفه عاليا ، رفقة مجموعة من الكتاب العرب ، الذين اتخذوا من جريدة " الشرق " بدمشق منبرا لدعوتهم (2) . وأثناء حملة الأتراك على قناة السويس عام 1916م لأجل استرجاعها من الإنجليز ، وجه الكثير من دعوات الجهاد إلى جانب الأتراك (3) . زيادة على ذلك قام بجولات في العديد من القرى اللبنانية ، دعا من خلالها إلى التطوع ونصرة الدولة العثمانية ، كما شارك بنفسه في الهجوم على القناة تلبية لنداء " جمال باشا " (1872م-1922م) (4) .

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 112 .

(2) - سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص ص 74 - 78 .

(3) - نجيب البعيني ، المصدر نفسه ، ص 92 .

(4) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص ص 16 - 17 .

ولما استقر به المقام بألمانيا ، سارعت فرنسا إلى اتهامه بتأييد " جمال باشا " والعثمانيين انطلاقاً من " برلين " ، كما سعت إلى تشويه صورته لدى اللبنانيين بكافة الطرق والوسائل ومنها : قيامها بحجز باخرتين محملتين بالموثونة ، أرسلهما المهاجرون اللبنانيون لأهاليهم في لبنان ، وأداعت بأن السلطات التركية هي التي حجزت الباخرتين بإيعاز من الأمير ، رغم أنه بذل مساع كبيرة لضمان وصولها إلى بيروت .

وقد اعتبر هذه التهمة الملفقة : (( منتهى التزوير والباطل والقحة )) (\*) (1) ، فحسبه أن فرنسا وبريطانيا هما اللتان منعنا الباخرتين من الوصول إلى هدفهما المحدد ، عن طريق القائد الفرنسي في البحر المتوسط ، الذي تلقى التعليمات من حكومته . ورغم أن التهمة كانت باطلة من أساسها ، إلا أن فرنسا تمكنت من خلالها أن تستعدي شريحة واسعة من اللبنانيين ، وتؤلبهم ضده (2) .

ازدادت العلاقة بين الأمير وفرنسا توتراً ، بعد أن جاهر برفضه واحتجاجه على محاولتها إبعاد بربر المغرب الأقصى عن الدين الإسلامي ، لإصدارها ما يسمى بالظهير البربري ، ودعوته العرب والمسلمين وغيرهم ، للوقوف في وجه تلك الخطوة التي اعتبرها : (( من أفضح من اعتدى على الإسلام والمسلمين )) ، إذ لم تجابه بشدة وحزم ، ستكون تكراراً لما حدث في الأندلس .

لم تتوقف الاتهامات الفرنسية للأمير عند هذا الحد ، بل أخذت منحى تصعيدياً ، إذ وصفه أحد الجنرالات الفرنسيين في الرباط ، بالرجل المأجور لقوى خفية ، ورد عليه الأمير بقوله : (( فليخسأ كما يخسأ الكلب ، أنا لا يشتريني أحد ، ولا أعمل برأي أحد إلا ما يعني لي واره من مصلحة ملتي وقومي )) (3) .

ولقطع الاتصالات بينه وبين الوطنيين المغاربة ، مارست الحكومة الفرنسية ضغوطات كبيرة على نظيرتها الإسبانية ، حتى تشدد الرقابة على بريده ، ولما أحسن بذلك أخذ يكتب

(\*)- القحة : الغلظة والخشونة .

(1)- شكيب أرسلان : سيرة ذاتية ، د ط ، دار الطليعة ، بيروت : 1969م ، ص 235 .

(2)- محمد علي الطاهر : ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، د ط ، القاهرة : 1947م ، ص 495 .

(3)- الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 82 .

رسائله بأسماء وعناوين مستعارة ، فيشير إلى فرنسا على سبيل المثال ب : (( الأم الحنون )) ، والمقيم العام الفرنسي ب : (( القديس )) ... وهكذا .

كما منعت كل كتاباته ومقالاته ، وصادرت كل الكتب التي يرد فيها اسمه مهما كانت موضوعاتها ، فقد حدث أن قامت بنفي أحد تجار الكتب لأنه وجد بحوزته كتاب الأمير . ناهيك عن الحملات الصحفية ، التي كانت تعمل على تشويه صورته واختلاق الأكاذيب والافتراءات عنه، كالتساؤل حول حقيقة مصدر الأموال التي كان ينفقها هو وزملائه ، أو الزعم على أنه على علاقة بمركز الدعاية الألمانية في الشرق ، واشتغاله كمساعد في تحرير جريدة " الشرق الجديد " ( NEW ORIENT ) ، وتنسيقه مع اللجان الثورية العاملة في " برلين " و " ميونيخ " ، التي كانت تحت إدارة السلطات الشيوعية في موسكو حسب زعمها (1) .

وقد دفعت هذه المضايقات والمطاردات بالأمير ، إلى أن يزور المغرب الأقصى متكررا ، حتى لا تعلم السلطات الفرنسية بوجوده ، لكنه لم يكن يدري أنه بمجرد نزوله بمدينة " طنجة " ثم " تطوان " المحتلتان من قبل اسبانيا ، أنه كان تحت مراقبة مخابراتها هنالك ، حيث تمكنت من اكتشاف أمر الزيارة بالرغم من سريتها . وراحت تتابع كل تنقلاته ولقاءاته ، وتعد التقارير بشأنها ، بالتنسيق مع نظيرتها في منطقة الحماية الفرنسية ، فعلى سبيل المثال أشارت إحدى تلك التقارير ، أن زيارة الأمير تمر في هدوء ودون تصريح علني . لكن القنصلية الفرنسية العامة في " تطوان " ، ظلت قلقة من زيارته للمدينة ، فعكف أعوانها على تتبع تحركاته بأنفسهم .

ولما رأت السلطات الاسبانية ، تزايد الوافدين عليه ، والمكرمين له في حفلات رسمية ، سلمت له أمرا بالطرد ، رغم رفضه له واحتجازه عليه . ولما وجد إصرارا على ذلك ، أبلغ محافظ الشرطة بأنه سيعود إلى اسبانيا بمحض إرادته ، وقد فعل ذلك (2) .

هذا بالنسبة لعلاقة الأمير شكيب أرسلان ، بالمغرب الأقصى ، أما بالنسبة للجزائر فقد كانت له اتصالات ومراسلات مع بعض الشخصيات الإصلاحية : كالشيخ " الطيب العقبي " ، و "أحمد توفيق المدني" (1899م-1983م) ، " الشيخ عبد الحميد بن باديس " ،

(1) - أحمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 10 ، 41 ، 42 .

(2) - الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 21 وما بعدها .

" السعيد الزاهري " (1899م-1956م) ، " مبارك الميلي " . كما كانت مجلة " الشهاب " تنشر له من حين لآخر ، بعض مقالاته التي تدور حول قضايا العرب والإسلام . أما مع " مصالي الحاج " ، فقد تعود اتصالاته به حسب أحد التقارير الفرنسية إلى سنة 1934م ، لتتوثق العلاقات بينهما أكثر أثناء لجوء مصالي إلى " جنيف " ، إثر الحكم عليه بالإبعاد في ماي 1935م .

وقد كان للأمير دور كبير ، في التأثير على التوجه الفكري والسياسي للعلماء من ناحية ، وعلى إحداث نوع من التقارب والتضامن بين العلماء وحزب الشعب الجزائري من ناحية ثانية . حيث أثمرت مساعي الأمير إلى عقد اجتماع في باريس يوم 21 فيفري 1937م ، تحت رئاسة وبحضور : " مصالي الحاج " (1899م-1974م) ، " الفضيل الورثيلاني " (ت1959م) ، " السعيد الصالحي " ، " الحبيب بورقيبة " (1903م-2000م) ، وفيه تمت المصالحة بين الفريقين .

ولأن إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، كانت على علم بتلك الاتصالات والمراسلات وبمنشورات الأمير التي كانت تتسرب إلى الجزائر ، عبر عدة طرق وقنوات ، كجريدة " الأمة العربية " ( LANATION ARABE ) ، فقد فرضت عليها مراقبة شديدة ، انطلاقاً من قناعتها المتمثلة في أن الوعي الوطني الذي أخذ ينمو في الجزائر ، إنما يرجع إلى مؤثرات خارجية ، وبخاصة نشاط شكيب أرسلان ودعايته باتجاه أقطار المغرب العربي <sup>(1)</sup> . وهي أسباب كافية لتجعل منه شخصية خطيرة ، وغير مرغوب فيها لدى الحكومات الفرنسية .

الأمر الذي يدفعنا إلى الاستنتاج بأن السلطات الفرنسية ، كانت تعد الأمير من ألد أعدائها ، بسبب معاداته لسياستها الاستعمارية بشكل عام وفي المغرب العربي بشكل خاص ، نظراً للجهود الكبيرة التي بذلها لتوعية الجاليات الشرقية في أوروبا ، والأوساط الفكرية والثقافية والسياسية المدافعة عن حقوق الإنسان في القارة الأوروبية ، مستغلاً في ذلك صداقاته

(1) - للمزيد من التفاصيل حول ، موضوع علاقة الأمير شكيب أرسلان بزعماء الحركة الوطنية في الجزائر ، ينظر أحمد صاري : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ، د ط ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر : 2004م ، ص 77 وما بعدها .

(\*)- Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales, 26 Janvier 1934 , 22 Janvier , les archives nationales de Tunisie .

والاحترام والدعم اللذان كانا يلقاها من الجميع .

وهكذا كانت السلطات الفرنسية على أعلى مستوى ، ترى في كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، شخصيتان خطيرتان غير مرغوب فيهما لديها على الإطلاق ، بفعل ما كانا يقومان به من نشاطات تربوية وإصلاحية وسياسية داخل الجزائر ولبنان وخارجهما ، حيث لقي كل ذلك تجاوبا شعبيا ونخبويا منقطع النظير ، فسعت بشتى الوسائل والطرق ، من أجل كبح جماحهما أو استدراجهما إلى صفها ، بإغرائهما بالمناصب والأموال دون جدوى ، فقد فشلت فشلا ذريعا في إسكات صوت الإبراهيمي وتحجيم دوره في الحركة الإصلاحية الوطنية ، بنفيه إلى صحراء " أفلو " القاحلة والمقفرة ، وفي إبعاده عن جمعية العلماء بمحاولة فرض مرشحها المفضل ، الذي راهنت من خلاله على احتواء المشروع الإصلاحي كمرحلة أولى ، تمهيدا لقبره في المرحلة الموالية . لكن ذلك لم يحدث بفضل تجند زملائه العلماء ، الذين أحبطوا تلك المحاولة الانقلابية داخل بيت الجمعية .

لكنها لم تستسلم وراحت تتحين الفرص للإيقاع به ، وهو ما حدث عقب مجازر 8 ماي 1945م ، حيث لم تتأخر في اعتقاله وسجنه لمدة إحدى عشر شهرا ، في ظروف قاسية ومأساوية ، لكنه ورغم كل ذلك لم يتزحزح أو يخضع وبقي وفيا لنهجه ، ولقناعاته التي لم تتغير قيد أنملة . بل أنه خرج من السجن ، أكثر تشددا في مواقفه السياسية وجرأة وتحديا ، غير مبال بردة فعل الإدارة ، التي لم تتسامح معه بطبيعة الحال .

والأمر ذاته ، حدث مع الأمير شكيب أرسلان ، الذي كانت فرنسا منزعة منه بشدة ، جراء نشاطاته السياسية في الدول الأوروبية والآسيوية والأمريكية والإفريقية ( المغرب الأقصى وتونس ) ، المناهضة للسياسة الاستعمارية بصفة عامة والسياسة الفرنسية بصفة خاصة . فعملت على ترصد تحركاته ومطاردته في أي مكان يحل به ، عبر شبكة جواسيسها وعملائها الذين كانوا يراقبون الإبراهيمي أيضا ، ويكتبون حوله يوميا تقارير بكل شيء يقوم به مهما كان تافها. ورغم ذلك فشلت في الإيقاع به أو القبض عليه لأنه كان حذرا جدا . وهنا يوجد اختلاف جلي في أسلوب الإبراهيمي وأرسلان ، فالأول بحكم طبعه الثوري كان اندفاعيا يجاهر بما يريد ، ويهاجم وينتقد بعنف الإدارة الاستعمارية وأعوانها من العيون والجواسيس وشيوخ



الطرق الصفية المنحرفين ، بل أنه في الكثير من الأحيان ، كان هو من يتحدى ويستفز خصومه من سلطات الاحتلال ومعاونيهم . أما أرسلان ، فقد عرف عنه أنه سياسي مداهن يهاجم وينتقد عندما تسنح الظروف ، ويهادن ويلين من مواقفه لما يتطلب الأمر ذلك ، دون أن يعني ذلك أنه كان مسالما لفرنسا أو حلفائها الغربيين .

لقد تحول الإبراهيمي والأمير شكيب ، إلى قضية تشغل بال الساسة والحكومات الفرنسية المتعاقبة ، التي كانت تتابع نشاطهما بانتظام وعلى أعلى مستوى ، ولما فشلت في الحد من إقدامهما وحماسهما ومثابرتهما في الدفاع عن قضاياهما الوطنية والقومية ، راحت تكل لهما الأكاذيب وتروج عنهما الإشاعات ، لكي تهتز مصداقيتهما لدى الجماهير الجزائرية واللبنانية ، العربية والإسلامية ، وحتى الرأي العام الغربي ، الذي أظهر جزء منه تعاطفاً أو على الأقل حياداً في التعامل مع القضايا المرتبطة بالاستعمار الغربي . ومثلما رفض الإبراهيمي وأرسلان الإستسلام لفرنسا أو الإنجرار لمحاولتها احتواءهما ، فإن هذه الأخيرة أيضاً ظلت ثابتة في موقفها منهما ، حيث ظلا مطلوبين لدى أجهزتها الأمنية والعسكرية ، إلى أن غادرت لبنان سنة 1946م ، وطردت من الجزائر 1962م ، وهو ما سمح لهما بالعودة إلى بلديهما والإقامة فيهما لمدة قصيرة جداً ، إذ توفي أرسلان أسابيع بعد عودته ، بينما امتد عمر الإبراهيمي لأكثر من سنتين في جزائر الاستقلال . مخلفين تراثاً فكرياً وسياسياً وعلمياً غزيراً ، يأتي الحديث عنه في المبحث الآتي ، الذي أدرجنا فيه وفاة الرجلين وردود الفعل حولها ، بالإضافة إلى مؤلفاتهما في شتى المجالات والتخصصات التي سلمت من الضياع .

**المبحث الخامس : وفاتهما و آثارهما :****2- الإبراهيمي وفاته و آثاره :**

توفي الشيخ البشير الإبراهيمي ، ظهر يوم الخميس التاسع عشر ماي 1965م ، عن عمر يناهز السادسة و السبعين عاما ، بمنزله بحي " حيدرة " بالجزائر العاصمة ، و قد صلي على جثمانه في المسجد الكبير ، وسط حضور جماهيري كبير ، تقديرا لمنزلته الدينية و الأدبية <sup>(1)</sup> ، و دفن بمقبرة " سيدي محمد " بالعاصمة ، يوم الجمعة العشرين ماي 1965م <sup>(2)</sup> .

و قد أبنه رفيقه و نائبه في رئاسة جمعية العلماء الشيخ " محمد خير الدين " (\* ) ، بكلمة جاء فيها <sup>(3)</sup> : (( الله أكبر : هوى نجم البشير ، و جف ذلكم الصوت الجهير ، و سكن ذلك القلب الكبير ، و جف ذلكم القلم السيال الخطير ، و أصبح كل ذلك في حكم التاريخ ... مات محمد البشير الإبراهيمي العالم المحقق الأبل ، و الكاتب المبدع المفتن ، و الخطيب الأشدق المصقع ، و المصلح الديني و الإجتماعي الموفق ، المفكر الحر الجريء ، و الإمام السلفي الأكبر ، و المؤمن المطمئن النفس الصادق الإيمان )) .

أما شاعر الجمعية " محمد العيد آل خليفة " ( 1904م - 1979م ) <sup>(4)</sup> ، فقد رثاه بقصيدة

(1) - الطاهر فضلاء : الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى ، د ط ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1967م ، ص 65 .

(2) - محمد خير الدين ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 412 .

(\*) - الشيخ " محمد خير الدين " : ولد في شهر ديسمبر 1902م في واحة " فرفار " في بسكرة ، تلقى في شبابه تربية دينية إسلامية ، تعلم النحو و الفقه في قسنطينة على يد علمائها . هاجر سنة 1918م إلى تونس ، لإكمال دراسته في جامع الزيتونة ، حيث تخرج منه سنة 1925م بشهادة التطويح . أنتخب عضوا في المكتب الإداري لجمعية خلال مؤتمرها التأسيسي ، تولى نيابة رئاستها من سنة 1946م و إلى غاية سنة 1956م ، تولى نيابة إدارة معهد ابن باديس بقسنطينة . انضم إلى الثورة التحريرية ، التي كلفه قاداتها بعدة مهام و مسؤوليات ، تولى منصب النيابة في المجلس الوطني الجزائري بين 1962م و 1964م . توفي يوم العاشر من ديسمبر 1993م .

(3) - محمد خير الدين ، المصدر نفسه ، ص 412 .

(4) - الطاهر فضلاء ، المرجع نفسه ، ص 65 .

ألقاها حول قبره بعنوان " لست أنسى " ، و مما جاء فيها :

أي خطب هز البلاد عويلا  
و دهاها فما تفيق ذهولا  
أي رزء أصبنا منه ما كاد  
يدك الجبال دكا مهولا ؟  
أي خصف طوى البلاغة و السؤدد  
و المجد و الكفل الطويلا ؟  
أي هويل تشيب منه النواصي  
يوم شاء الإبراهيمي عنا الرحيلا ؟  
يوم شاء البشير أن يترك الدنيا  
و يمضي لربه مستقبلا ؟ (\*).

و من الطبيعي أن تثير وفاة الشيخ الإبراهيمي ، الحزن و الأسى في الجزائر و في غيرها من الأقطار العربية و الإسلامية ، ففي الجزائر اعتبر الأستاذ " محمد الطاهر فضلاء " ( <sup>1</sup> ) تلميذ الإبراهيمي ، وفاة أستاذه كارثة و مصيبة عظيمنتين أصابتا المسلمين ، بالنظر إلى مكانته الدينية و الأدبية و اللغوية .

أما في المشرق العربي ، فقد سارع أقطاب الفكر و الأدب و السياسة ، و الهيئات العلمية و الثقافية ، إلى إقامة حفلات التآبين ، و الحديث عن مناقبه و أدبه و فكره عبر المقالات الصحفية و الأحاديث الإذاعية ، و مما قالته إحدى الشخصيات : أنه بوفاة الإبراهيمي ، يكون العرب و المسلمون قد دفنوا مع جسده : " إدارة معارف لا تعوض " . أما على الصعيد الرسمي ، فقد بادرت الحكومات إلى تنكيس الأعلام عن المباني الرسمية ، و إعلان الحداد ( <sup>2</sup> ) . و بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته ، أقيمت احتفالات بالمناسبة بقاعة " ابن خلدون " في شهر ماي 1966م ، ألقى فيها الكثير من الخطب و القصائد الشعرية التآبينية ، إشادة به و أسفا على فقدانه ، قام تلميذه " الطاهر فضلاء " بجمعها و طبعتها في كتاب تحت عنوان " الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى " .

وبهذا تتوقف مسيرة علم من أعلام الجزائر المعاصرة ، حفلت بالنضال و المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي ، الذي ظل يستغل مقدرات البلاد البشرية و المادية ، طيلة مائة و اثنين و ثلاثين عاما ، منتهجا في سبيل ذلك سياسات و أساليب أبعد ما تكون عن القيم الإنسانية

(\*)- ينظر الملحق الاول ، من ملاحق الشيخ البشير الإبراهيمي .

(<sup>1</sup>)- الطاهر فضلاء ، المرجع السابق ، ص ص 65 - 118 .

(<sup>2</sup>)- المرجع نفسه ، ص 73 .

والحضارية ، تطبيقا للمبدأ الميكيفيلي الشهير: " الغاية تبرر الوسيلة " . استعمار سعى لتحويل البلاد إلى أراضي أوروبية لسانا وروحا ، وكاد أن يحقق ذلك لولا ظهور نخبة جزائرية مسلحة بالعلم والوطنية ، تصدت للمشروع الفرنسي ، رغم القمع والقهر اللذان كانت فرنسا تجابههم بهما .

أما فيما يتعلق بالتأليف ، فإن البشير الإبراهيمي لم يوليه اهتماما ، لأنه كرس جل أوقاته وحياته ، لتربية النشء وتعليمه ، ولالإشراف على الشؤون الإدارية لجمعية العلماء ، التي استلم إدارتها في النصف الثاني من شهر أفريل 1940م ، بعد وفاة رئيسها الأول الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " (1) ، وجريدة " البصائر " لسان الحال الجمعية ومعهد ابن باديس (2) ، وقد أوضح ذلك قائلا (3) : (( لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا ولكني أتسلى بأنني الفت للشعب رجالا ، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده ، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا ، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا ، وحسبي هذا مقربا من رضا الرب والشعب )) .

ومنه نستخلص أن الإبراهيمي ؛ لم يأسف على عدم اهتمامه بالكتابة والتأليف ، رغم أنه كان في إمكانه أن يؤلف عشرات المؤلفات ، في الفقه والأدب واللغة والاجتماع ، لأن الوضع الثقافي والعلمي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية ، المتمسم بالجمود والانحطاط ، كان يقتضي التضحية بالطموحات الشخصية لفائدة المصلحة الوطنية العليا .

وفي هذا الإطار ، ذكر نجله الدكتور " أحمد طالب الإبراهيمي " (4) : أن والده كانت له عدة مؤلفات وكتابات مخطوطة ، في المجالات الدينية واللغوية والأدبية والاجتماعية ، لكنها ضاعت أثناء الثورة التحريرية لما كان في المشرق العربي ، عند بعض تلامذته ، أو ببيته الذي اقتحمه الجيش الفرنسي ، و استولى على كل ما به من كتب و مخطوطات . يضاف إلى ذلك أن عددا كبيرا من الخطب و الدروس و المحاضرات ، التي دأب على إلقائها ارتجالا و لم تسجل .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص ص 299 - 230 .

(2) - عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 154 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص ص 229 - 230 .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 6 .

- و قد أورد الشيخ البشير (1) ، عناوين تلك المؤلفات في مقاله : " خلاصة حياتي العلمية " الذي كتبه بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، لما أنتخب عضوا فيه سنة 1961م ، و هو يمثل خلاصة شاملة لسيرته الذاتية فحصرها في ستة عشر مؤلفا و رسالة و هي :
- " عيون البصائر " : تشمل المقالات التي كتبها في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية ، و هو المؤلف الوحيد الذي طبع في حياته بعد الإستقلال ، و قد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة 1963م بالقاهرة ، ثم في الجزائر سنة 1971م .
  - كتاب " بقايا النقايات (\*) و النقايات في لغة العرب " : جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة ( من مختار الشيء أو مرذوله ) .
  - كتاب " بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر " : تناول فيه بالدراسة أصول اللهجة السائدة في مواطن " بني هلال بني عامر " (2) .
  - كتاب " أسرار الضمائر في العربية " .
  - كتاب " التسمية بالمصدر " .
  - كتاب " الصفات التي جاءت على وزن فعل " .
  - كتاب " الإطراء و الشذوذ في اللغة العربية " .
  - كتاب " نظم العربية في موازين كلماتها " .
  - كتاب " ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة " .
  - رواية " كاهنة أوراس " .
  - كتاب " شعب الإيمان " : جمع فيه الفضائل و الأخلاق الإسلامية .
  - رسالة في " الفرق بين لفظ المطرد و الكثير عن ابن مالك " .
  - رسالة في " ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا إثنان " .
  - رسالة في : " مخارج الحروف و صفاتها بين العربية الفصيحة و العامية " .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : في قلب المعركة ، مصدر سابق ، ص 230 - 231 .

(\*) - النقايات : جمع نقايا و نقاء : خيار الشيء و خلاصته . المنجد في اللغة و الأعلام .

(2) - محمد عباس : البشير الإبراهيمي أدبيا ، د ط ، د م ج ، الجزائر : د ت ، ص 70 .

- " ملحمة رجزية " ، تبلغ ستة و ثلاثين ألف بيت ، من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه ، ألفها في المنفى .

و لا شك أن هذه المؤلفات ، ذات قيمة أدبية و لغوية كبيرة ، كان من شأنها أن تثري المكتبة العربية ، لو لم تمتد إليها يد الإلتلاف و الضياع .

أما المقالات و الخطب و الدروس و المحاضرات ، التي أمكن جمعها و طبعها على فترات ، فمصدرها بشكل خاص جريدة " البصائر " الثانية ، التي كان يكتب فيها أسبوعيا ، قبل أن يرحل إلى مصر سنة 1952م في رحلته الثانية إلى المشرق العربي ، التي سبق الحديث عنها في مبحث سابق . عالج فيها مواضيع دينية و سياسية و اجتماعية و إصلاحية و أدبية ، اعتمد فيها على توظيف القرآن الكريم و خاصة القصص منه ، و الأمثال العربية و أسلوب التهكم و السخرية ، و توظيف قواعد اللغة العربية توظيفا فنيا ، و الجرس و الإيقاع الموسيقيين .

و يرى الدكتور " عبد المالك مرتاض " <sup>(1)</sup> ، أن أسلوب الإبراهيمي أدبي كلاسيكي متين ، بليغ و مبدع ، و العلة في ذلك حسبه أنه من أحفظ أهل زمانه للقرآن الكريم ، و للأحاديث النبوية الشريفة ، و للأدب العربي القديم شعره و نثره ، و هي خاصية تجعله أكبر أديب في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين ( \* ) .

و في هذا الصدد أيضا ، يقول الدكتور " محمد زغينة " <sup>(2)</sup> ، الذي درس " المقالة الوجدانية في نثر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " أن الإبراهيمي : (( أعطى للمقال طابعه الخاص به ، و منحه مذاقه الخاص و لون تفكيره ، و خصوصية تفردته ، مما يدل على ثقافة واسعة ، و فكر عميق و حس مرهف )) . و يضيف : أن الإبراهيمي ، أظهر في كتاباته تفوقا كبيرا في : (( توظيف المفردات توظيفا موسيقيا ، مع حسن الربط بينهما ، و بين المعاني

(1) - عبد المالك مرتاض ، المرجع السابق ، ص 124 ، 125 ، 154 .

(\*) - روى احد أصدقائه الملازمين له في دمشق ، أنه في مرة من المرات لما ذهب معه في سيارة أجرة لأداء صلاة الجمعة بالقدس إنطلاقا من دمشق كعادته ، إستظهر خلال الرحلة كتاب " البيان و التبیین " للجاحظ كاملا ، حيث لم يستفق هو و السائق و إلا و هما أمام المسجد الأقصى .

(2) - محمد زغينة : المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية علماء المسلمين الجزائريين ( 1926م - 1953م )

، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2005م ، ص ص 80-81 .

و السمو بالأسلوب لأن شخصيته موسوعية مشدودة إلى الماضي مستغرقة في الأساليب التراثية بفعالية الحاضر )) .

و الواقع أن الإبراهيمي ، كان كثير الاجتهاد ، في البحث و التنقيب عن الألفاظ العربية المدفونة ، التي كادت أن تندثر نهائيا ، لإحيائها و إلباسها لباس العصر ، حتى تؤدي دورها الحضاري ، و تضمن وجودها إلى جانب اللغات العالمية (1) .

و من ناحية أخرى ، فقد أتاح لنا إطلاعنا على كتابات الشيخ البشير ، اكتشاف أنه كان ملما بثقافة و أفكار عصره ، و هو ما أكده نجله الدكتور " أحمد طالب " (2) ، الذي أورد أن والده كان يملك ثقافة عصرية وقف عليها بنفسه ، و حتى في تخصصات كانت في ذلك الوقت حكرًا على فئة قليلة جدا من الجزائريين ، ممن درس في المعاهد و الجامعات الفرنسية ، و منها علم النفس ، حيث كان له إطلاع واسع على آراء " وليام جيمس " ( WILIAM JAMES ) (\*) و " تشارلز داروين " ( CHARLES DARWIN ) (\*\*) و " جون ستيوارت ميل " ( JOHN STEWART MILL ) (\*\*\*) ... و غيرهم .

و تجدر الإشارة ، إلى أننا اعتمدنا في رسالتنا هاته بشكل خاص ، على آثار الإبراهيمي التي جمعها و قدمها نجله الدكتور " أحمد طالب " تحت عنوان : " آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي " ، في طبعة جديدة صدرت عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1997م ،

(1) - عبد الله حمادي : مساءلات في الفكر و الأدب (محاضرات) ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ، الجزائر : 1994 م ، ص 87 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 18 .

(\*) - " وليام جيمس " - WILIAM JAMES - ( 1842م - 1910م ) : فيلسوف أمريكي ، ولد في ولاية نيويورك ، يعد أحد مؤسسي مذهب " البراغماتية " القائل بأن الحقيقة لا قبعة لها ، إن لم يكن لها تأثير في الواقع . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - " تشارلز داروين " - CHARLES DARWIN - ( 1809م - 1882م ) : عالم طبيعة إنجليزي ، صاحب نظرية التطور في الأجناس الحية ، قال إن ذلك نتيجة " اختيار طبيعي " لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*) - " جون ستيوارت ميل " - JOHN STEWART MILL - ( 1806م - 1873م ) : فيلسوف و اقتصادي إنجليزي ، من أتباع المدرسة الإخبارية ، له كتاب في المنطق الاستدلالي و الإستنتاجي .

---

و جاءت في خمسة أجزاء ، ضمنها كتابات و دروس و محاضرات و أحاديث الشيخ من سنة 1929م و إلى غاية 1965 م . و قد تميزت هاته الطبعة عن سابقتها ، كونها تضمنت آثارا نشرت لأول مرة من جهة ، بالإضافة إلى مراعاة الجانب المنهجي فيها من جهة ثانية ، فاختص كل جزء بمرحلة زمنية محددة وضع لكل منها سياقها التاريخي ، مع إحالات و تعاليق عند الضرورة .

و في الأخير نصل إلى أن الإبراهيمي ؛ لم يشتغل بالكتابة و التأليف ، بسبب تفضيله للمصلحة العامة على حساب المصلحة الخاصة ، انطلاقا من اعتقاده أن خدمة الأمة تقتضي تقديم الأولى على الثانية ، أي التضحية بالطموحات الشخصية و نبذ الذات و الأنانية ، فأظهر بذلك استعداد كبيرا للعمل و النضال من أجل قضية بلاده العادلة ، و أستمروا على هذا النهج السليم حتى بعد أن استعادت البلاد حريتها ، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يركن إلى الراحة و الهدوء . و إذا كان هذا هو الحال بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، فإن الأمر اختلف مع الأمير شكيب أرسلان ، الذي استطاع أن يوفق بين النضال و النشاط السياسي و الإصلاحية و بين الكتابة و التأليف ، فخلف لنا رصيذا هائلا من الكتب و المؤلفات و الرسائل و المقالات ، التي تحدثنا عنها سالفنا .



## 1- أرسلان وفاته وآثاره :

تحققت للأمير أمنية الوفاة على أرض لبنان ، حيث عاد إليها سنة 1946م ، بعد أن انتظر طويلا لكي تتاح له الفرصة ويرفع عنه قرار الإبعاد ، ليزور بلده وعائلته وأصدقائه ، إذ ظل المسؤولون الفرنسيون متمسكين بإبقائه بعيدا عن المنطقة ، حتى لا يؤثر في سياستهم ومصالحهم في المشرق العربي . مما دفعه إلى اليأس والخشية من أن يموت في منفاه ، دون أن يحقق حلمه ذلك .

لكن الأقدار شاءت له أن يحقق حلمه ، بعد جلاء القوات الفرنسية وإعلان استقلال لبنان ، وفي ذلك قال (1) : (( أحمد الله عز وجل الذي سهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحببته . أنا سعيد أن أدفن في تربته الطاهرة التي لا تترف فوقها راية أجنبية )) . عاد بجسد سكينته أمراض وعلل عديدة ، منها : تصلب الشرايين وداء النقرس والحصى في الكليتين ، والزكام المزمن في شعاب الرئة ، وضيق التنفس والمثانة والتهاب العيون (2) ، لهذا نصحه الأطباء بالركون إلى الراحة والتقليل من الجهد ، والاعتكاف لوحده وملازمة سريره ، وعينوا له ممرضة تهتم به وتمنعه من الحركة ، لكنه غافلها ونزل من سريره فسقط أرضا وأصيب بشلل نصفي (3) ، جراء نزيف حاد في الدماغ أدخله في غيبوبة لمدة أربعة أيام ، انتهت بوفاته يوم 09 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1946م ، عن عمر يناهز السابعة والسبعين سنة ، وبعد أربعين يوما فقط من عودته إلى بلده لبنان (4) .

نقل جنمانه إلى " الجامع العمري " بيروت في موكب جنازتي حاشد ، وبعد الصلاة عليه استأنف الموكب الضخم السير إلى المتحف الوطني ، تتقدمه فرق الجيش والدرك ووفود الهيئات والطلاب ، ورئيس الجمهورية اللبنانية السيد " بشارة الخوري " (\*) ، الذي سبق للأمير شكيب

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 13 .

(2) - احمد الشرباصي : شكيب ارسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 48 .

(3) - سامي الدهان ، المرجع السابق ، ص 100 .

(4) - احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 94 .

(\*) - " بشارة الخوري " ( 1890م - 1964م ) : من مواليد " رشميا " ، ظل رئيسا للجمهورية اللبنانية من

1943م - 1952م ، حيث نالت البلاد استقلالها خلال فترة رئاسته . المنجد في اللغة والأعلام .

أن أنقذ والده " خليل الخوري " (\*\*\*) أثناء الحرب العالمية الأولى وأعادته من منفاه .  
ثم حمل إلى مسقط رأسه بـ : " الشويفات " ، حيث صلى عليه شيوخ عقل الدروز ،  
وأبنته ممثلو مناطق الجبل بحضور وفود اقصية " الشوف " و "المتن " و " كسروان " و " الجنوب " و " جبل الدروز " ، ليتم دفنه في قبر خاص قرب مدافن أسرته غير بعيد عن مسكنها (1) . بعد  
أن رثاه وأبنته صديقه الشاعر " خليل مطران " في قصيدة ، ضمنها حزنه وأساه على أفول شمس  
، ظلت تضيء فيما حولها لأكثر من نصف قرن (\*\*\*) .

وقد تلقى العالم العربي والإسلامي نبأ ، وفاة الأمير الذي ظل يدافع عن قضاياها إلى آخر  
أيامه بالحزن والأسى ، فظهر نبأ نعيه في أغلب الصحف ، التي سارعت إلى بيان سيرته  
ومواقفه ونضاله القومي ومكانته الأدبية والعلمية ، فجاء في جريدة " الكتلة القاهرية " : (( نعي  
إلينا مراسلنا من بيروت أمير البيان المغفور له شكيب أرسلان المجاهد العربي والعالم الفيلسوف  
والكاتب المفكر والمؤلف العظيم الذي عرفته الأمم العربية بطلا من أبطال الجهاد والعلم  
والعرفان )) (2) . أما جرائد " الحياة " و " نداء الوطن " و " البيرق " اللبنانية ، فقد وصفت شكيبا  
بأمير الفصاحة والبيان وبأبي العروبة ، وبأن وفاته هي : (( مصاب العروبة والأدب  
والشعر )) (3) . كما بادر أصدقاؤه ومحبه في جميع أنحاء العالم ، إلى تأليف اللجان لإقامة  
حفلات التأبين وبيان أعماله و مآثره ، وقد بادر صديقه " محمد علي الطاهر " (4) ، إلى جمع  
وتصنيف وطبع كل ما قيل وكتب حوا الأمير في حفلات التأبين ، وعلى صفحات الجرائد  
والمجلات في كتاب ضخم أسماه "ذكرى الأمير أرسلان " ، وتم طبعه في القاهرة سنة 1947م ،

(\*\*) - " خليل الخوري " ( 1836م - 1907م ) : أديب لبناني ، من مواليد " الشويفات " ، أسس جريدة " حديقة الأخبار " سنة 1858 وهي أولى الجرائد في بيروت ، أخوه " سليم الخوري " ( 1843م - 1875م ) ، أسس رفقة " سليم شحادة " : " مجموعة آثار الأدهار " . المنجد في اللغة والأعلام .

(1) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص ص 95 - 96 . نقلنا  
عن جريدة الأهرام ، عدد 11 ديسمبر 1946 .

(\*\*\*) - للإطلاع على القصيدة ينظر المرجع نفسه ، ص 97 .

(2) - محمد علي الطاهر ، المرجع السابق ، ص 10 .

(3) - المرجع نفسه ، ص 111 ، 119 ، 122 .

(4) - المرجع نفسه ، ص 111 و ما بعدها .

أرسل منه نسخة إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فشكره رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي ، وهناك على صنيعه اتجاه صديقه الأمير ، وطلب منه أن يؤلف كتابا بقلمه يحوي تاريخ الأمير ، وهو واجب يقع على كل من عرف الفقيد حسب الإبراهيمي .

وبوفاة الأمير شكيب أرسلان ، يسدل الستار على علم كبير من أعلام لبنان والعرب والمسلمين ، كرس جل جهده وطاقاته ، لخدمة القضية اللبنانية والسورية والقضايا العربية والإسلامية الكبرى ، عبر الخطابة والكتابة والصحافة ، والدبلوماسية والجهاد في جبهات القتال ، والمشاركة في المنتديات والمحافل الدولية . بل تعدى ذلك إلى الدفاع عن قضايا الشعوب المستضعفة والمحرومة في شتى بقاع العالم ، لأن قضاياها هي قضايا الشعوب العربية والإسلامية ، و مصيرها هو مصير واحد في نهاية المطاف ، وما ردود الأفعال المحلية والدولية عقب وفاته ، إلا دليلا قاطعا على تلك المكانة الرفيعة ، واعترافا بذلك الدور المتميز الذي لعبه . وقد حصل الأمر ذاته مع الشيخ البشير الإبراهيمي ، كما سبق سنبرزه في هذا المبحث أيضا .

أما بالنسبة لآثاره ، فقد خلف لنا الأمير شكيب ، عددا كبيرا من المؤلفات في مجالات الشعر والأدب واللغة والفكر ، والتراث والترجمة والتاريخ والاجتماع والسياسة والسيرة ، عرف كثير منها طريقه إلى النشر ، وبقي جانب آخر مخطوطا أو مفقودا . وكما هائلا من المقالات الصحفية تعد بالمئات ، نشرها في المجالات والجرائد الرائدة في تلك الفترة ، في المشرق العربي وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية . زد على ذلك آلاف الرسائل الشخصية ، التي كان يتبادلها مع كبار أعلام عصره ، من رجالات الفكر والأدب والسياسة والصحافة .

كما أنه كان من المتابعين ، لكل ما ينشر في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وفي الدول الأوروبية وحتى الأمريكية ، من مؤلفات وإصدارات ومقالات ، بالتعليق أو النقد أو الترجمة ، ساعده في ذلك ثقافته الموسوعية ، وإجادته للغة الفرنسية والتركية والإنجليزية وجانبا من الألمانية .

أولا المؤلفات المنشورة :

- ديوانه الشعري : " الباكورة " : طبع أول مرة سنة 1887م ، احتوى على قصائد شعرية شملت مختلف الأغراض الشعرية المعروفة : كالمساجلات الشعرية التي كانت بينه وبين معاصريه من الشعراء ، وهي عبارة عن مناظرات ورسائل تهنئة ومداعبات شعرية ، الغرض منها التلاعب بالألفاظ وإظهار المهارة البلاغية والبيانية . بالإضافة إلى قصائد في المدح ، وأخرى في وصف الأماكن والمواقع ، التي زارها في رحلاته إلى البلاد العربية و الإسلامية .

- " الدرة اليتيمة لابن المقفع " : قام بتحقيقها وتصحيحها ، طبعت سنة 1893م بالمطبعة الأدبية ببيروت ، ثم بمطبعتي الجامعة سنة 1897م والقاهرة سنة 1910م ، جاءت في مائة وعشر صفحات .

- " المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي إبراهيم بن هلال ابن زهرون الصابي " : قام بتتقيقه والتعليق على حواشيه ، وهو كتاب حفل بيبليوغرافيا الكلام وفريد الحكم والنكت والأخبار . وإبراهيم الصابي هو من أبرع أهل العراق بلاغة ، كرس حياته في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء حتى وهو في سن التسعين . من مؤلفاته كتاب " التاجي " نسبة إلى " تاج الملة " أحد ألقاب " " عضد الدولة " (\*) ، وصف من بين : (( كتاب الدنيا وبلغاء العصر )) (\*\*).

- " آخر بني سراج " : رواية من تأليف الكاتب الفرنسي الشهير " دوشاتو بريان " ، عربها الأمير وأضاف إليها ملحقا من ثلاثة أقسام ، تحوي خلاصة لتاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة (\*\*\*) .

(\*)- " عضد الدولة " ( فناخسرو ) ( ت سنة 983 م ) : من أعظم ملوك بني بويه ، إبن ركن الدين الدولة ، قرّب إليه العلماء والآباء واحسن رعايتهم ، قام الممتني بمدحه ، أنشأ البيمارستان العضدي في بغداد ، استوزر الصحاب بن عباد ، من أثاره " بند أمير " بشيراز ، المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*) - ظهرت طبعة حديثة لهذا الكتاب ، بدون تاريخ ، طبع دار النهضة الحديثة ، بيروت .

(\*\*\*) - ظهرت الطبعة الأولى منها سنة 1897م ، عن مطبعة الأهرام بالإسكندرية ، ثم الثانية سنة 1924م بمطبعة المنار . تروي حكاية فتاة تونسية من أصل أندلسي زار غرناطة ، لإستكشاف موطن أجداده ، وبينما هو يتجول في شوارعها لمح فتاة اسبانية فأحبها حبا عظيما وتزوجها ، لكنه تبين له فيما بعد أنها من سلالة " آل بيغار " الذين فتكوا بأجداده ، ولذلك آثر الأمير نقلها إلى العربية .

- كتاب : " تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط " : تحدث فيه عن رحلته إلى إسبانيا سنة 1930م قادما من باريس ، بغرض تتبع واستقصاء أخبار وأيام العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، والوقوف على آثارهم .
- كتاب " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ " : عبارة عن رسالة كتبها في ثلاثة أيام ، بطلب من الشيخ " أحمد بسيوني " الذي اقترح عليه أن يبين لقراء " جريدة المنار " ، الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ضعف المسلمين وانحطاطهم من جهة ، وورقي وازدهار الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان من جهة أخرى . وما إذا كان في إمكان المسلمين تدارك الأمر ، ومنافسة تلك الدول حضاريا ، مع احتفاظهم بكامل هويتهم وشخصيتهم (\*) .
- كتاب " أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر " : مخطوطة مجهولة المؤلف ، قام بنشرها بعد أن عثر على نسختها الوحيدة في العالم ، تصف سقوط غرناطة وآخر عهود العرب والأندلس ، صاحبها مؤرخ عاصر الأحداث .
- كتاب " محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر الأوزاعي " : الإمام الأوزاعي هو أحمد بن محمد الموصلي الدمشقي ، المتوفى سنة 780 هجرية .
- ديوان " روض الشقيق في الجزل الرقيق " : هو ديوان شقيقه الأمير " نسيب أرسلان " ، قام بإخراجه و تحقيقه و التعليق عليه بعد أن جمع أشعاره ، نشره في دمشق سنة 1925م بمطبعة إبن زيدون .
- كتاب " تعليقات على تاريخ إبن خلدون " : طبع في القاهرة سنة 1936م ، بلغت تعليقات الأمير فيه حوالي أربعمئة صفحة ، يعد من أهم المصادر عن تاريخ الأتراك العثمانيين ، فهو شاهد عيان على تلك المرحلة .
- كتاب " أناطول فرانس في مبادئه " لجان جاك بروسون : ترجمه إعجابا بشخصية أناطول فرانس الغربية ، التي نسج على منوالها أدباء و منهم عرب (\*\* ) .

(\*) - تكفلت بنشره " جريدة المنار " ، ثم طبع بعد ذلك في كتيب صغير سنة 1940م ، لقي صدى حسنا في العالمين العربي والإسلامي ، لما احتواه من دقة في وصف علل المسلمين وسبل علاجها . أما الطبعة التي اعتمدنا عليها في رسالتنا هاته ، فقد صدرت عن مطبعة رحاب بالجزائر سنة 1989م .

(\*\*) - حذف منه الأمير بعض الألفاظ والعبارات التي أوردها " بروسون " ، حول مجون أستاذه واستهتاره ، متهما إياه بخبث النية في فضح أستاذه .

- كتاب " الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف " أو " الرحلة الحجازية " :  
 كتاب وصف فيه مشاهداته أثناء رحلته لأداء مناسك الحج .
- كتاب " الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية " : موسوعة كبرى تتألف من خرائط  
 جغرافية ، و صوراً تشكيلية للأماكن و المواقع و المدن .
- كتاب " خلاصة تاريخ الأندلس " : خصصه للحديث ، عن الجوانب المجهولة من تاريخ  
 الأندلس ، التي تناولها بالكتابة المعاصرون والذين جاءوا من بعدهم .
- كتاب " حاضر العالم الإسلامي " (\*) للكاتب الأمريكي " لوثرود ستودارد " ( 1883م -  
 1950م ) ( LOTHROP STODARD ) : عربيه الأستاذ عجاج نويهض ، أما الأمير فقد  
 كتب في مقدمته وحواشي وتعليقات بلغت أربعة أضعاف النسخة الأصلية ، حتى أصبح يعرف  
 بالأمير وليس بكتابه الأصلي . يعد هذا الكتاب موسوعة جغرافية وتاريخية وإحصائية عن  
 مختلف الأقطار الإسلامية ؛ وخاصة النائية منها في ذلك العصر ، إضافة إلى مباحث سياسية  
 وتراجم وأخبار ، تحرى فيها صاحبها النزاهة والموضوعية في نقلها واستعراضها .
- كتاب " أعمال الوفد السوري الفلسطيني " : ضمنه البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها  
 الأمير ، وشاركه في وضعها أصدقاؤه " إحسان الجابري " و " ميشيل لطف الله " و " سليمان  
 كنعان " ، طبع سنة 1923م بالمطبعة السلفية بمصر .
- كتاب " مظفر باشا " : ينسب للأمير ، هاجم فيه مظفر باشا الذي ظل متصرفاً على لبنان سبع  
 سنوات ( 1902م - 1909م ) ، عامل خلالها عائلة أرسلان بقسوة ، وتسبب في استقالة الأمير  
 من منصب القائم مقامية .
- كتاب " غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواي بيمونت وسويسرا في القرن  
 الثامن عشر والتاسع عشر بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين " ، للمستشرق  
 الفرنسي الشهير " المسيو رينو " ( 1795م - 1867م ) ، ترجمه الأمير عن نسخة نادرة أضاف  
 إليها تعريفات للأعلام النادرة فيها ، وقد قدم الأمير بهذه النسخة خدمة عظيمة للمكتبة العربية

(\*) - عنوانه الأصلي هو : ( The new world of Islam ) ، العالم الإسلامي الجديد .

- كتاب آثار تاريخية سلطانية : أربعة كتب صدرت عن أبي الحسن علي ابن أبي النصر ابن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة ، حققها الأمير ونشرها في الأهرام سنة 1897م والمنار سنة 1925م .
- كتاب " السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة " : ضمنه كل ما كان بينهما من مراسلات وكتابات وإتصالات طيلة أربعين سنة ، قامت بطبعه مطبعة " ابن زيدون " بدمشق سنة 1937م ، وهو كتب ضخم .
- كتاب " شوقي أو صداقة أربعين عاما " : ضمنه أيضا كل ما كان بينه وبين أمير الشعراء " أحمد شوقي " ، من رسائل وكتابات وإتصالات ولقاءات خلال صداقتهما التي امتدت لأربعين عاما ، طبعته مطبعة " عيسى بابي الحلبي " سنة 1936م .
- كتاب " رسالة البلاشفة " و " رسالة رحلة إلى ألمانيا " : لم يعثر عليهما لغاية الآن ، رغم ورودهما في أكثر من مصدر (\*) .

#### ثانيا : مخطوطات غير منشورة :

- عددها أربعة وعشرون مخطوطا ، يوجد أغلبها حسب الدكتور " سعود المولى " <sup>(1)</sup> ، الذي قام بإعداد وتقديم كتاب " شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام " ، في المكتبة الخاصة بالملك المغربي الراحل " الحسن الثاني " (1929م-1999م) .
- " بيوتات العرب في لبنان " .
- " البيان عما شهدت بالعيان " ( قد تكون مشاهداته خلال الحرب العالمية الأولى ) .
- " تاريخ بلاد الجزائر " (\*\*)
- " ما لم يرد في متون اللغة " .
- " حيات شكيب بقلمه " (\*\*\*) .

(\*) - يرجح الدكتور " سعود المولى " ، أن تكون أجزاء من الرسالة الأولى لم تطبع بعد ، أو أنها قد ضاعت. ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص 175 .

(<sup>1</sup>) - المصدر نفسه ، ص ص 177-178 .

(\*\*) - لسنا ندري ، إن كان ذلك الكتاب حول الجزائر .

(\*\*\*) - كتاب " حياة شكيب بقلمه " : قد يكون كتابه : " شكيب أرسلان سيرة ذاتية " ، الذي نشر حديثا ، واعتمدنا عليه في أطروحتنا هذه .

- " بحث عن طرابلس وبرقة " .
- " الحلة السندسية في الأخبار البوسنية " .
- " إختلاف العلم والدين " .
- " مدنية العرب " .
- " الجيش المعبأ في تاريخ أوروبا " ( ربما أثناء الحرب العالمية الأولى ) .
- " قضيتين مع سمو الخديوي " ( قد يكون الخديوي عباس ) .
- " تاريخ لبنان " .
- " التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف السنوسي " .
- " إصلاح العامية " .
- " الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين والوحدة الإسلامية وما جنته على المسلمين " .
- " قطف العسلوج في وصف الماء المثلوج بجوار البيت المحجوج " .
- " الحجر الكريم فيمن ولد من الماء بثرير " .
- " الديانة في ألمانيا " .
- " سيرة صلاح الدين الأيوبي " .
- " العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز الثمانين " .
- " الإسلام في المستعمرات الأوروبية " .
- " الحرب العالمية الأولى " .
- " دليل العالم الإسلامي " .
- " الجزء الثاني من رسائل أبي إسحاق الصابي " (\*) .

### ثالثا : المقالات :

كتب الأمير عددا لا يحصى من المقالات ، في مجلات وجرائد عربية وغير عربية ، في الفترة الممتدة من سنة 1887م و الى غاية 1946م تاريخ وفاته ، نورد فيما يلي أهمها وتاريخ كتابة الأمير فيها :

- " الأهرام " ، القاهرة ، 1887م - 1900م .

(\*) - تحدثنا عن الجزء الأول منه ، ضمن مؤلفات الأمير المنشورة .



- " المقتطف " ، القاهرة ، 1900م - 1940م .
- " المؤيد " ، القاهرة ، 1911م - 1912م .
- " المقتبس " ، دمشق ، 1906م - 1913م .
- " الشرق " ، دمشق ، 1914م - 1915م .
- " المنار " ، القاهرة ، 1912م - 1914م .
- " الرأي العام " ، بيروت ، 1913م - 1914م .
- " الإصلاح " ، بيروت ، 1912م - 1914م .
- " مجلة المجمع العربي " ، دمشق ، 1924م - 1931م .
- " الزهراء " ، القاهرة ، 1923م - 1927م .
- " الفتح " ، القاهرة ، 1926م - 1936م .
- " الشورى " ، القاهرة ، 1924م - 1930م .
- " الشباب " ، القاهرة ، 1936م - 1939م .
- " العلم العربي " ، الأرجنتين ، 1939م - 1946م .
- " الإستقلال " ، الأرجنتين ، 1940م - 1946م .
- جرائد أخرى مثل : " الأخبار " و " الجهاد " و " الاخوان المسلمين " و " كوكب الشرق " و " منبر الشرق " و " الأسبوع " ( مصر ) ، " الشهاب " ( الجزائر ) ، " لاترويين دو لوريون " ( نيويورك ) ، " غلاسنيق " ( يوغوسلافيا ) ، " الوحدة " و " الدفاع " و " الجامعة الإسلامية " و " العرب " و " الجامعة العربية " ( فلسطين ) ، " الصفاء " و " الأديب " ( لبنان ) ، " المنار " و " الجبل " و " فتى العرب " و " ألف باء " ( سوريا ) ، " السجل " و " البلاد " ( العراق ) ، " العرب " ( الهند ) ، " برقة الجديدة " ( ليبيا ) ، " العلم " ( المغرب ) ، " الحرية " ( تطوان ) ... وغيرها (1) .

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة والإسلام ، مصدر سابق ، ص 178 ، 179 ، 180 .

**رابعاً : الرسائل الشخصية :**

تروي السيدة " سليمة " زوجة الأمير ، أنه كان يقرأ أو يكتب كل يوم ثلاثة عشر ساعة ، الأمر الذي جعل أولاده لا يستفيدون من مساعدته لهم في دراستهم ، أو بالجلوس معه أو الحديث إليه ، وفي ذلك أيضاً ذكر بنفسه لأحد أصدقائه أنه خلال سنة 1935م كتب ألفاً وسبعمائة وإحدى وثمانين رسالة شخصية ، ومائة وستة وسبعين مقالا وقصيدتين ومقطوعة وحرر كتابا عن " أحمد شوقي " في ثلاثمائة وخمسين صفحة ، وحواشي " لابن خلدون " في خمسمائة وستين صفحة ، وذيول ديوان أخيه نسيب " روض الشقيق " مع ترجمة له ولنسب العائلة . كما كتب قسماً هاماً من الجزء الأول من كتاب حول الأندلس ، وعلق على ديوانه الشعري ، وتبعه بترجمة كتاب " ليفي بروفنسال " الذي سبقت الإشارة إليه آنفا .

ويرى الدكتور سعود المولى <sup>(1)</sup> ، أنه إذا كان الأمير قد كتب خلال سنة واحدة هذا الكم الهائل من الرسائل ، فإنه بلا شك قد كتب عشرات الآلاف من الرسائل طوال مسيرته الحياتية ، موزعة لدى أقربائه وأصدقائه من الشعراء والأدباء والمفكرين والعلماء والساسة والأعيان (\*) ، بادر مؤخراً بعض المؤلفين والكتاب إلى جمعها وتصنيفها وطبعها في مؤلفات ، مثل كتاب " رسائل الأمير شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر " لأحمد نجيب البعيني <sup>(2)</sup> ، وكتاب " نضالنا " القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة " الذي نشره " الطيب بنونة " بالمغرب سنة 1986م <sup>(3)</sup> ، وكتاب " وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب " الذي أصدره وعلق عليه محمد ابن عزوز الحكيم سنة 1980م بالمغرب <sup>(4)</sup> .

(1) - ينظر سعيد المولى ، المرجع السابق .

(\*) - من أشهرهم وأبرزهم : الحاج أمين الحسيني ، محمد علي الطاهر ، رشيد رضا ، محب الدين الخطيب ، أحمد شوقي ، محمود سامي البارودي ، بشارة الخوري ، خليل مطران ، عبد الرحمان عزام ، إحسان الجابري ، شكري القوتلي ، فارس الخوري ، الملك فيصل الأول ، الحبيب بورقيبة ، الملك عبد العزيز آل سعود ، مصالي الحاج ، علاء الفاسي ، الفضيل الورثياني ... وغيرهم .

(2) - ينظر نجيب البعيني ، المصدر السابق .

(3) - ينظر الطيب بنونة ، المصدر السابق .

(4) - ينظر ابن عزوز الحكيم : وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب ، د ط ، مطابع الشويخ ، تطوان ، المغرب : 1980م .

ويذكر الطيب بنونة<sup>(1)</sup> : أن الأمير كان من كثرة الكتابة يشعر بحروق في عينيه ، فيقوم بغسلهما بأحد المحاليل ، وحينما يشتد عليه المرض يتوقف عن الكتابة لأيام ، ويكتفي بالإملاء على غيره دون رغبة منه ، لأنه يفضل دائما أن يكتب رسائله ومقالاته بنفسه . أما الخط الذي يكتب به فهو خط النسخ ، مع الميل إلى خط الرقعة في بعض الحروف ، ويتميز بصفة عامة بالأناقة والوضوح .

ومنه نصل إلى أن الأمير شكيب أرسلان ، يعد بحق موسوعة علمية وفكرية ، في شتى العلوم والتخصصات ، حيث لم يترك مجالا إلا وكتب فيه ، معتمدا على ما قرأه واطلع عليه من أبحاث ودراسات سابقة . ونحن نقرأ مؤلفاته ، تبين لنا أنه ملم بكل ما كان يصدر في البلاد العربية والإسلامية ، وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية ، الأمر الذي أعطى لكتاباتته تلك بعدا موسوعيا ، وحتى الكتب التي حققها وعلق عليها، أصبحت تعرف باسمه لا باسم مؤلفيها الأصليين ، لكثرة الحواشي والتعليقات التي أضافها عليها. ولعل ما أعطى مصداقية أكثر، لما كتبه الأمير خاصة في المجالات الجغرافية والتاريخية ، هو زيارته لتلك الأماكن والبلدان محور البحث والدراسة ، مثلما حدث بالنسبة لموسوعة " الحل السندسية في الأخبار الأندلسية " ، حيث زار كل مناطق الأندلس ووقف على آثارها ومعالمها بنفسه .

و بالنظر إلى ما جاء في هذا المبحث ، يتضح لنا أنه بوفاة الأمير شكيب أرسلان و الشيخ البشير الإبراهيمي ، يكون العالم العربي و الإسلامي قد خسر فعلا ، قطبان من كبار أقطاب الفكر و الثقافة و الأدب و الإصلاح ، حيث أشارت إلى ذلك أغلب ردود الفعل مباشرة بعد إعلان وفاتهما . فقد كرسا حياتهما و جهودهما لخدمة القضايا الكبرى لبلديهما لبنان و الجزائر على التوالي ، و لأمتهم العربية و الإسلامية ، دون أن يغفلا حتى القضايا الإنسانية المشتركة ، بفضل تنشئتهما الممتازة و تكوينهما الديني و العلمي السليم ، اللذان أهلاههما للقيام بمثل هذه المهمة الصعبة على أحسن وجه .

(1) - ينظر الطيب بنونة ، المصدر السابق .

لقد اضطلع الإبراهيمي و أرسلان للقيام بثلاثة مهام أساسية : فالأولى تتمثل في مقاومة الاستعمار الفرنسي الذي بسط سيطرته على بلديهما ، منتهجا سياسة القمع و التجهيل و الإفكار و لو بدرجات متفاوتة من بلد لآخر ، حيث كان الأمر أكثر سوء بالنسبة للجزائر ، مما جعلهما هدفا له . و قد رأينا كيف تعامل معهما : الاعتقال و النفي و السجن بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، و الإبعاد و المطاردة في كل مكان بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، لكنهما استماتا في ذلك إلى أن تحصل بلداهما على استقلالهما و سيادتهما التامتين : لبنان سنة 1946م و الجزائر 1962م .

أما المهمة الثانية ، فتمثلت في الدفاع عن قضايا العرب و المسلمين ، و التي يمكن أن نصنفها إلى قضايا حضارية كالتخلف و أسبابه و النهضة و شروطها و المدنية الإسلامية و أصلاتها ، و قضايا سياسية و منها القضية الفلسطينية و الوحدة العربية و الجامعة الإسلامية ... و غيرها . و أغلب هذه القضايا هي محور دراستنا هاته .

أما المهمة الثالثة ، فهي الاشتغال بالكتابة و التأليف ، من أجل تنمية الرصيد الفكري و الأدبي و العلمي للأمة ، و في هذه وجدنا حظ الشيخ البشير الإبراهيمي قليلا جدا للأسباب التي أوردناها بنفسه و استعرضناها في بداية هذا المبحث . و رغم ذلك فإن ما خلفه لنا من الآثار التي عرفت طريقها إلى النشر ، و إن كانت لا تعكس منزلته الأدبية و الفكرية و العلمية ، فإنها كافية حسبنا لكي نسلط الضوء من خلالها على آرائه و أفكاره و اجتهاداته ، في ميادين الدين و الأدب و اللغة العربية و الاجتماع و الأخلاق و السياسة .

لكن الأمر اختلف بالنسبة للأمير شكيب ، الذي استطاع أن يوفق بشكل مذهل بين النضال ، و بين الكتابة و البحث و التقريب ، فخلف لنا رصيда معرفيا و أدبيا و فكريا يصعب حصره ، و قلما نجده لدى غيره من الأعلام بمثل ذلك التنوع و التوسع ، و الأسلوب في الكتابة الذي يعتمد على المزج بين القديم و الحديث .

و نعتقد أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، كان يملك القدرات الفكرية و العلمية و الذهنية ذاتها التي كان يملكها الأمير ، و التي كانت ستجعل إنتاجه الفكري و العلمي غزيرا مثل إنتاج الأمير ، لو لا اضطلاعه بالقضية الجزائرية التي اختلفت عن القضية اللبنانية من حيث الظروف

والملايسات هذه من جهة ، و لتكريسه لجل أوقاته لإدارة شؤون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لما للعمل الإداري من دور سلبي في هذا الجانب ، لكونه يستنزف طاقات الفرد و يسلبه حرية النشاط و الحركة و المبادرة من جهة أخرى .

و لذلك وجدنا الأمير شكيبا ، يستقيل من المناصب الإدارية المغربية التي منحت له أيام الحكم العثماني للبنان ، لأنه أدرك في وقت مبكر أن الحرية و الاستقلالية شرطان أساسيان ، ينبغي توفرهما في كل من يدافع عن فكرة جريئة أو يتبنى قضية عادلة ، أو يسعى لتحقيق مشروع حضاري طموح .

و مهما يكن ، فإن ما خلفه لنا الإبراهيمي و أرسلان من كتابات و نصوص ، هي فضلا عن قيمتها الأدبية و الفكرية و العلمية ، فإنها ذات قيمة تاريخية كبيرة ، لأنها تؤرخ أولا للبيئة الاجتماعية و السياسية و الثقافية التي ولدا و ناضلا فيها ، و للعصر الذي عاشاه الحافل بالأحداث الكبرى على الساحتين العربية الإسلامية و الدولية على حد سواء . و قد شكلت لنا مصدرا أساسيا ، في إبراز أرائهما و مواقفهما من قضايا العرب و المسلمين الكبرى : السياسية و الحضارية ، التي سنتطرق إليها في هذه الدراسة بالنقاش و التحليل و المقارنة ، عبر الفصول الأربعة الموالية .

**خاتمة الفصل :**

نستخلص مما تقدم ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان حتى وإن ولدا في تاريخين مختلفين : سنة 1869م بالنسبة للأول وسنة 1889م بالنسبة للثاني ، إلا أنهما انتميا إلى الجيل ذاته مولدا ، وظروفا سياسية تتمثل في اشتداد الهجوم الاستعماري على المشرق العربي الذي يشكل لبنان جزءا منه ، وحضارية وتتمثل في الانحطاط والتخلف الشاملين اللذان كانت تغرق فيهما البلاد العربية والإسلامية ؛ في مقابل القفزة الكبيرة التي خطتها الدول الأوروبية في مدارج العصرية والتفوق التكنولوجي .

وولدا أيضا، في كنف عائلتين عريقتين نسبا وتاريخا ومكانة اجتماعية ، وهو ما هيا لهما الظروف المناسبة ، لكي ينشأ نشأة تربوية وسلوكية وعلمية ممتازة . فقد كان الإبراهيمي محظوظا لما انحدر من عائلة جزائرية كبيرة ، اشتهرت بالعلم وتعليمه لكل من يطلبه من مختلف أنحاء الوطن ، إذ سمح له ذلك بتلقي شتى العلوم الدينية والدينية في ظرف وجيز ، وسنه لم يتجاوز الرابع عشرة بعد ، وهو الدور الذي اضطلعت به العائلات الجزائرية الكبرى في مختلف أنحاء البلاد وخاصة الريفية منها .

لقد كان لتلك العائلات الفضل الكبير ، في المحافظة على هذا التعليم التقليدي ، الذي يقوم أساسا على تدريس اللغة العربية وعلومها ، وتحفيظ القرآن مع تفسيره ، إضافة إلى العلوم الدينية الأخرى : كالفقه والأصول والحديث والسيرة النبوية ... الخ ، مع شيء من علوم العصر : كالحساب والجغرافيا والفلك ... الخ . في الوقت الذي كانت فيه سلطات الاحتلال ، تحارب هذا النوع من التعليم وتقاومه بكل الوسائل والطرق ، رغم طابعه التقليدي ، لأنها كانت ترى فيه أفضل إطار يحفظ مقومات الشخصية الجزائرية من الاندثار والزوال ؛ وهي العروبة والإسلام وأخلاقه السامية . فرغم الاضطهاد وسياسة التجهيل الشاملة المنتهجة من فرنسا ، والتي أدت إلى تناقص عدد المتعلمين بشكل كبير ، والانتشار الواسع للأمية والجهل ، إلا أن العائلات الجزائرية الكبرى خاصة في الريف ، ظلت تمد المجتمع الجزائري بالإطارات التي يحتاج إليها خاصة في الميدانين التربوي والديني .

أما عائلة شكيب أرسلان ، وإن كانت من بين العائلات الأرستقراطية المثقفة ليس في لبنان فحسب بل في الشام ككل ، فإنها مع ذلك لم تتمتع بالمكانة العلمية السالفة الذكر التي تمتعت بها عائلة الإبراهيمي ، وقد عوضت هذا النقص بما تحوزه من مداخيل و ثروات ، كانت تستثمر جانبا منها في تعليم أبنائها ؛ بجلب أشهر علماء المنطقة إلى مقر إقامتها لكي ينشئوا نشأة علمية وتربوية متينة على أيديهم ، وبتوجيههم للالتحاق بأكبر المؤسسات التعليمية في المشرق العربي ، التي تستقبل أبناء العائلات والأسر الميسورة فقط ، نظرا لارتفاع التكاليف التي تفرضها على طلبتها ولنوعية التعليم الراقى الذي كانت تقدمه لهم . فقد لاحظنا أن أكبر علماء لبنان والشام ومصر ، كانوا رهن إشارة أبناء عائلة أرسلان وخصوصا الأمير شكيب وشقيقه نسيب ، بل لمسنا في المراجع التي اطلعنا عليها ، أن تنافسا كان حاصلا بينهم لنيل تلك الخطوة ، وطبعا السبب في ذلك هو الأجور والعطايا التي كانت تغدقها عليهم ، والمكانة الاجتماعية والسياسية الكبيرة التي كانت تحتلها في البلاد والمنطقة ، وحتى لدى السلاطين العثمانيين .

وعليه فإن التعليم الراقى حتى في لبنان ، لم يكن متاحا لكل أبناء العائلات اللبنانية ، بغض النظر عن مركزها الاجتماعي والسياسي ، بل كان حكرا على الأرستقراطيات المحلية التي انفردت بتلك الميزة عبر عدة أجيال . بينما لاحظنا أن ذلك النوع من التعليم ، كان يقدم في الجزائر بدون مقابل أي مجانا ، حيث تتولى تلك الزعامات العلمية ، جلب أحسن المعلمين والعلماء إلى مراكزها التعليمية ، وتقديم أفضل الأجور والظروف الاجتماعية لهم ، زيادة على التكفل التام بكل مصاريف تدرس وإقامة التلاميذ والطلبة ، حتى ينهوا تعليمهم ويتخرجون وهم جاهزون ليصبحوا علماء أو معلمين ، يساهمون في كسر طوق الجهل والأمية التي ضربته فرنسا الاستعمارية على الجزائر ، بل أن منهم من كان يتلقى مساعدات مالية في شكل منح من حين لآخر ، يستغلها في شراء ما ينقصه من مستلزمات ، أو يبعث بها إلى أسرته الفقيرة بطبيعة الحال . كل ذلك بفضل الأملاك الوقفية والخيرية المنتشرة في كامل أنحاء البلاد ، والتبرعات المالية والعينية التي كانت تجمع وتوجه إلى تلك المراكز التعليمية ، لكي تخفف عنها أعباء المهمة ، وتضمن استمرارها في النشاط والتطور .

ورغم ذلك ؛ كانت تلك الخدمات التعليمية محدودة ، بالمقارنة مع الآفاق العلمية الرحبة ، التي انفتحت في ذلك العصر ، فكان على أبناء الجزائريين : إما الاكتفاء بالنزر القليل من العلم ، الذي كانوا يحصلون عليه في داخل البلاد وفي كنف العائلات الكبرى ، وإما ترك البلاد وشد الرحال إلى المراكز العلمية الكبرى في المغرب و المشرق العربيين ، أو في العالم الإسلامي . وهو ما قام به الشيخ الإبراهيمي ، الذي لم يستطع أن يقاوم شغفه بالعلم والمعرفة والإصلاح ، الذي دفعه إلى أن يهاجر المشرق العربي سنة 1911م ، مع العلم أن هذا الاختيار لم يكن في متناول الجميع ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا . وهو الأمر الذي قام به الأمير شكيب ، الذي هاجر إلى سوريا ولبنان ، بحثا عن بيئة علمية وثقافية أفضل وأرقى ، مع فارق في كون الإبراهيمي اخذ طريقه باتجاه المشرق العربي ، في رحلة أشبه بالمغامرة المحفوفة بالمخاطر لأسباب مادية وأمنية ، في حين أشرفت عائلة شكيب بنفسها على كل مراحل رحلته وتفاصيلها ، وطيلة إقامته التي كانت مريحة جدا بمعية شقيقه " نسيب " . وهو ما لم يكن متوفرا لمحمد البشير ، الذي تدبر أمر نفسه بنفسه .

ومهما يكن فإن هجرة الإبراهيمي وأرسلان خارج بلديهما ، وهما لا يزالان شابان يافعان ، قد مثلت مرحلة خصبة وهامة في حياتهما ؛ إذ فتحت أمامهما أبواب الإطلاع والاستزادة من مختلف العلوم ، والاحتكاك بحياة الشعوب العربية والإسلامية خارج الجزائر ولبنان ، بعيدا عن جو عدم الاستقرار السياسي بالنسبة لشكيب ، ورقابة الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالنسبة للشيخ البشير ، فتمكنا من أن يجدا ضالتهما فيما هاجرا إليه .

ولم تكن في الحقيقة تلك الهجرة ، ذات فائدة لهما في التحصيل العلمي والمعرفي فحسب ؛ بل مكنتهما من اكتساب ثقافة سياسية معتبرة ، حصلا عليها من خلال مشاركتهما في العديد من النشاطات السياسية التي شهدها المشرق العربي آنذاك ، والشيء نفسه كان يحدث مع اللبنانيين والجزائريين الذين كانوا يهاجرون إلى المنطقة للغرض ذاته .

ولعل ما يؤكد إيجابيات تلك الهجرة ؛ عودة الإبراهيمي من المشرق العربي ، الذي ذهب إليه طالبا للعلم ، وهو يحمل مشروعا تربويا وإصلاحيا وسياسيا طموحا ، اتفق عليه مع الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " . ومن هنا يتضح لنا الدور الكبير الذي لعبه المشرق العربي ، في



الحركة التربوية والإصلاحية والنهضة السياسية ، اللتان عرفتهما الجزائر مع نهاية الحرب الكونية الأولى ، و كان لهما الفضل في مقاومة السياسة الاستعمارية ، التي رمت إلى تجهيل الشعب الجزائري ، وتشويه عقيدته، وتزوير تاريخه وهويته ، حتى يتسنى لفرنسا أن تتحكم في حاضره ومستقبله .

وفي المقابل من ذلك ، فتحت تلك الهجرة أعين الرجلين على الواقع العربي والإسلامي ، المتسم بالتخلف الشديد والانحطاط الفظيع ، وعلى المخططات الاستعمارية التي كانت تحيكها ضده الدول الأوروبية الكبرى ، وسمحت لهما ببلورة فكرهما السياسي في هذه النقطة بالذات ، خاصة بالنسبة لشكيب الذي كانت تشغله القضايا القومية الكبرى بالدرجة الأولى ، لأنه كان يرى أن حماية لبنان والشام لن تكون ذات جدوى ، إذا لم يكن هنالك تكاتف وتآزر في محاربة الاستعمار ودسائسه ، في كل قطر عربي وإسلامي بل وفي غيرهما . في حين كان الإبراهيمي يقدم القضية الوطنية الجزائرية عن القضايا القومية ، مبررا موقفه هذا ، بكون أن ظروف البلاد العربية والإسلامية الأخرى ، ليست هي التي كانت تحياها الجزائر في تلك الأثناء ، حيث كانت فريسة لاستعمار يكاد أن يحولها إلى أرض مسيحية قلبا وقالبا ، وبالتالي فإن أي استمرار في التقاعس أو التردد عن إنقاذها ، يعني بالنسبة إليه ضياعها نهائيا من الخارطة العربية والإسلامية ، وستصبح أثرا بعد عين ، وخير مثال على ذلك ما حصل للأندلس .

اشترك الإبراهيمي والأمير ؛ في نظرتهم " الراديكالية " التي تمقت الاستعمار عامة والفرنسي خاصة ، وتتعدى ذلك إلى محاربتة ومقاومته فكريا وثقافيا وسياسيا ، ولعل تميز أرسلان عن الإبراهيمي كونه انضم إلى الجهاد المسلح ضده في ليبيا والبلقان . كما كشفنا عن وعي سياسي كبير في التعامل مع محاولاته لتدجينهما ، بمحاولته إقناعهما للعمل لصالحه ، أو على الأقل بتحييد دورهما . رغم الإغراءات الهامة التي كانت ستغدقها فرنسا عليهما ، لو أنهما استجابا لتلك المحاولات ، وانضما إلى قافلة المثقفين والمفكرين والمصلحين والسياسيين ، الذين كانت فرنسا تشتري ذممهم وفي أسوء الحالات صمتمهم . وقد أجهروا برفضهما لذلك الاستدراج المسموم صراحة ، ولم يتركا للإدارة أو السلطات الفرنسية أية فرصة لتوريطهما . وهو الذي كان يغضبها ويدفعها إلى الانتقام منهما أو ردعهما .

لقد أدركا بفضل نضجهما السياسي الذي اكتسباه مبكرا ، بفضل احتكاكهما واطلاعهما الواسع ، أن الاستعمار يسعى لبسط سيطرته على كل العالم العربي والإسلامي ، وأن ما كان يطلقه من وعود بتحريك المشرق من تخلف واستبداد العثمانيين ، ما هو إلا تحريض لشعوب المنطقة من أجل مساعدته على تسريع وتيسير تحقيق أهدافه الاستعمارية لا غير . ولذلك ساندت الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ضد فرنسا وبريطانيا ، رغم ما جلبه لهما ذلك من هجومات شديدة ولاذعة من الخصوم العرب أنصار الثورة العربية ، وخاصة شكيب أرسلان الذي تعرض فضلا عن ذلك ، إلى مضايقات كبيرة بل وتهديدات لحياته ، لكنه بقي رغم كل ذلك صامدا متمسكا بمواقفه ، ولما انتهت الحرب ذكر الجميع بها ، مؤكدا صحة تنبأته باحتلال المنطقة ، وقد اعترف واعتذر له بذلك كبار قادة الثورة العربية وعلى رأسهم الأمير " فيصل " .

أبان الأمير شكيب ؛ عن قدرات كبيرة في العمل السياسي والدبلوماسي ، حيث قضى عشرات السنين في التنقل بين العواصم الأوروبية وكبريات المدن في أمريكا وآسيا وإفريقيا ، يجري الاتصالات والمفاوضات ، ويعقد الندوات السياسية ويؤسس الجمعيات والأندية ، ويحاضر في الملتقيات ، حتى أصبح رقما صعبا في معادلة مقاومة الاستعمار ، وشخصية مفتاحية لا ينبغي تجاوزها أو تجاهلها حتى بالنسبة للدول الاستعمارية الكبرى ؛ فقد دفع نشاطه المعادي للحركة الصهيونية ، إلى حد سعي بريطانيا لتنظيم لقاء معه في أي مكان يختاره هو بنفسه مع الزعيم الصهيوني " حاييم وايزمان " ، لكنه رفض هذا المسعى الإنجليزي ، لأنه أدرك مرامي بريطانيا منه ، والمتمثلة في استدراجه والتأثير على مواقفه المتصلبة من المشاريع الصهيونية في فلسطين .

أما الإبراهيمي ورغم تكوينه اللغوي والأدبي والديني ، وميوله الإصلاحية ، إلا أنه كشف هو الآخر عن قدرات لا بأس بها في المجالين السياسي والدبلوماسي ، حيث أبهر كل من التقى به من ملوك وأمراء ورؤساء ، وشخصيات سياسية وفكرية ذات مكانة وصيت عالميين ، مع فارق بينه وبين أرسلان ، كونه كان أكثر اندفاعا في التعبير عن مواقفه وآرائه وفي طلب ما يرغب به ؛ فقد أمر شيخ الأزهر في القاهرة أن يعلن الجهاد من على منبر الجامع الشهير ، وحشد التعبئة والدعم لصالح الثورة التحريرية أثناء اندلاعها . والأمر ذاته قام به مع الملك

السعودي " ابن سعود " ، الذي طلب منه أن يخصص مصنعا من مصانع الأسلحة في المملكة ، لدعم الثورة الجزائرية مباشرة بالأسلحة وقد تحقق طلبه . هذا الأسلوب كان كثيرا ما يجرح به من يقصدهم ، فيستجيبون لطلباته على نحو سريع . ولذلك كان خصومه يتحاشونهم ويحذرون من مواجهته رأسا في الجزائر وخارجها ، إنقاذا لأنفسهم من لسانه السليط وتقريره الجارح لهم .

لقد كشفت ردود الفعل على وفاتهما ؛ المكانة الكبيرة التي استطاعا أن يحصلوا عليها في الأوساط السياسية والفكرية والإصلاحية والعلمية والأدبية والشعبية ، حيث اعتبر الجميع أن وفاتهما مثلت خسارة كبيرة للعالمين العربي والإسلامي ، وحتى بالنسبة للشعوب الأخرى التي كانت اشتركت مع العرب والمسلمين في تعرضها إلى الاستعمار ، وكثيرا ما دافع الإبراهيمي وأرسلان عنها بسبب وحدة الظروف من ناحية ، ولمواقفهما الايجابية من القضايا الإنسانية العادلة ، ودعوتهما إلى الحوار والتعاون بين تلك الشعوب المضطهدة من ناحية أخرى ، فالاستعمار في تقديرهما وباء ، لا يهيمه إلا الاستغلال والسيطرة والنفوذ .

ومن خلال اطلاعنا ، على كل ما خلفه الرجلان من إنتاج فكري وعلمي ، نصل إلى أنهما كانا يملكان ثقافة موسوعية شملت شتى حقول العلم والمعرفة ، اعترف لهما بها كل من احتك أو اتصل بهما أو قرأ لهما ، وعززتها الرحلات والأسفار التي قاما بها . وبتمحيص ودراسة لذلك التراث القيم ، يتبين لنا أن الإبراهيمي كان بارعا ومجددا في اللغة العربية وآدابها ، بل أنه تفوق على كل معاصريه الذين سلموا له إمارة البيان العربي ، بل أن تبحره في هذين الحقلين جعله يصحح أخطاء كبار اللغويين القدماء والمحدثين ، كما أظهر إماما كبيرا بالعلوم الدينية وخاصة علم الفقه ، وهو ما سمح له بأن يقوم فقهاء الإسلام خلال كل العصور التي مر بها التاريخ الإسلامي . ثقافة دينية وظيفها في محاربة الطرق الصوفية المنحرفة وشيوخها في الجزائر ، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن مجاراته بالحجة والدليل ، فلجئوا إلى النيل منه عن طريق تشويه صورته ، وبالشتائم والطعن في عرضه ، وبتحريض الإدارة الاستعمارية ضده .

أما آثار الأمير شكيب ، التي توزعت تقريبا على كل المجالات ، فقد أظهرت لنا أنه كان على قدر عال من الإلمام بعلوم التاريخ والاجتماع والسياسة والجغرافية والآثار ، والأنساب وطبائع الناس والأقوام... الخ. ومنه فإنها تمثل بحق كنوزا فكرية وعلمية ، لا غنى عنها في

العديد من المجالات والقضايا والاختصاصات ، أثرت المكتبة العربية والإسلامية . كتبها بأسلوب سلس من نوع السهل الممتنع ، على عكس أسلوب الإبراهيمي الذي يصعب حتى على كبار أهل الاختصاص في اللغة والأدب ، حيث لا زال محل اهتمام الباحثين والدارسين في الجامعات ومراكز البحث في الجزائر والبلدان العربية والإسلامية .

وبالنظر إلى المضامين الفكرية والسياسية لذلك التراث ، نجد أنهما تطرقا إلى كل القضايا التي تهم المجتمعات العربية والإسلامية آنذاك ، وعلى رأسها : التخلف وأسبابه ، النهضة وشروطها ، الجامعة الإسلامية ، الوحدة العربية ، التي كانت محور الدراسة في أطروحتنا هاته.

## الفصل الثالث :

أسباب تخلف العرب والمسلمين  
في آثار الإبراهيمي و أرسلان

**تمهيد :**

كانت إشكالية التخلف العربي والإسلامي ، من الإشكالات الأساسية التي أثارت وشغلت أذهان وأفكار جيل من المفكرين والمصلحين ، الذين عاشوا بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، فخلال هاته الفترة الزمنية ، كانوا شهودا بأنفسهم على الانقلابات التكنولوجية المذهلة ، والتحولات الاجتماعية والسياسية والحضارية التي عرفت أوروبيا خصوصا والعالم عموما ، أين وجدوا أنفسهم مجبرين على خوض تجربة النقد الذاتي لمجتمعاتهم المتخلفة ، في عالم يحفل باستمرار بالمتغيرات . فانصبت جهودهم حول تقييم الواقع العربي الإسلامي وإمكانياته ، في شتى المجالات مع المتطلبات التي فرضها العصر الحديث ، وقد أفرزت تلك الجهود تشريحا لنواقص وعيوب النظام الاجتماعي و الثقافي و الاقتصادي السائد في البلاد العربية والإسلامية ، وخاصة في ميادين التربية والبحث العلمي والتكنولوجي والوسائل الحديثة ، و في كل القطاعات ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي (1) . وقناعة بضرورة معالجة كل ذلك ، وفقا للخصوصية الثقافية والدينية والحضارية ، التي لا تتوافق مع نظيراتها لدى الأمم الأوروبية .

اتفقت تلك الأفكار والآراء ، التي تناولت قضية التخلف العربي الإسلامي ، في صورته الذهنية والذوقية والسلوكية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، على فظاعته وجسامته ، وعلى عمق الفجوة الحضارية بين العرب والمسلمين من جهة ، وبينهم وبين الأمم الأوروبية الغربية من جهة ثانية (2) . و أنه ليس وليد فترة زمنية قريبة ، وإنما نتيجة منطقية لتراكمات تمتد إلى قرون خلت ، يمكن الوقوف عليها ، باستقراء أحداث التاريخ ( السياسية والعسكرية والاجتماعية ) و تقلباته . فضلا عن كونه من العمق و الشمول الكبيرين ، بحيث يتطلب الأمر استقصاء الأسباب الحقيقية ، حتى يصبح في الإمكان الوصول إلى الحلول الناجعة

(1) - ينظر أنور أبو طه و آخرون : خطاب التجديد الإسلامي الأزمنة و الأسئلة ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق : 2004م ، ص 169 و ما بعدها .

(2) - كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1993م .

للخروج من تلك الحالة التي وصفوها بالمرض المزمن (1) . و خلصت في تحليلاتها إلا أن أسباب التخلف عدة ؛ صنفها إلى أسباب : دينية و ثقافية و نفسية و أخلاقية و فكرية و سياسية قدمت بعضها على الآخر بحسب البيئتين الاجتماعية و الثقافية لأصحابها .

و بغض النظر ، عن إسهامات أولئك المفكرين و المصلحين ، فإنها قد تميزت في غالبيتها بالجرأة في الطرح ، و شكلت أساسا صلبا لفهم قضية تأخر الشعوب العربية و الإسلامية ، التي تحولت مع مرور الزمن إلى موضوع للكثير من البحوث المستفيضة و الدراسات الموسعة ، مستفيدة من بعض الكتابات الغربية في هذا المجال ، التي قدمت : (( دعما كبيرا للموقف النقدي و التساؤلي ، الذي يبديه متقفو العالم - العربي - الإسلامي آنذاك إزاء قضية انحطاط الحضارة - العربية - الإسلامية ، و في الوقت نفسه إزاء مسألة توسع و تعاضم القوة الأوروبية في جميع المجالات )) (2) .

و عليه فسنتناول في هذا الفصل ؛ الذي تضمن ثلاثة مباحث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الامير شكيب ارسلان ، حيث أنه و بعد إطلاعنا على آثارهما التي تطرقت إلى هاته القضية ، توصلنا إلى أنهما قد أولياها اهتماما خاصا طيلة مسارهما الفكري و النضالي ، على اعتبار أنها القضية الجوهرية ، التي وجدت النخبة المثقفة العربية و الإسلامية ، نفسها في مواجهتها . و لكنهما اختلفا اختلافا نسبيا في بعض الرؤى و التصورات ، رغم أنهما ينتميان إلى نفس الجيل و المدرسة الفكرية ، بفعل تباين البيئتين الاجتماعية و الثقافية اللتان نشأ فيها ، و الأولويات التي وضعها كل واحد لنفسه .

و لتسليط الضوء على ذلك خصصنا هذا الفصل ، تطرقنا في المبحث الأول إلى مفهوم التخلف لغة و اصطلاحا ، ثم إلى مظاهره التي مست الجوانب العلمية و الدينية و السياسية و الثقافية و الاجتماعية . أما المبحثان الثاني و الثالث ، فاستعرضنا فيهما أسباب تخلف العرب و المسلمين ، في آثار البشير الإبراهيمي و شكيب ارسلان ، من خلال ما

(1) - محمد دراجي : جمال الدين الأفغاني : الأسس الفكرية لمشروعه الحضاري ، ط 1 ، دار غبريني

للطباعة و النشر ، الجزائر : 2005 ، ص ص 146-147 .

(2) - أنور أبو طه و آخرون ، المرجع السابق ، ص 172 .

استطعنا جمعه من مادة في هذا الجانب من هذه الدراسة ، و من المؤلفات و الدراسات التي كتبت حولهما ، و اعتنت بتناولهما لقضية التخلف . و قد ختمنا هذا الفصل ، بالمقارنة بين أفكار و آراء الرجلين ، حتى نتمكن من الوقوف على أوجه التشابه و الاختلاف في ذلك .



**المبحث الأول : التخلف مفهومه و مظاهره في البلدان العربية و الإسلامية :**

**01 - مفهوم التخلف لغة :**

التخلف في اللغة العربية من الفعل خلف يخلف تخليفا ؛ بمعنى : أخره - جعله خلفه - جعله خليفته (1) . و فلان تخلف عن قومه ؛ أي تأخر عنهم و الخلف عكس قدام (2) . و منه فإن التخلف هو التأخر . و في اللغة الفرنسية التخلف يعني : ( Sous-développement ) أو ( Retard ) . و المتخلف : ( Sous-développé ) أو ( Ce lui qui est en retard ) (3) . و البلد المتخلف ؛ هو الذي يكون المستوى المعيشي لسكانه ضعيفا (4) .

**02 - التخلف اصطلاحا :**

أما اصطلاحا ؛ فثمة صعوبة في تحديد مفهومه بدقة ؛ حيث لم يحدث الإجماع أو الاتفاق حول معنى موحد له ؛ فهناك من عرف الدول المتخلفة بكونها تلك الدول التي تنتشر فيها ظاهرة الفقر و الفقراء ، و لا تمتلك صناعة قوية و موارد كافية من الطاقة المحركة و الكهرباء ، و تعاني نقصا في المستشفيات و المدارس و المؤسسات الثقافية ، و ترتفع الأمية بين سكانها . و هناك من ركز في تعريفه على متوسط الدخل و مستوى المعيشة ، حيث ينخفضان في الدول المتخلفة ، بينما - يسجلان ارتفاعا كبيرا لدى الدول المتقدمة - . و منها من استند على : (( المؤشرات الثقافية و الاجتماعية التي ينتج توأجدها في مجتمع ما وضعية يطلق عليها التخلف )) . هذا و يمكن إيعاز ذلك الاختلاف في تفسير ظاهرة التخلف ، إلى خلفيات عنصرية " عرقية " و جغرافية و اقتصادية .

فأصحاب الخلفية العنصرية ؛ يجعلون من العرق أساسا مهما يتحدد على ضوءه - مسبقا - الوضع الذي سيكون عليه المجتمع متقدم أو متخلف . فيفترضون وجود شعوب راقية ، تمتلك القدرة و الأهلية على العطاء الحضاري و التقدم ، و توجد في المقابل منها شعوب

(1) - علي بن هادية و آخرون : القاموس الجديد للطلاب ، تقديم محمود المسعدي ، ط 7 ، م و ك ، الجزائر : 1991م .

(2) - المنجد في اللغة و الإعلام .

(3) - دانيال ريغ : السبيل ، معجم عربي فرنسي - فرنسي عربي ، مكتبة لاروس ، باريس : 1983م .

(4) - Nouveau Larousse élémentaire , édition 1974 .

أدنى منها محكوم عليها بالتخلف ، لأنه صفة ملازمة لها لا يمكنها أن تتخلص منها - مهما حاولت - . و قد ذهب منظرو هذا الاتجاه إلى الإقرار بأن : (( ... للغربي - الإنسان الغربي - عقل صناعي خلاق للحضارة ، بينما الشرقي ذو عقلي عاطفي عاجز عن الفكر و النظام )) <sup>(1)</sup> . و العلة في اعتقادهم ، أن الجماعات البشرية المهيأة بطبعها للتقدم ، ينفرد معظم أفرادها بخصائص جسمانية و خلقية معا ، يتوارثونها - عن أسلافهم - ، وهي التي تمكنها من صنع الحضارة . وفي هذا السياق ، يندرج القول : بتفوق الجنس الأبيض بفروعه الثلاثة ( النوردي ، الإيبيري ، الألبيني ) ، والادعاء بامتياز الجنس الجرمانى والجنس الإسرائيلي . على خلاف الجنس الأسود ، الذي لم يقدم حسبهم شيئا للحضارة ، رغم أن هناك شعوبا تنتمي إلى الجنس الأبيض ، لم تكن لها أي مساهمة في الحضارة <sup>(2)</sup> .

أما الخلفية الثانية المحددة لدرجة التقدم والتخلف ، فهي الخلفية الجغرافية التي تشمل المناخ والبيئة ، ومفادها أن المجتمعات المتخلفة تعيش في المناطق الجغرافية الجنوبية والاستوائية ، ذات البيئة المناخية الحارة ، التي تثبت فيهم الكسل والخمول والجمود . بينما تتواجد المجتمعات المتقدمة في الأقاليم الجغرافية المعتدلة ، المساعدة على النشاط والإبداع <sup>(3)</sup> . لكن هذه النظرية ، تصطدم بوجود حضارات سابقة ، نشأت وازدهرت في بيئات جغرافية غير معتدلة ، كالحضارة المصرية القديمة والسومرية وحضارة السند <sup>(4)</sup> .

أما الخلفية الاقتصادية ، فنتخذ من البعد الاقتصادي كعنصر أساسي في معادلة التخلف ، انطلاقا من مسلمة تقوم على أن تخلف أي مجتمع ؛ مرده بنيته الاقتصادية المتخلفة ، بالاعتماد على جملة من المقاييس و المؤشرات : اقتصادية ( الدخل الفردي ، حجم الاستثمارات ، حجم التجارة الخارجية ) ، اجتماعية ( الوضع الديموغرافي ، الصحة ، التعليم ، البطالة ، الاستقرار السياسي ) ، هيكلية ( الارتباط بين مختلف الفروع الإنتاجية ، تركيز البنية الإنتاجية ، هيمنة

(1) - ينظر الطاهر سعود : التخلف و التنمية في فكر مالك بن نبي ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 2006 ، ص 32 ، 33 ، 34 .

(2) - آمنة تشيكو : مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و آرولد توينبي ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1989م ، ص ص 31-32 .

(3) - ينظر الطاهر سعود ، المرجع نفسه ، ص ص 34-35 .

(4) - ينظر آمنة تشيكو ، المرجع نفسه ، ص 32 و ما بعدها .

أحد القطاعات على الآخر ... ) . و مما يعاب على هذه النظرية ، مغالاتها في الأخذ بمتوسط الدخل الفردي ، كمعيار أو مؤشر للحكم على المجتمعات بالتقدم أو التخلف (1) .

و في الجهة المقابلة نجد مالك بن نبي (\*) ، الذي يعد أكثر المفكرين المعاصرين انشغالا بظاهرة التخلف و أسبابها ، يعطي عدة تحديدات و تعاريف للتخلف منها أنه : (( ... الحالة الإجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة )) (2) . و أنه : (( مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة إستعمال وسائله الأولية التي هي التراب و الزمن ، بصورة فعالة ... )) (3) ، و أنه : (( هو نقص في الوسائل على الصعيد الإقتصادي ، ينوء حمله الإقتصادي بجانب سلبي جديد من الوجهة النفسية ، هو سوء الإنتفاع بالوسائل )) (4) ، و أن المجتمع المتخلف لا يعني بالضرورة الذي تنقصه الوسائل المادية ( الأشياء ) ، و إنما الذي يفتقر إلى الأفكار و : (( يتجلى ذلك بصفة خاصة في طريقة إستخدامه للوسائل المتوفرة لديه بقدر متفاوتة من الفعالية و في عجزه عن إيجاد غيرها )) (5) ، أما أسباب التخلف فقد أرجعها

(1) - الطاهر سعود ، المرجع السابق ، ص ص 36-37 .

(\*) - مالك ابن نبي ( 1905م - 1973م ) : مفكر جزائري من مواليد مدينة قسنطينة التي إستقرت بها عائلته القادمة من مدينة تبسة على الحدود الجزائرية التونسية ، و فيها حصل على الشهادة الثانوية ، سافر بعدها إلى باريس ، أين إلتحق بكلية الهندسة التي تخرج منها بدبلوم مهندس كهربائي . لكن الظروف الإستعمارية التي كانت تحياها الجزائر ، جعلته يتخلى عن تخصصه ، و يكرس جل جهوده لقضايا التحرر و النهضة ، مستفيدا من ثقافته التقنية و الدينية العميقتين ، و من إطلاع و إلمامه بالأفكار و الفلسفات الغربية ، و إحتكاكه بالحياة الأوروبية . و قد إستطاع أن يحتل مكانة مميزة في الأوساط الفكرية المعاصرة ، بفضل إسهاماته الجادة ، التي تناولت بالنقاش و التحليل العلمي الدقيق ، الكثير من القضايا و المشكلات الحضارية و السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية ، و التي تضمنتها مؤلفاته العديدة ، التي جعلها تحت عنوان " مشكلات الحضارة " . ينظر أمنة تشيكو ، مرجع سابق ، ص ص 66-67 . و كذلك غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر دراسة و تقويم ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت : 1977م ، ص 55 و ما بعدها .

(2) - مالك بن نبي : تأملات ، ط 5 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص 61 .

(3) - مالك بن نبي : القضايا الكبرى ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص 70 .

(4) - مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1988م ، ص 46

(5) - مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة و أحمد شعبو ، إشراف و تقديم عمر مسقاوي ، د ط ، دار الفكر ، الجزائر : 1992 ، ص 36 .

إلى أسباب داخلية ( القابلية للاستعمار ) و خارجية ( الاستعمار ) ، و هي إن كان يخص بها الشعوب العربية و الإسلامية ، فإنها تتسحب على كل الشعوب في أي زمان و مكان .  
و رغم صعوبة تحديد مفهوم دقيق للتخلف ، إلا أنه و بناء على ما سبق ، نستطيع القول ، أنه ظاهرة بشرية طبيعية تخص كل الشعوب دون استثناء للعرق أو الدين أو اللغة أو المذهب أو الموقع الجغرافي ، تتحكم فيها عوامل تاريخية و ثقافية و نفسية بالدرجة الأولى . أما العوامل الاقتصادية و البيئية التي سبقت الإشارة إليها ، فهي برأي المشتغلين بهذه القضية ، لا يمكن الأخذ بها كمقياس أو مؤشر للتخلف و التقدم ، لأنه في إمكان الإنسان التكيف معها ، مثل ما هو حاصل لدى الكثير من الدول في عالمنا المعاصر ، حيث لم يمنعها فقرها في مجال المقومات الطبيعية من أن تصبح قوة علمية و اقتصادية كبيرة ، و تحنل صدارة الدول العظمى كاليابان مثلا. و برأينا أن مفهوم " مالك بن نبي " هو الأكثر إحاطة بقضية التخلف ، دون أن نخفل أهمية ما طرحته النظريات الأخرى . و هو ما يقودنا إلى الاستنتاج بأن ، التخلف ظاهرة متعددة الأبعاد تشمل السياسة و الثقافة و الاقتصاد و غيرها (1) .

### 03 - مظاهر التخلف في البلاد العربية و الإسلامية :

ظل العرب و المسلمون لعدة قرون ، يعيشون خارج العصر ، يتغنون بأمجادهم العلمية و الحضارية ، إبان العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، متجنبيين التفكير في الوسائل التي تمكنهم ، من استعادة ذلك المجد المندثر ، متجاهلين الانقلاب الهائل ، الذي أحدثته الحضارة الغربية الحالية ، في كل الميادين و على كافة الأصعدة . في حين أن التغيير لا يعذر المتخلفين عن تجديد أنفسهم ، لمواكبة التقدم (2) .

فقد أدت علوم الكون و الطبيعة ، إلى نقلة مذهلة في حياة الأمم المتقدمة ، فانقلبت من عصر البخار إلى عصر الذرة و الفضاء ، و ظل العرب و المسلمون متمسكون بأفكار و سياسات عقيدة مخالفة لسنن الحياة (3) . أدت إلى جمود العلوم و الصنائع و أنظمة الحكم و الحياة الدينية،

(1) - كريم جبر الحسن : عملية النهوض الحضاري ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1993م ، ص 249 .

(2) - TAHAR GAID : Réflexion sur la pensée islamique , office des publications universitaires , Alger , 1999 .

(3) - محمد الغزالي : سر تأخر العرب و المسلمين ، د ط ، دار البعث ، الجزائر : 1985م ، ص 121.

فالعلم يقتصر على كتب دينية تقرأ قراءات شكلية ، أو كتب في النحو والصرف ، تعرب جملا أو تشرح متونا (\*) وحواشي (\*\*). أما العلوم التطبيقية ، فلا تزيد على حساب بسيط ، يفيد أصحابه في حساب المواريث ، وبعض مما خلفه الأقدمون في علم الفلك ، الذي يستدل به في أوقات الصلاة .

أما في المجال السياسي ، فقد بلغ الفساد والاستبداد في البلاد العربية والإسلامية مبلغا كبيرا ؛ نزاع وخصومات بين الحكام والأمراء ، الذين حولوا الأوطان إلى أحزاب وطوائف متصارعة ، تتربص الدوائر بعضها ببعض ، يحتكرون المناصب لأنفسهم ، ويمنعونها عن غيرهم ما أمكنهم ذلك ، يستغلونها في جمع الثروات والأموال على حساب شعوبهم . فأضحت أسماء الحكام والأمراء والولاة والجند ، لا تعني لها إلا الفزع والرعب ، مقرونين بالشعور بالظلم والتعسف <sup>(1)</sup> . فكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك ، وقوع أغلب البلدان العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي الغربي الحديث ، في بداية منتصف القرن 19م ، فاحتلت بريطانيا الهند سنة 1857م عن طريق شركة الهند الشرقية ، و مدينة "عدن" ، التي جعلت منها منطقة عبور وارتكاز في المنطقة العربية . أما فرنسا ، فسبقتها إلى احتلال الجزائر عام 1830م ، واتخذتها قاعدة لبسط نفوذها على كامل المغرب العربي ( تونس ، المغرب موريتانيا ) . والأمر ذاته قامت به هولندا في أندونيسيا ، واسبانيا في شمال المغرب ، وإيطاليا في ليبيا... الخ . إلى أن تمكن الاستعمار الغربي من إحكام سيطرته التامة على المسلمين في كل مكان ؛ في وسط آسيا وشرقها ، وفي إفريقيا والشرق الأدنى ، وأضحى يطوف العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب . أما المجتمعات الإسلامية التي سلمت من الاحتلال ، فقد امتدت إليها يده

---

(\*)- المتون : مفردتها المتن ، متن الشيء ما ظهر منه ، متن الأرض ما ارتفع منها واستوى ، متن الطريق جادتها أو وسطها ، متن الكتاب خلاف الشرح والحواشي ، متن اللغة أصولها ومفرداتها ، متنا الظهر ما يكتنف الصلب عن يمين وشمال من لحم وعصب ، يقال سار متن النهار أي كله ، المنجد في اللغة والعلام .

(\*\*)- الحواشي : مفردتها الحاشية ، وهي الجانب من الثوب أو الكتاب وغيرها ، ما علق على حاشية الكتاب من الشروح والزيادات ، أهل الرجل وخاصته ، يقال رجل رقيق الحواشي أي لطيف الصحبة ، وكلام رقيق الحواشي أي لين ، وعيش رقيق الحواشي أي ناعم . المنجد في اللغة والأعلام .

عن طريق الدسائس والمؤامرات وإثارة المشاكل فيها (1) . وقد انتهى المطاف به إلى القضاء على أكبر دولة إسلامية في التاريخ الحديث وهي الإمبراطورية العثمانية ، و التي تحولت إلى مجرد دولة صغيرة المساحة قليلة السكان ضعيفة القوة ، بسبب إفلاس أنظمتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، وعجزها عن مواجهة الحضارة الغربية المتطورة ( رجل أوروبا المريض ) ، فوجدت نفسها عاجزة ماديا عن مقاومة الاستعمار الغربي وإحباط خطته (2) .

أما الدين ، ففقد روحه ، وأصبح مجرد مظاهر شكلية على يد العلماء والأئمة والمتصوفة المنحرفين ، دون أن يكون لها تأثير على أرواح الناس وعقولهم . كما انتشرت الخرافات والبدع والأوهام ، وتحول التصوف إلى ألعاب بهلوانية ، وسادت عادات التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء ، طلبا للنجاح في العمل والسعادة في الدنيا ، وللنصرة في المعارك والحروب (3) . وتعرضت الكثير من المفاهيم للتشويه ، وساد التأويل الفاسد ، وراجت الشكوك وانتشرت بين أبناء المسلمين ، نتيجة لتعرضها لتأثير التيارات الفكرية الوافدة من منطق وفلسفة وفكر . وهيمن الاعتقاد الخاطيء لمفهوم القضاء والقدر ، الذي يعد عقيدة من عقائد الإسلام ، وركن من أركان الإيمان ، لكن الانحراف في فهمه لدى الغالبية من المسلمين ، أدى إلى إفساد الفكر الإسلامي وانحطاط الحضارة والمجتمع ، وفتح الباب واسعا أمام المستشرقين للطعن في عقيدة القضاء والقدر ، وإيعاز التأثير الحضاري الحاصل لدى العرب والمسلمين إليه ، لأنه في نظرهم مصدر لإضعاف الهمم والقوى وإقعادهم عن طلب الرقي والتقدم . رغم أنه كان العامل الحاسم في تثبيت المسلمين الأوائل في المعارك المصيرية التي خاضوها ، وفي انتصارهم على أمم عظيمة تتفوق عليهم في العدة والعدد ، وفي صدهم لهجومات المغول والحملات الصليبية .

ولقد ساهمت الآراء السفسطائية ، التي تتكرر مظاهر الوجود وتعددها خيالات للناظر ولا تثبتتها الحقائق ، والأفكار الباطنية التي تتعمد إثارة الشك في القلوب حتى ينفك عنها عقد الإيمان،

(1) - محمد دراجي ، ص ص 108 - 109 .

(2) - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط 10 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1984م ، ص 47 .

(3) - ينظر المرجع نفسه ، ص 121 .

في إضعاف الجهة الداخلية للأمة الإسلامية ، فضعت العقيدة الصحيحة في القلوب ، وفسدت الأخلاق وفي مقابل انتشار الأخلاق السيئة فتغيرت لديهم الشجاعة بالجبن ، والصلابة بالوهن ، والجرأة بالخوف والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة ، والحرص على المصلحة العامة بالمصلحة الشخصية... الخ . ولذلك اعتبرت تلك الآراء والأفكار المنحرفة ، بأهم أسباب انهيار الحضارة الإسلامية وعقم الفكر الإسلامي ، بالإضافة إلى التعصب الذي يعني : (( إساءة استعمال الدين والخروج عن سنة الأنبياء مؤسسي الأديان )) (1) .

أما الحالة الاجتماعية والثقافية، فقد اتسمت بالسوء والتأزم نتيجة الطغيان والاستبداد ، بشقيه المحلي ( الأمراء والحكام ) والأجنبي ( الاستعمار ) ، حيث امتد التخلف بصورة فظيعة إلى الذهنيات والأفكار والسلوكيات والاستجابات المضادة للتقدم الحضاري ، بمعنى أن التخلف لم يقتصر على العجز عن مجاراة مظاهر التقدم العلمي والحضاري الحاصلة في العالم المتقدم آنذاك ، بل تعدى إلى مقاومة التقدم في حد ذاته وإيداء الشكوك حوله (2) . وخاصة لدى الشعوب العثمانية التي تفسى فيها الجهل والتخلف والفقر ، و أدركت متأخرة اتساع الهوة بينها وبين العالم المتقدم ، وقد تحول ذلك الشعور إلى حركة قومية ، ترفع شعار الإصلاح واللامركزية في الحكم ، مما يسمح لها بفرص أكثر ، لإدارة شؤونهم وشغل المناصب الحكومية، التي استحوذ عليها الأتراك طيلة أربعة قرون (3) . أما آثار الاستعمار في هذا الجانب فهي كبيرة جدا ، لأنه لم يكن استعمارا عسكريا واقتصاديا فحسب ، بل اجتماعيا وثقافيا أيضا ، فبعد أن استولى على الأرض ، تطلع إلى العقول والأفكار، فعمل على أن تغمر موجة الحياة المادية المجتمعات الإسلامية ، مع حرص شديد على إبعاد عناصر الرقي من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة ، وقد استخدم في غزوه الاجتماعي هذا ؛ المدارس العلمية الثقافية ، التي ضمت فقط أقلية المجتمعات من أبناء الطبقات العليا ، و : (( علمتهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويفقدون كل ما

(1) - ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 148 وما بعدها .

(2) - ينظر كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص ص 246 - 247 .

(3) - جلال يحيى : العالم العربي الحديث و المعاصر ( الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين ) ، ج 2 ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية : 1998م ، ص ص 286 - 287 .

هو غربي ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين ، وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة .نجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قوي الأثر ، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف ((<sup>1</sup>) .

وتكمن تلك الخطورة ، في كون أن تأثيراته امتدت إلى ما بعد خروج الاستعمار، وحصول البلدان العربية والإسلامية على استقلالها وسيادتها ، وتظهر في " الالفاعلية " ، التي تعني فقدان المجتمع للدوافع والمسوغات والمبررات ، التي تدفعه إلى العمل والإبداع والعطاء الحضاري ، فتصبح : (( قيمة الفعالية شيئاً ضامراً لا معنى له لأن الدوافع التي كانت تحرك الجهد الإنساني ، قد فقدت سلطتها على العقل والضمير واليد ، ولأن القنوات التي كانت تضمن حركيتها قد تجمدت ... )) ، فيفقد المجتمع نظامه وتوازنه ، ويتحول إلى مجتمع مستورد لأفكار غيره ، التي تكون في العادة سلبية أو سيئة ، وفقاً لقاعدة : ((المغلوب دائماً مولع بتقاليد الغالب)) وهو ما يعبر عنه بالاستلاب الحضاري ، الذي يواجه عادة بمن يتمسك بالموروث القديم حتى وإن كان قد عفا عنه الزمن (<sup>2</sup>) ، وهو ما شهدته المجتمعات العربية والإسلامية في عصر الانحطاط والتخلف .

وعليه فإن أكبر دمار استطاع الغرب الاستعماري ، تحقيقه في البلاد العربية والإسلامية هو الدمار الثقافي ، الذي يفوق الدمار الاقتصادي والعسكري بصورة أكبر ، فآثاره ماثلة للعيان في كل تلك البلدان ، ومن مظاهره نجاحه في صياغة فئة معتبرة من المثقفين والمتعلمين ، أصبحت بعد خروجه من بلدانها ، تدافع بحماسة واستماتة عن العديد من القيم والمفاهيم التي كان يسعى إلى فرضها بالقوة والقهر ، ولم يتسنى له تحقيقها . فيكون بذلك الاستعمار الثقافي ، قد أنجز ما لم ينجزه الاستعمار السياسي والعسكري (<sup>3</sup>) .

(<sup>1</sup>) - محمد عمارة : الطريق إلى اليقظة الإسلامية ، ط1 ، دار الشروق ، القاهرة : 1990م ، ص 227 وما بعدها .

(<sup>2</sup>) - ينظر طاهر سعود ، المرجع السابق ، ص ص 168 - 169 .

(<sup>3</sup>) - كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 153 نقلاً عن عون الشريف قاسم : الإسلام والثورة الحضارية ، دار القلم ، بيروت : 1980م ، ص 14 .



وقد آثرنا الإشارة إلى هذه المظاهر بإيجاز ، لأنها سترد في المبحثين المواليين بكثير من التفصيل ، إذ أبرزها كل من الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، في تطرقهما إلى الأسباب التي تقف وراء تخلف الشعوب العربية والإسلامية منذ عدة قرون ، في مقابل تقدم الأمم الغربية والأمة اليابانية .

**المبحث الثاني : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الإبراهيمي :**

وصف الشيخ البشير الإبراهيمي ، العرب و المسلمين في عصره ، بفاقدي الشعور و الإحساس لما هم فيه من انحطاط و تقهقر ، يقفون موقف المتفرج ، لا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا ، كأنهم ليس من أهل الكوكب ، أو غرباء عن هذا العالم ، حالهم كحال أهل الكهف و الرقيم (\*) ، في الوقت الذي قطعت فيه الكثير من الأمم ، أشواطا كبيرة في العمران و الاقتصاد. و يضيف إلى هذا الوصف الدقيق ، لما آلت إليه أوضاع العرب و المسلمين المتأخرين ، أن الباحث المسلم الملم بشؤونهم ، يتعجب من كونهم يتقاسمون نفس الأوضاع و الذهنيات ، رغم اختلاف أعراقهم و تباعد ديارهم ، لكن هذا العجب سيزول حسبه ، بمجرد أن يبحث و يدرس بعمق الأسباب الحقيقية ، التي جعلت التخلف و كأنه صفة مقترنة بالعروبة و الإسلام ، مثلما يروج لذلك بعض الباحثين الغربيين ، الذين لا تخلوا بحوثهم و دراساتهم عن العرب و المسلمين ، من الخلفيات الإيديولوجية (1) .

لكن تحامل الباحثين الغربيين برأي الإبراهيمي ، لا ينبغي أن يحجب الواقع المزري ، الذي تشترك فيه الأقطار العربية و الإسلامية المستعمرة و المستقلة على حد سواء ، هاته الأخيرة و رغم حصولها على استقلالها إلا أنها لا تمتلك منه إلا الشعار ، إذ يفنقذ إلى السيادة في كل الميادين ، فالقرارات السياسية تملى على حكوماتها ، من قبل أصحاب النفوذ و السطوة المحليين و الأجانب ، الذين يستخدمون شتى الوسائل و الأساليب خدمة لمصالحهم ، التي تحرس تلك الحكومات على حمايتها و ضمان إستمراريتها بدل مصالح شعوبها . و زيادة على ذلك فالعلوم تؤخذ من الأعداء دون دراسة أو تمحيص ، أما الثروات و التجارة و الصناعة فمحتكرة من طرف الأجانب ، فلا تبذل أي جهد للإشراف عليها بنفسها : (( يبيعون القنطار من إنتاج أوطانهم

(\*) - الرقيم : لوح من الحجارة أو الخشب ، كتب فيه أسماء أصحاب الكهف و خبرهم ، و جعل على أبواب الكهف حسب أقوال أخرى . و ملخص القصة أن ملكا جبارا إسمه " قيانوس " ، دعا الناس إلى عبادة الأوثان ، و كان يقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته ، حتى عظمت المحنة على أهل الإيمان ، ففر فتية من الشباب من دينه خوفا من بطشه و جبروته ، حيث مكثوا في غار بجبل و هم نيام ثلاثمائة و تسع سنوات ، و قد أورد الله سبحانه و تعالى قصتهم بالتفصيل في سورة الكهف .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 57-111 .

رخيصا ثم يشتررون الداني منه غالبا ، فإذا غلق صاحب السوق سوقه في وجوههم أفلس غنيهم و مات فقيرهم جوعا أو هلك عريا )) (1) .

أي أنهم يملكون وسائل الاستقلال الاقتصادي ، لكنها في أيدي الأجانب الذين تفوقوا عليهم علميا و تقنيا ، و أحكموا عليهم سيطرتهم اقتصاديا ، مستغلين في ذلك انشغال تلك الحكومات بتوافه الأمور ، و افتتانها بظواهر السلطة ، و انغماسها في الخلافات و الصراعات ، في الوقت الذي يفترض فيه أن تفكر في الإتحاد و التعاون ، حماية و تحريرها لها من استغلال الأجنبي ؛ لإمكاناتها و مواردها البشرية و المادية .

و عليه فإنه لا فرق عند الإبراهيمي ، بين البلدان العربية و الإسلامية المستقلة ، أو التي لا زالت ترزخ تحت نير الاستعمار ، تشترك في كل الأشياء ، و منها تلك الذهنيات السابقة ، التي أدت إلى إفلاس شامل في الأخلاق و الأفكار ، و الآداب و التوجهات ، و رثها الأبناء عن الأبناء و في ذلك قال : (( إنهم ورثونا هذه الصفة الخاسرة التي هي رأسمالنا اليوم من أخلاق لا تزن جناح بعوضة ، و آداب لا تستقيم عليها حياة و أفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة ، و عقول تقدر و تخطئ و تدبر فتبطن و حساب مذبذبة ، و اتجاهات خاطئة مدبرة ، و غير ذلك مما تركنا غرباء عن عصرنا و أهل عصرنا )) (2) . و منه يتبين لنا أن البشير الإبراهيمي ، يرى أن التفهقر الحضاري ، الذي ميز العرب و المسلمين في عصره ليس وليد الصدفة ، أو أنه قدرا لا حيلة لهم أمامه ، و إنما هو نتاج لعوامل و أسباب عديدة ، تراكمت و تفاعلت عبر القرون ، تفهقر كان من آثاره ، انتشار ضباب كثيف حول الفكر العربي و الحضارة الإسلامية ، و تشويه لصورة الإسلام لدى العالم الغربي بوجه خاص ، و تنامي النظرة العدائية لتراث و تاريخ العرب و المسلمين ، فأصبح الشرق بالنسبة لأولئك الغربيين رمزا للطغيان و الجمود و السلبية و فساد الفطرة ، و انحطاط الخلق و العجز عن تحقيق التقدم ، أو إبداع أي شيء مهما كان بسيطا .

و من خلال إطلاعنا على ما كتبه الشيخ الإبراهيمي ، حول موضوع أسباب تخلف العرب و المسلمين ، تبين لنا أنه حصرها في خمسة أسباب أساسية تتساوى في الأهمية و هي : فساد

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 213-214 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 273 .

علماء الدين و انحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، و شيوع التقليد و الحجر على الاجتهاد ، ضعف الأخلاق و وهن العزائم ، الركون إلى الكسل و التواكل ، سنحاول مناقشتها و تحليلها في ما يلي :

### 01 - فساد علماء الدين و انحرافهم :

عرف المسلمون في العصور الأخيرة من الانحطاط - برأي الإبراهيمي - صنفا من علماء الدين منعزلين عن عصرهم ، لا هم لهم سوى تحصيل متطلبات حياتهم الخاصة ، يفتنون في مسائل جزئية كالصلاة و الصوم ، أو أحكام الزواج و الطلاق ، أو وصايا الأحياء و الأموات . يفتنون في الطلاق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في أسبابه ، و في الإيمان و لا ينهون الناس عن الحلف و لا عن الحنث فيه بعد انعقاده . يحرمون شرب الخمر و لعب القمار ، دون أن يوضحوا للناس مضارهما أو يزرورنهم عن تعاطيهما .

علماء يعيشون بعيدا عن عصرهم و زمانهم ، و إن حدث و إن احتكوا بالناس أعطوهم في أفضل الأحوال ، دروسا لا علاقة لها بواقعهم الحياتي المعاش ، ممسكين عن واجب محاربة الآفات الاجتماعية المتفشية وسط المجتمع ، و عن الدعوة إلى تطبيق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة ، كأنها قدر مقدر و من العبث تغييره (1) .

و لا شك أن ما ذهب إليه هنا صحيح ، إذ أن السواد الأعظم منهم كان عاجزا عجزا مطبقا عن فهم تقلبات العصر و الوضعيات المستجدة ، يخفقون إخفاقا تاما في معالجة المشاكل و المعضلات التي تواجه المسلمين في هذا العصر ، و التي أوجدتها الظروف الجديدة (2) .

أطلق الإبراهيمي (3) على هؤلاء العلماء اسم " علماء الخلف " ، و ذكر بأن المقصود بهم تلك الفئة من العلماء التي نشهد آثارها و نسمع أخبارها ، و في الإمكان تحديد بداية انحطاطها زمانيا بالمائة العاشرة للهجرة ، حيث بدأت الشعوب الإسلامية منذ ذلك التاريخ في التفكك و الانهيار ، دون أن يسارعوا إلى معالجة الأمر قبل إستفحاله ، فكانوا بذلك المسؤولين عنه . و يضيف بأن تحديده لتاريخ المائة عشرة بعد المائة ، كبداية لفساد علماء الدين و انحرافهم هو

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 150 .

(2) - أبو الأعلى المودودي : نحن و الحضارة الغربية ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : د ت ، ص 49 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 150 .

تساهل منه ، لأن جذوره تعود إلى ما قبل ذلك بقرون ، لكن دون أن يصل الوضع كما وصل إليه بعد المائة العاشرة للهجرة هذا من جهة .

و من جهة أخرى ، أقر الشيخ البشير بأن : " علماء الخلف " ، هم أدنى من أن نسميهم علماء الدين أو علماء الدنيا ، فهم ليسوا في مستوى علماء الدين ، لأنهم لم يفهموه على أنه نصوص قطعية من القرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى ، و أعمال و أقوال تشرح تلك النصوص من أحاديث و أفعال الرسول " ص " ، و مقاصد عامة تستنبط من القرآن و السنة النبوية . يرجع إليهما فيما لم تنص عليه النصوص صراحة ، أو فيما جد من أوضاع و قضايا بتجدد الزمان . و زيادة على ذلك لم يفهموه ، على أنه عقائد يحكمها العقل قبل النقل ، و عبادات اكتملت بكامل الدين لا زيادة فيها و لا نقصان ، و أحوال نفسية هي ثمار تلك العقائد و العبارات ، تضبط العلاقة بين الناس و بينهم و بين خالقهم .

و في المقابل من ذلك ، يرى أن الإبراهيمي أنهم فهموا الدين و أفهموه للأمة ، على أنه لا يعدو أن يكون مجرد صورة جامدة خالية من الحكمة ، و حكموا فيها آراء مشايخهم التي تتصف بالتضارب و التناقص في كثير من الأحيان . فأدى بهم هذا النهج غير السليم ، إلى اتخاذ كلام أولئك المشايخ بديلاً لتلك النصوص القطعية و الصريحة ، و غلق أبواب الفكر بالتقليد ، و تناول الحقائق الدينية بشكل خاطئ و بعيد عن الحقيقة . فيكونون بذلك قد عطلوا الفكر ، و هو عمل في نظره لا يمكن تصنيفه إلا في خانة (( الجرائم العظيمة )) التي ارتكبت في حق الفكر الإسلامي ، و قد بين ذلك بقوله (1) : (( الفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري ، فالذي يعطله أو يحجر عليه جان مجرم ... و لعمرى إن سد باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي ، و أشنع جريمة ارتكبتها المتعصبون للنزاعات المذهبية )) .

إن وصف الشيخ البشير ، للعلماء المتأخرين الذين أغلقوا باب الاجتهاد ، و عطلوا الفكر الذي هو بمنزلة العقل بالمجرمين ، يعكس في حقيقة الأمر الجمود الرهيب الذي لازم العلوم الإسلامية عامة ، و الفقه بشكل محدد لعدة قرون . بسبب استحكام النزعات المذهبية ، التي حالت دون أن تتطور تلك العلوم بالتوازن مع التطورات الزمانية ، وضع يتحمل المسؤولية الكاملة فيه ، هذا الصنف من العلماء الجامدين و السلبيين . و من المعلوم أن الصراعات المذهبية في الإسلام ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 114-115 .

قد بدأت منذ القرن الثاني للهجرة ، و تزايدت حدتها في القرون التالية ، و تزعمها علماء الكلام و الفقه و النصوص و الزهد <sup>(1)</sup> .

كل تلك الصفات التي أوردتها الشيخ ، هي بالنسبة إليه كافية لينزع عنهم ميزة علماء الدين ، أما لماذا اعتبرهم أيضا ليسوا علماء الدنيا بالمفهوم الحقيقي للكلمة ، فحجته في ذلك أنهم رضوا أن تكون أقواتهم و أرزاقهم بطرق غير شريفة و غير شرعية ، يحصلون عليها من موائد الحكام و المسؤولين بغير كدّ و اجتهاد ، على حساب القيم و المبادئ التي يفترض أنهم يدافعون عنها ، و الغايات التي يسعون لأجلها ، على اعتبار أنهم الفئة القائدة لا المقودة ، يزينون صور أولياء نعمتهم و يبررون سلوكياتهم ، مما أفقدهم احترام عامة المسلمين .

يضاف إلى ذلك ، الطمع و الجري وراء المناصب و الامتيازات ، التي يمنحها إياهم الإشراف على شؤون الأوقاف ، و كان من آثارها تمكن نزعة التقليد من نفوسهم ، و موت ملكة النبوغ و استقلال الفكر فيهم ، و انطباعهم بسلوك ذميم هو معرفة الحق من الرجال و ليس العكس ، كما جعلت قطار الحياة يقف بهم في القرن الثاني للهجرة ، الذي توقف عنده العقل و الفكر ، و لم تعد بالنسبة إليهم ضرورة لاستمرارهما : (( فعاشوا بأبدانهم في زمن و أذهانهم في زمن ، و بين الزمنين أزمنة تحركت و هم ساكنون ، و نطقت و هم ساكنون )) <sup>(2)</sup> .

إن الصفات المذمومة التي اتصف بها العلماء المتأخرون ، كثيرة برأي الإبراهيمي و منها : ما أصيبوا به بأفة الغرور الكاذب و الترفع المغشوش عن طالب العلم ، حيث يعتكفون في بيوتهم أو في المساجد اعتكاف التاجر في دكانه ، ينتظرون أن يأتيهم الناس ليتعلموا ، فإن لم يأتوا صبوا سخطهم على الزمان و الناس ، حجتهم في ذلك أن : (( العلم يؤتى و لا يأتي )) ، و هي قاعدة إن صدقت في فترة زمنية معينة ، فإنها لا تصدق في كل الأزمنة ، فضلا عن كونها لا تصدق بالنسبة لعلماء الدين . لأن عالم الدين من وجهة نظر الشيخ البشير ، ينبغي عليه أن يرغب الناس في العلم بشتى الطرق و الأساليب ، إن هم أحجموا عن طلبه في مراكزه التقليدية الممثلة في : بيوت العلماء و المساجد و الزوايا و الكتاتيب ، و بمعنى آخر أنه لا عذر له إن زهد العامة في علمه ، في الوقت الذي يعذر أصحاب العلوم الأخرى . و تفهم من تشدد الإبراهيمي في موقفه هذا ، أنه كان يدرك

<sup>(1)</sup> - محمد المبارك ، المرجع السابق ، ص 72 .

<sup>(2)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 114-115 .

خطورة عدم إقبال الناس على تلقي العلوم الدينية ، أو التراخي في تزويدهم بها ، فقد وقف بنفسه على آثار ذلك في المجتمع الجزائري خاصة ، و المجتمعات العربية الإسلامية عامة ، أثناء الرحلات التي قام بها إلى الكثير من بلاد العرب و المسلمين . ففي الجزائر رأى تقاعس علماء الدين الحقيقيين ، عن أداء دورهم الديني و التربوي و الإصلاحي ، إلى ترك المجال مفتوحاً أما رجال الطرق الصوفية المنحرفين عن الخط الذي رسمه مؤسسوها الأوائل ، فكثرت البدع و الضلالات و الخرافات ، و تقديس القبور و الطواف حولها . و سيطروا على عقول أتباعهم و مريدهم ، ونشروا بينهم التواكل و الكسل ، و ثبطوا همهم في الاستعداد للكفاح من أجل طرد المحتل الذي اغتصب أرضهم ، بحجة أن وجود الاحتلال في الجزائر : (( هو من باب القضاء و القدر ، الذي ينبغي التسليم به ، و الصبر عليه ، و أن طاعته هي طاعة لولي الأمر )) . فكانوا سبباً في إطالة عمر الاستعمار في البلاد من ناحية ، و في تفرق صفوف الأمة و انحطاطها من ناحية أخرى (1) .

و الأمر ذاته كان يحدث في بقية أقطار العالم العربي و الإسلامي ، حيث خيم الجمود العلمي و الفكري ، و سادت البدع و الخرافات التي استحكمت على الحياة الدينية و الفكرية ، و شغلت الأمة عن فهم الدين الصحيح ، و الأخذ بأسباب الرقي و التقدم ، و سيطر الخمول و التقليد و المحاكاة على نحو شامل ، في كل العلوم الدينية (2) .

و يواصل الإبراهيمي استعراضه ، للصفات السلبية التي ميزت علماء الانحطاط ، فيذكر قبولهم بإعفائهم من التجنيد العسكري مثل عامة الناس ، ظناً منهم أنه إجراء إنما يقوم به الأمراء و الحكام تشريفاً لهم ، و تقديرًا لمنزلتهم الدينية في الدولة و المجتمع . لكنه في تصوره يعدّ إدانة لهم و دليلاً على فقدانهم لرجولتهم ، لأن الأوائل من الخلفاء و الحكام المسلمين لم يلجئوا إلى هذا الإجراء من جهة ، و لأن جميع علماء و عامة كانوا يتنافسون على الجهاد و الغزو و ليس على الإعفاء منها من جهة أخرى (( فهل يعلمون أن الخلفاء الراشدين ، و من بعدهم من الملوك

(1) - مصطفى محمد حميداتو : عبد الحميد ابن باديس و جهوده التربوية ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1997م ، ص ص 50-51 .

(2) - ينظر أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط 5 ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر : 1987م ، ص ص 194-215 .

الصالحين ، ما كانوا ليعفوا عالما من بعوث الجهاد و الفتوح ؟ و ما كان مسلم فضلا عن عالم يطلب الإعفاء أو يتسبب له أو يرض به لو عرض عليه ، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهاد و العالم الديني دائما في المقدمة لا في الساقة (\*) و قد كانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات النفاق )) . و منه فإن المنزلة العلمية لا تعفي صاحبها من الجدية و الجهاد ، فهي واجب ديني لا مناص من القيام به على أكمل وجه ، و مجال خصب لإبراز ما ينطوي عليه الإنسان من قوة و شجاعة و إقدام .

و إذا كان الإبراهيمي ، لم يورد أسماء أو نماذج من التاريخ الإسلامي لهذا النوع من العلماء ، الذين حافظو على خاصية الجندية و القتال ، فإنهم كثيرون و حتى أنه وجد بعض منهم في عصور الانحطاط ذاتها ، ففي الأندلس على سبيل المثال ، سجل فقهاء مواقف مشرفة في هذا الإطار ، حتى في أسوأ الظروف ، فزيادة على اجتهادهم في تكريس قيم العدل و المساواة و احترام حقوق الإنسان ، و تثقيف المجتمع بالثقافة الإسلامية ، فإنهم لم يتخلفوا عن دعم روح المقاومة ضد الغزاة الإسبان ، و الحفاظ على الهوية الإسلامية ، و النصح للحكام و لعامة المسلمين . و بعد سقوط الأندلس لعبوا دورا كبيرا في الحفاظ على الهوية الإسلامية ، رغم خطورة الأوضاع نتيجة للمتابعات المتصلة بمحاكم التفتيش، التي أنشأت بغية مسح أي أثر للإسلام و المسلمين في إسبانيا . أما في بلاد المغرب العربي ، فقد ذكرت كتب التاريخ أن خمسين عالما ، تصدوا للمحتلين الإسبان في بعض السواحل المغربية سنة 1497م ، أي خمس سنوات بعد سقوط غرناطة ، و منهم " الشيخ محمد بن يحيى البهلولي " الذي تولى مهمة الدفاع عن الثغور ، و لما عاد إلى مقر سكنه وجد زوجته قد توفيت و الناس على وشك الإنتهاء من دفنها ، فسارع إلى إعادة صلاة الجنازة عليها ، و لما أنكر عليه القوم ذلك قال لهم : (( صلاتكم فاسدة لكونها بغير إمام ! )) فلما إستفسروه قال : (( إن من شروط الإمام الذكورية ، و هي مفقودة في صاحبكم ، لأن الذي لم يتقلد سيفاً قط في سبيل الله و لم يضرب به و لم يعرف الحرب كما كان نبينا عليه و السلام و لم يتصف بالسيره النبوية فكيف يعد إماما ذكرا ؟ بل إمامكم من جهلة النساء ... )) ، و لما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان المغربي مع الأعداء الإسبان ، آل " الشيخ محمد بن يحيى البهلولي " ألا يلقاه ، و لا يذهب إليه و لا يقبل منه العطاء (1) .

(1) - ينظر أكرم ضياء العمري : قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي ، ج 2 ، سلسلة كتاب الأمة ،



أما في العصر الأخير ، فيمكن أن نذكر زعماء المقاومات الشعبية في الجزائر الذين كان أغلبهم علماء دين كالأمير عبد القادر (1808م - 1883م) و الشيخ الحداد (ت 1872) و الشيخ بوعمامة (1838م - 1908م) و عمر المختار (1858م - 1931م) ... و غيرهم من العلماء الذين تزعموا الجهاد ضد الاستعمار ، مضيفين إلى زعامتهم الدينية ، الزعامة العسكرية التي أربكت المستعمر في الكثير من المعارك ، التي انتصروا فيها على ضباطه المتمرسين و جنوده المدربين أحسن تدريب ، و على أسلحته الفتاكة ، في مقابل أسلحتهم البسيطة و إيمانهم القوي بعدالة قضيتهم . و بعد استعراض كل هذه الصفات السلبية ، التي اتصف بها العلماء المتأخرون ، يخلص الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى أن هذا الواقع السيئ الذي آلوا عليه ، قد ترتبت عنه نتائج خطيرة و منها : خروج قيادة الأمة من أيديهم ، و انتقالها إلى أيدي أخرى غير مؤهلة لتلك القيادة ، باعتبار أن العالم الديني هو الأكثر تأهيلا للقيادة من غيره . و يضيف بأن فقدان القيادة ، هو أحد الأسباب الرئيسية في انحطاط - العرب - المسلمين و تخلفهم ، و هو وضع ليس بالجديد ، و إنما يعود إلى القرون الوسطى ، إذ و منذ تلك الحقبة من الزمن ، لم يعد للعلماء تأثير في مجريات الأحداث في البلاد - العربية - الإسلامية ، عدا توليهم وظائف التدريس و الإمامة و الفتوى و القضاء ، التي كانت تمنح لهم ليس لكفاءتهم العلمية و الأخلاقية ، و إنما لمدى ولائهم ، و استعدادهم لتبرير سياسات أولئك الأمراء و الحكام مهما كانت منحرفة ، و دفع العامة للانصياع لها . فتجد الخطيب يحرص كل الحرص في خطبه ، على الثناء و الدعاء للأمير ، الذي تكرم عليه بالمنصب الذي يشغله ، و بالترحم على واقف يسترزق من وقفه ، فلا ينسى ذلك أبدا ، و هو منهج درج عليه كل علماء الشرق حتى عصرنا الحالي بحسب الإبراهيمي (1) .

و بالفعل ، فإن الفترة الزمنية التي كان فيها علماء الدين في البلاد العربية و الإسلامية ، ممسكين بزمام القيادة قصيرة جدا ، إذ اقتصر على العصر الإسلامي الأول ، خاصة في المراكز و الحواضر القريبة من مقر الخلافة مثل المدينة المنورة ، التي سعى فيها خلفاء بني أمية إلى التقرب إليهم بكل الوسائل و الطرق و منها : الإغداق عليهم بالعطايا و الهبات ، و مكاتبتهم طلبا للنصيحة أو استفسار عن حكم شرعي أو طلبا صريحا للتأييد السياسي و البيعة ، فضلا عن

ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1994م ، ص 125 و ما بعدها .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 150-152 .

الوقوف على احتياجاتهم و تلبية طلباتهم و حثهم على طلبها ، و تعمد الظهور أمام الرأي العام بجوار أولئك العلماء و الفقهاء ، و الثناء عليهم و الإجهار بحاجة الدولة إلى علمهم و فتاويهم . كل ذلك إدراكا منهم لأثرهم في المجتمع الإسلامي ، ولمكانتهم الدينية و الاجتماعية ، و حسن تقدير الناس إليهم <sup>(1)</sup> . و الفارق واضح هنا ، بين العلماء الأوائل الذين كان الخلفاء و الحكام و الأمراء ، يبذلون كل شيء في سبيل الحصول على دعمهم ، و مساندتهم لهم في سياساتهم ، و بين العلماء المتأخرين الذين كانوا هم من يستعطف الخليفة أو الحاكم أو الأمير أو ذي كل سلطة ، طمعا في منصب أو أجر أو مصلحة شخصية ، و لا يهم إن حصل عليها على حساب رسالته أو مبادئه .

و علاوة على ضياع القيادة من علماء عصر الانحطاط ، يرى الإبراهيمي أن الدارس لما خلفوه من تراث فقهي ، يقف على حقيقة مفادها أن الكثير من فتاويهم و اجتهاداتهم الفقهية ، لم يراعوا فيها أحوال الناس ، حيث بنوا الأحكام في المعاملات وفقا نظرتهم الخاصة من جانب ، و تأويل كلام من سبقهم من العلماء من جانب ثاني . مناقضين بذلك الواقع الحياتي للناس في جوانبه الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية ، الذي يخضع في حقيقة الأمر لأمزجة و أهواء الحكام المستبدين ، وليس لتلك الأحكام و الاجتهادات ، التي أجهد العلماء أنفسهم و أفنوا أعمارهم في استنباطها و استخراجها . ولذلك ، فقد أجمع الباحثون المحققون على أن تلك التفاصيل التي حفلت بها كتب الفتوى ، إنما أغلبها لا ينطبق مع مصالح الناس ، لأنها لم تبنى على مراعاة تلك المصالح ، التي هي أساس حكمة التشريع <sup>(2)</sup> .

إن ما أراد الإشارة إليه هنا ، هو تلك القطيعة الحاصلة بين ما يفتي به علماء الدين الإسلامي ومنهم الفقهاء ، و ما يحياه الناس من ظروف حياتية و اجتماعية ، تتغير بتغير الظروف و الأزمنة ، لأن الفقه يختلف عن العقائد فهو متغير وهي ثابتة ، و عالم الدين أو الفقيه الحقيقي هو ذلك الذي يجعل من فتاويه و أحكامه مواكبة لواقع العامة ، و لا يحصل له ذلك إلا إذا كان على فهم صحيح للدين الإسلامي ، و مدركا تمام الإدراك لتحديات العصر الذي يعيشه ، و من ثمة لاحتياجات الناس و مصالحهم ، التي لا شك أنها تختلف عن مصالح سبقهم و عن من سيأتي بعدهم .

(1) - ينظر اكرم ضياء العمري ، المرجع السابق ، ص 62 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج1 ، مصدر سابق ، ص 150 - 151 .

والفهم الصحيح للدين الإسلامي ، لن يأتي إلا بالمعرفة العميقة لأهداف الإسلام الكبرى و هي: تحرير العقل البشري من قيد التقليد والخرافات ، وهو ما يفسر محاربتة للوثنية لأنها تمثل الانحطاط العقلي ، ودعوة القرآن العقول إلى الدليل والبرهان والتفكير العلمي الحر ، وثانيها إصلاح الفرد من النواحي النفسية والخلقية ، وثالثها إصلاح الحياة الاجتماعية للناس بشكل يسود فيه الأمن والعدل بينهم ، وتضان الحريات الخاصة بالأفراد والحقوق العامة للجماعة (1) .

و إذا كان هذا هو الحال الذي آل إليه الفقه الإسلامي ، فإن المصير ذاته انتهى إليه الفكر العلمي الذي تراجع أمام (( الفكر السحري )) بتعبير المفكر " فريدون هويدا " ، فقد كثرت المؤلفات في علم التنجيم الطبي بصورة خاصة ، و في علوم السحر و التنجيم بصورة عامة ، و انتشرت على نطاق واسع خواتم السحر و كتابات الطلاسم و الأحجية : (( المكتوبة بحروف ذات مفعول خارق و بأرقام مؤثرة في حياة الناس )) . كما شاعت ممارسة التبصير و العرافة التي حاربها العلماء و الفلاسفة ، و ازدهرت مهن التنجيم و السحر ، و قد كان إيمان الناس بالتنجيم و السحر ، يتزايد بقدر ما كان التعليم ينحط و يغرق في المذهبية (2) .

تلك المذهبية التي كانت تعني في بادئ الأمر : (( تعدد التخصصات ضمن إطار الرسالة الواحدة )) ، لكنها سرعان ما تطورت و أفضت إلى حالة من التعصب و الجمود و ضيق الأفق ، و أنخرط أصحابها في خلافات و صراعات مذهبية ، أدت إلى تفرقة الأمة و جرها إلى صراعات مريرة و قاسية ، كل طرف فيها يدعي أنه وحده على صواب و غيره على خطأ . رغم أن العلماء الذين أسسوا تلك المذاهب ، كانوا إذا إختلفوا في الرأي لا يتخذون من ذلك سببا للخصومة و النزاع ، بل يجلّون و يحترمون بعضهم البعض ، و يتناقشون في أدب و وقار ، و لا يجد الواحد فيهم حرجا في أن يتراجع عن رأيه إلى رأي غيره ، إذ تبين أنه مخطئ (3) .

و بشأن الخلافات المذهبية ، فقد إنتقد الشيخ البشير الإبراهيمي ، القادة و العلماء المسلمين الذين شجعوا تعدد المذاهب في البلد الواحد ، أو تساهلوا في الأمر ربما بحسن نية ، غير مقدرين

(1) - أحمد زكي أبو شادي : ثورة الإسلام ، د ط ، مكتبة الحياة ، بيروت : د ت ، ص ص 112 - 113 .

(2) - فريدون هويدا : الإسلام المعطل ، د ط ، دار النشر مارينور ، الجزائر : 1996م ، ص 136 .

(3) - أحمد مفلح القضاة : " أحوال العالم الإسلامي منذ بدء الغزو الصليبي حتى ظهور صلاح الدين الأيوبي " ، المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم : العدد 26 / مارس 1994م ، ص 15 .

للعواقب الدينية و السياسية و الاجتماعية الخطيرة ، التي تتجر عن مثل تلك السلوكات و الممارسات في حياة الأمة ، و منهم القائد " صلاح الدين الأيوبي " (\*) ، الذي أعاب عليه إدخال المذاهب الأربعة في مناهج التدريس بالجامع الأزهر ، بعد أن كانت تقتصر على المذهب الشافعي ، في الوقت الذي كان يتوجب فيه عليه أن ينقل هذا الأخير ، من وضع المذهب الفرعي إلى المذهب الجامع الذي يستند إلى : " أصل الأصول " و هو القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ، فيجنب المسلمين آثار النزاعات المذهبية ، الناجمة عن روح التعصب و كراهية الآخر بمجرد الاختلاف معه في المذهب . فمصر كانت لا تزال تحت تأثير المذهب الشيعي (1) ، الذي عمل الخلفاء الفاطميون و دعواتهم في مصر و في البلاد التي كانت تحت سيطرتهم ، بشكل نشيط على نشره ببذل الأموال و جعله مرجعا في القضاء ، الأمر الذي أدى إلى انحصار نفوذ المذهب السني . و قد بلغ التعصب المذهبي فيه ، و في نفوس أمرائه و فقهاءه مبلغا عظيما ، إلى أن جاء " صلاح الدين " الشافعي المذهب ، و قام بمحاربتة و تقديم المساعدة للفقهاء السنة (2) .

أما بغداد و بلاد الشام ، فالأولى كانت غارقة في مشاكلها الداخلية ، في حين كانت الثانية مشغولة بصد الحملات الصليبية . أما بلاد المغرب و الأندلس ، فلم يتغلغل التعصب المذهبي فيها مثلما تغلغل في بلاد المشرق ، و بالتالي فإن الفرصة كانت مواتية في اعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، أمام " صلاح الدين " ليقضي على المذهبية و التعصب و لكنه لم يفعل (3) .

(\*) - " صلاح الدين الأيوبي " : هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملقب بالملك الناصر صلاح الدين ، ولد سنة 532 للهجرة الموافقة لسنة 1137 بقلعة " تكريت " على نهر " دجلة " التي كان والده واليا عليها ، أما موطنه الأصلي فهو بلدة " دوين " " بأذربيجان " التي ينحدر أهلها من أصول كردية . بعد ولادته استقر والده في مدينة " الموصل " ، التي أكرمه فيها " عماد الدين زنكي " . أقبل على طلب العلم و المعرفة منذ صباه فتعلم على يد أساتذة كبار . تولى الوزارة و عمره اثنتان و ثلاثون سنة ، ولما آل الحكم إليه عمل على تنظيم الطاقات المادية و المعنوية ، لطرد الصليبيين من القدس و البلاد العربية و الإسلامية التي احتلها ، حيث ظل يحاربهم طيلة 17 سنة ، توفي سنة 589 هـ .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 116 .

(2) - محمد الرحيل غرايبة : " جهود صلاح الدين الأيوبي في بعث المذهب السني في مصر و الشام " ،

المجلة العربية للثقافة ، مرجع سابق ، ص 187 و ما بعدها .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 116 .

و منه نستخلص أن " صلاح الدين " في نظر الإبراهيمي ، استطاع أن يوحد العرب و المسلمين ضد الصليبيين ، الذين احتلوا مناطق واسعة من المشرق العربي ، منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي ، و تمكن من طردهم من القدس ، لما توفر عليه من خصال القيادة و حسن التدبير .

و في المقابل من ذلك ، فشل فشلا ذريعا في جمع المسلمين حول مذهب واحد يؤول إلى الكتاب و السنة ، رغم أن الظروف كانت مواتية له على كافة الأصعدة . و في هذا حاول الإبراهيمي أن يجد له عذرا ، و هو أنه شخصية سياسية و عسكرية أكثر منها دينية ، و على هذا الأساس يقع جزء من المسلمين المقربين منه و منهم بطبيعة الحال علماء الدين ، الذين ربما لم يشيروا عليه لخطورة ما أقدم عليه ، بتشجيعه للمذهبية و لو كانت سنية .

و من مظاهر خروج قيادة الأمة في تصور الإبراهيمي ، سكوتهم عن أباطيل رجال الصوفية المنحرفين ، كتشبيد القباب التي هي بمنزلة الأصنام التي أظلت فئة كبيرة من المسلمين عن دينهم و ديانتهم ، فبالغوا في تعظيمها و تقديسها حتى تحولت إلى معابد تزار و تقدم لها القرابين و النذور ، طمعا في قضاء الحاجات التي لا تطلب إلا من الله ، و يحلف بها من دون الله . فلم يتصدوا لها بحزم في بداية الأمر ، قبل أن تستفحل و تتمكن من عقول الأمة ، بتفقيها في دينها و إرشادها إلى سيرة الأنبياء " إبراهيم " عليه السلام و محمد " ص " <sup>(1)</sup> اللذان حاربا الوثنية التي كانت دين العامة و الخاصة على حدّ سواء ، فهما أفضل من يعتبر به في هذا المقام ، و في ما يواجه الأمة من حوادث و تحديات حاضرا و مستقبلا .

و من علماء الدين الذين إنتقدهم الإبراهيمي ، شيخ الإسلام في تونس الشيخ طاهر بن عاشور (\*) ، الذي إنتقده نقدا لاذعا في مقال بعنوان : (( أ شيخ الإسلام أم شيخ المسلمين )) ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 397 .

(\*) - الطاهر بن عاشور : علم من أعلام الثقافة العربية و الإسلامية في تونس ، كاتب و خطيب تميز بالبراعة العلمية و الأدبية و السياسية ، تلقى تعليمه في المعهد الزيتوني و جامعة الزيتونة ، انتسب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1931م ، عمل مدرسا سنة 1932م ثم قاضيا . بدأ الكتابة الصحفية منذ سنة 1928م ، زار بلدانا كثيرة منها : فرنسا ، مصر ، الحجاز ، الجزائر ، تركيا ، الشام ، ليبيا ، المغرب الأقصى ، النمسا ، اليونان ، يوغسلافيا ، بلغاريا . شارك في مؤتمر المستشرقين باسطنبول عام 1951م .

بسبب فتوى أصدرها ، رخص فيها قراءة القرآن على الأموات ، معتبرا ما قام به إرضاء للذين وضعوه في هرم الفتيا في تونس ، مما يستلزم أن ينزع منه لقب " شيخ الإسلام " . وقد كان الإبراهيمي قبل ذلك ، من المنوهين و المعجبين بالأستاذ " بن عاشور " ، إذ عدّه في مقال له إماما للنهضة العلمية في الشمال الإفريقي رفقة الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " (1) .

و بناء على هذا ، نستنتج أن الإبراهيمي ، لا يجد حرجا في انتقاد أو مهاجمة أولئك العلماء ، الذين يخضعون لإملاءات أو ضغوط الجهات التي نصبته في المناصب التي يشغلونها ، بدل الخضوع لأحكام الدين و مصالح الأمة ، مهما كانت المكانة العلمية التي يتبوعونها ، و هو ما حدث مع الشيخ " الطاهر بن عاشور " مفتي الديار التونسية آنذاك ، فقد اعترف له في بداية الأمر بتفرد العلمى و بجهوده الإصلاحية التي باشرها في تونس ، شأنه في ذلك شأن الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " في الجزائر ، لكنه سرعان ما أنتقده بشكل عنيف و قاس ، بمجرد أن قبل المساومة في قضية دينية ، انطلاقا من اعتقاده أن هذا السلوك الذي قام به " ابن عاشور " ، يحط من منزلة عالم الدين و يضعه في منزلة العلماء المنحرفين .

و الأمر ذاته ، كان يقوم به مع طائفة من العلماء في الجزائر ، أطلقت على نفسها اسم " علماء السنة " ، و هم أبعد ما يكونون عن السنة حسبه ، حيث اتهمهم (( بالتزوير )) و ( الأمية )) و (( الاسترزاق )) عن طريق الدين ، أكثر من ذلك وصفهم بـ : (( اللصوص )) ، الذين يتميزون عن اللصوص العاديين بكونهم يتلصصون باسم الدين (2) . و أرجع سبب الاختلاف معهم ، كون أن العلماء المصلحين يسعون لتحرير المسلمين ، من عبوديتهم و استغلالهم لأموالهم و أرزاقهم ، بالتضليل و التجهيل و الإغفال ، تحت شعار مزيف (( أولياء الله )) ، حتى و إن كان يستبشرون المحرمات ، و منهم من : (( يبيع الأولاد للعقيم و يبيع الراحة للسقيم - المريض - ؟ )) ، و فيهم من يتوعد المسلم بدمار ثروته و موت أولاده و زوال رزقه ، إن هو خالف عادة أو قصر في شيء اتجاههم . غير مكثرئين لعواقب ما كانوا يقومون به من بدع قضت على كل ما بثه الإسلام من فضائل و قيم ، و شجعت الانحلال و الانحراف الأخلاقيين ، و قتلت في الأمة روح الذكاء و القدرة

من أهم مؤلفاته : " الحركة الفكرية في تونس " .

(1) - ينظر محمد البشر الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 226 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 115-144 .

على العطاء و الإبداع و العمل ، حتى أضحت مضرب المثل بين الأمم في البلادة و الجمود و الكسل .

و يضيف بأن الأسوأ من كل ذلك ، هو أن أعداء الدين من الأجانب ، يرون أن ما تسوقه هاته الطائفة من العلماء هو الإسلام بعينه ، يرقصون أمامهم كما ترقص القرود ، و يلتهمون الزجاج و الحديد و الحيات ، فينطبع لدى أولئك الأجانب المتربصين أصلا بالإسلام ، أنها تلك تعاليمه و آثاره ، رغم أن الإسلام بريء من كل تلك الأعمال . و يزيدون على ذلك ، ما يلقونه من محاضرات و خطب ، و ما ينشرونه من مطبوعات و كتب ، و ما يؤسسون من جمعيات للطعن في الدين . و خلص في الأخير إلى أن جناية علماء الدين الفاسدين على الدين ، عظيمة جدا و هي تعطيله (1) .

و الحق أن الإبراهيمي ، خاض صراعا شرسا و مريرا مع أعلام و شيوخ الصوفية المنحرفين في الجزائر ، الذين لما ضاقوا ذرعا بما كان يقوم به من نشاطات إصلاحية و تربوية معادية لهم ، فحاولوا النيل منه بشتى الوسائل و الطرق ، و منها القول فيه أنه من شر الناس الذين إبتلي بهم الإسلام و المسلمين في الجزائر ، و أنه داعية ضلال و أفاك أثيم ، و فيلسوف ماسوني (\*) مروج الإلحاد و الكفر ، فضلا عن كتابة التقارير و الشكاوى إلى السلطات الإستعمارية العليا ، في البلاد التي كانت تتابعه و تراقبه عن قرب (2) .

و إذا كان الإبراهيمي ، يحمل قسطا كبيرا من المسؤولية لعلماء الدين أنفسهم ، فيما هم عليه من تهميش و تغييب عن الحياة العامة ، فإن المجتمعات الإسلامية في نظره تتحمل جانبا منها ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 117،116،121 .

(\*) - الماسونية : هي حركة عالمية يكتنفها الكثير من الغموض و الأسرار ، سعت عن طريق محافلها إلى جلب أكبر عدد من المنخرطين إليها من مختلف الأجناس و الأديان تحت شعار الإخاء الإنساني ، بعيدا عن التعصب الديني و المذهبي أو القومي أو العرقي ، أي ربط الناس برباط الأخوة بعيدا عن كل الاعتبارات . لكن الكثير ممن كتبوا عنها قالوا أنها تحمل في ظاهرها دعوة إنسانية تدعو إلى الإخاء ، أمر في حقيقتها فإنها حركة أنشأها اليهود ، و هو الذين يسيطرون عليها و يوجهونها خدمة لمصالحهم القومية و الدينية . للمزيد ينظر صابر طعيمة : أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت : 1984م ، ص 285 و ما بعدها .

(2) - ينظر بشير فايد : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية ، ص 75 و ما بعدها .

بسبب العادة غير السليمة التي شاعت بينها منذ عدة قرون ، و هي المبالغة في تعظيم العلماء ، و منها المجتمع الإسلامي في الهند الذي تجاوزت فيه هذه العادة الحدود المشروعة و المعقولة . فمن جانب الإبراهيمي ، أن المبالغة في الأشياء تفسد حكمتها و تشوه صورتها ، فلا شك أن إظهار التقدير و الاحترام للعلماء ، سلوك اجتماعي محمود ينبغي الحث عليه ، لكن المبالغة فيه تتجرّ عنه نتائج سلبية في الأمة ، فيتحول إلى شعور عام بالنقص في كل المناحي ، و ينتهي إلى التآليه ، خاصة في المجتمع الهندي ، المتطبع نفسيا و ذهنيا على المبالغة و الغلو في التعظيم .

و قد وقف الإبراهيمي بنفسه على هذا الواقع ، أثناء رحلته التي قادته إلى باكستان سنة 1952 م ، إذ أنه كان كلما خطب في صلاة الجمعة ، و همّ بالانصراف بعد انتهاء الصلاة ، اعترضه المصلون يقبلون يديه و يضعونها على جباههم و أقفائهم ، و منهم من يتمسح بثيابه . و عبثا حاول إقناع الجميع بخطأ ما يفعلونه ، فقد كان الإقبال يزداد عليه من جمعة لأخرى . و بقدر ما أندش من تصرفات العامة تلك معه ، بقدر ما استغرب من رد فعل بعض العلماء الباكستانيين المرافقين له ، الذين أنكروا عليه تمنعه ، و صدّه لتلك الجموع البشرية المتهافئة لرؤيته و التبرك به رغم انه في إحدى المحاضرات التي ألقاها ، تحدث بشيء من الحدة ، عن تقصير العلماء و تخاذلهم في ميدان التربية الاجتماعية ، و سكوتهم عن الانحرافات الاجتماعية التي لا ينبغي التساهل معها مهما كانت بسيطة ، لأنها بالتقادم تتحول إلى معضلات اجتماعية كبرى يستعصى حلها : (( إن الصغائر في العامة تستحيل كبائر بالمبالغة فيها و بالسكوت عليها من العلماء و أهل الرأي )) .

و في نهاية المطاف ، نصل إلى أن الإبراهيمي اعتبر فساد علماء الدين و انحرافهم ، السبب الرئيس في انحطاط العرب و المسلمين ، إما بسبب الغفلة و التخاذل ، أو بالسكوت جبنا و تواطؤا ، فجاءت انتقاداته لهم لاذعة و قاسية في الكثير من الأحيان ، إدراكا منه بأهمية الدور الذي يفترض أن يؤديه في المجتمع ، من خلال قيامهم بواجباتهم كقيادة موجهين و مراقبين ، لا كتبّع و منقادين لغيرهم . دور يؤهلهم لتأديته على أكمل صورة ، رصيدهم الديني و العلمي و الأخلاقي ، و هو ما لا يتوفر في غير علماء الدين (1) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 45-46 .



**02 - تعطيل العمل بالدين الإسلامي :**

يشكل الدين مقوما من مقومات الرقي و التقدم ، لما يتميز به من عناصر و قيم ، تزرع في الإنسان روح الاكتشاف و حب الخير و الأفضلية ، و الطموح الاجتماعي ، و الانطلاق في الحياة بتفاصيلها و تعقيداتها و تحدياتها . و الأمر ذاته بالنسبة للمجتمعات ، فبفضله تتوثق الأواصر الاجتماعية ، و تنتظم القوانين و المؤسسات ، و تتوحد الأهداف و الغايات ، و يتوجه نشاط المجتمع نحو الوجهة الحضارية السليمة . و به أيضا يدرك الفرد الدور ، الذي يفترض أن يقوم به في محيطه الضيق و الكبير ، على اعتبار أن الدين هو أهم مصدر للقواعد التربوية و السلوكية . كل ذلك يجعل منه عنوانا للحضارات ، و رمزا بارزا ، تتطبع بصورة إيجابية أو سلبية ، بمعنى أن المرجعية الدينية هي المحددة للمضمون الحضاري لأية حضارة إنسانية <sup>(1)</sup> .

و بالتالي فإن الحاجة إلى الدين في المجتمعات البشرية ضرورة ملحة ، لتأطيرها و معالجة الظواهر الاجتماعية المستجدة ، التي تفرزها الحضارة المتغيرة باستمرار ، لأن الدين هو الأكثر قدرة من غيره ، على طرح التصورات لمثل تلك الظواهر ، و هذا ما يفسر اتخاذ الإنسان عبر التاريخ الدين ملاذلا له <sup>(2)</sup> . و على هذا الأساس قامت الحضارة العربية و الإسلامية ، التي جعلت من الدين الإسلامي منطلقها الأيديولوجي ، و مصدره القرآن الكريم الذي لغته العربية . و من خلال القرآن الكريم ، عرف عن الإسلام أن له شعبتان أساسيتان هما العقيدة و الشريعة : فالأولى في الجانب النظري أو الغيبي ، الذي يطلب من المسلم أن يؤمن به إيمانا تاما و قطعيا ، قبل أن تنتقل إلى الجوانب الأخرى ، تحكمها النصوص الواضحة و الجازمة . أما الشريعة ، فيقصد بها الأحكام التي شرعها الله ، أو شرع أصولها لتنظيم علاقة الإنسان بخالقه ، و بأخيه الإنسان و بالكون و بالحياة . و من ثمة فإن الإسلام لم يكن عقيدة فقط ، و إنما شريعة تهتم بتوجيه الإنسان إلى ما يحقق له الخير الطمأنينة و الازدهار <sup>(3)</sup> .

<sup>(1)</sup> - قسطنطين رزيق : في معركة الحضارة ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1977م ، ص 9 .

<sup>(2)</sup> - TAHAR GAID , OP-CII , PP.349-373 .

<sup>(3)</sup> - حسن جبر : أسس الحضارة العربية الإسلامية و معالمها ، د ط ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة :

1999م ، ص ص 46-47 .

و منه فإن الحضارة العربية الإسلامية ، كانت ثمرة المجتمع المسلم ، الذي تكفل الإسلام بإنشائه و إعداده إعدادا اجتماعيا سليما ، و به و فيه تشكلت و نمت و ازدهرت في ظرف قصير جدا (1) ، حتى صارت من أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية ، و أكثرها تفردا و تميزا و تأثيرا في غيرها تمدينا و أخلاقا ، بفضل حيوية الإسلام و مرونته ، و قدرته على الدفع بالفرد و المجتمع ، إلى الإبداع و الابتكار . و هي خواص افتقدتها الحضارات العظيمة ، التي سبقت المدنية العربية الإسلامية (2) .

و برأي الشيخ البشير الإبراهيمي (3) ، أنه إذا كان التاريخ يشهد ، أن الإسلام كان السبب الرئيس في رقي العرب و المسلمين الأوائل ، فكيف بالباحثين الغربيين أو ممن يحملون عصبية على المسلمين أو حقدا لدينهم ، يذهبون إلى أن الواقع المتردي و المنحط الذي بلغه العرب و المسلمون ، إنما يرجع في الأصل إلى الدين الإسلامي ، الذي يحمل حسبهم في جوهره عناصر التخلف و الإنحطاط ، و عقيدة الأوهام و الخرافات . و لذلك يتعين عليهم إن هم أرادوا الخروج من المأزق الحضاري الذي هم فيه ، أن يطرحوا هذا الدين جانبا ، و يأخذون بغيره من الديانات أو الأيديولوجيات الغربية ، الكفيلة بتغيير واقعهم . و هذا برأيه (( شعوذة )) ، لا تستطيع أن تحقق أهدافها المرجوة ، حتى و إن وجدت من - العرب - المسلمين من يتبناها أو يدافع عنها . و لعله أراد هنا ، أن يقول بأنه من غير المعقول ، أن يكون من كان السبب في الصعود و الإزدهار ، سببا في التقهقر و الإنحطاط ، فالإسلام الذي حرر العقل من القيود ، ليقوم بمهام التفكير و التدبير ، لن يكون السبب في تقييده و الحجر عليه . و إنما السبب وفق ما ذهب إليه الإبراهيمي ، هو تعطيل العمل بالدين الإسلامي من خلال : هجر القرآن الكريم ، و الحجر على الإجتهد و النزوع إلى النقل و التقليد .

(1) - عبد الرحمان علي الحجّي : أضواء على الحضارة و التراث ، د ط ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت ، ص 81 .

(2) - غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط 3 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة : 1956م ، ص 186 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 226 .

**- هجر المسلمين للقرآن الكريم :**

عرف الشيخ البشير الإبراهيمي (1) ، القرآن الكريم بأنه : (( كتاب الكون لا تفسره حق التفسير إلا حوادث الكون ... كتاب الدعوة لا تكشف عن حقائقه إلا تصاريف الدهر ... كتاب الهداية الإلهية العامة ، لا يفهمه إلا المستعدون لها . لا يبلى جديده و لا تنقضي عجائبه )) . بمعنى أنه كتاب إلهي شامل ، يحوي حقائق كونية و علمية دقيقة و قطعية ، لا تتعارض مع العقل و المنطق ، و لا يرقى إليها الشك . و أنه كتاب جاء لهداية البشر و إسعادهم ، بشرط أن يحسنوا فهمه و تدبره ، و كتاب معجزات لا تتوقف عن الظهور ، في كل زمان و مكان .

و بين أن المسلمين ما انحدروا و انحطوا ، إلا لأنهم إبتعدوا عن هدايته و طرحوه جانبا ، و لم يحكموه جانبا ، و لم يحكموه فيما اختلفوا فيه من أراء ليدلهم على الأصوب و منها . و فيما يتعرضون إليه من فتن فيطفئها ، و فيما يعترئهم من انحرافات ليعالجها ، و في اضطرابهم في اختيار السبل فيوجههم إلى أحسنها . و في تضارب المصالح و المفاصد لديهم ليميزوا بينها ، و في العقائد ليفرق بين صحيحها و باطلها ، و في الأحكام المتشعبة ليفصل فيها . و كل ذلك احتوى عليه القرآن ، تصریحا أو تلمیحا .

أما الأسباب ، التي دفعت المسلمين إلى هجر القرآن في نظره هي عديدة ، يمكن تصنيفها إلى صنفين : الأول ذاتية ، و الثانية خارجية :

\* - الأسباب الذاتية : و تتمثل في الانشغال بآراء العامة ، و بالمصطلحات التي تتغير بتغير الزمان ، و بمرور الزمن حدثت الغفلة و هيمن التقليد ، و شاعت ظواهر تقديس الأئمة و المشايخ ، و التعصب للأباء و الأجداد و ظهرت منهم طوائف غالت في العبادة ، فنجم عنها التصوف و الاستغراق ، اللذان أخلا بالتوازن الذي أوجده الإسلام بين الجسم و الروح . و غالت أخرى في تنظيم العقل ، فتجاوز الحدود المرسومة له و طرق أبواب الغيبيات ، و أمدت به السبل إلى البحث في الخالق و وحدانيته ، فظهر علم الكلام و ما صاحبه من جدل و تأويل ، و تعطيل لأحكام الدين . و النتيجة أن كثرة الطوائف المتصارعة ، أدت إلى اضطراب العامة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 مصدر سابق ، ص 226 .

و تخبطها ، و تفرقها تفرقا شنيعا في الدين ، فوقعت في يد حكام مستبدين ، إستغلوا فرصة فقدان العلماء المتناحرين سلطانهم عليها ، فعطلوا دينها و أفسدوا عليها دنياها .

\* - الأسباب الخارجية : و تتمثل في المؤامرات و الدسائس ، التي ظلت تحاك ضد الإسلام من ظهوره و إلى الآن ، بدءا بحركات وضع الأحاديث ، و التيارات و الأيديولوجيات المعادية له ، إلى مساعي المبشرين و المستشرقين لبث الشكوك في نصوص القرآن ، بغرض صد المسلمين عن هدايته و هي أخطر مما يتصوره العلماء المسلمون ، و يقدره حكامهم (1) .

و لقد أدى كل ذلك ، إلى ضعف الدعوة الإسلامية التي تلاشت أكثر فأكثر ، بتزايد حدة الفرقة و الاشتغال بالجدل الداخلي ، و التغافل عن أهمية الدعوة داخل المجتمع الإسلامي نفسه ، و في غيره من المجتمعات . و في المقابل من ذلك ، تهافتت دعايات الديانات الأخرى على الإسلام ، و ما أنجبتة من مذاهب مادية تقدر المادة و ترفعها إلى مصاف الآلهة ، و مذاهب فكرية تدفع بالمسلم إلى ترك دينه . و قد تشعبت تلك المذاهب الفكرية إلى شعبتين :

- الأولى : استخدمت كل الوسائل الممكنة ، لإخراج المسلم من حاضرة الدين الإسلامي و إدخاله في دين آخر ، بالتركيز على فئة اجتماعية محددة هي الأطفال و الأحداث . - أما الشعبة الثانية ، فتبذل مساعيها لجعل المسلم يترك دينه و يكفر بكل الديانات ، باستهداف الشباب الإسلامي ، مستغلة في ذلك خصوصية و حساسية مرحلة الشباب في حياة الإنسان ، حيث يتميز خلالها بالمشاعر القومية . و العواطف المتأججة ، و سرعة التأثر و الاندفاع الكبير . و كتنا الشعبتان تلتقيان في هدف واحد ، هو إبعاد المسلمين روحيا عن دينهم ، الذين يشكلون نسبة كبيرة من سكان المعمورة ، تمهيدا لتمزيق وحدتهم ، حتى يتيسر لأصحابها السيطرة على ثرواتهم و مقدراتهم الاقتصادية (2) .

إن ما أشار إليه الإبراهيمي هنا، هو الغزو الفكري الذي يقصد به تلك الوسائل غير السلمية ، التي وظفتها الدول المسيحية عبر التاريخ الإسلامي ، لإزالة جميع مظاهر الحياة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 227-228 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 284-285 .

الإسلامية ، و صرف المسلمين عن التمسك بدينهم و ما يرتبط بالعقيدة ، و ما يتصل بها من أفكار و تقاليد و أنماط سلوكية <sup>(1)</sup> .

و هو بذلك ، أراد أن يلفت انتباه قادة العرب و المسلمين و علمائهم ، إلى مخاطر الحضارة الغربية المادية ، القائمة أصلا على معاداة الأخلاق و العقائد ، و التي تمكنت من زرع مذاهب و نظريات و أفكار ، وسط المسلمين و خاصة منهم الشباب ، تنفر من الأخلاق تمهيدا لإلغائها ، و تحرض على الإباحية و التمرد الفكري باسم العلم كـنظريات : " سيغموند فرويد " ( SIGMAND FREUD ) ( 1895م - 1939م ) ، و " تشـارلز داروينـن " ( CHARLES DARWIN - 1809م - 1882م ) ، و " جان بول سارتر " ( JHON PAUL - BAROK SPINOZA ) ( 163م - 1677م ) ، و " سارتر " ( SARTRE ) ( 1905م - 980م ) ... و غيرهم <sup>(2)</sup> . فأصبح من المسلمين أنفسهم ، من يجهر بأن الدين رجعية و جمود و انحطاط و تخلف ، و على الأمة أن تتخلص من تلك الرجعية ، إذا أرادت أن تنهض و تتطور <sup>(3)</sup> .

و قد اعتبر الشيخ البشير ، هاته الحملة الفكرية الغربية ، من أخطر ما تعرض له الإسلام و المسلمون طيلة التاريخ الإسلامي ، و أنه من المؤكد ألا يغيب عن أهل الرأي و العلم من المسلمين ، إدراك كونها مخططا إستراتيجيا محكما له غايات محددة ، و يستند إلى قاعدة مادية و معنوية صلبة : (( و من ظن من عقلاء المسلمين و علمائهم أن هذه الحملة عليهم و على دينهم ليست مدبرة و ليست منظمة و ليست متعاونة و ليست مرصدة لوقتها و رامية إلى هذا الهدف ، من ظن هذا أقل درجته أنه مغفل جاهل مغرور )) <sup>(4)</sup> .

و لقد بلغ في رأيه ، استخفاف المسلمين بالقرآن الكريم ، أن حولوه إلى مجرد كلام تلوكه الألسن ، و تتلهم بسماعه الأذان ، يتنافس قراؤه على قراءته على الأموات أو في المقابر أو طلبا للبركات . أما عامة الناس فأنزلوه منزلة (( البصل و الكراث )) ، يطيبون بآياته و سورته الأمراض

<sup>(1)</sup> - محمد قطب : واقعنا المعاصر ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر : د ت ، ص 195 .

<sup>(2)</sup> - محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 14 .

<sup>(3)</sup> - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1986م ، ص 111 .

<sup>(4)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 284-285 .

و العلل البدنية ، التي تتسبب فيها الحرارة أو البرودة . أما العلماء فيدرسونه بلغة عرفية ، و يتناوله بعقول يسيطر عليها الفكر الطائفي ، و التعصب المذهبي ، و النزوع إلى الجدل و المسائل اللغوية ، و بمؤلفات تعج بالإسرائيليات و الآثار الموضوعية و النظريات . فيكون الضحية الأولى لذلك ، الطلبة الذين يتلقون علما بالأسنة أبعد ما تكون عن الفصاحة و البيان العربيين ، لكثرة حشوها بالمصطلحات و الألفاظ العامية و الأجنبية ، ففسدت أذواقهم و أختلت تصوراتهم ، و بأفكار هيمن عليها الجمود ، و أغلق عليها بإحكام منافذ التفكير . و بنفوس تمكن منها الملل و التشاؤم ، فقبلت بسماع كل غامض و تلقي كل ما لا يستسيغه العقل ، فزهدت في الحياة و أختل تقديرها للأمور ، فأصبحت لا تميز بين العلم و غير العلم ، و بين العالم و غير العالم . العوامل تلك مجتمعة ، حالت دون فهم المسلمين للقرآن الكريم ، فأزهدتهم فيه و صدتهم عن الانتفاع به <sup>(1)</sup> .

و في هذا الإطار التحليلي ، يظهر لنا أن الإبراهيمي ذهب في تحليله هذا ، إلى القول بأن المسلمين عامة و خاصة على حدّ سواء ، قد أساءوا التعامل مع القرآن الكريم ، كمرجعية دينية و فكرية و اجتماعية و حضارية ، حيث أنزلوه منزلة وضيعة لا تليق بمقامه ، من خلال تحويله على وسيلة للاستشفاء من الأمراض و الأسقام ، التي تكون أسبابها في غالب الأحيان عضوية و إلى مسرح لاستعراض الحساسيات و الخلافات المذهبية و الطائفية و اللغوية ، و حتى للأيديولوجيات الوافدة . الأمر الذي أربك كل شيء في حياتهم ، و تحول هذا الكتاب من محفز إلى الانطلاق في أفاق الإبداع و الفكر الرحبة ، إلى مثبت للعزائم و دافع إلى الكسل و الخمول و التثاقب على الذات . ليس لعلة فيه ، و إنما لسوء فهمه و تقدير أهميته في الحياة الإسلامية ، على كافة المستويات و الأصعدة . و قد أزمّ الوضع أكثر ، لجوء الكثير من الأمم الإسلامية إلى استبدال القرآن الكريم ، بمنظومات قانونية غربية ، لا تتفق مع واقعهم الاجتماعي و الديني ، حتى و إن نجحت في البيئات التي ظهرت فيها .

و دليله على صحة رأيه هذا ، موجود في أرض الواقع ، إذن أن تلك الأمم - العربية - الإسلامية التي استوردت تلك القوانين الغربية ، لتضعها محل القرآن الكريم ، لم تتمكن من تغيير

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 362 .

أوضاعها قيد أنملة ، بل أنها ساءت أكثر من ذي قبل ، لأن الذي : (( لم ينتفع بقديمه لم ينتفع بجديد الناس )) .

و قد لجأت إلى ذلك ، ليس لأن الإسلام لم يعد يواكب العصر ، و إنما لأنه لم يبقى فيها من الإسلام إلا اسمه ( <sup>1</sup> ) . فحالها حسب الإبراهيمي كحال من يداوي : (( الحمى بالطاعون )) ( <sup>2</sup> ) .

و في الواقع ، تعد تركيا السبابة في هذا المجال ، فبدل أن تعمل على إحياء العقيدة الإسلامية التي تجمدت و تحجرت ، و فقدت حيويتها التي اتسمت بها في العصور السابقة ، و تحولت إلى مجموعة من التقاليد المقدسة ظاهريا ، لا تحمل في مضامينها أي قدرة على التأثير الفعال في عالم الواقع ( <sup>3</sup> ) . راحت تقتبس كل شيء من الحضارة الغربية ، بدءا من القوانين العلمانية ( اللادينية ) و انتهاء باللباس و العادات الأوروبية ، و تدير ظهرها لكل ما هو إسلامي و شرقي . و قد تزعم هذه الحركة " مصطفى كمال أتاتورك " ، الذي سعى على نحو الصبغة الدينية للدولة التركية من خلال :

- إلغاء وزارة الأوقاف ، و إلحاقها بوزارة المعارف .
- منع جميع الطرق الصوفية بداية من بداية شهر جوان 1924م ، و إغلاق كل الزوايا .
- ممارسة القسوة و العنف ، ضد كل نقد ديني للدولة .
- تحديد عدد المساجد ، و تخفيض عدد الوعاظ .
- غلق بعض المساجد ، و تحويل بعضها إلى متاحف و مستودعات ( مسجدا أيضا صوفيا و الفاتح ) .
- ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية في أفريل 1931م ، مع التفسير .
- فرض الأذان باللغة التركية .
- فسح المجال ، أمام دخول الأتراك إلى النصرانية .
- زرع الروح الأوروبية في الفنون و الآداب .

(<sup>1</sup>)- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 69 .

(<sup>2</sup>)- المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 423 .

(<sup>3</sup>)- محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 115 .

- فرض اللباس الأوروبي على عامة الناس... و غيرها من الإجراءات ، التي تصب في خدمة القومية الطورانية ( التركية ) ، على حساب القومية الإسلامية (1) .

و لهذا السبب ، صنف الإبراهيمي " كمال أتاتورك " ، في خانة خصوم الإسلام الموجودين بكثرة في كل مكان و زمان ، و الذين يتمنون زواله و إنقراضه ، و لتحقيق ذلك يوظفون كل الوسائل المتاحة لهم ، و حتى الحقيرة منها و في ذلك قال : (( و في الأرض عدد حصاها أعداء له يتمنون بقاصمة الظهر أن ينطفئ نوره ، و يستتر ظهوره ، و يوظفون في سبيل محوه من الأرض بما كسبت الأيدي و أحتبقت الخزائن من الأموال ، و بما أخرجت بطون النساء من الرجال ، و بما أنتجت القرائح من مكر و إحتيال و كيد و محال )) (2) ، ينظرون إلى كل الموروث الإسلامي ، نظرة إحتقار و إزدراء ، يعتقدون أنهم إذا إتبعوا الحياة الإسلامية و أخذوا بمبادئ و قيم الإسلام ، سيكون مصيرهم الإنحطاط و التخلف بدل الإزدهار و التقدم ، و أن اللحاق بقطار الحضارة ، لن يكون إلا بإعتناق الأفكار و المذاهب الغربية ، و إتباعها شكلا و مضمونا (3) .

و يضيف بأن هذه الفئة ، و إن كانت قد نجحت في إبعاد المسلمين عن كتاب دينهم ، و تعطيل العمل به في حياتهم ، فإنها فشلت فشلا تاما في النيل من القرآن الكريم نفسه ، لأن الذي تولى حفظه و إيقائه خالدا منزله الله سبحانه و تعالى ، و في إمكان المسلمين العودة إليه متى شاءوا (4) ، و سيجدون فيه ما كان سببا في إرتقاء أسلافهم الأوائل ، و جعلهم في مصاف الأمم المتقدمة روحيا و ماديا (5) .

و مما سبق ، نستنتج أن الإسلام في إعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، ليس مسؤولا بأي شكل من الأشكال عن تخلف المسلمين و إنحطاطهم ، لأنه كان و سيظل صالحا لكل الأزمنة ، بشرط أن يحسن فهمه و تدبره ، و من ثمة تطبيق تعاليمه على وجهها الصحيح ، و إنما المسؤول

(1) - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 115 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 1، مصدر سابق، ص 160.

(3) - ينظر أبو الأعلى المودودي : بين يدي الشباب ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1985م .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه، ص 160

(5) - المصدر نفسه ، ص 158 .



الحقيقي هم المسلمون أنفسهم ، الذي هجروا كتابهم و لم يربطهم بالإسلام إلا الاسم ، إذ لو أقيمت حسب الشيخ ، لجنة لامتحان إسلامهم ، لأستبعد منهم ما نسبته 99% (1) .

### 03 - الحجر على الإجتهد و النزوع إلى النقل و التقليد :

الاجتهاد لغة هو : (( بذل الوسع و الطاقة في عمل من الأعمال ، ماديا كان العمل أو فكريا للوصول إلى الغاية المطلوبة )) . أما اصطلاحا فهو : (( بذل الوسع و الطاقة الفكرية في استخراج حكم شرعي خفي ، لم يأتي به نص من النصوص الأصلية في التشريع : الكتاب و السنة )) (2) ، و هو أيضا : (( عملية استنباط الأحكام الشرعية من أدواتها التفصيلية في الشريعة . و معنى ذلك أن الشريعة حكما في كل حادث ممكن و فيها أدلة كافية لتهدى الباحث المجتهد إلى ذلك الحكم الشرعي )) (3) . و فضلا عن ذلك ، فالاجتهاد هو الركن الرابع من مصادر التشريع الإسلامي ، بعد الكتاب و السنة و الإجماع . و يعرف أيضا باسم " القياس " أو " العقل " أو " الرأي " ، انطلاقا من كون هذه الأسماء الثلاثة هي من أدوات الاجتهاد .

و على هذا الأساس ، حضت الشريعة الإسلامية بقوة على الاجتهاد ، فجعلت للمجتهد إذا أصاب أجران و إذا أخطأ له أجر واحد ، فاحتل مكانة متميزة و مرتبة رفيعة في الحياة الإسلامية (4) ، لم تمنح له في كل الشرائع القديمة و الحديثة على حدّ سواء ، فعند الرومان لم يكن معروفا لأن الشريعة كانت سرا من أسرار الكهنة و رجال الدين ، و لم يصبح مصدرا من مصادر الحقوق إلا في فترة وجيزة من الزمن ، و سرعان ما ضيق عليه القياصرة الخناق بصورة تدريجية حتى حصروه في أنفسهم . أما الشرائع الحديثة ، فقد أجمعت على أن القوانين هي المصدر الوحيد : (( للكشف على كل حكم حقوقي ضروري لحاجات الحياة الإجتماعية )) . و بذلك فإن الشرائع الحديثة و القديمة ، قد أقصت عنصر الإجتهد ، و حرمت على المفسرين أن يتجاوزوا

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 211 .

(2) - عبد المنعم أحمد النمر : " الاجتهاد في القرن الأخير ، المنهجية المتبعة و الإنجازات عرض و تقييم " ، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر ، ج 2 ، د ط ، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية، الجزائر: 1983م، ص ص 321-322.

(3) - مصطفى أحمد الزرقاوي : " الاجتهاد و دور الفقه و الاجتهاد " ، المرجع نفسه ، ص 139 .

(4) - معروف الدواليبي : " الاجتهاد في الإسلام من خلال قواعده الأصولية العلمية و مقاصد الشريعة الإسلامية " ، المرجع نفسه ، ص ص 123-125 .

بإجتهداهم حدود للتفسير في القانون ، الأمر الذي جعلها شرائعاً تفتقد إلى عامل الإستقرار الديمومة <sup>(1)</sup> .

و لقد أعجب أيما إعجاب ، العديد من المستشرقين الغربيين بجعل الإجتهد أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية ، و مصدراً من مصادرها ، و منهم المستشرق الألماني " كولد زيهر " ( GOLD ZIHER ) الذي وصفه بأنه : (( ينبوع القوة التي تجعل الإسلام يتحرك و يتقدم بسرعة )) ، و أنه : (( العقل الساهر على نمو الشريعة و إزدهارها ، و الذي يطرد العقم من قواعدها ، و تهمة الجمود في طبيعتها )) <sup>(2)</sup> . هكذا إن ، كان الإجتهد مصدر قوة و حركة ، و تطور للشريعة الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى من عمر الإسلام ، فسمح لها بمواكبة مستجدات الحياة ، و تعقد و تشابك متطلباتها المتزايدة بإطراد في شتى المجالات .

لكن الأمر إختلف مع بداية القرن الخامس للهجرة ، أين أغلق باب الإجتهد تدريجياً بحجة عدم الحاجة إليه ، و آل الفقه إلى الجمود و الركود ، و حل محله النقل و التقليد في كل العلوم الإسلامية ، فالفقهاء أضحوا يأخذون الفقه من مؤلفات ترشد إلى الأحكام و لا توضح الحكم ، و كان لذلك آثار سلبية في نفوسهم ، و هم مرجع الأمة في الفتوى ، و منها إعتبارهم لتلك الأحكام بمنزلة العبادات ، يحفظ ظاهرها و لا يجوز إعمال الفكر فيها ، لتلمس عللها و طلب حكمها ، و الوقوف على مقاصد الإسلام منها ، و كشف المواطن الإيجابية و السلبية فيها <sup>(3)</sup> .

و من الأمثلة التي ساقها الإبراهيمي ، للدلالة على جمود الفقه و الفقهاء مسألة الطلاق ، فبعد أن عرفه أنه : (( حل عقدة ، و بتّ حبال ، و تمزيق شمل ، و زيال خليط ، و انفضاض عامر ، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي إستعملها شعراء العرب و جرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال ، من إلتياح و حرارة ، و حسرة و مرارة ، و يزيد عليها جميعاً بمعنى آخر ، و هو ما يصحبه من الحقد و البغض و التآلم و التظلم )) . بين أن الزواج : (( عقد بين و بين و وصل بين نفسين ، و مزج بين روحين ، و في الأخير تقريب بين جسمين )) . ثم أعقب ذلك موضحاً ، أن الزواج قد تعثره من حين لآخر يلجأ إلى أبغض الحلال عن الله سبحانه

<sup>(1)</sup> - معروف الدواليبي ، المرجع السابق ، ص ص 124-125 .

<sup>(2)</sup> - المرجع نفسه ، ص 123 نقلاً عن : GOLD ZIHER : Le DAGME et La Loi de L'islam , Paris , p. 46.

<sup>(3)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 298 .

و تعالى ، حتى يستريح كل طرف مما يذيق به ذرعا ، مع إبقاء خيط الأمل في التئام الشمل من جديد ، فقد تزول بعض مسببات الطلاق ، فيرغب المطلقان في إعادة الوضع إلى أصله . و هو ما غفل عنه الفقهاء الجامدون ، المتمسكون بحرفية النصوص ، غير المدركين للعواقب الاجتماعية الخطيرة ، التي تتجر عن التساهل في الطلاق .

فقد تخرب بيوت و يمزق شمل أسرة و يشرذم الأولاد ، بسبب يمين بالطلاق إثر نقاش تافه بين رجلين في سوق أو مقهى ، أو بين زوج و صهره ، أو بسبب خلاف مع جار أو حديث في السياسة ، دون علم من الزوجة الماكثة ببيتها ، التي تجد نفسها رفقة أبنائها ضحية لتصرفات زوج أحمق و متهور . فيزيد الفقهاء الطين بلة ، بتشبيهم بقاعدة أن العصمة في يد الزوج التي يحفظونها عن ظهر قلب . و بتغافلهم عن كونه حق ثابت في الشريعة الإسلامية ، لكن لا يعطى إلا للمسلم الصحيح الإسلام لأنه عهد و أمانة ، فإذا أعطي للجهلة المتحررين من قيود الدين ، فإن العاقبة تكون أسوأ و النتيجة أخطر من إعطاء السلاح للمجانين ، لأن : (( عقدة الزواج عقدة مؤكدة حافظ عليها الأحرار ، و يتلاعب بها الفجار ، و أن العصمة إمتياز لرجالكم ما لم تطغوا ... )) .

و لعل أسوأ نتيجة تترتب عن الطلاق في تقدير الشيخ البشير ، ضياع الأبناء و شقائهم ، فإذا ربوا في أحضان أمهم المطلقة شقوا ببعدهم عن أبيهم ، و شقي بهم أبوهم بما تبثه أمهم في أنفسهم من حقد و كراهية له . و لهذا فإن الاستقرار الاجتماعي لن يتحقق ، إلا إذا ترعرع الأولاد في أحضان الآباء و الأمهات ، أين يتلقون العطف و الحنان من الطرفين لا من طرف واحد .

و نفهم من كل ذلك ، أن الإبراهيمي يذهب إلى أن المصلحة الاجتماعية ، تقتضي من الفقيه أن ينظر إلى أبعد من ظاهرة النصوص في مسألة الطلاق و في غيرها من المسائل ، لأن التساهل أو الغفلة عن علم أو جهل في الطلاق مثلا من شأنهما رهن مستقبل أمة بأكملها : (( ليت شعري هل يدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم و على أبنائهم و على أمتهم ؟ )) (1) .

و في سياق آخر ، انتقد منهج علماء الإسلام في العلوم الإسلامية ، فذكر أن إطلاعه على أغلب ما خلفوه لنا من إنتاج علمي و فكري و الذي يصطلح عليه اليوم بالعلوم الإسلامية ، جعله يكتشف أن التقليد يطغى عليه في كل الأطوار الزمنية التي مر بها ، من النهضة العلمية و إلى غاية عصور الانحطاط ، حيث افتقد إلى التحقيق و النقد و الاستقلالية في الرأي ، و الشجاعة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 297 و ما بعدها .

في الطرح ، لنتنقل العدوى إلى العلوم الأخرى التي تحولت إلى : (( أشباح بلا أرواح )) على حدّ قوله ، مما أعاق بشكل أساسي نمو و تطور الإنتاج الفكري و العلمي على حد سواء .

و أضاف بأن العلوم الإسلامية ، موضوع تاريخي مثل بقية المواضيع التاريخية ، و الباحثون المهتمون به مجموعة من الشرق و عدد قليل من الغرب ، تضاربت وجهات نظراتهم إزاءه ، بفعل تشابكه و تعقيداته ، و هو ما يفسر قلة الباحثين الذين أجادوا البحث فيه ، و وصلوا إلى نتائج تتعارض و الحقائق التاريخية ، لكن إذا كان من الممكن إعداز الباحثين الغربيين المشتغلين بالتراث العربي و الإسلامي ، في تقصيرهم بسبب العقبات التي تعترض سبيلهم . فإنه في المقابل لا عذر للباحثين المسلمين ، الذين لا تقف في طريقهم إلا عقبة واحدة هي التقليد ، الذي يشكل أكبر عائق للإنتاج الفكري و العطاء العلمي ، بل أنه السبب الوحيد في وأد ملكة الابتكار لدى المسلمين ، و قد تفاقم أمره حتى أصبح ظاهرة ملازمة للعلوم الإسلامية و تاريخها <sup>(1)</sup> .

و إن كان الإبراهيمي لم يذكر العقبات ، التي تعترض الباحثين الغربيين المشتغلين في مجال العلوم الإسلامية ، فإنه لا ريب تأتي على رأسها مشكلة اللغة التي مهما أتقنها الغربيون ، تظل حاجزا أمام فهمهم للإسلام كدين بصفة عامة و للفقه الإسلامي بصفة خاصة . بسبب خصوصية اللغة العربية ، التي تجعلها أصعب ما يكون لغير العرب ، حتى و إن كانوا باحثين أكاديميين مثل المستشرقين الغربيين . دون أن نخفل إنتماءهم لديانات أخرى تختلف عن الدين الإسلامي ، إختلافا صريحا ، و ما ينجر عن ذلك من إسقاط لتلك الخصوصيات على الإسلام ، الذي يتطلب فهمه الإمام بجوهره الذي هو ليس جوهر كل من المسيحية أو اليهودية ، أو الديانات الأخرى .

و من مظاهر إستحكام التقليد التي لفت إنتباه الشيخ البشير الإبراهيمي ، نزوع طالب العلم المتأخرين إلى الطاعة المطلقة ، لمن يسمون مشايخ الطرق الصوفية ، و سرعان ما إنتقلت تلك الصفة السلبية إلى المعلمين و المتعلمين على حدّ سواء ، فلا يخلو مجلس من مجالسهم منها ، رغم علمهم أن العلم مقرون بالدليل ، فتراهم يقصرون الإجتهد على طائفة محدودة من العلماء الأحياء و الأموات ، بحجة ان ما إنتهى إليه هؤلاء من إجتهدات يفى بالعرض ، و ليس هنالك حاجة إلى المزيد من الإجتهد . يقلدونهم في أدق التفاصيل ، التي لا ينبغي أن تؤخذ إلا من

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق ، ص 47 .

نصوص دينية صريحة ، من آيات محكمات و أحاديث نبوية صريحة ، فلا تسمع منها إلا كلمات يروجونها دون مثل : (( سلم تسلم )) ، و (( سلم للرجال في كل حال )) .  
 و الأمر نفسه حسبه بالنسبة لمؤلفي السيرة النبوية ، الذين يصرفون كل جهودهم و طاقاتهم إلى الجوانب السطحية التي لا يفيد الإقتداء بها في تركية النفس ، كطريقة لبس الرسول " ص " و أكله و شربه و نومه و إجتماعه بأهله . عوض الإهتمام بالنواحي الروحية في سيرته ، و إرتباطه بالله و خشيته له ، و حمله للأمانة العظيمة التي كلف بتأديتها ، و صبره على كل الأذى الذي لحق به ، و شجاعته و تربيته لصحابته ، و تدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تسموا إلى الكمال و : (( على السمع و الطاعة للحق و في الحق ، و على التعاون و التناصح و التحابب و الإتحاد ... )) ، و وضعه لأسس الدولة الإسلامية . فزادت الأمة على هذا التقصير ، بإحياء مولده باللهو و اللعب ، و بإقامة الأفراح و الحفلات التقليدية الخالية من المغزى الروحي ، الذي يفترض استحضاره في مثل هذه المناسبات الخاصة (1) .

و تكمن أهمية ما ذكر الإبراهيمي بشأن السيرة النبوية ، و طريقة تناولها من طرف المؤلفين المسلمين ، بكونه دعا إلى إعادة النظر في كل ذلك ، و النظر إليها نظرة جديدة بعيدة عن الجوانب الإحتفالية و الطقوسية و الشخصية ، ليس لصالح المسلمين فقط ، و إنما للإنسانية جمعاء التي هي في حاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى للقيم الإسلامية ، و إلى النماذج الإسلامية المثيرة للإقتداء ، خاصة في عصرنا الحالي ، الذي انفتح فيه العالم و أنفسح لاستقبال كل شيء و مراجعة كل شيء (2) .

انتقل بعدها للحديث عن المفسرين للقرآن الكريم ، الذين رأى أنهم أخضعوا عملهم لنزعاتهم الطائفية و المذهبية ، فضيعوا هديه و بلاغه ، و حرموا الأمة من حكمه و أسرار ه . فالمحدثون يكتفون في تفسيره بالمأثور ، فإن اختلفت الرواية فمنهم من يوردها بتناقضاتها فيترك المتلقي في حيرة من أمره ، و منهم من يجتهد برأيه فيعدل و يرجح مثلما كان يفعل " أبو جعفر الطبري " (\*) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 146 .

(2) - يسري محمد أرشد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ، سلسلة كتاب الأمة ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2006م ، ص 10 .

(\*) - أبو جعفر الطبري : هو أبو جعفر أحمد بن جرير الطبري ، مؤرخ و مفسر و فقيه شافعي ، حاول أن يكون له مذهب خاص ، ولد في " أمل " ب : " طبرستان " ، إستوطن بغداد و توفي بها سنة 310 هـ / 923 م .

في حين يفسر مقلدوا المذاهب القرآن على قواعد مذهبهم ، فإن حدث اختلاف بين نص منه و قاعدة من تلك القواعد ، أولّوه حتى ينسجم معها . أما علماء الكلام (\*) ، المهتمون بمعاني القرآن ، فقد إنصبّ تركيزهم على الألفاظ المفردة و أوجه الإعراب ، على إعتبار أن أغلبهم لغويون و نحاة . أما الإخباريون المفتونون بالقصص ، فلا يختارون إلا الآيات المتصلة به ، دون أن يحققوا الحكمة من القصص ، فيكشفون العبرة منها ، و يستنبطون التفاصيل من سنن الله في مخلوقاته ، فتجدهم يسترسلون مع الرواية و تستهويهم غرابة الأخبار ، فينتهي بهم الأمر إلى الإسرائيليات التي تتصف بالتزييف و التفتيق و الكذب ، فيكونون بذلك قد ألحقوا ضررا كبيرا بالمسلمين ، و عملوا على تحريف الحقائق و تزوير التاريخ . أما أقطاب المذاهب العقلية ، فيعاب عليهم عدم التوسع في التفسير إلا في الاستدلالات العقلية على تأكيد الصفات أو نفيها ، و على الجوانب الغيبية و النبوات و ما يرتبط بها . في حين يمتنع النحاة و الباحثون في أسرار التراكيب ، عن الإفاضة إلا فيما تعلق بالإعراب و البلاغة ، مثلما كان يقوم به " الزمخشري (\*\* ) و أبو حيان التوحيدي (\*\*\* ) . و على خلاف ذلك ، كان العلماء الأوائل يفسرون المحتوى العملي من القرآن ، على أنه

له مؤلفات مشهورة منها : " جامع البيان في تفسير القرآن " الذي يعرف بتفسير الطبري ، و " تاريخ الأمم و الملوك " الذي يعرف بتاريخ الطبري ، و " إختلاف الفقهاء " ، و " آداب القضاة " ، و " تهذيب الآثار " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*) - علم الكلام : علم من العلوم الشرعية المدونة ، يبحث في ذات الله سبحانه و تعالى و صفاته ، و أحوال الممكنات من المبدأ و المعاد على قانون الإسلام . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - الزمخشري : هو أبو القاسم محمود الزمخشري ( 1075م - 114م ) ، إمام عصره في اللغة و النحو و البيان و التفسير ، ولد في " زمخشر " جاور بمكة زمنا طويلا ، رحل إلى عدة بلدان و عاد إلى " الجرجانية " و توفي بها . تأثر بالمعتزلة ، و كان شديد الإنكار على المتصوفة . من أشهر كتبه : " الكشاف " في تفسير القرآن ، " أساس البلاغة " ، " المفضل " ، " الفائق " في غريب الحديث ، و " أطواق الذهب " ، و " نوابغ الكلام " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*) - أبو حيان التوحيدي : حكيم و فيلسوف صوفي ، كان صاحب طراز فريد في الكتابة و الأسلوب ، عاش في بغداد و " الري " ، و عمل عند " ابن العميد " و " الصاحب ابن عباد " . من مؤلفاته : " الصداقة و الصديق " ، " المقابسات " ، " الإمتاع و الموانسة " ، " مثالب الوزيرين " ، " الإشارات الإلهية " . توفي بعد سنة 400 هـ / 1010 م . المنجد في اللغة و الأعلام .

هداية عامة لكل الناس ، على اختلاف ألوانهم و ألسنتهم و أماكن و أزمنة تواجدهم ، تتطلب من كل مؤمن أن يستوعبها و يعمل بها . كما كانوا يتجنبون الخوض في النواحي الغيبية منه ، لأنها تتجاوز المستوى العقلي للمؤمن الذي لم يكلف باستيعابها ، و بالتالي فهو لا يحاسب على التقصير فيها . كما أنهم كانوا ينظرون إلى النواحي الكونية فيه نظرات صائبة، و وجدت من يبحث فيها بحثا علميا من العلماء المتأخرين (1).

و بالتالي فإن هذا المسلك الخاطئ ، الذي سلكه علماء المسلمين على اختلاف تخصصاتهم ، هو الذي أدى في نظر الإبراهيمي ، و في نظر الكثيرين ممن كتبوا أو بحثوا في واقع العرب و المسلمين ، سواء كانوا شرقيين أو غربيين ، إلى جمود الفقه الإسلامي و استسلامه للواقع لعدة قرون (2) ، و الذي ترتب عنه تعطيل الأخذ بالأسباب . حيث وقف العرب و المسلمون في مرحلة الانحطاط موقف المستسلم عديم الحركة ، أمام مستجدات الحياة و متطلباتها لسوء فهمهم للعقيدة الإسلامية (3) ، و أداروا ظهرهم للتجديد متمسكين بكل ما هو قديم و تقليدي (4) .

إن تعطيل العقل في مفهوم البشير الإبراهيمي ، هو من أكبر الجنايات التي ارتكبتها المسلمون عامة و علماء الفقه خاصة ، و حجته في ذلك أن العقل إذا تعطل و تجمد ، تعطلت و تجمدت معه ثماره و فوائده ، و أنزل الناس منزلة المجانين ، و استحكمت على أذهانهم الأوهام و الخرافات ، و انحرفت و زاغت نظرتهم للحقائق ، و النتيجة أنهم يرفعون أشياء منحطة و وضيعة ، و يستصغرون و يحتقرون أمورا على درجة كبيرة من الأهمية و العظمة (5) .

و هو مفهوم دقيق و صائب برأينا ، لأن الفقه هو المعبر الدائم عن نمو المجتمع الإسلامي ، فإن تجمد معه (6) . و في هذا الصدد يعتبر المفكر الإيراني " فريدون هويدا " (7) أن حرق مؤلفات "

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 250 - 251 .

(2) - محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 54 .

(3) - محمد المبارك ، المرجع السابق ، ص 57 .

(4) - فريدون هويدا ، المرجع السابق ، ص 71 .

(5) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 364 .

(6) - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 107 .

(7) - فريدون هويدا ، المرجع نفسه ، ص ص 81-80 .

ابن سينا (\*) و " الفارابي (\*\* ) في إيران و العراق ، و " ابن رشد (\*\*\*) في الأندلس ، و قتل الفيلسوف السهروردي (\*\*\*\*) بأمر من " صلاح الدين الأيوبي " ، بالإضافة إلى حرق المخطوطات المحفوظة في المكتبة الكبرى المنشأة من قبل الأمويين ، كل ذلك من أكبر المظاهر الدالة على الإنغلاق و رفض الإنفتاح على العقل .

و في حقيقة الأمر ، إن الفقه الإسلامي قد واصل بعد ذلك إنحداره ، و أضحى يقبل بالإنحرافات الثقافية و الإجتماعية و بإغتصاب السلطة ، و صار يعطي للحكام المسؤولين عليها

(\*)- ابن سينا : هو ابن سينا ابو علي ( 980 م - 1037 م ) ، فيلسوف و طبيب و عالم من كبار فلاسفة الإسلام و أطبائهم ، عرف بالشيخ الرئيس ، ولد في " أفشنة " قرب " بخارى " ، تعمق في دراسة فلسفة أرسطو و تأثر بالأفلاطونية المستحدثة . قال بفيض العالم عن الله كما فعل " أفلوطين " ، كانت له ميول صوفية برزت في " الحكمة الشرقية " و هي عبارة عن فلسفته الشخصية . من أشهر مؤلفاته المطبوعة : " القانون في الطب " ، " الشفاء " ، " النحاة " ، " الإشارات " ، " التتبيهاات " ، " الحدود " في " الفلسفة و المنطق " زيادة على ذلك كانت له بعض الأشعار بعضها في النفس ، توفي بـ : " همذان " . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - الفارابي : هو أبو نصر محمد الفارابي ، من أكبر فلاسفة العرب ، ولد في " فاراب " التي تتواجد حاليا في حدود " كازاخستان " ، درس في بغداد و " حران " و أقام في بلاط سيف الدولة في حلب ، عرف بتضلعه في المنطق و الرياضيات و الموسيقى ، لقب " بالمعلم الثاني " بعد " أرسطو " . خلف عدة مؤلفات منها : " إحصاء العلوم و التعريف بأغراضها " ، " كتاب الموسيقى الكبير " ، " كتاب الحروف " . توفي سنة 950 بدمشق . المنجد في اللغة و العلوم .

(\*\*\*) - ابن رشد : هو ابو الوليد محمد ابن رشد ، فيلسوف عربي ولد بقرطبة ، درس علم الكلام و الفقه و الشعر و الطب و الرياضيات و الفلك و الفلسفة ، قدمه " ابن طفيل " لـ : " أبي يعقوب يوسف " خليفة الموحدين سنة 1182م ، الذي عينه طبيبا خاصا له ثم قاضيا في " قرطبة " . حاول إيجاد توفيق بين الشريعة و الفلسفة في كتابه " تهافت التهافت " ، دافع عن " الغزالي " . له شروح كثيرة على " أرسطو " ، أطلق عليه فلاسفة الغرب إسم " الشارح " ، توفي سنة 1198م في مراكش . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*\*) - السهروردي : هو شهاب الدين السهروردي ، فيلسوف تنويري كبير كان شافعي المذهب ، ولد في " سهرورد " و نشأ بـ : " مراغة " ، رحل إلى " حلب " التي قتل فيها بتهمة الإلحاد . من مؤلفاته : " حكمة الإشراق " ، " هياكل النور " ، " رسالة في إعتقاد الحكماء " . توفي سنة 1191م . المنجد في اللغة و الأعلام .



بالقوة صفة الشرعية (1) . فخلال عهد المماليك، أفتى فقهاء الجمود فتويان كان لهما دور سياسي خطير إلى غاية اليوم ، فالفتوى الأولى تضمنت التحريم المطلق للثورة مهما كانت الأسباب ، إستنادا على حديث نبوي شريف يفيد أن الصبر على الحاكم الظالم ستون سنة ، أفضل من فنته ساعة . أما الفتوى الثانية، فقد أجازت إمارة الغالب، و معناها إجازة أخذ البيعة لأي رجل مسلم، يتغلب بالقوة و يتسلم السلطة. و جاء بعد المماليك الأتراك ، الذين عرفت حقبتهم إنجازات كبيرة على المستوى العسكري ، و في مقابل ذلك إنحسارا كبيرا على مستوى المفاهيم و الأفكار ، التي شهدت تقهقرا و تجمدا منقطع النظير (2) ، فمنعوا كل إجتهد يناقض هذين الفتويين ، و هو ما ثار عليه "عبد الرحمان الكواكبي" و قتل بسببه بالسم سنة 1902م (3) .

إن العلماء المقلدين غير المجتهدين عند الإبراهيمي (4) ، هم الذين يقرؤون و يحفظون و ينقلون ، دون فقه أو تمحيص و زيادة ، و على العكس من ذلك لا يعتبر العالم عالما في البلاد الأوروبية المتقدمة ، إلا إذا أضاف للعلم جديدا أو كشف عن بعض خفاياه ، أو أماط اللثام عن جانب من غوامضه ، و أصبغ عليه شيئا من روح عصره : (( فالعلم عندهم ياقوتة في منجم ، و عندنا لفظة في معجم و الأولى تستخرج بالبحث و الإلحاح و الثانية تستخرج بمعرفة الإصطلاح ، و الأولى حظ المجتهد العامل و الثانية حظ المقلد الخامل )) . فإذا أسقطنا هذا الوصف على العلماء المسلمين المتأخرين ، وجدناهم مقلدين و نقلة غير مجتهدين ، و نزعنا عنهم صفة العلماء .

و عليه فإن فقه عصور الإنحطاط ، قد انفصل عن العقيدة الإسلامية ، و رؤية الإسلام الحضارية الشاملة ، فلم يعد للعقائد و علم العقائد ، دور مهم في توجيه الحياة الإجتماعية ، و تحول في جوهره إلى علم للتناقضات و الغموض و الجدليات ، التي ليست من شأنه ، و لا في طاقة نظره و إدراكه ، و التي تؤدي في الكثير من الأحوال إلى شلّة و صرفه عن غاياته ، و جدية أداء مهمته في الحياة ، المتمثلة في العمل و الإستخلاف . في حين نجم عن التقليد ، عجز الأمة عن الإستمرار

(1) - محمد الغزالي ، المرجع السابق ، ص 54 .

(2) - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 106 .

(3) - محي الدين صبحي : " المشروع الحضاري و العبث بالمصير العربي " ، مجلة العربي ، الكويت : عدد 463 / جوان 1997م . ص 30 ، 31 ، 32 .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 565 .

في إنتاج المعارف ، و تطوير الأفكار ، لبلوغ أفاق حضارية متنامية ، تستجيب للظروف و الحاجات المتغيرة باستمرار .

و على ضوء ما تقدم ، نستخلص أن تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، من خلال هجر القرآن الكريم ، و الحجر على الاجتهاد ، و الميل إلى النقل و التقليد ، يمثل سببا أساسيا من أسباب انحطاط العرب و المسلمين في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي ، فالإشكالية لا تكمن عنده في الإسلام نفسه كدين ، و إنما في خطأ التصورات إزاءه ، و عجزهم الفادح عن فهم إبعاده الحضارية ، و قدرته الفريدة على التجديد و مواكبة تحديات العصر ، و متطلبات الحياة التي لا تتوقف عن التزايد و التشعب ، إن أحسن فهمه و استيعاب عناصر القوة فيه ، التي مكنت العرب و المسلمين الأوائل ، من تحقيق نهضة حضارية متميزة ، لم يصلوا إليها إلا بعد مجيء الإسلام ، و سمحت لهم بتبوء مكانة رفيعة بين الأمم .

#### 04 - فساد الأخلاق و العادات و وهن العزائم :

يعتقد الشيخ البشير الإبراهيمي ، أن فساد الأخلاق له عواقب و نتائج خطيرة على حياة الأمم و المجتمعات ، لأنه بالأخلاق الفاضلة التي تترسخ في نفوس أفرادها ، تتمكن من حفظ وجودها و استمرار قوتها و تطورها ، و هي حقيقة أقرها الإسلام و أجمع عليها الحكماء و المفكرون ، و لهذا فالإسلام حرص حرصا شديدا ، على وجوب إتصاف المسلمين بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، ضاربا الأمثال بالأقوام و الأمم التي سبقت ظهوره ، بهدف الاعتبار منها<sup>(1)</sup> . أي أن الأخلاق السوية ، مطلب أساسي لجميع الأمم ، مهما اختلفت في الجنسية أو في المكان أو في الزمان ، إذا أولتها العناية الخاصة ، تقوم و تسمو وتزدهر ، و العكس إذا أهملتها أو تساهلت إزاءها .

و يرى بأن الإسلام ، لم يكتسح العالم و يجمع الملايين من البشر ، المتباينة أجناسهم و أعراقهم و أوطانهم ، حول عقيدته و مبادئه السمحة ، بالجيش الجرارة و الأسلحة الفتاكة ، و إنما بفضل الأخلاق العالية و الآداب الرفيعة ، التي تميز و تحلى بها الدعاة و الفاتحون و القادة و الجنود ، الذين استمالوا قلوب و عقول تلك الأمم و الأقوام<sup>(2)</sup> ، ليس كوسيلة أو حيلة لبيسط

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 134 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 34 .

سلطانهم و سيطرتهم على خيراتها و ثرواتها ، و لكن لأن الآداب و الأخلاق التي أبانوا عنها تمثل جوهر الدين الإسلامي (1) .

على خلاف ، ما يذهب إليه الكثير من الدارسين للتاريخ الإسلامي ، عربا و مسلمين و غربيين على حدّ سواء ، من أن سرعة انتشاره المدهشة ، إنما ترجع إلى طبيعة العرب الحربية ، متغافلين عن كونهم فتحوا تلك الأقطار و الأصقاع ، لتشبعهم بروح التسامح ، التي منحتم ملك آسيا و إفريقيا و نصف إسبانيا (2) . تلك الروح ، هي التي جعلت المسلم في المجتمع الإسلامي الجديد الذي أقيم على أنقاض المجتمع الوثني القديم ، يعرض على أخيه المسلم أن يزوجه من يختار من زوجاته بعد أن يطلقها له ، كي يبنى لنفسه أسرة على حدّ قول المفكر " مالك بن نبي " (3) .

و في المقابل من ذلك ، يذهب الإبراهيمي إلى أنه من الأسباب الرئيسية ، التي مكنت أوروبا الاستعمارية من بسط سيطرتها على الشرق ، الذي يشكل العرب و المسلمون الجزء الأكبر فيه جغرافيا و سكانيا ، إنتهاجها أسلوب إفساد أخلاق أهله ، و إضعاف الجوانب الروحية فيه (4) ، رغم إدعائها بأن غايتها تحضير و تمدين المجتمعات الشرقية ، التي ينبغي عليها أن تنعم بفضائل الحضارة الغربية . و غيرها من تلك الشعارات ، التي يقر الشيخ البشير بأنها زائفة ، تفضحها جرائم التقتيل الجماعي و التعذيب ، التي كان الجنود الفرنسيون يرتكبونها بأشكال و حشية يستنقذها الشيطان نفسه ، في حق الضعفاء و العزل من الشعب الجزائري ، ثارا من المجاهدين كلما عجزوا عن ملاحظتهم بهدف القضاء عليهم ، رغم أعدادهم الكبيرة و أسلحتهم الفتاكة . و يضيف قائلاً بأن تلك الجرائم ، كانت ترتكب من قبل جنود كان يفترض فيهم ، أن يتحلوا بالتربية الفاضلة و الأخلاق الحميدة ، لأنهم سفراء لحضارة ينبغي لها ، أن تهذب الأخلاق و تلتف من

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 195 .

(2) - أنور الجندي : آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ، ط 3 ، مؤسسة للرسالة ، بيروت : 1987م ، ص 325 .

(3) - مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط 4 ، دار الفكر ، سوريا : 1984م ، ص 81 .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 171 .

النزاعات الحيوانية ، فتقربها إلى الرحمة و الرأفة ، و تنتشر الفضائل في النفوس (1) .  
و ينتهي إلى التساؤل ، عن محل تلك الأعمال القذرة و الحقيرة من الحضارة الإسلامية في  
عهدنا الأول ؟ ، التي لا يتوقفون عن نقدها و التهجم عليها ، و عن الفارق بين آداب القتال التي  
سنها الإسلام ، و عن نظيرتها خلال عصر الحضارة و التقدم و الرقي الغربي ؟ ، و عما إذا كان  
هنالك مجال للمقارنة بين ما كان يقوم به الجيش الفرنسي ، و بين رحمة الإسلام التي تجسدت في  
وصية الخليفة "عمر ابن الخطاب" رضي الله عنه ، لأحد الجيوش الإسلامية المتأهب للغزو ، بقتال  
من يقاتله فقط ، و تجنب قتل المستضعفين من الأطفال و النساء و الشيوخ ؟ (2) .

و بناء عليه ، يتبين لنا أن الإبراهيمي قد شكك بشكل صريح ، في مصداقية أخلاق  
الحضارة الغربية ، بضربه العديد من الأمثلة من أرض الواقع ، و منها بشكل خاص أعمال الجيش  
الفرنسي غير الإنسانية في الجزائر ، نقلها كما هي بصفته شاهد عيان عليها ، فأعتبرها تفوق حدود  
التصور في وحشيتها و فظاعتها ، رغم محاولات القادة الفرنسيين التغطية عليها بكل الوسائل  
الممكنة . و على العكس من ذلك ، إتصف العرب و المسلمون بالمثالية و الرحمة ، بشهادة الكثير  
من الباحثين الغربيين المنصفين و منهم : " غوستاف لوبون ( GUSTANV LE BON ) ، الذي قال  
بأن العالم لم يرى أرحم من العرب (3) .

و بعد ذلك ، ينتقل الإبراهيمي للحديث عن أخلاق العرب و المسلمين المتأخرين ، فيذكر  
أنها إختلت إختلالا كبيرا خاصة في الفترة الأخيرة ، التي شهدت إنتشارا مذهلا للمذاهب  
و التيارات و الأيديولوجيات ، الساعية إلى تهديم الأخلاق الخيرة و القيم النبيلة ، و عرفت تكاثرا  
ملفتا للنزعات المتطرفة ، التي تستمرىء الرذيلة و تقبح الفضيلة (4) . أما سبب إختلالها ، فيرجعه  
إلى خلو العلم عندهم من التربية الهادفة و المفيدة ، فكثيرون هم الذين تلقوا تعليما غير مقرون  
بالتربية ، فكانوا وبالاً على أنفسهم و على أمتهم ، لأن العلم وحده لا يمكنه على الإطلاق ، أن

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 مصدر سابق، ص ص 190 - 191 .

(2) - المصدر نفسه، ص 191 .

(3) - ينظر غوستاف لوبون ، المرجع السابق .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص 52- 53 .

يحقق السعادة لصاحبه و للمجتمع الذي يحيا فيه و للأمة التي ينتمي إليها ، إذا لم يطعم بالتربية ، فهو ارتباط وثيق من صميم الرسالة التي كلف بها الله تعالى الرسول محمد (ص) ، و في ذلك قال (1) : (( و ما أصيب المسلمون في عزهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم ، و كم شقي أصحاب العلم المجرّد بالعلم ما أشقوا أمهم ، و السعادة غاية لا يسلك لها طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية ، و إن الجمع بين التربية و التعليم هو وظيفة النبوة التي بينها الوحي ... )) . و يستدل على ما ذهب إليه في هذا السياق ، بما أفضت إليه من نتائج العلوم الغربية المادية المجرّدة من التربية ، التي اتخذت كما هو معلوم من مبدأ العلم للعلم منهاجاً ، فكادت بذلك أن تقضي على إنسانية الإنسان (2) .

و في موقف آخر ، قال (3) مخاطباً معلمي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بأن ضعف مستواهم العلمي الذي له مبرراته الموضوعية ، لا يشكل عائقاً أمام أدائهم لواجب إنقاذ الأجيال الجزائرية الناشئة ، من برائن الأمية التي شلت مواهب آبائهم ، و تحبب اللغة العربية إليهم و طبعهم على التأخي و التعاون على الأعمال الخيرة ، و تربيّتهم على الفضائل الإسلامية و الشرف و الكرامة و الكمال ، و تعويدهم على ممارسة الشعائر الدينية و هم صغاراً ، حتى نضمن عدم تضييعهم لها و هم كباراً ، و غرس حب الله و رسوله و الإسلام و العلم و العلماء و الوالدين و المجتمع الذي يعيشون فيه . لأن الأمة في حاجة إلى الفضائل ، أشد من حاجتها إلى العلم ، و أنها ما تخلفت و تفهقرت في كل المجالات و على كافة الأصعدة ، ليس بسبب تخلفها العلمي ، و إنما لإنحطاط أخلاق أفرادها .

و إن كان الأمر هنا ، يتعلق بالمجتمع الجزائري الذي شهد في عصر الإبراهيمي إختلالاً أخلاقياً كبيراً ، بسبب السياسة الإستعمارية الفرنسية التي حاربت الفضائل ، و شجعت على الرذائل بشتى الطرق و الوسائل ، فإن الواقع ذاته كان في كل البلاد العربية و الإسلامية ، لكن بدرجات متفاوتة تبعاً لظروف كل بلد .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، ص ص 173 - 429 .

(2) - محمد الغزالي : المرجع السابق ، ص 80 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 268 .

بعد ذلك ، خلص إلى أن الفساد الأخلاقي في الأوساط الشبانية خاصة ، هو أكبر معضلة و تحدي تواجههما الأمم العربية و الإسلامية : (( إن علتكم التي أعيت الأطباء و استعصت على حكمة الحكماء هي من ضعف أخلاقكم )) . و يشبه تلك الوضعية بما كان عليه الحال قبل مجيء الإسلام ، الذي تمكن بفضل عقائده السمحة و مبادئه النبيلة من تغيير المعادلة ، فصنع من البدو قادة و من الأمية علماء و " حكماء " : (( و إن أول أمتكم شبيهه بآخرها عزوف عن الفضائل ، و انغماس في الرذائل فلم يزل بهذا القرآن حتى أخرج من رعاة النعم ( الأنعام ) ، رعاة الأمم و أخرج من خمول الأمية أعلام العلم و الحكمة )) (1) .

نستكشف من هذا التشبيه ، بأن انقلابا هائلا قد حدث في المجتمعات العربية و الإسلامية ، حيث اختفت تدريجيا الفضائل ، التي من خصائصها العمل على تماسك الهيئة الاجتماعية و صهرها في قالب واحد ، دون تجاوز الخصوصية الفردية التي أودعها الخالق في الفرد ، فتتوحد الأفكار و الرؤى رغم كثرة الأفراد فيه ، تماما مثل أعضاء الجسم تختلف في الوظائف و الأشكال ، و تتحد في الغاية و هي تأدية دورها المحدد لحمايته و إبقائه قويا ، و الأمر نفسه بالنسبة لحياة الأمم : (( تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، و تحفظها من الإنحلال المؤدي إلى الزوال )) . و حلت محلها الرذائل ، التي إن فشت في أمة من الأمم ، نقضت بناءها و مزقت وحدة أفرادها ، و بددت طاقاتها الكامنة (2) . و منها شرب الخمر و تعاطي الربا و ممارسة الزنا ... ، و غيرها من الآفات الاجتماعية التي كانت متأصلة في حياة الناس ، قبل أن يتولاها الإسلام بالعلاج و مداواة (3) .

و من ناحية أخرى ، رد الشيخ البشير على الذين يستبихون المحرمات من الشرقيين المقلدين للحضارة الغربية باسم الحرية ، بأن مسلكهم هذا لن يغير في طبيعة الأشياء ، فالخير يبقى خيرا و الشر يظل شرا ، و الفضيلة فضيلة و الرذيلة رذيلة ، فالسارق يسرق و هو موقن بأنه يعتدي على مال غيره ، و المتبع لخطوات الشيطان بارتكاب المعاصي و الفواحش ، لا يقول

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق ، ص 163 .

(2) - جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده : العروة الوثقى ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت : 1977م ، ص 99 و ما بعدها .

(3) - أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، مرجع سابق ، ص 82 و ما بعدها .

رضي الله عن إبليس و إنما يلعنه . و هي إحدى أسرار الفطرة الإلهية في الخلق ، التي اقتضت أن مرتكب الجرم أو المعصية ، لا يقر في ذاته أن ما قام به فعل خير ، فيشهد بذلك على نفسه إلا من فقد الشعور و الإحساس و مات في نفسه الضمير .

و الأمر ذاته ، بالنسبة للحكام الغربيين الذين أغرتهم قوتهم ، فبطشوا بالشعوب الضعيفة و سلبوا أوطانها ، و سموا ذلك استعماراً ظلماً و افتراءً . و أنهى كلامه باعتبار الحضارة الغربية هي المسؤولة عن هذا المسلك و المشجعة عليه ، و الذي ترتب عنه إفساد للفطرة و للضمير <sup>(1)</sup> . و هو حكم له ما يبرره في الواقع ، إذ أن الحضارة الغربية كانت فعلاً وبالاً على القيم الدينية و الأخلاقية و الاجتماعية ، في المجتمعات المحافظة و منها العربية و الإسلامية ، مستغلة في ذلك انحطاطها الشامل في كل المجالات ، و وجود فئات اجتماعية محلية تبنت تلك القيم و الأفكار ، و تحولت إلى مروج لها و مدافع عنها ، بعد رحيل الاستعمار عن أوطانها . الأمر الذي خلق صراعاً اجتماعياً مبرراً ، بينها و بين الفئات المحافظة في تلك الدول الناشئة .

و بعد حثه على الأخلاق و فسادها لدى العرب و المسلمين المتأخرين ، تطرق إلى العادات ، فعرف العادة بأنها تلك الظواهر المتقلبة ، التي تجتمع و تؤلف ما يصطلح عليه بالعادة ، التي ترتبط بواقع الأمة ارتباطاً وثيقاً رقيقاً و انحطاطاً . فالأمة المتقدمة حضارياً ، تكون عادات أفرادها راقية لأنها تستلهمها من مقوماتها ، و العكس صحيح بالنسبة للأمة المنحطة و المتخلفة . انطلاقاً من هذا التعريف ، يظهر لنا بأن انحطاط عادات العرب و المسلمين الحاليين ، هو نتيجة منطقية لانحطاطهم الشامل ، حيث نشأت حسب الشيخ من استئثار الجهل و الأمية و الفقر و آفة الذلة و الهوان ، و موت الشعور بالكرامة و الشرف ، و من استيقاظ الشعور بالمهانة و النقص في النفس و في الجنس ، و النفور من القريب و الخضوع لسلطة الأجنبي . و قد انتقل تأثيرها السلبي إلى شعائر و الصوم و الأعياد .

فشعيرة الحج برأيه ، لم يعد يسعى لها أغلب المسلمين لدوافع دينية ، و لا يدفعهم لأدائها و تحمل مشاقها ، تلك الغاية السامية التي شرع الحج لتحقيقها ، و إنما الرغبة في اكتساب لقب الحاج ليس إلا ، و كأنهم ملؤا أسماءهم العادية من كثرة استخدامها ، شأنهم في ذلك كشأن الفاشلين الذين يصارعون لنيل الألقاب الحكومية الزائفة ، و يسعون للحصول عليها عن طريق الرشاوى .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 358 .

أما شعيرة الصوم ، فيذهب إلى أنها قد فقدت روحها التي تركي النفس و تجلب لها السكينة و الاطمئنان ، و أصبحت عملا عاديا يقوم به الصائمون استجابة للعادة و ليس تطبيقا لأحكام الدين . في حين تركها المنتهكون لحرمانات الله ، فتحول تركهم إلى ظاهرة عامة ، ثم إلى عادة يقتدي بها الجميع يكون فيها الصوم عملا شاذا . و تشترك في ذلك كل الأقطار الإسلامية ، التي تحافظ على الصوم و تشدد على المفطرين إتباعا للعادة ، و تتساهل بشكل كبير مع تاركي الصلاة ، و يعقب على هذه النقطة الأخيرة بقوله : (( فلو كان للشعائر سلطانها الديني على النفوس لما أفطر في رمضان أحد ، و ما ترك الصلاة أحد ، و لما كان للعادة دخل في هذا المجال ، و لو كان المتشددون مدفوعين بدافع ديني لكان تشددهم مع تاركي الصلاة أقوى و أشدوا و أولى و أكد )) . فالصلاة ركن يقدم على ركن الصيام ، ينبغي التشدد فيه برأي الإبراهيمي قبل الصيام ، لكن العكس هو الذي حصل في أرض الواقع ، و النتيجة ترك الاثنين معا على نطاق واسع .

و يواصل حديثه ، فيقول أن الأمر ذاته بالنسبة للأعياد الدينية ، التي جردت من لباسها الديني ، و عطلت من المعاني الروحية التي تضي على النفوس البهجة و المرح و السرور حتى في الظروف الصعبة ، فأصبح المسلمون يستقبلونها بهمم فاترة و أحاسيس بليدة و مشاعر باردة و بأسارير عابسة ، و لو لا إقبال الصغار عليها بفطرتهم و براءتهم ، اللتان تتجلى فيهما بعض معاني العيد ، لكانت المآتم أعمر منها بالحركة ، و أدل منها على الحياة و النشاط .

و من الطبيعي في إعتقاد الإبراهيمي ، أن يؤدي تحكيم العادات السخيفة التي تكاثرت في عصور الإنحطاط ، إلى آثار سيئة على الدين ، الذي أصبحت موازينه و أحكامه تخضع لإعتبارات العادة و تتكيف معها ، و هي حقيقة دعا علماء الإسلام و مفكريه و قاداته إلى وعيها جيدا ، على أساسها يبادرون بعلاج هذا الخلل الكبير ، و حذر من العناد و المكابرة ، في التعامل معه بالجديّة و السرعة الضروريين ، حتى لا يتعاضم و يتفاقم أمره <sup>(1)</sup> .

و مما سبق التطرق إليه بشأن العادات ، نرى أن الإبراهيمي من المصلحين الذين شددوا على ضرورة التصدي لهيمنة العادات السلبية على حياة المسلمين بشكل عام ، و إمتدادها إلى الحقل الديني بشكل خاص لكنه أقر مع ذلك بوجود عادات ثابتة و صالحة ، يسعى دائما فلاسفة الإجتماع و فقهاء التشريع ، إلى إدراجها بحيث يكون لها دور في تكيف أحكام المعاملات و قوانين الإجتماع

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 294 .



البشري ، لتأخذ حظها من القوة و الديمومة ، لتصير مرجعا لرجال القضاء في أحكامهم إزاء المنازعات الإجتماعية ، و مرجعا أساسيا للباحثين الذين يهتمون بدراسة الظواهر الإجتماعية لدى الشعوب .

أما الفقهاء فيربطون إجازتهم لها ، بأن تحقق مصلحة ما أو تدفع مفسدة ما ، و بأن لا تخالف نصوصا شرعية ، و لا تعارض حكما صدر عن إجماع ، فإن لم تتوفر فيها هاته الشروط كانت باطلة و كان الواجب تركها . و بالإعتماد حسبه على هذه القاعدة الفقهية ، فإن العادات السائدة في المجتمعات العربية و الإسلامية باطلة ، رغم أنها تحولت إلى مرجع عقلي و فكري و ديني للجميع . و يستدرك فيقول : أن المسلمين لو أوتوا الرشد ، لجعلوا من الأعياد الدينية محطات لتصحيح مسارهم الديني و الإيماني ، فيعيدون النظر في كل ما من شأنه أن يكون مخالفا لأحكام دينهم ، أي تخليهم عن كل العادات و السلوكات الدخيلة ، التي نبتت في حياتهم على نحو مذهل في القرون الأخيرة ، فأفسدت عليهم دينهم و دنياهم (1) .

و هو في هذا ، لا ينكر أن كثيرا من عامة المسلمين و إن صحت عقائدهم ، لا ينجحون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الإسلامية السمحاء . كما أنه يأمل في إصلاح الوضع على اعتبار أن المسلمين ، لا يزالون رغم كل شيء على بعض الفضائل الإسلامية التي ورثوها عن أسلافهم ، بإمكانها أن تكون أداة فعالة لتصحيح هذا الوضع الخاطيء ، لأنه طارئ أحدث ضعفا في قوتهم ، بسبب غفلتهم و تهاونهم و إهمالهم (2) .

و يزيد الإبراهيمي على فساد الأخلاق و العادات ، أسباب أخرى يرى أنها ساهمت في شلل الأمة ، و منها ضعف الإرادة و وهن العزائم ، فبيّن أولا أن للإرادة و العزيمة ، أهمية عظيمة في حياة الإنسان ، دونهما لا يستطيع أن يحقق الغايات التي يسعى لأجلها في هذا الوجود ، فإذا صلحت إرادته صلحت عزمته ، فإذا أراد شيئا و بذل جهدا للوصول إليه ، فإن إرادته ستمكّنه منه لا محالة . أما إذا فقد الإرادة ، فإنه سيصبح مسيرا مثلما هو عليه حال المسلمين في العصور المتأخرة ، الذين ضعفت إرادتهم و وهنت عزائمهم ، فركنوا إلى الراحة و الكسل و الخمول المميت

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 294 - 295 .

(2) - جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص ص 105 - 106 .

و الجبن ، و طلب العلم النظري و التقليدي و السطحيات ، و أكتفوا بالعيش على أمجاد الماضي الذي اندثر ، كما استسلموا لعقيدة القناعة و الكفاف و القدرية (1) .

و بطبيعة الحال ، فإن السبب في ذلك و إن لم يذكره الشيخ البشير ، فإنه يتمثل في علماء العقيدة الذين روجوا لفكرة أن الأخذ بالأسباب ، يناقض الاعتقاد بأن الله سبحانه و تعالى هو الخالق الوحيد للحوادث . و فريق من المتصوفة الذين رأوا في ذلك منافيا للتوكل على الله ، فالإنسان الكامل و المثالي عندهم ، هو المستسلم الفاقد للحركة و الإرادة ، رغم أن الإسلام حث على العمل و الكسب و الارتزاق ، و اعتبر توكلهم تقصيرا و خطيئة و ربما إثما كبيرا (2) .

ذكر بعد ذلك ، بأن هذا الوضع أدى إلى موت الإحساس و الشعور لدى العرب و المسلمين ، تمر بهم الحوادث متسلسلة و متتابعة ، دون أن يعتبروا أو يزدجروا ، و يتجه العالم نحو الرقي و التقدم ، من غير أن يتبينوا موقع أقدامهم فيه ، كأنهم يعيشون في أرض جامدة لا تتحرك ، أو أن كل الأمم ورثت عن الأرض الحركة إلا هم . و النتيجة أنهم ليسوا من هذا العالم ، و الذي هو بدوره ليس منهم . لقد أصبح فقدان الإحساس خاصة ملازمة لهم ، عدا بعض ردود الأفعال التي تصدر عنهم عقب بعض الأحداث ، و التي سرعان ما تخبوا بعد زمن قصير . كما قطعت الأمم أشواطا كبيرة في البناء و التشييد ، و الإزدهار في كل الميادين و على كافة الأصعدة ، و بقوا هم في نومة أصحاب الكهف و الرقيم ، غافلين عن المبادرة و السعي و الأخذ بالأسباب ، حتى سدت عليهم منافذ الحياة ، لأن هاته الأخيرة تفرق جيدا بين الكسول المتخاذل و بين العامل المجتهد .

و لا أدل على ذلك - حسبه - ، أن يدعوا الداعي في الأمم الحية التي تدرك قيمة الحياة ، قومه إلى عمل يمنحهم عزة و قوة لهم ، و يدفع عنهم خطرا محققا ، فإذا هم مستمعون لقوله ، ممتثلون لأمره ، ساعون لهده ، عاملون له ، متعاونون عليه ، و أخيرا منجزون له . و يدعوا الداعي من أبناء العرب و المسلمين إلى الأمر ذاته ، فيردون عليه بالسخرية و الإحتقار (3) .

و لا شك أن ما قصده هنا هو اللامبالاة ، هاته الصفة التي إنطبع بها العرب و المسلمون المتأخرون ، و أصبحت جزءا لا يتجزأ من تركيبتهم الشخصية ، منذ أن فقدوا زمام الريادة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 210 .

(2) - محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 97 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 57 .

الحضارية ، التي انتقلت منهم إلى الأمم الغربية ، التي وصفها الشيخ البشير فيما سبق ، بالأمم الحية و العارفة بقيمة الحياة . و هو السر في تمكنها من الوصول إلى ما وصلت إليه ، و في بقائها قوية مرهوبة الجانب ، إلى غاية الآن .

و الواقع أن موت الشعور و الإحساس ، قد صاحبه تشبع الكثير من أبناء العرب و المسلمين ببعض القيم المزيفة ، التي حاولوا من خلالها تبرير حالة التخلف التي يعيشونها ، كقولهم أنه يستحيل الجمع بين الدنيا و الآخرة ، و أنه على الأمم الأوروبية أن تتعم بالدنيا و متاعها ، في حين ينعمون هم بالآخرة . مما يمثل انحرافا خطيرا عن روح الإسلام الحقيقية، التي كانت سببا في نشوء و صعود الحضارة العربية الإسلامية. و من تلك القيم المزيفة أيضا ، فهمهم الخاطئ لعقيدة القضاء و القدر ، تبرئة لأنفسهم من المسؤولية ، و قطعاً لكل أمل في العمل لأجل الإصلاح و التغيير ، مخالفين لقيم الإسلام التي تدعو إلى اتخاذ أسباب القوة (1) .

و في المحصلة ، لقد أدى التقاعس و التواكل ، و وهن العزائم و الانصراف عن العمل و عمارة الأرض ، و الرضا بالفقر على أنه قدر مقدر من الله ، لا ينبغي السعي إلى تغييره ، خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله ، إلى تخلف اقتصادي شامل و مذهل ، بالمقارنة مع الأمم الغربية الحديثة ، التي حققت إنجازات هائلة في هذا المجال ، مما يجعل المقارنة بين الفريقين ضرباً من السخرية و العبث (2) .

و في الأخير ، ننتهي إلى الإستنتاج ، أن كل تلك الصفات السلبية التي ، إتصفت بها المجتمعات العربية و الإسلامية في عصور الإنحطاط ، و هيمنت على حياتها ، قد أفسدت عليها عقيدتها و شعائرها الدينية و نظرتها للحياة ، لأن الإستقامة فيهما شرط أساسي ، ينبغي توفره لديها أو لدى غيرها من المجتمعات ، إن أرادت المحافظة على مركزها المتقدم ، و إستمراريتها في العطاء الحضاري . لهذا فمن غير المقبول بإعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، التساهل في هذا الجانب من قبل قادة الأمة و علمائها ، الذين غفلوا عن التصدي له و تقاعسوا عن معالجته ، حتى إستفحل و عظم . كما أقرّ بأن مسؤوليتهم تتعدى إلى الجوانب النفسية ، بما روجوه و لازلوا ،

(1) - محمود قاسم : " مناهج الإصلاح في الشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عصر النهضة المعاصرة " ، مجلة الثقافة ، الجزائر : العدد 95 ، سبتمبر/ أكتوبر 1986م ، ص ص 131 - 132 .

(2) - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 181 .

من مثبطات للإرادة وللحزائم ، فتحول العربي و المسلم إلى إنسان فاقد للحركة و الطموح ، اللذان كانا لأسلافه الأوائل .

### 05 - الاستعمار الروحي :

لم يكتف الاستعمار الغربي الحديث ، بعد أن بسط سيطرته العسكرية على البلاد العربية و الإسلامية المترامية الأطراف ، بوضع يده على إمكاناتها و مقدراتها الاقتصادية الهائلة ، فاعتنى هو و افتقرت شعوبها ، بل سعى إلى أبعد من ذلك ، فراح يعمل على تحطيم كل بذور الحياة فيها ، من خلال تطبيق إستراتيجية في غاية الخطورة ، تستهدف تلويث الأخلاق و زرع الأفكار و العادات الفاسدة و المنحطة ، حتى تنحط قيمة الفرد الشخصية ، و كفاءته و عطاءه الاجتماعي ، فيظل في حالة تبعية و قصور ، حتى بعد أن يحصل على الحرية و الاستقلال ، و هو ما حدث فعلا . و في مقابل من ذلك ، تتعرض الفضائل و القيم الاجتماعية و الإنسانية النبيلة ، إلى التضييق و المطاردة ، ففي كنف السلطة الاستعمارية ، من اليسير أن يفتح مقهى ، بشرط أن يلتزم صاحبه بإعداده ليكون مكانا لممارسة كل الرذائل ، في حين يعد ضربا من المستحيل الحصول على رخصة لفتح مدرسة (1) .

و هو ما يدفعنا على القول ، بأن الاستعمار ليس مجرد جيوش تغزوا و تحتل ، و إنما هو نظام متكامل ، يهدف إلى فرض هيمنته الكلية داخل البنيات الإجتماعية ، و نعني بالنظام المتكامل ، الهيمنة الاقتصادية و السياسية و الإجتماعية و الثقافية (2) .

و لهذا وجدنا الشيخ البشير الإبراهيمي ، يصف الإستعمار بصفة عامة بأنه : (( كله رجس من عمل الشيطان يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة ، و غرائز شرهة ، و نظرات عميقة إلى وسائل الإقتراس ، و إخضاع الفرائس ، و أهم تلك الوسائل قتل المعنويات و تخذير الإحساسات الروحية )) (3) ، أي أنه لا فرق بين إستعمار و آخر في هذا الميدان ، مهما اختلفت جنسيته أو تباعدت أمكنته ، رغم الفروقات التي تبدو لنا من الناحية الظاهرية ، فكل الدول الاستعمارية

(1) - مالك بن نبي : في مهب المعركة ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991م ، ص ص 50 - 51 .

(2) - كمال عبد اللطيف : سلامة موسى و إشكالية النهضة ، ط 1 ، دار الفارابي : بيروت ، المركز الثقافي العربي : المغرب : 1952م ، ص 42 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 105 .

جربت سياسة إخضاع الأرواح و التحكم في العقول ، جنباً إلى جنب مع سياسة القمع و الإبادة و الإستيطان .

و بعد هذا الوصف العام للاستعمار و دسائسه ، ينتقل الإبراهيمي إلى تبيان الوسائل التي يستخدمها الإستعمار الروحي الذي يطلق عليه أيضاً إسم " الإستعمار العقلي " ، الذي يعتبره من أخطر أنواع الإستعمار ، و تتمثل في :

- ضرب صفوف المجتمع ، حتى أصبح أفراده أعداء لبعضهم البعض .
- تخريب الضمائر ، الأمر الذي أدى إلى اعتبار خيانة الدين و الوطن ، سلوكاً حميداً ، يستحق المدح و الإطراء .
- ضرب وحدة العرب و المسلمين ، الذين تحولوا إلى أمم متنازعة و متصارعة ، تجتهد في إرضاء الإستعمار ، و في الإنجرار خلف مخططاته و سياساته .
- إضعاف القوى المعنوية للأمة ، فغدت كالتماثيل الخشبية لا ترهب و لا تخيف .
- جعل الأمة في حالة تبعية دائمة ، من خلال السيطرة على جميع مواردها الإقتصادية .
- تعقيم العقول و الأفكار ، الذي ترتب عنه ، تقدير كلما ما كان مصدره غريباً و لو كان نافهاً ، و إحتقار كل ما هو ذاتي و لو كان رفيعاً .
- تلقيح الفضائل بالردائل ، فانحطت القيم المعنوية ، و أختلت موازين الفضيلة .
- الترويض على الشعور بالضعف و النقص ، فأصبح الماضي محل هزاء و إزدراء ، و قادة الأمة الذين كانوا نموذجاً في حسن القيادة و العدل محل سخريّة ، و الأمر ذاته بالنسبة للتاريخ و اللغة .
- و في المقابل يكون الإعجاب بقوة المستعمر و برجاله و بزعمائه ، و بتاريخه الذي يدرس و يحفظ ، و بلغته التي تتال كل الإحترام و التقدير <sup>(1)</sup> .

أما أكثر الفئات الإجتماعية إستهدفاً في تقديره ، من قبل الإستعمار الروحي هي فئة الشباب ، الذين أصبحت تتنازعهم الأفكار المتناقضة و المناهج المظلمة ، و الدعايات المتخلفة ، التي تصل إليهم عن طريق الجرائد و الكتب التي يقرؤونها ، أو من خلال ما يسمعونه في الشارع و في المؤسسات التربوية ، و في البيوت و الشوارع . حيث فتح المجال أمام كل الإنحرافات الفكرية و الدينية التي تسربت إلى أوساط المجتمع عامة و الشباب خاصة ، دون أن تجد من

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 101 .

يتصدى لها ، و يحمي هاته الفئة الاجتماعية الحساسة ، التي تتصف عادة بالاندفاع و الغرور ، و الجري وراء كل ما هو جديد . و في هذا السياق تساءل بإستغراب ، عن سكوت الجميع أمام هاته الوضعية الخطيرة ، و كأن الأمر لا يعنيه بأي شكل من الأشكال ، أو أن هؤلاء الشباب من مجتمع آخر ، غير المجتمع الذي ننتمي إليه .

و في نفس الإطار ، أكد على أن تلك الأفكار و المناهج و الدعايات ، تؤطرها تيارات فكرية منحرفة تتصارع فيما بينها، من أجل إستقطاب الشباب المسلم ، و منها دعاة الشيوعية و الإلحاد ، و الوطنيات الضيقة و أصحاب العنصريات ، مستفيدة من صمت أو تخاذل أهل الرأي و القرار إزاءها ، ظنا منهم ربما أن لا خطر يترتب من تلك الدعاوي ، رغم أن الحقائق بينت دون إلتباس أنها أدوات إستعمارية موجهة إلى شباب الأمة ، الذين يمثلون القوة الحية فيها . و لهذا يجب التنبيه إلى المخاطر المحدقة بسببها و التعجيل بمعالجتها ، من خلالها تحصينهم بفضائل الإسلام و أخلاقه و روحانيته ، فهو البديل الحقيقي الذي يغني عن تلك التيارات الأجنبية الفاسدة .

لأن الشباب المسلم ، إذا لم يفهم دينه في أسرته ، و في المسجد و في المدرسة و في محيطه الإجتماعي ، فإنه سيفهمه فهما خاطئا ، بعيد كل البعد عن طهارته و سموه و حقائقه العليا ، مما يولد فيه القابلية للإنجرار ، خلف التيارات و المذاهب الفكرية المظلمة ، التي تشترك في هدف واحد رغم إختلاف مسمياتها و مبادئها، و هو النيل من الإسلام ، بغزو و تلوين أفكار أبنائه الذين يتحولون فيما بعد إلى محاربين له (1) .

و يبدو لنا من ذلك ، أن الإبراهيمي قد وضع كل التيارات و المذاهب الفكرية الأجنبية في خانة واحدة ، مهما بدت لنا أنها متباينة أو مختلفة في ظاهرها ، لأنه لا هم لها في حقيقة الأمر ، سوى تقويض الإسلام كدين و كرسيد حضاري حيوي و متجدد ، بنشر الأفكار و القيم المخالفة صراحة لعقائده السمحة و قيمه النبيلة . كما أنه أسقط المسؤولية عن الشباب ، فيما هم فيه من إستيلااب روحي و فكري ، و حملها لأطراف أربعة هي : البيت و المدرسة و المسجد و المجتمع . و من جانب آخر ، فإن ما ذهب إليه صحيح فيما يخص فساد التيارات و المذاهب الفكرية الوافدة من الخارج ، لأنها في أغلبها تنهل من الحضارة الغربية الحديثة ، التي إرتقت بالآلة و بمختلف النواحي المادية للحياة إرتقاء مذهلا ، أما العقل فيها فهو ليس سوى أداة للإكتشافات

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 222 - 223 .

المادية ، تم للإنتاج الصناعي و الازدهار المادي . فصارت غاية الحياة تحصيل اللذة المادية ، والعيش في ظل الرفاهية . أما الإنسان في جوانبه الإنسانية و الروحية و الأخلاقية ، فهو ليس موضوع اهتمام أو عناية ، و هو ما يفسر تدني و انحطاط العواطف الإنسانية ، و الضمير الخلفي في المجتمعات الغربية ، و إغراقها في التنافس و الصراع و الاقتتال من جهة ؛ و انغماسها في الإباحية و الانحلال الخلفي ، و الأثرة و الأنانية الفردية و الجشع المادي ، و تسخير العلم و المؤسسات العلمية ، لخدمة هاته الغايات من جهة ثانية (1) .

و من المعلوم ، أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة " نابليون بوناپرت " (\*) عام 1798م ، مثلت بداية للانبهار بالحضارة الغربية الحديثة ، انبهار بقوة السلاح أولا ، و بالعلم الغربي الذي أتى به أعضاء البعثة الذين رافقوا الحملة ثانيا ، و بالمطبعة (\*\*\*) التي جيء بها ثالثا ، و بالتنظيمات التي أحدثها " نابليون " رابعا ، و بكل ما هو غربي و مختلف عن الإسلام و تراث الشرق خامسا (2) .

فمهد هذا الانبهار حسب البعض ، الطريق أمام انفتاح البلاد العربية ممثلة في مصر ، على دنيا المعرفة و التقدم ، بعد أن ظلت تعيش في عزلة تامة ، عن الحضارة الحديثة و منتجاتها المذهلة ، منقطعة عن الحركة العلمية و الأدبية المصاحبتين لها ، و عن التنظيمات المدنية و قوانينها المستحدثة ، التي ساهمت في توفير الاستقرار و الرفاهية في المجتمعات التي عرفتها . كما تحركت بفضلها العقول ، و تعبئة النفوس و المشاعر اتجاه الاحتلال ، و كل مظاهر التخلف

(1) - محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 39 .

(\*) - نابليون بوناپرت : ولد في مدينة " أجاكسيو " سنة 1769م ، ينتمي إلى أسرة " آل بوناپرت " ، حكم فرنسا بصفة إمبراطور بين سنتي 1804م - 1815م ، بدأت شهرته إثر حملته الأولى على إيطاليا سنة 1794م و الثانية سنة 1796م ، قاد بنفسه الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م ، عين قنصلا أولا سنة 1799م ثم قنصلا مدى الحياة سنة 1800م . ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة ، نشر القانون المدني سنة 1814م ، حيث إنعزل في جزيرة " ألبا " لفترة عاد بعدها إلى باريس ، فتحالفت ضده الأمم الأوروبية ، التي هزمتها في معركة " واترلو " الشهيرة سنة 1815م ، فنفي إلى جزيرة " سانت هيلانة " ، حيث توفي بها سنة 1821م . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - هي مطبعة " بولاق " .

(2) - محمد قطب : هل نحن مسلمون ، مرجع سابق ، ص 118 .

و الفساد (1) . و فتحت المجال واسعا ، أمام الغزو الثقافي الفكري الغربي ، الذي خرب حياة العرب و المسلمين ، و عقيدتهم و تصوراتهم و أنماط تفكيرهم ، و شكل سلوكياتهم ، حسب البعض الآخر (2) .

و بعض النظر عن الحجج المقدمة من الفريقين ، فإن الحملة الفرنسية على مصر ، قد شككت منعرجا حاسما، فيما يتصل بموقف و نظرة العرب و المسلمين للغرب المسيحي ، الذي جاء بالجيوش الغازية المدججة بأعتى ما وصلت إليه الصناعة الحربية ، و بالحضارة الغربية التي تتضمن منظومة فكرية و ثقافية ، تختلف كل الإختلاف عن ما هو سائد في المجتمعات العربية و الإسلامية . ومعناه أن توظيف الإستعمار الأوروبي الحديث ، للقوة العسكرية التي تقتل و تبيد الأفراد و المجتمعات ، لا يمثل شيئا يذكر أمام ما حمله من حضارة و علوم ، أخفى من خلالها الروح الصليبية القديمة المتجددة ، و هو ما عبر عنه الإبراهيمي بقوله (3) : (( إن أضعف سلاح رمانا به الإستعمار هو سلاح الحديد و النار ، إن سلاح الحديد يقتل الأجسام فينقل الأرواح إلى مقام الشهادة ، أما السلاح الفتاك الذي رمانا به فهو يقتل الأرواح و يجردها من أسباب السعادة ، هذا السلاح هو حضارته و علومه التي إتخذها رمادا يغطي به الصليبية الحقيقية التي لم تنطفئ في هذه القرون الأخيرة منها )) .

و منه يمكن أن نصنف الإبراهيمي ، ضمن الفريق الأول الذي رفض التسليم بوجود إيجابيات للحضارة الغربية ، على مجتمعات البلاد المستعمرة بصفة عامة ، و المجتمعات العربية و الإسلامية بصورة خاصة ، و لهذا السبب قلما تخلو مقالاته و أحاديثه و خطبه ، من التنبيه إلى المخاطر الحقيقية المترتبة عن الغفلة أو التغافل ، إزاء هذه القضية المصيرية .

و في هذا ساق أمثلة كثيرة ، منها قيام الاستعمار الفرنسي بغلق المدارس العربية الحرة في الجزائر ، و محاكمة معلمها جنبا إلى جنب مع المجرمين و اللصوص ، بتهمة مباشرة التعليم دون

(1) - ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، د ط ، دار النهضة، بيروت : 1977م ، ص 70 .

(2) - محمد قطب : هل نحن مسلمون، مرجع سابق ، ص 118 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 105 .



الحصول على رخصة بذلك ، و التي لن تمنح لهم مهما تعهدوا بالالتزام بالقوانين المسيرة للعملية ، فتصدر في حقهم أحكام تتراوح بين التبريم و السجن (1) .

و بالتالي فإن الذي جاء حاملا شعار التمدين ، و مبشرا بنشر الحضارة و التقدم ، يفترض فيه أن لا يقوم بغلق المدارس و يحاكم المعلمين ، فإن فعل عكس ذلك - و هو ما حدث - فإنه أثبت أن المدرسة و المعلم خصمان له ، و من ثمة نستطيع أن نحكم على شعاراته و إدعاءاته بالكذب و الزيف .

ولكن هذا لا يعني أن الشيخ الإبراهيمي ، يتغاضى عن الواقع المؤلم الذي آل إليه أبناء العرب و المسلمين خلال مرحلة الإنحطاط ، و يتمثل في إقبالهم طوعا على كل ما يتصل بالغرب ، يتحدثون لغته و يلبسون ألبسته ، و ينتحلون أساليبه في الأكل و الشرب ، حتى إعتقدوا أنهم غربيين ، إنسلخوا في ظاهرهم و باطنهم عن قيمهم الذاتية و خصائصهم الموروثة ، فخرسوها و لم يجنوا شيئا من تقليدهم لقيم و خصائص الغير ، اذ غاب عنهم ان المظاهر التي قلدوا فيها الأوروبي ، هي أمور شكلية تظهر بها ، بعد أن تمكن من عناصر القوة و السيادة ، فهي لن تنفع أصحابها أو تغير من أمرهم شيئا ، إلا إذا سلخوا نفس السبل التي إنتهجها ، للوصول إلى ما وصل إليه من إزدهار و تقدم (2) .

من هنا فإن مسلك هؤلاء الشباب ، هو استيعاب نتائج الحضارة الغربية بذهنية المغلوب ، دون أن يكفوا أنفسهم عناء النقد ، و التمييز بين ما هو جوهري يؤخذ به ، و بين ما هو ثانوي يترك لأنه غير مفيد ، مبدأهم في ذلك أن ما يستوعبونه مهما كان ، يمثل معيارا للجودة و الصواب (3) .

و بالإضافة إلى ذلك ، فإنهم يعتقدون عن خطأ ، أن مصدر الحضارة الغرب الذي يحتكرها لوحده ، رغم أن الحضارة ليست من اختصاص جنس من الأجناس ، أو أمة من الأمم شرقية أو غربية ، فهي في حقيقة الأمر تراث إنساني تتداوله الأمم و تتعاقب عليه ، البعض منها يضيف

(1) - للمزيد ينظر راجح تركي : التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، مرجع سابق .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 311 .

(3) - شايف عكاشة : الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ( مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك

بن نبي ) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1993م ، ص 35 .

إليه أو يعدل فيه ، و البعض الآخر قد يحقق اكتشافات في بعض المسائل ، فينسبها إليه أو يصبغها بصبغته ، فتقترن به أو يتجاوزها الزمن .

و في هذا الصدد ، يعد الشباب الذي درس في المدارس و الجامعات الغربية ، أكثر المدافعين و المتحمسين لهاته الأفكار ، فحالهم حسب الشيخ البشير الإبراهيمي ، أنهم خالفوا بصنيعهم هذا قصة فرعون مع النبي موسى عليه السلام ، فإذا كان فرعون الذي حرم من نعمة الأبناء ، قد تبنى موسى و أحسن تربيته و رعايته ، ليكون له ولدا صالحا يخلفه على عرش مصر ، لكن العكس هو الذي حدث ، حيث انقلب موسى عدوا و نقمة على فرعون . في حين أن أبناء المسلمين الذين تلقوا تربيتهم و تعليمهم في البلاد الأوروبية ، كانوا أعداء لدينهم و مجتمعهم و لأمتهم ، إلا فئة قليلة منهم تمكنت من النجاة ، بالتمسك بقيمها الدينية و الحضارية <sup>(1)</sup> .

تكمُن أهمية هذا الإسقاط ، في كونه يعكس فعلا الانقلاب الذهني و النفسي ، الذي يصيب أبناء العرب و المسلمين ، الذين يربون و يتعلمون في بيئات حضارية و اجتماعية ، تختلف اختلافا أساسيا مع البيئات التي ينتمون إليها ، فبدل أن تنتفع بلدانهم و مجتمعاتهم ، بما اكتسبوه من علوم و معارف ، فإنهم يتحولون إلى مصدر للتشكيك في مرجعيتها الحضارية .

فتراهم يدعون إلى التغريب و التحديث ، و تبنى القيم الحضارية الغربية التي إنبهروا بها أيما انبهار ، و منهم من كفر بالشرق و آمن إيمانا يكاد أن يكون تأليها بالغرب ، فقال صراحة أنه من مصلحة العرب و المسلمين ، أن يكونوا أوروبيين عرقا و ثقافة و حضارة ، و ينبذوا كل ما يتصل بالحياة الشرقية ، إن هم أرادوا اللحاق بتلك الأمم الراقية ، و منهم على سبيل المثال المفكر المصري " سلامة موسى " (\*) ، الذي عبر عن ذلك بقوله : (( هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 312 .

(\*) - " سلامة موسى " : ولد في 04 جوان سنة 887 م بالزقازيق بمصر ، في سن العشرين سافر إلى باريس متأثرا برواد النهضة الأوروبية و إنتاجهم الفكري ، و منها إنتقل إلى بريطانيا ، و فيها إنضم إلى الجمعية الإشتراكية التي تسعى : " الفابية " و تعرف على زعمائها و منهم : " برنارد شو " ، " ولز " .... و غيرهما . كما إنضم في نفس الفترة إلى "جمعية العقلانيين" ، و قد دفع به وجوده في بريطانيا إلى التكر إلى كل ما درسه و تعلمه في مصر ، بحجة أن الذهنية الصحراوية هي السائدة في بلاده التي تفتقر حسبه إلى التفكير الخصب . من كتبه : " مقدمة السيبرمان " ، الإشتراكية " ، كما أصدر مجلة " المستقبل " ، و أشتهل في جرائد : " المحروسة " الهلال " ، " كل شيء " ، " المجلة الجديدة " . وصف بداعية الإستعمار ، و بأداة

حياتي سرا و جهرا ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب ، و في كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا في العصر الحديث ، و أن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب و يتصلون من الشرق ، لأنني أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم ، بل لا رجاء لنا بأن نعيشه إلا إذا تملصنا مما إكتسبناه من العادات الشرقية في نظام العائلة ، و نظام الحكومة ، و النظر للمرأة ، و النظر للأدب ، و النظر للصناعات و المعاش (1) . كما قال في موضع آخر ، تأكيدا لما سبق : (( نحن على يقين بأنه إذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتي إلينا من الغرب )) (2) .

مثل هذا الكلام ، يدفعنا إلى القول بأن المنهج الأيديولوجي لسلامة موسى يقوم على الدعوة إلى الخروج عن كل ما هو شرقي ، و الأخذ بكل ما أوروبي ، و حتى اللغة العربية دعا إلى وضعها في المتحف إلى جانب الآثار البابلية و الأشورية ، لأنها في وطنه لغة (( بدوية ميتة )) أعجز من أن تصف أثاث غرفته ، على العكس بالنسبة للغة الانجليزية (3) .

علاوة على ذلك ، يضيف الشيخ البشير أن الإستعمار الغربي ، يعتمد على إطلاق جملة من الإفتراءات إزاء العرب و المسلمين ، و منها أنهم خياليون ، و أنهم باعترازهم بأسلافهم يعيشون في الخيال ، و يعتمدون على الماضي الذي ولّى بلا رجعة ، و يتكلمون على قادة و زعماء هم في عالم الأموات . يقولون ذلك على سبيل الإستهزاء أو إسداء النصح ، لكنهم في الواقع يهدفون إلى جعلهم يعيشون ماضيهم فيعيشون بدونهم ، فإذا إستيقظوا من نومهم أو تنويمهم ، إكتشفوا أنهم يفتقدون إلى ماضٍ يبنون عليه حاضرهم ، فيندمجون في حاضر المستعمر ، و هو هدفه المنشود وراء العملية .

تحطيم اللغة العربية ، و بغيرها من الأوصاف ، بسبب تفكيره المغاير و المعارض للمناهج الفكرية السائدة . للمزيد ينظر سلامة موسى : ما هي النهضة و مختارات أخرى ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1990م .

(1) - سلامة موسى ، المرجع نفسه ، ص ص 6 - 7 .

(2) - كمال عبد اللطيف : سلامة موسى و إشكالية النهضة ، ط 1 ، دار الفارابي : بيروت ، المركز الثقافي العربي : الدار البيضاء : 1982 م ، ص 148 .

(3) - محمد عمارة : الإسلام بين التثوير و التزوير ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت : 1995م ، ص 11 ، 126 ، 127 .

ويضيف أنه في المقابل من ذلك ، نجد الأمم الاستعمارية ، أشد حرصا على صيانة تاريخها ، الذي تستمد منه قوتها و عزتها ، تعزز بمآثر أسلافها مهما صغرت ، و تخلد عظمائها الذين نبغوا في ميادين ، الفكر و الأدب و الفلسفة و الحروب و الفنون ، و خير دليل على ذلك عند الإبراهيمي ، هو تلك التماثيل التي تقام لهم ، و المتاحف التي تبني لتحفظ تراثهم ، فتتطلع إليه الأجيال ليكون لها مرجعية ، تستلهم منه تصوراتها و تطلعاتها <sup>(1)</sup> .

و النتيجة ظهور أجيال من أبناء المسلمين ، يعرفون كل شيء عن العرب ، تاريخه و علومه و صناعاته و قاداته و أبطاله ، في حين يجهلون ماضي أمتهم وسير رموزها و زعمائها ، فتجد الواحد منهم يعرف الكثير عن سيرة " نابليون " و يجهل كل الجهد سيرة " عمر ابن الخطاب " و يحفظ الكثير عن " جان دارك " ( JEAN DARK ) ( \* ) ، ولا يعرف شيئا عن أمهات المؤمنين " خديجة " و " عائشة " رضي الله عنهما . ويزيد الأوربيون الأوائل على ذلك ، قيامهم عن قصد بتحريف الحضارة العربية الإسلامية ، لما كانوا ينقلون علومها وفنونها و آدابها ، إلى البلاد الأوربية الغارقة في الجهل و الأمية ، وكأنهم تنبئوا بزوال مجد حضارة العرب و المسلمين ، وانتقاله إليهم ، فيتحولون إلى نقلة عنهم هذه المرة . و السر في تحريفها في اعتقاد الإبراهيمي ، هو لكي تتشابه على الأجيال اللاحقة ، فلا تدرك أن " أفيروس " هو " ابن رشد " ( 1126م - 1198م ) ، وأن " جبريل طار " هو " جبل طارق " ( \*\* ) ، أسماء يتلفظون بها ويتحدثون عنها ، دون أن يعرفوا أصولها .

وقد فسر الإبراهيمي ، هذه الازدواجية المتبعة من قبل الاستعمار ، فيما يتصل بتاريخ العرب و المسلمين ، الذي يشكك فيه و ينقص من قيمته ، و بتاريخه الذي يجتهد في الحفاظ عليه

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 467 - 468 .

(\*) - " جان دارك " ( JEAN DARK ) ( 1412م - 1431م ) : بطلة فرنسية قديسة ، قدمت المساعدة للملك " شارك السابع " ، وردت الانجليز عن حصار " أورليان " سنة 1429م ، ألقى عليها القبض وأحرقت في " روان " . المنجد في اللغة والإعلام .

(\*\*) - " جبل طارق " : مضيق بحري يفصل بين إسبانيا في قارة أوروبا و المغرب الأقصى في قارة إفريقيا ، ويصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي ، عرضه 14 كلم وطوله 50 كلم ، أطلق عليه العرب إسم " طارق بن زياد " فاتح الأندلس الذي إجتازه سنة 692 / 711م ، أما القدماء فسموه أعمدة " هرقل " و " بحر الزقاق " . المنجد في اللغة والإعلام .

والاستلهام منه ، أنه احتقار لواقع المسلمين المزري الذي تسبب فيه ، ظنا أو محاولة منه لإيهام الجميع ، أنهم لم يبلغوا الرشد بعد .  
 و في الصدد ذاته ، نعلم أن العملية لم تتوقف عند احتقار الجنس العربي الإسلامي ، والحكم على تاريخه بـ : " العقم الفكري " <sup>(1)</sup> ، بل تعدت إلى لجوء الباحثين والكتاب الغربيين ، إلى كل الوسائل المتاحة لهم ، لمحو الحضارة العربية الإسلامية من التاريخ ، عن طريق التزوير بإيهام المطلع على أبحاثهم وكتابتهم ، بأن التاريخ البشري ليس تلك الحلقات التي تتصل فيها إنجازات عدة أمم وحضارات ، و إنما هو مسافة زمنية مختزلة تبدأ بـ " أثينا " القديمة وتنتهي بـ : " باريس " الحديثة ، أي بين حضارة " أرسطو " ARISTOTE - (\*) وحضارة " ديكارت " DESCARTE - (\*\*\*) ، دون المرور على قرون الحضارة العربية الإسلامية التي تحذف عن عمد وقصد ، وهي خرافة علمية ، انطلت على الكثيرين من الغربيين ، ومن أبناء العرب والمسلمين أنفسهم <sup>(2)</sup> .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج2 ، مصدر سابق ، ص 468 .

(\*) - " أرسطو طاليس " ( ARISTOTELES ) ( 384م - 322 ق م ) ، فيلسوف يوناني ، يعد من كبار مفكري البشرية ، مربى الإسكندر ، تأثر بفكره المفكرون العرب والمسلمون الأوائل ، عن طريق مؤلفاته التي نقلها إليهم النقلة السريانيون ومنهم : " إسحاق بن حنين " ، مؤسس مذهب " فلسفة المشائين " من أهم مؤلفاته : " المقولات " ، " الجدل " ، " الخطابة " ، " كتاب ما بعد الطبيعة " ، " السياسة " ، " النفس " . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*) - " رونييه ديكارت " RENIE DESCARTE ( 1596م - 1650م ) : فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي ، نسق رموز الجبر ، ووضع القواعد الأساسية للمعادلات ، واخترع الهندسة التحليلية مع " فرما " ، له العديد من الإكتشافات الرياضية والفيزيائية الهامة . تقوم فلسفته على التحرر من الفلسفة التقليدية المدرسية ، واعتماد طريقة الشك المنهجي ، وتحديد طريقة المنطق الواضح الصريح المبني على الحدس والاستنتاج . صاحب المبدأ القائل : " أنا أفكر إذا أنا موجود " ، من أشهر مؤلفاته : " مقالة الطريقة " ، " تأملات فيما وراء الطبيعة " ، " مبادئ الفلسفة " ، " أهواء النفس " . المنجد في اللغة والأعلام .

(2) - مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، د ط ، دار الفكر : دمشق ، ص ص 148 - 149 .

- هذا بالنسبة لوسائل وأدوات الاستعمار في مجالات الفكر والثقافة ، أما في المجال الأخلاقي فقد ذهب الإبراهيمي إلى أن منظري الاستعمار يستخدمون وسائل ، لا تقل خطورة عن الأسلحة المادية المعروفة ، فحددها في خمسة عشرة وسيلة نوردها فيما يلي على الترتيب :
- نشر التعليم الذي يفسد الفكر ، بالاعتماد المعد سلفا لأداء هذه المهمة .
  - التركيز على العلوم والمعارف ، التي تثبت الشكوك وتزعزع اليقينيّات .
  - وسائل الإعلام ، التي تروج للإباحية ، والانحلال والتفسخ .
  - البضاعة السينمائية ، التي تزين الفواحش ، وتعرض على ممارستها .
  - تشجيع الدعارة ، التي يترتب عنها القضاء على التماسك الأسري ، والاستقرار الاجتماعي .
  - ترويج المخدرات ، التي تهدم الصحة العامة .
  - الممثلات اللاتي يمثلن الفجور والمجون .
  - الرقصات اللاتي يغرين الشباب بالتخنث .
  - الهزل الذي يقتل الجد والشهامة .
  - تشجيع تعاطي الخمر ، ضربا للدين والصحة ، وللعقول والأموال .
  - الحث على الشهوات ، التي تفسد الرجولة .
  - الإستهلاك الواسع النطاق للكماليات التي تنقل كاهل الأفراد والأسر ، وتجعل الحياة أكثر صعوبة وتعقيدا .
  - غرس العادات المخالفة لفطرة الله .

- الآراء والنظريات الكافرة والملحدة ، التي تحارب الإيمان لتنزعه من القلوب ( 1 ) .

وبشأن الكماليات ، فقد عدها من أهم الوسائل ، التي تمكن من خلالها الغرب من السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية ، وجعلها في حالة من التبعية المزمّنة له ، فعمد إلى إغراق أسواقها التجارية ، بغرض إضعافها اقتصاديا وامتصاص ثرواتها ، مستفيدا من انصراف الحكومات إلى الأعمال التافهة والصناعات غير المجدية . والنتيجة إنفاق أموال طائلة ، تدفع لاستيراد تلك الكماليات ، فتساهم في ازدهار الإقتصادات الغربية المنتجة لها ، خاصة وأن الطلب

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 211 .

عليها هو بنفس الطلب على الضروريات وبشكل مرضي : (( وأصبح كثير مما نستورده من الكماليات كالضروريات لا نطيق العيش بدونه ، فصرنا نأكل الحلوى ونحن في البلوى )) . وهكذا يتبين لنا وفقا لذلك ، أن الذهنية السائدة في البلاد العربية والإسلامية ، هي ذهنية الإستهلاك من أجل الإستهلاك ، سواء على المستوى الرسمي والحكومي ، أو على المستوى الشعبي ، فالحكومات تشجع تلك السلوكات بتقاعسها عن تبني سياسات إقتصادية حكيمة ، تأخذ في عين الاعتبار تلبية حاجات المجتمع الأساسية والكمالية ، بإرساء قاعدة صناعية وطنية قوية . أما الشعوب فإنها ساهمت في تفشي الظاهرة ، بتهافتها المفرط على المنتجات الكمالية الأجنبية ، على نحو يجعل الاستغناء عنها ضربا من المستحيل ، وهو ما كانت تسعى إليه تلك الدول منذ البداية . وعليه فإن الدول الغربية ، لم تتمكن في اعتقاده من فرض التبعية على المجتمعات العربية والإسلامية بتلك الحدة ، إلا بعد أن وجدت لديها الاستعداد النفسي التام ، لبعدها عن قيم العزة والكرامة ، ولموت الكثير من خلال الحميدة فيها ، كالإحساس بالواجب الذي أدى فقده إلى إيقاظ الشهوات البدنية ، هو الذي دفع ببعض الخلفاء المسلمين الأوائل في مرحلة الإزدهار ، إلى إعتزال الناس كلما عزموا على الحرب ، والأمر ذاته كان بالنسبة للقضاة الذي كانوا نموذجاً حياً ، في محاسبة النفس قبل أن يخوضوا في قضايا المتخاصمين . بالإضافة إلى موت النخوة في الأنفس ، والذي يترتب عنه الإنقياد السريع إلى تقليد الغالب ، والخضوع له والتحلل والذوبان في شخصه . فالواقع يؤكد حسب الإبراهيمي ، أن الدول الغربية لا تعطي إلا اليسير مما تأخذه من العرب والمسلمين ، وأن ما تعطيه سلبياته أكثر من إيجابياته . ومن العوامل التي يرى أنها ساعدتها على النجاح في إستراتيجيتها تلك ، طلبة العلم من أبناء العرب والمسلمين ، الذين يزاولون دراساتهم بمؤسساتها العلمية ، الذين يتخلون عن قيمهم وثقافتهم ، بمجرد أن تطأ أقدامهم أراضي تلك الدول ، وكأنها كانت تشكل عبئاً ثقيلاً عليهم ، وحين يستكملون تعليمهم ، يعودون إلى مواطنهم الأصلية بعقول وأفكار جديدة ، تختلف إختلافا جذريا عن سابقتها ، ومنهم من يزيد على ذلك فيأتي ومعه زوجة غربية ، يمثل وجودها إلى جانبه ضماناً لعدم عودته إلى سالف عهده (1) . ومنه نلاحظ أن الإبراهيمي ، قد أشار إلى قضية في غاية الحساسية ، وهي الزواج بالأجنبيات ، اللاتي تختلف ديانتهم وبيئاتهن الثقافية والاجتماعية ، عن نظيراتها في البلدان العربية

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 211 - 312 .

والإسلامية ، الأمر الذي يخلق مشاكل جوهرية كالإندماج وتربية الأبناء ، تكون نتائجها وخيمة على الإنسجام الأسري والاستقرار الاجتماعي ، حيث أنه في غالب الأحيان ما ينتهي هذا النوع من الزواج ، بتغريب الأبناء الذين يتبعون عادة أمهاتهم ، أو يتحولون إلى حلبة صراع ، إذا تمسك كل طرف بحقه في تربيتهم على النحو الذي يريده هو ، والواقع حافل بالأمثلة الكثيرة في هذا المضمار .

وفي نهاية المطاف ، نستنتج أن الإستعمار الروحي ، الذي يعني بلغة العصر الغزو الثقافي والفكري ، قد كانت له نتائج خطيرة على المجتمعات العربية والإسلامية ، على المدنيين القريب والبعيد ، وظف كأداة أساسية للسيطرة ، وإيقاء النفوذ من قبل الدول الإستعمارية الغربية الكبرى ، أثناء وبعد خروجها من مستعمراتها ، التي تشكل البلاد العربية والإسلامية الجزء الهام فيها . فصار جنبا إلى جنب مع الإستعمار الإستيطاني ، الذي سيطر على الأراضي والمقدرات الإقتصادية ، وأخضع الشعوب بالقمع والتشريد والإذلال والإبادة . ومما يؤكد خطورته ، هو عجز البلدان المستقلة ، عن التخلص من آثاره الثقافية والفكرية ، رغم نجاحها الباهر في طرد الاستعمار العسكري الإستيطاني ، بالكفاح والثورات المسلحة . وفي المبحث القادم ، سنستعرض أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار مترجمنا الثاني الامير شكيب ارسلان ، لكي نتمكن من الوقوف على نقاط التوافق و الاختلاف بينه و بين الشيخ البشير الابراهيمي ، في هذه القضية .



**المبحث الثالث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار أرسلان :**

يرى الأمير شكيب أرسلان ، أن الانحطاط و الضعف هما ظاهرتان عامتان ، تشترك فيهما كل الشعوب في الشرق و الغرب ، لكن بدرجات متفاوتة ، فهناك أقوام إسلامية ، بلغت مبلغا عظيما من التخلف و الانحطاط ، و منها ما هو تخلفها متوسط ، و البعض الآخر بدرجة أقل . و لكن بغض النظر عن هذا التقسيم ، فإن حالة العرب و المسلمين في تلك الفترة ( القرن 14 هـ / 20م ) ، هي من سوء في نظره ، بحيث أنها تضعف حتى أشد المتحمسين للإسلام ، فكيف يكون الحال بالنسبة للذين يئسوا من رؤية انبعاث جديد لقوة العرب و المسلمين . و يضيف بأن هذه الحالة غير مبررة ، لا من الجانب الشرعي ( الدين ) ، ولا من الجوانب الأخرى ( المادية و المعنوية ) ، لأن هناك شعوبا ربما هي دون العرب و المسلمين فيما يخص إمتلاكه لمقومات الرقي و التطور ، لكنها سبقتهم في ذلك <sup>(1)</sup> .

و على هذا النحو ، كان الأمير شكيب من المفكرين العرب و المسلمين ، الذين نظروا إلى قضية التخلف في العالم العربي و الإسلامي ، نظرة موضوعية بإعتبارها ظاهرة طبيعية ، تمر بها كل الأقوام و الأمم و المجتمعات ، مهما كان جنسها أو دينها أو ثقافتها . على خلاف بعض المفكرين و منهم بعض العرب و المسلمين و الغربيين على حد سواء ، الذين جانبوا الموضوعية و الحقيقة العلمية ، في توصيفهم و دراستهم لظاهرة التخلف العربي و الإسلامي ، بما وصلوا إليه من نتائج إعتبروها حقائق علمية ، و منها أن التخلف صفة ملازمة للأمم الشرقية عامة و العربية و الإسلامية خاصة ، و لا سبيل لها إلا أن تصبح غربية إذا أرادت أن تصل إلى الرقي و التقدم ، اللذان كانت الدول الغربية الكبرى تحياهما خلال القرن 20م .

فقد حاول الأمير شكيب أرسلان ، بإعتباره مفكرا عربيا و مسلما من ناحية ، و لكونه كان مطلعاً على كل ثقافات و أفكار العصر ، أن يشخص الأسباب الحقيقية التي جعلت العرب و المسلمين يفقدون الريادة الحضارية ، و ينحدرون بشكل متسارع نحو الإنحطاط و التخلف . مشيراً في كتاباته إلى أن المشكلة لا تكمن في التخلف كحالة جد طبيعية في حياة الأمم و المجتمعات ، وإنما في المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها ، والتي تدفع كما قال إلى يأس حتى الباحثين المشتغلين بالمشكلات الحضارية العرب و المسلمين أنفسهم ، قبل نظرائهم

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 34 .

الغربيين ، الذي يصادفون الكثير من المعوقات ، أمام فهم الواقع العربي والإسلامي ، ومن ثمة عجزهم عن تشخيص الأسباب ، واقتراح الحلول المناسبة للعلاج .  
 وإذا كان الشيخ البشير الإبراهيمي ، قد أرجع تخلف العرب والمسلمين كما سيظهر في المبحث الموالي من هذا الفصل ، إلى خمسة أسباب أساسية هي : فساد علماء الدين وانحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، الحجر على الاجتهاد والنزوع إلى النقل والتقليد ، فساد الأخلاق والعادات ووهن العزائم ، وأخيرا الاستعمار الروحي الذي قصد به الغزو الثقافي والفكري . فإن الأمير شكيب أرسلان في المقابل ، قد حصرها في خمسة أسباب أيضا وهي : العلماء المعطلون للراقي العلمي ، الجمود والجحود ، فساد الحكام والقضاة ، الركون على الكسل والخمول والتخاذل والتواكل ، وأخيرا الجبن وعدم الثقة في النفس . كلها أسباب سنستعرضها ونناقشها فيما يلي على الترتيب :

### 1- العلماء والفقهاء المعطلون للراقي :

أطلق الأمير شكيب أرسلان ، على هذا الصنف من العلماء اسم " الحشوية " ، وعرفهم أنهم يرون في الفلاسفة مجرد ملحدين ومعطلين ، ومنه جاء قولهم العامي : (( من تمنطق تزندق )) ، فأظفوا العوام بمثل هذه المبادئ السخيفة ، وجعلوا عقائدهم في خصام دائم مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الإسلام جنائية عظيمة ، تجلّى أثرها في الإنحطاط السياسي والاجتماعي الذي يحياه .

ويضيف بأنه إذا قام من المسلمين مصلح أو مجدد ، يتحدث بإسم الحكمة والعلوم الراقية ، ويحث على البحث وينكر على التقليد ، ويوضح مساوئ الجمود ، كان أول ما يسارع إليه أولئك العلماء ، بإتهامه بالزندقة وضعف العقيدة ، وقد يجد ذلك قبولا في نفوس من يميلون إلى التعطيل ، فيلفقون الإتهامات دون تحرر أو روية ، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس : (( لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء فيه )) (1) .

وإذا كان لفظ " الحشوية " الذي مفرده " الحشوي " ، وهو في اللغة الشخص الذي يكثر الحشو في الكلام (2) ، فإن الأمير بذلك يكون قد ألصق بهؤلاء العلماء صفة التكلف في الكلام

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 2 ، ص 290 .

(2) - المنجد في اللغة والأعلام .

الذي لا جدوى منه ، والاشتغال بابتكار الأقوال والعبارات ، وإطلاقها على خصومهم الذين يخالفونهم في المنهج والمذهب والرأي ، حتى وإن أفضوهم بالحجج الدامغة ، على أنهم علماء معطلون للرقى العلمى ، متسببون فىما تحياه مجتمعاتهم من انحطاط وتقهقر فى كل المجالات ، ومن ثمة استوجب الأمر أن تنتزع عنهم صفة العلماء ، كما هو رأى الأمير شكيب أرسلان .

ومن المعلوم ، أن السبب فى ظهور هذا النوع من العلماء ، الذين يناصرون العدا للعلم الحقيقى ، هو الضعف الفكرى الذى أصاب المجتمعات - العربىة - الإسلامىة ، وجعلها تغرق فى مستنقع الخرافات والأساطير ، والذى أدى بدوره إلى التفكك الاجتماعى ، حيث انتشرت الطوائف المتعددة والمتناحرة ، والمذهبية المتعصبة ، وكثرت السلطنات والدويلات ، التى قامت على أساس شعوبى أو مذهبى هنا أو هناك (1) .

وحىن أصيبت المجتمعات - العربىة - الإسلامىة بالضعف الفكرى والتفكك الاجتماعى ، انشغلت بتوافه الأمور ، فقادتةا إلى التخلف عن ركب العلم والتقدم والحضارة ، ومعناه أنها انصرفت عن تعاليم الإسلام ، التى تدعوا صراحة إلى العلم والمعرفة ، واستخدام العقل والفكر ، فى كل ما من شأنه أن يقود المجتمع نحو النهج السليم (2) . وبما أن كل ذلك يدخل فى صميم واجب العلماء ، فإن المتأخرىن منهم الذين وصفهم الأمير شكيب " بالحشوىة " ، كانوا بمسلكهم السابق السبب فى تعطىل الرقى العلمى ، وتجمىد الحىاة فى مجتمعاتهم .

وقد أكد الأمير هذه الحقىة ، بقوله أنهم أكبر المسؤولىن عن انحطاط الإسلام واستثنى القلة القليلة منهم ، مبررا ذلك بكونهم اتخذوا من الدين وسىلة للتكسب الدنىوى ، وللتزلف للأمرآء بتبرىر أعمالهم وأخطائهم بالأدلة الشرعىة ، والإفتاء إزاءها بالدين ، فكلمآ أتى ملك من الملوك أو أمير من الأمرآء ، يعمل منكرا إلا وأتوا له بأىات وأحادىث ، ىثبتون خلالها مشروعىة ما قام به ، بتأوىل معنى تلك الآىات وتحرف مضمونها ، ورواية الأحادىث الضعيفة...وغير ذلك من الشواهد التى ىبتغون من ورائها التزلف والعطاء .

(1) - أحمد عبد الرحىم السابىح : فى الغزو الفكرى ، ط 1 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامىة ، قطر :

1414 هـ ، ص 75 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 58 .

وبالنسبة إليه ، فإن هؤلاء العلماء قد تمادوا في انحرافهم ، مستفيدين من سكوت المسلمين عن ممارساتهم واستهتارهم ، فأخذوا يتقربون بمثل تلك الأساليب ، إلى الحكومات غير المسلمة في القضايا التي تؤدي إلى الإضرار بالإسلام ، فكلما سقط بلد مسلم في يد دولة أجنبية محتلة ، أو قامت أمة إسلامية لتحارب دولة أجنبية معادية لها ، وجدت تلك الدول المعتدية من هؤلاء العلماء المسارعة إلى خدمة مصالحها ، منهم من يفتي بذلك من الكتاب والسنة . والأمثلة كثيرة على ذلك عند الأمير شكيب ، ومنها ما حدث في سورية أثناء الحرب العالمية الأولى ، التي أفتى عدد من علمائها ضد " الشريف حسين " أمير مكة ، توددا لـ : " جمال باشا " قائد سوريا في تلك الأثناء . ولما انتصرت دول الحلفاء في الحرب واحتلت سوريا ، قامت تلك الفئة ذاتها بمبايعة " الشريف حسين " ، الذي كانت ترى فيه قبل ذلك باغيا وخارجا عن الخليفة ، ولما احتلت فرنسا الشام بعد ذلك ، اتصلت منه وأصبحت تفتي لصالح فرنسا ، معتبرة الملك " شريف حسين " أجنبيا . والأسوأ من ذلك في رأي الأمير شكيب ، أنك تجدهم يبررون مواقفهم تلك كلما عوتبوا عليها ، بقولهم إنما يفعلون ذلك وقاية ونجاة من الظلم والاعتداء . وهو عذر غير مقبول في تقدير شكيب ، مهما جاؤوا به من حجج ومبررات ، لأن دافعهم الحقيقي في ذلك هو الجري وراء الوظائف والمناصب والعطايا ليس إلا : (( ... والصحيح أن عذرهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم ...باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفساف (\*) وطلاب وظائف ، هذا يريد أن يكون قاضيا وذاك مفتيا وذاك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجره إمضائه نقدا دراهم معدودة ... ))<sup>(1)</sup> .

ويبدو أن الأمير شكيب ، قد فضل إعطاء مثال عن العلماء المنحرفين المعطلين للرقعي من التاريخ العربي والإسلامي المعاصر ، حيث امتحن العلماء العرب والمسلمون في العديد من المناسبات المصيرية للأمة ، وقد فضل الكثير منهم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، والقلة القليلة منهم هي التي أخضعت مواقفها للمبدأ والمصلحة العامة ، ومنهم مترجمانا الشيخ

(\*) - السفساف : مفردها سفساف : الرديء من كل شيء . يقال فلان سفساف الكلام ، ليس لكلامه معنى . المنجد في اللغة والأعلام .

(1) - لوثرود ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 4 ، ص 44 .

البشير الإبراهيمي والأمير شكيب ، فالأول رفض الدعاية والعمل لصالح الملك " فيصل " أثناء إقامته في الشام احتجاجا على سياسة أبيه " الشريف حسين " في المنطقة ، وقد أشرنا إلى ذلك بشيء من التفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل ، والثاني أيد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ورفض مساندة الثورة العربية المتحالفة مع دول الوفاق ، إدراكا منه للأهداف البعيدة التي كانت ترمي إلى تحقيقها تلك الدول بعد أن تنتصر في الحرب .

وفي حقيقة الأمر ، لقد حفل التاريخ العربي والإسلامي في كل الأوقات والأزمات ، بعلماء كانوا بمثابة شعاع النور والهداية وصوت الحق والعدل ، مدركين لحقيقة دورهم ، يقحمون أنفسهم في كل معركة خاضتها شعوبهم من أجل حريتها واستقلالها ، فإن لم يشاركوا كمحاربين ومقاتلين ، فهم يشاركون بكلمة الحق التي يرفعونها دون خوف أو وجل ، في وجه السلطان المستبد ، ويدعمون جبهات القتال بما لديهم من علم نافع ، وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم . يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا ، ويثورون ضدهم إذا جنحوا إلى الظلم (1) .

ولم يستثن الأمير علماء الفقه بالانتقاد ، حيث وصفهم بالجامدين وبشدة التعصب لكل ما قد سبق العمل به ، ونفورهم من كل شيء جديد ولو لم يتضمن مخالفة للشرع الإسلامي ، وعدم إجازتهم العمل إلا بما علموه ، ولو كانت المصلحة المتعينة تستوجب خلافه . وبتسابقهم إلى الجزم بحرمة ، ما لم تثبت حرمة ، بالرغم مما جاء من تشديد ووعيد ، ضد كل من يفتي بالحلال والحرام بغير علم (2) . فلا احد منهم اهتم بحل المشكلات الواقعية لمجتمعاتهم ، كما كان يفعل أئمة الفقه الإسلامي في العصور الأولى ، بل أن جل اهتمامهم كان منصبا على مشكلات وهمية ( خيالية ) ، معرضين عن مواكبة المشكلات والقضايا المستجدة ، منشغلين بقضايا خيالية صرفة ، كالبحث في جنس الملائكة ، أو التوضؤ من وطأ البهيمة (3) .

ولهذا السبب ، كان الأمير قاسيا في حملاته على هذا الصنف من العلماء المنتسبين إلى العلم زورا ، واصفا إياهم بشتى الأسماء والنعوت ومنها " المعمون " ، ومما قاله في هذا الشأن

(1) - ينظر اسماعيل ابراهيم : مشايخ ضد السلطة والسلطان ، ط 1 ، دار الكتب ، القاهرة : 2004م .

(2) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص 368 .

(3) - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، مرجع سابق ، ص 47 .

بأنهم أصحاب : (( عمائم مكورة ، وطیالس مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة )) .  
وفضلا عن كل ذلك ، كان يستمطرهم باللعنات <sup>(1)</sup> .

ومما سبق ، نستنتج أن الأمير شكيب أرسلان ، قد حمل العلماء بما فيهم الفقهاء قسما كبيرا من المسؤولية ، في الانحطاط الحضاري الذي أصاب العرب والمسلمين في العصور الأخيرة ، وأصبح صفة ملازمة لهم . بوقوفهم حاجزا أمام الرقي العلمي والفكري والاجتماعي لمجتمعاتهم ، في الوقت الذي يفترض فيه منهم أن يكونوا هم المحركين لعجلته ، القائدين لمسيرته . ولذلك فقد وجه انتقادات لاذعة ، أكثر من غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ، لحساسية دورهم في حياة الأمة . كما أنه لم يتردد في أن ينتزع عنهم صفة العلماء ، معتبرا إياهم منتسبين إلى العلم والدين زورا . لأن العالم في تقديره لا يكون عالما حقيقيا ، إلا إذا اضطلع بواجباته نحو أمته ، ومنها الدفاع عن مصالحها العليا ، وقيادتها نحو التقدم والازدهار ، فلا يخضع في ذلك للضغوط أو للإغراءات أو المساومة على مبادئه ، فإن فعل ذلك فقد صفة العالم .

## 2- الجمود والجحود :

عرف الأمير شكيب ، المسلم الجامد بأنه ، هو الذي مهد الطريق لأعداء المدينة الإسلامية لمحاربتها ، مبررين ذلك بأن التخلف الذي أصاب العرب والمسلمين ، وإنما هو ثمرة لتعاليم الدين الإسلامي . كما أنه هو سبب الفقر الذي ابتلي به قومه ، لأنه جعل من الإسلام دين آخرة فحسب ، رغم أنه دين دنيا وآخرة ، وهي خاصة تميزه عن سائر الأديان الأخرى ، فلا هو حصر الحياة في الكسب كما هو الحال في ديانات شعوب الصين والهند ، ولا هو في زهد الدنيا وملكها ومجدها كما جاء في تعاليم الإنجيل ، ولا حصر همه في المعيشة الدنيوية ، كما هو الحال في المدينة الأوروبية المعاصرة . وعرفه أيضا - المسلم الجامد - ، بأنه ذلك الذي أعلن الحرب على العلوم الطبيعية و الفلسفية وفنونها وصناعاتها ، بحجة أنها علوم من إنتاج الكفار والنتيجة أنه حرم الإسلام من ثمراتها ، وأورث أبناءه الفقر الذي يحيونه ، وقضى على الحياة لديهم . لأن العلوم الطبيعية ، هي العلوم التي تبحث في الأرض ، التي لا تعطي مكنوناتها

(1) - أحمد الشرباصي : أمير البيان شكيب أرسلان ، مرجع سابق ، ص 191 .

وكنوزها ، إلا لمن يبحث فيها ، فإذا استهلكنا كل أعمارنا في الحديث عن الآخرة ، قالت لنا الأرض : (( اذهبوا توا إلى الآخرة فليس لكم نصيب مني )) .

وعلى ضوء هذا التعريف ، نلاحظ أن الأمير قد ميز بين نوعين من الجمود ، الأول أوجد البيئة الخصبة لأعداء الإسلام وخصومه ، لكي يحققوا أهدافهم المتمثلة في إلغاء كمرجعية فكرية و ثقافية و سياسية ، و بدرجة أقل تحييده ، بحجة أنه علة التخلف لدى العرب و المسلمين ، و في نهاية المطاف يتم بتعويضه ببديل آخر و هو البديل الغربي ، الذي يعتبره الكثيرون من أقطاب الفكر و الإصلاح العرب و المسلمين و منهم الأمير ، بأنه عديم الجدوى و مآله الفشل مسبقا ، لأسباب ثقافية و اجتماعية و فكرية . أما النوع الثاني من الجمود الذي أشار إليه ، هو العيش على الغيبيات و الإمتناع عن طرق أسباب الرقي و التقدم ، المتمثلة في العمل و البحث و التنقيب ، و السعي إلى خوض غمار الصناعة باستغلال الثروات و الكنوز التي تختزنها بواطن البلاد العربية و الإسلامية ، تماما مثلما قامت به الدول الأوروبية ، التي وظفت كل الوسائل من أجل الحصول على تلك الثروات الحيوية و منها الاستعمار .

و بعد ذلك تناول الأمير بالشرح و التحليل ، النتائج التي ترتبت عن حصر العرب و المسلمين لكل جهودهم في العلوم الدينية و المحاضرات الأخروية ، فذكر بأن ذلك قد جعلهم في مرتبة ضعيفة بالموازاة مع الأمم الأخرى ، التي توجهت نحو الأرض تبحث و تنقب فيها ، فكانت لها السيادة و الريادة في العالم ، في حين ظلوا هم يتراجعون و يتقهقرون ، حتى أصبحت عناصر القوة و السيطرة في أيدي أعدائهم الذين أصبحت لهم القدرة على إبعادهم عن دينهم ، فضلا عن التحكم في مصير دنياهم ، و من : (( ليست له دنيا فليس له دين )) (1) .

أما النتيجة الأخطر التي يراها ، هي أن المسلم الجامد لا يعرف أنه بمسلكه الخاطئ ذلك ، يعمل على تحطيم أمته و إنزالها دون منزلة الأمم الأخرى ، و لا ينتبه إلى النتائج الوخيمة التي جررها على قومه ، بإهمالهم للعلوم الكونية ، حتى أصبحوا في ما هم عليه من فقر ، و صاروا عالة على أعدائهم ، الذين لا يسعون إلا لإفقارهم و إخضاعهم . و رغم كل

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 105 ،

ذلك ، تراه يبزر ذلك الوضع بالقضاء و القدر ، شأنه في ذلك كشأن سائر الكسالى في الدنيا ، الذين يخفون عجزهم بالكسل و بالأقدار .

ثم خالص إلى أن هذا الصنف من الناس ، هو الذي حجب الكسل إلى الكثير من المسلمين ، فظهرت فيهم فئة تلقب بـ : " الدراويش " ، لا شغل و لا عمل لها ، و هي في الواقع ليست إلا (( أعضاء مشلولة في المجتمع الإسلامي )) ، و هذا الصنف أيضا هو الذي جعل الأوروبيين يقولون بأن الإسلام دين جبري ، لا يأمر أتباعه بالعمل ، فما هو موجود موجود سواء عمل الإنسان أم لم يعمل (1) .

و الأمير في كل ذلك ، لا شك أنه أراد أن يحفز العرب و المسلمين المتأخرين و الجامدين ، على ترك جمودهم جانبا ، و الانطلاق في العمل و البحث في كل الميادين و المجالات ، لأن الإسلام دين و مدنية ، و ليس كما يروج عنه خصومه أنه ، مجرد دين روحي ، ينظم العلاقة بين الله و الإنسان ، لا علاقة له بالحياة و المجتمع ، أي أنه لا يتضمن أسلوبا للحياة و قيما تستلهم منه ، و غير ذلك من المبررات التي تنزع عنه صفة العطاء ، و التأثير في مجريات حياة الإنسان و المجتمعات (2) .

و بالتالي فإنه يقر ، بأن الدين الإسلامي لا يشكل عائقا مهما كان نوعه ، أمام إستعادة العرب و المسلمين للريادة الحضارية التي فقدوها منذ قرون ، و انتقلت إلى الدول الغربية التي إستطاعت أن تتجز حضارة ، قامت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية ، و تمكنت من أن تغمر العالم بأسره ، بمخترعاتها و منتوجاتها في مجالات العلوم و التقنية ، و المؤسسات و النظم ، إلى حد الإبهار ، الأمر الذي شكل تحديا عظيما زاد في تعميق الفجوة الحضارية بين الغرب و العرب و المسلمين ، الذين إستسلموا للجمود و الخمول و الكسل ، و اكتفوا بعملية المشاهدة لكل ما يحدث لدى الطرف الآخر (3) .

(1) - شكيب ارسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 107 .

(2) - أنور الجندي : أفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ، ط 3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت : 1987م ، ص ص 189 - 190 .

(3) - محمود محمد سفر : دراسة في البناء الحضاري ( محنة المسلم مع عصره ) ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1409 هـ ، ص ص 48-49 .



و مثلما أقر الأمير شكيب ، بوجود فئة من العرب و المسلمين ، لا ترغب في أن تغير شيئاً ، و لا توافق على ابسط التعديلات في الواقع ، فإنه أقر أيضا بوجود فئة أخرى و صفها بالجمود . و الجاحد في مفهومه : هو الذي يريد " فرنجة " ( من الإفرنج ) المسلمين و بقية الأمم الشرقية ، و ينتزع منها جميع مقوماتها الشخصية ، و يجعلهم ينكرون ماضيهم ، فيكون حالهم كحال العنصر الكيماوي ، الذي يضاف إلى تركيبة جسم آخر غريبا عنه ، فيذوب فيه و يفقد هويته الأصلية . و قد اعتبر الأمير هذه النزعة النفسية ، التي تميل إلى إنكار الماضي و احتقار الآباء ، فعلا لا يصدر إلا من شخص خسيس و وضيع ، و عن من يشعر وسط قومه ، أنه ينحدر من أصل دنيء ، فيسعى للتعويض عن ذلك بإنكار أصل أمته بأسرها ، لأنه يدرك بأن لا نصيب له في تلك الأصالة . و هو أمر مخالف لسنن الكون الطبيعية ، التي أوجدت في كل الأمم ميلا طبيعيا ، إلى الاحتفاظ بمقوماتها و خصائصها ، المتمثلة في اللغة و العقيدة و العادات و ألوان الطعام و الشراب و السكن (1) .

و منه يتضح لنا أن الأمير قصد بالجاحدين دعاة التغريب ، و هم أولئك المتفقون المعجبون بالغرب المنبهرين بحضارته و قيمه أعظم انبهار ، الذين يعتقدون بأن وسيلة العرب و المسلمين الوحيدة ، للخروج من مأزق التخلف و الانحطاط ، هي هدم كل ما هو موجود و إزالته ، و إحلال النموذج الغربي محله . و الواقع أن هذا التيار شديد الاغتراب عن أمته و هويته ، قد افنتت بالغرب ، و أخطأ فهمه و تفسيره و الاسترشاد بمنهجه في الإصلاح . فالغرب حينما يسعى للإصلاح ، فمن أجل أن يحافظ على ما هو موجود ، بينما يعمل الفريق المستغرب لدى العرب و المسلمين ، على التجرد من كل ما يتصل بالهوية و الذات تجردا تاما (2) .

و من المعروف أن " التغريب " ( Oxidentalisation ) الذي يعني نشر حضارة الاستعمار الغربي في الماضي ، و الحضارة الغربية حاليا ، وهو سياسة حاولت خدمة مصالح الاستعمار ، بتقليص الهوية التي تفصل بينه و بين شعوب مستعمراته في البلاد العربية

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 88-89 .

(2) - سعيد حليم باشا : لماذا تأخر المسلمون ؟ ، نقله عن التركية و قدم له عبد الرزاق بركات ، ط 1 ، عين

للدراستات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، القاهرة : 2006م ، ص 19 .

و الإسلامية ، نتيجة للاختلاف في القيم ، و للظلم الذي كان تشعر به تلك الشعوب إزاء المحتل لبلادها ، مما يفرض عليها مقاومته و محاربتة ، طبقا لما نصت عليه عقيدتها التي تستوجب الجهاد ضد المحتل هذا من جهة . و من جهة ثانية ، فقد عملت سياسة التغريب ، على إضعاف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين ، و تفرق اجتماعهم على قيم فكرية و حضارية مشتركة ، حتى يتمكن الاستعمار في النهاية من أن ينفرد بتلك البلاد كل على حدا . و لتحقيق ذلك وظف الاستعمار كل الوسائل ، و تغلغل في كل الميادين ، و امتد إلى سلوك الأفراد و الآداب الاجتماعية و الفنون ، و استعان بالبرامج الدراسية ، و الصحافة و الإستشراق ... و غيرها (1) .

و قد وجدت هذه السياسة التغريبية ، البيئة الخصبة في البلاد العربية و الإسلامية ، بوجود فئة من مجتمعاتها لها الاستعداد للعمل في هذا الاتجاه ، و قد عدها الأمير بالمريضة نفسيا ، فجعلها مرضها تحقر ذاتها و أمتها و تراثها و تاريخها و قيمها الحضارية ، و وجودها بطبيعة الحال لا يقتصر على العرب والمسلمين ، وإنما في كل البلاد وفي كل الأزمنة .

وجملة القول أن الأمير شكيب ، قد حاول من خلال ما سبق لفت انتباه العرب والمسلمين ، إلى النتائج السلبية التي انجرت عن الجمود والجحود على مجتمعاتهم ، فإذا كان الأول يدفع إلى الانغلاق الشديد وإنكار التجديد و سنن التطور الطبيعي ، فإن الثاني يؤمن بأن البعد عن المقومات الذاتية ومحاكاة الغرب ، هو السبيل إلى الخروج من دوامة الانحطاط والتقهقر . وكلاهما أوجد حالة من التشتت والضياع ، والغربة الروحية والأدبية والفكرية (2) .

ومن خلال ذلك ، فقد دعا إلى إعادة استلهام القيم المعنوية والمادية التي قامت عليها الحضارة العربية والإسلامية الأولى ، التي ارتادت مجاهيل الأرض وبحثت في كنوزها ، ونشرت العدل والرقي ، دون أن تفقد الصلة بذاتها وبمقوماتها ، أو تعتبر بأن الاشتغال بذلك نقص في الدين ، وابتعاد عن توجيهاته . بل أنها اتخذت المنهج التجريبي في البحث ، والذي

(1) - ينظر محمد محمد حسين : أزمة العصر ، د ط ، دار عكاظ للطباعة و النشر ، جدة ، السعودية : 1979م ، ص 105 و ما بعدها .

(2) - سعيد حليم باشا ، المرجع السابق ، ص 19 .

صار بدوره أساسا لكل التقدم الذي تشهده الدول الغربية في ميدان العلوم في عصرنا الحالي (1) .

### 03 - فساد الحكام :

شدد الأمير شكيب على أنه ، من أكبر المصائب التي أصيب بها العرب و المسلمون المتأخرون ، تأنيهم من حكامهم الذين يبيعون حقوق الأمة ، بلقب أمير أو ملك كاذب ، و يتبوء كرسي أو سرير ، و برفع علم زائف و لذة تافهة ، أو بإعطاء أوسمة و مراتب (2) . و راح يصف حالهم ، بأنهم استولوا على أموال مجتمعاتهم ، أما أوقاتهم فيكرسونها في إشباع شهواتهم ، و في الجري وراء مصالحهم الخاصة التافهة . مشتغلون بتوافه الأمور عن السامية منها ، لا هم لهم سوى إنفاق الأموال في الشهوات و الملذات ، يتصرفون فيها كيف ما شاءوا ، و كأنها تركة ورثوها عن آبائهم و أجدادهم (3) .

و هو في هذا يقر ، بفساد أغلب الحكام العرب و المسلمين إلا النادر منهم ، حيث اتصلوا من واجباتهم إزاء محكومهم ، المتمثلة في صيانة حقوقهم و حماية وحدتهم و الدفاع عنهم ضد أي خطر خارجي يهددهم ، و سلكوا سياسات خاطئة جوهرها الاستبداد و عدم المسؤولية . و بذل كل شيء من أجل الإبقاء على مناصبهم و عروشهم ، فضلا عن انغماسهم في الترف و دواعي الشهوات (4) ، التي يقبلون عليها بسخاء غير أبهين بحال شعوبهم ، التي تزداد فقرا و تخلفا و انحطاطا بفعل ذلك .

و علاوة على ذلك ، يرى الأمير شكيب بأنه من بين أولئك الحكام ، من دعا صراحة إلى التفرنج و الإقتداء بالأوروبيين ، و يعطي مثالا بـ : " مصطفى كمال أتاتورك " الذي اشتهر بسياسته المعادية لكل ما هو إسلامي و شرقي ، و الساعية لجعل تركيا بلدا أوروبيا مظهرا

(1) - محمد قطب : قضية التنوير في العالم الإسلامي ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2002 ، ص ص 23-24 .

(2) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص 100 .

(3) - شكيب ارسلان : الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مصدر سابق ، ص ص 50 - 51 .

(4) - علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ( 1797م - 1914م ) ، ط 2 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت : 1978 ، ص 165 .

و مخبرا ، بل أن سياسته تلك قد تحولت إلى حجة يطلقها أنصاره ، في وجه كل من يخالفهم الرأي خاصة في مسألة العادات الإسلامية القديمة و منها الحجاب ، حيث كان " أتاتورك " يدعي كما يدعي خلفاءه في عصر شكيب و الإبراهيمي ، من أن التمسك بتلك العادات هو السبب الذي أدى بالإسلام إلى ما هو عليه من ضعف ، و أن السبيل الوحيد لخلاص - العرب - المسلمين منه ، هو الإقتداء بالأوروبيين في لباسهم و طعامهم و في كل شيء يتصل بهم . على أساس أن كل ما يراه الأوروبيون حسن فهو حسن ، فلو لم يكونوا أقدر على الحسن من غيره ، لما حققوا ذلك النجاح الباهر في كل المجالات ... إلى غير من ذلك من المبررات التي يسميها الأمير شكيب بـ (( التعليقات الأنقرية الواهية )) - نسبة إلى العاصمة أنقرة التي أصبحت عاصمة لتركيا في عهد أتاتورك - ، المردودة بالبداهة باعتراف العلماء الأوروبيين أنفسهم ، الذين أقرروا بأن رقي الأمم ماديا لا يتم إلا في إطار المقومات الروحية و المشخصات الإجتماعية ، و الدليل في ذلك أن أوروبا رغم ما أحرزته من تقدم في شتى العلوم و المعارف و الصناعات ، إلا أنها ظلت متمسكة تمسكا شديدا بتعاليمها المسيحية ، لا تحيد عنها قيد أنملة ، و قد تكون أشد اعتصاما بها من اعتصام المسلمين بتقاليدهم .

و من الأمثلة أيضا ، التي تجعل " أتاتورك " سياسته تلك في رأي الأمير شكيب ، نموذجا سيئا للحكام المسلمين في ذلك الإطار ، تشجيعه على عادة السفور بين الرجال و النساء ... و غيرها من الأمور التي فرضها على الأتراك و حمل عليها المسلمين دون غيرهم ، و منها طلبه من سفير مصر بـ : "أنقرة " "عبد المالك بك حمزة " ، أن ينزع طربوشه خلال حفلة رسمية ، مما أدى إلى نشوب نزاع بين مصر و تركيا ، تحول إلى قضية دولية بينهما (1) .

و بالفعل فإن " كمال أتاتورك " ، يعد من أبرز الحكام المسلمين في التاريخ المعاصر ، الذين إعتقدوا بأن الخصائص الشرقية تشكل عائقا للرقى و التقدم أمام البلاد الإسلامية و العربية ، و في ذلك قال : (( يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، و علينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، و لا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأخرى بالضحك علينا

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص 215 .

و على موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار و الزمن <sup>(1)</sup> . و من ذلك فقد بذل كل ما في وسعه ، لفصل تركيا عن ماضيها الذي كان يراه فاسدا و متعفنا .

و من الطبيعي بالنسبة للأمير شكيب أرسلان ، أن تجد أفكار " أتاتورك " التخريبية صدى لها في البلاد العربية و الإسلامية ، حيث تحول إلى مثل أعلى للكثير من القادة و السياسيين و المفكرين فيها على إختلاف أجناسهم و بيئاتهم <sup>(2)</sup> ، و منهم " أمان الله خان " في أفغانستان ، الذي كان الأمير معجبا به في بداية الأمر ، و كانت له علاقات مع سفرائه و رجاله يوم كان رئيسا لـ: " النادي الشرقي " في برلين بين 1920م و 1923م ، لكنه غير موقفه منه ، بعد ظهوره أثناء زيارته لمصر و للعديد من الدول الأوروبية و خاصة إيطاليا ، بمظهر التفرنج ، رغم نصائح الكثير من الشخصيات العربية و الإسلامية له ، بالعدول عن ذلك . و لهذا رفض الأمير الذهاب لإستقباله أثناء مجيئه إلى سويسرة ، حيث كان مستقرا بـ: " لوزان " <sup>(3)</sup> . و هو موقف ليس بالغريب عن الأمير شكيب أرسلان ، الذي عرف بجرأته الشديدة في التعبير عما يعتقد أنه الحق أو الصواب ، و بإعتزازه العظيم بنفسه و بأمتة و بدينه .

و تجدر الإشارة في هذا الصدد ، أنه قد كانت للأمير مواقف عديدة إنتقد فيها أصحابها رغم سمو مكانتهم العلمية و الإجتماعية ، و منهم الأديب " طه حسين " ، الذي أصدر كتاب " في الشعر الجاهلي " ، و أظهر فيه إنبهارا زائدا بكل ما يصدر عن الأوروبيين قولاً و فعلاً ، و لو كان سيئا يتعلق باللغة العربية و آدابها ، فقال فيه أنه كان في ذلك مدفوعا : (( بعقيدة سخيصة فاشية - و يا للأسف - في الشرق ، و هي أن الأوروبي لا يخطئ أبدا ! و أنه من حيث أنه إختراع الأوروبي سكة الحديد و الغواصة و الطائرة و السيارة و التلغراف و اللاسلكي و ما

(1) - أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 47 نقلا عن IRFANOGR MARGARETE : ATATURK , MICHAEL JOSETH LTD , LONDON , 1962 P.244

(2) - للمزيد ينظر المرجع نفسه ، ص 49 و ما بعدها .

(3) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص ص 217-218 .

أشبه ذلك ، فلا شك أنه صار يفهم جيمية " الشماخ " و لامية الشنفرى (\*) أحسن ما يفهمهما سيبويه (\*\*\*) و الخليل ابن أحمد (\*\*\*) ... إلخ )) (1) .

و يعتقد الأمير شكيب أن مسؤولية فساد الحكام و الأمراء ، يتحملها العلماء ، لأنهم يجارونهم في معاصيهم ، و يتزلفون إليهم بالباطل و بالإفتاء لهم بتأويل النصوص الشرعية ، جريا وراء مطامع دنيوية زائلة . فكانت النتيجة وخيمة على الأمة العربية و الإسلامية ، التي فقدت قوتها و هيبتها و سيادتها ، و أضحت ضعيفة و منحطة لا قيمة لها بين الأمم : (( و هكذا تحول أمر هذه الأمة من العظمة إلى الصغار ، و من التمكّن في الأرض إلى البوار ، و من المآثر و المباني إلى الدمار ، و من أحاديث المعالي إلى أقاصيص العار و الشنار ) . و خلص على أن أخطر نتيجة ترتبت عن كل ذلك ، تزايد الأطماع الاستعمارية الغربية على الأقطار العربية و الإسلامية ، طمعا في السيطرة عليها (2) .

فالأمير شكيب بناء على ذلك ، قد ربط فساد الحكام و الأمراء في بلاد العرب و المسلمين أيضا بفساد و انحراف العلماء ، الذين بدلا من أن يكونوا سلطة فوق سلطتهم ، أصبحوا أداة في أيديهم يلجئون إليهم كلما احتاجوا إلى دعاية ، أو تبرير لسياساتهم و ممارساتهم التي لم تجلب لبلدانهم التخلف الحضاري و الاجتماعي فحسب ، بل جلبت لها الاستعمار الأوروبي . فإذا كان الأمير قد ضرب مثلا بتركيا تلك الدويلة الصغيرة التي تمخضت عن

(\*) - الشنفرى ( أوائل القرن السادس الميلادي ) : هو ثابت أوس الأزدي ، يمني الأصل ، من شعراء الجاهلية الصعاليك ، له " لامية العرب " و مطلعها :

أقيموا بني أميا صدور مطيكم فإني إلى قومي سواكم لأميل . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*) - سيبويه : هو سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان ، نحوي ولد في " البيضاء " قرب " شيراز " ، و نشأ في البصرة ، تعلم على الخليل . إمام مذهب البصريين ، و كتابه في النحو هو " الكتاب " شرحه " ابن الشراح " و " المبرمان " و " السيرافي " و " الروماني " ، توفي نحو سنة 796 . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*) - الخليل ابن أحمد : من أشهر علماء اللغة ، واضع علم العروض ، من أهل البصرة ، معلم " سيبويه " و " الأصمعي " . له كتاب " العين " و هو أول معجم عربي على الحروف ، توفي نحو سنة 786 م . المنجد في اللغة و الأعلام .

(1) - جلال أمين : التنوير الزائف ، سلسلة إقرأ ، دار المعارف ، القاهرة : 1990م ، ص ص 110 - 112 .

(2) - شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص ص 50 - 51 .

انهيار الدولة العثمانية ، فإن هاته الأخيرة لم تنتهي إلى تلك الحال ، إلا بسبب حكامها الذين عملوا على تمزيق أوامر السلطة فيها ، بزرع الشقاق و إدخال الانقسام حتى في صفوف الجيش ، و قد شبه الأمير شكيب حالهم ذلك بحال من يخرب بيته بيده (1) . غير آبهين بمخططات الدول الاستعمارية الأوروبية التي كانت تتربص بدولتهم ، طمعا في اقتسام أملاكها وتركنتها (2) .

و بالنظر إلى كل ما سبق ، يمكننا أن نستنتج السبب الذي دفع بالأمير شكيب ، على اعتبار أن كل ما تعرض له العرب و المسلمون من انحطاط و تخلف ، إنما مصدره حكامهم و أمراءهم ، الذين كانوا يحرصون في اعتقاده على إدامة ذلك الوضع ، حفاظا على سلطتهم التي انتزعوها بالقوة و التهيب و المؤامرات و الدسائس هذا من ناحية ، ولأنهم أوصلوا بلدانهم إلى الإفلاس التام الذي مهد الطريق أمام التدخل الأجنبي ، ثم الاحتلال من ناحية ثانية .

#### 04- ضعف الروح القومية و الخيانة :

يعد ضعف الروح القومية ، عاملا أساسيا في تخلف و انحطاط العرب و المسلمين في نظر الأمير شكيب أرسلان ، و لهذا فقد بدأ مناقشته لهذا الموضوع ، بالحديث عن الروح القومية العالية التي يتصف بها الشعب الإنجليزي ، الذي لم يصل حسبه إلى ذلك المبلغ من القوة و السلطان ، إلا بفضل ذلك ، و للتأكيد على ذلك ساق الحادثة التالية قائلا : (( حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنجليزيا ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة ببيته يوميا من دكان رجل إنجليزي في البلدة التي هم فيها . فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه 20 جنيها في شهر . فسأله الإنجليزي كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال الخادم : تركنا دكان الإنجليزي الذي كنا نشترى منه و صرنا نشترى من دكان أحد الأهالي العرب . فقال له الإنجليزي : ارجع إلى دكان الإنجليزي الذي كنا نشترى منه . فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة ؟ فقال الإنجليزي : و لو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيها زيادة ؟ )) .

(1) - نحيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 206 .

(2) - شكيب أرسلان : سيرة ذاتية ، مصدر سابق ، ص 58 .

و أضاف في السياق ذاته ، أنه سمع عن الكثير من الإنجليز ، أنهم يفضلون شراء حوائجهم ذات القيمة المرتفعة من بلادهم ، بل يوصون إرسالها لهم من " لندن " ، حتى لا تذهب أموالهم إلى غيرهم (1) .

و يظهر من روايته لتلك الحادثة ، أن الأمير شكيب كان معجبا كثيرا بسلوك الفرد الإنجليزي ، الذي يخضع لتأثير النزعة القومية ، التي تجعله يرتبط بكل ما له صلة بأمتة حتى و هو خارج بلاده ، و ينزع إلى عمل كل ما يستطيع عمله ، للدفاع عن كيانها و كرامتها ، و لتكون دائما قوية و ناهضة و مزدهرة (2) . وهي الخصائص الاجتماعية ذاتها التي عرف بها المجتمع الياباني ، التي استلهمها من الثقافة اليابانية ، التي تقدم نموذجا عاليا للولاء القوي ، يصل إلى حد التعصب ، و الذي يرتبط بمشاعر التميز ، و الرغبة في إثبات التفوق (3) .

و بعد تلك الأمثلة الرائعة في وطنية الإنجليز ، يعود الأمير ليتحدث عن الجهة المقابلة ، و هم العرب و المسلمون الذين يقفون في تقديره على طرفي النقيض من ذلك ، فيذكر أنهم لا يراعون أولوية الشراء من عند العربي على الأجنبي ، فأدى سلوكهم هذا إلى إحباط عملية المقاطعة العربية لليهود ، التي تمثل سلاحا في غاية الأهمية و الفعالية ، باعتبارهم قوة مستهلكة للسلع اليهودية و الإنجليزية ، و هذا جريا وراء تخفيضات زهيدة ، يوفرونها عند الشراء من اليهودي و الإنجليزي ، غير مقدرين للعواقب الخطيرة التي تتجر عن سلوكهم هذا و في ذلك قال : (( أفنقيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم و علموا أنهم يقدرون أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم و رجحوا الإفرنجي ؟ . أفلم يكن سبب حبوط (احباط ) مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه ؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم و هو المقاطعة في الأخذ

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

(2) - أبو خلدون ساطع الحصري : آراء وأحاديث في الوطنية و القومية ، ط 2 ، م د و ع ، بيروت : 1985م ، ص 13 .

(3) - عبد الغفار رشاد : التقليدية و الحداثة في التجربة اليابانية ، ط 1 ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت : 1984م ، ص 82 .



و العطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة مؤقتة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم في الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة ((<sup>1</sup>) .

فالأمر إذا مختلف لدى العرب و المسلمين المتأخرين ، بالمقارنة مع الإنجليز في مسألة الروح القومية ، فوفق الحادثة السابقة التي أوردتها الأمير في بداية هذا المبحث ، كان تصرف الإنجليز في موضوع شراء الحاجيات الخاصة به ، قضية قومية تسمو عنده فوق كل الاعتبارات حتى الربح الشخصي ، بينما قدم العربي المسلم في فلسطين مصلحته الذاتية ، المتمثلة في توفير بعض النقود على حساب المصالح المصيرية و العليا لأمته ، بالشراء من التاجر اليهودي و الإنجليزي ، اللذان يحتلان بلده و يعملان للبقاء فيه بشكل نهائي .

و في نفس الصدد ، يضرب الأمير مثالا آخر لكي يبرهن على ما قاله ، بشأن ضعف الروحية القومية بين العرب و المسلمين في عصره ، و هو " ثورة الريف " المغربي التي قادها القائد " عبد الكريم الخطابي " (\* ) ، فيقول أنه و بالرغم من عدد سكان الريف القليل ( 800 ألف نسمة ) و أسلحتهم البسيطة ، إلا أنهم تمكنوا في معركة واحدة فقط من قتل 26 ألف إسباني و غنم 170 مدفعا ، لكن هذا الانتصار تحول إلى هزيمة ، بسبب سخاء المسلمين الذين تكرموا على أهل الريف بألف و خمسمائة جنيه ( 1500 جنيه ) (\*\* ) ، في حين هبت فرنسا المسيحية لنجدة إسبانيا ، فحشدت رفقتها مئات الجنود ، و حاصرتا المنطقة برا و بحرا و جوا ، و حتى الأمريكان سارعوا إلى نجدة الفرنسيين و الإسبان ، كل هذا رغم الخلافات الكبيرة التي

(<sup>1</sup>) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

(\*) - عبد الكريم الخطابي : من مواليد منطقة الريف في شمال المغرب الأقصى ( 1882م - 1963م ) ، تمكن من الانتصار على المحتلين الأسبان بقيادة الجنرال " سلفستر " في معركة " أنوال " الشهيرة سنة 1921م ، و قد عدت تلك الهزيمة التي لحقت بإسبانيا بالساحقة التي لم يتلقاها أي جيش أوروبي فيما وراء البحار على أيدي الوطنيين منذ سنة 1896م ، واصل بعدها الأمير عبد الكريم مقاومته للإسبان في شمال و الفرنسيين في الوسط و الجنوب ، لكنه اضطر إلى الاستسلام سنة 1926م أمام قوة التحالف المزدوج الفرنسي الإسباني . توفي بالقاهرة . للمزيد ينظر جلال يحيى : المغرب الكبير ( الفترة المعاصرة و حركات التحرر والاستقلال )

ج 4 ، د ط ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت : 1981م ، ص 125 و ما بعدها .

(\*\*) - تبرع الأمير شكيب أرسلان في هذه الحرب ، بأربعة ( 04 ) جنيهات على أن تبعث الحمية في المسلمين . شكيب أرسلان ، المصدر نفسه ، ص 54 .

كانت بين هذه الدول العظمى ، لأن الذي يجمعها برأي الأمير شكيب ، هو العداء المستحکم ضد الإسلام و المسلمين (1).

و على ضوء ذلك ، يتضح لنا أن الأمير شكيبا ، قد أرجع سبب انتصار الإسبان و الفرنسيين على " ثورة الريف " في المغرب الأقصى ، ليست إلى قوة جيوش الاحتلال ، و إنما إلى ضعف الروح القومية من جانب العرب و المسلمين ، التي جعلتهم يتقاعسون عن تقديم المساعدة المادية و المعنوية لأشقائهم في المغرب الأقصى ، في مقابل الدعم الكبير التي تلقته إسبانيا من فرنسا و الولايات المتحدة الأمريكية ، و قد سخر من ذلك المبلغ الزهيد ، الذي تم جمعه كإعانة مالية للشعب المغربي ، و الذي لا يمثل شيئا ، أمام الإمدادات الحربية الكبيرة التي أرسلتها فرنسا إلى المغرب الأقصى فقط في أوائل شهر جويلية 1925م ، التي تمثلت في 11 كتيبة عسكرية ، و قوة كبيرة من وحدات المدفعية و الوحدات المساعدة ، فضلا على قوات المجندين من مختلف الجنسيات ، الذين قامت فرنسا بتجنيدهم ضمن قواتها الإستعمارية ، دون أن ننسى القوات المدرعة و الجوية و كتائب المشاة ، التي كانت متمركزة في المنطقة قبل ذلك (2) .

و قد تأسف الأمير شكيب لهذه المواقف السلبية ، التي جعلت العرب في فلسطين و المغرب الأقصى ، و حتى في ليبيا التي سقطت في يد الإحتلال الإيطالي ، يواجهون مصيرهم لوحدهم دون التفافة جدية من الإخوة العرب و المسلمين ، حيث لم تقلح النداءات التي أطلقها في هذا الإطار ، و حث من خلالها البلدان العربية و الإسلامية بصفة عامة ، و الحكومة المصرية الحديثة بلادها بالاستقلال بصفة خاصة ، في تحريك المشاعر و التعبئة العامة بهدف الوقوف في وجه الإستعمار الغربي ، الذي دفعته المصلحة المشتركة إلى تبادل التنسيق و التعاون بين دوله ، مثل ما حدث في المغرب الأقصى و في غيره من الأقطار العربية و الإسلامية .

و قد إعترف الأمير شكيب ، بوجود فئة من العرب و المسلمين لم تكتف بعدم تقديم المعونة لإخوانها في العرق و الدين ، و إنما راحت تعين المستعمر على ملتها و دينها و وطنها ، تزلفا و طلبا للحضوة و لمصالح شخصية ، مخالفة بذلك تعاليم الدين و الشرف و المروءة

(1) -شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 53 - 54 .

(2) - جلال يحيى : المغرب الكبير (الفترة المعاصرة ) ، مرجع سابق ، ص ص 179-180 .

و المصلحة العامة . و يفترض الأمير شكيب أنه ، لولا تلك الخدمات العظيمة التي قدمها أولئك الخونة - حسب تعبيره - للمحتل ، لما تسنى له أن يحصل على ما حصل عليه ، من سطوة وهيبة على الأرواح و الأبدان .

و لتأكيد ذلك ، يضرب الأمير شكيب أمثلة حية ، عن خيانات العرب و المسلمين لبعضهم البعض ، و منها إنضمام بعض الريفيين ( الريف ) للقتال إلى صف الفرنسيين و الإسبان ، ضد مقاومة " عبد الكريم الخطابي " ، و بعض عرب شرق الأردن ، الذين تعاونوا مع الإنجليز ضد عرب فلسطين .

و يرى أن هذه الخيانات " المجانية " ، لو أنها إقتصرت على الجهلة و عامة الناس ، لكانت أقل شأنًا و خطرا ، لكنها إمتدت في واقع الأمر ، لتشمل بعض أقطاب الأمة و أعلامها ، ممن يفترض فيهم أن يكونوا القدوة ، و الذين فضلوا ركوب قطار المحتل ، جريا وراء إغراءاته التي عجزوا عن مقاومتها ، و هم كثيرون عند الأمير شكيب ، و قد ذكر منهم الوزير " المقرّي " و " البغدادى " باشا " فاس " ، اللذان كان من مؤيدي الظهير البربري الذي أصدرته فرنسا في المغرب الأقصى ، و قد كان يجهران بعدائها الإسلام و لشريعته جهارا نهارا .

و بالنظر إلى ذلك ، يصل الى القول بأن ذلك إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على أن الخيانة كانت ظاهرة مستقلة بين العرب و المسلمين ، حتى أضحى : (( أكبر أعداء الإسلام هم المسلمون ، و أن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه و قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجنب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى )) (1) .

و قد إستشهد الأمير شكيب على ذلك ، بما قاله له الملك " ابن سعود " حينما طالبه أحد الحجاج المصريين الأزهريين ، بأن يقوم بمحاربة الإنجليز و الفرنسيين أشدّ أعداء المسلمين ، فرد عليه قائلا : (( الإنجليز و الفرنسيين معذورون إذا عادونا لأنه لا يجمعنا بهم جنس و لا دين و لا لغة و لا مصلحة ، و لكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها أن المسلمين أصبحوا أعداء

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 63 .

أنفسهم ، و أنا و الله لا أخاف الأجانب و إنما أخاف من المسلمين ، فلو حاربت الإنجليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين )) (1) .

و الواضح أنه ما قاله هنا " ابن سعود " للأمير شكيب ، يشير إلى تلك الانقسامات التي حصلت في الموقف العربي أثناء و بعد الحرب العالمية الأولى ، و قد سعت كل من بريطانيا و فرنسا بشكل خاص الاستثمار في ذلك ، بتأليب العرب ضد تركيا التي كانت طرفا في الحرب ، مستغلتن في ذلك السخط و التذمر العربي منها ، فقد تحالف أمراء الجزيرة العربية و هم " الإدريسي " في " عسير " ، و " ابن سعود " مع بريطانيا ، في حين أبقى " آل الرشيد " في " شمر " الذين كانوا على عداء شديد مع " آل سعود " و شيوخ قبائل العراق على ولائهم للأتراك ، و الانقسام ذاته كان حاصلًا في الشام (2) . و بغض النظر عن المبررات التي قدمها الطرفان الأول و الثاني تبريرا لمواقفهما، فإن الجميع في النهاية قد وقع في القبضة الاستعمارية الإنجليزية و الفرنسية . بعد أن وظفوا كأداة لطردهم الحكم التركي الفاسد في المنطقة ، ثم في السيطرة على أجزائها الواحدة تلو الأخرى .

و قد أشار الأمير شكيب إلى ذلك التوظيف ، بقوله أنه ما من بلد مسلم تمكن الإستعمار من الاستيلاء عليه ، إلا و كان الجزء الأكبر من العملية بمساعدة المسلمين أنفسهم ، فمنهم من تولى مهمة التجسس و نقل الأخبار و المعلومات عن قومه لصالح الغزاة ، و من منهم تحول إلى داعية لهم بين قومه ، و منهم من رفع لهم السلاح ضد أمته و أراق دماء بني جلدته .

و ينهي حديثه بشأن أولئك الخونة متسائلا ، إن كانوا هم الذين سيتحقق على أيديهم العز و النصر، و التمكين في أرض الذي وعدنا إياه الله سبحانه و تعالى ، و هم الذين سعوا لخدمة الأجانب على حساب ملتهم و وطنهم و قومهم ؟ . ثم يستطرد فيقول أن هذا الفريق من العرب و المسلمين ، كلما تعرض للعتاب على خيانتهم ، تحجج بعدم القدرة على المقاومة ، أو بإتقاء ظلم المستعمر ، أو بأنهم لجأوا إلى أخف الضررين ؟ . و هي مبررات إعتبرها الأمير شكيب لا أساس لها من الصحة ، فلقد كانوا حسبهم قادرين على خدمة دينهم و أمتهم بالقتال ، فإن لم

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 63 .

(2) - ينظر محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة : 1975م ، ص 235 و ما بعدها .

يستطيعوا فبأقلامهم و أسنتهم ، فإن لم يستطيعوا فبعواطفهم ومشاعرهم ، لكنهم فضلوا أن يكونوا أداة للأجانب على قومهم ، و قبلوا أن يؤدي دور الدليل المساعد لهم للسيطرة على أوطانهم . قاموا بكل ذلك بأريحية و طيب خاطر ، غير مقدرين لحقيقة الجرم الذي ارتكبوه : (( و تراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال ، متمتعين بالهناء و صفاء العيش ، و هم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ، و ينامون مستريحين )) (1) .

إن الذي دفع في حقيقة الأمر ، هؤلاء إلى خيانة أوطانهم ليست تلك المبررات التي ساقها الأمير شكيب على أسنتهم ، و إنما بسبب تشبعهم بروح : (( العمالة الإستعمارية )) على حد تعبير الأستاذ " كريم جبر الحسن " ، تلك العمالة التي تربوا عليها حتى أصبحت جزءا أساسيا من كياناتهم ، و جعلت كل همهم و تفكيرهم و مواقفهم و سلوكياتهم ، تتجه لخدمة المستعمر ، و لو بتشجيعه على أبناء قومهم الذين يكافحونه من أجل حريتهم و إستقلال أمتهم . و لذلك تراهم يصابون بالهلع و الفرع إذا ما أحسوا بالخطر على علاقتهم بالإستعمار ، حيث يسارعون إلى الدفاع عنها بكل قواهم ، لكونهم لا يستطيعون العيش خارج ذلك الإطار (2) .

و مجمل القول ، أن ما ذهب إليه الأمير شكيب فيما يخص ضعف الروح القومية بين العرب و المسلمين ، و إستفحال الخيانات بينهم سواء على مستوى الحكام و الملوك و الأمراء ، أو بين العامة ، يجد له الكثير من السند في الواقع ، إذ أن الإستعمار الغربي الحديث ، ما كان له أن يحقق أهدافه المتمثلة في الاحتلال و بسط السيطرة العسكرية ، و الهيمنة الاقتصادية و الثقافية ، بتلك السهولة و الفعالية ، إلا لأنه أحسن الإستثمار جيدا في ذلك المجال ، بالإضافة إلى قوته العسكرية . بل أن سبب بقائه طويلا في البلاد العربية و الإسلامية ، رغم عدم إنقطاع الثورات و المقاومات ضده ، يرجع في جانب كبير إلى تلك الفئة التي اختارت العمل معه لأسباب نفسية و مصلحية .

و قد لاحظنا أن الأمير شكيب ، تساءل بإستغراب كيف أن تلك الفئة كانت تؤدي خدماتها لأسيادها المستعمرين بكل ثقة و عن طيب خاطر ، و تنعم بالهدوء و الراحة النفسية و كأن ما كانت تقوم به هو خدمة للأمة و ليس خيانة ، و العلة في ذلك هو أن الإستعمار قد تمكن من

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 64-65 .

(2) - كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 255 - 256 .

أنفسهم ، فأظهروا الاستعداد لخدمته من حيث يشعرون أو لا يشعرون . و لذلك قيل أن خروج المستعمر من الأرض ، مقرون بالخروج من الأنفس (1) .

### 05 - عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل :

إذا كان التفوق في أي ميدان من ميادين الحياة ، مرتبطا بالهمة العالية و بالثقة بالنفس (2) ، فإن ذلك لن يتحقق إلا إذا تمتع المجتمع بالاستقلال التام في مواقفه ، و الحرية الكاملة في تصرفاته (3) . و هي لا شك المزايا التي توفرت لدى العرب و المسلمين الأوائل ، الذين تمكنوا من بناء مجتمع قوي واثق بنفسه ، متفتح على كافة الثقافات و الحضارات كان الركيزة التي إستندت عليها الحضارة العربية الإسلامية ، التي أسهمت إسهاما متميزا في كل نواحي الفكر و الفن و الحياة (4) .

لكن الأمر إختلف عند الأمير شكيب ، بالنسبة للعرب و المسلمين المتأخرين ، إذ أنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ، و عدّ ذلك من أشد الأمراض الإجتماعية ، و من أخبث الآفات الروحية ، التي إن أصيب بها إنسان إلا و أودت بحياته ، أو أمة إلا و ساقتها إلى الهلاك . فلا رجاء في الشفاء منها للمريض بها ، لأنه يعتقد حقا أو خطأ أن مرضه سيقتله ، فقد أجمع الأطباء في الأمراض الجسمانية ، أن القوة المعنوية هي أساس الأدوية ، و أن من أعظم العوامل التي تؤدي إلى الشفاء هي إرادة الشفاء .

و بناء على هذه القاعدة الطبية المنطقية ، يتساءل الأمير شكيب أنه كيف يتسنى للمجتمع العربي و الإسلامي أن يكون صالحا ، و أغلب أفرادهم يظنون أنهم لا يصلحون لشيء ؟ . يعتقدون بأن أي صراع بينهم و بين هؤلاء الآخرين ، سينتهي بهزيمتهم لا محالة ، مهما إستماتوا في كفاحهم ، و يعترف بأن هذا الإعتقاد قد وقر في نفوسهم و إستحكم في إذهانهم ، و خاصة في الطبقة التي تدعى أنها المفكرة و العاقلة ، المولعة بالحقائق الصادقة البعيدة عن

(1) - كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 256 .

(2) - حليلة بوكروشة : معالم تجديد المنهج الفقهي ( أنموذج الشوكاني ) ، د ط ، سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2002م ، ص 81 .

(3) - كريم جبر الحسن ، المرجع نفسه ، ص 257 .

(4) - ينظر محمد عبد السلام كفاقي : الحضارة العربية طابعها و مقوماتها العامة ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1970م .

الخيالات ، بما تروجه لتلك الأفكار المتشائمة في كل الأندية و المجالس التي تغشاها ، تحسب أن اليأس من شأنه إصلاح الوضع المتردي ، الذي تعيشه مجتمعاتها في شتى المجالات و خاصة العلمية و المعرفية ، و مازالت تثبط و تثبت في عامة الأمة دعاية العجز ، حتى صار الإستخذاء صفة ملازمة للمجتمع ، إلا القلة القليلة التي حافظت على أصالتها بفضل فطرتها القوية .

و في تقدير الأمير شكيب ، أن الدور السلبي لهذه الفئة ، لم يقتصر على القول بأن حالة العرب و المسلمين المعاصرة هي من الترددي و التدني ، بحيث لا تقاس بحالة الأوروبيين في أي شيء ، بل راحت تزعم أنه من العبث مجاراتهم للغربيين في كل المجالات : العلم و الصناعة و التجارة و الزراعة ، و شؤون الحرب و السلم ، و في أي ميدان من ميادين العمران ، و كأن العرب و المسلمين ليسوا من طينة الأوروبيين ، و أن الانحطاط و التخلف أمر مقدر عليهم ، و لا مجال لهم إلا العمل لديهم كطبقة منحطة .

و كثيرا ما وقعت للأمير ، مجادلات مع هذه الفئة من العرب و المسلمين ، الذين وصفهم بصغار النفوس المفلسين بالفارغ ، و بالبعيدة عقولهم عن المنطق ، و بعدم إتعاضهم بالتاريخ ، و ممن لا ينفع في إقناعهم علم الطبيعة و لا التشريع و لا استنتاج و لا قياس ، لما أصيبوا به من : (( آفة الذل و مرض الاستخذاء )) . فقد إستشعر الأوروبيون وحدة هذه الحالة الروحية فيهم ، و التي تتوافق و مصالحهم الاستعمارية ، فأخذوا يروجونها بينهم ، و يعملون على تقويتها عن طريق دعائهم و ساعاتهم . و هم في ذلك غير ملومين من وجهة نظر الأمير شكيب ، لأنها تيسر و تمهد الطريق أمام الاستعمار ، و تجنبهم مشاق القتال و الصراع ، و تعفيهم و التنافس و التزاحم ، فيتفوقون بلا نزاع و تسلط و دون جدال .

و لكن الذي يثير عجب الأمير ، في أمر تلك الفئة من أبناء العروبة و الإسلام ، هي انقيادها لتلك الأضاليل ، التي تترتب عنها العبودية للأجانب ، و هم الذين حثهم دينهم الإسلام ، على الاتصاف بالعزة و الاتسام بالأنفة ؟ <sup>(1)</sup> .

فالأمير إذن يقر بأن عدم الثقة بالنفس ، و الشعور بالدونية و النقص إزاء الغربيين ، مرض من أكبر الأمراض الاجتماعية التي أصيب بها العرب و المسلمون المتأخرون ، و قد تفاقم إلى الحد الذي جعلهم لا يستطيعون معه التفاعل مع العصر ، و مواكبة الإبداعات

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 151 .

والتطورات المذهلة و المطردة ، التي ما انفكت الحضارة الغربية تحققها في كل الميادين ، فيكتفون بالمشاهدة ، و بسوق المبررات لما هم عليه من عجز و فشل ، عن مجاراة ما يحدث حولهم . و هي مبررات رأى الأمير شكيب أنها غير مقبولة و غير منطقية ، لأن أصحابها من ذوي النفوس الضعيفة و الإرادات الميتة ، التي لا تريد أن تعمل و تبذل ، و في نفس الوقت ترمي إلى إبقاء الوضع كما هو عليه ، لأنه يخدمها و يخدم الأطراف الاستعمارية المستفيدة الأكبر من استمرار ذلك المناخ ، الذي يعني ضمان الأمان والحماية لمصالحها ونفوذها ، وقد استطاعت أن تحقق نجاحا كبيرا في ذلك .

وقد لعب المستشرقون الذين وصفهم الأمير شكيب بدعاة الاستعمار وسعاته ، دورا محوريا في العملية ، بتعمدهم الدس والتشويه ، والتركيز على الجوانب السلبية في حياة المجتمعات العربية والإسلامية وتضخيمها ، بغية إضعاف مواطن القوة ، واغتنام أماكن الضعف فيها . للوصول بتلك المجتمعات ، إلى التبعية التامة للغرب ، وخلق نوازح الاستسلام لقيمه المادية الحديثة الاجتماعية والخلقية على حد سواء ، وإظهاره على انه المخلص لها من كل ما تعانيه من انحطاط وتقهقر ، وخاصة بين أوساط الناشئة ، التي تعد من أكثر الفئات الاجتماعية تقبلا لأفكار التشكيك والاستسلام ، والرضا والخضوع للمدنية الغربية المادية ، على حساب مقوماتها التاريخية والحضارية (1) .

ولقد ساعدت القوة العسكرية والسياسية الغربية ، المؤيدة بالتفوق العلمي (2) ، في مقابل الجمود العربي والإسلامي ، الذي جعل من العربي والمسلم متسولا فكريا وماديا (3) ، على تكريس ذلك الواقع السلبي الذي يجمد الحياة ، ويقضي على أي حركة في اتجاه التحفيز على المبادرة وتفعيل القدرات بهدف الانتقال من وضع المستهلك لمنتجات الآخرين ثقافية أو مادية ، إلى المنتج لها مع صبغها بالصبغة الخاصة .

ويؤكد الأمير شكيب ، أن روح الانهزام والخنوع لدى العرب والمسلمين الأواخر ، قد بلغت مبلغا عظيما ، جعلهم يحجمون عن الجهاد والدفاع عن كرامتهم ومقدساتهم بحجة ضعفهم

(1) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 252 وما بعدها .

(2) - طارق البشرى : ماهية المعاصرة ، ط2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2005 ، ص 07 .

(3) - زكي نجيب محمود ، المرجع السابق ، ص ص 97 - 98 .



أمام أعدائهم . على عكس أسلافهم الأوائل ، الذين كانوا يقبلون على الجهاد بحماس كبير ، ويتهافتون ويتسابقون على نيل الشهادة .. ويضرب أمثلة حية عن الأمم المسيحية الأوروبية ، التي قدمت الكثير من أبنائها خلال الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918م ، وأنفقت الكثير من ثرواتها الوطنية ، كل ذلك في سبيل الدفاع عن أوطانها والانتصار لشعوبها .

وفي المقابل يتساءل الأمير إن كانت هناك أمة مسلمة في عصره ، تقوم بما قامت به تلك الأمم المسيحية ، من التضحية بالأنفس و بالأموال ، إلى حد يجعلنا نتعجب نحن المسلمون بما فيهم العرب ، لماذا أتاه الله تلك النعم العظيمة والثروات وأعطانا القليل منها ؟ . ويضيف متسائلا ، إن كانت الأمم الإسلامية ستفعل ذلك بنفس سخاء الأمم الأوروبية ، التي وجد منها من أنفقت نصف ثروتها خلال الحرب العالمية الأولى (1) .

ولاشك أن ما حققته الدول الغربية حاليا ، من رقي وتقدم في كل المجالات ، إنما يعود إلى التضحيات الكبيرة التي قدمتها خلال تاريخها الطويل بصفة عامة ، وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية 1939م - 1945م ، اللتان شهدهما الأمير . ففي الأخيرة على سبيل المثال ، خسرت بولونيا 22% من السكان ، ويوغسلافيا والإتحاد السوفياتي 10% ، وألمانيا 8% ، وبريطانيا العظمى 5% ، وفرنسا 1,5% . أما على المستوى الاقتصادي فقد كانت الخسائر كبيرة ، حيث تدمرت البنية الاقتصادية ، وهبط الإنتاج الصناعي إلى النصف ، والزراعي إلى الثلث بالقياس عما كان عليه عشية الحرب . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد طالبت الخسائر المجال الفكري ، بمقتل عدد معتبر من المفكرين والعلماء والفنانين ، وهو ما انعكس سلبا على وتيرة التطور العلمي والتقني (2) .

وبالرغم من كل تلك الخسائر البشرية والمادية التي تكبدتها الأمم الأوروبية ، في فترة زمنية قصيرة ، إلا أنها استطاعت أن تبني ما تهدم بسرعة ، وتسترجع مكانتها الاقتصادية والعلمية والعسكرية والسياسية بسرعة ، معتمدة في ذلك بالدرجة الأولى على شعوبها ، التي لم

(1) - شكيب ارسلان : لماذا تاخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 38 - 40.

(2) - فرانسوا جورج دريفوس ، وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 3 ( أوروبا من عام 1789م

حتى أيامنا ) ، ترجمة حسين حيدر ، ط1، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس : 1995م ، ص ص 443

تستسلم للأمر الواقع ، بل جعلتها الحرب ومخلفاتها قوية أكثر من ذي قبل . على العكس تماما من الشعوب العربية والإسلامية ، التي فقدت روح المبادرة وإرادة تغيير واقعها الحضاري والسياسي والاقتصادي المزري ، معتبرة إياه أمرا مقدرًا ، لا مجال لمعالجته ، وهي التي لم تضحى إلا بالقليل مقارنة بما ضحت به نظيراتها الأوروبية .

ويتابع الأمير حديثه في الصدد نفسه ، فيقول أن العرب والمسلمين المتأخرين ، يعتقدون أن انتسابهم إلى الإسلام ، يغنيهم عن التضحية والجهاد ، وأنه يمكنهم من القوة والاستمرار ، غير مدركين أنهم بذلك يخالفون الحكمة الإلهية القائلة: (( أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم )) ، لأن السنن الكونية ، تقتضي الانخراط في العمل والاجتهاد ، من أجل الرقي وازدهار و ليس العكس : (( لقد ظن الكثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام و كل ما لا يكلفهم بذل دم و لا مال ، و انتظروا على ذلك النصر من الله . و ليس الأمر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر على الصلاة والصيام و لا في الدعاء و الإستغفار ، و كيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا و تخلفوا ، و قد كان في وسعهم أن ينهضوا و يبذلوا )) (1) .

و يضيف إلى ذلك ، قائلاً بأنهم يبررون إجماعهم عن بذل المال و الجهد لصالح الأعمال الخيرية و المشاريع العامة ، بحجة أنهم لا يملكون الثروة التي هي عند الأوروبيين . و هي حجة يراها الأمير شكيب باطلة من الأساس ، لكون العرب و المسلمين أنفسهم قضوا على أهم مصدر للإنفاق العام ، و هو الأوقاف و المؤسسات الخيرية ، التي ورثوها عن من سبقهم ، إضافة إلى إمتناعهم عن التبرع بأموالهم الخاصة في المصالح العامة ، و في نفس الوقت ، يريدون أن يكون لهم نفس السلطان و القوة اللذان لدى الأوروبيين دون عناء ؟ .

و للتدليل على ذلك ، يورد الأمير شكيب مثالا يعتبره دليلا قاطعا على تقاعس العرب و المسلمين ، و هو إجماعهم عن تقديم يد العون و المساعدة لأشقائهم الفلسطينيين ، مقارنة كل ذلك بالمساعدات التي حصل عليها اليهود في فلسطين ، إذ أنه خلال الاشتباكات الدموية ، التي حدثت بفلسطين سنة 1929م بين اليهود و المسلمين ، هب اليهود و غيرهم في مختلف أنحاء العالم ، لنجدة نظرائهم في فلسطين ، حتى بلغت قيمة التبرعات مليون جنيه ، بينما قدرت

(1) - شكيب ارسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 42-43 .

تبرعات العرب و المسلمين في مجملها بثلاثة عشر ألف جنيه ، أي ما يمثل 1% من تبرعات اليهود ؟ <sup>(1)</sup> .

و الواقع أن الدولة الإسرائيلية ، قد قامت ككل على مساهمات و تبرعات اليهود المشتتين في كل أنحاء العالم بصورة عامة ، و في أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية بصورة خاصة ، إذ لم تتوقف تلك المساعدات في أي مرحلة من المراحل ، التي مر بها مشروع تأسيس الوطني القومي في أرض فلسطين . فقد أدرك القادة الصهاينة منذ البداية ، أهمية المال في تحقيق حلمهم و لذلك شجعوا بني قومهم من اليهود ، على بذله باستمرار ، معتمدين على تحريك وتر الشعور القومي ، و لم يكتفوا بذلك ، بل أنشأوا مؤسسات مالية خاصة بهم توطر العملية و هما " البنك القومي اليهودي " و " المؤسسة القومية اليهودية " . مستفدين من الدعم الكبير الذي وجدوه من الحكومات الإستعمارية الغربية ، و في مقدمتها بريطانيا و فرنسا و الولايات المتحدة الأمريكية . بفعل النفوذ الإقتصادي و المالي الهائل ، الذي كانوا يتمتعون به في هاته الدول ، و الذي سمح لهم بالتحكم في القرار السياسي بها .

و على العكس من ذلك كان الوضع بالنسبة للعرب و المسلمين ، الذين قضوا مثلما أشار إليه الأمير شكيب على أهم من مصدر من مصادر الأعمال الخيرية و هو الأوقاف ، حيث لم يكن بلد عربي أو مسلم يخلو منها لعدة قرون ، بل أنها كانت تمثل عصب الإقتصاد و الحياة فيها ، إلى أن جاءت مرحلة الإنحطاط ، فأهملت تدريجيا ، حتى تلاشى دورها في مختلف المجالات ، و منها نصره الأتقاء العرب و المسلمين في رد العدوان ، مثلما هو حال الشعب الفلسطيني ، أو للمساعدة أثناء الكوارث الطبيعية .

و هو ما يفسر على سبيل المثال ، لجوء الإدارة الإستعمارية الفرنسية منذ الأيام الأولى لإحتلالها للجزائر ، إلى بسط سيطرتها على الأملاك الوقفية ، التي كانت تدر مداخيل عظيمة ، لمصادرتها و جعل ريعها لصالح الإدارة دون تعويض أصحابها ، فتكون بذلك قد وضعت يدها على هذا المصدر المالي الهام ، الذي كان يمول التعليم و الترقية الاجتماعية (\*).

(1) - شكيب ارسلان : لماذا تاخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 44-45 .

(\*)- كانت تشمل ثمانية أنواع هي : أوقاف مكة و المدينة ، أوقاف المساجد ، أوقاف الزوايا و القباب ( الأضرحة ) ، أوقاف الأندلس ، أوقاف الأشراف ، أوقاف الإنكشارية ، أوقاف الطرق العامة ، أوقاف عيون

ويواصل الأمير شكيب ، مناقشته لقضية إجماع العرب والمسلمين عن بذل المال ، فيقول أنه لا شيء يقوم أو يتحقق بدون المال ، في حين أنهم يريدون الحصول على الاستقلال والحرية والحفاظ على حقوقهم ، ورفع الاعتداء عليهم وعلى دينهم ، دون أن يبذلوا شيئاً فقط بالاتكال على أمرين : الأول هو أن الله وعدهم في القرآن الكريم بالنصر ، فإذا كان القرآن حقا فيتوجب عليه أن ينصرهم . أما الأمر الثاني ، فهو أن الأمم الراقية تدعي الحرية والمساواة فلماذا لا تعدل معهم ؟ . ويرد على الفرضية الأولى ، فيذكر أنه في حقيقة الأمر ، أن الله سبحانه وتعالى ، لم يعد المسلمين بالنصر ، إلا بتحقيقهم لشروط محددة أوردها مرارا في كتابه ، منها القتال في سبيله فيقتلون و يقتلون ، و منها أنهم يحبونه و رسوله أكثر من حبهم لأبنائهم و آبائهم و أزواجهم و بيوتهم و تجارتهم ... و غير ذلك من العزائم . و لكنهم في الواقع لا يقومون إلا بالنزر الضئيل جدا من كل ذلك ، فكيف لهم يطالبون الله بالنصر يتساءل الأمير شكيب ؟ .

أما الفرضية الثانية ، فيذكر بشأنها أن الأمم المتقدمة ، ليس صحيحا أنها - بيئة - للعدالة و المساواة ، فإن وجدنا فإنها تكون فيما بينها ، ليس من تلقاء نفسها ، و إنما بفعل السيف المسلط الذي تخيف به كل من يتجرأ على هضم الحقوق <sup>(1)</sup> .

إن ما أراد الأمير أن يصل إليه هنا ، هو أن العرب و المسلمين المتأخرين قد سرت بينهم روح التقاعس و التواكل و التخاذل ، إلى حد جعلوا فيه حياتهم تتحكم فيها أو هام تتعارض مع سنن الحياة المتمثلة في العمل و المبادرة و الإجتهد ، يمنون على أنفسهم بالنصر الإلهي ، رغم إدراكهم أنه لن يأتي إليهم إلا إذا وفروا شروطه . و ينتظرون من غيرهم أن يعاملهم على أساس من العدالة و المساواة ، دون أن يسعوا إلى فرض ذلك بأنفسهم .

و عليه فإن الإسلام ، لم يدعوا إلى الركون و الكسل و التواكل ، بل حث على التدبير و التفكير و البحث ، و هو ما أحسن إدراكه المسلمون الأوائل ، و كان من آثاره الإيجابية ، ارتقاؤهم العلمي و الفكري ، إذ لم يكن ثمة تعارض : (( بين الإيمان الديني والبحث العلمي ، بل كانا يسيران جنبا إلى جنب متعاونين متوازنين ، ولم يكن ثمة تعارض في العقلية الإسلامية بين

الماء . ينظر أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، القسم الأول ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1992م ، ص 66 و ما بعدها .

(1) - نجيب البعيني ، المصدر سابق ، ص 244 .

الإيمان بالله خالق الكون وخالق الحوادث و أسبابها ، و بين ارتباط الأسباب بنتائجها ، لأن كل ذلك من خلق الله )) (1) . و هو الأمر الذي أدركته الأمم الراقية في العصور الأخيرة ، و منها الغربية فضلا عن الأمة اليابانية التي تمكنت من الخروج من دائرة العزلة و التخلف ، إلى دائرة الازدهار و العالمية ، ليس بالتقاعس و التواكل ، و إنما عن طريق إيمانها بأن : (( العمل هو مفتاح الرقي و السيادة )) على حد قول الأمير شكيب (2) . و في هذا تتدرج الإصلاحات الجذرية التي قام بها الإمبراطور " ميحي " 1868م - 1912م في اليابان ، التي إستهدفت تحديث الجيش و الإنتاج الصناعي من جهة ، و درء المخاطر الخارجية المتمثلة في الأطماع الإستعمارية الغربية من جهة ثانية (3) .

و مما تقدم ، يتضح لنا أن الأمير شكيب إعتبر عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل ، من أكبر الأسباب في إنحطاط و تخلف العرب و المسلمين في القرون الأخيرة ، إذ جعلت منهم جسدا بلا روح ، جامد لا يستطيع الحركة ، و هي من أخطر الأوضاع التي إن وصل إليها مجتمع من المجتمعات فإنه يصبح عالة على غيره من المجتمعات الأخرى ، مثلما هو الحال بالنسبة للمجتمعات العربية و الإسلامية التي لا تنتج شيئا مما تستهلكه ، و أكثر من ذلك ، أنها إستسلمت للأمر الواقع ، و كأنه قدر مقدر عليها ، فترى الكثير من أفرادها و خاصة المثقفين منهم ، يبررون ذلك بالعجز و عدم القدرة على مجاراة الأمم الراقية ، فيما تحققه و تقطعه من أشواط في الإنتاج و الإبداع . و لا ينفكون يروجون لهاته الأفكار ، التي وجدت صدى و اسعا لدى فئات عريضة من مجتمعاتها . و قد حاول الأمير شكيب أن ينبه إلى خطورة هذا النوع من الأفكار ، على حاضر العرب و المسلمين و مستقبلهم ، فلا شيء أصعب من مداواة الأمراض النفسية التي تصيب الأفراد ، فكيف الحال إذا أصابت المجتمع بأسره ؟

و من المنطقي لدى الأمير شكيب أرسلان ، أن يؤدي فقدان الثقة بالنفس إلى تفشي أمراض نفسية خطيرة بين العرب و المسلمين ، لا تقل خطورة عن الأمراض التي ذكرها سالفنا ، و منها

(1) - محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 49 .

(2) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ص 40 .

(3) - ينظر مسعود ظاهر : النهضة العربية و النهضة البيانية (تشابه المقدمات و اختلاف النتائج) ، د ط ،

المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1999م .

الجبن و الهلع ، فإذا كانوا في السابق ، يضرب بهم المثل في الشجاعة و إحتقار الموت ، حيث يواجه الواحد فيهم عشرة أشخاص و ربما مائة ، فإنهم أصبحوا في العصر الأخير إلفئة قليلة منهم ، يهابون الموت الذي لا ينبغي أن يجتمع خوفه مع الإسلام في قلب واحد . و يسترسل فيقول أنه منى غرائب الأمور ، أن الإفرنج الذين إعتدوا عليهم ، لا يهابون الموت و هم يعتدون عليهم ، على خلاف العرب و المسلمين المتأخرين ، الذين يخافون الموت و هم يدافعون عن أنفسهم و بلادهم ، رغم ما يرونه من إحتقار أعدائهم الإفرنج للحياة و تنافسهم ، على التضحية في سبيل أممهم و أوطانهم ، فلا يعتبرون منهم ، و لا يقولون أنهم أولى بهذه الصفات و الشيم من أولئك ؟ و قد زاد من تفاقم هذه الوضعية بحسب الأمير ، استئراء آفة اليأس و القنوط من رحمة الله ، لدى بعض الفئات الإجتماعية ، التي وقر في نفوسها أن الأوروبيين هم الأعلى درجة ، و في كل الأحوال لا مجال للتفوق عليهم ، و أن كل مقاومة هي عمل عبثي ، و أن كل مناهضة لهم خطأ في الرأي . و قد تعاضم أمر هذا الشعور إزاء الأوروبيين ، حتى صار هؤلاء الأخيرين ، يتجرؤون على مواجهة أكثرية العرب و المسلمين ، على العكس مما كان يحدث ، في العصر الأول للدولة العربية الإسلامية (1) .

و منه يتبين لنا ، أن الأمير شكيب أراد أن يبرز لنا مفارقة مؤداها ، أن الشجاعة و الإقدام على التضحية ، هما في الأصل من خصال العرب و المسلمين ، و قد عرفوا بهما خلال تاريخهم الطويل ، حتى اقترننا بهم و اقترنوا بهما ، لا يستطيع خصومهم و أعداءهم مجاراتهم فيها . لكن الأمر تغير أثناء عصور الإنحطاط ، حيث أضحوا وفقا لما ذكره الأمير شكيب ، ينزعون على الجبن و الهلع و الخوف ، على نحو مرضي .

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 75-76 .

وهكذا شخص و حل كل من الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، أسباب ظاهرة التخلف في البلاد العربية والإسلامية خلال القرون الأخيرة ، حيث بدأ الإبراهيمي بوصف حال العرب والمسلمين ، إنطلاقاً مما كان يشاهده ويعيشه ، مبدئياً تعجبه من تشابه أوضاعهم حتى بالنسبة للدول المستقلة ، التي قال بشأنها ألا شيء يوحي بأنها تتمتع بحريتها وإستقلالها . مؤكداً على أن كل ذلك ، هو تحصيل حاصل ونتيجة منطقية ، لعوامل شتى تراكت طيلة التاريخ العربي الإسلامي ، فأوصلت تلك البلدان إلى حد أعطى الفرصة إلى أعداء الإسلام لكي يطعنوا فيه ، رغم براعته من ذلك .

وقد وضع فساد علماء الدين وإنحرافهم على رأس أسباب التخلف ، حيث إلى أنهم يعيشون خارج العصر ، غير مدركين لواجباتهم نحو أمتهم ، و حدد المائة العاشرة بعد الهجرة تاريخاً لبداية فسادهم وإنحرافهم ، وأقر بأنهم ليسوا أهلاً لتسميتهم بعلماء الدين ، بسبب فهمهم الخاطئ له وتفهمه خاطئاً للأمة ، فعطلوا بذلك الفكر والنقد والإجتهد . وليسوا علماء دنيا في نظره ، لأن همهم الجري وراء الحظوة والعطايا والامتيازات ، التي يمنحها لهم الحكام والسلاطين والأمرء ، ثمناً لتخليهم عن واجباتهم كعلماء دينيين ، وفي المقابل كانوا يتكبرون على العامة ، التي ضعف إقبالها على العلم والتعلم بفعل ذلك ، كما تميزوا بالجبن والتقاعس على الجندية والجهاد . فكان من الطبيعي أن تترتب نتائج خطيرة بحسب الإبراهيمي جراء هذا الوضع ، ولعل أكبرها خروج القيادة من أيديهم ، وانتقالها إلى غيرهم . ولقد بلغ هجوم الإبراهيمي عليهم ، حد وصفهم بالمجرمين .

أما السبب الثاني فحدده في تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، واستهل تحليله بالتساؤل عن الخلفيات الحقيقية لمنهج الباحثين الغربيين ، في تحميل مسؤولية الوضع الذي آل إليه العرب والمسلمون المتأخرون إلى الإسلام ، الذي كان يوماً ما السبب الرئيس في رقيهم وازدهارهم ، ناصحين إياهم بتركه إن هم أرادوا هزم التخلف .

هذا وقد بين أن الدين الإسلامي ، قد تم تعطيل العمل به ، عن طريق هجر القرآن الكريم وطرحه جانبا ، وعدم الاهتمام به لأسباب ذاتية وخارجية شرحها بالتفصيل . وكشف بأن الأمر لم يتوقف عند هذه النقطة ، بل استبدل القرآن الكريم بقوانين أجنبية . ثم إنتهى إلى الحديث عن خصوم القرآن الكريم ، وخص منهم " مصطفى كما أتاتورك " بالذات .

أما السبب الثالث في رأيه ، فهو الحجر على الإجتهد والنزوع إلى النقل والتقليد ، وفيه ساق أمثلة على جمود الفقه الإسلامي ، ومنها مسألة الطلاق التي تعامل معها الفقهاء المتأخرون بسلبية كبيرة ، بتمسكهم بحرفية النصوص ، وعدم إدراكهم للعواقب الاجتماعية الخطيرة ، المنجرة عن التساهل في هاته المسألة الحساسة جدا . إنتقل بعدها ، إلى الحديث عن طغيان التقليد على العلوم الإسلامية ، الذي تطور حتى أصبح ظاهرة ملازمة للفكر الإسلامي ، وكان من نتائجه إعاقة تطور الإنتاج الفكري والعلمي ، ووأد ملكة الإبداع والابتكار . ثم أوضح أن من أهم مظاهره ؛ الخضوع لإرادة شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، الذين حصرت فيهم العامة العلم والاجتهاد ، بينما عمد مؤلفو السيرة النبوية على التركيز في مؤلفاتهم على الجوانب السطحية في حياة الرسول " ص " دون الروحية ، أما مفسروا القرآن الكريم فقد احتكموا في تفاسيرهم للنزعات الطائفية والمذهبية . وتبعاً لكل ذلك ، قام باستنتاج تعريف للعلماء المقلدين غير المجتهدين .

ويأتي فساد الأخلاق والعادات ووهن العزائم ؛ كسبب رابع في منظور الإبراهيمي ، ومن خلاله بين أن فساد الأخلاق ، ينجم عنه آثار خطيرة على حياة الأمم والمجتمعات ، وأن الإسلام لم يحقق ما حققه من نجاح وإنتشار منقطعي النظر ، إلا بفضل أخلاق الفاتحين الرفيعة . ثم عرّج على إستراتيجية الإستعمار الغربي في إفساد الأخلاق وإضعاف الجوانب الروحية ، معتمداً على التجربة الفرنسية في الجزائر ، التي حفلت حسبه بكل الجرائم الأخلاقية وغير الأخلاقية ، التي تدين مصداقية الحضارة الغربية في الصميم . وفي نفس الوقت ، إعترف باهتزاز وهبوط أخلاق العرب والمسلمين ، لأسباب تتعلق بالتعليم الخالي من التربية الهادفة والمفيدة ، وتقليد الحضارة الغربية التي أفسدت الفطرة والضمير . والمصير ذاته آلت إليه العادات ، التي كان من إفرازاتها الإنزواء إلى الكسل والخمول والراحة ، والجبن والقدرية واللامبالاة ، وغيرها من العادات السيئة ، مع إقراره بصمود بعض العادات الإيجابية ، التي مثلت بالنسبة إليه الأمل في الإصلاح .

أما السبب الأخير ، فحدده في الإستعمار الروحي ( العقلي ) ، وفيه أدرج وصفا عاما للإستعمار ودسائسه ، ثم وسائل الإستعمار الروحي ، وبين بعد ذلك أكثر الفئات الإجتماعية إستهدافا من قبله وهي فئة الشباب ، التي ظلت عرضة للدعايات المظلمة في كل مكان ، بتأطير من



تيارات فكرية منحرفة ، مستفيدة من ضعف الحصانة لدى الشباب . ونبه إلى المخاطر الحقيقية المحدقة بالمجتمع ، إذا ما استمر ذلك التساهل معه .

وقد إعتبر أن اللوم لا يقع على الإستعمار ، وإنما على الشباب العرب والمسلمين ، الذين يقبلون على منتوجاته وسلوكاته وقيمه ... طواعية وخص منهم الذين تعلموا في مدارسه وجامعاته . وحاول تنفيذ بعض ما سماه : الإقتراءات الغربية ، ومنها كون أن العرب والمسلمين خيالون ويعيشون على الماضي . ثم إنتهى إلى تحديد مفصل لوسائل تهديم الأخلاق ، وحصرها في عشرة وسائل أبرز مجالاتها الإعلام والتعليم والكماليات .

وفي الجهة المقابلة ، أكد أرسلان على أن وضع العرب والمسلمين ، هو من السوء بحيث يدعو إلى اليأس ، وأنه لا يجد مبررا له من النواحي الشرعية والمادية ، واعترف بصعوبة الخوض فيه . أما الأسباب التي نجم عنها التخلف فقد حصرها في خمسة أسباب :

ولعل أهمها العلماء والفقهاء المعطلون للراقي ، الذين وصفهم بالحشوية ، واعتبر جنابيتهم على الإسلام والمسلمين عزيمة جدا ، وبعد أن سرد أسباب حكمه هذا نزع عنهم صفة العلماء ، فالعلم عندهم وسيلة لتجميد الحياة وكسب الأموال والحصول على الوظائف لا غير . وبين ان أسوأ ما وصل إليه حالهم ، هو تعاونهم مع الإستعمار وإنخراطهم في سياساته ، بمبررات واهية . وفي هذا إستثنى الأمير قلة قليلة منهم ، إحتكمت حسبه للمبدأ والمصلحة العامة . أما الفقهاء فقد شكلوا في نظره حجر عثرة أمام التغيير والتجديد ، ولذلك نالوا منه نقدا قاسيا ولاذعا .

أما السبب الثاني عند الأمير ، فهو الجمود والجحود ، ، فقد عرف الاول وبين انه هو الذي مهد الطريق لأعداء الحضارة العربية الإسلامية ، لكي يحاربونها ويطعنون في الإسلام ، وأدى إلى إفقار المجتمعات العربية والإسلامية ، بسبب الإيغال في الغيبيات على حساب الواقع . كما عرف الفئة الجاحدة التي تتكرر لكل ما هو شرقي وتحض على التفرنج ، كنتيجة لسياسة التغريب التي أضعفت الرابطة الدينية والاجتماعية والحضارية بين المسلمين . وخلص إلى الدعوة إلى إستلهاهم القيم المعنوية والمادية ، التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية الأولى .

وأرجع السبب الثالث للتخلف إلى فساد الحكام ، الذين حملهم مسؤولية كل ما لحق بالعرب والمسلمين ، وأقر بفساد غالبيتهم مستشهدا ب : " مصطفى كمال أتاتورك " ، الذي أخذ حيزا كبيرا

من نقده ، وبدرجة أقل " آمان الله خان " في أفغانستان ، لكن المسؤولية الأكبر حسبه تقع على العلماء الذين تخاذلوا في التصدي لهم ، بالسكوت أو المجاراة أو التزلف إليهم . وكشف في الأخير أن أخطر نتيجة لكل ذلك ، هو فتح الباب واسعا أمام الأطماع الخارجية .

وفي تقدير أرسلان ، أن ضعف الروح القومية والخيانة هما كذلك من أهم أسباب التخلف العربي الإسلامي ، حيث أشاد أولا بالإنجليز الذين رأى أنهم يتمتعون بروح قومية عالية ، على خلاف العرب والمسلمين المتأخرين ، الذين عدهم أسوأ مثال في هذا الصدد ، في الكثير من القضايا ومنها بالخصوص القضية الفلسطينية ، التي لم تكشف فقط عن ضعف الروح القومية بل إلى إستفحال ظاهرة الخيانة ، ليس بين العامة فحسب ، وإنما بين آراء الأمة وأقطابها . فضلا عن ذلك ، حاول الأمير شكيب تنفيذ الحجج المقدمة تبريرا لهذا المسلك .

أما السبب الخامس في تصوره ؛ فكان عدم الثقة بالنفس والتقاعد والتواكل والتخاذل ، التي اعتبرها من أخطر الأمراض والآفات الاجتماعية ، ومصدرها في رأيه إنتشار عقيدة اليأس والإستخذاء والتبثيث ، وفي ذلك ابدى إستغرابه لمثل هاته الوضعية ، رغم كون أن الإسلام يدعو في جوهره إلى العزة والأنفة ومحاربة العبودية . وقد شرح وحلل العوامل المختلفة التي أدت إلى هذه الحالة ، والنتائج الوخيمة المنجرة عنها ، ومنها الإحجام عن الجهاد والتضحية والركون إلى الجبن و الاستسلام للخوف والهلع من كل شيء . وناقش الحجج التي ساقها أصحابها، لتبرير التقاعد والتواكل والتخاذل ، التي لا تجد لها مكانا في الدين الإسلامي دين الحركة والعمل والإنطلاق .

وبعقد المقارنة بين ما ذهب إليه الإبراهيمي و أرسلان ، في موضوع اسباب التخلف العربي الإسلامي ، نستخلص أنهما تمكنا من التوصيف الدقيق للأوضاع الاجتماعية والثقافية والإقتصادية والسياسية والحضارية المتردية ؛ التي كان عليها العرب والمسلمون في عصرهما ، وإتقنا أنها من السوء والتعقيد ، بحيث يصعب حتى على الباحثين والدارسين من أبناء العروبة والإسلام ، الوقوف عليها وفهم أسبابها فما جيدا ، بينما يعد ذلك غاية بعيدة المنال على الدارسين الغربيين ، لكونهم يفتقدون الى الأدوات الضرورية لذلك ، ومنها اللغة وعدم الإلمام بالخصوصيات الشرقية وعلى رأسها الدين والطبائع والنفسيات ... وغيرها .

كما اتفقا على أن ظاهرة التخلف العام والانحطاط الشامل ، ليست حدثا طارئا ، ليس للعرب والمسلمين أي دور فيه ، وإنما نتيجة منطقية وتحصيل حاصل ، لتراكمات قرون من الفساد والإستبداد السياسي ، والإنحراف الديني والإجتماعي ، والفكري والأخلاقي والسلوكي ، حيث تكاثف كل ذلك ، وجعل من المجتمعات العربية والإسلامية ، مضرب المثل في التقهقر والانحطاط ، وهم الذين سبق لهم وأن بنوا حضارة راقية ، إستفادت من إنجازاتها الفكرية والمادية والإنسانية قاطبة . وتبعاً لذلك خلاصا إلى أن العرب والمسلمين في قرون التخلف ، أعطوا فرصة ذهبية لأعداء وخصوم الإسلام من الغربيين ؛ لكي يطعنوا فيه بالقول أنه يعيق التقدم بطبيعته التي تتركس الجبرية والإستبداد ، وتحارب الإنفتاح والحرية والبحث في آفاق العلوم والمعارف .

وهي تهم حاول الإبراهيمي وأرسلان ، تبين خطئها في أكثر من مناسبة ، عن طريق إستظهار النموذج الحضاري العربي الإسلامي الأول ، والإستشهاد بشهادات المفكرين الغربيين المنصفين ، الذين عبروا عن انبهارهم بذلك النموذج المتميز ، واعتبروه من أعظم ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية في مسارها التاريخي الطويل .

كما إشتراكا في نقدهما اللاذع لعلماء الدين والفقهاء ، وإعتبار ممارساتهم جناية كبيرة إقترفوها في حق دينهم ومجتمعاتهم ، فقد تخلوا تماما عن واجباتهم المفترضة، ووجهوا كل جهودهم ، في سبيل الوصول إلى المناصب السامية ، والتقرب إلى الحكام والأمراء والسلاطين، طمعا في الثروات والأموال ، وحتى ببيع ذممهم للمحتل ،الذي وجد فيهم خير وسيلة لتنفيذ مخططاته، وإدامة سيطرته وتبرير سياساته . وأضاف الإبراهيمي إلى ذلك خاصيتان أخريان هما: إحتقارهم لعامة المسلمين ، وإحجامهم عن الجندية والجهاد خوفا وجبنا منهما . وهي أسباب كانت كافية بالنسبة للإبراهيمي وأرسلان ، لكي يسقطا عنهم ليس صفة علماء الدين فحسب، بل علماء التي لا يستحقونها في نظرهما . وإذا كان أرسلان قد إستثنى البعض منهم ، فإن الإبراهيمي وضعهم كلهم في نفس الإطار ، ولعله كان أكثر قساوة من أرسلان ، حينما نعتهم بالمجرمين ، ولا شك أنه إنطلق من الواقع المر الذي كان يشاهده ويعيشه في الجزائر ، أين تحول شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين ، إلى وباء على الأمة ، بما كانوا ينشرونه من بدع وخرافات وظلاللات ، تحولت مع مرور الزمن إلى دين للجزائريين ، نظرا لإستحكام الجهل والامية بين صفوفهم ،

كنتيجة للسياسة الإستعمارية التجهيلية ، التي طبقت في هذا الصدد كما سبق وأن أشرنا في مناسبات عدة في هذه الدراسة . ولم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يعرضون خدماتهم وتعاونهم مع المستعمر لبلادهم ، الذي إستخدمهم ليضرب بهم الدين الإسلامي ، وحركة العلماء المصلحين من أمثال الإبراهيمي و " ابن باديس " ، وغيرهما من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . والحق أن الإبراهيمي كان أكبر خصم لأولئك العلماء ، الذين كانوا هم بدورهم ينعثونه بالشيطان والجاهل والزندق والفاجر ، وغيرها من النعوت والأوصاف .

ولم يستثن الإبراهيمي وأرسلان في ذلك علماء الفقه ، الذين إرتكبوا حسب الأول أكبر جنائية وهي تعطيل العقل عن العمل ، وإنغمسوا في الألوهيات والمثاليات التي لا تغير من الواقع شيئا حسب الثاني . فجمدوا الحياة العربية والإسلامية لعدة قرون ، يرفضون رفضا مطلقا التغيير أو التجديد مهما كان بسيطا ، وحتى إن كان لا يتعارض مع روح الدين الإسلامي . يكتفون بترديد ما قاله الاسلاف من شيوخهم دون أعمال للعقل أو النقد ، بحجة أن كل شيء حسم فيه ، ولا مجال لمناقشته من جديد . ويكمن الإختلاف بين الإبراهيمي وأرسلان في هذه النقطة ، كونه أرجع زمنيا بداية جمود الفقه والفقهاء ، إلى أيام إزدهار الدولة العربية والإسلامية ، حيث ظهر خلفاء وإن كانوا قد تميزوا بالقوة والإستتارة ، ولكنهم سعوا بالإغراء والضغط والترهيب ، إلى إحتواء علماء الدين بصفة عامة والفقهاء بصفة خاصة . بينما أرسلان إكتفى بنقد حالهم ، دون أن يحدد تاريخا لإنحدارهم نحو الجمود والتقليد ، كما فعل الشيخ البشير .

والواقع أن الشيخ البشير ، قد عمل على تصنيف علماء الدين ، بإضافة إلى الفقهاء ، ذكر مفسري القرآن الكريم ومؤلفي السيرة النبوية ، وحدد منهج كل فئة ، بينما إقتصر شكيب على ذكر العلماء والفقهاء إجمالا ، في حين أن الحيز الأكبر من حديثه وتحليله كان حول الفقهاء . ومن الفروق الجوهرية بينهما في قضية جمود الفقه الإسلامي ، أن أرسلان ركز بشكل عام على تصوير حال الفقهاء المتأخرين ، والأسباب التي جعلتهم ينحرفون عن دورهم الحقيقي إزاء المجتمع والأمة ، وركز أيضا على نتائج ذلك دينيا وإجتماعيا وإقتصاديا . بينما قام الشيخ البشير وإضافة إلى كل ذلك ، إلى إستعراض قضية فقهية تفصيلية معقدة جدا وهي الطلاق ، محاولا من خلالها إبراز الحالة التي آل إليه الفقه الإسلامي في عصور الإنحطاط ، وخطورة مسلك الفقهاء الجامدين الذين

كانوا يتساهلون في كل شيء إلا في العطايا والامتيازات ، التي جعلت الكثير منهم أغنياء على حساب المجتمع ، الذي تركوه يغرق في الجهل والفوضى والتخلف . وحقاً أن الإبراهيمي ، ظهر في مناقشته لمسألة الطلاق فقيها رصينا ، متحكماً في ناصية الفقه ، مدركاً لمكامن الخلل والقصور في منهج فقهاء الجمود والتخلف ، وهو ما ميزه عن أرسلان في هذه القضية .

لقد مثل " مصطفى كمال أتاتورك " ، أكبر خصوم وأعداء الإسلام في نظر الإبراهيمي وأرسلان ، ولذلك لم يتوقفا عن الإستشهاد به ، في كل القضايا التي تناولها بالنقاش والشرح والتحليل ، مع فارق في كون أن الإبراهيمي اعتبره ألد أعداء القرآن الكريم بالذات ، ومبرره في ذلك كان أنه منع تلاوته وتدريسه باللغة العربية ، وحاول محو آثاره في الحياة العامة والخاصة لتركيا ، بإستبداله بقوانين أجنبية غريبة عن المجتمع التركي المسلم ، ذات محتوى أوروبي مسيحي أو معادي للدين . وعليه فإن " أتاتورك " بحسبه يعد زعيماً للتيار المناهض للإسلام بصورة عامة والقرآن بصفة خاصة . أما أرسلان فنصفه ضمن كبار دعاة التفرنج أي التغريب ، خاصة وأنه حارب بلا هوادة قيم الإحتشام وشجع على السفور والإباحية ، مقتدياً بمثله الأعلى أوروبا .

ولا جدال في أن منهج " أتاتورك " قد أحدث إنقلاباً هائلاً في تركيا المسلمة ، في كل المجالات ، فهو الذي وضع أسس العلمانية بها ، وقطع أواصر الإرتباط بينها وبين إمتدادها الثقافي والديني والحضاري الشرقي . دون أن يغير ذلك شيئاً من حالها ، حيث لازالت لغاية الآن متخلفة ، وترفض الدول الأوروبية الإنضمام إليها ، بسبب بقاء الدين الإسلامي حياً فيها ، رغم كل الجهود التي بذلت للقضاء عليه . وغني عن التأكيد أن وصول " مصطفى كمال " إلى سدة الحكم في تركيا ، يؤشر إلى النجاح الباهر الذي حققته الدول الغربية ، في إختراق البلدان الإسلامية ، وقيادتها عن طريق شخصيات سياسية ، تزدري وتحقر ماضيها وقيمها ، أيما إزدراء وإحتقار ، وتتشدد الحياة الغربية في أدق تفاصيلها ، وحتى في جوانبها التافهة وعديمة الفائدة .

ما عدا نقده لآتاتورك من حين لآخر ، ظهر الإبراهيمي وكأنه غير مهتم بالحكام والقادة العرب والمسلمين ، الذين أعرب أكثر من مرة عن عدم ثقته فيهم ، وهي إحدى نقاط الإختلاف بينه وبين أرسلان ، الذي وإن كان قد حملهم مسؤولية كل ما لحق بمجتمعاتهم وأمتهم ، وأقر بفساد

غالبيتهم ، فإنه من ناحية أخرى أبدى تفاؤله بإمكانية إصلاحهم ، كاشفا أنهم لم ينحرفوا ويغرقوا في الفساد ، إلا بسبب علماء الدين ، الذين تعاملوا معهم بالسكوت أو التزلف أو المجارة ، من أجل مصالحهم الشخصية لا غير . ولقد أثبتت الأيام ، صحة نظرة الإبراهيمي الذي رهن على إصلاح الشعوب وليس الحكام ، أي إصلاح القاعدة للوصول إلى القمة .

أظهر أرسلان جرأة كبيرة ، في طرحه لقضية ضعف الروح القومية والخيانة ، حيث اعترف صراحة بوجود فئة واسعة من أبناء العروبة والإسلام ماتت فيها ، مشاعر الإنتماء القومي والديني ، فراحت تحبب كل ما من شأنه أن يحفظ للأمة كرامتها ووحدتها ، بل آخر الأسلحة التي بقيت في يدها ، وهي سلاح المقاطعة التجارية للإنجليز واليهود ، الذي عول عليه أرسلان كثيرا لكي يفشل المخططات الإستعمارية والصهيونية في فلسطين . لكن أمله خاب ، لما رأى وجود الكثيرين ممن لا تعنيهم مصالحهم القومية العليا ، يعملون على إبطال مفعول هذا السلاح المهم وخدمة المحتل ، مبررين ذلك بحجج سخيفة ، ومنها أنهم فعلوا ذلك ضعفا وإتقاء لظلم العدو . والحق أن أرسلان قد أظهر من خلال ذلك ، إحاطة كبيرة بحقيقة الصراع اليومي الذي كان دائرا بين عرب فلسطين من جهة ، والصهاينة و حلفائهم الإنجليز من جهة ثانية . فالمعركة لم تكن بالنسبة إليه عسكرية فحسب ، بل كانت معركة إقتصادية وسياسية أيضا ، ينبغي الالتفات إلى أهميتها ودورها الأساسي ، في التصدي للأطماع الإستعمارية في المنطقة العربية والإسلامية . ولهذا فقد حرصت الدول الإستعمارية الكبرى ، على منع البلدان العربية والإسلامية ، في إتخاذ زمام المبادرة في هذا الإتجاه ، بكل الوسائل والطرق ، ولم يحدث أن وظف إلا سنة 1976م في ما يسمى بالأزمة النفطية ، التي إندلعت لما رفضت الدول العربية والإسلامية المنتجة للبترو ، بيع منتجاتها للدول الكبرى ، حيث أحدثت تلك المقاطعة لأول مرة ، إرتباكا إقتصاديا وسياسيا كبيرين على مستوى تلك الدول ، لم يستغل بشكل جيد في دفعها إلى مراجعة سياساتها مع المجموعة العربية والإسلامية ، عامة وفيما يخص القضية الفلسطينية خاصة . و مهما يكن فإن هذا السلاح ، لا يزال صالحا لغاية الآن ، إذا وجد من يثق في نجاحه من القادة السياسيين ، مثلما تمنى الأمير شكيب .

كانت الشريحة الشبانية ، أكثر الشرائح الإجتماعية في البلدان العربية والإسلامية، إستهدافا من قبل الإستعمار الغربي ، بإفساد أخلاقها وعاداتها ، وفي ذلك إستطاع الإبراهيمي أن يكشف النقاب عن الإستراتيجيات التي انتهجت في ذلك ، وأن ينبه إلى المخاطر الكبيرة المحدقة بالأمة ، إذا ما استمرت في تقاعسها أو تهاونها في التعامل معها حاضرا ومستقبلا . وهو في ذلك قد تفرد عن أرسلان ، إذ يعد من أبرز رواد الإصلاح ، الذين تناولوا قضية الشباب بمنهج علمي وتربوي متميز ، ولا غرابة في ذلك ، لأنه قضى اغلب حياته في الإحتكاك بالناشئة ، من خلال النشاطات التعليمية والتربوية والتوعوية، التي كانت من صميم برنامج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . فالإبراهيمي كان معلما وإماما وخطيبا ، وواعظا ومصلحا وموجها ومؤطرا إجتماعيا ، وهي المهام التي لم يحدث أن قام بإحداها الأمير شكيب ، الذي طغت الإهتمامات السياسية والدبلوماسية على مساره الشخصي .

كان للعوامل النفسية نصيب وافر في الإنحطاط ، وفق ما ذهب إليه أرسلان ، الذي تمكن بإقتدار من ، تصوير الأمراض والعلل النفسية الخطيرة ، التي أصابت الأمة وجعلت حالها كحال المريض نفسيا ، الذي يفقد الثقة بنفسه ، فيعجز عن العمل والنشاط والحركة والإبداع ، وهو ما حدث للأمة العربية الإسلامية ، التي أصبحت مشلولة الجسد ، مستسلمة لحالها ، لا تستطيع أن تبادر إلى الإصلاح أو التغيير أو الدفاع عن أوطانها ، لأن روح الهزيمة قد تمكنت منها .

وضع عبر عنه الإبراهيمي ، بضعف الإرادة ووهن العزائم ، وبين أن نتيجته كانت الركون إلى الكسل والخمول والراحة والجبن والقدرية . ولعل أرسلان أصاب ، حين أشار إلى نقطة هامة في هذا السياق ، وهي الإعتقاد خطأ بأن الإنتساب إلى الإسلام ، يغنيهم عن العمل والحركة والتضحية والجهد ، لأن الحقيقة هي أن معتنق الإسلام إعتاقا حقيقيا ، هو الذي يملأ حياته بالعمل والجد والتدبير والنشاط والحيوية ، وليس العكس ، فقد حث الإسلام من كانت في يده فسيلة أن يخرسها لو إستطاع حتى ولو قامت القيامة .

تميز تحليل البشير الإبراهيمي ، لإستراتيجيات الإستعمار في غزو البلاد العربية والإسلامية ثقافيا وفكريا ، بالعمق والدقة ، ولعله في ذلك برأينا يتفوق على الأمير شكيب ، الذي يكتفي في كل مرة بالتنبيه إلى خطورة الأمر وضرورة التصدي له ، دون أن يتعمق في الموضوع ، بالشكل الذي

يسمح باستيعابه ، وإدراك أبعاده الحضارية والسياسية . فلقد تمكن الشيخ البشير من رصد أدق التفاصيل في الحياة العربية الإسلامية ، التي تعرضت للاختراق الثقافي ، الذي عده سلاحا روحيا أشد خطورة من السلاح الناري ، حيث خلص إلى أنه تمكن من كل شيء : المدرسة ، البيت ، الشارع ، الملابس ، المأكل والمشرب ، الأحزاب والجمعيات والنوادي ... إلخ . وخطورته تكمن في سهولة تسربه إلى أذهان وعقول الشباب المتعلمين تعليما غربيا خالصا أولا ، ثم إنسيابه إلى بقية الفئات الاجتماعية الأخرى غير المحصنة دينيا وثقافيا ثانيا ، وفي ظهور مفعوله تدريجيا فيصيب أجيالا كاملة حتى بعد رحيل المستعمر ثالثا .

وحرى بنا هنا ، أن نشير إلى أن الشيخ في هذا السياق ؛ قد عارض بشدة إختيار قادة الجزائر بعد الإستقلال للاشترابية ، كمذهب سياسي وإقتصادي وإجتماعي للبلاد ، إذ إعتبر ذلك إنحرافا عقائديا وسياسيا خطيرا ، محذرا إياهم من العواقب الخطيرة ، التي ستتجم عن تبني أفكار ونظريات أجنبية غريبة ، لم تستلهم من مقومات هوية الشعب الجزائري ، وهي العروبة والإسلام . ولأنه إستتمت في الدفاع عن موقفه هذا ، فقد تعرض إلى السجن ، ثم الإقامة الجبرية والحرمان من الزيارات ، كما أوقف عنه مرتبه الضئيل الذي كان يصرف له ، إلى أن توفي (1) . فلقد مثل الخيار الإشتراكي بالنسبة إليه ، قمة الغزو الثقافي والعقلي ، ولذلك لم يتردد في معارضته وانتقاده ، غير عابئ بالعقوبات التي أنزلت به . ومبدأه في ذلك أن الثورة التي حررت الوطن تصبح لا معنى لها ، إذا هي لم ترجع له سيادته الثقافية واللغوية والدينية ، التي حاربها الإستعمار طيلة 132 سنة ، بهدف القضاء عليها .

الملاحظ أن الإبراهيمي وأرسلان ، قد دأبا في كل مرة ، على إبراز ما يمكن تسميته بالدعاية الإستعمارية المغرضة ، التي تحاول تشكيك الشرييين ، في كل موروثهم الديني والثقافي والحضاري والإنساني ، عبر الخطاب الرسمي أو الآراء والنظريات العلمية والأكاديمية ، التي تعمل المدرسة الإستشراقية ، على إنتاجها إستجابة للمتطلبات الإستعمارية ، لكي تبرر لها الغزو والإحتلال ، والسياسات المنتهجة في شتى المجالات وخاصة الدينية والثقافية . فقد وجد من

(1) - للمزيد ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية 1920م - 1965م ، مرجع



المستشرقين في الجزائر مثلا ، من يدافع بحماسة ، عن فكرة أن الاحتلال الفرنسي هو إعادة الأمور إلى طبيعتها ، وأن العرب الفاتحين هم غزاة محتلون ، على عكس الرومان الذين جاؤوا للتمدين ونشر الحضارة الأوروبية السامية ، وأن فرنسا مكلفة بإعادة المجتمع الجزائري المسلم إلى المسيحية ديانته الأولى ... إلى غير ذلك من الأفكار التي تبناها الفكر الإستشراقي ، وحولها إلى سلاح إضافي في يد الاحتلال . ولم يختلف الوضع عنه في بقية الأقطار العربية الإسلامية ، التي تعرضت لمحاولات مركزة في هذا الاتجاه ، ولعل خطورتها لا تكمن حسب الإبراهيمي وأرسلان في مضامينها الفكرية والسياسية والأخلاقية ، أو في القوة التي تسندها وتدعمها ، وإنما في نجاح الدول الغربية ، في تكوين نخبة مثقفة تدافع عنها بحماسة وتروج لها دون عقدة ، ولا تتحرج في الجهر برفضها الصريح للقيم الشرقية بما فيها الدين الإسلامي ، الذي رأت فيه معوقا أساسيا في طريق الاندماج التام في الحضارة الغربية ، المتكاملة حسبهم من كل النواحي .

وبالنسبة للإبراهيمي ، أن جرائم الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، سواء تلك التي ارتكبتها الجيش ضد الأبرياء العزل ، أو تلك التي تجسدت في تجهيل المجتمع أو إفساد أخلاقه ، هي الامتحان الحقيقي الذي كشف زيف تلك الحضارة ، وتجردها من الخاصية الإنسانية . وجلي أن الشيخ البشير ، قد أوفى هذا الموضوع حقه من الشرح والتحليل ، مع تضمين أحكامه ومواقفه ، بأدلة ملموسة من الواقع الجزائري ، الذي مثل لديه أحسن مثال لمحاكمة الضمير الاستعماري ، ومصداقية الشعارات التي ترفعها الحضارة الغربية باستمرار . بخلاف أرسلان ، الذي يبدو وأنه يفضل التركيز على التجاوب العربي والإسلامي مع قيم تلك الحضارة ، على يد فئات مستغربة أنتجها الاستعمار ذاته ، لكي تنوب عنه في عملية مسخ مجتمعاتها .

**خاتمة الفصل :**

وعلى ضوء ما قمنا بعرضه ومناقشته و تحليله في هذا الفصل ، نخلص إلى أن الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان ، قد توصلا إلى أن التخلف العربي الإسلامي هو ظاهرة : ذات أبعاد دينية وثقافية وسياسية وإجتماعية ، وحضارية وأخلاقية متشابكة ، لا يمكن فصلها عن بعضها البعض ، منها ما يرجع إلى قرون عدة ، ومنها هو وليد مرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . يستوجب لفهما ، تمتع الدارس لها بجملة من الخصائص منها : سعة الإطلاع ، والإدراك الجيد لعناصر القوة والضعف في التاريخ العربي الإسلامي ، والوعي الكبير بالتحديات الحقيقية، التي كانت في طريق الأمة العربية والإسلامية في تلك المرحلة من حياتها، بالإضافة إلى الرغبة والإخلاص الصادقين في خدمتها ومعالجة قضاياها الأساسية، بعيدا عن التفكير السطحي من ناحية ، والنظريات والأفكار الغربية، التي لا تهدف إلى تحسين الأوضاع، بقدر سعيها إلى تازيمها وإيقائها بدون حل، في إطار التصور الغربي من ناحية أخرى .

وفي كل ذلك بدا الإبراهيمي ، أكثر حرصا من الأمير شكيب ، على ضرورة توفر كل تلك الشروط جملة واحدة . ولا جدال في أن إيجاد الحلول المناسبة لظاهرة بحجم التخلف ، يتطلب أولا الوقوف على كل أسبابها، من خلال نظرة علمية وواقعية، ترمي إلى كشف مواطن الخلل وليس إلى التغطية عليها ، لأن أي قصور في هذا الجانب ، سيؤدي حتما إلى المزيد من التعقيد والإستعصاء في المستقبل . ولعل الحسم بالقول أن الدارس ، يشترط أن يكون عربيا مسلما غير خاضع لتأثير ثقافة التغريب ، رأي صائب ، فحتى وإن وجد من الباحثين والدارسين من غير العرب والمسلمين ، ممن يتصفون بالحيادية والنزاهة العلمية ، فإنهم سيظلون عاجزين وفق رأي الإبراهيمي، عن فهم قضية التخلف فحسب ، بل كل القضايا المطروحة للنقاش والدراسة، على مستوى النخب الفكرية والسياسية .

اختلف الشيخ البشير، إختلافا نسبيا في تحليله لأسباب تخلف العرب والمسلمين ؛ بالمقارنة مع الأمير شكيب ، فقد لاحظنا أن معظم الأسباب التي ساقها في عمومياتها وتفصيلها، ذات محتوى ديني وإجتماعي بالدرجة الأولى ، فالمسألتان الدينية والإجتماعية أساسيتان عنده . ولذلك

بدأت الأسباب الأخرى ثانوية نجمت عنها ، ومنه فإن الجمود والتقليد وفساد الحكام هو نتيجة لفساد وإنحراف علماء الدين ، كما أن تمكن المنظومة الثقافية والفكرية الغربية من إختراق ، أو إحتواء نظيرتها في البلاد العربية والإسلامية ، سببه ضعف التشبع بالقيم الدينية . والأمر ذاته بالنسبة للجانب الأخلاقي ، الذي شهد تراجعاً خطيراً ، بفعل ضعف التحصين والوازع الديني . وهكذا يمكن القول أن الإبراهيمي ، كان ينطلق فيما سبق من تصور شخصي ، وهو أن مؤشر التخلف والتقدم ، تتحكم فيه وضعية الدين الإسلامي للمجتمع والأمة ، على كافة المستويات والأصعدة . وفي الجانب الآخر يبرز الأمير شكيب ، وكأنه لا يجعل من الإنحطاط الديني ، السبب في كل مظاهر التخلف السائدة ، فهو جزء من كل مركب : يشمل الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والإقتصادية والسلوكية .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن التقليل من أهمية العامل الديني ، في حياة المجتمعات العربية والإسلامية ، لكن في نفس الوقت لا يمكن التقليل أيضاً من أهمية العناصر الأخرى ، التي يعطيها الشيخ البشير أهمية كبيرة . وفي حقيقة الأمر ، ان هذا الإختلاف في التصور لم يكن بينه وبين شكيب فقط ، بل كان بين عدد معتبر من أقطاب الحركة الإصلاحية والنهضة ، فمنهم من نشد نهضة دينية خالصة فإذا تحققت إنتقل إلى الميادين الأخرى ، ومنهم من حاول التوفيق بين جميع العناصر كأرسلان . في حين فضل البعض الآخر ، إقصاء العنصر الديني نهائياً وعدم إيلائه أية أهمية له ، بل وتحميله المسؤولية كسبب رئيس في التخلف .

تكمن نقطة الضعف في منهج الشيخ البشير إذا ، في كونه كان يسقط مثاليات المجتمع العربي الإسلامي الأول ، الذي اصطلح على حقبة تلك بالمرحلة الإيمانية ، التي تميزت بخصوصيات مكانية وزمانية ، ليست نفسها السائدة في عصر الإبراهيمي وأرسلان ، لكن دون أن يعني ذلك ، أننا نقلل من حجم الإنحطاط الديني المريع ، الذي كان الشيخ البشير شاهداً عليه ، أو نؤيد تحليل شكيب الذي بدا وكأنه إلى حد ما يغلب النظرة السياسية والعلمية ، في تناوله لظاهرة التخلف العربي الإسلامي . ومنه نقول أن قضية بحجم التخلف ، ينبغي أن ينظر إليها من زوايا متعددة ، دون ترجيح لزاوية على حساب أخرى ، وربما هذا هو السبب في كون ان كل المحاولات

التي جرت في هذا الإطار، لم تستطع الإقتراب بشكل كاف من فهم كل أبعادها ، لذلك تعثرت كل محاولات النهوض ولا زالت إلى غاية الآن .

أما نقاط القوة في المنهجين ، فتنتمثل في كونهما حاولا الوقوف على العوامل المسببة للتخلف، خارج التصور الغربي الأكاديمي أو الرسمي من جهة ، وخلافا للطرح التقليدي أي المحلي المنغلق الذي يرفض جملة وتفصيلا ، أي قراءة نقدية واعية للواقع العربي والإسلامي ، تأخذ في عين الاعتبار تهمين الجوانب الإيجابية، التي يمكن استثمارها في عملية النهوض من جهة ثانية . وحرى بنا في ذلك أن نقول، بأن تصور الأمير شكيب، وإن لم يكن متشعبا بالفكر الغربي في نظرته السلبيّة للمشرق ، إلا أنه لم يخلو من الإسقاطات التي إستلهمها من تاريخ أوروبا خاصة الحديث منه، ومن الأحداث التي عاصر جانبا مهما منها . وقد شكل ذلك له تميزا واضحا عن الإبراهيمي ، الذي ظل نقده وتحليله لا يبرح التاريخ العربي الإسلامي، الذي قسمه إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة التقدم والإزدهار التي مثلت بالنسبة إليه أرقى النماذج الحضارية في تاريخ الإنسانية ، ومرحلة الركود والتقهقر والإنحطاط التي أعقبت أفول المرحلة الأولى .

ثمة إشكالية أساسية، وقفنا عليها في تناول الإبراهيمي وأرسلان لقضية التخلف العربي الإسلامي على حد سواء ، فكلاهما بحثا في أسباب الظاهرة، إنطلاقا من الواقع العربي وليس الإسلامي الواسع ، أي على أساس أن الأوضاع متشابهة لدى العرب المسلمين والمسلمين العرب ، وقد أشارا إلى ذلك منذ البداية ، ونفس الشيء بالنسبة لشروط النهوض التي سنتطرق إليها في الفصل الموالي . ولكن الامر يبدو لنا في حاجة إلى إعادة نظر ، فصحيح أن المجتمعات العربية والإسلامية في مرحلة الإنحطاط، جميعها تشترك في التخلف الشامل ، حيث لا يمكن إستثناء أي منها في هذا الجانب ، لكن ربما ما لم يأخذه الرجلان في عين الإعتبار، هو الخصوصيات التي تميزها عن بعضها البعض ؛ فمشكلات مسلمي الهند وإيران، ليست هي ذاتها مشكلات أقطار المغرب العربي وهكذا... هذا دون أن نغفل المذهبية التي تقسم العالم الإسلامي، إلى عالمين سني وشيعي ، فضلا عن وجود أقلية دينية مسيحية داخله، تتمتع بنفوذ سياسي وثقافي وإقتصادي قوي ، فهذه حقائق ميدانية من الخطأ تجاوزها . فعلى سبيل المثال ، ووفقا لما ذهب إليه الإبراهيمي ، نتساءل كيف يمكن الحديث عن نهضة دينية إسلامية، في لبنان بصفة عامة والشام بصفة خاصة ،

في ظل التعددية الطائفية والمذهبية المتجذرة في المنطقة ؟ . ومنه نعتقد، أن المدرسة الفكرية التي إنتمى إليها الشيخ البشير والأمير شكيب ، قد تجنبت الخوض في مثل هذه المسائل الجوهرية . بعكس أصحاب النزعات الوطنية في مصر والشام ، الذين جعلوا من الإلتواء العرقي أساسا للدولة والنهضة ، وفسروا التخلف بغياب الحقوق القومية والوطنية في ظل السيادة العثمانية ، وهي وإن إفتقدت إلى الصدى الشعبي ، إلا أنها كانت أكثر عملية وواقعية من النظرة الشاملة ، التي كان أرسلان والإبراهيمي أحدا روادها .

تميز الشيخ البشير عن الأمير شكيب ، بانتقاده الجريء واللاذع للمجتمع الصوفي المنحرف ، وإعتبار مسلك شيوخه وبالا على الأمة دينيا وعلميا وإجتماعيا ، والحقيقة أننا لم نعثر عبر إطلاعنا الواسع في هذه القضية، على شخصية فكرية أو إصلاحية ، تصدت لذلك مثل الإبراهيمي ، إذ لا يكاد يخلو حديث من أحاديثه أو محاضرة من محاضراته، من الإشارة إليهم من قريب أو من بعيد. وهو وإن كان يخص الصوفيين في الجزائر ، إلا انه كان يرمي من خلاله، إلى بيان مفاصد العقائد الصوفية المنحرفة، التي كانت تهيمن على الحياة الدينية في كامل البلاد العربية والإسلامية بدون إستثناء ، لكن بدرجات متفاوتة .

أما الأمير شكيب ، فلم نجد له رأيا أو موقفا، في مسألة التصوف أو المتصوفة في لبنان أو خارجه ، كما أننا لم نجد تفسيراً مقنعا لذلك ، خاصة وأن رجال الصوفية لم يقتصر تأثيرهم السلبي على الميدان الديني فحسب ، بل جلبوا لأنفسهم نقمة كافة قادة النهضة والإصلاح ؛ بتحالفهم مع الحكام والخلفاء، والأمراء والإقطاعيين والبرجوازيين، والمحتلين الأوروبيين ، وتبريرهم لسياساتهم ، على نحو دفع أمثال الإبراهيمي إلى الدخول معهم في مواجهة جدلية وإعلامية وخطابية وفقهية شرسة، كانت تنتهي في بعض الأحيان إلى معارك جسدية، مثلما حصل له مع اعلام الطرقية في تلمسان العاصمة العلمية و الثقافية للغرب الجزائري، في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث كانت مسرحا لذلك ، إحدى الجنائز التي كان يشرف عليها الطرقيون الذين كان نفوذهم عظيما في المنطقة ، بدعم من سلطات الإحتلال . لكن دورهم إنحسر في نهاية المطاف ، فاسحا المجال أمام الفكر الإصلاحى، الذي أرسى دعائمه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تلمسان بقيادة الشيخ البشير .

ولسنا ندري في المقابل، إن كان إجماع أرسلان عن التعرض للصوفية، له علاقة بالتحالف القائم بينهم وبين السلطات العثمانية، التي عملت على تقوية شوكتهم وتوطيد نفوذهم الإجتماعي والسياسي، على حساب المرجعيات الدينية الأخرى، إنطلاقاً من كون الأمير شكيب، ظل لمدة طويلة من الزمن من اكبر قادة النهضة والإصلاح، المؤيدين للباب العالي خاصة في سياسته الخارجية؟ .

لا شك أن غياب إستراتيجية علمية وصناعية، يعد من أهم أسباب التخلف الإقتصادي، وهو ما نبه إليه الأمير شكيب القادة العرب والمسلمين، ودعاهم من خلاله إلى الإستعجال في وضع أسس متينة لذلك، لأن الفجوة الحاصلة بين بلدانهم وبين البلدان المصنعة، لم تعد تحتتمل الإستمرار أكثر في ذلك الوضع. كاشفاً عن نظرة إستشرافية مستقبلية، مفادها أن تلك البلدان إذا لم تبادر بما سبق، ستجد نفسها تحت نوع آخر من الإستعمار بعد حصولها على إستقلالها السياسي؛ وهو الهيمنة الإقتصادية والتكنولوجية.

وقد أشار الإبراهيمي، إلى هذه القضية ولكن بدرجة أقل، من خلال إنتقاده لثقافة إستهلاك المنتجات الأجنبية عامة والغربية خاصة، والإقبال عليها من غير عقلانية، ودون تفكير في عواقبها الإقتصادية، فغيرهم يبدع وينتج ويصنع، وهم يستهلكون فقط. ولعل إهتمام أرسلان بمجالات الطاقة الكهربائية، وإستخراج المواد المعدنية والنفطية، يؤشر على انه كان يدرك أن أكبر تحد ستواجهه تلك الدول الفتية في المستقبل، هو مدى تحكمها في إنتاج وتصنيع تلك العناصر الحيوية، التي لا يمكن الإستغناء عنها في النهضة الإقتصادية. وقد صحت مخاوف الأمير شكيب تلك، لأن ما حذر من وقوعه قد وقع فخسرت تلك الدول الرهان، وبدلاً من أن تكون الثروات الطبيعية التي تملكها، قوة تساعدها في تحقيق التقدم والتفوق الإقتصادي، أصبحت عاملاً سلبياً تجلى في تبعيتها الإقتصادية التامة، للدول التي إستعمرتها سابقاً، تكتفي فقط بقبض جزء من العائدات، من الشركات المتعددة الجنسيات التي تحولت إلى دولة داخلها، بفضل قوتها المالية والتكنولوجية، والرعاية الخاصة التي تتوفر عليها من دولها الأم.

ولا ريب أن شكيب أرسلان، كان مثل البشير الإبراهيمي، مدركاً تمام الإدراك، بأن التخلف العربي الإسلامي، إضافة إلى الأسباب والعوامل السابقة، له جانب نفسي لا يمكن تجاهله

فإذا كان التخلف ظاهرة طبيعية في الأمم تصيبها في مراحل ما من حياتها ، وفقا للسنن التي تتحكم في حركة التاريخ ، فإنه من غير الطبيعي في القضية بالنسبة إليهما ، هو الشعور الذي تكرر لدى أبناء العروبة والإسلام في عصور الإنحطاط ، أن هذا الأخير هو صفة ملازمة وقدر محتوما لا يمكن تفاديه . ومن ثمة فالحل عندهم هو التسليم بذلك ، على أساس أنه يقين لا يقبل النقاش أو الجدل من ناحية ، والاعتراف لغيرهم بالتفوق والريادة ، من خلال الإعتقاد بأن محاولة محاكاتهم أو مجاراتهم ضرب من العبث من ناحية ثانية . وهي قمة الهزيمة النفسية في نظر أرسلان والإبراهيمي ، التي إنتهت بالجميع إلى تبعية شاملة ،حتى فيما لا ينبغي أن يتبع فيه الغير كمظاهر الحياة اليومية ، من لباس وطرق أكل وعادات داخل الأسرة ... وغيرها من القيم الاجتماعية الغربية، التي تفتت في المجتمعات العربية والإسلامية بشكل مرضي .

الفصل الرابع :  
شروط نهضة العرب والمسلمين  
عند الإبراهيمي و أرسلان



**تمهيد :**

بالرغم من أن الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ قد اعترفا في أكثر من مناسبة، بأن الوضع الذي أصبح عليه العرب والمسلمون في عصرهما ، يدعو إلى اليأس والقنوط وحتى إلى الكفر كما عبر عنه الإبراهيمي ، بسبب التخلف التام والانحطاط الشامل ، اللذان خيما على الحياة العربية والإسلامية ، التي تجمد بها كل شيء ولم تعد قابلة للحركة ، وكان العرب والمسلمين كانوا في زمان غير زمانهم ؛ أبدانهم حاضرة وأرواحهم غائبة . وما زاد الأمر بحسبهما سوء الاستعمار الغربي ، الذي تمكن في ظرف وجيز من بسط سيطرته على أغلب أقطار العالم العربي و الإسلامي ، فحولها إلى مستعمرات يحكمها بالقمع والتسلط والتجهيل ، والإفقار والإستبداد ، في مقابل ما كانت تدره عليه من ثورات وموارد إقتصادية هائلة ، يوظفهما في تنمية إقتصادياته ، وتنمية مداخله وترقية شعوبه .

بالرغم من كل ذلك ، أبقى الإبراهيمي و أرسلان ، على الأمل في إمكانية تحقيق النهوض ، وإنتشال العرب والمسلمين من هامش التاريخ، وجعلهم يستعيدون المكانة الحضارية الريادية ، التي فقدوها منذ زمن طويل ، لأنهم في تقديرهما ؛ أمة تتوفر على كل مقومات الإزدهار والتقدم المادية والمعنوية ، التي قد يتفوقون فيها ، حتى على الأمم التي قطعت أشواطا كبيرة في الرقي والتقدم مثل أوروبا واليابان . فليس مستحيلا في نظرهما ، على الأمة التي إستطاعت أثناء القرون الأولى للإسلام ، أن تتجز مدنية عدت نموذجية في جمعها بين القيم الأخلاقية والإنسانية من جهة ، وبين الإنجازات العلمية والتقنية من جهة ثانية ، أن تعيد الكرة مرة أخرى ، وتتبوأ الدرجة ذاتها ، خاصة أن المدنية الغربية المعاصرة ، قد كشفت أنها لا تول أهمية ، للقيم والمثل العليا ، بقدر اهتمامها باستغلال الشعوب الضعيفة ، ونهب ثرواتها ومقدراتها الاقتصادية والبشرية ، وهو سبب كاف ليدفع بالإبراهيمي و أرسلان ، إلى التنبؤ بسقوطها وزوالها ، لأنها تسير على قدم واحدة أو تطير بجناح واحد . فالحضارة التي تعمر طويلا وفق تصورهما ؛ هي التي تتمكن من إستعاب أهمية التوازن بين المادة والروح ، ذلك التوازن الذي يمثل جوهر الدين الإسلامي ، الذي يدين به العرب والمسلمون .

وعليه لم يكتف الإبراهيمي و أرسلان ، بسررد وتحديد الأسباب التي جعلت من المجتمعات العربية والإسلامية، متخلفة في كل الميادين والأصعدة ، كما تطرقنا إليه في الفصل السابق ، بل

إجتهدا في إبداء تصورهما لما ينبغي القيام به ، حتى تتحقق النهضة الشاملة ، التي ظلت هدفا لكل قادة ومفكري النصف الثاني من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العشرين من العرب والمسلمين ، وهي تصورات وإن لم تتجسد في زمن الرجلين ، إلا أنها برأينا لا تزال عملية وفعالة في الحاضر والمستقبل ، لأنها جاءت في صورة عامة لا ترتبط بزمان أو مكان محددين ، و نعني أنها غير مرتبطة بمكان ما ، أنها قد تكون مفيدة حتى لغير العرب والمسلمين في بعض جوانبهما .

وبالنظر إلى ما اجتهد كل واحد منهما في طرحه ، يتبين لنا وللهولة الأولى ، أن المشروع النهضوي عند الإبراهيمي يكتسي الصبغة الدينية المحضة ، بسبب تكوينه الديني الذي جعله يرى أن الدين الإسلامي هو المحرك الأساسي لكل مناحي الحياة العربية والإسلامية ، مثلما كان عليه الحال في العصور الإسلامية الأولى ، فما تحقق به التقدم في تلك الأثناء لا يمكن أن يتحقق بغيره في المستقبل . أما شكيب أرسلان ، فرغم أنه أكد على الدور الرئيسي للدين الإسلامي في العملية النهضوية ، إلا أنه حاول لفت الانتباه إلى أهمية عناصر أخرى ، مثل تطوير البحث العلمي والتحكم في التكنولوجيا الحديثة ، لنقل قطاعات كالصناعة والزراعة من حالتها البدائية ، إلى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه في الأمم المتقدمة .

ومنه فقد أدرجنا في هذا الفصل ثلاثة مباحث ، خصصنا الأول لمفهوم النهضة من الناحيتين اللغوية والإصطلاحية ، مع الإشارة إلى الصعوبات التي وجدناها فيما يتعلق بالشق الإصطلاحي ، بسبب تناقض المفهومين العربي والغربي اللذان لا يؤيدان المعنى ذاته ، ومع ذلك حاولنا قدر الإمكان ضبط تلك المفاهيم ، لكي تتناسب مع المقصود منها في هذه الدراسة الفكرية المقارنة . ثم إنتقلنا بعد ذلك ، إلى إبراز أهم المضامين السياسية والفكرية والاجتماعية والعلمية ، التي تطرق إليها مفكرو النهضة العربية والإسلامية عامة ، ولعل من الأهمية بمكان ، الإشارة إليها ولو بإيجاز ، حتى نستوعب القضايا الجزئية ، التي كانت محل نقاش وجدل ومعالجة في تلك المرحلة المفصلية من تاريخ الشعوب العربية والإسلامية .

أما المبحثان الثاني والثالث ، فقد تضمننا الشروط التي حددها الرجلان ، لمعالجة مشكلة التخلف وتحقيق النهضة العربية الإسلامية الشاملة ، التي تعيد الأمور إلى نصابها ، لأن العرب

والمسلمين وفق ما ذهب إليه، أهل لأن يكونوا في مقدمة الأمم الراقية القائدة لقطار التقدم ، وليس في المؤخرة كما كان حاصلًا في عصرهما .لنعمد في الأخير إلى المقارنة ، بين كل ما ذهب إليه ، لاستخلاص النتائج .

**المبحث الأول : مفهوم النهضة لغة واصطلاحاً ومضامينها في الفكر العربي الإسلامي الحديث**

والمعاصر .

**1 - مفهوم النهضة لغة :**

النهضة في اللغة العربية من نهض نهضاً ونهوضاً ، ومعناه قام من مكانه ، ونهض إلى عدوه أي أسرع إليه ، ونهض النبات أي إستوى ، ونهض للأمر يفيد بأنه قام واستعد ... إلخ . وأنهضه حركه للنهوض وأقامه ، وإنهض القوم : إستعد للقتال ، وإستهضه أمره بالنهوض . أما النهضة وجمعها نهاض : الطاقة والقوة ، والنهاض : الكثير النهضة أي الحركة (1) واليقظة والنشاط (2) . وعليه فإن النهضة في اللغة العربية ؛ تعني القيام والتحفز واليقظة والحركة والنشاط ، وهو ما أشارت إليه كل المعاجم والقواميس العربية القديمة والحديثة التي إطلعنا عليها .

أما في اللغة الفرنسية ، فيقابل كلمة نهضة عدة ألفاظ منها : AVANCEMENT , REVEIL , RENOUVEAU , ESSOR , REDIESSEMENT , RELEVEMENT ... إلخ وهي تفيد على الترتيب : التقدم واليقظة ، التجديد والتكيف ، والنهوض (3) .

**2 - مفهوم النهضة اصطلاحاً :**

أما من الناحية الإصطلاحية ، فنجد الصعوبة ذاتها التي صادفناها في تحديد مفهوم التخلف ، لسببين أساسيين هما : كون أن كلمة " النهضة " العربية لا تفيد نفس المعنى الذي يتضمنه مقابلها في اللغات الأوروبية ، ولأن أوروبا كانت السبابة بعدة قرون في استخدام هذه الكلمة . حيث جاءت كلمة ( RENAISSANCE ) في خطاب الحداثة الأوروبية ، للدلالة على عهد النهضة الذي عرفته أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو عهد تميز بحركة تجديد أدبي وفني وعلمي ، ظهرت في إيطاليا أولاً ، ثم إنتقلت إلى فرنسا وبقية الدول الأوروبية برمتها ، بفضل نشاط وجهود رجال الأدب والفن البيزنطيين (\*) ، الذي وفدوا إليها ، بعد أن تمكن الخليفة

(1) - المنجد في اللغة والأعلام .

(2) - القاموس الجديد للطلاب .

(3) - ينظر قاموس : LA ROUSSE ELEMENTAIRE ، وقاموس : كنز الطالب .

(\*) - من أشهر رجال الأدب والفن في عصر النهضة : " فرانشيسكو بتراركو " ( 1302م - 1374م )

" لورين قالاً " ( 1405م - 1457م ) و " كولوشيو سالوتالي " و " بوجيو براشيوليني " ، " كريزولوراي "

العثماني " محمد الثاني " (1429م-1481م)، من الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453م .  
 و قد ساعد على نجاحها اكتشاف الطباعة (\*) و التشجيع الكبير الذي وجدته لدى الأمراء  
 و البابوات و خاصة منهم " يوليوس " (\*\*\*) و " لاون 10 " (\*\*\*) . و جدير بالإشارة ، أن تلك  
 الإنطلاقة الفكرية ، لم تنتكر للماضي ، بل سعت إلى إحيائه بالرجوع إلى الفن و الأفكار اليونانية  
 الرومانية . و مجمل القول أن كلمة " النهضة " ( RENAISSANCE ) هي تسمية أطلقها خطاب  
 الحداثة الأوروبية في أوائل القرن 19م ، لتعني جملة الظواهر الفكرية و الفنية و العلمية  
 و الإقتصادية ، التي تمثل ميلادا جديدا لأوروبا بعد العصر الوسيط ( عصر الظلمات ) .  
 و هكذا إذا كان المفهوم الأوروبي للنهضة، يشير إلى العودة إلى الأصول بالعودة إلى  
 الماضي و إكتشاف كنوزه ، فإن الأمر مختلف بالنسبة لمقابلها لدى الأمم العربية و الإسلامية ،  
 حيث وظفها رواد ما سمي بالنهضة ، توصيفا لتلك الحركة الفكرية و الثقافية و السياسية، التي

و " مارك بساريون " ، " ليوناردو بروني " ( 1370م - 1444م ) ، " مارسال فيسين " ( 1433م - 1499م )  
 ، " نقولا ذوكويز " ( 1400م - 1463م ) ، " ألكسندر هجيولين " ( 1435م - 1498م ) ، " جاك وبمفانغ  
 دوسلسا " ( 1450م - 1528م ) ، " جان روشلار " ( 1455م / 1522م ) ، " أولريك دوهواتن " ( 1488م - 1523م ) ... إلخ . ينظر جان بيرنجيه وآخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 2 ، ط 1 ،  
 منشورات عويدات ، بيروت : 1995م ، ص 173 وما بعدها .

(\*) - اكتشفت الطباعة في وادي الراين ، ومنها عرفتها سائر أنحاء أوروبا ، ومن أشهر المواقع التي انتشرت  
 فيها محترفات الطباعة والنشر : ( نورمبرورغ ، أوغسبورغ ، ليون ، باريس ، البندقية ) . وقد ساهمت  
 مساهمة عظيمة في تغيير ظروف العمل الفكري ، ففي نهاية القرن 15م فقط ظهرت ما بين 15 إلى 120  
 مليون نسخة على الأقل . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطباعة في ذلك العهد ، كان في صلب عملها إعلاء  
 شأن الأمراء وتمجيدهم . جان بيرنجيه وآخرون ، المرجع نفسه ، ص 185 .

(\*\*) - بوليوس 2 ( 1443م - 1513م ) : شغل منصب البابوية بين 1503م - 1513م ، و طد سلطة  
 البابوات الزمنية و شرع في بناء كنيسة القديس بطرس ، أظهر تعاطفا مع الفنانين ومن أشهرهم : " برامانته " ،  
 " مايكل أنجلو " ، " رافاييل " . عقد المجمع اللاتراني الخامس عام 1912م . المنجد في اللغة والأعلام .  
 (\*\*\*) - لاون العاشر ( 1513م - 1521م ) : يعد من أبرز بابوات عصر النهضة ، في عصره نشأت  
 البروتستانتية على يد لوثر ، قام بتزيين روما بأيات التصوير والبناء ، أكرم العلماء والفنانين ، حتى عرف  
 عصره بعصر لاون العاشر . المنجد في اللغة والأعلام .

شهدتها المنطقة العربية والإسلامية ، للوقوف في وجه الهجمة الاقتصادية التي إستهدفتها من ناحية وللخروج من التخلف الحضاري الشامل الذي كانت تحياه . وبتعبير آخر أنها كانت ذات شقين ؛ النهوض لمقاومة التهديد الخارجي المتمثل في الإحتلال الأوروبي ، وفي نفس الوقت محاولة الأخذ بأسباب التقدم التي أوصلت الأمم الأوروبية ، إلى ما وصلت إليه من رقي في كل المجالات (1) . ويرجع بعض الدارسين، بداية تشكل الفكر النهضوي في البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة ، إلى الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م ، مبررين موقفهم هذا بكون أن الإحتكاك والإصطدام بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، الذي جسده تلك الحملة ، ترتب عنه بروز عدة معطيات ، ومفاهيم فكرية وإجتماعية وفلسفية وسياسية جديدة ، لم يعرفها العالم العربي والإسلامي ، منذ أن أصبح تحت السيادة العثمانية . ووفقا لذلك ، فإن أصحاب هذا الرأي يجعلون من الحملة الفرنسية، الإطار الذي أدى الى تحول جذري في الوعي العربي والإسلامي ، الذي سمح بإدراك ما كان يحدث في الجانب الآخر من العالم ، من تغيرات وتطورات حضارية . فنتبع ذلك محاولات لتكسير العزلة والتفوق للذان فرضهما الحكم العثماني ، سعيا للحاق بالركب الحضاري .

والحق أن الحملة الفرنسية على مصر قد شكلت فعلا ، عاملا أساسيا في تنبيه المجتمعات العربية والإسلامية ، إلى حالة التخلف والإنحطاط والجمود التي كانت تشهدها، في تلك المرحلة الحساسة جدا من تاريخها ، بل أنها دفعت حتى ببعض السلاطين العثمانيين إلى المبادرة والإسراع في تطبيق سلسلة من الإصلاحات والتنظيمات ؛ في المجالات السياسية والثقافية والإقتصادية ، بهدف تدارك الوضع ، وقطع الطريق أمام الغزو الأوروبي ، الذي أضحى يهدد أملاكها في آسيا وإفريقيا وأوروبا، أكثر من أي وقت مضى (2) .

وقد أكد هذه الفرضية " مارسيل بوزار " (3) في كتابه " إنسانية الإعلام " ، بالقول أن الهجمة الفرنسية على مصر التي تمثل قلب العالم العربي والإسلامي ، قد دفعت بالمسلمين إلى البحث عن ذاتهم إتجاه الغرب المنتصر ، وولدت (( شعورا بالعزلة الجريحة )) تحول إلى حركة دينية وثقافية وسياسية ، نماها منذ البداية الإصطدام بالمصالح الإمبريالية الأوروبية ، والشعور

(1) - محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 60 ، 63 ، 64 .

(2) - ينظر الغالي غربي ، المرجع السابق ، ص 213 وما بعدها .

(3) - ينظر مارسيل بوزار ، المرجع السابق ، ص 205 وما بعدها .

بالخزي من السيطرة الاستعمارية ، والتخلف الاقتصادي . وتقاطع التطلع إلى العزة القومية والإصلاح الديني والنضال السياسي تقاطعا عميقا . وقد تزعمها إتجاهان رئيسيان : الأول محافظ مدافع ، سعى إلى حماية القيم الإسلامية من زحف الحضارة المادية الأجنبية . أما الثاني فمعاكس له ، ونادى بتجسيم جلي للفكر الحديث، من خلال إسلام يتصف بالتححرر والعقلانية، ويستوحي بقوة أفكار أوروبا الغربية .

وبالنظر إلى ذلك، يمكن القول أن النهضة العربية الإسلامية: (( هي تنبيه في كل أنحاء العالم الإسلامي والعربي منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى وجوده في حالة خمول وتخلف وتبعية لا تتسجم مع ماضيه العربي الإسلامي وحضارته الأصلية وسيادته السابقة ، وبالتالي لا تتلاءم مع الإيقاع الحضاري الذي كانت تعيشه أوروبا )) (1) .

ومن ثمة، فإن أوجه الاختلاف بين النهضة الأوروبية والنهضة العربية الإسلامية ، يكمن في كون أن الأولى كان قوامها: (( إحياء التراث اليوناني الروماني الفلسفي والعلمي والفني والأدبي ، والإنتظام فيه ، الشيء الذي يعني العمل على الإفلات من هيمنة فكر الكنيسة ووصايتها على العقل والوجدان )) . بينما الثانية، إلتجأت إلى توظيف التراث العربي والإسلامي ، بوصفه وسيلة تعبئة وتجنيد ، لصد الهجوم الأوروبي في مظاهره العسكرية والسياسية والإقتصادية والثقافية ، فلعب هذا التوظيف دورا مهما في تحريك المخيال الإجتماعي ، وبعث الثقة في النفس والأمل في المستقبل . مع التأكيد على أن مشروع الحداثة العربية والإسلامية ، قد إستقى أغلب مفاهيمه وطموحاته وشعاراته ، من الأدبيات والشعارات التي تضمنتها الحداثة الأوروبية في هذا الإطار (2) .

ومجمل القول، أن النهضة العربية الإسلامية الحديثة ، قد إصطبغت بمظهرين متناقضين ؛ مظهر تجلى في القوة الخارجية المهددة، ونعني بها قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي . ومظهر : (( يمثل الحداثة والتقدم بكل قيمهما العصرية المادية والمعنوية كالتقنية والعلم والديمقراطية والحرية ... )) . وانطلاقا من ذلك شكل الغرب دائما بالنسبة للعرب والمسلمين ، عدوا يتوجب

(1) - الغالي غربي، المرجع السابق ، نقلا عن ليلي الصباغ : " الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث " ، المجلة التاريخية المغربية ، فاس : العدد 7 و 8 / 1977م ، ص 221 .

(2) - محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 57 وما بعدها .

الاحتراز منه وقطع الطريق أمام أطماعه وسيطرته من ناحية ، والمثال الذي يغريهم لكي يقتدوا به وينتهجوا منهجه من ناحية ثانية (1) .

### 3- مضامين النهضة في الفكر العربي الإسلامي الحديث و المعاصر:

كما سبقت الإشارة إليه ، أن النهضة العربية الإسلامية الحديثة، كان الباعث إليها قضيتان أساسيتان : قضية مقاومة الغزو الأوروبي الذي دشنته الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م ، وقضية الانحطاط الحضاري الشامل الذي كان مخيما على كل نواحي الحياة في العالم العربي والإسلامي . فقد وجد رواد النهضة أنفسهم، في مواجهة مباشرة مع هاتين القضيتين المعقدتين في آن واحد . فكان من الطبيعي أن تثار العديد من الإشكالات على هذا المستوى ، وأن تتباين الآراء والأفكار والمواقف إزاءها ، سواء من حيث أهمية وألوية هذه على تلك ، أو فيما يتعلق بمضامينها السياسية والفكرية والاجتماعية والعلمية ، التي تباينت هي الأخرى من فريق لآخر ، بحسب مرجعية أصحابها . وفي هذا السياق تعد قضايا : التراث ، الحرية والمساواة ، الأصالة والمعاصرة ، التجديد والإحياء ، الحداثة ( التنوير ) ، الوطنية والقومية ، الأكثر طرحا ومناقشة وسجالا لدى مفكري وقادة النهضة العربية الإسلامية ، الأوائل منهم والمتأخرين مع بعض الاختلاف بحكم عامل الزمن . وفي هذا العنصر سنبرز هذه القضايا بإيجاز ، حتى نستطيع أن نأخذ نظرة شاملة عن مجمل الأسئلة النهضوية ، التي طرحت في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ البلاد العربية والإسلامية .

#### 1- قضية التراث :

أثير جدل كبير حول الكلمة المناسبة للتعبير عن التراث، هل هو تراث عربي أم تراث إسلامي ، رغم أنه في حقيقة الأمر هو تراث عربي وإسلامي معا ، حيث لا يمكن الفصل بينهما ، فهو يشمل فترة ما قبل الإسلام وما بعده ، ويشترك فيه المسلمون وغير المسلمين ، لأنه لا يعني الدين الإسلامي ، وإن كان من أهم مقوماته ، وإنما القيم والمبادئ الإنسانية الكبرى ، التي تعد نتاجا للدين الإسلامي بشكل خاص وتفاعله مع الأحداث ، فضلا عن كون أن جانبا معتبرا منه مصدره

(1) - محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص 26 - 27 .



قيم عربية كانت سائدة قبل مجيء الإسلام (\*)، الذي أتمها وأكد عليها ، كالمسؤولية الفردية ، التضامن الاجتماعي ونبذ الأنانية ، الحرية ، الشورى ، العدالة والمساواة ، تقديس العلم والعمل ... وغيرها من القيم والمبادئ الإنسانية التي يتضمنها التراث العربي الإسلامي، ويمكن أن تكون في صلب النهضة العربية الإسلامية (1) .

وغني عن التتويه، أن التراث العربي الإسلامي بمفهومه السابق، كان له وسط قادة النهضة أنصار وخصوم ؛ فأنصاره أرجعوا سبب التخلف في العالم العربي والإسلامي إلى عدم الالتزام به، وابتعاد حاضرهم عنه ، وأن السبيل الحقيقي إلى التقدم هو العودة إليه بطريق أو بآخر (2) . فرغم تقادمه ، إلا أنه بنظرهم لا يزال يحتفظ بأوجه مشرقة وعصور زاهرة ، ممكن استلهاها واستعادتها (3) . وضمن هذا الفريق أيضا ، يوجد من ذهب إلى أبعد من ذلك ، فدعا إلى استعادة التراث بكل تفاصيله ، حتى في جزئيات الحياة اليومية كالملبس وأسلوب المعاملات التجارية مثلا ، ومنه فإن الخلاص في نظر أولئك ، لن يكون إلا ببعث ذلك الماضي بأكمله من جديد (4) . ورغم التباين الواضح في نظرة الفريقين إلى التراث ، إلا أن الكثير من المفكرين خاصة المعاصرين جعلوهما في خانة واحدة ، فهناك من شكك في مصداقيتهم وإخلاصهم ، لشعار العودة إلى التراث الذي كانوا يرفعونه ، وأرجع العلة في ذلك إلى كونهم كانوا فقط يهدفون إلى طلب السند و الدعم لقضية ظرفية معاصرة فقط ، وليس : (( بهدف تأسيس الوعي بالنهضة بوصفها ميلادا جديدا وبناء مرجعيات ثقافية لقضاياها وطموحاتها )) (5) .

ومنهم من اعتبر تلك الدعوة ، بالنظر : ((اللاتاريخية للتراث)) ، التي تعد عندهم من أبرز مظاهر التخلف الفكري في البلاد العربية والإسلامية ، لأنها ترفض النظر إلى العصر بمنطقه

(\*)- أهم تلك القيم التي كانت سائدة قبل مجيء الإسلام : الكرم ، الإباء والشمم ، الوفاء ، الحلم ، إغناء الحياة بالعمل الصالح ، الشرف ... الخ . ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ، ص 183 وما بعدها .

(1)- ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع نفسه ، ص 114 وما بعدها .

(2)- فؤاد زكريا : " التخلف الفكري وأبعاده الحضارية " ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي ، الجزائر : عدد 1976م ، ص 79 .

(3)- محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص 67 .

(4)- عبد الله عبد الدائم ، المرجع نفسه ، ص 79 - 80 .

(5) - محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 67 .

الخاص و : (( تحاول أن تفكر فيه بمنطق أصبح في ذمة التاريخ ، مهما كان المجد الذي كان يتصف به عندئذ )) ، وهي بذلك ترتكب أخطاء فادحة في حق التراث ذاته . وعليه يضيف أصحاب هذا الرأي أن : (( الخطأ لا يكمن في مجرد تمجيد التراث ، وإنما يكمن في طريقة التمجيد ذاتها ، فهو يقارن دائما بما أنجزه الغرب ، وكأن الشكل الوحيد الممكن للتقدم الثقافي هو ذلك الذي يوجد في الحضارة الغربية . كما أن التراث يصور كما لو كان قوة حية قادرة على حل جميع مشكلات العصر الحاضر بل أن المتحمسين يذهبون إلى حد القول أن أية هزيمة عسكرية تلحق بنا ، حتى في الميدان العسكري ، لا بد أن تكون مرتبطة ، بصورة أو بأخرى بموقفنا من التراث ))<sup>(1)</sup> .

والحق أن منتقدي دعاة الرجوع إلى التراث وتوظيفه في النهضة ، يمكن أن نؤاخذهم برأينا كونهم لم يفرقوا بين أنصار التجديد في التراث من ناحية ، وأنصار الانغلاق من ناحية ثانية ، فلا شك أن نظرة الفئة الأولى كانت جد إيجابية للقضية ، فقد اتسمت آراء وأفكار الكثيرين منهم في ذلك ، بالموضوعية والعقلانية ، فمثلا لا يمكن أن يكون صالحا كله له ، لا يمكن أن يكون غير صالح في مجمله ، فحتى أوروبا ذاتها ، بنت نهضتها الأولى على التراث المتمثل في : الآداب والفنون والقيم الإغريقية واليونانية القديمة . وبالتالي فإن توظيف التراث ، قد تكون له انعكاسات سلبية أو إيجابية ، إذ يتوقف ذلك على الفهم الصحيح له لا غير .

## 2- قضية الحرية والمساواة :

تعد الحرية من بين أهم القضايا ، التي حظيت باهتمام رواد النهضة ومفكريها ، فقد سمح الانفتاح على الدول المتحضرة ، والتقدم المطرد الذي حصل في وسائل الإنتاج ، وكذا العلاقات الاجتماعية الجديدة ، إلى التعرف على الحريات باختلاف أنواعها ؛ الفردية التي تعنى بالشؤون الذاتية والشخصية ، والمدنية التي تهتم بتقدم الإنسان وتطوره ، والسياسية التي تتشغل بتوفير القوانين التي تحمي الحقوق العامة . ولا ريب أن كل ذلك كان مفقودا لدى الشعوب العربية والإسلامية ، التي كانت تحي خاصة في كنف الدولة العثمانية ، التي دأب حكامها على نعت كل حركة داعية إليها أو منادية بها ، بالهرطقة أو غيرها من النعوت ، بتأييد من كبار رجال الإقطاع والرأسمال والدين . لكن دون أن يحد ذلك منها أو يمنعها من التطور ، فقد تزايدت أصوات المدافعين عنها بشكل خاص بعد نجاح الثورة الفرنسية ، منددة بالقوانين الجائرة

(1) - ينظر فؤاد زكريا ، المرجع السابق ، ص 76 وما بعدها .

والقيود المصطنعة ، وداعية إلى حق الإنسان بغض النظر عن مستواه، في التعبير عن حرية الرأي والاجتماع والسياسة .

وقد لعبت كتابات مفكري النهضة دورا كبيرا في : (( تعريف العقول على كيفية مواجهة استبداد الأنظمة الجائرة وتقليص القوانين التي تحد من حرية الإنسان وسعادته ، وبات المتقفون ... الذين تذوقوا طعم الحرية من خلال إطلاعهم على مختلف الدراسات القديمة والحديثة ، يؤكدون أن الحياة في دولة الظلم والاستعباد ، المفتقرة لنبود حقوق الإنسان ، هي موت وهلاك ، وأن الحرية التي يحميها قانون عادل تحقق العزة والكرامة )) . كما أشاروا : (( إلى أهمية التأمل بمعاني الحرية فألحموا إلى مكانتها في العالم المتمدن ، مشيدين بالحرية التي كلما ازدادت دراسة وتفهما لواقع الحياة ، ازدهر الوطن وتحسن حال المواطن )) (1) .

اقتضت الدعوة إلى الحرية ، محاربة الاستبداد بكل أشكاله ، وإظهار مساوئه وشروره (2) ، وفي هذا الجانب يعد " عبد الرحمن الكواكبي " أبرز قادة النهضة ، الذين حللوا بدقة ظاهرة الفساد في كتابه " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد " . فبين طبيعته ، ودوره في إفساد الدين والتربية والإدارة والاجتماع ، ووضع أسسا للمجتمع الحر الصالح (3) .

وفي هذا المقام أيضا، رد مفكرو النهضة على اتهامات المستشرقين في كتاباتهم ودراساتهم للإسلام ، بكونه دينا يقيد حرية الإنسان واختياره ، بالتأكيد على أن الإسلام يكفل حرية الاعتقاد وحق اختيار المذهب الذي يرغب فيه ، وحق نشر الدعوة من خلال الإقناع والمجادلة الحسنة ، وكل ذلك حسبهم كاف لنفي الجبرية والإكراه على الإيمان عنه ، على خلاف ما ذهب إليه تلك الآراء والأفكار الإستشراقية (4) . وعلى ضوء ذلك يتجلى لنا، أن مطلب الحرية والمساواة في الفكر الإصلاحية العربي الإسلامي الحديث ، كان الغرض منه تمكين الأفراد والمجتمعات من حقوقها السياسية والثقافية والدينية والوطنية والقومية ، في مقابل القضاء على كل أنواع ومظاهر الاستبداد والتعسف اللذان أصبحا لا يتماشيان مع روح العصر .

(1) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 195 وما بعدها .

(2) - على المحافظة ، المرجع السابق ، ص 171 وما بعدها .

(3) - ينظر عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مرجع سابق . وينظر أيضا علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 171 وما بعدها .

(4) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع نفسه ، ص 195 وما بعدها .

**3- الأصالة والمعاصرة :**

ارتبط التاريخ العربي الإسلامي خلال القرنين الأخيرين، بالواجهة التاريخية بين أصول الحضارة العربية والإسلامية التي استمرت حتى أوائل القرن 19م ، وبين الحضارة الغربية ، التي وفدت إلى المنطقة مع مطلع القرن نفسه مع التغلغل الغربي السياسي والاقتصادي والعسكري . فحفزت تلك الواجهة السياسية والعسكرية المفكرين والقادة السياسيين العرب والمسلمين ، على البحث عن مكامن القوة لدى الغرب بهدف نقلها ، وعن مواطن الضعف فيهم ، لأجل التخلي عنها . لعب البون الشاسع في القوة العسكرية والسياسية الغربية ، المدعمة بالتفوق العلمي والتنظيمي ، وواقع البلاد العربية والإسلامية المزري ، دورا في جعل ميزان التقدير يخلت في أيدي أولئك المفكرين والقادة ، الذين وجدوا أنفسهم في حال من الاضطراب والتخبط الشديد ، في تحديد ما يتوجب أخذه عن الغرب ، وفي الحفاظ على ما يدافعون عنه من نظم وأفكار وأصول حضارية وعقائد . وقد تشاكل عليهم الأمر أكثر ، بعد الاحتلال العسكري لبلدانهم ، حيث اضطرت تماما لديهم : (( معايير الانتقاء لما يفيد العرب والمسلمين من منجزات الغرب ، وشلت القدرة على التمييز بين النافع وغير النافع ، وانطمست الفروق بين التجديد والتقليد ، وبين النهوض والتغيير ، وبين الإصلاح والاستبدال )) ، فكان السؤال الكبير الذي حير الأذهان، هو بماذا نأخذ وما ندع من الموروث الوافد ؟ (1) .

وبالرغم من التباين الذي ساد بينهم ، في قضية الأصالة والمعاصرة ، إلا أنهم ظلوا على توافق بضرورة إعادة مجد الإسلام ، إما بالنهل من التراث الديني الإسلامي ، المتميز بقوته الخلاقة وبخصبه الثقافي ، أو عبر تقدم اجتماعي ومادي، يأخذ من الغرب أفضل ما وصل إليه من تقنيات ونماذج ثقافية ، فتستعيد الأمة ما فاتها وتنظم بأقل التكاليف إلى ركب الحضارة الحديثة (2) ، التي قطعت فيها الأمم الغربية أشواطا كبيرة ، شكلت تحديا كبيرا بالنسبة للعرب والمسلمين ، بفعل شساعة الهوة الحضارية ، التي يمكن قياسها زمنيا بعدة قرون .

(1) - ينظر طارق البشرى ، المرجع السابق ، ص 7 وما بعدها .

(2) - علي مراد : الإسلام المعاصر ، مرجع سابق ، ص 32 وما بعدها .

**4- قضية التجديد أو الإحياء :**

تتاول خطاب التجديد مسألة إصلاح التعليم الديني ، الذي يشكل قاعدة أساسية في الإصلاح الديني ؛ فالمؤسسة الدينية هي الوعاء الذي احتضن التقليد، الذي شمل بدوره جميع العلوم الشرعية ، مما أدى إلى استنفاد قدراتها الإبداعية ، ومع مرور الزمن ، فقدت دورها الريادي وتحولت إلى منظومة هامشية ، وكأنها تعمل ضد روح العصر، حتى أضحت تمثل عائقاً أمام مشروع التجديد . وانطلاقاً من ذلك، سعى المجددون طيلة التاريخ الإسلامي، إلى إحياء الدين أو تطهيره مما علق به من عوالق ليست منه، وتقديمه في شكله الأصيل النقي الناصع.

ولكن المعنى الأقرب إلى التجديد هو الإحياء ؛ إحياء الدين معناه تجديده في النفوس ، حتى يتسنى لها العمل به ، مثلما فهمه وطبقه الأسلاف ، ولقد أدرك المجددون حساسية الموضوع منذ البداية ، فمن ناحية سيصطدمون مع أنصار التقليد من المسلمين ، الذين سينكرون عليهم جرأتهم في طلب التجديد والدعوة إليه ، ومن ناحية أخرى سيجدون أنفسهم يسايرون طروحات بعض المستشرقين، التي ما انفكت تؤكد على جمود الإسلام وعدم قابليته للتجديد والتطور ،- إن هم خسروا الرهان الأول- .

وبالرغم من هذه الوضعية الحساسة و المعقدة ، دافع قادة التجديد عن موقفهم من القضية ، مؤكداً أن : (( التجديد ممكن في الإسلام بل ومطلوب و ضروري في بعض أصوله )) . ولم يكتف بعضهم بذلك ، بل طرح : (( فلسفة للتجديد تحتاجها الإنسانية بمجملها )) ، لكي تستطيع التخلص من الأزمة الروحية العميقة التي تحياها، على حد ما ذهب إليه أولئك المجددون (1) . وكان من الطبيعي، أن يتعرض الخطاب التجديدي ، إلى التشكيك فيه، والخشية من نتائجه واتهام مترجميه ، فاحتاج إلى مدة معتبرة من الزمن ، ليصبح مقبولاً ومألوفاً ، ثم مطلباً ضرورياً لا غنى عنه . خاصة بعد أن ظهر من المجددين ، من اتكأ على التراث بكل ثقله، ليمنح الشرعية لخطابه ، ثم ينقل تلك الشرعية إلى الواقع المعاش وما يقتضيه ، فتكون بذلك الحاجة له مثلما كانت الحاجة إليه ، مع الاختلاف فقط في الزمن (2) .

(1)- ينظر أنور أبوظة وآخرون ، المرجع السابق ، ص 10 وما بعدها .

(2)- المرجع نفسه ، ص 33 وما بعدها .

5- الحدائثة ( التنوير ) :

كما سبق وأن أشرنا إليه ، أن المشروع النهضوي في البلاد العربية والإسلامية ، لم يتبلور إلا بعد الحملة النابوليونية(نابوليون بوناپرت) على مصر ، التي حملت معها شعار الحدائثة الأوروبية، التي قامت أصلا على ثلاثة دعائم هي : القوة ، المنافسة ، المعرفة . وهي الدعائم التي مثلت بالنسبة للعرب والمسلمين خلال القرن التاسع وأوائل القرن العشرين ؛ التوسع الإستعماري والتنافس الأوروبي والفكر التحديثي، ومن هذا المنظور شكلت الحدائثة الأوروبية لديهم ، مشروعا للهيمنة والتقدم في آن واحد . فقد كشفت الأحداث، أن تلك الدول التي بشرت بالحرية والتقدم والسلام والرخاء لأوروبا والعالم بأسره ، كانت تخفي وراء كل ذلك شيئا آخر هو الاستعمار ، الذي ضربت من خلاله بجميع القيم الإنسانية ، فأخضعت لسيطرتها شعوبا بالحديد والنار ، وقامت بسلب ونهب مقدراتها الاقتصادية والبشرية والثقافية، ونقلتها إلى أوطانها . وقد تحول التنافس بين تلك الدول حول السيطرة والهيمنة والنفوذ ، إلى نشوب حربين عالميتين مدمرتين ، تلتها حرب باردة بين الشرق والغرب (1) . و غني في هذا المقام ، أن نذكر التجربة التحديثية المصرية التي قادها " محمد علي باشا " (1769م-1849م) ، حيث أن الدول الغربية آنذاك هي التي أجهضتها ، لما رأَت أن نجاح المشروع يمثل تهديدا حقيقيا لمصالحها الإستعمارية في المنطقة ، وانتهى الأمر بمصر إلى وقوعها سنة 1882م، في قبضة الاحتلال البريطاني ، حدث كل ذلك رغم تجذر ونضج الفكر الحدائثي بين أوساط النخبة المصرية (2) .

ولقد وجدت أفكار الحدائثة الأوروبية ، قبولا كبيرا لدى الفئة المثقفة، التي بالغت في الدعوة إلى تقليد أوروبا ، لقناعتها: ((أن الغرب على صواب ))، ولضعف قدرتها على التفريق بين ما هو إنساني في إنجازات الحضارة الغربية، وما هو خاص وطارئ . وبرأي الدكتور " جلال أمين " (3) أنها لا تمثل الحدائثة وإنما البوابة التي دخلت عبرها إلى الفكر التغريبي إلى المنطقة ، والتي كادت

(1) - ينظر محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص ص 8 - 20 .

(2) - ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 28 .

(3) - ينظر جلال أمين ، المرجع السابق ، ص 21 وما بعدها .

أن تقتلع كل شيء على حد تعبيره ؛ فبات في اعتقاد الجميع أنه لا سبيل لنهضة الأدب والفنون والتعليم ، والاقتصاد والمرأة والمجتمع والعمران... إلخ ، إلا باقتفاء أثر الغرب في كل ذلك . واستنادا على ذلك ، فقد فشل الفكر الحداثي، في تحقيق أهدافه النهضوية ، ومني بالانتكاسة بسبب مبالغة أصحابه في الثقة إزاء شعارات الحداثة الأوروبية ، التي لم تكن في حقيقة الأمر ، سوى قناعا لمنع قيام النهضة المنشودة ، وفرض الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والحضارية ، وهو ما حدث في أرض الواقع .

### 6- الوطنية والقومية :

شكلت مصر النواة الأولى لظهور الأفكار الوطنية والقومية ، ومنها انتقلت إلى أدبيات كتاب ومفكري النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، الذين يمكن تقسيمهم إلى اتجاهين رئيسيين في هذا الصدد : الاتجاه الأول جمع بين التيار الوطني والرابطة الدينية، حيث جعل منهما قضية واحدة مع الجامعة العثمانية . ويمكن أن ندرج ضمنه " مصطفى كامل " ، الذي رأى ان الدين لا ينافي الوطنية بل يحث عليها ، فكلاهما ملازم للأخر برأيه ، كما أبدى رفضه ومعارضته للتعصب والتصورات الضيقة ، سواء كان تعصبا دينيا أو مذهبيا ، معتبرا إياهما عملا صنعته دول استعمارية تسعى إلى زرع الخصومات والبغضاء ، بين أبناء الطوائف والمذاهب . والحل الذي اقترحه لمعالجة ذلك، هو وحدة دينية تتصهر في وطنية حقيقية <sup>(1)</sup> .

أما الاتجاه الثاني؛ فهو الاتجاه الوطني غير الديني ، الذي تأثر قاداته بالفكر الأوروبي ، فرأوا أن أوروبا لم تتمكن من بلوغ أعلى درجات التقدم التي بلغتها ، إلا بفضل إعراضها عن الرابطة الدينية وتمسكها بالرابطة الدينية ، وأن الدولة العثمانية وظفت الرابطة الدينية التي تجمعها مع بقية الشعوب المنضوية تحت مظلتها ، لضرب الحركات الوطنية وتكريس سياستها العنصرية المتحيزة. ويعد "رافعة رافع الطهطاوي" ( 1801م - 1873م ) أبرز دعاة هذا الاتجاه ، فقد دعا إلى إدخال العلوم العصرية في مصر ، وإلى الوطنية الخالصة المجردة من التعصب الديني والمذهبي ، ورفض استخدام الدين كوسيلة لتحقيق المصالح الشخصية والسياسية الضيقة . لكن كلا

(1) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 160 - 165 .

الاتجاهين سرعان ما ، تدرجا في أفكارهما نحو النزعة الإقليمية الضيقة والمتعصبة (1) ،  
 فظهرت الدعوة الفرعونية والقبطية (\*) في مصر ، والبربرية في المغرب العربي .  
 هذا وقد أفردنا هذا المبحث ، حتى نحيط بمفهوم النهضة العربية والإسلامية ، ونستوعب  
 مضامينها الفكرية والسياسية والثقافية والحضارية العديدة ، التي ركزنا على أهمها فقط ، ولا شك  
 أن الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، اللذان يعدان من أبرز قادتها ؛ قد تميزا  
 برؤيتهما الخاصة ، لما ينبغي للعرب والمسلمين : قادة وحكامها متقفين ومفكرين علماء ومصالحين  
 وشعوبا ، أن يقوموا به ، لكي يخرجوا من دائرة التخلف والانحطاط الشامل ، الذي كانوا يعيشونه  
 منذ عدة قرون ، دون أن تظهر حركات أو مبادرات جديدة ، في سبيل ذلك . ونسري ما إذا كانت  
 تصوراتهما وأفكارهما ، متقاربة مع تصورات وأفكار قادة النهضة الأوائل من أمثال " الأفغاني "  
 و "عبد" و "رشيد رضا" و "الكواكبي" ، ولذلك جاء المبحثان المواليان بعنوان : " شروط نهضة  
 العرب والمسلمين في عند الإبراهيمي و أرسلان " .

(1) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 165 وما بعدها .

(\*) - بدأت النزعة القبطية في مصر ، بتأسيس " جمعية الإصلاح القبطية " بالقاهرة سنة 1908م ، بغرض  
 توطيد أواصر المحبة بين مختلف العناصر التي تتكون منها الأمة المصرية ، فضلا عن الدفاع عن حقوق  
 الطائفة القبطية ، وتنمية المشاعر الدينية لدى أفرادها ، وإزالة الفوارق بينها وبين المسلمين ، ومن أشهر  
 قادتها " آخوخ فانوس " . ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 182 .



**المبحث الثاني : شروط نهضة العرب والمسلمين عند الإبراهيمي**

رأينا في الفصل السابق ، أن أسباب تخلف الشعوب العربية و الإسلامية في تحليل الشيخ البشير الإبراهيمي عديدة و متشعبة ؛ صنفها إلى خمسة أسباب أساسية هي : فساد علماء الدين و انحرافهم ، تعطيل العمل بالدين الإسلامي ، الحجر على الإجتهد و النزوع إلى النقل و التقليد ، فساد الأخلاق و وهن العزائم ، و أخيرا الإستعمار الروحي أو العقلي الذي يعني الغزو الثقافي الفكري . و قد إنضوت تحتها أسباب أخرى ثانوية أو فرعية ، إستعرضناها ضمنا بالشرح و التحليل و التقييم . و هي لا شك تمثل مسحا شاملا ؛ للأوضاع الدينية و العلمية و الأخلاقية، و النفسية و الذهنية و الثقافية و الفكرية ، التي وقف عليها الشيخ البشير و الأمير شكيب بنفسيهما .

ية و الأخلاقية، و النفسية و الذهنية و الثقافية و الفكرية ، التي وقف عليها الشيخ البشير و الأمير شكيب بنفسيهما .

و كما سبقت الإشارة إليه في بداية هذا الفصل ، أن الإبراهيمي بمعية أرسلان بطبيعة الحال ، لم يفقد الأمل في الإصلاح و لتحقيق النهوض الحضاري ، ليس لأنه ممن يتفاءلون لمجرد التفاؤل ، و إن لكونه كان يرى أن الأمة بالرغم من كل شيء، ما زالت تحتفظ ببعض عناصر القوة التي لم يقضي عليها ذلك الواقع المزري الذي كانت تحياه ، و يجب تثمينها و تفعيلها بوعي و تدبر، تماما مثلما فعل العرب الأوائل الذين إستطاعوا بفضل إندماجهم السريع في الدين الجديد ، أن يتحولوا من قبائل تعيش على هامش التاريخ في مجاهل الصحراء العربية الكبرى، إلى أمة تبذع و تنتج و تساهم بفعالية في الفعل الحضاري و العلاقات الدولية . أو إقتداء بالنماذج الحديثة ، و على رأسها النموذجان الأوروبي و الياباني .

و منه فقد حصر الإبراهيمي، تحقيق النهضة و الإقلاع الحضاري لدى العرب و المسلمين، في أربعة شروط رئيسية هي : إصلاح علماء الدين بإعتبارهم القادة الروحيين للأمة و الورثة الطبيعيين لمقام النبوة ، إحياء الدين الإسلامي الذي كان سببا في نقل العرب الأوائل من طور البداوة إلى طور التمدن و التقدم ، تفعيل دور المثقفين الذين لا يمكن للأمة أن تستغني عنهم لكونهم القادة و الحراس المؤتمنون على كل شيء في حياتها ، و أخيرا التصدي

للتبشير المسيحي الغربي الذي إستفحل و تعاضم أمره في غفلة أو تخاذل من الجميع . كل هاته  
النقاط سنتناولها بالتفصيل فيما يلي :

## 01 - إصلاح علماء الدين :

العالم الديني في مفهوم الشيخ البشير الإبراهيمي ؛ هو قائد مجال عمله الأنفس ، و وسيلته في ذلك الكتاب و السنة ، و تفسيرهما العملي مما كان يصدر عن الرسول " ص " و أصحابه من أفعال . و يضيف إلى ذلك أنه لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدرا ، و أسمى منزلة و أثقل تبعة ، و أوثق عهدا و أعظم أجرا عند الله ، من وظيفة العالم الديني . و السبب في ذلك كون ان العالم الديني ، هو وارث مقام النبوة ، الذي من أهم تكاليفه ، الدعوة إلى الله و توجيه الناس إليه ، و تربيتهم و تعليمهم و تعويدهم ، على فهم الحق و تقبله ليعملون به وله أما العامل الأساسي ، الذي يجعله يحقق النجاح في مهمته السامية هاته ، هو أن يترفع عن مطامحه الشخصية ، و يوجه جل إهتماماته و إنشغالاته إلى خدمة الدين ، و بما أنه وارث النبوة ، فينبغي عليه أن يعلم الناس حقائق دينهم ، و يقول الحق بلسانه و بجوارحه ، و أن يدافع عنه بكل قوة إذا جانبه الناس ، و أن يجاهد في سبيله بكل ما أوتي من قوة <sup>(1)</sup> .

من هذا التعريف يظهر لنا بوضوح ، أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، يعتبر علماء الدين قادة روحيين للأمة و ورثة طبيعيين للأنبياء ، و يجعل من دورهم في المجتمع، الأكثر أهمية من دور أي فئة إجتماعية أخرى ، حيث يتولون مهمة الدعوة و التوجيه و التعليم و التربية، و الدفاع عن الحقوق ، و نجاحهم في ذلك ربطه الإبراهيمي بجملة من الصفات الشخصية التي ينبغي لهم أن يتصفوا بها ، حصرها في نبذ الذات ، و التفرغ الكامل للمهمة المنوطة بهم ، بالإضافة إلى الشجاعة و الجرأة اللازمين ، حتى يتسنى لهم توصيل الحقائق الدينية و الذود ، عنها مهما صادفوا في سبيل ذلك من صعاب و عقبات ، و هي صفات لا شك أنها ، إذا توفرت في عالم ديني ، ستؤهله لأن يكون قائدا روحيا لأمته و مجتمعه . و يبدوا جليا أنه يقدم القائد الروحي على القائد السياسي ، بل يجعل هذا الأخير تحت سلطة الأول .

و هو بذلك ، يثير قضية شكلت و لا تزال جدلا و تجاذبا كبيرين في البلدان العربية و الإسلامية ، و هي مسألة السلطة السياسية و السلطة الدينية ، و مفادها وجود تيار يدعو إلى الفصل بينهما ، عملا بالمنهج الغربي في هذا الاتجاه ، و حجته في ذلك أن زعامة الرسول "ص" كانت موقوتة بالرسالة ، يعني انتقاء السلطة أو الزعامة الدينية بوفاته . أما التيار المضاد ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 109 - 110 .

فيرى العكس ، على أساس أن الإسلام بحسبه ليس ديناً موجهاً للفرد فقط و إنما للجماعة ، و بالتالي لا يمكن فصله عن الدولة (1) .

و بعد تحديده لمفهوم العالم الديني ، ينتقل إلى الحديث إلى الوسائل التي تمكنه من النجاح في قيادة الأمة ، فيذكر أن أهم وسيلة ، هي أن يبدأ بنفسه فيما يتعلق بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، إذ لا يجوز له أن يأمر أفراد المجتمع ، بشيء مما جاء في الكتاب و السنة ، إلا إذا كان هو من يفعله أولاً . كما لا ينهى عن شيء ، إلا إذا كان هو أول تارك له ، حتى يجعل لنفسه قدوة لغيره ، يأخذون عنه أكثر مما يأخذون عنهم ، من خلال الأقوال المجردة و النصوص الجوفاء ، فهي تذكر الناسي و تنبه الخال و توقظه ، و تعلم الجاهل و تحرك الجامد و تدل الضال . في حين أن هداية الناس بشكل يشبه الإلزام ، فيمكن في التفسيرات العملية ، التي كان الرسول " ص " يوظفها في تربية أصحابه ، حيث كان يعلمهم بأعماله ، أكثر مما يعلمهم بأقواله ، إدراكاً منه للتأثير الكبير و للتربية العملية في النفوس ، و للانجذاب الفطري للناس نحو الاقتداء ، على حساب الأقوال و الموعظة . و في هذا الإطار ، يعتبر الشيخ الإبراهيمي صلح الحديبية (\*) أحسن مثال على ذلك ، فقد أمرهم الرسول " ص "

(1) - ينظر طارق البشري ، المرجع لسابق ، ص 26 و ما بعدها . و ينظر أيضاً محمد الحسين ، المرجع السابق ، ص 18 و ما بعدها . و ينظر أيضاً محمد عروة : الإسلام في مفترق الطرق ، ترجمة عثمان أمين ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1981م ، ص 108 و ما بعدها .

(\*) - الحديبية : واد قريب من مكة ، اشتهر بالبيعة التي حدثت فيه ، و بالصلح الذي أبرم بين الرسول " ص " و قريش في 06 هجرية سنة 627م . و أصل القضية أن محمد " ص " ، أعلن عزمه على دخول مكة لأداء مناسك الحج ، فقصدها رفقة سبعمائة صحابي من المهاجرين الأنصار مجردين من أسلحتهم ، و لما سمعت قريش بالأمر ، أعلنت أنها لن تسمح بذلك ، و خرجت لقتال المسلمين و الفتك بهم ، و لما كان الرسول " ص " لا يرغب في القتال ، فقد آثر الصلح و قبل بشروط قريش ، رغم تذمر أصحابه ، و من أهم بنود الإتفاقية :

- وقف الحرب و النشاطات العدوانية بين المسلمين و قريش طيلة عشر سنوات .
- من جاء المسلمين من قريش دون إذن سيده أو ولي أمره يرده المسلمون إلى مكة ، أما من جاء قريشاً من المسلمين فلا نرده أبداً .
- من أراد أن يدخل في تحالف مع المسلمين أو قريش ، من قبائل العرب فله الخيار .
- أن يرجع المسلمون من غير عمرة ذلك العام ، ثم يأتون في العام القادم ، فيدخلون مكة بعد أن تخرج منها

في البداية فترددوا ، رغم عملهم أنه رسول الله و أنه لا ينطق عن الهوى ، لكنهم سارعوا على إتباعه ، بمجرد أنه بادر إلى العمل <sup>(1)</sup> .

و بالطبع فإن ما قام به الرسول " ص " في الحديبية ، يعد سلوكا تربويا على قدر كبير من الأهمية ، و هو ليس الوحيد ، إذ أن الرسول " ص " كان شديد الحرص على تعليم أصحابه وعامة المسلمين دينهم، من خلال أفعاله و سلوكاته و سيرته ، فيستجيبون لذلك بسرعة بالمقارنة مع الأقوال و هو ما أصبحت تعتمد عليه المناهج التربوية الحديثة ، التي توصلت إلى أن المتلقي أو المتعلم ، يستجيب أكثر للمعلم أو الأستاذ الذي يعمل، أكثر مما يقول و يطبق أكثر مما ينظر <sup>(2)</sup> .

و تبعا لما سبق فإن المنهج التربوي النبوي ، هو الكفيل بنجاح العالم الديني في وظيفته المتمثلة في : (( الدعوة إلى الله و الإيمان بالرسول و الإقتداء بهم ، و إقتداء نهجهم في إقامة الدين الحق ، وإتباع أوامر الخالق و إجتنا نواهيه ، و تربية الخلق و تنظيم حياة المجتمعات ، و توطيد التعامل الإيجابي مع مقتضيات الأحوال المتغيرة التي تطرأ على الحياة الإجتماعية في مستوياتها المختلفة )) . أما الهدف المتوخى من إقتفاء أثر الرسل و السير على نهجهم هو : (( الإرتقاء بالوجود الإنساني و تحقيق الكمال الخلقى في المجتمع الذي هو غاية الدين ، و جوهر الإيمان ، وهو المقصد الأسمى من التربية التي هي وظيفة الرسل ، و محتوى الرسالات السماوية التي جاءت لهداية البشر عن طريق إنكاء و عيهم ، و لتحريرهم من ضعفهم و جهلهم ، و أوهامهم و سيطرة غرائزهم ، و تخليصهم من النوازع التي تميل بهم عن الحق و الخير و العدل ، و تدفعهم إلى ما يضاد إنسانيتهم ، و يحط من كرامتهم )) <sup>(3)</sup> .

قريش ، و يقيمون بها ثلاثة أيام ليس معهم سلاح إلا السيف في القراب و القوس . سيد أمير علي : روح الإسلام ، ترجمة عمر الديراوي ، ط 6 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1980م ، ص ص 103 - 104 .

<sup>(1)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 109 - 110 .

<sup>(2)</sup> - ينظر محمد بن سميحة : " المشروع التربوي الباديس مرام و مرتكزات " ، مجلة الشهاب الجديد ، مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الجزائر : العدد 3 / أبريل 2004م ، ص 50 و ما بعدها . و ينظر أيضا عبد الرحمان طالب : " حسن استغلال الأحداث البشرية و الكونية لفائدة التربية " ، مجلة الدراسات

الإسلامية ، المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر : العدد 01 / جوان 2002م ، ص 17 و ما بعدها

<sup>(3)</sup> - عبد الرحمان طالب ، المرجع نفسه ، ص 36 .

إن العالم الديني بحسب الشيخ البشير الإبراهيمي ، هو الشخص الوحيد المؤهل لقيادة الأمة الإسلامية ، و المكلف دون غيره بخدمتها ، في كل ما يتصل بحياتها و مصيرها و مستقبلها ، و هي وظيفته الأصلية ، فرضها عليه الدين الإسلامي ، و ارتضاها له العقل و أوجبته عليه مصلحة المسلمين <sup>(1)</sup> . و إذا كان العلماء المتأخرون برأي الإبراهيمي ، قد أضاعوا قيادتهم للأمة كما مر بنا في السابق ، فإن العلماء الأوائل كانوا على النقيض من ذلك ، حيث كان سلطتهم نافذة على الخلفاء ، و كانوا المرجع الأول و الأخير في الشؤون الدينية و الدنيوية للأمة ، يتصدون بألسنتهم نقدا و تجريحا ، لكل من انحرف عن جادة الصواب ، مهما كانت المكانة الاجتماعية و السياسية التي يتبوأها ، و السر في ذلك يكمن في كونهم ، يستمدون ذلك السلطان ، من روحانية الدين الإسلامي و سهولة مدخله على النفوس ، تخضع له مختلف الفئات الاجتماعية بشكل طوعي و تلقائي ، خصوصا فطريا صادقا لا تكلف فيه ، لإحساسها بأنهم المرجع في التعريف بالدين ، و بأنهم المعتبر عن حقائقه و الموضع لشرائعه ، و بأنهم الحراس الذين أوتمنوا على بقائه ، و بأنهم الورثة الحقيقيون للرسالة النبوية ، فكانوا بذلك يجمعون ، بين وظيفة التبيين في الجوانب التعبدية و بين وظيفة التقنين في المعاملات ، في حين كان الخلفاء يكتفون فقط ، بتنفيذ ما يراه العلماء من مصلحة ، فيما يتصل بالمعاملات في شقها الفردي أو الاجتماعي .

و ذهب الشيخ الإبراهيمي ، إلى أن هذا السلطان الذي كان لعلماء الدين الأوائل ، هو الذي كان يرهب حتى الخلفاء الذين إشتهروا بالقوة و السطوة و الإستبداد بالرأي ، بدءا "بمعاوية بن أبي سفيان" (\*) و غيره ، حيث لم يمنعهم ذلك من إدراك قيمة علماء الدين و قوة سلطانهم ، فلم يديروا ظهرهم لهم و لم يقطعوا الصلة بهم ، بل سعوا إلى التقرب منهم كسبا لودهم . لأنهم رأوا فيهم سلطانا أقوى من سلطانهم ، فعملوا على إضعافهم بإظهار احترامهم المتصنع وودهم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 308 .

(\*) - " معاوية بن أبي سفيان " : مؤسس السلالة الأموية ، عمل واليا على سورية خلال خلافة " عمر ابن الخطاب " و " عثمان بن عفان " ، عارض الخليفة " علي بن أبي طالب " و قاتله في موقعه " صفين " سنة 37 هـ / 657 م . أصبح خليفة سنة 41 هجرية / 661م ، نقل عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق ، إشتهر بدهائه السياسي توفي سنة 60 هـ / 680م . ينظر علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر

المزيف تارة ، و بالنبذ و التهجم و التجني تارة أخرى . فما فمعاوية لما بايع لابنه " يزيد " (\*) ، و حمل الأمة على البيعة له بالترهيب و الترغيب ، و قد كان له ذلك ، كان يشعر أنها بيعة لا معنى لها ، إذا لم يبايع كبار الصحابة ، لمنزلتهم الدينية و العلمية ، و منهم " الحسن بن علي " (\*\*\*) ، فسعى على تحقيقها بالحيلة الممزوجة بالقوة و الشدة ، و الأمر ذاته كان يلجأ إليه بنو مروان ، كلما تخلف " سعيد بن المسيب (\*\*\*) أحد فقهاء المدينة السبعة عن مبايعتهم ، و قد سار على هذا النهج الخلفاء الذين جاؤوا من بعدهم في قضية البيعة ، كلما اشتد سلطان العلماء و نفوذهم لدى العامة ، إلى أن انتقل أمرها إلى طور آخر ، فخرجت من أيدي العلماء ، و الخلفاء معا و أضحت في أيدي الأمراء و القواد و الجنود .

، ج 3 ، مرجع سابق .

(\*) - " يزيد بن معاوية بن أبي سفيان " : ولد سنة 25 هجرية / 654م ، هو الخليفة الأموي الثاني بعد أبيه " معاوية " ، أمه " ميسون " ، في عهده قتل الحسين بن علي في كربلاء 61 هجرية 680 م ، ثار عليه عبد الله بن الزبير في الحجاز ، و قد ذكر المسعودي بأنه إشتهر بإقباله على اللهو و الطرب و المنادمة على الخمر ، و بالجور و الظلم و الفسق و الفجور و سفك الدماء ، كما أنه قام بتهديم الكعبة و إحراقها ، توفي سنة 64 هجرية / 683م . ينظر المسعودي ، المرجع نفسه ، ص 77 و ما بعدها .

(\*\*) - " الحسن بن علي " : ( 3 - 5 هجرية / 624 - 670م ) : بكر إينا علي بن أبي طالب و فاطمة الزهراء بن الرسول "ص" ، بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه ، فاختر عدم القتال و تترك الخلافة ، مات في المدينة . المنجد في اللغة و الأعلام .

(\*\*\*) - " سعيد بن المسيب " ( 09 هجرية / 712 م ) : كان من كبار التابعين من الطراز الأول ، قرشي من بني مخزوم ، جمع إلى شرف نسبه علم الحديث و الفقه و الزهد و العبادة ، حتى قال فيه عبد الله بن عمر : لو رأى الرسول "ص" هذا لسره . لما أراد عبد المالك بن مروان ، أن يبايع لابنه الوليد سنة 85 هجرية ، خطب له إبنة سعيد إبن المسيب ، لما كان له من المنزلة بين الناس ، فيكون هذا الزواج وسيلة لترغيبهم في إبنة ، لكن سعيدا رفض الأمر ، و أثر عليه صديقه الفقير النقي " أبو وداعة " ، الأمر الذي اغضب عبد الملك و عزم على الإنتقام ، فخيره بين مبايعة ابنه الوليد أو قطع راسه ، و لما رفض ضربه ضربا مبرحا يوم بارد ، و صب عليه الماء البارد ، و أطاف به و هو شبه عار ثم سحبه . و لما أطلق سراحه ، منع الناس من مجالسته ، و بقي مصرا على موقفه ذلك غير مبال بتهديدات عبد الملك ، مغاضبا لبني مروان رافضا لعطاياهم حتى وفاته قائلا : (( لا حاجة لي فيها و لا في بني مروان حتىلقى الله فيحكم بيني و بينهم )) .

و مع ذلك بقي العلماء منحايزين إلى الحق ، متولين زمام القيادة الحقيقية للأمة ، متجنبيين الإغراءات المادية الزائدة ، يقظين متأهبين للتعامل مع كل الأحداث التي تطرأ على الدين ، فكانوا كلما رأوا شبح بدعة يلوح في الأفق ، سارعوا إلى التصدي له بإزالتها . و كلما شعروا بضلالة و منكر دخلا إلى الدين ، بادروا إلى تغييرهما فعلا و قولاً ، ينزلون الصغائر منزلة الكبائر احتياطاً ، لا يتساهلون و لا يفرطون في الترخيص سدا لباب الفتنة و الظلال ، مرجعهم الكتاب و السنة في كل أعمالهم ، فلا يصدرن إلا على الدليل الذي لا يخطئ ، و لا يعتمدون إلا على الحجة التي لا غبار عليها ، ترجع إليهم الأمة في كل شؤونها ، فتجد فيهم وحدة دينية متماسكة ، لا تتفرق بها السبل و لا تتشعب فيها الآراء <sup>(1)</sup> .

و بما أن الشيخ الإبراهيمي ، قد ركز بشكل خاص على العهد الأموي، في حديثه عن العلاقة التي كانت بين علماء الدين و السلطة السياسية آنذاك ، و التي قال فيها أن أولئك العلماء كانوا هم القادة الحقيقيين للأمة، سلطتهم تعلو فوق سلطة الخلفاء ، ليس لأن هؤلاء الأخيرين يقدرن العلم و العلماء ، و إنما خوفاً من تأثيرهم على العامة التي تنقاد لهم بكل سهولة، تقديراً لمنزلتهم العلمية و الدينية الرفيعة . فإنه يجدر بنا التذكير بأن الخلفاء الأمويين ، ظلوا ينتهجون هاته السياسة منذ تأسيس دولتهم و إلى غاية سقوطها ، حيث مزجوا بين السعي لإسترضاء العلماء و تقريبيهم و إكرامهم ، و بين الضغط عليهم و تهديدهم و محاصرتهم، و تضيق الخناق عليهم، مثلما مر بنا مع " ابن المسيب " <sup>(2)</sup> .

و بالرغم من كل ذلك ، فإن العهد الأموي يعد أفضل العهود في هذا الإطار ، إذ لم يمنع التهديد و التخويف العلماء و منهم على نحو خاص الفقهاء ، من ممارسة دورهم القيادي في الأمة . و قد استمر هذا الوضع في العصور التالية و لكن بصورة أقل ، إلى أن جاءت عصور الانحطاط التي لم يعد فيها لهاته الفئة المكانة السالفة الذكر .

و قد أدوا ذلك الدور على أكمل وجه ، رغم الأخطار الحقيقية التي كانت تحيط بهم ،

عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الإسلام ، د ط ، دار شريفة للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت ، ص 214 و ما بعدها .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الإثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 308 - 309 .

(2) - ينظر أكرم ضياء العمري ، المرجع السابق .



جراء مراقبتهم الشديدة للحكام ، فظلوا يتصدون بدون تساهل أو تقاعس، لكل ما يرتكبونه من أخطاء ، أو يمارسونه من ظلم و تعسف و استبداد ، و لا يترددون في معارضتهم ، إذا خالفوا صراحة تعاليم الدين ، أو في حق من حقوق الله ، التي تستوجب غضبه و سخطه على المعتدي عليه ، و قد بين الإبراهيمي هذه الحقيقة بقوله : (( و كانوا ملوكا على الملوك ، واقفين لهم بالمرصاد ، لا يقرونهم على باطل و لا منكر و لا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين ، و لا يتساهلون معهم في حق الله ، و لا يرتضونهم فيما يسخط الله )) .

و من جانب آخر ، ذكر الإبراهيمي أن حضورهم كان قويا في مجالس الرأي ، يجهرون فيها بآرائهم و موافقهم ، شهودا على كل ما يدور فيها و ما يصدر عنها ، لا يتأخرون عن تلبية نداء الجهاد ، فتجدهم في الصفوف الأولى للجيش الإسلامية ، لما يتمتعون به من شجاعة طبعها الإسلام في نفوسهم ؛ سواء تعلق الأمر بالشجاعة ، التي تدفعهم إلى الإفصاح عن آرائهم بدون وجل أو خوف من أحد ، فيفحمون الآراء الأخرى التي لا تستند الى دليل قوي أو حجة دامعة . أو الشجاعة في خوض القتال ضد الأعداء فيقهرونهم ، و هنا إعتبر الشيخ الإبراهيمي مناقشة الآراء إقتتالا ، لا يفوز فيه إلا الشجاع المتمكن ذو القوة و السطوة ، و الأمر ذاته بالنسبة للحروب ؛ لأن العالم الذي يجبن عن الإفصاح عن رأيه الصائب، و فرضه على الآراء الأخرى بالإقتناع ، أو يخشى القتال و يفر منه ، هو بمثابة عضو مشلول في جسد الأمة في تقديره (1) .

و بناء عليه نستخلص أن الإبراهيمي ، يضع جملة من الشروط الواجب توفرها لإصلاح علماء الدين المتأخرين ، حتى يتمكنوا من إستعادة مهمتهم في إستخلاف مقام النبوة ، و الإبقاء على زمام قيادة المجتمع في أيديهم ، كما فعل أسلافهم الأوائل . فقد تحولوا إلى علماء منقادين راضين بالدور الهزيل ، الذي يمليه عليهم الحكام المستبدون ، و تفرضه عليهم مصالحتهم الشخصية ، و النتيجة أنهم فقدوا احترام و تقدير العامة ، التي لم تعد تجد فيهم المرجعية الدينية المفقودة ، و هذه الشروط هي :

01 - إدراكهم لحقيقة الرسالة ، التي أوكلت لهم مهمة تأديتها دون غيرهم من العلماء ، و التي تتمثل في خلافة النبوة و قيادة المجتمع .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 308 - 309 .

- 02 - الترفع عن المصالح و الطموحات الشخصية الضيقة ، التي تتعارض مع خدمة الدين ، بسبب إستحالة التوفيق بينهما ، لأنه في وجود الأولى إضعاف للثانية .
- 03 - أن يستفرغوا كل طاقاتهم و جهودهم ، للدفاع عن الحق مهما واجهوا من صعاب و عقبات في طريقهم .
- 04 - أن يكونوا مثالا جيدا في الإستقامة ، و الإتزان و الإلتزام بكل التعاليم الدينية ، حتى تقتدي بهم العامة ، التي تنظر إلى أفعالهم لا إلى أقوالهم .
- 05- أن يتميزوا بكل ما يتصل بوظيفة العالم الديني ؛ من غزارة في العلم و رجاحة في العقل ، و حكمة في التصرف ، و إمام بالعصر و مقتضياته و بتفكير الناس و حاجاتهم و طبائعهم .
- 06 - ان يتحلوا بالذكاء و الفطنة ، إزاء أساليب الحكام و أصحاب السطوة و النفوذ و حيلهم ، لإحتوائهم أو الإيقاع بهم .
- 07 - أن يكون العلماء الأوائل مثلهم الأعلى ، في تأدية رسالتهم .
- 08 - الحرص الشديد ، على التصدي لكل أمر دخيل على الدين ، مهما كان تافها ، حتى لا يستعظم أمره و يصبح جزءا من الدين .
- 09 - أن يكون الكتاب و السنة مرجعهم الأول ، و أن يستندوا في أحكامهم على الدليل القاطع و الحجة الداحضة .

و إذا كان الإبراهيمي قد دعا صراحة علماء الدين المتأخرين ، إلى الإقتداء بنظرائهم الأوائل في العصور الأولى للحضارة العربية الإسلامية ، فإنه أظهر إعجابا شديدا ببعض العلماء المتأخرين و منهم الشيخ " عبد الحميد ابن باديس " ، الذي قال عنه <sup>(1)</sup> أنه باني النهضة الجزائرية و إمامها و مدرب جيوشها ، وهو في ذلك يختلف عن علماء الدين الذين شهدهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة ، حيث تميز بما جعله يتفوق على غيره من علماء الدين في عصره ، ومنها تمكنه من البيان و اللسان العربي ، ذكائه الخارق ، فكره الولود ، عقله اللامع ، فهمه الذي يغوص به في دقائق القرآن الكريم و أسرار التشريع الإسلامي ، و إطلاعه الواسع على أوضاع المسلمين ، و أسباب ما يعانونه من مشاكل و أزمت و طرق معالجتها . فضلا عن اتصافه بالرأي السديد في الجوانب العلمية و العملية في الإسلام و أدواره التاريخية ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 138 .

و إمامه الكافي بمعارف العصر ، مع التمييز بين جوانبها الإيجابية و السلبية ، رغم أنه لا يحسن لغة أخرى غير اللغة العربية . كما أنه كان ضالعا في العلوم الإجتماعية ، تماما مثل العلوم الدينية .

و من أولئك العلماء الذين أعجب بهم أيضا الشيخ " محمد عبده " ، الذي ذكر فيه أنه عرف بشجاعة الرأي و الفكرة، و قوة العلم و العقل ، و بجرأة لسانه و قلبه ، فتمكن من هز النفوس الجامدة ، و تحريك العقول الرائدة ، فخلف صدى قويا في كل مكان (1) .

و بلا شك أن " ابن باديس " و " محمد عبده " ، كانا من أبرز علماء الدين العرب و المسلمين في القرون الأخيرة . فلقد تصدى الأول، لسياسة التجهيل و الفرنسة و الإدماج التي انتهجتها فرنسا في الجزائر ، بغية قطع صلتها بجذورها العربية و الإسلامية، و إلحاقها بالأمة الفرنسية . بما قام به من جهود تربوية و تعليمية و دعوية ، ساهمت في تثبيت المقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي و اللغة العربية ، و من ثمة المحافظة على الأمة من الإدماج و الذوبان (2) . أما الشيخ " محمد عبده " ، فقد كان من علماء الدين الذين إنصبت جهودهم حول معالجة التخلف الحضاري، الذي كانت تحياه البلاد العربية و الإسلامية منذ عودة قرون (\*) ، في مقابل التقدم الحاصل في أوروبا و أمريكا و اليابان ، حيث كان جيله شاهدا على التحولات الكبرى التي عرفها العالم في نهاية القرن التاسع عشر و أوائل العشرين ، في المجالات السياسية و العلمية و الإجتماعية و الحضارية (3) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الاثار، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 113 .

(2) - ينظر مصطفى حميدانو ، المرجع السابق . و ينظر أيضا عبد الكريم بوصفصاف : الفكر العربي المعاصر ، ج 1 ، مرجع سابق . و ينظر أيضا إسماعيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 169 و ما بعدها .  
(\*) - حصر أسباب الإنحطاط و الجمود الذي أصاب المسلمين في عيوب علماء الدين - إنتشار الجهل و الخرافات وسط العامة - أمية النساء و عدم تمكينهن من الحق في التعليم - إهمال علوم الطبيعة - النظام العثماني الذي إستخدم الدين لخدمة السلطة السياسية ، و لم يشجع نشر العلم و المعرفة ، و قيد الحريات العامة . أنور أبوظة ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 170 .

(3) - أنور أبوظة ، و آخرون ، المرجع نفسه ، ص 169 و ما بعدها .

**02 - إحياء الدين الإسلامي :**

أرجع الشيخ البشير الإبراهيمي ، السبب الذي مكن العرب و المسلمين الأوائل من القوة و الرقي إلى الإسلام ، الذي بفضل هديته أصبحوا أساتذة العالم ، و امتدت دولتهم امتدادا كبيرا في الشرق و الغرب . أما السر في ذلك ، فيكمن في رأيه في تمييز الإسلام على سائر الأديان الأخرى ، إذ أنه دين فطري و روعي ، يحمل في مضمونه أقصى الكمال الإنساني ، كما أن أصوله بنيت على الحكمة الإلهية ، حيث نجد عقائده غذاء للعقل ، و في عباداته تركية للنفس ، و في أحكامه إعتبارا للمصلحة ، و في آدابه منفعة للمجتمع ، أي أنه جمع بين مطالب الروح و الجسم ، اللذان لا تكتمل إلا بهما سعادة الإنسان <sup>(1)</sup> .

فهو الدين الذي حرر العقل، و كل القوى التابعة له في النفس البشرية ، و العقل هو القوة التي تميز بها بين المتضادات و المتناقضات التي بنيت عليها الحياة ، مثل الصلاح و الفساد ، و الشر و الخير ، و النفع و الضرر ، و لذلك جعل شرطا للتكاليف الدينية و الدنيوية . و قد وضع الإسلام العقل و الفكر في مرتبة عالية ، و قرر أن الوعي بالحقائق العليا الدينية و الكونية ، إنما هو من شأن أصحاب العقول الراجحة و الأفكار السديدة .

و هو الدين الذي حرر العقل من الوثنية، إذ أنه أعلن حربا لا هوادة فيها من أول ظهوره على الوثنية بجميع أنواعها، بعد أن تمكنت من النفوس تمكنا شديدا ، و تغلغلت فيها أيما تغلغل . فاجتثها و أزال آثارها نهائيا، و أحل محلها التوحيد . و بذلك إستعاد العقل منها نفوذه و سلطانه ، و تهيأ لأداء وظيفته التي وجد لأجلها .

كما حرر الحيوان من الإنسان، فحرم على هذا الأخير، أن يحمل عليه أكثر ما يطبق من الأحمال و الأعباء ، أو أن يعمد إلى تجويعه أو تعطيشه ، فإن قام بشيء من ذلك انتزع منه عنوة و بيع بسلطة الحاكم . و قد وردت في السيرة النبوية ، الكثير من الوصايا بالرفق بالحيوان ، و النهي بشدة عن الإساءة إليه و تعذيبه (\*) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 108 .

(\*) - أورد الإبراهيمي في ذلك : قصتين جاءتا في الحديث النبوي ، الأولى لامرأة دخلت النار بسبب هرة، حبستها فلم تطعمها أو تتركها تأكل حشائش الأرض . و الثانية لإمرأة عاصية لله ، دخلت الجنة بسبب كلب و جدته عطشا على حافة بئر فأدخلت نعلها و سقته . و هو ما يؤكد حسبه أن الإسلام ، كان سباقا إلى سن حقوق الحيوان، من جمعيات الرفق بالحيوان الغربية .

و حرر الإسلام أيضا المرأة ، من ظلم الرجال و تعسفهم ، فقد كانت المرأة في العالم بأسره ، تعامل معاملة هي الأقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية ، يتصرف فيها الرجال كبضاعة أو متاع ، لتفريغ الشهوات و الحصول على النسل ، إلى أن جاء الإسلام ، فأعطاهما المكانة اللائقة بها ، التي تتناسب مع خصائصها العقلية و البدنية ، و سوى بينها و بين الرجل في التكاليف الدينية ، و ضبط علاقتها به ضبطا لا ظلم فيه . و راعى ضعفها الجسماني بالنسبة للرجل ، فأعفاها من التكاليف المادية ، المتمثلة في الإنفاق <sup>(1)</sup> .

و الحقيقة أن هذه الميزات التي تميز بها الإسلام ، هي التي جعلت من الحضارة العربية الإسلامية : (( إنسانية الخطاب ، ميدانها العقل البشري و عطاؤها الفعل الإنساني ، دافعها تحصيل الحكمة ، أنى كان و عاؤها ، لذلك جاء نسيجها و إنجازها إنسانيا من الناحية التاريخية ، و بعدها عالميا من الناحية الجغرافية ، و محلها الإنسان من الناحية الفكرية )) . مما يجعلها قادرة على التجدد، و إستئناف دورها في أي زمان، و هو ما أراد الشيخ البشير الإبراهيمي بيانه ، فيما ذهب إليه أنفا .

و في ذلك أيضا، إشارة إلى أن الركود و الجمود و التوقوع الحضاري ، الذي ميز العرب و المسلمين المتأخرين ، كان يسبب إختلال المعادلة بين الوعي و العقل ، و عجز وسائل التربية و التشكيل الثقافي عن تحقيق التفاعل بين الإنسان و الإسلام ، و عجز العقل المسلم : (( عن رد الأمور المستجدة إلى قيم الكتاب و السنة ، و إمتلاك القدرة على إستنباط القانون ، و إكتشاف الوسيلة ، التي تسهم بالحل ، و تحقق الهدى المقصدي للكتاب و السنة ، حسب ظروف الزمان و المكان ))<sup>(2)</sup> .

و على هذا الأساس ، إعتبر بأن القول أن النهضة العربية و الإسلامية ، لا يمكن أن تحقق بالإسلام ، إفتراءات يروجها أعداء الدين الإسلامي بأشكال شتى ؛ تارة تحت غطاء العلم ، و تارة أخرى بإسم الأعمال الخيرية و الإحسان، و يبرر صحة ذلك باليهود الذين إحتلوا بلاد العرب و المسلمين ، و تمكنوا من هزيمتهم عسكريا في فلسطين ، و تشريد أهلها رغم قلتهم ،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 358 و ما بعدها .

(2) - مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب محمد الفاضل بن عاشور : روح الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية : 2005م ، ص 6 ، 7 ، 8 .

و أقاموا دولتهم في تلك الأرض، التي إنتزعوها من أصحابها الشرعيين بالقوة على الديانة اليهودية.

فبفضل الدين، تمكنوا من كسب عواطف كل اليهود في العالم ، و من نفت الإنتباه إلى دولتهم ، زاعمين بأنها حق لهم بشواهد جاؤوا بها من الدين ، و أطلقوا عليها تسمية دينية ، إمعانا منهم في التبجح و الإفتخار ، فنسبوا إلى إسرائيل ، عن عقيدة و تحدي و إصرار ، فكان لهم ما أرادوا .

و الأمر ذاته بالنسبة للحكومة الهندية ، التي لم تقم على التكر للبرهمية (\*) ، و لا على التنصل من دين الهند ، بل أقامت دولة جمعت الملايين ، على دين قوامه الوثنية و عبادة البقر . و رغم ذلك ، فقد أضحت دولة مرهوبة و قوية ، لها وزن كبير في الساحة الدولية ، تسعى الدول الكبرى في العالم ، التي لها باع كبير في القوة العسكرية و العلوم ، إلى التقرب منها و التودد إليها .

و في المقابل من ذلك ، يقر بأن المسلمين سكتوا عن كلمة دولة محمد " ص " ، جنباً و تنكراً و عقوقاً ، فانهمزوا و تقهقروا . و في هذا يتساءل ، إن كان يوجد من المسلمين ، من يستطيع أن يقولها ؟ و يجيب بأن أكثرهم يخجل من ذكرها ، و يتأفف من سماعها ، و لولا الشعوب الإسلامية المستضعفة ، و لولا بعض الخشية منهم ، لطمسوا تاريخ الإسلام ، و معالمه المتبقية ، طمسا نهائياً <sup>(1)</sup> .

لقد حاول الإبراهيمي ، من خلال إيراده للتجربتين اليهودية و الهندية ، اللتان إتخذتا من الدين أساساً لبناء الدولة و السعي للتدرج في سلم الرقي و التقدم ، أن يثبت على نحو منطقي

(\*) - البرهمية : جاءت من " براهمان " ( BRAHMAN ) ، وهي كلمة سنسكريتية ، إنتقلت إلى اللغة الإنجليزية في وقت مبكر ، يرجع إلى 1481م ، و يعني هذا الإسم الذي أطلقه معلمو و حكماء " الأوبانيشاد " ( UPANISHAD ) ، أوبا UPA : قريب، من ونيشاد NISHAD بمعنى يجلس ، و المقصود يجلس قرب المعلم . و يقصد بها في الأدبيات السنسكريتية : محاورات تأملية مينا فيزيقية ، تضم مائة و ثمانين محاوراً بين معلمين و حكماء كبار و تلاميذهم، صيغت فيما بين 800 و 500م ) ، على الموجود الأسمى ، الذي يتجسد في الإله الخالق براهما ، و يضعونه طرفاً في ثالث مقدس ، يتألف من براهما ( الخالق ) و فشنو ( الحافظ ) و شيفا ( المدمر ) . جون كولر ، المرجع السابق ، ص 35 .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 321 - 322 .

أن ما تحقق لليهود و الهنود ، رغم الاختلاف الجوهرى بين العقيدتين من جهة و بين الإسلام من جهة ثانية ، و خاصة في مسألة الفكر و العقل، سيتحقق بدهشة للعرب و المسلمين المتأخرين ، تماما مثلما تحقق لأسلافهم ، إن هم تمسكوا بالإسلام ، الذي وضع منهاجا : (( لحياة بشرية متجددة و ترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها إرتباطات حياتها النامية المتجددة و إستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة و ملابساتها ، دون إصطدام بمنهج الأصول الدائم )) (1) .

إن إحياء الدين الإسلامى عند الإبراهيمي ، يعنى الإهتداء بإرشاد القرآن الكريم ، إلى الأسرار الكونية ، التي كشفتها العلوم التجريبية في عصرنا الحالى ، في غفلة من المسلمين ، الأمر الذي سمح لغيرهم بإكتشافها و إستثمارها . و في ذلك يفترض أن الوقت لم يفت بعد ، فبالإمكان تدارك الموقف ، بشرط التحلي بالجد و القوة و الحزم ، و ستكون النتائج سريعة و إيجابية ، تماما مثلما كان الأمر بالنسبة للمسلمين الأوائل . فلا سلاح للذهوض ، بعد أن وصلوا إلى درجة كبيرة من الإنحطاط و التخلف ، إلا ما يقومون بإقتباسه من القرآن ، فيما يتصل بأسباب القوة الروحية و القوة المادية (2) .

أما كيف يتحقق الإحياء، فيربطه بإقامة الدعوة إلى الله و إلى الدين الإسلامى الذي هو دينه، على أساس متين ، عن طريق العالم الدينى و الخطيب ، الذي يتحدث بقلبه و ليس بلسانه ، و الكاتب الذي يكتب بقلمه ما يصدر عن عقله ، و الغنى الذي يستهين بكل ما لديه من مال في سبيل دينه . ثم بتوجيه هذه الدعوة ، إلى المسلمين أنفسهم قبل الأجانب ، فإذا أحدثت الدعوة مفعولها في النفوس و أعادتها إلى دينها ، و كان من أثار ذلك تمسك المسلمين بكتابهم و هدى نبيهم ، و تمجيد لتاريخهم و أمجادهم و فضائلهم و لسانهم . و نكون بذلك قد زدناهم بسلاح لا يهزم ، و حصانهم حصانة روحية أمام الدعايات المضللة ، و حصانة مادية لا تهزم أمامها ، مهما كانت الجموع التي تواجهها (3) .

(1) - ينظر سفيان بن الشيخ الحسين : ماذا قدمت أمريكا و الغرب أين الطريق ؟! ، د ط ، د م ج ، الجزائر

: د ت ، ص 91 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 20 - 213 .

(3) - المصدر نفسه ، ص ص 286 - 287 .

و تبعا لذلك ، يظهر أن الإبراهيمي يحمل مسؤولية إحياء الدين الإسلامي ، إلى فئات محددة في المجتمع ، فحصرها في علماء الدين و الخطباء و الكتاب و الأغنياء ، مشترطا لنجاحهم في مهمتهم الإحيائية تلك ؛ التحلي بالإخلاص و الغريمة الكافيين ، مستبعدة الحكام و السياسيين، الذين سبق و أن أشرنا بشأنهم في قضية إصلاح علماء الدين ، إلى أنه جعل منهم طرفا تابعا للسلطة الدينية و منفذا لتوجيهاتها، مثلما كان عليه الحال في الدولة العربية الإسلامية الأولى كما مر بنا. و يبدووا في السياق ذاته ، أنه أولى إهتماما بالغما بما سماه الدعايات المضللة ، التي تعني الغزو الثقافي و الفكري ، الذي يعمل على تضليل المجتمعات الإنسانية ، و التمويه عليها ، و تزييف الحقائق . و لقد واجه الإسلام في هذا الإطار ، تحديات كبيرة منذ القرون الأولى لظهوره . أما أسبابه فهي عدة ، حصرها الدكتور " أحمد عبد الرحمان السايح " <sup>(1)</sup> ، في كتابه " الغزو الفكري " في ستة أسباب هي :

أولا : العداة الصليبي للإسلام و المسلمين : الذي إستمر حتى بعد نهاية الحروب الصليبية ، بإعتماد أساليب أخرى غير الحروب و منها ؛ البحث عن الثغرات التي يدخلون منها لإثارة الشبهات ، عن طريق ترجمة القرآن الكريم و السنة و علوم المسلمين . و قد أعلنوا بشكل صريح أن الإسلام هو عدوهم الأول ، و أن غايتهم الأولى هي ضرب الإسلام و هدم قواعده .

ثانيا : الإستعمار الغربي للمجتمعات العربية و الإسلامية : حيث حمل معه إيديولوجيته ، و أساليبه في الحكم و التوجيه و التشريع ، و الإقتصاد و الإستهلاك ، فضلا عن قيمه الثقافية و الإجتماعية ، التي وجدت أمامها مجتمعات متخلفة لا تتمتع بالمناعة الكافية، لمقاومتها أو رفضها .

ثالثا : تقدم الغرب العلمي المذهل : الذي أبهر العقول ، التي أضحت تتطلع إلى مكتشفاته و مخترعاته المادية المتجددة ، و شكلت تحديا غير مسبوق للمجتمعات العربية و الإسلامية ، التي وقفت مذهولة أمامها ، الأمر الذي جعلها تنظر نظرة تقدير و إحترام للحضارة الغربية ككل ؛ في جوانبها الفكرية و الفلسفية ، و الإقتصادية و العمرانية و الإجتماعية و الخلقية .

رابعا : الضعف الفكري و التفكك الإجتماعي : اللذان أديا إلى الإستغراق في الطائفية المتناحرة

(1) - أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 44 و ما بعدها .



و المذهبية المتعصبة ، و إلى تعدد السلطات و الدويلات التي قامت على أساس شعوبي أو منهجي .

خامسا : التخلف عن ركب الحضارة : بفعل الانشغال بالتوافه ، و الانصراف عن تعاليم الإسلام ، التي تحث على العلم و المعرفة، و استخدام العقل و الفكر ، في كل ما من شأنه أن يؤدي بالمجتمع الى الرقي و التقدم . فتوقفت عجلة التقدم بها، و أصبحت تعتمد على غيرها في جميع مناحي الحياة .

سادسا : الفراغ العقدي : الذي أنتج سلوكات إجتماعية، تنتافى و روح العقيدة الإسلامية ، التي جاءت بمفاهيم تناولت الكثير من معضلات الحياة .

و لا ينكر في مقابل ذلك ، وجود فئة منصفة من الباحثين الغربيين ، الذين تحروا في كتاباتهم الحقائق ، و إتسموا بسمات العلماء من الإنصاف و التمهيص، و خدمة العلم لذات العلم و قد إنتهى بهم البحث إلى الإعتراف بمحاسن الإسلام الدينية و الإجتماعية ، و بمعجزات القرآن و العلوم الكونية . و لكن عددهم قليل ، بالمقارنة مع نظرائهم الذين يطعنون في تراث و تاريخ و عقيدة الإسلام . و لأن الفريقان موجودان في كل مكان و زمان ، فإنه من الواجب على المسلمين، أن يردوا على كل فرية تصدر من الفريق الأول ، و يقبلوا بكل إنتقاد منصف ينبههم إلى عيوبهم من الفريق الثاني (1) .

و إذا كان الإبراهيمي ، قد عبر في الكثير من كتاباته عن حزنه و عميق أسفه ، على تخلي المسلمين بما فيهم العرب ، عن الإسلام كمنهج و أسلوب في الحياة ، فإنه أبدى بعض التفاؤل بقوله : أن الكثير من المؤشرات توحى بعودة ما سماه دولة القرآن و منها ؛ أن الدعوة إليه قد تجددت في هذا العصر على نحو غير مسبوق ، كما أن أصوات الدعاة المصلحين ، قد تزايدت و اتفقت و سارت في هذا المسلك ، بدعوتها إلى دراسة و إستخراج ذخائره ، و إحياء دعوته إلى الفضيلة و الخير و المحبة ، و إستنباط العقائد و العبادات و أحكام المعاملات منه . مع الإستعانة بفهم السلف الصالح و تطبيقاتهم ، و لجوئهم إلى تحكيمه ، في كل ما يعترضهم من خلاف في الأمور الدينية و الدنيوية .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 356 .

و قد كان من آثار هذا التحول ؛ أن العلماء الذين أبدوا إستعدادهم ، للعمل بالقرآن الكريم ، و العامة الذين أظهروا إستعدادهم لذلك ، أنهم يتساءلون عن السبب في هجر القرآن الكريم ، الذي يعد دستوراً ربانياً لا يقبل الخطأ أو التبدل و التغيير ، و إستبداله بالدساتير و القوانين الغربية القاصرة ، لأن مصدرها بشري . هذا من جهة ، و لأنها موجهة لجنس بذاته هو الشعوب الغربية التي تشترك فيما بينها ، في الطبيعة الواحدة و المصلحة الواحدة .

و وفقاً لذلك ، يصل إلى أن الغليان الفكري ، الذي شهدته الساحة الإسلامية آنذاك ، و كثرة الحديث المسلمين عنه ، و إقباله على دعاة القرآن الكريم و مدارسه ، و تجاوبهم مع أساليبه في الوعظ و الكتابة ، كلها تباشير بعودة الإسلام إلى حياة المسلمين من جديد ، و إلى دوره في إصلاح البشرية ، و إتخاذه مرجعاً للأمم الأجنبية، التي عجزت دساتيرها عن تدبير أمورها ، فكان أن اضطربت أوضاعها ، فتطلعت نفوسها إلى قانون سماوي ، يحفظ حقوقها و حقوق الفرد و الجماعة . و هي كلها تطلعات ، مضمنة في القرآن الكريم ، لوجد وجد من المسلمين ، من يوليه الإهتمام اللائق ، و يقوم بالدعوة إليه و ينشر هدايته (1) .

لقد عد الإبراهيمي إذن ، ظهور ثلثة من رجال الإصلاح في البلاد العربية و الإسلامية، خلال النصف الأول من القرن العشرين ، و إعتادهم الإسلام مرجعية أولى و أساسية في إنهاض الأمة ، مثلما كان عليه الأمر في النهضة العربية و الإسلامية الأولى (2) ، بداية لإحياء الدين الإسلامي ، الذي لا غنى لهم عنه ، فمنه يقتبسون كل ما يتصل بأسباب القوة الروحية و القوة المادية (3) . أما الذي زاد من تفاؤله ، فهو الإستجابة الشعبية الواسعة لمثل تلك الأفكار الإصلاحية ، بعد قرون من القطيعة و الجفاء ، ظلت خلالها العلاقة بين علماء الدين الإسلامي و مجتمعاتهم مضطربة ، حيث فقدوا احترام و تقدير العامة لهم ، و من ثمة التأثير فيهم ، بفعل تخليهم عن أداء دورهم الأصلي و الطبيعي في الأمة ، و هو القيادة و التوجيه ، و مراقبة الحكام و محاسبتهم .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 229 - 230 .

(2) - محمد عمارة : الإسلام بين التنوير و التزوير ، مرجع سابق ، ص 241 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : المصدر نفسه ، ص 213 .

كما لفت إنتباهنا ، إلى أنه ممن يرون بأن الحاجة إلى إحياء العمل بالدين الإسلامي ، ليست للعرب و المسلمين فحسب ، و إنما للبشرية جمعاء بما فيها الأمم الغربية ، فبالرغم مما حققته من تطور و رقي مادي ، غير واقعها الإقتصادي و الإجتماعي تغييرا جذريا ، إلا أنها صادفت في طريقها عقبات كبيرة ، جعلت نظامها السياسي و الإجتماعي يختل ، و السبب عنده هو إفتقارها لمنظومة فكرية و قانونية شاملة ، كذلك التي يتضمنها الإسلام ، و التي من شأنها أن تعالج ذلك الخلل الحاصل . و المسؤولية في ذلك تقع على المسلمين ، الذين يتوجب عليهم إحياء الإسلام في حياتهم هم ، و بعد ذلك يطرحونه كبديل حضاري لقضايا و مشاكل غيرهم، من الأمم المجتمعات غير المسلمة .

### 03 - تفعيل دور المثقفين :

إذا كانت الثقافة ؛ هي مجموع السمات و الملامح الخاصة ، التي تميز مجتمعا معينا ، أو زمرة اجتماعية معينة ، أو أمة عن أمة أخرى ، سواء كانت روحية أم مادية ، فكرية أو عاطفية <sup>(1)</sup> . فإن المثقف عند الشيخ البشير الإبراهيمي هو: (( ذلك الرجل المهذب المستنير الفكر المجهور العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء ، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق على أسس التخريف ، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم و تاريخه ، الملم بجانب من معارف عصره )) .

و قياسا مع ما ورد في هذا التعريف ، يتجلى لنا أن المثقف في تصوره ، ينبغي أن تصف بجملة من الصفات هي و : التربية الحسنة ، الاستقامة في السلوك و الأخلاق أولا و العلم ثانيا ، الإدراك الصحيح ، صحة تقديم الأمور ، التفكير السليم ، الاستنتاج العقلي ، الإمام الشامل بالمستجدات العلمية و المعرفية التي تستجد في عصره . و هي بحسبه الأسس التي تقوم عليها الثقافة ، في النظر الشرقي أو العربي الإسلامي .

و يفترض في الصدد ذاته ، بأن مكانة المثقفين في الأمم التي وصفها بالحياة عالية ، فهم أفضل أفرادها ، و السادة و القادة فيها ، و الحراس المؤتمنون على عزها و مجدها . يتوجب

(1) - ينظر عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ص 25 و ما بعدها . و ينظر أيضا رضوان السيد ، أحمد برقاوي ، المرجع السابق ، ص 27 و ما بعدها . و ينظر أيضا مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ، ص 19 و ما بعدها .

عليها أن تحيطهم بالاحترام و التقدير ، في مقابل أن يضطلع هم نحوها بواجب القيادة و التدبير ، فالأمم من يوم ظهورها ، و طيلة تاريخها ، هي في أمس الحاجة إلى مثقفيها المتمثلين في العلماء و أهل الرأي و البصرة ، تحتاج إليهم في أوقات السلم ، لكي يرسموا لها النهج السليم لكي تترقى و تتقدم ، و يزودونها بعلومهم و آرائهم و أفكارهم ، التي توجهها إلى الاستقامة و الاعتدال . و تلجأ إليهم في أيام الحرب و عدم الاستقرار ، لكي يحلون لها المشكلات المعقدة و يخرجونها من الأزمات و الضوائق ، محفوظة الشرف و المصلحة .

و فضلا عن ذلك يضيف الإبراهيمي ، بأن المثقفين هم الفئة التي تتولى الحفاظ على التوازن في أممهم ، و القيام على الحدود حتى لا تهدم ، و على الحرمات لكي لا تنتهك ، و على الأخلاق أن تزيغ . كما أنهم بمثابة الميزان ؛ يعرف من خلاله كل فرد في المجتمع قيمة نفسه حيث : (( يراهم العامي المقصر فوَقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته ، و يراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث و الاستبداد )) . فإذا كانوا متبوعين فالأجدر بغيرهم أن يكون تابعاً ، و إذا كانوا في المرتبة الأولى فإنه يفترض في غيرهم أن يكون في المرتبة الثانية ، فلا شيء يضر الأمم مثل الفوضى في الأخلاق، و الفوضى في مراتب الأفراد <sup>(1)</sup> .

بهذا الشكل، حدد الإبراهيمي مكانة المثقفين في أممهم ، و الدور المنوط بهم ، الذي يقومون به في كل وقت ، و لا ينبغي لهم أن يتركوه لغيرهم ، فإن حدث ذلك اختلت المعادلة ، فقاد غير المثقفين الأمة أو المجتمع . و النتيجة معروفة بعد ذلك ؛ تخبط في المنهج و اضطراب في السير ، و فوضى اجتماعية . و في المحصلة تأخر حضاري شامل، كذلك الذي انخرطت فيه المجتمعات العربية و الإسلامية منذ عدة قرون ، و لم تجد له مخرجا إلى غاية الآن ، رغم محاولات النهوض العديدة التي جرت هنا و هناك، في أواخر القرنين التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ، حيث كان مآلها الفشل لأسباب مختلفة منها ؛ كون أن أغليبتها كانت سياسية ، و لم تول الاهتمام اللازم لعنصر الثقافة .

و منه فقد انتقد الإبراهيمي بشدة المثقفين المتأخرين ، محملاً إياهم المسؤولية في كل ما أصابها من أمراض، و ما تعانيه من انحطاط و تقهقر ، لأنهم تخلوا أو تقاعسوا عن واجباتهم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 126 .

نحوها ، و ركنوا إلى الخمول و الكسل ، و الانكماش و الانطواء على الذات ، و الأسوأ من ذلك أنهم أظهروا جهلا كبيرا بحقائق الحياة . فبرر انتقاده الشديد بقوله : (( ... نحن مرضى و من بلاء المريض رفق الطبيب به ، إن رفق الطبيب خيانة لفنه و قدح في أمانته و زيادة في البلاء على مريضه ، و ما خير رفق ساعة يتجرع المريض بسببه آلام السنين )) .

و صنفهم على صنفين لكل منهما عيوبه ؛ المثقفون بالثقافة الإسلامية ، و يتصفون بالجهل المطبق بأحوال العصر و لوازمه ، و المثقفون بالثقافة الأوروبية لهم عيوب كثيرة و منها : جهلهم الفاضح بحقائق الإسلام و أخلاقه و آدابه، و بتاريخ أمتهم الذي يمثل مصباحها الذي ينير لها الطريق ، و بلسانها الذي يعد ترجمانها الصادق . و قد أدى الاختلاف في الثقافة بين الفريقين ، إلى نتائج سلبية و خطيرة ، جعلت الثقافة لدى مجتمعاتهم عديمة الفائدة ، أما أخطر النتائج فهي أن الاختلاف في وجهات النظر يترتب عنه اختلاف الآراء، و تناقضها في المصلحة الواحدة، و في المفسدة الواحدة أيضا . فتهتز الحقيقة ، و يتحول المثقفون إلى بلاء على الأمة و داء لها بعد أن كانوا دواءها ، و أعباء بعد أن كانوا قادتها . و الحل الذي يقترحه هو؛ الجمع بين الثقافتين الإسلامية و الأوروبية، لتحقيق التوازن و إزالة الخلل (1) .

ثمة هنا إشكالية أساسية طرحها و هي ؛ ثنائية الأصالة(التراث) و المعاصرة ( الحداثة )، التي هيمنت على الخطاب النهضوي العربي الإسلامي في القرنين الماضيين ، و لازالت إلى غاية الآن . فالأولى دعا أصحابها إلى اعتماد " الأصول " الإسلامية، في مواجهة الانحراف الديني المتمثل في الطرق الصوفية و الشعوذة ، ثم ما لبثت أن دخلت في صراع مع تيار المعاصرة المعروف حاليا باسم " التيار الليبرالي " ، لكونه كان يدعو إلى اعتماد " الأصول الأوروبية " ، التي تعني القيم الفكرية و الخلقية و السلوكية، التي اعتمدها النهضة الأوروبية . و سرعان ما تطور السجال بين الطرفين إلى تبادل الاتهامات ؛ فاتهم التيار الثاني الأول بالرجعية و الماضوية ، و بالمقابل إنهم الأول الثاني بالعمالة للاستعمار، و السعي إلى التغريب و التتكر للقيم الوطنية ... إلى ، و بما أن قادة التيار الأول كانوا من المصلحين المسلمين ، بينما كان كثير من زعماء التيار الثاني من المسيحيين العلمانيين ، فلقد أخذت القضية أبعادا أخرى ، بحيث أضحت تتغذى بصورة أو بأخرى بالنزعة الطائفية ، عن وعي أو دون وعي .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 125 - 127 .

و تجدر الإشارة ، إلى أن هذا الإشكال لم يكن مطروحا في كل البلاد العربية خاصة و الإسلامية عامة ، و منها بلاد المغرب العربي؛ التي لم تشهد تضادا بين التيارين ، بل على العكس من ذلك كان هناك تداخل و تكامل بينهما ، إذ كان مضمون الأصالة يعني: (التحديث ) ، و كان التحرر من فكر و سلوكات و عادات عصر الانحطاط من طرقية و شعوذة ... إلخ ، يعد شرطا أساسيا للنهضة . أما العودة إلى (سيرة السلف الصالح ) ، فلم يكن المقصود منه العودة بالتاريخ إلى الوراء ، و لا استلهاج التجارب من الماضي ، بل كان المقصود منه في بعض الأحيان ، إستلهاج معنويات الفترات الزاهرة في التاريخ الماضي العربي و الإسلامي .مع الأخذ بعين الاعتبار ، الفوارق الزمنية و اختلاف العصور، و ما يترتب عن ذلك من اختلاف في طبيعة المشاكل و طبيعة الحلول (1) .

يرى الإبراهيمي، أن المتقنين لا يكونون متقنين حقيقيين، إلا إذا تمتعوا بثقافة إسلامية حقيقية ذات مستوى عال ، و كانوا على دراية كبيرة بمقتضيات الحياة في كل عصر ، و لهم القدرة على تطبيق الدين مع الاجتماع مع الحضارة ، عارفين بمكانة الرجال و قيمهم المعرفية ، مطلعين على الأسباب المؤدية إلى التقدم و التخلف في آن واحد ، مساهمين في إنتاج معارف العصر . و قد اشترط فيهم لكي يؤدوا واجبهم نحو الأمة على أكمل وجه ، و المتمثل في جلب المنفعة و الخير لها ، و القضاء على الجهل و الأمية بها ، و حث أفرادها على العمل و تنفيذهم من البطالة و الكسل ، و تقويمهم فهمهم للحياة ، و تنظيف عقولهم و أفكارهم من الخرافات ، و تنظيم التعاون فيما بينهم ، و توطيد الصلة و الثقة بين العامة و الخاصة منهم ، و تعليمهم معاني الخير و الرحمة و الإحسان لجميع البشر . اشترط فيهم القيام بما يلي :

- 01 - إصلاح أنفسهم أولا ، لأن الذي لا يستطيع أن يصلح نفسه لا يتسنى له أن يصلح غيره .
- 02 - استكمال نقائصهم العلمية و مؤهلاتهم التنقيفية ، حتى يتمكنون من تنقيف غيرهم ، فليس كل متقف أهلا ليقوم بدور المتقنين .
- 03 - القيام بالإصلاح الاجتماعي، بين كل الطوائف التي يتألف منها المجتمع ، من خلال التعارف و التقريب بين الأفكار ، و بالتفاهم في إدراك الحياة و تصحيح أوجه النظر إليها ، و بالاتفاق على تصحيح المقياس الذي يوزن به المستوى الثقافي .

(1) - محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص 105 - 106 .

04 - السعي لكسب ثقة الأمة ، بالامتزاج بها و الاختلاط بطبقاتها، و التقرب إليها ، و مشاركتها في كل شؤونها الدينية و الحياتية، من عبادة و عوائد صالحة (1) .

الملاحظ على هذه الشروط الأربعة ، التي اشترط الإبراهيمي توفرها في المثقفين العرب و المسلمين ، لكي يتمكنوا من القيام بدورهم المفترض إزاء الأمة . على نحو إيجابي و فعال ، أنها تستهدف بناء شخصيتهم من النواحي السلوكية و النفسية، و العلمية و الثقافية ، إذ لا شك في أن لهذه العناصر الأخيرة أهمية بالغة في ذلك ، و الإبراهيمي حينما ركز عليها ، إنما يدل ذلك على أنه لمس ضعفا بينا فيها لدى المثقفين المتأخرين ، الذين فشلوا في أداء واجبهم ، بسبب وجود خلل في تكوينهم . و هو بذلك قد وضع منهجا تربويا ، في غاية الأهمية ، من شأنه أن ينشئ أجيالا من المثقفين، الذين يتمتعون بمؤهلات عالية ، تسمح لهم بقيادة مجتمعاتهم نحو الرقي و التقدم ، دون التخلي عن مقومات الثقافة العربية الإسلامية الإيجابية، قديمها و حديثها .

إن حاجة الأمة إلى هؤلاء المثقفين، كبيرة في اعتبار الإبراهيمي ، لكي يجددوا لها ثقافتها التي كان ماضيها مشرقا، أما حاضرها فهو مظلم بحسب الإبراهيمي . و الحل الذي يقترحه هو أن لا تقتصر جهود المثقفين و أبحاثهم، على ذلك الماضي الزاهر ، بل يتوجب عليهم أن يولوا العناية الكبيرة للمستقبل ، بوضع معالم جديدة يهتدي بها الجيل الجديد من أبناء العروبة و الإسلام . فلقد وجد ذلك الجيل نفسه في مفترق طرق ، لا يدري أيها يسلك ، كما فتح عينونه على الثقافة الغربية بكل خصوصياتها ، و التي أصبحت أقرب إلى ذهنيه و ذوقه ؛ بفضل الأساليب و الطرق الفعالة، التي يتبعها أصحابها في الترويج لها ، في أوساطهم و بسبب المغريات الجسدية و الشهوانية و اللاأخلاقية، التي تعرضها عليهم .

في مقابل الثقافة الإسلامية التي أدير عنها ، بسبب ما أصابها من جمود و ركود ، ما جعل منها بعيدة عن عقله ، غريبة عن ذوقه ، نافرة من شعوره . كل ذلك بفعل تخلي عن الأسرة عن دورها التربوي و التنقيفي ، و تأثير الكتاب و المدرسة و المجتمع ، حتى أصبح الناشئة يحتقرون أوليائهم ، و يستحون من جنسهم ، و يسخرون من دينهم ، يقبلون بكل حماسة و شغف، على كل ما هو من آداب الغرب و مجتمعاته.

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 129 .

و يواصل الإبراهيمي، حديثه في هذه النقطة، ملخصاً حال الثقافة الإسلامية في القرون الخمسة و نصف الأخيرة ، فيقول أنه بالنظر إلى عشرات الآلاف من المؤلفات التي الفت، اكتشف بأننا ضيعنا تلك المدة في الأقوال دون أن ننجز شيئاً يذكر . حيث أنها تعج بالآثار القولية، الممعنة في الشروح و الحواشي، و التعاليق المملوءة بالجدل اللفظي العقيم . أما الآثار العلمية التي تتناول ، الانحطاط المريع في الأخلاق ، و الزيغ و الإلحاد في العقائد ، و الوهن في العزائم ، و الاستسلام الذي قاد الأئمة نحو الاستعباد ، فلا وجود لها (1).

و بذلك يكون، قد دعا صراحة إلى تجديد الثقافة العربية الإسلامية ؛ و التجديد في مفهومه لا ينطلق من نبذ الرصيد الثقافي الماضي ، و إنما من معرفة مقومات الثقافة العربية الإسلامية قديمها و حديثها، معرفة علمية دقيقة كما مر بنا ، ثم الشروع بعد ذلك في إحياء التراث القابل للإحياء، بزرع الحياة و القوة فيه، بتجديده و ربطه بحاجات العصر . و أهم حاجات العصر ؛ تحقيق التقدم العلمي و التكنولوجي ، الذي لا بد أن تسعى إليه أمة معاصرة . فكل تراث ثقافي مهما يعظم شأنه ، هو في حاجة إلى تجديد و تطوير جذري ، حتى يستمر و لا ينتهي به الأمر إلى النسيان و الإهمال و من ثمة إلى الاندثار . و هو ما لا يريده الشيخ للتراث الثقافي العربي الإسلامي. و بناء عليه أيضاً ، يتضح لنا أيضاً ، أنه يقر بصلاحية جانب كبير من التراث العربي الإسلامي (2) ، و قدرته على التجدد و التطور ، إن هو وجد المثقفين المؤهلين لتلك العملية .

لقد حان الوقت لإحياء الثقافة العربية الإسلامية ، التي أغفلت و أهملت لقرون عدة يقول الإبراهيمي ، فرغم أن التاريخ العربي الإسلامي، يحفل بالكثير من الأمجاد الزاهرة و العظيمة ، إلا أن عصور الانحطاط اختصرته في بعض المحطات دون سواها ، فإذا تطلب الأمر الحديث عن الجودة ، جيء من العصر الجاهلي بـ : " حاتم الطائي " (\*) ، و بدرجة أقل "

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 308 - 309 .

(2) - عبد الله عبد الدائم ، المرجع السابق ، ص ص 42 - 43 .

(\*) - حاتم الطائي : يكنى أبا سفانة ، و هي إبنته المشهورة بالسقاء ، مثل جدتها عنة بنت عفيف أم حاتم ، و اسمه حاتم بن عبد الله ، من قبيلة طيء القحطانية التي كان سيدها و زعيمها . اجتمعت في شخصيه الشاعرية و الشجاعة و الكرم العربي ، و به يضرب المثل في السقاء : " أجود من حاتم " . و له في وصف كرمه اللامحدود أشعار كثيرة ، توفي نحو سنة 605م و لم يدرك الإسلام . له ديوان شعر طبع في أماكن عدة



عنتره " (\*) و السموأل (\*\*). و إذا زدنا شيئاً من ذلك ، تحدثنا عن العصر الإسلامي الأول دون غيره من العصور الإسلامية الموالية ، و كأنها خلت من المثل العليا و المكارم و المفاخر الخالدة .

و هكذا انقطع حبل الوصال بين الأجيال المتعاقبة ، و انقطع معها الإقتداء و التأسي ، فصارت المجتمعات العربية و الإسلامية، تعيش فقراً و خواء فضيعين في هذا الجانب . زاد من حدته المتفقون و منهم الفقهاء المتأخرون، أو : (( فقهاء العصور الجرداء )) مثلما وصفهم الإبراهيمي ، الذين يعتبرون التاريخ علماً لا طائل من ورائه ، مجارة للغربيين الذين يعتبرون أن الأمة بأنها تعيش في الماضي ، لتجد هاته (( الفكرة السفيهة )) من أبنائها من يلوكها بألسنتهم ، تزهدا في الماضي الذي زهدت فيه الأمة أصلاً، و أصبحت تعيش بلا حاضر . و هدف أولئك جميعاً هو الخشية ، من أن تلتمس طريقها نحو الحاضر و المستقبل ، من بعض المحطات الزاهرة التي يحفل بها الماضي .

في العالم ، أما أخباره فقد وردت في الشعر و الشعراء ، و المؤلف و المختلف ، و الأغاني ، و تاريخ دمشق لإبن عساكر، و أمالي القالي، و خزانه الأدب . زبير دراقي ، المرجع السابق ، ص ص 163 - 164 .  
 (\*) - عنتره : هو عنتره بن شداد العبد الأسود ، ولد في نجد حوالي سنة 525 م ، من أب شريف ينتسب إلى قبيلة عيس بن بغيض القيسية ، و أم أمة حبشية إسمها زبيبة سباهها عمرو - و قيل معاوية - بن قرادى في إحدى غاراته . عاش طفولته مستعبداً ، و لما قوي عوده و أشد ساعده و أظهر ما جعله فارساً من فرسان العرب المعدودين ، لقب بـ : " عنتره الفوارس " . و شجاعته هي التي أتاحت له فرصة الإنتعاق حين أغارت جماعة من طيء على عيس و إستاقت إبلهم ، فأبلى البلاء الحسن ، و قاتل الأعداء ، و قهرهم و أسترجع إبل قومه فأعترف به أبوه و أحقه بنسبه . شارك بعدها في الكثير من الحروب و الغزوات . توفي نحو سنة 516 م ، عن عمر تسعين سنة ، و قيل مات مقتولاً في إحدى غاراته ، له ديوان في نحو 1500 بيت . زبير دراقي ، المرجع نفسه ، ص 150 و ما بعدها

(\*\*) - السموأل : هو السموأل بن العريض بن عادياء ، ضربت به العرب المثل في الوفاء حين قالت : ((أوفى من السموأل ، حيث تزعم الأسطورة أن امرئ القيس الكندي ، إستودع لديه دروعه ، لما أراد الخروج إلى الشام لملاقاة قيصر الروم ، و بعد أن هلك جاء الحارث بن ظالم المري يطلبها ، فتحصل السموال في حصنه ، و قد تصادف أن بقي إبنه خارج الحصن ، فأخذ الحارث رهينة و هدده بقتله إن لم يسلم له الوديعة، لكنه فضل موت إبنه ذبحاً أمام عينه على التفريط في الأمانة ، و وفى بالعهد خلافاً لعادة اليهود ، و أعاد الدروع إلى ورثة أمريء القيس . ينظر زبير دراقي ، المرجع نفسه ، ص ص 208 - 209 .

و لأجل ذلك دافع بشدة ، عن ثقافة عربية إسلامية، يكون جوهرها التاريخ العربي الإسلامي المشرف ، الذي لا يستطيع أي مصلل أو منكر، أن يغطي عليه أو يحوه ، و الذي هو موضع حسد من قبل الأمم في كل العصور ، بتعريفه للأجيال الصاعدة حتى تتشبع به، فتقتدي بمثله و إنجازاته العظيمة : (( و ما لنا و للغاش و الناصح ! إنا لنا ماضيا عبقريا حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن جرّضت به الأمم الخوالي . فمن مصلحتنا وحدنا أن نحي ذكرياته في نفوسنا و أن نستمد منه قوة لأرواحنا و أن نربي ناشئتنا على احتذائه مثله و عبقرياته . و إن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك))<sup>(1)</sup>.

و بهذا يكون الشيخ البشير الإبراهيمي، من الدعاة و المفكرين و الكتاب، الذين طرحوا قضية إحياء و تجديد الثقافة العربية و الإسلامية، بوصفها مشروعاً ممكناً داخل التراث الإسلامي، الذي و رغم كل شيء ما يزال قابلاً للحياة، ففيه الكثير من الوجوه الإيجابية التي يمكن استثمارها و تنميتها ، لتوظيفها في الواقع المعاصر . مناقضا لخطاب التجديد ، الذي قاده المستشرقون ، الذين تبنا وجهة النظر الغربية<sup>(2)</sup> ، التي روجت بكل الطرق و الأساليب ، لفكرة طرح التراث العربي الإسلامي جانبا ، و إحداث القطيعة معه ، لكونه لم يعد برأيها صالحاً لهذا العصر ، و أن التفكير في بعثه من جديد و لو بدراسته و تمحيصه تمحيصاً علمياً ، عملية عبثية و مضیعة للجهود و للوقت . لكنها لا تستطيع أن تبرر ، نجاح التجربة في الكثير من الأمم المتقدمة و منها الغربية نفسها ، رغم الفارق الشاسع بينها و بين الأمة العربية و الإسلامية في هذا الجانب ، حيث يعد تراث هذه الأخيرة أكثر ثراءً بشهادة المفكرين و المستشرقين الغربيين أنفسهم .

و نافلة القول ، أنه لا مناص للأمة من أن تعيد لمتقفيها الاعتبار ، و تمكنهم من زمام القيادة ، على حد ما ذهب إليه الإبراهيمي ، إن هي أرادت فعلاً أن تتهج النهج السليم نحو التطور و التقدم ، تماماً مثلما كان عليه الحال في العصور الإسلامية الزاهرة ، أين كان بيت

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 330 .

(2) - أنور أبو طه، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 23 .

واحد من الشعر كافيا ليطفئ فتنة أو يثير حربا ، و سببا في انتصار جيش و هزيمة آخر (1) .  
و في المقابل من ذلك يتعين على المتقنين ، أن يثبتوا جدارتهم باللقب الذي يحملونه، من كل  
الجوانب ؛ العلمية و الفكرية و الثقافية و الأخلاقية . و عليه فإن استعادة مكانتهم الريادية ،  
ينبغي أن تكون عن طريق الكفاءة و الأهلية ، و ليس التزلف و الاستجداء و المكافأة ، مثلما  
أصبح عليه الأمر في قرون التخلف و الانحطاط .

#### 04- التصدي للتبشير المسيحي الغربي :

ارتبط التبشير المسيحي الغربي ، في البلاد العربية و الإسلامية في القرون الأخيرة  
بالحركة الاستعمارية ، و قد استهدف المنطقة من ثلاثة محاور : فأما المحور الأول ، فهو  
الجانب الفكري بغرض السيطرة عليه ، عن طريق زرع القيم السلبية ، و تجريده من القيم  
الإيجابية، التي تمثل خطرا على المصالح الغربية . في حين يتمثل المحور الثاني؛ في الجانب  
الطبي العلاجي و التعليمي و الإنشائي ، بسبب حاجة المسلمين الماسة إليه ، فوفروا إطارات  
ذات تكوين و كفاءة عاليين في هذا المجال ، و بوأوهم الصدارة في المجتمع . أما المحور  
الثالث؛ فيتمثل في الجانب الاجتماعي في مجالات عدة ، خاصة و أن المسلمين حديثي العهد بهذا  
الميدان في ظل المتغيرات التي حدثت في بعض بلدانهم . و عليه فقد ركز الاستعماري الغربي  
على هاته المحاور الثلاثة ، موظفا كل الإمكانيات المادية و الطاقات البشرية، في سبيل إنجاح  
مخططاته التنصيرية ، حتى تحقق الأهداف الاستعمارية المرجوة (2) .

و لقد أكد الشيخ البشير الإبراهيمي هاته الحقيقة ، بقوله أن التبشير بصورته الحالية ، إنما  
هو نتيجة من نتائج التعصب المسيحي ، الذي يستند إلى قوة السلاح ، و أنه ثمرة من ثمرات  
تلحم القوة الطاغية ، التي تبرر أعمالها السلبية بالحرية الدينية، أو الفكرية أو الاقتصادية  
( التجارية ) ، و أنه وسيلة من الوسائل السياسية ، يلبس لباس الدين و يتمظهر بمظاهر  
كهنوتية ، منحتة السياسة مرتبة طلائعية ، ليمهد لها طريق الاحتلال ، مستفيدا من كل أنواع  
الدعم و المساعدة و الحماية و الرعاية . و كانت النتيجة أنه تمكن من الانتشار في كل البلدان

(1) - أورد الإبراهيمي عددا من الأمثلة، عن قيادة المتقنين للأمة في العصور الإسلامية الأولى . ينظر :

الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 379 - 380 .

(2) - صابر طعيمة ، المرجع السابق ، ص ص 179 - 180

والأقطار، التي أضحت أوطانه بتأطير من الجهات السياسية الرسمية ، باسم الحرية و إنقاذ الإنسانية<sup>(1)</sup> .

حيث لعب التبشير دورا هاما في التوسع الأوروبي ، خاصة بعد الاكتشافات الجغرافية، بمساهمة عدد كبير من الجهات الدينية التبشيرية الأوروبية . و عمل على تثبيت النفوذ الديني و الاقتصادي و السياسي خارج قارة أوروبا ، و قد وجدت تلك الجمعيات الدينية، المجال فسيحا أمامها ، بفضل تلك المساعدات السخية، التي كانت تحصل عليها من الحكومات الغربية ، هاته الأخيرة كانت في الغالب تعتمد على رجال الدين، لما يتوفرون عليه من قدرات و مؤهلات خاصة ، تسمح لهم ببيت النفوذ السياسي<sup>(2)</sup> .

و يجدر التذكير هنا ، أن المبشرين المسيحيين أنفسهم ، لما رأوا أن الجهود الفردية في نشر مذاهبهم الدينية المسيحية بين المسلمين قليلة الجدوى ، التفتوا إلى طرق أحسن و أكثر تأثيرا ، فتوجهوا إلى حكوماتهم جاعلين أنفسهم و الدين، أداة طيعة في يد دولهم الاستعمارية . و بطبيعة الحال انتهزت تلك الدول الفرصة ، و قدمت لهم المساعدة - ليس لأن لها الغيرة على الديانة المسيحية - ، و إنما لأنها كانت ترغب في أن تستغل المبشرين و الدين - على حد سواء - ، لتحقيق أهدافها السياسية و الاقتصادية<sup>(3)</sup> .

و يظهر لنا أن الإبراهيمي ، من خلال قوله أن التبشير هو نتيجة من نتائج التعصب المسيحي ، أنه يشير إلى العلاقات الإسلامية المسيحية ، التي سبقت الحركة التبشيرية في العصور الحديثة ، و نعني بها ما عرف بالحروب الصليبية التي جرت في العصور الوسطى، تلك الحروب كان سببها في الظاهر ، تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في جوهرها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامي ، بما يحوز عليه من مقدرات اقتصادية و مواقع إستراتيجية ، هذا باعتراف عدد معتبر من الكتاب الغربيين ، الذين أجمعوا على أنها لم تكن حروبا لإنقاذ المدينة المقدسة ، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام ، و لما خاب مسعاها ، لجأت إلى

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 مصدر سابق ، ص 196

(2) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 11 .

(3) - مصطفى خالدي ، عمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ( عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي ) ، ط 5 ، المكتبة العصرية ، بيروت - صيدا : 1973م ، ص

حرب صليبية جديدة عن طريق التبشير، مستخدمة الكنائس و المدارس و المستشفيات، و المبشرين الذين نشرتهم في كل مكان (1).

و زيادة على ذلك ، فقد أسقط الإبراهيمي عن التبشير المسيحي الغربي ، صفة "الإنساني" بمعناه الحقيقي ، و أقر بأنه أداة موجهة لخدمة مصالح الاستعمار لا غير . و في هذا الصدد أعطى مثالا بالجزائر ، فاعتبر أن الكاردينال " شارل لافيجري" ( CHARLES LA VIGERIE ) (\*)، هو الواضع الأول لأساس التبشير المسيحي بها ، ممهدا الطريق للجمعيات التبشيرية التي جاءت بعده ، و التي استفادت من أموال ضخمة كانت تضخها إليها الحكومات الفرنسية، التي تدعي أنها لائكية ( لا دينية ) ، بالإضافة إلى تبرعات الأغنياء المسيحيين ، و الخدمات الخيرية التي كان يقوم بها رجال الدين . و قد راعت تلك الجمعيات الجوانب الاجتماعية و النفسية، في اختيارها لمواقع المراكز التبشيرية ، و من أهمها مركز " ورقلة " في الجنوب ، و مركز " بني اسماعيل " و مركز " إيغيل علي " قرب بجاية، و مراكز أخرى في بلاد القبائل ( زواوة ) ( 2 ) .

(1) - ينظر مصطفى خالدي، عمر فروخ ، المرجع السابق، ص 114 وما بعدها .  
 (\*) - شارل لافيجري ( CHARLES LAVIGERIE ) : خلف الأسقف " بافي " على رأس الأسقفية بالجزائر في أواخر سنة 1866م ، باقتراح من الجنرال " ماكماهون " ( MAKMAHON ) على " نابليون الثالث " ( NAPOLEON III ) . يعد أبرز الوجوه التبشيرية المسيحية في الجزائر وفي إفريقيا ، اعتبر الجزائر بوابة التبشير في إفريقيا ، كان يرى أن التصير يتم بوسيلتين أساسيتين هما : الأعمال الخيرية التبشيرية ، و إنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان . استغل مجاعة 1867م - 1868م أحسن استغلال لتنفيذ مشروعه في أرض الواقع ، فأنقذ الكثير من المرضى والجياح من الهلاك باسم الصليب ، وقد وجد نشاطه صدى لدى بعض العسكريين . أسس عديد الفرق الدينية من الرهبان والراهبات ، لمعالجة الأطفال المصابين بوباء " الكوليرا والتيفوس " و " الجدري " ، ركز جهوده على الأيتام الصغار . مما قاله أن تمسك العرب بالديانة الإسلامية يعد تعصبا أعمى ، وهو السبب في شقائهم . للمزيد ينظر خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 105 وما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 196 - 197 .

فمن المعلوم أن الكثير من الجمعيات التبشيرية، قد توافدت على الجزائر بعد الاحتلال ، أغلبها كاثوليكية و البقية بروتستانية ، منها النسائية و الرجالية ، أهمها: جمعية " الآباء اليسوعيين " ( les jesuites ) (\*) ، و أخوات " القديس جوزيف دي لبارسيون " (sœurs de st-joseph de l'apparitions) (\*\*\*) ، " الراهبات الثالوثيات " ( Les religieuses trinitaires ) (\*\*\*) ، " أخوات العقيدة المسيحية " ( Les sœurs de la doctrine chretienne ) (\*\*\*\*) .

(\*)- جمعية " الآباء اليسوعيين " ( Les jesuites ) : عمل البعض منهم كمرشدين في الجيش الفرنسي ، أوكلت لهم مهمة الإشراف على ملجأ اليتامى الأوروبيين " ببن عكنون " سنة 1842م ، في حين كان البعض الآخر منهم يتجول في المراكز الريفية لتأدية الشعائر الدينية ، وإلقاء الدروس التبشيرية ، كما استقر فريق منهم في قسنطينة، بغرض القيام بالتطبيب والإرشاد في المستشفى الإسلامي ، أسسوا عدة مدارس في وهران والجزائر من 1830م إلى 1904م .محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (دراسة تاريخية تحليلية) ، د ط ، منشورات دحلب ، الجزائر : 1997م ، ص 35

(\*\*)- " أخوات القديس جوزيف دي لبارسيون " Sœurs de st-josrph de l'apparitions : جمعية تبشيرية نسائية وفدت إلى الجزائر سنة 1835 ، تركز نشاطها في كل من الجزائر العاصمة و عنابة ، حيث إهتم أعضاؤها بتربية اليتيمات الأوروبيات ، و بسبب خلاف بين رئيسة الجمعية و المطران " دبش " ، اضطرن إلى مغادرة الجزائر ، و الاستقرار بتونس بصورة نهائية . محمد الطاهر وعلي، المرجع نفسه ، ص 35 . نقلا عن ,TURIN YVONNE ,REVUE HISTORIQUE , N 496 PARIS ,PUF , OCT – NOV 1970 P. 329 .

(\*\*\*)- " الراهبات الثالوثيات " ( Les religieuses trinitaires ) : جئن إلى الجزائر يوم 26 نوفمبر 1840م ، حيث كان إستقرارهن في وهران ، و اشتغلن بمهمة التعليم، إذ تكفلن إبتداء من سنة 1849م بالإشراف على إدارة المدارس البلدية ، إلى أن صدر قانون أكتوبر 1880م الذي حضر على أعضاء الجمعيات التبشيرية ممارسة التعليم في المدارس الرسمية الفرنسية بالجزائر . محمد الطاهر وعلي، المرجع نفسه ، ص 35 . نقلا عن: MGR REPETCCI : L'ALGERIE CHRETIENNE (1830 – 1930 ESQUISSE HISTORIQUE , ALGER ,LIB ANOSTRE DAME . SD . P 52 – 98 .

(\*\*\*\*)- " أخوات العقيدة المسيحية " ( Les sœurs de la doctrine chretienne ) : جئن إلى الجزائر في شهر ماي 1848م، استجابة لدعوة تلقينها من المطران " دبش " ، في البداية اشتغلن بالتعليم في الجهة الشرقية من البلاد ( قسنطينة ، عنابة ، سكيكدة ) ، ثم في الجهتين الوسطى و الغربية ، حيث تمكن من إقامة 18 مؤسسة تعليمية تبشيرية بين مدرسة و ملجأ لليتام في كل أنحاء البلاد . محمد الطاهر وعلي، المرجع

" أخوات القديس فانسان دي بول " ( les soers de st vincent de paul ) (\*) ، " راهبات الباستور الطيب " ( les religieuses du bon pasteur ) (\*\* ) ، " راهبات القلب المقدس " ( les trappistes de ) "جمعية الترايست" (\*\*\*) ، " أخوان القديس جوزيف دي مانس " ( les freres de st-joseph du ) (\*\*\*\*) ، " أخوان القديس جوزيف دي مانس " ( mans ) (\*\*\*\*\*) ، ... و غيرها من الجمعيات التبشيرية (1) .

السابق ، ص ص 35 - 36 . نقلا عن : MGR REPETCCI , IBID , P P 77 - 78 .

(\*) - " أخوات القديس فانسان دي بول " ( Les sœurs de st vincent de paul ) : أشرفن على إدارة شؤون التعليم الحكومي في العديد من مناطق البلاد ، و لقد إستقر فوج منهن في بسكرة إبتداء من سنة 1868 م . محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 36 . نقلا عن : MGR REPETCCI, IBID, P 86  
 (\*\* ) - " راهبات الباستور الطيب " ( Les religieuses du bon pasteur ) : قمن بتأسيس ملجأ الباستور الطيب في مدينة الجزائر سنة 843 م ، و معبدتين الأول في مسرغين بوهران سنة 1850 م ، و الثاني في قسنطينة سنة 1855 م . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 . نقلا عن ، MGR REPETCCI , op-cit , p .94

(\*\*\*) - " راهبات القلب المقدس " ( Les religieuses de sacre cœur ) : قمن بإنشاء مدرسة للتكفل ببنات ضباط الإحتلال في العاصمة ، و أخرى للبنات الفقيرات . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 ، نقلا عن MGR REPETCCI op - cit p 98

(\*\*\*\*) - " جمعية الترايست " ( Les trappistes de staoueli ) : وفد أعضاؤها إلى الجزائر سنة 1843 ، وقد تم منحهم ديرا في اسطوالي بضواحي مدينة الجزائر ، كما إشتغلوا بالزراعة و تربية الحيوانات ، و قد بلغ عدد رهبانها 108 راهبا . محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 36 . نقلا BAUDIVOUR LOUIS: DE COLONISATION SES ELEMENTS , PARIS , LIB DU CENTRE ALGERIEN , 1956 , PP.424 . 425 . 234 .

(\*\*\*\*\*) - " أخوان القديس جوزيف دي مانس " ( Les freres de st joseph du mans ) : استقر أخوان القديس جوزيف دي مانس في كل من عنابة و سكيكدة و وهران في 843 م و 1844م ، حيث تولوا إدارة المدارس البلدية بها . عبد الحميد زوزو : نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر ، م و ك ، الجزائر : 1984م ، ص 233 .

(1) - ينظر محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 34 و ما بعدها .

و في حقيقة الأمر، أن الكاردينال " شارل لا فيجيري " ( charles la vigerie ) قبل أن يبدأ نشاطاته التنصيرية في الجزائر ، كانت له اتصالات بنصاري الشرق سنة 1860 م لما زار بلاد الشام ، حاملا لهم معه إعانات جمعت لهم في أوروبا، لمساعدتهم في الحرب الطائفية التي نشبت بينهم و بين الدروز، و أثناء عودته مر بالفاتيكان و عمل على تحريض البابا لكي يقدم الدعم للتبشير في العالم الإسلامي (1) .

أما في الجزائر فقد قاد التنصير ، من أجل تعزيز المكاسب الاستعمارية ، معتبرا البلاد بوابة إفريقيا في التبشير ، مصرحا أن القرآن - الذي وصفه بشريعة الكذب و الأخلاق - و الإسلام أشد عدوا للديانة المسيحية ، و منه فإن الواجب يفرض عليه محاربتهما عن طريق الأعمال التبشيرية، و بكافة الطرق و الوسائل ، و قد وصل به الأمر حد استغلال المجاعات و الكوارث العديدة التي عرفت الجزائر ، و منها مجاعة 1867 م - 1868 م (\*) ، أين استغل الأوضاع المأساوية للمرضى و الجياع ، و سارع إلى إنقاذهم باسم فرنسا و الصليب ، و جمع حوله ما يناهز ألف و ثمانمائة طفل بين مشرد و مريض ، و قام بتوزيعهم على مختلف

(1) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 110 .

(\*) - مجاعة 1867 م - 1868 م : كانت من أكثر المجاعات خطورة ، من حيث نتائجها الديموغرافية ، و تداعياتها السلبية على واقع و مستقبل المجتمع الجزائري ، فقد اعتبرها البعض بأنها : (( الكارثة الأكبر ضخامة في تاريخ الجزائر )) ، بدأت سنة 1866 م ، بلغت ذروتها سنة 1867 م ، استمرت إلى غاية 1870 م . أما أسبابها فتتمثل توالي موسم الجفاف منذ مطلع سنة 1864 م ، و زحف أسراب الجراد نحو المناطق الشمالية الخصبة ، بالإضافة إلى السياسة الاستعمارية الفرنسية القائمة على مصادرة أراضي الجزائريين الخصبة على نطاق واسع ، و تنويع الضرائب و رفع معدلاتها، الأمر الذي أثقل كاهل المجتمع الجزائري ، حيث هلكت الثروة الحيوانية، و انتشرت الأوبئة و الأمراض الفتاكة ( الكوليرا ، التيفوس ) ، و هلك آلاف الأشخاص، لدرجة كانت فيها الجثث متناثرة في كل مكان و لا تجد من يدفنها . أما الذين سلموا من الموت، فقد نزحوا إلى كل مكان فرارا من العدوى و بحثا عن الطعام ، و منهم من اضطرته الظروف إلى أكل الحشائش و الأوراق و حتى لحوم الكلاب . ينظر رمضان بورغدة : " أضواء جديدة على المجاعة و تداعياتها على المجتمع الجزائري في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر " ، مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : العدد 05 / أوت 2003 م ، ص 135 و ما بعدها .



المراكز و الملاجئ، التي أنشأها بغرض المعالجة و التنصير (1) .

إن أغلب تلك المراكز التبشيرية ، التي ذكرها الشيخ الإبراهيمي فيما سبق، تقع في بلاد القبائل ، هاته الأخيرة عبارة عن مناطق جبلية شرق الجزائر العاصمة ، انصب اهتمام المبشرين عليها دون غيرها من مناطق البلاد ، نظرا لخصوصيتها البشرية و الجغرافية ، التي تؤهلها لأن تلعب دورا مؤثرا و مباشرا في - مجريات الأحداث - و تطورات الأوضاع و التوجهات المستقبلية للجزائر ، خدمة للمخطط الاستعماري الفرنسي الذي يرمي إلى : (( محاصرة التوجهات الوطنية الجزائرية ، و نسف إطارها الحضاري العربي الإسلامي و إضعاف الحس الوطني الرفض لكل تبعية أو تجزئة ، تتعكس آثاره على الواقع الجزائري )) .

إذ تم فتح العديد من مدارس الإرساليات التبشيرية ، و شيدت الكنائس و وجه نشاطها للأعمال الخيرية و تقديم الخدمات الاجتماعية، لربطها بالواقع السكاني هنالك ، و قد قارب عددها ثلاثين كنيسة ، فتح القائمون عليها بها سبعة عشرة مدرسة بها عشرات الأقسام ، تحت إشراف عدد معتبر من الرهبان و الراهبات (2) ، إضافة إلى مئات المدارس الحكومية الفرنسية ، التي كانت تنتشر في كل نواحي المنطقة ، تعلم اللغة الفرنسية، و تخرس القيم الغربية .

و الواقع أن الاستعمار الفرنسي ، لم يكتف بهذا الجانب فقط في بلاد القبائل ، بل عمد إلى إلغاء العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، و عوضها بالأعراف و العادات المحلية، بعد تمكنه من القضاء على ثورة الطريقة الرحمانية التي اندلعت في المنطقة سنة 1871 م (\*) ، فتحوّلت المعاملات اليومية التي كانت من اختصاص القاضي المسلم، إلى سلطة قاضي الصلح الفرنسي ، في حين تم إلغاء مجالس الجماعة التقليدية سنة 1882م ، و تعويضها بالموثقين و قاضي الصلح الفرنسي سنة 1889م (3) .

(1) - خديجة بقطاش المرجع السابق ، ص 112 . نقلا عن J.TIQUET : UNE PETITE COLONISATION EN ALGERIE ( LES COLONS ARABES CHRETIENS DU CARDINAL LAVIGERIE, ,ALGER, 1936, P23.

(2) - ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 89 .

(\*) - ينظر يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين ، مرجع سابق .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 269 .

و قد وصفها الإبراهيمي بـ : (( قوانين زواوة الغربية )) ، معتبرا تلك الخطوة بأنها تدخل في إطار المخططات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، بدأ بتجريبها أولا في بلاد القبائل ، حيث وفر لها كل عوامل النجاح ، و منها تقوية جانب المراكز التبشيرية، و إطلاق يد مبشريها في المنطقة ، إلى حد اعتقد فيه الاستعمار أنها أضحت قوية، و لها القدرة على التأثير و التوجيه هنالك ، و أن الناس اطمأنوا إليها .

أما الغاية، التي يرمي إليها من وراء ذلك من وجهة نظر الشيخ ، هي إبعاد مجموع المسلمين عن الدين الإسلامي بصورة تدريجية ، إلى أن تضعف فيهم الحمية الدينية و عاطفة الأخوة الإسلامية ، و يتفرق شمل الأمة الواحدة و تصبح أمتين أو أكثر (1) .

و هو التوجه، الذي سارت عليه فرنسا الاستعمارية في منطقة القبائل ، رافعة شعارات تمجد سكانها ، و تعتبرهم أفضل من بقية الفئات البشرية في الجزائر ، مدعية أنهم الأجدر على استيعاب الحضارة الغربية و العادات الفرنسية ، بغية التفارقة بين أبناء الشعب الواحد (2) ، و قد انضم إلى العملية كتاب و مفكرون فرنسيون كثر ، قال أحدهم في كتاب خصصه لما اصطلح عليه المسائل القبائلية : (( بأنه يوجد في الجزائر عنصران متميزان من حيث اللغة و العادات و حتى الدين و هما العنصر القبائلي و العنصر العربي ، و يجب علينا أن نبقى على هذا التمايز و الانقسام )) (\*) .

و من زاوية أخرى يرى الإبراهيمي ، أن التبشير في الجزائر وجد جملة من الشروط الملائمة ( عددها خمسة ) ، التي كان من شأنها أن تجعل منه أكثر فعالية و نجاحا فيها، دون غيرها من الأقطار العربية و الإسلامية ، و هي :

(1) ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص ص 89 - 90 .

(2) ناصر الدين سعيدوني : الجزائر منطلقات و آفاق ( مقاربات و آفاق للواقع الجزائري من خلال قضايا و مفاهيم تاريخية ) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م ، ص 88 . نقلا عن مقران يسلي : الحركة الدينية الإصلاحية ، أطروحة جامعية ، الجزائر : 1983 م ، ص ص 299 - 300 .

(\*) - صاحب هذه المقولة هو الكاتب " إميل شارفينيا " ( E. CHARVENIAT ) ، أما عنوان الكتاب فهو : " عبر بلاد القبائل و في المسائل القبائلية " A TRAVERS LA KABYLIE ET LES QUESTIONS KABYLES ) . نقلا عن سعيدوني : الجزائر منطلقات و آفاق ، المرجع نفسه ،

1 - تقادم عهده .

2 - القوة الاستعمارية التي ترعاه ( فرنسا ) .

3 - انتشار الجهل و الأمية و الفقر ( البيئة المفضلة للجهل ) .

4 - الطرق الصوفية و مسلكها المعادي لتعليم الإسلام الصحيحة .

5 - نقاعس العلماء قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، عن مقاومة التبشير (1).

و يضيف إلى هذا التحليل قائلاً ، بأن هذا المسلك الذي سلكته الحكومات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ليس غريباً عن فرنسا ، و هي التي دأبت منذ مدة طويلة جداً ، على معاداة الإسلام و الكيد لأهله ، كما أنه لم يسجل أنها انتهجت سياسة ، أو اتخذت في يوم ما موقفاً منصفاً أو عادلاً إزاءهما (2) . و لعله يشير هنا ، إلى - كون فرنسا تعد النموذج الأكثر تعصباً - لكل ما هو إسلامي ، و قد ساهم المبشرون و رجال الدين بقسط وافر ، في تغذية تلك الروح (3) .

و على ذكر الطرق الصوفية المنحرفة ، فإن الشيخ الإبراهيمي ، لم يحملها فقط مسؤولية التمكين للتبشير التصيري في الجزائر ، بل اعتبرها المسؤولة أيضاً ، عن انتشار آفة أخرى لا تقل خطورة عن التصير و هي آفة الإلحاد ، بفعل تفشي الخرافات و الأضاليل ، التي كانت تنتشرها في أوساط المجتمع الجزائري ، خاصة لدى الشباب الذين تلقوا تعليماً أوروبياً ، و يجهلون حقائق الدين الإسلامي . و العلة في ذلك أنهم يحملون مبكراً فكرة خاطئة؛ هي أن تلك الانحرافات الطرقية هي الدين ، و أن أصحابها هم رجال الدين ، فإذا بلغوا مرتبة أعلى في العلم و العقل لم يستسيغوها فينكرونها ، و الحق معهم ، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى إنكار الدين جهلاً و ظلماً ، و هي واحدة من جنایات تلك الطرق الصوفية على الدين الإسلامي .

و يضيف إلى ذلك أسباب أخرى ، لا تختلف عن أسباب شيوع التصير ، و منها المدارس اللائكية ، التي تزيد من نفور النشء مما تعلموه من أهلهم ، فيتطور ذلك إلى احتقار

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص ص 196 - 197 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 339 .

(3) - أحمد عبد الرحيم السايح: في الغزو الفكري ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، قطر : 1414 هـ ، ص 149 .

لكل ما هو مخالف لتلك الحقائق التي يتعلمونها، وفق برامج و مناهج دراسية دقيقة ، و ينتهي الأمر بما هو أخطر من ذلك ، و هو احتقار الدين ، و من ثم الولوج إلى عالم الإلحاد .  
و منها أيضا، ضعف معرفة الآباء و الأقارب لتعاليم الدين الإسلامي الصحيحة ، فأغلب ما يعرفونه عبارة عن خرافات و بدع ، تعلموها عن الطرق الصوفية الفاسدة ، زيادة على كونهم يغفلون أو يتقاعسون عن تربية أولادهم تربية دينية صحيحة ، و عن تنشئتهم تنشئة تقوم على احترام الدين، و المواظبة على إقامة شعائره من الصبا ، لأن ذلك من شأنه أن يكون سدا منيعا أمام المؤثرات الوافدة (1) .

و بناءا عليه، فإننا نلاحظ بأن الشيخ البشير الإبراهيمي ، أراد أن يؤكد بأن الاستعمار الفرنسي، وظف التنصير و الإلحاد لصالح أهدافه السياسية و الاقتصادية ، مستغلا في ذلك الجهل و الأمية ، و الانحرافات الدينية الناجمة عن الفهم الخاطئ للدين الإسلامي ، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية المزرية ، التي بلغت من الخطورة حد تهديد المجتمع الجزائري في حياته و وجوده ، مثلما حدث في مجاعة أواخر الستينات من القرن التاسع عشر التي سبق الحديث عنها .

كل ذلك بتزكية و تغطية من المسيحية، التي تقف وراء التنصير و الإلحاد ، و تعمل على التمكين لهما في البلاد الإسلامية و منها الجزائر ، و تحارب الإسلام بكافة الطرق و الوسائل ، و لذا فإن الشيخ يعد المسيحية و الاستعمار؛ جسما واحدا لا يمكن التفريق بينهما ، و يتنبأ بنهاية الديانة المسيحية على يد الاستعمار : (( من أراد الحقيقة في كلمة واحدة فهي ، أن المسيحية هي الاستعمار ، و سيأكلها يوم لا يجد ما يأكله )) (2) .

إذ أن كل الباباوات الذي تعاقبوا على كرسي البابوية في الفاتيكان ، كانوا يرون في عودة المسيحية إلى الجزائر أمرا ضروريا ، فهي؛ من ناحية تعد القاعدة التي ينطلق منها المبشرون نحو بلدان إفريقيا السوداء ، و من ناحية أخرى تمثل المنفذ الذي يتسرب من خلاله المبشرون لإنجاز هدفهم ، المتمثل في محاربة الدين الإسلامي في تلك الأصقاع (3) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 195 ، 192 ، 194 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 128 .

(3) - محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 200 .

و الأمثلة على ذلك كثيرة ، و منها البابا " بيوس التاسع " ( PIE IX ) (\*) ، الذي أظهر حماسا شديدا للمخططات التبشيرية، التي عرضت عليه عن الجزائر و إفريقيا ، معتبرا التبشير عملا يستهدف إحياء الحروب الصليبية ، و لهذا قدم كل التشجيعات للكاردينال " شارل لافيغري " ( CARDINAL CHARLES LA VIGERIES ) ، و لم يكتف بمباركة أعماله فحسب ، بل شجع الأوروبيين في كل من فرنسا و بلجيكا، على تقديم العون للكاردينال ، عن طريق تبني أطفال جزائريين ، كما منحه مساعدة مالية لصرفها على مشاريعه التبشيرية في الجزائر<sup>(1)</sup> .

و يلخص لنا محمد الطاهر وعلي<sup>(2)</sup> ، موقف الفاتيكان من التبشير في الجزائر في النقاط التالية :

- 1 - مباركة كل ما يمكن أن يقوم به المبشرون في ميدان التصير ، ما يخدم ذلك يخدم الكاثوليكية و المصالح الأوروبية عموما .
  - 2- أن الفاتيكان أعطى بعدا أوسع للتبشير في الجزائر ، و ذلك بنقل هذا التبشير إلى إفريقيا ، عن طريق المتحمس الأول لهذه الأمة - الكاردينال لافيغري - و تشجيعه إلى إيفاد البعثات التبشيرية إليها، و تنصيب مراكز للتبشير في أقطارها .
  - 3 - أن سلطات الفاتيكان، لم تتوان في دعوة الأوروبيين، إلى مساعدة المبشرين في خدماتهم التصيرية ، مثيرين بذلك فيهم الروح الصليبية التي يرغبون في إحياءها ، بغية محاربة الدين الإسلامي .
  - 4 - إباحة كل الوسائل للتبشير في الجزائر و في إفريقيا ، بما فيها السلاح إذا اقتضت الضرورة ، كما كان بالنسبة لإخوان الصحراء الذين تم تسليحهم .
- و هكذا يتضح لنا الدعم المعنوي و المادي الكبير ، الذي كان يحضاه به التبشير و المبشرون المسيحيون، من الفاتيكان أعلى سلطة دينية في الديانة المسيحية بشكل خاص ، و من الحكومات والشعوب الأوروبية بشكل عام ، لذا نجد الشيخ البشير الإبراهيمي يستغرب

(\*) - البابا " بيوس التاسع " ( PIE IX ) : ترأس الفاتيكان من 1846 م و إلى غاية 1878 م .

(1) - ينظر محمد الطاهر وعلي ، المرجع السابق ، ص 199 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 197 .

كيف أن المسلمين يقابلون التبشير بالأقوال الحماسية البليغة ذات الحجة القوية ، و التي لا تتعدى في أحسن الأحوال التحذير من دسائس المبشرين و مكائدهم ، متناسين أن المال هو السلاح الفاصل في هاته القضية .

و يسترسل في هذا الصدد ؛ فيتساءل كيف يستطيعون مقاومة الجمعيات التبشيرية المنظمة، التي تقف خلفها أمم غنية تغدق عليها بالأموال ، مجهزة بجيوش كبيرة من الرهبان و الراهبات و الأطباء و المرضى ، المسلحين بالأخلاق العالية و الصبر و الثبات ، و الإيمان القوي بسمو و نبل ما يقومون به .

و إذا كان هذا هو حال أغنياء أوروبا؛ بذل و عطاء في سبيل إنجاح التبشير ، فإن العكس بالنسبة لأغنياء المسلمين في اعتقاد الشيخ الإبراهيمي ، حيث يفترض أنهم لو كانوا يتصفون بجزء يسير مما يتصف به نظراؤهم الأوروبيون ، لقضوا نهائيا على ظاهرة التنصير الكاذب و لعلم الإسلام كل العالم ، مع العلم أن الإسلام يحثهم على ذلك ، لكن أين هم منه ينهي كلامه متسائلا ؟ : (( و لو أن عند أغنياء المسلمين بعض ما عند هؤلاء من سماحة اليد في سبيل الدين ، لطووا هذا التبشير الزائغ و لنشروا الإسلام في أقطار الأرض كلها، و أن دينهم يأمرهم بهذا ، لكن أين هم من دينهم ؟ )) (1) .

الملاحظ أن الإبراهيمي ينتقد بسخرية ، تحمس المسلمين للوقوف في وجه المد التنصيري و هم ممسكون عن التبرع بالمال ، الذي يعد الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الخدمات التبشيرية ، فبواسطته تنشأ المراكز التبشيرية ، و تبنى المدارس التنصيرية ، و تبتاع الأراضي ، و يعال الأطفال اليتامى الذين يتم إيوؤهم في تلك المراكز أو الملاجئ ، و يغرون للمجيء إلى تلك المؤسسات (\*) (2) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 197 .

(\*) - قسم " محمد الطاهر وعلي " في كتابه " التعليم التبشيري في الجزائر 1830 م - 1904 م " ، ص 148 و ما بعدها ، مصادر تمويل التعليم التبشيري في الجزائر ، أثناء الاحتلال إلى ثلاثة مصادر و هي :

1- المساعدات الرسمية ( من طرف الدولة الفرنسية ) .

2- التبرعات ( من قبل شخصيات و منظمات و دول ) .

3- مداخيل الزراعة ( العائد من الأراضي التي يزرعها المبشرون ) .

(2) - محمد الطاهر وعلي ، المرجع نفسه ، ص 148 و ما بعدها .

و إذا بدا لنا الإبراهيمي، خائفاً من استمرار المسلمين ، في تقاعسهم عن التصدي للمخططات التبشيرية الغربية في بلادهم ، كما مر بنا ، فإننا نجده في المقابل من ذلك متفائلاً بفشل تلك المخططات ، مرجعاً ذلك إلى قوة الإسلام كدين يدعو إلى نفسه بنفسه ، لروحه السامية ، و حقيقته التي تجعله باستمرار محل قبول على مستوى العقول و الأنفس ، و هي العوامل التي مكنته من الوصول إلى الأقطار البعيدة دون دليل ، في كل من وسط و جنوب إفريقيا ، و في وسط و شرق آسيا ، و من الدخول إلى شرق أوروبا مع الفتوحات العثمانية ، كما دخل جزءها الغربي قبل ذلك مع الفتوحات التي قامت بها الدولة الأموية ، و كما دخل جنوبها خلال الفتوحات القيروانية .

اقتحم أذهان شعوب تلك البلدان، في يسر و سهولة ، فانغرس فيها ؛ ليس لقوة الفتوحات ، لأن الفتح في الإسلام لم يقم في يوم من الأيام على الإكراه على الدين ، و إنما لـ : (( طبيعته و يسره و لطف مدخله على النفوس و ملاءمته للطرة و الأذواق و العقول )) . و في هذا يذهب الشيخ البشير الإبراهيمي ، إلى أن الإسلام لو بقي على تلك الروحانية القوية والنورانية، و لو لم يتعرض إلى ما تعرض إليه من فساد و انحراف من قبل أهله ، بما أدخلوا عليه من بدع و ضلالات ، لجعل منهم القوة الأولى على الساحة العالمية ، لكن الواقع غير ذلك و قد عبر عنه بقوله : (( ... و لكنهم أفسدوه و اختلفوا فيه ، و فرقوه شيعا و مذاهب ، فضعف تأثيرهم به ، فضعف تأثيره فيهم ، فصاروا إلى ما نرى و نسمع )) (1) .

ومن المؤكد أن الإبراهيمي ، حاول من هنا أن يلفت نظرنا إلى قضية في غاية الأهمية ، و هي أن ازدهار التبشير في البلاد العربية و الإسلامية ، ليس بفعل ضعف الإسلام كعقيدة و عدم قدرته على الاستمرار في الإقناع ، و إنما بسبب الضعف العام الذي أصاب العرب و المسلمين .

و من هذا المنطلق، فإن الأساليب التبشيرية قد أضرت بالدرجة الأولى بالمجتمعات العربية و الإسلامية ، و أصبحت عاملاً معوقاً لتقدمهم ، من خلال المراهنة على اقتلاع الإسلام من النفوس أولاً ، فإن تعذر ذلك، إبعاد المسلمين عن الإسلام كحل ثان دون الحاجة إلى إدخالهم في المسيحية ، هذه الإستراتيجية عبر عنها صراحة المبشر المسيحي القس الأمريكي " صمويل

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 385 .

زويمر " بقوله : (( لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل أو ييأس أو يقنط ، عندما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية ، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم .. عندما تذبذب مسلما ، و تجعل الإسلام يخسره ، تعتبر ناجحا أيها المبشر المسيحي ، يكفي أن تذبذبه و لو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا )) (1) .

وبالنظر إلى ما تم عرضه، بشأن التبشير المسيحي في البلاد العربية و الإسلامية ، نصل إلى أن الشيخ البشير الإبراهيمي، حاول التصدي للظاهرة ؛ من خلال تبيان حقيقتها و الوسائل التي تستند إليها ، و أيضا بتحذير المجتمعات العربية الإسلامية من خطورة التساهل معها أو استصغارها ، و بدعوتهم إلى إحياء العقيدة الإسلامية في نفوسهم ، التي اعتبرها العامل الوحيد لبلوغ القوة و السيادة و الازدهار .

تلکم العقيدة التي عمل المبشرون المسيحيون، على استهدافها بكل الوسائل ، و بشتى الطرق و الأساليب ، لأنها مصدر القوة و الوحدة بالنسبة للمسلمين ، و الخطر على المصالح الاستعمارية الغربية على حد قول المبشر " لورانس براون " : (( إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم و خطرا ، أو أمكن أن يصبحوا نقمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن و لا تأثير )) (2) .

(1) - أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 145 و ما بعدها .

(2) - المرجع نفسه ، ص 146 .



**المبحث الثالث : شروط نهضة العرب والمسلمين عند أرسلان .**

إذا كانت أسباب تخلف العرب و المسلمين، في تقدير الأمير شكيب خمسة أيضا مثلما ذهب إليه الإبراهيمي وهي: العلماء المعطلون للرقى العلمي ، الجمود و الجحود ، فساد الحكام ، ضعف الروح القومية و الخيانة ، عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل . فإنه يرى أن المشروع النهضوي، و إن كان الطريق إليه ليس سهلا ، فإنه ممكن التحقيق ، إذا توفرت جملة من شروط حددها في أربعة و هي : أخذ العبرة من الماضي الذي قصد به العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، ثم إقحام غمار العلوم و الإقتصاد اللذان يعدان حسبه السبيلان الوحيدان لبلوغ النهضة الصناعية و الزراعية ، التحلي بالإرادة و روح التضحية الصفتان اللتان إفتقد إليهما العرب و المسلمون المتأخرون الذين سرت في أنفسهم روح الهزيمة و الضعف ، و في الأخير تأتي الموازنة بين العقيدة و العلم تأسيا بالتجربة العربية الإسلامية أثناء عصور الإزدهار الأولى، و بالتجارب الحديثة و المعاصرة و على رأسها التجربة اليابانية .

و بالتمعن في هاته الشروط ، يتضح لنا انه كان ينشد نهضة شاملة ذات أبعاد متعددة : دينية و علمية و إقتصادية و نفسية ، تحقق في نفس الوقت بالموازاة مع بعضها البعض . على عكس الإبراهيمي الذي تبين لنا من المبحث السابق ، أنه وضع النهضة الدينية كأولوية الأولويات ، لتأتي بعدها المجالات الأخرى ، و هو جوهر الإختلاف في الرؤى الفكرية بين الرجلين ، و مرده أسباب عدة سيأتي التطرق إليها في المقارنة .

و لا ريب أن هذا التباين في وجهات النظر ، إزاء مسألة هامة مثل النهضة ، يشكل عامل إثراء و إضافة نوعية للكّم الهائل من الأفكار و التصورات ، التي تراكمت منذ نصف الثاني من القرن 19م و إلى غاية الآن ، و التي و إن تقادم عليها الزمن ، إلا أنها ستبقى بحسبنا تمثل قاعدة فكرية صلبة ، لا يمكن للباحثين و المهتمين بقضية النهضة في عصرنا الحالي، تجاوزها بحجج تتعلق بعضها بعامل الزمن .

و تجدر الإشارة ، إلى أننا بعد أن ننهي شرح و مناقشة مضمون هذا المبحث و الذي يليه ، سنعقبها بمقارنة شاملة لما جاء به الإبراهيمي و أرسلان، فيما يتعلق بشروط النهضة ، و بخاتمة تكون حوصلة للنتائج التي توصلنا إليها .

**1- أخذ العبرة من الماضي :**

يرى الأمير شكيب، أن الخروج من دائرة التخلف والانحطاط ممكن ، من خلال أخذ العبرة من الماضي ، ويقصد به ذلك العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، التي جعلت من العرب والمسلمين في مركز قوة في جميع المجالات ، بين صفوف الأمم الشرقية والغربية على حد سواء، هاته الأخيرة كانت تنظر إلى القوة المادية والمعنوية التي يتمتع بها العرب والمسلمون في تلك الأثناء ، بنظرة تمتزج بين الإعجاب والخوف والرهبة . وأخذ العبرة يكون وفق تصوره ، عن طريق الوقوف على أسباب الإرتقاء .

وهو يوضح تلك الأسباب ، ويؤكد أن مصدرها هو الإسلام ، ذلك الدين الجديد الذي ظهر في الجزيرة العربية ، واعتنقته القبائل العربية ، محدثا تغييرا جذريا في حياتها ، بعد أن كانت تحي حياة هي أقرب إلى البدائية منها إلى الحديثة ، ويجمل معالم ذلك التحول الحضاري الكبير في النقاط التالية :

- توحيد تلك القبائل العربية ، لا على أساس العرق أو القوة ، وإنما على أساس الإنتماء إلى رابطة الإسلام ، وهي رابطة تسمو على كافة العصبية .

- إخراج العرب من الحياة البدائية ( التخلف المادي ) ، إلى المدنية القائمة على الاستقرار والإنتاج .

- إزالة كل مظاهر الشرك وعبادة الأوثان، التي جمدت العقل العربي قبل مجيء الإسلام، وجعلته عاجزا عن إنتاج مدنية إنسانية، رغم أن أرض العرب قد عرفت حضارات راقية كالفينيقية والفرعونية ... إلا أن تأثيرها بقي محليا ، باستثناء بعض الانجازات الإنسانية المحدودة : كاختراع الكتابة مثلا (1) .

وبذلك يكون الإسلام بحسب الأمير شكيب ، قد أحدث تحولا هائلا في حياة القبائل العربية ، ومكن العرب والمسلمين من الريادة ، وبه استطاعوا أن يصلوا بفتوحاتهم إلى نصف الكرة الأرضية ؛ في ظرف زمني وجيز لا يتعدى نصف قرن ، وهو أمر لم يكن في مقدرتهم تحقيقه قبل مجيء الإسلام ، وقد أدهشت تلك الانجازات، الدارسين من غير المسلمين ، لتلك المرحلة من التاريخ العربي الإسلامي، وحتى بعض القادة المسيحيين من أمثال "تابليون بونابرت"

(1)- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 36-65.

الذي يروى عنه أنه كان معجبا أيما إعجاب بشخصية الرسول محمد " ص " ، و الخليفة الراشد " عمر بن الخطاب " ، و بحسب الأمير شكيب أيضا ، أنه بإعتناق العرب للإسلام ، إستطاعوا أن يطردوا الغزاة من أراضيهم ، الذين كانوا يغيرون و يهيمنون عليهم قبل ظهور الإسلام كالفرس و الأحباش و الروم ... و غيرهم ، بل أكثر من ذلك أنهم توسعوا عليهم في إطار الفتوحات الإسلامية (1) .

و مما لا شك فيه أن مجيء الإسلام ، قد شكل إنقلابا حقيقيا في الجزيرة العربية مثلما ذهب إليه الأمير شكيب ، التي كانت تغلب عليها حياة البداوة ، تعيش القبائل الكثيرة فيها على الرعي ، و التنقل في الصحراء بحثا عن الماء و الكلاً . و يخرج بعضها للتجارة قاصدين ما جاورهم من بلاد العالم المتمدن آنذاك . أما عقائديا ، فقد كانت أكثرية تلك القبائل ، تدين بمعتقدات وثنية ، فضلا عن الإيمان بالأساطير و الأوثان . و منه فقد كانوا في حالة عقلية بدائية ، إذ لم تكن لهم فلسفة كتلك التي عرفها قدماء اليونان ، و لم تظهر لديهم علوم كما ظهر عند غيرهم من الشعوب ، عدا بعض الخبرات في الطب ، و المعرفة ببعض الظواهر الفلكية التي قامت على الملاحظة الدقيقة . أما البحث العلمي ، فلم يكن قد عرف لديهم .

أما إجتماعيا ، فقد كانت العصبية القبلية هي التي كانت تتحكم في حياة الأفراد ؛ فالفرد مرتبط إرتباطا شديدا بقبيلته ، و الحروب الكثيرة التي كانت تقوم بين تلك القبائل ، كان الدافع إليها صون الكرامة ، أو الصراع على الماء و المرعى . و كثيرا ما كانت تطول تلك الحروب ، و تدوم سنينا لأسباب تافهة . أما الصلات الإجتماعية ، فكانت تتسم بالإنحلال ، حيث لم يكن هناك وازع خلقي محدد ، و لهذا كانت الآفات الإجتماعية منتشرة على نطاق واسع .

أما العمارة فكانت بدائية قبل الإسلام ، فقد كان أكثر السكان من البدو الرحل يعيشون في الخيام ، أما سكان المدن فكانوا يقطنون بيوتا متواضعة ، لا يوجد فيها شيء من النهضة المعمارية ، التي شهدتها المناطق المجاورة في تلك الأزمنة . و هو ما يفسر تلك الحقيقة التي مؤداها ، أن العرب كانوا حين يغزون بلادا ، يختارون الإقامة في معسكرات تقع خارج تلك البلاد .

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 36 .

و بظهور الإسلام ، دخلت المنطقة في مرحلة تاريخية جديدة ، واستطاعت أن تضع أسس حضارة إنسانية شاملة ، و هي التي ظلت بعيدة عن مسرح التاريخ العالمي لقرون عديدة ، و كان الإسلام هو العامل الأساسي و الفعال ، الذي تمكن من توحيد عرب الجزيرة لكونه ديناً و حضارة . فخرجوا من إقليمهم الجغرافي إلى أقاليم بعيدة ، و استطاعوا إخضاعها في سنوات قليلة ، و في غضون مائة عام ، أصبحت لهم دولة تمتد من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، منها أجزاء من أوروبا مثل إسبانيا و صقلية . و قد اعتبرت تلك الدولة الأولى من نوعها ، من حيث ذلك الإتساع و التنوع (1) .

و مثلما أشار إليه الأمير شكيب ، فقد إعتترف بذلك الإنقلاب الذي أحدثه الإسلام، الكثير من الزعماء و القادة و الساسة الغربيون و الكتاب بشكل خاص على مر العصور ، و منهم " جاك بيرك " ( JACK BERCK ) ، و " غوستاف لوبون " ( GUSTAVE LE BON ) ، و " آدم ميتز " ( ADAM METZ ) ، و " زغريد هونكة " ( ZIGHRID HONCKA ) ، و " منتغمري وات " ( MANTAGHAMRIE WATE ) ... و غيرهم من الغربيين الذين أظهروا إعجابهم الشديد بالإسلام كدين و فكر و نظام حياة ، بالرغم من كونهم ليسوا مسلمين أو عرب ، و خلص أغلبهم إلى أن : (( الحضارة العربية الإسلامية كانت هي النموذج الذي يحتذى مثاله في أي مكان من العالم ، سواء إذا نظرنا إلى هذه الحضارة من جانبها الخارجي الذي يتجلى في الفنون و الصناعات أو جانبها الأخلاقي و الديني )) . كل ذلك حصل بفضل خمس ميزات ميزتها عن الحضارات الأخرى و هي : إحترام الإنسان ، و التمسك بالمثل العليا ، حرية الفكر و العقيدة ، إتباع العقل و تمجيده ، الإيمان بالتقدم (2) .

تلك الحضارة التي كان لها دور كبير ، في تكوين الفكر الأوروبي خاصة في العلم بمختلف فروعه : ( الطبيعة ، الكيمياء ، الفلك ، الرياضيات ، التاريخ الطبيعي ، الفلاحة ... إلخ ) ، و في الفلسفة ، و المعارف العملية التي دخلت إلى أوروبا بفضل العرب

(1) - للمزيد ينظر محمد عبد السلام كفاقي ، المرجع السابق ، ص 15 و ما بعدها .

(2) - ينظر عبد التواب يوسف : الحضارة الإسلامية بأقلام غربية و عربية ، د ط ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة : 1994م .

و المسلمين ، مثل صناعة الصابون و السكر المصنوع من القصب و الورق و شرب القهوة ، و الكثير من أمور الزراعة و الصناعة مما لم تكن أوروبا تعرفه في تلك الأثناء <sup>(1)</sup> . و بالرغم من أن الإسلام ، كان هو القوة المحركة و الدافعة لكل ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية، في شتى المجالات الفكرية و العلمية و المادية . إلا أن هناك من أدعى أنه دين يعيق التطور ، و هو ما اعتبره الأمير شكيب مفتريات ضد الإسلام ، مؤداها أنه دين ما أعتقه شعب إلا كان مصيره التقهقر و التأخر ، و أنه مانع من الرقي الاجتماعي بسبب قوانينه الدينية . و رد الأمير على هؤلاء المدّعين ، أن الإسلام ليس فيه شيء يمنع الرقي ، و أنه لا توجد شريعة في العالم ، تقدر العلم و تعلّي من المعرفة ، و تضع العلماء بعد منزلة الأنبياء كالشريعة الإسلامية . فإذا كانت الأمم الإسلامية في القرون الأخيرة ، قد أصابها التخلف و الانحطاط لجملة من الأسباب أهمها : تكالب أوروبا عليها ، و سعيها للقضاء على قوتها ، فإن الإسلام لم يكن هو الباعث على التقهقر الحاصل ، بل هناك بواعث أخرى لا تخل أمة من الأمم منها في تقديره .

و يستشهد الأمير شكيب على رأيه هذا بأوروبا ، التي ظلت منحطة و متخلفة تخلفا شديدا ، من بعد إعتناقها للمسيحية بألف سنة ، و قد بلغت من الانحطاط مبلغا عظيما ، إلى الحد الذي تمكن فيه مائة عربي من إفتتاح جزء من إيطاليا و جزء من سويسرا في أوائل القرن العاشر الميلادي ، و الاستيلاء على معظم الجبال و المضائق ، و بناء القلاع و الأبراج ، فحضع لهم ملوك و شعوب تلك البلاد ، خضوعا تاما نحو قرن بأكمله <sup>(2)</sup> .

فكما أن همجية أوروبا في تلك الحقبة ، ليس المتسبب فيها الدين المسيحي ، فإنحطاط العرب و المسلمين في القرون الأخيرة ، لم يتسبب فيه الدين الإسلامي : ( و إنما هي أدوار تتعاقب ، و تارات تتناوب ، و كل مملكة مدنية تطرأ عليها أحوال من داخلها و من خارجها فتشقى و تسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود و تسعد ثانية و هلم جرا . و لقد سعدت قرطاجة ثم شقيت و كان دينها واحدا ، و لقد علت روما في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية فهل كان الدين هو السبب في سقوطها ؟ ) . و عليه فمن العبث لدى الأمير شكيب، القول بان الدين

(1) - عبد التواب يوسف ، المرجع السابق ، ص 54 و ما بعدها .

(2) - لوثرود ستودارد ، م 1 ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 342 .

المسيحي أو الإسلامي هما سبب تقدم أو تأخر الأمتين المسيحية أو الإسلامية ، و إنما التأخر و التقدم ، هما محصلة لمقدمات و أسباب تتراكم مع الزمن .

و يدعم رأيه في القضية ذاتها ، بالمثل الياباني ، حيث أن اليابان عملت على أخذ ما عند الأوروبيين من علوم و معارف و فنون ، و أبقّت على شرقيتها في كل شيء ، بل أنها أبقّت على دينها مذهب " سيفتوا " مع مذهب " بوذا " فلم تتخلى عنهما . و بالتالي فمن الخطأ ، الاعتقاد بأن اليابان استخفت بالدين ، بعد أن قطعت أشواطاً كبيرة في التقدم و الرقي ، فإذا كان بها فئة من الدهريين ( المعادون للدين كدين ) أو الطبيعيين ، فهم موجودون في كل الأمم <sup>(1)</sup> .

و في المحصلة ، أن الدين لم يكن سبباً في تقهقر المسلمين و الأوروبيين على حدّ سواء ، مهما حاول معادوه تبرير ذلك بنظر الأمير شكيب ، و إنما أسباب أخرى لا تتصل بالدين ذكر بعضها فيما سبق ، و لمح إلى أن الدين قد يكون عاملاً مهماً و فعالاً في عملية الرقي و التقدم ، إذا استخدم على وجهه الصحيح مثلما ما حدث في التاريخ العربي الإسلامي ، أثناء عصوره الأولى . و بعبارة أخرى أن الدين في حد ذاته ، ليس هو المشكلة ، و إنما كيفية توظيفه ، فقد يكون تأثيره سلبياً مثلما يكون إيجابياً . و بالتالي فإن المسؤولية لا تقع على الدين ذاته ، و إنما على من يوظفه و يطبقه في أرض الواقع .

و في هذا الإطار التحليلي ، يذكر الأمير شكيب أن ، خصوم الدين من الغربيين ، يزيدون على إدعائهم السابقة ، بقولهم أن الشريعة الإسلامية هي الأخرى معيقة للتطور و الرقي ، لكونها أحاطت بأمور المعاد و المعاش ، و جاءت بأحكام سرمدية لا تقبل التغيير أو التبدل ، و فرضت تطبيقها في كل زمان و مكان ، دون مراعاة لإختلاف الأزمنة و الأمثلة ... إلخ ، إلى غير ذلك من الأقوال ، التي تقال و تروج دون روية أو تبصر ، و من أصحابها من يدرك حقيقة الأمر ، لكنه يتجاهل ذلك متعمداً ، بفعل كراهيته للإسلام ، فيعمل على هدمه ، و منهم من يرويه على سبيل الحكاية ، ظناً منه أن لها بعض التأثير على الواقع الذي آل إليه العرب و المسلمون <sup>(2)</sup> .

(1) - لوثرروب ستودارد ، م 1 ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص ص 109 - 343 .

(2) - المصدر نفسه ، م 2 ، ج 3 ، ص 343 .

لكن إدعاءات هؤلاء ليست أمرا غريبا بالنسبة للأمير شكيب ، لكن الأغرب عنده ، هو تأثير بعض أبناء العرب و المسلمين بتلك الأقاويل و الأفكار ، و قد نعتهم بالمسلمين " الجغرافيين " و وضع في مقدمتهم الأتراك " الأنقريين " (نسبة إلى العاصمة التركية انقره ) من شيعة " مصطفى كمال أتاتورك " الذين أيدوا الأوروبين في تلك المزاعم ، وذهبوا إلى أن تأخر البلدان العربية والإسلامية بما فيها تركيا ، ناتج عن اختلاط أمور الدنيا بالدين ، وعملها بشريعة سماوية ، أرادت فرضها لوحدها وجعلها سرمدية ورد كل شيء إليها . ولهذا ترى هذه الفئة ، أن لا حل للعرب والمسلمين ، لكي يتدرجوا في مدارج الرقي والتقدم ، من ترك الشريعة القديمة البالية ، التي أضحت لا تتجاوب مع عصرنا الحالي ، وأن تأخذ بشرائع وقوانين هذا العصر ، التي صلحت لكونها وضعت بهذا العصر : (( نحن لا نريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول )) .

وفي رده على ما اعتبره مزاعم الكماليين ومن تبعهم ، نفى الأمير شكيب وجود قانون أو شرع في العالم يخلو من ( قال ) و ( قالوا ) ، ولا يعود في منابحه إلى قواعد وأوضاع وأقوال تعود إلى مئات أو ربما آلاف السنين . أما زعم " الأنقريين " بأنهم عملوا بمقتضى ( قلنا ) و ( نقول ) ، وأرادوا مواكبة عصرهم فهو غير صحيح ، لأنهم في حقيقة الأمر أرادوا التفرنج فقط بحسبه . أما عملهم بمجلة الأحكام العدلية في المعاملات المدنية ، فلم يكن عين الحكمة والصواب ، وقد برر ذلك بقوله أن : (( القاعدة في القوانين هي أنها لا تنفد إلا إذا كانت مطابقة لأذواق الأقوام التي تطبق في محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم )) (1) .

ويواصل فيقول ، أن الأتراك حينما أخذوا بقانون سويسرا المدني ، وبقانون الجزاء الإيطالي ، قد أخذوا بقوانين لا تتناسب إطلاقا ، مع عقليتهم وذوقهم ومنازعتهم ومشاربهم . وأنه لا يتصور أنهم حققوا أي استفادة منها ، إلا الحيرة في القضاء والصعوبة في التطبيق . وقد بلغه أنهم لجأوا فيما بعد ، إلى إدخال تعديلات كثيرة عليها ، بعد أن كانوا قد أخذوها كما هي . ومنه فقد اعتبر الأمير ذلك كله سفسطة ، واستشهد بالكاتب الفرنسي " مورييس برنو " ( MAURICE PERNOT ) ، الذي كان من أشد المبتهجين بإدارة تركيا ظهرها للتقاليد والقواعد الإسلامية ، حيث نفى أن تكون القوانين السويسرية والإيطالية مقطوعة الجذور و جاء ذلك في

(1) - لوثرروب ستودارد ، م2 ، ج3، مصدر سابق ، ص ص 343- 344 .

قوله : (( وأن هذا القانون المدني السويسري الذي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع إلى التشريع الروماني القديم فهي أقدم عهداً من الفقه الإسلامي الذي يزعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب توغله في القدم . وأما قانون العقوبات الإيطالي الذي اتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون روماني مسيحي وإيطالي كاثوليكي وفيه من الأوضاع اللاتينية القديمة والأعراف المسيحية الموروثة ما ينكره إلا مكابر )) .

وبعد ذلك يتساءل الأمير ، كيف يكون كمال أتاتورك يقود أمته على نهج عصري بحت ، لا وجود فيه ( لقال ) و ( لقالوا ) ولا لرأي قديم ؟ . ثم يجيب بأن " أتاتورك " نسي ، أن القوانين لا يجب فقط أن تسن وفقاً للزمان فقط، بل وفق المكان أيضاً ، وأن بين المكائين تركيا وسويسرا من جهة وتركيا وإيطاليا من جهة ثانية ، فرقا شاسعا في المشارب والمذهب والأعراف والعادات . ويضيف بأنه فضلا عن ذلك ، بأن سويسرا بلاد متصلة بعضها ببعض ، وسكانها لا يصل عددهم إلى أربعة ملايين نسمة ، وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد ، حيث تجد في المقاطعة الواحدة قانونا يختلف عن قانون المقاطعة الثانية ، بفعل اختلاف الأعراف والعادات بينهما . فإذا كان هذا هو الحال ، بين مقاطعتين في سويسرا ، فكيف تكون درجته بين هذه الأخيرة في تركيا . وإذا كان القانون المطبق في " جنيف " (\*) ، لا يلاءم أهل " لوسرن " (\*\*\*) على سبيل المثال ، رغم أن المسافة بينهما بضع ساعات فقط، فكيف يلاءم قانون سويسرا سكان " ديار بكر " (\*\*\*) و " سيواس " (\*\*\*\*) و " قره حصار " ، مع

(\*) - " جنيف " ( GENEVE ) : عاصمة دولة سويسرا ، تقع على بحيرة " ليمان " ، كانت مقرا لعصبة الأمم 1919م-1939م ، تحتضن عدة منظمات دولية منها : الصليب الأحمر الدولي ، مكتب العمل الدولي ، منظمة الصحة العالمية ، إتحاد المواصلات الدولية . تشتهر بجامعاتها ومتاحفها ، وبصناعة الساعات والمجوهرات . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*) - " لوسرن " ( LUCERNE ) أو " لوتسرن " ( LUZERN ) : مدينة سويسرية تقع على نهر " دوس " وبحيرة " كاتركانتون " ، تشتهر بمنتجاتها الصيفية وبالموسيقى وبالآبراج والأسوار القديمة والحدائق الرائعة والمصنوعات الحرفية . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*\*) - " ديار بكر " : مدينة في تركيا ، تقع على نهر دجلة شرقي " الأناضول " ، كانت تسمى قديما " أمد " بها أسوار بيزنطية وجامع من القرن 9 م ، وتعرف أيضا بضاعتها الحرفية . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*\*\*) - " سيواس " ( SIVAS ) : مدينة تركية في شرقي الأناضول عند سفح " كيزيل أرماق " 1347م ،



الاختلاف الشديد بينهما ي كل شيء ، يتساءل الأمير شكيب ؟ (1) .

وبناء على هذا الرد المستفيض من قبل الأمير شكيب، على النهج الذي اعتمده " كمال أتاتورك " وأتباعه، لتحقيق الرقي والتقدم لتركيا ، بالتوصل لكل ما هو إسلامي وشرقي ، وتبنى المذاهب والنظريات والقوانين الغربية جملة وتفصيلا ، ولو كانت تتعارض صراحة مع خصوصية الأمة التركية، التي تدين بالدين الإسلامي، وتمتد جذورها التاريخية والاجتماعية في الشرق وليس في الغرب ، تتضح لدينا الأهمية الكبرى التي يوليها الأمير شكيب أرسلان للدين الإسلامي ، في حركة تستهدف معالجة التقهقر والتأخر الحضاريين، اللذان كانت تحياهما الأمم العربية والإسلامية في عصره .

وقد لاحظنا، أنه حاول أن يناقش أفكار ومزاعم من سماهم بالأنقريين " و " الكماليين " ، نقاشا يقوم على الحجة والمنطق لا على العاطفة والحماسة ، وهو بذلك يطرح مسألة الأصالة والاعتراب . فالأصالة تعني في جانب منها؛ مضاهاة الأسلاف، والتميز عن الغربيين الذين يمثلون السيادة الحضارية والسياسية في العالم . في حين يعني الاعتراب؛ الانبعاث الحضاري عن طريق تقليد الغرب جملة وتفصيلا ، حيث يتقمص العرب والمسلمون دور التلميذ أمام الغرب، الذي يتمتع بدرجة الأستاذية (2) .

وهما من أكبر القضايا الحضارية، التي طرحت في عصر الأمير شكيب ، وقد خص تركيا دون غيرها من البلاد العربية والإسلامية ، لكونها كانت السباقة إلى رفع شعار العصرية والتحضر بداية من عهد حكم " مصطفى كمال أتاتورك " ، بالتجرد من موروثها الديني المتمثل في الإسلام، الذي كانت تستند إليه الحكومات والدول التي قامت قبل مجيء أتاتورك إلى السلطة ، فهو القائل بكل صراحة وجرأة : (( إن الإمبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام ، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة من ولادة الإنسان إلى

هي " سبطية " في القديم . المنجد في اللغة والأعلام .

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2، ج3، ص ص 345 - 46 .

(2) - ينظر عبد الله العروي : " قضية التراث والانبعاث الحضاري " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز

الإنماء القومي ، بيروت : العدد 12 / مارس 1981 ، ص 18 وما بعدها .

وفاته ويصوغها صياغة خاصة ، ويخفق الطموح في نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتران ، والدولة لا تزال في خطر مادام الإسلام دينها الرسمي (( (1) .  
والأمير شكيب في رده على الحجج المقدمة من طرف الكماليين ، استبعد صحة أيًا منها ، معتبرا إياها غطاءً ، تخفي وراءه تلك الفئة المستعمرة من طرف الإفرنج ، التي تريد أن يلبث الأوروبيون متسلطين على بلادهم ، بثتى الطرق والوسائل ، ومنها قولهم أن الإسلام دين جمود ومصدر للفوضى والاضطراب. متناسية أن بعض علماء الغرب ، الذين يشكلون مثلاً أعلى لها كانوا متمسكين بالدين ، رغم نبوغهم العلمي الكبير ، ومنهم " لويس باستور " ( LOUIS PASTEUR ) (\*) ، الذي احتل منزلة رفيعة في العلم والاكتشافات الكيماوية والتي لم يسبقه إليها أحد ، و " غلاد سطن " ( GLADSTON ) ، الذي بلغ شهرة كبيرة وعرف بتوقد ذهنه ، كان من أشد الناس تمسكا بالدين ومن المؤمنين ، بأن السيد المسيح إليه وإنسان . وهو ما يعني أن الإلحاد التام ، أو رفض الاعتقاد بكل ما هو خارج المادة ، ليس بشرط في سمو العقل ، ولا بحجة على التبحر في العلم (2) .

فالرقي والتقدم في فلسفته ، لا يعني البتة الانسلاخ من المقومات الشخصية والقيم الذاتية ، سواء تعلق الأمر بالعرب والمسلمين ، أم بغيرهم من الأمم والأقوام ، فبإمكانهم أن يحققوا ذلك دون الحاجة إلى استبدال ثوابتهم بثوابت غيرهم . أما القول بغير ذلك ، فليس له سند في التاريخ ، فأوروبا نفسها لم تستطع أن تتخلص من العنصر الديني حتى في عصر النهضة والتتوير ، رغم الحساسية الكبيرة التي ظهرت إزاء الدين، في هذه الحقبة من التاريخ الأوروبي (3) .

(1) - أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 50 .

(\*) - " لويس باستور " - LOUIS PASTEUR - : ( 1822م - 1895م ) عالم فرنسي ، عرف بدراساته حول الجراثيم ، واكتشافه لقاحا ضد الكلب .

(2) - لوثرود ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 165 .

(3) - هشام جعيط : " جدلية الماضي والحاضر من سؤال الماضي إلى سؤال المستقبل. التاريخ العربي : امتداد على فضاء زمني شاسع " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 91 .

**2- اقتحام غمار العلوم والاقتصاد :**

أكد الأمير شكيب على أنه بإمكان العرب والمسلمين ، أن يصلوا إلى ما وصل إليه غيرهم من التقدم والتمدن ، شريطة أن يتعلموا العلوم العصرية ، التي تفتح لهم مجال الإنشاء وال عمران التي بلغها الأوروبيون ، فلا يوجد فرق في القابلية البشرية، إذا نفضوا عن أنفسهم غبار الخمول ، وأبطلوا القاعدة التي كانت سببا في انحطاطهم ، وهي أن كل عمل عمراني في الشرق ، لا بد أن تقوم به شركة أوروبية، وإلا انتهى إلى الفشل الذريع . فلقد أثبتت التجارب فساد هذه النظرية ، إذ تمكن مسلمون من تأسيس شركات صناعية وتجارية ومصانع ومناسج، حققت نجاحا مذهلا ، كذب ادعاءات تلك الفئة المثبطة ، وجعلها موضوعا للسخرية (1) .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن تحقيق النهضة العلمية تلك، إلا في وجود علماء ، اشترط فيهم الأمير شكيب، أن يكونوا مثالا لما كان عليه العلماء الأوائل ، الذين فضلا عن نبوغهم العلمي ، فإنهم كانوا يتولون تقويم سياسة الأمراء ، وكانوا بمثابة المجالس النيابية في عصرنا الحالي ، يسددون خطوات الحكام ، ويرفعون أصواتهم كلما صدر ظلم من الدولة ، ويحضون الخليفة للعودة إلى جادة الصواب . فبهذا استقامت الأمور في بلدانهم ، لأن غالبيتهم كانوا يتحلون بالزهد والورع ونبذ الشهوات ، لا يهتمهم إن غضب الملك عليهم أم رضي عنهم ، فالكل يهابهم حاكما أو محكومون ، يخشون مخالفتهم ، لأنهم يعلمون أن العامة تتقاد لهم ، وأن الأمة تعتقد إمامتهم (2) .

ومن الواضح أنه ، يشير إلى أن التخلف العلمي لدى العرب والمسلمين ، ليس مرده عدم قدرتهم وأهليتهم على خوض غماره ، فهو في متناول كل الشعوب والأمم على حد سواء ، وإنما العلة في ذلك، تكمن في العوائق الفكرية الناجمة عن الشعور بالضعف والعجز ، الذي جعلهم يسلمون بأن عقولهم إنما وجدت لتعطيلها عن الإنتاج ، رغم أن الإسلام دعا إلى السير في

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 152 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 74 - 75 .

الأرض وحث على العمل والاجتهاد والبحث ، وهو ما أدركه جيل القرون الأولى . وناقلة القول أن الانحسار الحضاري أو الأزمة الحضارية المعاشة ، هي بالدرجة الأولى أزمة فكرية (1) . كما أنه ربط بين تحقيق النهضة العلمية، التي لا غنى عنها للراقي العمراني والاقتصادي ، وبين إصلاح حال العلماء الذين رأى أنه يتوجب عليهم ، أن يؤدوا دورهم كعلماء حقيقيين ، لهم السلطة المعنوية الكاملة على حكاهم ومجتمعاتهم ، تلكم السلطة التي فقدوها منذ عدة قرون ، وتحولوا إلى تبع لدى أصحاب القرار ، يوجهونهم ويسيرونها ، وفق ما يخدم أمزجتهم ومصالحهم السياسية والمادية ، على حساب مصالح المجتمع أو الأمة ، عن طريق الترهيب والترغيب . والحل عنده لمعالجة هذا الوضع الخاطيء ، هو الإقتداء بالعلماء الأوائل ، الذين أمسكوا بزمام القيادة والريادة ، بنكران الذات والترفع عن كل ما يسيء إلى مكانتهم ومنزلتهم العلمية والاجتماعية ، فنالوا الاحترام والمهابة من الحكام والمحكومين . وقد حفل التاريخ العربي والإسلامي ، بنماذج كثيرة من أولئك العلماء .

ومنه ندرك أن الأمير شكيب ، أولى أهمية كبرى لواجب العلماء نحو الأمة ، انطلاقاً من كونهم الصفوة التي لا تتحقق بدونها النهضة بصفة عامة والعلمية بصفة خاصة، فهي التي تفكر وتبدع وتنتج وتوجه (2) وتراقب، فإذا تخلت عن هذه الوظيفة ، تكون قد تخلت عن واجبها ، وهو ما حصل لدى العلماء العرب والمسلمين في قرون الانحطاط .

إن حاجة العرب والمسلمين إلى العلم ملحة جداً، ولهذا وجدنا الأمير شكيباً ينصحهم باقتباس العلوم الأوروبية ، مع محافظتهم على معتقداتهم ومقوماتهم الشخصية (3) ، وهو في ذلك يوافق صديقه المغربي " أحمد بلافريج " ، الذي نصح المغاربة ، أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع التمسك بخصوصياتهم الدينية والثقافية والاجتماعية ، انطلاقاً من اعتقاده بعدم وجود علم أوروبي وآخر شرقي ، فالعلم مشترك بين كل البشر ، واليابانيون اقتبسوا من الغرب

(1) - أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، ط1، مركز البحوث والمعلومات ، قطر : 1990م ، ص 9 وما بعدها .

(2) - كريم جبر الحسن ، المرجع السابق ، ص 118 .

(3) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 7 .

ما رأوا أنه نافع لهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، فالتفرنج في نظره من أسوأ الأشياء ، والأمم مهما كانت من الواجب عليها أن تصون كيانها ، فكيف بأمة عظيمة مثل الأمة الإسلامية التي لها تاريخ عريق ؟ (1) .

فالطريقة الأنجع والأسرع ، لتقدم الأمم المتخلفة حضاريا وثقافيا ، هي أن لا تتبع خطوات من سبقها من الأمم ، بل أن تأخذ بكل المستحدثات العلمية والصناعية، الموجودة لدى الأمم المتقدمة في العصر الحالي ، فهذه الطريقة لا تؤدي إلى تحقيق المساواة مع تلك الأمم الراقية فحسب ، بل قد تؤدي إلى التفوق عليها ، والمثال الياباني خير دليل على ذلك . وفي هذا المضمار ، ليس أمام الأمم العربية والإسلامية أي عائق ، فبإمكانها أن تصل إلى أحدث وأجود وسائل التمدن ، بواسطة البحث العلمي ، فتوفر بذلك الملايين من الأموال (2) .

وعلى هذا الأساس ، يظهر لنا أن الأمير شكيب ، قد حدد وسيلتين للعرب والمسلمين ، لكي يحصلوا على التفوق العلمي ، وهما الاقتباس والبحث العلمي ، فأما الأول فقد شجع عليه لكن ربطه بالتمسك بالمقومات الشخصية وعدم الانزلاق إلى التقليد والتغريب ، ومعناه أنه من أنصار أخذ الجانب العلمي المحض وترك غير ذلك . أما الثاني وهو المهم بالنسبة إليه ، إذ قدمه على الأول ، وطالب بإيلائه الأهمية الكبيرة ، ولذلك وجدناه يوصي أثناء رحلته إلى الحجاز بتكوين هيئة جيولوجية لدراسة البحر الأحمر (3) .

إن التفوق في العلم الحديث، أمر ميسر بالنسبة للبلدان العربية والإسلامية يقول الأمير شكيب ، إذا تحلت بالعزيمة وصبت اهتمامها على الجانب الفكري ، فإذا حصل ذلك فإن المتوقع هو التمكن من الصناعات الحديثة ، وفي ذلك يرى بأن المثال الياباني خير دليل على صحة نظريته ، فإلى غاية سنة 1868م ، كانت اليابان أمة كباقي الأمم الشرقية التي تعيش على القديم ، فلما أرادت للحاق بالأمم المتقدمة ، تعلمت علوم الأوروبيين وصنعت صناعاتهم ، وكان لها ما أرادت خلال خمسين سنة ، ومع ذلك ظلت متمسكة بمقوماتها الشخصية .

(1) - شكيب أرسلان : آخر بني سراج ، مصدر سابق ، ص 171 .

(2) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 426 .

(3) - شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 09 .

والأمم العربية والإسلامية ، بإمكانها أن تنهج نهج اليابان ، فتنهض وتلحق بالأمم الراقية ، دون أن تتخلى على إسلامها ، فمثلما تعلم اليابانيون كل علوم الأوروبيين ، وأصبحوا ينافسونهم فيها ، وبقوا محافظين على دينهم وأوضاعهم ، فالأمر ذاته ينطبق على العرب والمسلمين فلا فرق بينهما في هذا الجانب (1) .

لقد كان شعار الحداثة اليابانية : (( إحقوا بالغرب واسبقوه )) ، وكانت فلسفتها تقوم على أخذ كل ما هو جيد من الأجنبي ، حتى إتقانه إتقاناً تاماً ، وإدخال الطابع الغربي في مجالات متعددة ، دون أن يعني ذلك ، الاصطباغ تماماً باللون الغربي . فالحداثة مسألة طبيعية مطلوبة ، ويمكن تحقيقها من غير اللجوء إلى استيعاب الجانب الروحي للآخر ، الذي نقتبسه من العلوم والمعارف والتقنيات.

وتجدر الإشارة هنا، أن محافظة اليابان على أصالتها وتقاليدها، كانت قضية في غاية الجدية ، ففي الوقت الذي تفتحت فيه على العلوم والثقافات الأوروبية ، فإنها بالمقابل لم تكن متسامحة مع أية محاولة لاستغلال الفرصة، من طرف الدول الأوروبية لاختراقها دينياً وثقافياً ، فبمجرد أن تزايد نشاط المبشرين المسيحيين القادمين من أوروبا ، والذي كانوا قد بدؤوه منذ منتصف القرن السادس عشر ، وأثمر اعتناق بعض اليابانيين للدين المسيحي ، سارعت الحكومة اليابانية على الفور، إلى إغلاق حدود البلاد أمام الأوروبيين ، عدا التجار الهولنديين الذين لم يكن هدفهم تغيير الثقافة والدين والمبادئ اليابانية . وبذلك حصنت نفسها من الغزو الثقافي الخارجي ، وضمنت دخول العلوم والتنمية والطباعة الغربية (2) .

لكن ذلك لم يكن ليتحقق ، لولا وجود نخبة سياسية، مدركة بأن أي مشروع يهدف إلى تغيير المجتمع والنهوض به ، لا بد أن يعتمد على جهاز دولة يعمل على تمريره، ووجود قاعدة اجتماعية قادرة على دعمه والذود عنه ، وبأنه لا : (( سبيل للنهوض بالمجتمع الياباني وبناء دولة مستقلة ومهابة دون تحديث البلاد على جميع المستويات وذلك إقتداء بالتجارب الغربية )) (3) .

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 78 .

(2) - ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 162 وما بعدها .

(3) - ينظر المرجع نفسه ، ص ص 168 - 169 .

فإذا كان الأمير شكيب ، قد أظهر إعجابه الشديد بالتجربة اليابانية الرائدة ، التي نقلت اليابان من حياة العصور البدائية إلى قمة العمران والتحضر ، فإنه بالمقابل تأسف للأفكار السخيفة التي تروجها، فئة من ضعاف النفوس والعزائم من أبناء العروبة والإسلام ، الذين لم يجدوا حجة يبررون بها عجزهم وتخلفهم، سوى القول بأن الغرب متفوق عليهم ماديا ومعنويا ، ولا سبيل لمجاراته والوقوف في وجهه (1) .

فسنن الحياة تفر بعكس ذلك ، ومنه لا مكان لتلك السفاهات التي ينبغي التوقف عنها ، والإسراع في النهضة الصناعية والزراعية ، لأن إمكانيات نجاحهما متوفرة على نحو كبير . وفي هذا الإطار وجه رسالة إلى صديقه الأستاذ " عبد السلام بنونة " في المغرب، قال له فيها أنه جد مسرور لخبر إنشائه لمعمل بمدينة " تطوان " المغربية، لتطوير الإنتاج المحلي للثياب ، وأن السلاح الوحيد الذي بقي لنا في أيدينا في وقتنا الحاضر ، هو الاجتهاد في إصلاح شؤوننا الاقتصادية ، حتى نقارع بها الاستعمار فنحقق هدفان أساسيان : الأول يتمثل في التخلص من الفقر الذي نحياه ، والثاني أن الاستعمار لما يرى بضاعته قد كسدت ، يزهّد في الاستعمار فيترجع تكالبه على استنزاق جميع ثرواتنا وقوانا . وختم الرسالة بحث صديقه على الاستماتة ، لأنها حرب اقتصادية شرسة ، ينبغي فيها التشجيع على الإنتاج الصناعي الوطني ، وهو السلاح الذي راهنت عليه الدولة الهندية ونجحت فيه . كما دعا العرب والمسلمين ، إلى المزيد من العمل والمواظبة ، حتى وإن كانت النتائج في البداية ضعيفة ، فإنها ستتحسن مع مرور الوقت (2) .

وفي المضمرة ذاته ، أرسل سنة 1922 إلى بعض أصدقائه في شرق الأردن ، يستفسرهم إن كانت توجد هنالك معادن من فضة أو فحم أو فوسفات أو بترول ... أو غير ذلك ، فيرسلون له مقداراً من تراب كل معدن منها 3 أو 4 كلغ ، ليسلمها لمن يقوم بتحليلها ، تحقيقاً للمصلحة العامة (3) . كما عاتب حكومة شرقي الأردن ، على تقصيرها بعدم ترويج الآلات الزراعية الحديثة ، رغم أنها من مهامها الأساسية، مذكراً إياها بأنها محط أنظار الجميع ، فإذا نهضت

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 22 .

(2) - عبد السلام بنونة ، المصدر السابق ، ص 128 ، 215 ، 216 .

(3) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 103 .

ببلدها ، حذا حذوها الجميع والعكس صحيح . وحاول أن يلفت نظر العرب والمسلمين، إلى ما يقوم به اليهود في مزارع فلسطين ، وبين لهم أن شرق الأردن بلاد زراعية حقيقية ، ومصالحته تكمن في الزراعة . وأوضح أنه يتعين عليهم ، أن يضاعفوا ثرواتهم ووارداتهم ، ويحفظوا استقلالهم وأوطانهم ، باستخدام الأدوات الزراعية الحديثة ، وتشجيع الفلاحين على استخدامها وترك الأدوات التقليدية (1) .

وفي سنة 1925م ، أرسل رسالة من تركيا إلى " نبيه العظمة " ( 1886م - 1927م ) في القاهرة ، يخبره فيها بأنه أبلغ ، أن الألمان اكتشفوا آلة لاستكشاف ما يحويه باطن الأرض من معادن وزيوت ، ولأن الاختراع يشكل انقلابا هائلا في المجال الاقتصادي ، فبإمكان العرب الاستفادة منه باستئجارها من الشركة ، شريطة أن تتولى الاستثمار إذا كان الاستكشاف ايجابيا (2) .

ومن خلال التمعن في مضمون هذه الرسائل ، يتجلى لنا أن الأمير شكيبا، كان يشجع أية مبادرة في البلاد العربية والإسلامية ، تهدف إلى تحقيق النهضة الصناعية والزراعية ، مهما كانت بسيطة ، لأن التقدم الاقتصادي في تقديره ، يبدأ بالمبادرات الصغيرة ، التي لا شك أنها ستتمو وتتطور إن هي وجدت الدعم والعناية اللازمين . وبالتالي فإنه ممن يدعون إلى الاعتماد على الإمكانيات الذاتية في تمويل المشاريع الاقتصادية ، وهو ما لجأ إليه رجال الإصلاح في اليابان ، الذين كانوا يرون أن النهضة ، لا يمكن أن تقوم على الموارد الخارجية ، وأن المديونية تتعارض مع التنمية الحقيقية ومع الاستقلال والسيادة ، إذ أنها تمهد الطريق للتدخل الخارجي في البلاد والهيمنة عليها (3) .

وفي المقابل، سعت إلى الاستفادة من الخبراء والفنيين الأجانب ، لنقل العلوم والتقنيات الغربية الحديثة إلى اليابان ، والسير بها على خطى الدول المتقدمة ، لكنها كانت حذرة في الاعتماد على هؤلاء الأجانب ، حيث كانت تعتمد على التعاقد معهم بعقود قصيرة المدى ، وتحرص على تعويضهم تدريجيا بإطارات وطنية، جرى تكوينهم في الجامعات والمعهد الغربية

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 102 - 103 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 147 - 148 .

(3) - علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 179 .



ثم في اليابان ، والغاية من ذلك تحقيق الاكتفاء الذاتي ، في هذا المجال الذي يتميز بالحساسية ، لوضع حد للتبعية ، وتوفير أسباب الاستقلال والسيادة <sup>(1)</sup> .

وقد لاحظنا أن الأمير شكيب، قد كان حذرا هو الآخر في هذا الجانب ، حتى وإن دعا إلى الاستعانة بالخبرة الغربية، ومنها الألمانية في مجال استكشاف واستخراج المعادن والطاقة ، إذ قال في ذلك ، أنه من الأحسن أن نظل فقراء مستقلين ، من أن يبتلعنا الاستعمار الأجنبي بواسطة معادن ، نبتغي من استثمارها تيسير أحوالنا ، فينتهي بنا الأمر إلى الخسارة .

وفي رده على من يقول بأن استغلال تلك الثروات ، هو مفتاح للتدخل الأجنبي ، قال أنه ليس من الحكمة ، أن نضيع على أنفسنا ثروة نحن في أمس الحاجة إليها ، بحجج واهية ، فالأجدد بنا أن نغتنم هذه الفرصة ، ونقوم باستغلال ما أمكن منها لتقوية جيوشنا ، وإصلاح إدارتنا ، وتعمير بلادنا بدون تسويق أو تأخير ، حتى لا يحدث لنا ما حدث لتركيا ، التي تخاذلت في استخراج الثروات التي كانت تحت سيطرتها ، حتى جاء الأجانب واستولوا عليها . فقد كانت قادرة على الاستفادة من بترول " الموصل " (العراق) منذ زمن طويل ، ولم تفعل بشأنه شيئا ، ولا زالت تتماطل حتى ضيعت ثروة تقدر بالمليارات من الجنيهات . والأمر نفسه فعلته مع ثروات " البحر الميت " ، إلى أن جاء الإنجليز بعد الحرب العالمية الأولى ، وبادروا بتحليل مياهه ، وقدروا ما يمكن أن يستخرج منه <sup>(2)</sup> .

ولذلك أيضا ، اعتبر البترول مصدر قوة للعرب خاصة ، ليس بسبب الأموال التي يمكن الحصول عليها من عائداته ، وإنما بتحويله إلى الطاقة الكهربائية ، التي من شأنها أن تدفع بهم إلى مصاف الأمم الراقية ، لأن المال ليس بالقوة ، بل هو وسيلة خيالية للوصول إلى القوة . إقتداء بالولايات المتحدة الأمريكية ، التي كهربت مزارعها وطرقها الحديدية ، ومصانعها ومعامل البحث والاستكشاف لديها ، وهي مصدر للابتكارات العلمية والصناعية ، وحاملة لواء التقدم البشري ، حققت ما حققته من تقدم علمي وصناعي بفضل القوة الكهربائية .

ويخلص إلى القول ، بأنه من مصلحتنا أن نأخذ المقابل من الشركات الأجنبية التي تستخرج البترول ، بترولا بدل المال ، ونحوه إلى طاقة كهربائية ، نستصلح بها المستنقعات

(1) - علي المحجوبي، المرجع السابق ، ص 178.

(2) - شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 332 - 333 .

الشاسعة إلى مزارع خصبة ، يشتغل بها الآلاف من الناس ، وتنتج فائضا إنتاجيا ، يلبي حاجات مئات الدول ، وتجعل الأمم الغربية لا تقف أمام إرادتنا ، في صنع الطائرات والمناطيد وغيرها ، وننشأ معاهد البحث والابتكار العلمي ، التي قد نتمكن بفضلها من تحويل الصحراء العربية إلى بلاد معمورة أهلة بالسكان (1) .

### 3- التحلي بالإرادة وروح التضحية :

أكد الأمير شكيب أن الأمم لن تتقدم ، إلا إذا شعرت بأهمية الإرادة والجرأة والتضحية ، إذ لابد للناس أن يبذلوا الأنفس والأموال ، فحب الدنيا لا يتناسب مع حياة الفرد ، والجرأة هي التي تسمح للإنسان بأن يدرك حقوقه ، ولا يأتي له ذلك إلا بالعلم (2) . ورد على المثبتين من بعض العرب والمسلمين ، ممن يقولون أنه من المستحيل مجاراة الغرب ، الذي قطع أشواطاً عظيمة في الرقي والازدهار ؛ بأن الرقي الأوروبي ، لم يكن سببه البخار وتموجات الهواء والبتروول، وإنما النهوض والإرادة . فالأصل في الرقي هو إرادة الرقي ، والطريق ممهد لمن أرادته ، فلا يشترط في المرء أن يكون عالماً بالفن ، حتى ينشره ويرغب الناس فيه ، " فمحمد علي باشا " كان أمياً تقريبا ، لكنه رجل عظيم تمكن من تشييد مدينة مصر الحديثة . و " ابن سعود البدوي " كما يصفه أعداؤه ، لم تمنعه بداوته من استخدام السيارة الكهربائية ، والمواصلات اللاسلكية وغيرها من منتوجات المدينة العصرية ، وقد تم له ذلك في ظرف زمني وجيز ، فحقق انقلاباً مادياً مدنياً كبيراً في الجزيرة العربية ، ولو كانت لمملكته مداخل الحكومة المصرية المقدر بـ : 42 مليون جنيه في السنة ، لحقق المعجزة في انجاز المشاريع العمرانية في الحجاز بحسب شكيب (3) .

والأمير شكيب هنا ، يحيل العرب والمسلمين ، الذين سرت في أنفسهم روح الهزيمة والضعف ، إلى تجربتين عربيتين حاولتا استدراك التأخر الحضاري الحاصل في المنطقة العربية ، الأولى قادها " محمد علي باشا " في مصر ، الذي ورغم أميته كما أشار إلى ذلك الأمير ، إلا أنه كان صاحب عزيمة قوية وطموح كبير ، قاداه إلى التأسيس للنهضة المصرية

(1) نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 426 - 427 .

(2) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية ، مرجع سابق ، ص 07 .

(3) - شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 70 .

الحديثة ، من خلال الإصلاحات الشاملة التي باشرها في فترة حكمه . بدءا بالإصلاحات العسكرية ، التي قصد منها تكوين جيش عصري على غرار الجيوش الأوروبية ، باستطاعته حماية استقلال البلاد ، وضمان سيادتها وتجسيد طموحات " محمد علي باشا " وأهدافه التوسعية ( \* ) . ثم الإصلاحات الاقتصادية ، بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتي في الميدانين الغذائي والصناعي، لضمان استقلال البلاد ، وزيادة الإنتاج ، لتنشيط الصادرات، وتوفير رأس المال اللازم للنهوض الاقتصادي (\*\*). وأخيرا إصلاح التعليم ، بغرض تلبية حاجات البلاد من

(\*)- إصلاحات " محمد علي باشا " العسكرية :

1- إقرار مبدأ التجنيد الاجباري للفلاحين ، فكان الجيش المصري جيشا وطنيا ، ضم العنصر الألباني والمصري والسوداني .

2 - العمل على عصرنه الجيش ، من خلال إنتداب الفنيين الأوروبيين لتدريبه وتنظيمه وفقا للمناهج الحديثة في البداية ، ثم السعي إلى تكوين إطارات مصرية كفؤة لتعويضهم ، بإنشاء العديد من المدارس الحربية ، زيادة على إرسال عدة بعثات مصرية إلى أوروبا للتخصص في شتى الميادين العسكرية .

3 - الإهتمام بالأسطول البحري لمواجهة الخطر الخارجي ، بتجهيزه بالقطع الحربية الحديثة المستوردة من أوروبا والمصنعة محليا .

4 - إنشاء العديد من المصانع الحربية ، لتوفير السلاح كالمدافع و البارود والمتفجرات ، وغيرها من الأسلحة الضرورية للجيش . ينظر على المحجوبي ، المرجع السابق ، ص ص 19 - 20 .

(\*\*)- إصلاحات " محمد علي باشا " الإقتصادية :

1 - إنتهاج نمط إقتصادي ، قريب من الرأسمالية الأوروبية .

2 - إقامة السدود ، والتحكم في المياه .

3 - الزيادة في المساحات المزروعة .

4 - تنويع المزروعات ، وفقا لمقتضيات المناخ المصري .

5 - تنمية الصادرات الزراعية ، وتحويل الزراعة المصرية من الإقتصاد المعاشي إلى إقتصاد السوق .

6 - الإهتمام بالصناعات العسكرية والمدنية على حد سواء .

7 - نقل التقنيات الأوروبية الى الصناعة المصرية .

8 - فرض هيمنة الدولة ، على قطاعات الزراعة والصناعة والضرائب.

9 - إرساء هياكل إدارية خاصة بكل الصناعات . ينظر علي المحجوبي ، المرجع نفسه ، ص 20 وما

بعدها .

الإطارات الوطنية العصرية، في مختلف المجالات العسكرية والمدنية (\*).

أما التجربة الثانية ، فتلك التي قام بها " عبد العزيز آل سعود " في الحجاز ، فبالإضافة إلى توحيد عدد كبير من القبائل الحجازية في إطار المملكة العربية السعودية ، فقد تمكن من إدخال التطور إلى المنطقة ، بفضل مداخيل البترول التي أنفقت الحكومة قسما منها في بناء المواصلات ، وإنشاء المدارس والمزارع التجريبية ، وقامت بإسكان بعض قبائل البدو والرحل في مساكن حديثة ، ويسرت لهم سبل العيش . كما حاولت استغلال مصادر المياه ، وتحسين مشاريع الري ، وإقامة سدود المياه ، وتعمير العيون ، وإنشاء بعض المحطات للتجارب الزراعية ، وأولت عناية كبيرة للصناعة التعدينية ... وغيرها من المشاريع التنموية، التي حسنت كثيرا من حياة الحجازيين، ونقلتهم تدريجيا من البداوة إلى الحضارة (1).

ومهما يكن ، فإن تحمس الأمير شكيب لتجربتي " محمد علي باشا " في مصر " وآل سعود " في الحجاز ، لا يعني أنهما في نظرنا نموذجين متميزين ، حيث تجنب الحديث عن تبعاتهما السياسية خاصة ، فقد أدى اعتماد " محمد علي باشا " كثيرا على الدول الأوروبية في سبيل تحقيق النهضة المصرية ، إلى فتح أبواب البلاد أمام التدخل الأجنبي ، الذي استفحل فيما بعد في النصف الثاني من القرن 19م ، وأسفر عن فرض الحماية البريطانية على مصر سنة 1882م كما هو معروف (2) .

(\*)- إصلاحات " محمد علي باشا " التعليمية :

- 1- إرساء تعليم ، يعتمد برامج ومناهج حديثة على غرار البلدان الأوروبية .
- 2- الإبقاء على التعليم التقليدي ( الدراسات المتعلقة بالدين الإسلامي واللغة العربية ) ، الذي يستند إلى التقليد والنقل وتلقين الحقائق المسلمة ، دون إعمال الفكر بينها ، محاباة لرجال الدين .
- 3- فأنشأ لذلك ، المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ، على منوال الدول الأوروبية المتقدمة .
- 4- تشجيع التلاميذ والطلبة وتحفيزهم على العلم ، بتوفير كل المستلزمات التعليمية . ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 23 ، 24 ، 25 .

(1)- زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 24 ، 25 ، 26 .

(2)- ينظر علي المحجوبي ، المرجع نفسه ، ص 28 .

أما تجربة آل سعود ، التي قامت على استغلال الموارد الطبيعية ، المتمثلة في البترول بشكل خاص ، عن طريق الشركات البترولية الأجنبية البريطانية والفرنسية والأمريكية (\*) . التي حصلت على امتيازات التنقيب والاستغلال البترولي في المملكة (1) ، فقد مهدت الطريق لهيمنة تلك الشركات على الاقتصاد السعودي ، الذي يمثل فيه البترول مركز الثقل الاقتصادي (2) .

ولأن الأمير شكيب ، كان مؤمناً بأن العرب والمسلمين ليسوا أسوأ من الغربيين ، وبإمكانهم أن يحققوا ما حققوه من رقي عمراني واقتصادي ، فإنه راح يحفزهم على المبادرة مع التحلي بالثقة بالنفس وبالإرادة ، فلما عزم السلطان العثماني عبد المجيد الثاني (\*\*\*) ، على إنجاز مشروع خط السكة الحديدية بين دمشق والمدينة ( الشام والحجاز ) ، والذي قوبل بالرفض والسخرية ، أي باستحالة إنجازه عملياً لأسباب علمية وطبيعية ، كان الأمير من المدافعين عن ذلك المشروع ، فنظم قصيدة شعرية ، حث فيها الجميع على التبرع بالمال لإنجازه ، مبيناً فوائده الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، بالإضافة إلى تسهيل السفر بالنسبة للحجاج ، كما تبرع بنفسه بخمسة عشر جنيه ، وقد تم إنجاز المشروع وبلغ طوله ألفاً وأربعمائة كلم ، وبفضله تم اختصار المسافة على الحجيج من أربعين يوماً إلى أربعة أيام (3) .

وقد اعتبر نجاح المشروع حجة قاطعة ، على بطلان اعتقاد بعض العرب والمسلمين ، بأنهم لا يحسنون شيئاً من المشاريع العمرانية ، وأنه لا بد لهم من الأوروبيين لكي يعمرُوا بلدانهم

(\*)- من الشركات البترولية الأمريكية : " ستاندار أويل أوف كاليفورنيا " ( STANDARD OIL OF CALIFORNIA ) ، وشركة " إيسترن غولف أويل : ( ESTERN GULF OIL ) التي أصبحت سنة 1936م ، تملك سنة 1936م نصف أسهم إمتياز بترول المملكة ، بعد أن أتحدت مع شركة " ستاندار أويل " لتصبح " أربيان أميركان . أويل كامباني " ( ARABIAN AMERICAN OIL CAMPANY ) . كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص 164 ، 165 ، 168 .

(1)- كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، ص ص 162 - 163 .

(2)- زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 26 .

(\*\*\*)- عبد المجيد الثاني : هو آخر الخلفاء العثمانيين ، تولى الخلافة سنة 1922م ، خلفاً لمحمد السادس ، اضطر إلى مغادرة البلاد عقب إعلان الجمهورية سنة 1923م ، توفي سنة 1944م في باريس .

(3)- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 154 .

وأنهم من دونهم لا يستطيعون ، إنجاز أية عمارة أو مرفق ذي أهمية . وعلى خطأ ما ذهبوا إليه، من أنه لا حظ لهم إطلاقاً في الأعمال الاقتصادية، وأن كل مشروع يقومون به ، مآله الفشل إذا لم تكن يد أوروبية فيه . وقد طال تمسكهم بهذا الاعتقاد الفاسد ، حتى لم يبق شيء في بلدانهم ، اسمه اقتصاد ، إلا إذا كانت إدارته تحت إشراف الأوروبي أو اليهودي ، حتى أنه لو أن أحدهم ، أراد إنشاء شركة تجارية أو صناعية أو زراعية، فإنه لا يسمح بدخول رأسمال إسلامي إليها، إلا إذا كانت إدارتها في يد أوروبي أو يهودي : (( وكلمة الجميع عندهم : نحن لا يخرج من أيدينا عمل و لا نصلح لشيء )) .

والنتيجة التي تأسف لها الأمير شكيب ، هو أن مثل هذا الاعتقاد السخيف ، هو الذي جعل الأوروبيين واليهود، يتمتعون في البلاد العربية والإسلامية ، قروناً وحقباً طويلة من الزمن ، دون أن يجدوا في طريقهم من يزاحمهم أو ينافسهم ، يحتكرون أسرار الصناعات والحرف إلا ما كان منها تافهاً ، ولو تم إحصاء ما ضاع من العرب والمسلمين بسبب هذا الوهم ، لوجدنا أن المبلغ يعد بعشرات المليارات ، وكأنهم وجدوا في هذه الدنيا ، ليشغلوا عمالاً وأجراءً بأيديهم لا بعقولهم . فهذا هو السبب ، الذي سمح بخلو البلاد ، لأصناف من الأجانب ، يصلون ويجولون فيها بكل حرية، يجمعون الثروات على حساب أهلها المتقاعسين ، محققين مكاسب طائلة كانوا هم أولى بها ، ولو أنهم أخذتهم الغيرة ، فجربوا استغلالها بأنفسهم ، متخليين عن نمط تفكيرهم البليد ، الذي جعلهم جنائاً في الأعمال الاقتصادية <sup>(1)</sup> .

وهكذا حاول الأمير شكيب، أن يثبت للعرب والمسلمين، بأنه لا مبرر للحكم بالفشل على المبادرات والمشاريع، التي يقومون بها بأنفسهم ، لأنه لا فرق بينهم وبين الغربيين إلا في الإدارة والتضحية ، اللتان إذا توفرتا تحقق النجاح ، مثلما كان عليه الحال في مشروع سكة حديد دمشق المدينة ، فلا وجود لأقوام أو أمم متقدمة وأخرى متخلفة بالفطرة . فالجد والعمل والمثابرة والتحدي، والمقدرة على البذل والعطاء ، هي الصفات التي تحدد مكانة أي أمة أو قومية أو طائفة دينية .

وفي هذا الصدد، أورد الأمير شكيب ، الكثير من الآيات القرآنية ، التي يرى فيها دليلاً على أن الإسلام هو دين عمل، وليس دين كسل و اتكال على القدر الذي هو في حكم المجهول ،

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 157 - 171 .

مهاجما بذلك دعاة الكسل والخمول الذين ساهم : (( الدراويش البطالون )) ، الذين يرفعون شعار: (( رزقنا الله عملنا أم لم نعمل )) . فلقد أراد الإسلام من الإنسان ، أن يعقل ويتوكل ، وأن يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشدا له ، على أن لا يفرط في الاعتداد بنفسه ، إن هو نجح والحسرة والجزع إذا فشل <sup>(1)</sup> .

وختم حديثه، بدعوة العرب والمسلمين إلى الانتفاضة من اليأس ، فبإمكانهم إذا أرادوا بعث العزائم ، وعملوا بما حثهم عليه كتابهم ، أن يصلوا إلى ما وصل إليه الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون، من العلم والرقى . ولا حاجة لهم أن يتخلوا عن إسلامهم ، كما لم يتخلى أولئك الغربيون على أديانهم، بل هم أولى وأجدر . وإن أولئك الغربيين رجال والعرب والمسلمون رجال ، وإنما الذين يعوزهم هو الأعمال ، وإن الذي أضرهم هو التشاؤم والاستخاء وانقطاع الآمال . فلينفضوا عنهم غبار اليأس، وليتقدموا نحو الأمام ، وليعلموا أنهم سيبلغون كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام ، وتحقيق شروط الإيمان التي جاءت في القرآن الكريم <sup>(2)</sup> .

#### 4- الموازنة بين العقيدة والعلوم :

انتقد الأمير شكيب، الآراء القائلة بأن السبيل إلى الرقي والتقدم ، يبدأ بترك العقائد والأديان ، متسائلا عن سبب التقدم السريع والمذهل الذي تشهده اليابان ، وكيف أصبحت أمة عصرية ، يضرب بها المثل في الرقي ، رغم أنها تضرب في جذورها إلى عقائد وعادات ومنازع تعود إلى ألف سنة ، ويكون فيها الإمبراطور هو كاهنها الأعظم ، فلا يقال أنها ( رجعية ) أو ( مرتجعة ) أو ( ارتجاعية ) ، ومتأخرة ومتقهرة : (( فإذا كانت اليابان رجعية فمرحبا بالرجعية )) .

وتساءل أيضا ، عن كون أن ملك إنجلترا وإمبراطور الهند ورئيس الكنيسة الانجليكانية ومجالسه ، يبحثون في جلسات طويلة في قضية الخنزير والخمر ، هل يتحولون إلى جسد المسيح ودمه فعلا ، أم أن ذلك على سبيل الرمز والتمثيل ؟ بمجرد تقديس القسيس ؟، فلا يقال عنه أنه رجعي ، ولا عن بريطانيا العظمى أنها متأخرة أو متقهرة . وختم تساؤله قائلا : (( فإذا كانت إنجلترا متقهرة فيا حبذا للتقهرة )) .

(1) - ينظر شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 113 - 114 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 177 .

وتساءل أيضا ، لماذا لا نقول عن القارة الأوروبية المسيحية ( رجعية ) و ( ارتجاعية ) ، وهي التي تفتخر بمسيحيتها ، وتتباهى بذلك في كل مناسبة ، وهي التي تقدر عمر الديانة المسيحية فيها بـ 19 قرنا ، متحدة مع بعضها البعض رغم ما بينها من منافسات وعداوات . وأضاف بأن الأمر كذلك ينطبق على اليهود ، الذي لا نستطيع أن ننفي عنهم المقدرة والذكاء والحس العلمي والجد الهائل ، لا يزالون رغم كذلك يفتخرون بالتوراة التي وجدت منذ آلاف السنين ، ويشاركونهم في الشعور ذاته المسيحيون . ويجتهد شبابهم في إحياء لغتهم العبرية ، التي لا يجهل مبدأ تاريخها ، لإيغالها في القدم ، رغم أنهم بلغوا أشواطا عظيمة في الرقي العصري ، فلا يهتمون بكونهم ( رجعيون ) و ( متأخرون ) و ( قهقريون ) (1) .

وبالتالي فإن اتهام العرب والمسلمين بالرجعية ، حكم لا يستند إلى أي دليل منطقي أو علمي بالنسبة للأمير شكيب ، فالتمسك بالخصوصيات ومنها العقيدة أو الديانة ، لن يشكل بأي حال من الأحوال عائقا أمام التدرج في سلم الرقي والتقدم ، وقد ضرب أمثلة حية بالأمة اليابانية التي حافظت على دياناتها القديمة المتمثلة في البوذية ( \* ) والكونفوشيوسية ( \*\* )

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 97 ، 98 ، 101 .  
 (\*) - البوذية : وهي الطريق إلى الحكمة ، تنسب إلى " بوذا " ( جوتاما سد هارتا ) المولود في حوالي العام 563 ق.م ، في " كابيلا فاستو " ( KAPILAVASTU ) فيما يعرف اليوم باسم " نيبال " - NIPAL - . وقد توصل بعد سنوات من الزهد والانضباط والنقش ، إلى أنه لا الطرف الأقصى للانغماس في الملذات ، ولا الطرف الأقصى في النقش الشديد ، يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف أسباب المعاناة . وتقوم رسالة الاستتارة عند " بوذا " على أربعة حقائق هي : ( هناك معاناة - للمعاناة أسبابها - المعاناة يمكن القضاء عليها من خلال التخلص من أسبابها - السبيل للقضاء على أسباب المعاناة هو إتباع الطريق الوسيط ، الذي يشكله الطريق ذو الشعاب الثماني ) . للمزيد ينظر جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 1995م ، ص 185 وما بعدها .  
 (\*\*) - الكونفوشيوسية : نسبة إلى " كونفوشيوس ولاوتسو " ، الذي ولد في عام 551 ق.م ، واستمد تعاليمه من الكتب الكلاسيكية الخمسة وهي :

1- كتاب الشعر ( شيه تشينج SHIH CHING ) : وهو مجموعة من الشعار تعود إلى عهد " تشو " .

2- كتاب لتاريخ ( شو تشينج SHU CHING ) : وهو مجموعة من السجلات والخطب والوثائق الرسمية

من 2000 إلى 700 ق.م .



والطاوية (\*\*\*) . وبالأمم الأوروبية المسيحية التي لا تزال تتمسك بالعتيدة المسيحية، رغم إتباعها للعلمانية التي تقوم على فصل الدين عن الدولة واعتبار التدين مسألة شخصية . أما الدولة العبرية فقد قامت على العتيدة اليهودية ، وسمت اسمها باسم إسرائيل أحد الأنبياء اليهود ، فالعتيدة جزء لا يتجزأ منها، ولا يمكن فصلها عن كل أوجه الحياة فيها . لكن الذي تساءل بشأنه الأمير هو ليس هذا ، وإنما رمي البلاد العربية والإسلامية بالرجعية، كلما حاولت أن توازن بين

3- كتاب التغيرات (آي- تشينج I- CHING ) : وهو مجموعة من الصياغات لتفسير الطبيعة ، تستخدم على نطاق واسع في أغراض العرافة ( ويعزى هذا العمل تقليدياً إلى وينج وانج WENG WANG 1100 ق.م ) .

4- كتاب الطقس ( لي تشي LI CHI ) : وهو مجموعة من القواعد ، التي تنظم السلوك الاجتماعي ، وقد تم تأليف هذا الكتاب بعد كونفوشيوس ، ولكنه قد يمثل بصورة جيدة القواعد والعادات التي تعود إلى عصور سابقة .

5- حوليات الربيع والخريف ( تشون تشو CHUN CHIU ) : وهو تأريخ للأحداث في الفترة من 722 إلى 464 ق.م .

- أما فكر " كونفوشيوس " ، فقد تضمنته الكتب الأربعة التالية :

1- مختارات كونفوشيوس ( لون يو LUN YU ) : وهي أقوال كونفوشيوس لتلاميذه ، وقد قاموا بجمعها وتنسيقها .

2- عتيدة الوسط ( تشونج يونج CHUNG YUNG ) يضم تعاليم تنسب إلى كونفوشيوس حول تعاليم الحياة  
3- العلم العظيم ( تاهسو TAHSUEH ) : وهو يضم تعاليم كونفوشيوس التي تحتوي اقتراحاته الخاصة بنظام الحكام .

4 - كتاب منشيوس ( منج تسو MENG TZU ) : وهو شروح على متن مبادئ كونفوشيوس ، كتبها " منشيوس " الذي يعد من الشراح الأوائل لكونفوشيوس . ينظر جون كولر ، المرجع السابق ، ص 333 وما بعدها .

(\*\*\*)- الطاوية : تنسب إلى " لاوتسو " ، الذي ولد في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وقد دعا إلى حياة طبيعية ومنتاسقة ، يتم فيها التخلي عن دافع الربح ، وإزالة الحذق جانباً ، بالإضافة إلى التخلص من الأنانية ، والتقليل من الرغبات . حيث كانت الصين تعج بسلوكيات الطمع والرغبة ، الأمر الذي أوجد لها مشاكل وصعوبات ومعاناة كبيرة . وعليه فإن فلسفته تؤكد على الحاجة إلى العودة إلى نهج الطبيعة الأول . وقد عبر عن ذلك أحد التاويين بقوله : أنه مادام الطمع وحب اكتساب المال ، يشكلان دوافعاً للأفعال الإنسانية ، فلا أمل هنالك في تحقيق السلام والرضا . جون كولر ، المرجع نفسه ، ص 335 - 336 .

العقيدة الإسلامية والنهضة العلمية ، في حين لا توجه التهمة ذاتها إلى تلك الأمم السالفة الذكر ، رغم تعصب بعضها كاليهودية على سبيل المثال . والسبب واضح في نظره ، وهو إبعاد العرب والمسلمين عن الدين الإسلامي ، الذي يشكل القاعدة الأساسية التي تبنى عليها أية نهضة علمية أو اجتماعية ينشدونها.

ومن أغرب الغرائب التي استوقفت الأمير شكيب ، وجود فئة من الأوروبيين لا تتوانى في نعت الإسلام بالجبرية ، ونسب انحطاط المجتمعات العربية والإسلامية إلى العقيدة الإسلامية ، متناسية ما هو وارد في الإنجيل من آيات القضاء والقدر ، التي تماثل ما في القرآن الكريم أو تزيد عليه ، مثل قوله : (( لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذن أبيكم السماوي )) ... وغيرها . فلا نجد في الأوروبيين ، الذين يجتهدون في العمل ويجرون وراء الكسب ، ويفكرون في القضاء والقدر إنكارا تاما ، إلا من يقرأ الإنجيل ويقدم ويعجب بمبادئه السامية ، كما يعجب المسلمون بالقرآن الكريم ؟ . فما بالهم لا يصفون أقوال المسيح عليه السلام بالجبرية يتساءل الأمير شكيب ؟ . ويخلص إلى القول ، أن آيات القضاء والقدر في كل من القرآن الكريم والإنجيل ، إنما القصد منها ، هو تأكيد سبق علم الله بكل ما يحدث وليس : (( نفي الاختيار والترهيد في الكسب )) (1) .

وبهذا يكون الأمير شكيب ، قد نفى نفيها تماما اتصاف العقيدة الإسلامية بالجبرية ، مثلما ذهب إليه منتقدوها من الأوروبيين ، فلا مجال للشك عنده بأن الإسلام باعتباره ينظر للوجود كله نظرة تكاملية ، قد حث على التأمل في الكون والنفس والتاريخ الإنساني ، فجاء الحديث عن الكثير من الظواهر الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، لكي يتمكن الإنسان من أن يكشف القوانين العلمية ، التي يسري بها الكون ويتطور من خلالها المجتمع . ومنه فإن الدعوة للعلم والبحث العلمي ، أصلية في الإسلام (2) .

ومن المفيد هنا ، الإشارة إلى أن الموقف الغربي من قضية المزاجية من عدمها ، بين العقيدة الإسلامية والنهضة العلمية ، نابع من المؤثرات التاريخية والحضارية البعيدة الجذور ، التي شكلت الفكر الغربي وفلسفته ، حيث انتقل الغرب من الإيمان بألهة اليونان والرومان

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 114 - 115 .

(2) - عبد التواب يوسف ، المرجع السابق ، ص 123 .

الوثنية ، إلى الإيمان النصراني في إطار المفاهيم الكنسية والنظام الكنسي ( الإكليروس ) ، ثم أخيرا إلى الإلحاد والمبالغة في الاتجاه العقلي أثناء القرن التاسع عشر ، الأمر الذي أدى إلى التملص من الكنيسة ومعتقداتها الدينية ، حيث تم اعتبارها حليفة للإقطاع والرجعية ، ومخدرة للشعوب ، ومجانبة للعلم . والنتيجة أن منهج البحث الغربي ، جانب النظر إلى الإنسان ، كونه روح ونفس وعقل <sup>(1)</sup> . وعليه فإن الحل الأوروبي للقضية ، لا ينطبق بالضرورة على المسلمين ، بسبب الاختلاف العميق في الظروف والديانتين المسيحية والإسلام <sup>(2)</sup> .

ومن جانب آخر ، رد الأمير شكيب على بعض العرب والمسلمين ، الذين ينشدون النهضة القومية دون النهضة الدينية ، فيذكر أنهم يقولون ما جدوى العودة إلى القرآن الكريم ، في إستنهاض الهمم إلى التعليم ، بحجة أن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية ، كما حصل في النهضة الأوروبية . ويجب على هؤلاء ، بأن النهضة سواء كانت أم دينية ، يخشى عليها إن جردت من دعوة القرآن ، فتفضي بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان ، والانغماس في الشهوات . ولهذا فمن الضروري - حسبه - ، أن تكون هنالك تربية علمية ، تسيّر جنبا إلى جنب مع التربية الدينية .

أما القول ، بأن النهضة الأوروبية ، جرت دون تربية دينية فيعتبره خطأ ، ويضرب على ذلك مثلا بأحد رؤساء النظار في " الرايستاغ " (مجلس الشعب الألماني ) ، الذي قال بأن الثقافة الألمانية مبنية على الدين المسيحي ، مع العلم أن ألمانيا تمثل النموذج المتميز في العلم والصناعة ، وجودة الآلات والأدوات ، بشكل لا ينافسها في ذلك منازع . ويستفسر الأمير ، إن كانت توجد جامعة في ألمانيا أو إنجلترا ، أو في غيرها في الدول الأوروبية المتقدمة ، لا يدرس فيها علم اللاهوت المسيحي .

أما التسميات التي تطلق في أوروبا ، من قبيل : ( نهضة وطنية ) أو : ( نهضة قومية ) أو : ( جامعة وطنية وقومية ) ، فيرى أن المقصود بها ليس الوطن بمفهومه الضيق : (( التراب والماء والشجر والحجر )) ، ولا بالقوم السلالة ، التي يشترك أفرادها ، في كونهم ينحدرون من دم واحد ، و : (( إنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من

(1) - أكرم ضياء العمري ، المرجع السابق ، ص 66 .

(2) - محمد قطب : قضية التنوير في العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 69 .

جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث و عقيدة وخلق وعادة مجموعا ذلك معا ، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبلسون كل هذا الإستبسال من أجله)) (1) .

وفي واقع الأمر ، لم تستطع أوروبا الحديثة، التخلص من حضور الفكر الديني فيها حتى وهي التي ثارت على كل قيم الكنيسة ، التي حكمتها طيلة العصور الوسطى ، وعملت بكل حزم وإصرار على تثبيت الواقع الإجتماعي المتردي للإنسان الأوروبي . وتكريس الإنقسام والتشردم ، وقتلت في أكبر شرائح المجتمع كل تطلع للرقي والتقدم في هذا العالم . مغذية الإنسان الأوروبي ، بتعاليمها التي تقوم على أن الإنسان في هذه الحياة يمثل خطيئة آدم وحواء المتحركة على الأرض ، وأن العالم بكامله لا يستحق من النصراني الحقيقي إلا الإزدراء ، وصولا به إلى الحياة الأبدية التي ستعوضه عما فقده في الحياة الأولى، من متع وملذات وما أصابه من بلاء . وحافظت بقوة على التخلف الإجتماعي ، وأضحى كل مصلح في نظرها هرطيقا زنديقا ، يعاقب بالحرمان وينتهي أمره بالقتل ، وفي الغالب يحرق أو يمثل بجثته (2) .

في حين كان الإسلام ، عاملا دافعا للفكر والعقل والإبداع والحرية ، لكونه : (( جاء وافيا بحاجة الناس أفرادا وجماعات عادلا سهلا من غير إفراط و لا تفريط ، ولم يفصل ... بين الدين والدنيا ، وجمع بين الروحانيات والماديات ، ومزج العقيدة بالحياة ... واعتبر كل عمل من أعمال الخير عبادة ، وأمتاز التشريع الإسلامي بعمومه وشموله .. أنه يخاطب العقل ، وينزع نزعة جماعية لصالح الفرد والمجتمع )) (3) .

ومنه فقد دافع الأمير شكيب بقوة ، عن فكرة الموازنة بين العقيدة والعلوم، لتحقيق النهضة ليس لدى العرب والمسلمين وحسب، بل لجميع الأمم والأقوام التي ترغب فإن تكون نهضتها المنشودة، مبينة على أسس متينة تراعي الجوانب الروحية والمادية مجتمعة ، وفي ذلك قال بأنه يكن كل الاحترام ، للأمم التي توازن بين العقيدة والعلوم ، وأنه لا يرى في ذلك أي ضرر بالرقي المادي ، بل العكس أنه نافع وضروري ، فالمجتمع يحتاج لتكامله إلى الموازنة

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتأخر غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 147 - 148 .

(2) - للمزيد ينظر عبد العزيز عبد الغني إبراهيم : محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث ( عصر النهضة ) ، منشور ELGA ، مالطا : 1999م ، ص 13 وما بعدها .

(3) - عبد التواب يوسف ، المرجع السابق ، ص 118 .

بين المادة والروح . ولن ينجح المسلمون إلا إذا ساروا في هذا النهج ، وهو بناء ثقافتهم على الجمع بين العقيدة الإسلامية والعلوم الطبيعية ، وكما تيسر هذا الجمع لغيرهم ، تيسر لهم (1) . وهو رأي أيده " غوستان لوبون" ( GUSTAV LE BON ) (2)، الذي اعتبر المبادئ الدينية أهم المبادئ التي تيسر عليها الأمم ، وأنها منار التاريخ وعماد الحضارة ، وقد كانت على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم ، وهي بسبب ذلك أهم عنصر في تاريخها . وقيام الديانات وسقوطها ، كان أكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار . كما أن كل الأنظمة السياسية والاجتماعية : (( قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية ، وأن الآلهة هي التي تلعب أكبر دور في الحياة الإنسانية )) .

وهكذا يتبين لنا أن الإبراهيمي ، قد جعل من إصلاح علماء الدين أولوية الأولويات ، للوصول إلى النهضة الشاملة في العالم العربي الإسلامي ، كما أنه وضعهم في المرتبة الأولى قبل غيرهم من العلماء في المجالات العلمية الأخرى ، دون أن يقلل من شأن أو أهمية هذه الأخيرة ، فهو إذن تقديم في المنزلة وليس إقصاء ، انطلاقاً من كون أن الإسلام أولى منذ ظهوره أهمية بالغة لطلب العلم والمعرفة بكل أنواعها ، وعد ذلك فريضة وجهاداً ، والنصوص المعبرة عن تلك القيمة الرفيعة كثيرة في القرآن والسنة .

وبقدر ما أظهر امتعاضه وأسفه ، لما آل إليه حال علماء الدين المسلمين ، بالمقارنة مع أسلافهم ، فإنه أبدى تفاؤلاً في معالجة الأمر ، من خلال النصائح الدقيقة التي قدمها لهم ، والتي كشفت عن ثقافته التربوية والدينية العالية من ناحية ، وعن اعتقاده الراسخ بأن النهضة العربية والإسلامية المنشودة ، لا يمكن أن يقودها إلا علماء الدين ، للأسباب التي ذكرها وأوردناها .

ولذلك وجدناه، يتمنى أثناء رحلته التي قادت إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي سنة 1952م ، لقاء من يمكن لقاءه من إخوانه وزملائه العلماء ، وأن يتبادل معهم الرأي بأمانة الإسلام وإخلاص المسلم ، في إيجاد العلاج للعلل التي أصابت المسلمين بمن فيهم العرب ، حتى

(1) - أحمد الشرباصي : الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 126 .

(2) - ينظر عوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة احمد فتحي زغلول باشا ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت : دت ، ص 129 و ما بعدها .

أضحوا فيها مضرب المثل في هذا العصر ، الذي أصبحت فيه القوة دينا يعتنق ، وتنافست فيه الشعوب ، على اختلاف دياناتها وثنية أم كتابية ، على سيادة العالم . في حين أن المسلم الذي لديه القرآن الكريم ، مستسلم للضعف والعبودية ، مشتت القوى والصفوف ، حتى في أكثر الأمور بديهية، عقله جامد وقواه راكدة ، غافل عن عواقب كل ذلك ، يضيع وقته في الكلام غير المجدي والأعمال التافهة ، وقد بلغ الأمر حسبه حدا لا يطاق (1) . مع إقرار بعض النماذج الممتازة من علماء الدين في عصره ، وقد ذكر منهم الشيخ "عبد الحميد ابن باديس" رفيقه في الإصلاح، وفي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

أما الشرط الثاني للنهضة ، فقد حدده في إحياء الدين الإسلامي ، الذي أرجع الأمر إليه فيما وصل إليه المسلمون الأوائل من رقي وازدهار؛ بتحريره للعقل البشري والمرأة والحيوان، من العبودية والاستغلال والظلم . وضمنه، فند المزاعم التي تذهب إلى أن النهضة العربية والإسلامية ، لا تتم بالإسلام ، معطيا أمثلة باليهود الذين أقاموا دولتهم على معتقداتهم اليهودية ، والهنود الذين بنو حضرتهم ومستقبلهم على ديانة البقر ، مستغربا وجود فئة من المسلمين ، تستحي من مجرد الحديث عن الدولة الإسلامية جبا أو خوفا . ليخلص إلى أن الوقت لم يفت بعد ، لإحياء الدين الإسلامي ، الذي لا سلاح غيره في نظره لكي ينهض العرب والمسلمون ، حيث يمثل المرجع الوحيد، الذي يستلهمون منه أسباب القوة الروحية والمادية ، وهي المهمة التي حملها لجميع الفئات الاجتماعية بدون استثناء . خاتما حديثه بإبداء تقاؤله بعودة سلطان الدين الإسلامي ، وداعيا إلى إحيائه بين المسلمين أولا، ثم طرحه كبديل حضاري لغيرهم ثانيا . لأنه بحسب يحمل عناصر الإصلاح ، لكل المجتمعات حتى غير العربية والإسلامية .

أما الشرط الثالث للنهضة في تقدير الإبراهيمي ، هو تفعيل دور المثقفين العرب والمسلمين ، وقد بدأ حديثه عن ذلك ، بتحديد مفهومه للمثقفين الحقيقيين ، والصفات المفروض أن يتصفوا بها ، ثم عرج إلى مكانتهم العالية في الأمم الحية ، مبينا نتائج تخليهم عن دورهم القيادي في الأمة . وبعد إن انتقد مسلكهم الخاطئ بحسبه ، حملهم مسؤولية الوضع الذي آلت إليه الأمة ، وحثهم على بناء أنفسهم وشخصيتهم من كل النواحي، إن هم فعلا أرادوا خدمة الأمة ، وعلى توجيه جهودهم وعنايتهم للمستقبل وليس للماضي كما كانوا يفعلون ، فيجددوا

(1) -محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 61.

الثقافة العربية الإسلامية التي زهد الشباب فيها ، لأنها لم تعد تستجيب لتطلعاتهم ولواقعهم الحياتي . وفي الأخير دافع عن ثقافة عربية إسلامية ، جوهرها التاريخ العربي الإسلامي .

وفي الشرط الرابع ، الذي تضمن التصدي للتبشير المسيحي الغربي، فقد أكد الإبراهيمي على أن التبشير هو نتاج للتعصب المسيحي، الذي يستند إلى القوة العسكرية، وعلى أنه مجرد وسيلة في يد القادة السياسيين ، وأنه استمرار للحروب الصليبية التي لم تتوقف حربه، وإنما تتكيف فقط مع ظروف كل عصر . واعتبره أيضا أداة في يد الدول الاستعمارية الكبرى ، التي توظفه لإنجاح مشاريعها وسياساتها لا غير ، أما مسألة الإخلاق له فهي مستبعدة جدا في نظر الإبراهيمي ، مستشهدا بما حدث في الجزائر في هذا الصدد ، حيث سعى الاستعمار الفرنسي إلى إبعادها عن دينها ، ليس بسبب عواطف قادته المسيحية ، وإنما لكي يمزق وحدتها ويبقيها دائما تحت سيطرته . منبها إلى أنه وجد من الجزائريين من أعانه على ذلك ، وهم شيوخ الطرق الصوفية ومؤطروها المنحرفون ، الذين لم يمهّدوا الطريق للتصير فحسب ، بل ساهموا في فشو الإلحاد ومعاداة الدين .

وختم حديثه بالاستنتاج؛ أن الاستعمار والتبشير شيء واحد ، والتنبؤ بنهاية المسيحية على يد الاستعمار الذي تحالفت معه ، وبتبنيه وتحذير المسلمين إلى أن مقاومة التبشير ومخططاته قادته ، لا تتم بالخطابة والحماسة كما هو حاصل ، وإنما ببذل الأموال ، ساخرا من أغنياء المسلمين، الذين لم يقدروا بعد، أنه من واجبهم الإنفاق بسخاء في سبيل إفشال المشاريع التصويرية، التي تهدف إلى إخراج أمتهم من دينها ، وإدخالها في ديانة المستعمر .

و في المقابل ، جعل أرسلان أخذ العبرة من الماضي، الذي يعني بالنسبة إليه العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية ، شرطا أولا للنهوض ، فوضح أن جوهر تلك الحضارة كان الإسلام الذي حرر العقل من العصبية والقبلية والوثنية ، فأدى ذلك إلى تحولات كبيرة في كل المجالات ، اعترف بها الكثير من الكتاب الغربيين المنصفين على مر العصور . وفند الإدعاءات، التي كانت تفيد بأن الإسلام دين يعيق التطور والتقدم ، واعتبرها مفتريات ليس إلا ، مؤكدا قطعيا بعدم وجود ، دين آخر غير الإسلام يقدر العلم والعلماء مثله . ثم بين أنه ليس المسؤول، عن ما حصل للعرب والمسلمين من تخلف وانحطاط ، مثلما لا يمكن تحميل تخلف

العصور الوسطى في أوروبا للمسيحية على سبيل المثال ، فالمشكلة حسبه ليست في الدين، وإنما في كيفية استخدامه . وانتهى إلى إيداء استغرابه بوجود فريق من المسلمين يتبنى تلك الطروحات؛ ومنهم حكام تركيا الجدد ( الأنقريون ) ، الذين استبدلوا الشريعة الإسلامية، بالقانون المدني السويسري وقانون الجزاء الإيطالي ، وقد بلغ الحد بقائدهم "مصطفى كمال أتاتورك"، أن اعتبر الدين الإسلامي خطرا على الدولة .

كما اشترط أرسلان ؛ ضرورة اقتحام غمار العلوم و الاقتصاد ، فكشف أنه ليست ثمة فروق في القابلية البشرية للتعلم ، لأن كل الأقوام سواسية في هذا الإطار بقوة الفطرة . وأرجع علة التخلف العلمي في البلاد العربية والإسلامية ، إلى الشعور بالضعف والعجز، وعدم المبادرة والاجتهاد والبحث، أو ما اصطلح عليه بالأزمة الفكرية . فدعا إلى إصلاح حال العلماء، واقتدائهم بالعلماء الأوائل ، الذين تميزوا بكونهم قادة وحراسا ومترفعين عن كل الشبهات . وإلى الاقتباس من الغرب مع التمسك بالخصوصيات ، مستشهدا بالمثل الياباني للوصول إلى الرقي والتحكم في الصناعات الحديثة . ودعا أيضا إلى الإسراع في النهضة الصناعية والزراعية ، وريح المعركة الاقتصادية بتشجيع المنتجات المحلية وإدخال التقنيات والآلات الحديثة في الزراعة. وتوجيه الثروة البترولية ليس إلى الأسواق الخارجية، وإنما لتحويلها إلى طاقة كهربائية ، تستخدم في استصلاح الأراضي البور والمستنقعات ، مع الحذر الشديد في الاعتماد على الشركات الأجنبية، التي ينبغي تقنين دورها .

وإضافة إلى ذلك ، حث أرسلان على ضرورة التحلي بالإرادة وروح التضحية ، فأكد على أن النهضة لا تتم إلا بالإرادة وبذل الأنفس والأموال ، وكذب المزاعم التثبيطية الرائجة في ذلك الوقت ، التي تضمنت عدم القدرة على مجاراة الغرب ، فاعتبرها تعبيرا عن روح الهزيمة والضعف، التي تمكنت من نفوس أجيال عديدة من أبناء العرب والمسلمين . ودليله في ذلك: هو التجربتان اللتان خاضهما "محمد علي باشا" في مصر و"عبد العزيز ابن سعود" في الحجاز، اللتان كشفتنا حسبه عن إمكانية النهوض، إذا توفرت العزيمة والإرادة . وفي هذا الصدد شجع الأمير شكيب كل المبادرات العربية والإسلامية، التي كانت محل سخرية من الجميع، كمشروع سكة حديد دمشق الحجاز ... إلخ، بقلمه ولسانه وماله . وخلص إلى أن احتقار المسلمين لأنفسهم



وشعورهم بعدم الجدوى ، هو الذي فسح الطريق أمام الأوروبيين واليهود، لكي يتحكموا في مصائرهم الاقتصادية .

أما الشرط الرابع، فيما ذهب إليه أرسلان ، فهو الموازنة بين العقيدة والعلوم ، فبدأ بانتقاد الرأي القائل بأن الطريق الوحيد يبدأ بترك العقائد والأديان ، مبدئياً استغرابه من كون أن أصحابه خصوا المسلمين فقط دون غيرهم من الأمم المتمسكة بعقائدها مثل : اليابان والهند واليهود وكل أوروبا المسيحية ، الذين لا يقال لهم رجعيون بالرغم من ذلك ، والسبب في رأيه هو إبعاد العرب والمسلمين عن النهضة . ورد على بعض العرب والمسلمين ، الذين نشدوا النهضة القومية بدون الدينية ، بتأكيد ضرورة وجود تربية علمية، تسير بالموازاة مع التربية الدينية، لأن كل المجتمعات برأيه، في حاجة إلى الموازنة بين المادة والروح ، وإلا ما جدوى أن تفرض كل الجامعات الألمانية والأوروبية، تدريس علم اللاهوت المسيحي لطلبتها .

وبالمقارنة ، نصل إلى أن الإبراهيمي وأرسلان ؛ قد تقاطعا في بعض النقاط واختلفا في أخرى ، فمن الأولى نذكر دفاعهما عن فكرة أن الإسلام ، الذي استطاع أن يوجد للعرب حضارة متميزة ، عجزوا عن إثباتها قبل مجيئه ، سيظل قادرا على إعادة ذلك المجد الحضاري الضائع ، شرط أن يستعيدوا التدبر فيه ، والعمل بما جاء من معان وخلق عليا وشريعة وقيم . وأنه لا مجال لأية حركة أو نهضة، أو انبعاث حضاري ، لا تنظر إلى الدين الإسلامي ؛ على أنه العنصر الأساسي الفعال ، الذي لا ينبغي بأي حال من الأحوال، إقصاءه من العملية في كل مراحلها ، أو التقليل من أهميته فيها . فالدولة التركية، لم تتمكن من تحقيق التقدم الذي سعت إليه بكافة الطرق والوسائل ؛ ومنها طرح الإسلام جانبا بل ومحاربتة ، بقيت رغم ذلك متخلفة ، لا هي وصلت إلى ما وصلت إليه الدول الغربية، من تفوق علمي وازدهار اقتصادي ، ولا هي حافظت على خصوصياتها الإسلامية والشرقية . وهو دليل كاف حسب الإبراهيمي وأرسلان ، على أن الإشكالية لا تكمن في الدين كدين ، وإنما في فهمه والتعامل معه . ومن ثمة فقد حاولا تنفيذ وإبطال صحة كل الآراء والأفكار والنظريات ، التي سبقت في هذا الإطار ، التي كشفت أنها مجرد أكاذيب وافتراءات ، لا أساس لها من الصحة ، يخفي وراءها أصحابها حقدهم الدفين وكرههم الشديد للإسلام ، حيث يدركون جيدا أنه أكثر الديانات، التي قامت على تحرير العقل

والفكر والحريات ، فجعل من ذلك شرطا للتمكين في الأرض وعمارته . مستغلين في ذلك الوضع السيئ، الذي كان عليه العرب والمسلمون المتأخرون ، لكي يلصقوا عمدا تهمة التخلف والانحطاط بالإسلام كدين، وليس بالمسلمين الذين أسأؤوا استخدامه، أو ابتعدوا عن روحه وقيمه ومثله الإنسانية والحضارية .

ولقد لاحظنا أن الإبراهيمي وأرسلان على حد سواء قد استفادوا في مناقشة هذه القضية ، والإتيان بالحجج والمبررات، التي تدحض تلك الآراء والأفكار والنظريات المعادية للإسلام ، وهو ما يكشف أنها كانت في عصرهما تشغل، حيزا كبيرا من المساجلات والمجادلات، بين أصحابها من الكتاب والمفكرين الغربيين وتلامذتهم الشرقيين من جهة ، وبين قادة النهضة والإصلاح من جهة ثانية . وفي هذه النقطة لفت انتباهنا أن الرجلان ، لم يستغربا كثيرا استماتته أولئك الغربيين في ما ذهبوا إليه ، لأن الأمر طبيعي بالنسبة لهما ، يمكن تبريره بمنطق الصراع الديني والفكري والحضاري الذي ، دفعهم إلى تنويع وسائل ضرب الإسلام ومهاجمته . لكن الذي كان يثير دهشتها باستمرار ، هو تنامي تلك الفئة المتعلمة أو المثقفة من أبناء العروبة والإسلامية ، التي سلمت بتلك المضامين الفكرية ولم تكتف بذلك ، بل راحت تروج لها ما أمكن لها ذلك . وقد أرجعنا ذلك إلى آفة التغريب والاستلاب الفكري ، التي تمكنت من عقولهم الهشة وأنفسهم الضعيفة .

واتفقا أيضا على أهمية ، الأخذ بأسباب التفوق المادي الغربي ، مع التمسك التام بالخصوصية الدينية والثقافية، والحضارية العربية الإسلامية ، المختلفة كلية عن نظيرتها لدى الأمم الأوروبية . وفي هذا الصدد عد كل منهما التجربة اليابانية، أفضل ما يمكن إتباعه ، حيث انفرد اليابانيون بكونهم قاموا باقتباس كل ما استطاعوا الحصول عليه، من علوم ومعارف وصناعات الغرب ، التي حولوها في وقت قصير إلى بلدهم ، وتركوا ما دون ذلك من قيم وأخلاق وسلوكات وعادات ، لأنها تتعارض ومنظومتهم القومية . بل أنهم لم يكونوا البتة متساهلين في هذا الجانب ، إذ منعوا التعامل مع أي بلد غربي ، يشتبه فيه محاولة اختراقهم، وخاصة في مجال التبشير الديني المسيحي، الذين انتبهوا إليه منذ الوهلة الأولى ، إلى أنه ليس عملا دينيا صرفا ، وإنما ممرا للتمهيد للسيطرة الاستعمارية في المستقبل . فكانت الإجراءات المتخذة ،

بمثابة تحصين لليابان من الذوبان أمام المد التغريبي ، الذي وجد سهولة كبيرة في البلاد العربية والإسلامية ، لكونه لم يجد الحصانة والحيطه والحذر الذين وجدتهما مع اليابانيين . وعليه فقد نبه الإبراهيمي و أرسلان ، إلى أن الأخذ بأسباب تقدم ورقي الآخر ، لا يعني إطلاقا ، نقل كل شيء عنه حتى وإن كان تافها ، لأن العرب والمسلمون - حسبهما يملكون مرجعية دينية وثقافية ، أقوى من نظيرتها لدى الأمم الغربية ، تستند على الإسلام والمثل والقيم الشرقية الرفيعة ، ومنه فلا حاجة لهم لأن يتحولوا إلى أوروبيين أو غربيين .

وأجمعا أيضا ، على الأهمية القصوى لإصلاح العلماء ، لكن مع اختلاف بين في كون أن أرسلان؛ اكتفى بالإشارة إلى ذلك، والقول بأن الإصلاح يكون عن طريق الإقتداء بالعلماء الأوائل ، الذين رأى فيهم ، متميزين بكونهم قادة وحراسا، ومترفعين عن كل الشبهات ، دون أن يذكر على وجه التحديد: هل يقصد العلماء بصفة عامة، أو علماء الدين بصفة خاصة .

في حين كان الإبراهيمي واضحا ، حيث خص علماء الدين على غيرهم من العلماء ، وأسهب في توصيف حالهم في عصر التخلف والانحطاط ، معرجا على ما اعتبره النماذج السامية والراقية لعلماء الدين ، في عصور الازدهار الأولى للإسلام . وذهب بعيدا في تحليله ونصائحه ، التي أظهرت أنه كان يمتلك ثقافة دينية عالية ، جعلته يقف على حقيقة الخلل الذي أصاب هذه الفئة من العلماء ، الذين أصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، ومنقادين بعد أن كانوا قادة . وتبعاً لذلك فقد ربط عودة القوة والتمكن للعرب والمسلمين ، بعودة الإسلام إلى جميع مناحي الحياة ، والذي لن يكون حسبه إلا بإصلاح علماء الدين الأواخر، ومساهمتهم الفعالة والعملية في قيادة مجتمعاتهم، وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهي المهمة التي شدد الإبراهيمي، على أن لا تترك لغيرهم وخاصة القادة والحكام ، الذين لا يراعون مصلحة الدين ، بقدر مراعاتهم لمصالحهم الشخصية وانقياد العامة لهم .

كما لم يختلف الإبراهيمي وأرسلان ، في كون أنه لا سبيل أمام العرب والمسلمين ، لمغادرة دائرة الانحطاط والتخلف ، إلا باقتحام غمار العلوم والاقتصاد ، سيرا على نهج الدول الأوروبية ، التي لم تحقق ثورتها الصناعية ، إلا بفضل العلوم التجريبية ، وقبل ذلك لأنها وقفت من الحضارة العربية الإسلامية موقف التلميذ ، تعلمت وترجمت واستوعبت ، ثم أبدعت تقدما

وحضارة . و الأمر ذاته بالنسبة للتجربة اليابانية ، التي لم تحقق النجاح الذي حققته ، إلا لكونها نظرت إلى الحضارة الغربية نظرة التلميذ ، فاستوعبت منها الأفكار بوجه خاص . وفي المقابل ما ذلك ، وقف العرب والمسلمون المتأخرون ، من تلك الحضارة موقف الزبون ، فاستوردوا منها الأشياء بدل الأفكار <sup>(1)</sup> .

هذا بالنسبة لنقاط التوافق بين الرجلين ، أما فيما يخص نقاط الاختلاف فهي عديدة ، ومنها أن الإبراهيمي قد أثار مسألة الدور الأساسي، الذي يمكن أن تؤديه الشريحة المثقفة في النهضة ، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن المثقف ، وفق ما أورده الإبراهيمي يشمل العالم والفقير والشاعر والأديب والمعلم والمتعلم ، حيث طلب منهم أن يكونوا البوصلة التي تنير للأمة طريقها في الحاضر والمستقبل . وفي هذه النقطة حري بنا أن نبين أن الشيخ البشير، قد انتقد المثقفين بالثقافة العربية الإسلامية والغربية على حد سواء ، بسبب عيوبهما التي حددها في الجهل المطبق بأحوال العصر بالنسبة للصنف الأول ، والجهل الفطيع للصنف الثاني بكل ما هو شرقي لغة ودينا وحضارة وقيما ، وهو الحال الذي كان مكرسا في أغلب الأقطار العربية والإسلامية. والإبراهيمي لما ذكر أن المثقفين، هم الأولى بقيادة الأمة عن السياسيين ، لسنا ندري إن كان ذلك يناقض ما أشرنا إليه سابقا، حينما حسم أمر القيادة لعلماء الدين ، الذين وإن بين أنه يضعهم ضمن دائرة الفئة المثقفة . ونرمي بتساؤلنا هذا؛ إن كان علماء الدين وفقا لذلك، هم المركز الموجه لكل المثقفين على اختلاف مجالات تخصصهم ونوعية ثقافتهم ، وهو ما لم يوضحه الشيخ البشير الإبراهيمي، في حدود ما استطعنا الإطلاع عليه من أثاره المنشورة ؟ .

كما تفرد الأمير شكيب ، بإيلاء الأهمية الكبيرة للعوامل النفسية ، لإخراج العرب والمسلمين من الانحطاط الحضاري ، الذي تعذر عليهم معالجته ، رغم المحاولات التي حدثت هنا وهناك في أوقات متباعدة . وهم الذين يملكون كل إمكانيات الرقي والتقدم ، والتي تفوق حتى تلك المتاحة لليابان والدول الغربية المتقدمة ، وقد ذكر البعض منها كالبتترول والمعادن . فالقضية وفق ما ذهب إليه نفسية بالدرجة الأولى ، و إلا فبماذا يفسر نجاح التجربة التحديثية اليابانية ، رغم أن الكثير من الملاحظين من خارج اليابان ، لم يتوقعوا نجاحها لأسباب عدة :

(1) - ينظر محمود محمد سفر ، المرجع السابق ، ص 85 وما بعدها .

فالبعض منهم أنكر على اليابانيين ، القدرة على إدارة الأعمال بناء على أسس عصرية ، بفعل إغراقهم في التمسك بالتقاليد الموروثة في كل المستويات . والبعض الآخر ، رأى أن : (( الياباني لا يمتلك أي ذكاء في مجال الأعمال ))<sup>(1)</sup> . وعلاوة على ذلك ، فإن اليابان تعد من أفقر البيئات الجغرافية في العالم ، في مجال الثروات الطبيعية ، حيث انطلقت النهضة التحديثية بها من العدم ، لكن الإرادة والتضحية ، أزالتا تلك العقبة الكبيرة ، وجعلت من اليابان بلدا لم يمنعه ، اعتماده على استيراد كل ما تحتاجه آتته الاقتصادية ، من أن يكون في مركز الريادة الاقتصادية العالمية .

وبالموازاة مع ذلك ، فشلت التجربة التحديثية المصرية ، التي أشاد بها الأمير شكيب أرسلان ، بالرغم من أن مصر كانت في حوزتها كل عوامل القوة المادية والمعنوية الضرورية لذلك ، ولا مجال للمقارنة بينها وبين اليابان ؟. وقد حدث أن قامت الحكومة اليابانية ، بإرسال بعثة من طلبتها للاستفادة من التجربة المصرية ، و الأمر ذاته حصل في تونس ، التي عرفت تقريبا في نفس الفترة ؛محاولة للتحديث والإصلاح ، على يد "خير الدين باشا" (\*) ، الذي تأثر بالنهضة التي كانت أوروبا مسرحا لها ، أثناء القرن التاسع عشر ، و انبهر بها أشد الانبهار . والملفت للانتباه ، أن كلا التجربتين انتهتا بوقوع مصر وتونس ، تحت الاحتلال الأجنبي .

(1) - ينظر مسعود ظاهر ، المرجع السابق ، ص 288 وما بعدها .

(\*) - خير الدين باشا (1822م-1890م) :نشأ في اسطنبول التي تعلم فيها اللغتين التركية والفرنسية،مما ساعده على الاطلاع على شؤون مصر و الإمبراطورية العثمانية،حيث ظهرت التأثيرات الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، و كذلك على شؤون دول أوروبا الغربية، أصبح احد مماليك "احمد باي" الذي استقدمه سنة 1839م إلى تونس،و هنالك تلقى بالقصر الملكي، دروسا في اللغة العربية و العلوم الدينية و التقنيات العسكرية، زار رفقة احمد باي فرنسا في أواخر سنة1857م، أقام في باريس أربع سنوات(1853م-1857م)، عينه الباي على رأس وزارة البحرية سنة1857م، ساهم في إعداد دستور 1861 م. قام بين 1863م و 1867م برحلات كثيرة إلى أوروبا في مهمات دبلوماسية (ألمانيا،فرنسا،بريطانيا،إيطاليا، النمسا، هولندا،الدانمارك، السويد، بلجيكا)،مكنته من نهاية النهضة في تلك البلدان. كل جعله يعتقد ، أن لا مناص للخروج من التخلف، و للحاق بركب التقدم ، دون الانفتاح على الحضارة الغربية الأوروبية ، و الأخذ بأسباب نهضتها . ينظر علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص112 و ما بعدها .

وإذا كان الإبراهيمي، لم يشر إلى العوامل النفسية التي أكدها أرسلان ، فإنه حاول لفت الانتباه، إلى خطورة التبشير المسيحي الغربي ،الذي سبق الاحتلال العسكري كما هو معلوم ، وازدهر بعده مستفيدا من الدعم السياسي والمالي الكبيرين ، اللذان كانا يتلقاهما من الحكومات والمنظمات والجمعيات، وأغنياء القارة الأوروبية ، ومن الانحطاط الذهني العام الذي كانت عليه الأقطار العربية والإسلامية ، بسبب استتراء الجهل والأمية وتعاضم أمر الطرق الصوفية المنحرفة ، التي أفسدت على الناس دينهم وديناهم كما عبر عنه الإبراهيمي ، من خلال ما كانت تنشره من بدع وخرافات وأباطيل ،الدين الإسلامي بريء منها ، وأعلنت تعاونها مع الاستعمار حفاظا على المكتسبات والامتيازات، التي كانت تتمتع بها .

و الحق أن الإبراهيمي، قد دأب على التحذير باستمرار من المخططات التمساحية ، التي كانت تطبق في العالم العربي الإسلامي عامة، والجزائر خاصة ، حيث كان يرى بنفسه تلك الهجمة الدينية الشرسة التي كانت تتعرض لها البلاد ، تستهدف تشييع جنازة الإسلام ، كما أفصح عن ذلك علانية قادة الاحتلال ، بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر . وبحكم نظرته العميقة لتبعات القضية ، فإنه رأى أن خطورتها لا تكمن آنيا وإنما في المستقبل، بعد أن يطرد الاستعمار ، حيث يستمر في توظيفها كأداة فعالة ، لضرب الوحدة الداخلية لكل قطر ، والارتباط القومي بين العرب والمسلمين ،ولإفشال أية محاولة للنهوض . ويبدو أن أرسلان لم يبرز قضية التبشير كقضية أساسية ، ربما لكونه ولد وعاش في البيئة الشامية، التي كانت غنية بالعقائد والمذاهب والطوائف ، على عكس البيئة الجزائرية والمغربية، التي كانت ولا تزال موحدة العقيدة والمذهب .

وفيما حرص الإبراهيمي، على ضرورة اعتماد العرب والمسلمين كلية على أنفسهم ، في استغلال ثرواتهم الطبيعية الكثيرة التي تزخر بها أوطانهم ، وفي النهوض باقتصادياتهم ، لعدم ثقته الكاملة في الدول المتقدمة لكونها مستعمرة في الوقت نفسه ، غايتها الوحيدة الحصول على تلك القدرات الطبيعية بالقوة أو بأثمان رخيصة ، وليس مساعدة تلك الدول على استغلالها واستثمارها فيما يعود عليها بالفائدة الاقتصادية والاجتماعية . كان موقف أرسلان لنا بعض الشيء ، فقد دعا إلى الاعتماد على المساعدات والاستثمارات الأجنبية لكن بحذر شديد ،

فهو لم يرى سببا في ترك الثروات الطبيعية الهائلة ، التي تكتنزها بواطن الأرض ، في الأقطار العربية والإسلامية، ومنها البترول على وجه الخصوص ، دون استخراج واستغلال ، وإنما حث على الإسراع في ذلك محذرا أيضا من عواقب التأخير ، الذي لا يترتب عنه إلا المزيد من التخلف والتقهقر ، ضاربا المثل بتركيا التي ضيعت -حسبه- على نفسها ، فرصة الرقي والتقدم ، بتقاعسها عن الاستفادة ؛ من الإمكانيات التي كانت في متناولها ، حتى جاء الاستعمار واستولى عليها .

والملفت للانتباه أيضا ، أنه نصح باستثمار عائدات البترول في إنتاج الطاقة الكهربائية ، وليس في أغراض استهلاكية عديمة الفائدة ، لما للكهرباء من فائدة عظيمة في قطاعات الزراعة والصناعة والبحث العلمي ، وقد بلغ اهتمامه بهذا العنصر الاقتصادي الحيوي ، حد أنه شرح في إحدى رسائله حتى طرق صنع محرك كهربائي ، كما أنه تحدث عن تحويل أشعة الشمس إلى طاقة كهربائية (1) .

وفي ذلك دعوة صريحة ، إلى نقل التقنية الغربية إلى البلدان العربية والإسلامية والتحكم فيها ، والاستثمار في إنتاج الثروة وليس في استهلاكها ، تماما مثلما فعلت اليابان ، التي كانت تعتمد في البداية إلى استيراد البضائع الكاملة التصنيع ، ثم تقوم فيما بعد بإعادة إنتاجها واستنساخها ، من خلال صرف الجهود إلى تعلم طرق التشغيل والإصلاح، والصيانة لتلك الآلات المستوردة ، حتى أصبحت تقوم بإنتاج آلات شبيهة بها ، وبلغ الأمر في بعض الأحيان إلى تفكيك قطار كامل ، تم إنتاجه في الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد الحصول عليه مباشرة ، وصناعة آخر شبيه له (2) .

(1)- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 427 .

(2)- ينظر محمود محمد سفر ، المرجع السابق ، ص 91 .

**خاتمة الفصل :**

بناء على كل ما سبق ، نستنتج أن إشكالية النهضة ، قد كانت من الإشكاليات الأساسية ، التي حاول أقطاب الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ومنهم الأمير شكيب أرسلان و الشيخ البشير الإبراهيمي ، الخوض في جوانبها الفكرية و السياسية والثقافية و الحضارية ، من خلال تحديد إطارها المفاهيمي ، وضبط السبل العملية لتحقيقها ، مع الإجابة على بعض التساؤلات الموضوعية والملحة ، التي ظلت بدون إجابة ، ومحل خلاف بفعل تعدد المرجعيات حتى داخل المدرسة الفكرية الواحدة .

و الحق أن حركة النهضة و التحديث في العالم العربي و الإسلامي ، قد تميزت بتيارات عدة اختلفت في المنهج، واشتركت في الهدف وهو إحداث القطعية مع التخلف و الانحطاط ، للحاق بركب التقدم والرقي . فهناك من ربط الوصول إلى ذلك الهدف ، بالانغلاق على الذات، ورفض كل ما هو خارج التراث الذي لم يعد بعد صالحا في الكثير من جوانبه . في حين وجد من جعل التنكر لشرقيته وقيمه الدينية والثقافية والحضارية ، واستبدالها بالغربية أسمى غاياته . وبين الفريقين تموقع فريق وسطي(في الوسط) ، نادى بالتوفيق بين الموروث الحضاري العربي الإسلامي، القابل للإحياء والتجدد ، وبين متطلبات الحياة العصرية ، و قد كان من أبرز ممثليه الإبراهيمي و أرسلان ، اللذان قدما تصورات وآراء لمعالجة آفة التخلف ، وهي اجتهادات شكلت بنظرنا إضافات، استندت في بعض جوانبها على من سبقهما من قادة ومفكري النهضة، بينما اصطبغت في جوانب أخرى بالنظرة الشخصية لكل منهما ، حيث تتدخل البيئات السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشا فيها .

والحق أننا اكتشفنا ، من خلال ما طرحه الإبراهيمي و أرسلان ، أنهما كانا يتمتعان بثقافة عالية جدا سمحت لهما بالخوض في مثل هذه القضايا الدقيقة والمعقدة دون إشكال ، والتي تتطلب مستوى فكريا وثقافيا متميزا ، والمأما كبيرا بواقع مجتمعاتها، وبالتحديات الكبرى التي كانت تواجهها ، في ظل بيئة متخلفة وعلاقات دولية تتحكم فيها الدول الاستعمارية الكبرى ، التي جعلت من بلاد العرب والمسلمين هدفا لها .

لقد دافع الإبراهيمي و أرسلان ، عن الخصوصية العربية والإسلامية ، التي لا مبرر برأيهما لاستبعادها من العملية النهضوية ، والواقع أنهما في ذلك كانا يقاومان تيار التغريب ،



الذي استطاع أن يقنع فئات عدة؛ بأن الطريق إلى النهضة والتمدن، هو التجرد من كل خاصية شرقية، والتحول إلى مجتمعات غربية في أدق تفاصيلها الحياتية . وراهن على فداحة الواقع ، ليقوم بما يشبه المساومة بين ولوج عالم العصرية ، وترك المقومات الحضارية وعلى رأسها الدين الإسلامي . وفي حقيقة الأمر ، وجدنا الإبراهيمي ، أكثر هجوما وانتقادا ، وبأسلوب لاذع في أغلب كتاباته . لا يخلو من السخرية والتهكم على دعاة الاندماج في الغرب ، فوصفهم بأشباه المثقفين وبضعاف النفوس والفكر ، وإن كان هذا الصنف من المثقفين قد ظهر في كل البلدان العربية والإسلامية ، فإنه في الجزائر ولبنان كان أكثر نشاطا وتأثيرا ، ففي الجزائر تزعمته أقلية اجتماعية من أبناء الجزائريين ، خريجي المدارس الفرنسية ، الذين أظهروا تحمسا كبيرا لخدمة الاحتلال، وللعيش في كنف الدولة الفرنسية، كمواطنين فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق والواجبات المتاحة للفرنسيين الأصليين ، وقد بلغت الحماسة بهؤلاء إلى نفي وجود الأمة الجزائرية عبر التاريخ ، واعتبار الوجود الفرنسي بالجزائر أمرا طبيعيا، وتصحيحا لوضعية خاطئة ، التي قصدوا بها الارتباط بالمشرق العربي .

أما في لبنان ، فتجسد التيار التغريبي في أبناء الطائفة المسيحية ، الذين تشبعوا بالثقافة الغربية عامة والفرنسية خاصة ، وأظهروا ولاءهم السياسي وانتماءهم الثقافي والحضاري إلى الغرب، حتى ولو كان مستعمرا وكانوا هم عربا رغم مسيحياتهم . وعليه فقد عمل الإبراهيمي و أرسلان ، من خلال ما سبق ، على إبطال فكرة ان النهوض يعني التغريب ، الذي يطيل مدة التخلف ويؤزمه، أكثر مما يعالجه في نظرهما .

أظهر الإبراهيمي تحكما كبيرا، في المادة التاريخية الإسلامية ( التاريخ الإسلامي ) ، بفضل إطلاعه الواسع وهو في سن مبكرة - كما مر بنا في الفصل الثاني - ، على كتب السيرة النبوية والغزوات وحياة الصحابة والتابعين ، الأمر الذي مكنه من الوقوف على تراجم الرجال وقواعد الاجتهاد ، وحركة التأليف ، والصراع السياسي والفكري ، الذي احتدم بعد وفاة الرسول ( ص ) وعهد الخلفاء الراشدين ، تم قيام الدولة العربية بمختلف العصور التي مرت بها ، وفي هذا اعتبر الدكتور أبو القاسم سعد الله <sup>(1)</sup> : أن الشيخ البشير الإبراهيمي يمثل : (( ظاهرة فريدة

(1) - ينظر أعمال الملتقى الدولي : الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، مرجع سابق .

بين جيله في تفسيره العقلاني للحوادث التاريخية سواء منها القديمة أو الحديثة أو المعاصرة في وقت لم يدرس فيه التاريخ في مدرسة ولا جامعة )) .

أما الأمير شكيب ، فقد كشف أنه كان يحوز على ثقافة علمية وتكنولوجية دقيقة، في مجالات الطاقة الكهربائية والبتروكيمياويات والمعادن والصناعات النسيجية ... وغيرها . وهي خاصة قلما نشاهدها ، في مصلح وشاعر وفقه ورجل سياسي . فضلا عن كون أن تلك المعارف ، كانت محتكرة من طرف الدول الغربية، و لا تسمح بأن يطلع عليها غير الغربيين ، وهنا تكمن أهمية إجادة اللغات الأجنبية ، التي كان أرسلان يتحكم في الكثير منها، كتابة وقراءة وترجمة .

بالرغم من انتماء الإبراهيمي وأرسلان ، إلى المدرسة الفكرية ذاتها ، إلا أن رؤيتيهما لكيفية نهوض الأمة العربية والإسلامية، تميزت ببعض الاختلافات ; فقد لاحظنا أن الأول كان ينشد نهضة شاملة يكون جوهرها نهضة دينية بالدرجة الأولى ، وهو ما يفسر اهتمامه الكبير بإصلاح علماء الدين وبمسألة إحياء الدين الإسلامي ، فذهب في هذا المضمار، إلى الدعوة إلى إعادة التجربة الإسلامية الأولى ، التي مثلت بالنسبة إليه نموذجا مثاليا ، لا خيار إلا بالإقتداء به. ومنح كل ثقته في العلماء والفقهاء دون غيرهم ، لكي يصلحوا تراكمات قرون من الفساد والانحراف على كافة الأصعدة ، وبطبيعة الحال بعد أن بيدؤوا بإصلاح أنفسهم أولا . ومنطلقه في ذلك، أن المجتمعات العربية والإسلامية ، تتميز عن غيرها من المجتمعات ، بكونها لا تتقاد إلا لسلطة الدين ، الذي يقوم سيرها ويفتح أمامها آفاق النماء والإبداع ، وهو لاشك رأي سليم .

لكن في المقابل، لا يمكن إغفال الظروف الزمانية ومستجداتها ، فالعصر الذي كان يعيشه الإبراهيمي ليس عصر الدولة الإسلامية الأولى ، فحينما نمح القيادة لعلماء الدين، الذين لا جدال في أهمية دورهم الاجتماعي والسياسي ، فمعناه أننا نقصي المكونات الاجتماعية الأخرى من سياسيين وفلاسفة ومفكرين، وعلماء غير مشتغلين في حقول لا ترتبط بالدين ... إلخ، من عملية الإصلاح والتجديد .

أما أرسلان ، فقد ظهر وكأنه يحاول التوفيق بين ما ذهب إليه الإبراهيمي ، وبين يقينه بأن عالم نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، لا يمكن الصمود فيه ،

إلا بربح معركة العلوم العصرية والتقنية ، التي أحدثت الفارق بين الأوروبيين من جهة والعرب والمسلمين من جهة ثانية ، وهو ما لم ينفه الإبراهيمي، وإنما جعله أولوية ثانية بعد الأولوية الأولى وهي النهضة الدينية ، التي تؤدي في نظره على نحو منطقي ، إلى نهضة علمية واجتماعية ومن ثمة حضارية .

حظيت التجربة التحديثية في اليابان ، باهتمام وإعجاب الإبراهيمي وبدرجة أكبر أرسلان، ولعل ما جذبهما إليها ، هو النضج الكبير الذي أظهره اليابانيون المتعاقبون على السلطة ، في التعامل مع الغرب ؛ سعي حثيث لنقل كل ما وصل إليه من إنجازات مادية وتقنية، مهما كانت معقدة أو مكلفة ، وبأية وسيلة حتى بالجوسسة العلمية ، وإعادة تشكيلها وتصنيعها في البلاد بسرعة قياسية، مع إضفاء الصبغة اليابانية عليها . والتزام بأقصى مستويات الحيطة والحذر ، فيما يتعلق بالقيم الثقافية والأخلاقية الغربية ، التي رأوا أنها ذات نتائج سلبية على المجتمع الياباني ، قد تؤدي به إلى فقدان هويته وشخصيته المتميزة ، فتعرضه إلى السيطرة الاستعمارية. وهو ما يبرر الصرامة الشديدة، التي أظهرها في اتخاذ الخطوات العملية ، التي تشجع على الاعتزاز بالموروث الحضاري الياباني، الضاربة أعماقه في التاريخ ، وتجسيمه في الحياة اليومية للمجتمع ، وهو ما مثل أكبر حصانة له، أمام الاختراق الثقافي عامة والغربي خاصة .

في حديثه عن دور المثقفين في النهضة ، أثار الإبراهيمي مسألة وجود نخبتين مثقفتين في البلدان العربية والإسلامية، بدل نخبة واحدة ؛ الأولى مثقفة ثقافية عربية إسلامية والثانية غربية ، كل واحدة منغلقة على نفسها، ترى في الأخرى خصما أو عدوا ينبغي استبعاده . وحاول لفت الانتباه إلى النتائج السلبية لذلك، على المديين القصير والبعيد ، رغم أنه رحب بالتنعددية الثقافية والفكرية ، التي شكلت إحدى العقبات الكبرى، أمام قيام نهضة حقيقية . وهو حينما طرح فكرة التكامل بين الطرفين ، بحيث أن كل واحدة تعمل على الاستفادة من نظيرتها ، عن طريق التواصل والتقارب ، حتى تستكمل النقائص وتتوحد الجهود، وتوجه نحو الدفع بعجلة المجتمع نحو الرقي والتقدم . كان من الذين يدركون أهمية التعامل، مع الواقع الثقافي كما هو لا كما يجب أن يكون ، إذ لا يمكن في كل الأحوال تجاوز تراكمات عشرات السنين من الاستعمار الذي راهن على تعميق الفجوة بين النخب المثقفة ، لكي يمنعها من الاضطلاع بدورها الأساسي

في النهضة، الذي وضعه الإبراهيمي فيما سبق. و لربما لم تسترع هذه المسألة اهتمام الأمير شكيب ، لكونه لم يرها من أولويات النهضة، أو لأنه قدر أن إيجابياتها أكثر من سلبياتها . يمكن القول أن نقطة الاختلاف الأساسية بين منهج الإبراهيمي وأرسلان ، هي تركيز الإبراهيمي على المسألتين الدينية والثقافية وإيلائه لهما أهمية كبيرة ، مع عدم تحمسه للدور الذي يفترض أن يضطلع به القادة والأمراء والحكام ، لأسباب عدة ذكرنا منها عدم ثقته فيهم ، ولا اعتقاده أنهم يشكلون إحدى العقبات أمام نهوض الأمة، من كبوتها وتقهرها ، فكل مشروع يتبنونه إلا وكان مصيره الفشل . ومعناه أنه من المفكرين والمصلحين ،الذين يراهنون على القاعدة الشعبية وال جماهيرية، التي تفرض ذاتها على حكامها وقادتها أولا ، فيكونون في مستوى تطلعاتها في الحاضر والمستقبل .

والحق أن مسلك الحكام والأمراء العرب، في عصر الإبراهيمي وأرسلان ، يؤيد هذا الموقف ، فقد كان غالبيتهم يفتقدون إلى النضج والوعي السياسي الكافيين ، لإدراك طبيعة التحديات الكبرى، والمرحلة الحساسة التي كانت تمر بها الأمة العربية الإسلامية في تلك الأثناء ، بل أن منهم كان يتصف بالسذاجة والغفلة ، فينقاد بسهولة لوعود الدول الأوروبية ، التي كانت تتصرف وفق مخطط استعماري محكم، لفرض هيمنتها على كامل المنطقة العربية والإسلامية . ومنهم من كان فقط، مخلصا لمصالحه الشخصية ، التي يسعى إليها بكافة الوسائل والسبل، ولو على حساب المصالح العليا لمجتمعه أو أمته ، ومن جاء موقف الإبراهيمي السلبي منهم . أما أرسلان، فلم يكن يضع ثقته المطلقة فيهم ، ولكنه في الوقت نفسه رهن عليهم ، لأن السياسة هي عصب كل شيء، فهي التي تعطي لمثل تلك القضايا الدفعة اللازمة ، ولذلك كان يسارع إلى تأييد أية مبادرة سياسية في هذا الاتجاه ، رغم العيوب التي تظهر عليها منذ البداية . وفي هذا يبدو الطرح الأرسلاني، أكثر واقعية من الطرح الإبراهيمي ، مع تأكيدنا على أهمية العمل التربوي والتنقيفي ، ليس في سبيل النهضة وإنما في كل القضايا .

الفصل الخامس :  
الجامعة الإسلامية في آراء  
الإبراهيمي و أرسلان

**تمهيد :**

في هذا الفصل الذي جاء تحت عنوان : " الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان " ؛ تناولنا في مبحثه الأول، تطور حركة الجامعة الإسلامية ، التي شكلت الحركة الوهابية، التي انطلقت من قلب الجزيرة العربية نواتها الأولى، ولكن الدعوة إليها نشطت أكثر أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تزامنا مع اشتداد الهجمة الاستعمارية الغربية على البلاد العربية والإسلامية ، بغية إخضاعها عسكريا واستغلالها بشريا واقتصاديا . فطرحت فكرة الجامعة الإسلامية كأداة أساسية ، لإفشال المخططات الاستعمارية . وإضافة إلى ذلك ، استعرضنا بإيجاز أبرز دعاة الجامعة الإسلامية في هذا الصدد، منذ بداياتها الأولى وإلى غاية عصر الإبراهيمي و أرسلان وهم : السيد "جمال الدين الأفغاني" بشكل خاص ، تلميذه الشيخ "محمد عبده" ، الشيخ "محمد رشيد رضا" ، و"عبد الرحمان الكواكبي" ( 1854م - 1902م ) ومصطفى كامل ( 1874م - 1908م ) . ثم بينا في الختام تأثير فكر هؤلاء الأقطاب، في دعاة الجامعة المتأخرين، ومنهم بالخصوص الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان .

وعالجنا في المبحث الثاني ؛ مفهوم الجامعة الإسلامية، ومزاياها لدى كل من الإبراهيمي و أرسلان ، حيث تبين لنا عدم اتفاق الرجلين على مفهوم واحد للجامعة، لاعتبارات عدة وضحتها في حينها ، أما فيما يخص الفوائد التي افترضنا، أنها سترتب عن نجاح المشروع ، فقد اتفقا على أن أكبر فائدة هي التصدي للاستعمار الأوروبي جماعيا وكسر شوكته، فضلا عن بلوغ النهضة الاقتصادية والحضارية .

وتحدثنا في المبحث الثالث ؛ عن كيفية بناء الجامعة الإسلامية في آثار الإبراهيمي و أرسلان، حيث أبدى كل منهما تفاوتاً بإمكانية إنجازها ، شريطة أن يتحلى الجميع بالإرادة والافتتاح بجدوى المشروع ، فجاءت اقتراحاتهما وأفكارهما في هذا الاتجاه، متقاطعة في بعض الجوانب، ومختلفة في جوانب أخرى .

وفي تقييمنا لما أورده المفكران، في قضية الجامعة الإسلامية، تبين لنا أنهما كررا بعض المفاهيم والتصورات، التي كانت شائعة في الأوساط الإصلاحية ، وفي المقابل جاءا باجتهادات خاصة، يمكن الحكم عليها بأنها جديدة ومبتكرة، وقد أبرزنا كل ذلك أثناء المقارنات التي عقدناها

في نهاية كل مبحث ، وفي خاتمة الفصل التي خصصناها للنتائج، التي تمكنا من الوصول إليها .  
والحق أنه من خلال ما ضمناه في هذا الفصل ، قد اكتشفنا أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد  
راهنا كثيرا على إنجاز فكرة الجامعة الإسلامية ، حتى وإن اختلفت نظرتهم للخطوات الواجب  
سلوكها لذلك ، بل أنهما جعلها المفتاح لكل المشاكل والقضايا والتحديات والعقبات ، التي كانت  
تقف في طريق تحرر الشعوب العربية والإسلامية ، وانضمامها إلى صف الأمم القوية المهابة ،  
المنتجة للتكنولوجيا والثروة ، المساهمة بفعالية في قيادة العالم وتوجيهه، وفق قيم العدل  
والمساواة والتسامح ، التي تمثل جوهر الدين الإسلامي .

ولا جدال في أن التكتل في إطار الجامعة الإسلامية ، سواء مثلما ذهب إليه قادة النهضة  
ومنهم أرسلان والإبراهيمي ، أو بأشكال أخرى ، يعتبر نهجا سليما لتغيير الواقع العربي  
الإسلامي نحو الأفضل ، خاصة وأننا نرى القوى الكبرى في عالمنا الحالي، تتجه شيئا فشيئا  
نحو التكتل والاندماج، في جميع القطاعات والمجالات . وهو ما شدد عليه أرسلان والإبراهيمي  
منذ منتصف القرن العشرين ، كما سيتضح عبر مباحث هذا الفصل .

المبحث الأول : حركة الجامعة الإسلامية وأبرز دعواتها1- جذور الجامعة الإسلامية :

مثلت الحركة الوهابية ، التي ظهرت في الجزيرة العربية ، النواة الأولى لفكرة الجامعة الإسلامية (1) ، وقد قامت على جملة من مبادئ هي : العودة بالإسلام إلى صفائه الأول توحيد الخالق وحده ، إنكار تأويل القرآن الكريم وتكفير كل من يقول بذلك ، فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا منذ القرن الرابع الهجري ، التقشف في العيش وإعادة بناء المجتمع الإسلامي من خلال القيام بكل أركان الإسلام (2) . وهي بذلك لم تولي الاهتمام الكافي بالجانب السياسي للفكرة الإسلامية ، بقدر اهتمامها بالجانب الحضاري، وخصوصا الناحية الدينية منه . فقد سعت إلى إصلاح حال المجتمع الإسلامي وتقويته ، دون أن تحتك بأي مؤثر خارجي. على عكس الحركة المهدية (\*\*\*) في السودان ، التي ظهرت بغرض إصلاح المجتمع الإسلامي ، وفي ذات الوقت للدفاع عن الحضارة الإسلامية والكيان الإسلامي ، في مواجهة الاستعمار الأوروبي - المتربص بالمسلمين - ، و الحضارة الأوروبية - التي تحمل قيما مغايرة للحضارة العربية الإسلامية. أما الحركة السنوسية (\*\*\* ) ، التي تعد حركة إصلاحية سلفية وطرفية وصوفية ،

(1) - محمد محمود بوعيايد، وآخرون ، المرجع السابق ، ص 349 .

(2) - ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 39 وما بعدها .

(\*\*) - الحركة المهدية : نسبة إلى محمد أحمد السيد عبد الله، المولود سنة 1844م ، الذي انظم إلى حركته العديد من الزعماء وشيوخ القبائل من مختلف أنحاء السودان ، وقد أعلن الثورة على السلطات المصرية البريطانية . تتلخص تعاليم حركته في : إعادة الإسلام إلى سابق عهده ، واعتماد الكتاب والسنة فقط ، التوحيد بين المذاهب الأربعة السنية، والاكتفاء بمذهب اجتهادي خاص ، حصر الطريق الموصلة إلى الله بستة أمور هي : ( صلاة الجماعة والجهاد في سبيل الله ، الامتثال لأوامره ونواهيه ، الإكثار من كلمة التوحيد ، تلاوة القرآن الكريم ، تلاوة الراتب ) ، تحريم زيارة قبور الأولياء والرقص والغناء ، منع البكاء وراء الميت وإبطال السحر ، وكتابة الحجب وشرب الدخان ومضغه وشرب الحشيش والخمر ، البساطة في الملابس والمأكل واحتفالات الزواج والجنابة ، القضاء على الفساد السياسي في السودان وبقية الأقطار الإسلامية . توفي المهدي سنة 1885 م ، للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 65 وما بعدها .

(\*\*\*) - الحركة السنوسية : مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي، المولود في إحدى القرى بالجزائر 1787م الذي أسس أول زاوية سنوسية في شمال إفريقيا بليبيا، وهي الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر عام 1843م ،



بين الرؤية الوهابية للإصلاح الديني ، وإيجابيات الطرق الصوفية (1) ، فقد تلاقت معهما في ضرورة تنقية الإسلام ، مما علق به من بدع وخرافات ، والعودة به إلى طبيعته الأولى النقية ، ولكنها تميزت عنهما بدعوتها الصريحة إلى نظام حكم إسلامي ، ومطالبتها بجامعة إسلامية تكون الزعامة فيها للعرب وليس للعثمانيين، الذين لا تحقق لهم القيادة في هذا الجانب . ولكن الحركات الثلاث ؛ اشتركت في كونها رفضت استعارة أي نظام أوروبي ، ورأت أن في الإسلام من العناصر الحضارية، ما يلبي حاجة المجتمع . ولعل ذلك يعود إلى البيئات التي ظهرت فيها حيث كانت تتميز بالحياة البسيطة، وبانعدام الاتصال بالفكر والثقافة الأوروبيين (2) . وبذلك تكون تلك الحركات الإصلاحية السلفية ، قد ظهرت كنتاج لانحلال الاجتماعي ، وانتشار البدع والضلالات في الدين الإسلامي ، والابتعاد عن أصول العقيدة الإسلامية (3) . أي كرد فعل على واقع اجتماعي وديني متخلف ، استوجب الأمر معالجته وإصلاحه .

نشطت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، خلال النصف الثاني من القرن 19م ، حيث تزايدت مخاوف العثمانيين والمسلمين ، بمختلف أجناسهم ومعتقداتهم من الاستعمار الغربي ، الذي كان يكيّد الدسائس والفتن ، وينتهدز الفرص للاستيلاء على الإمبراطورية العثمانية ، خاصة بعد أن انكشفت مخططاته التقسيمية ، لما قامت الدول الأوروبية الكبرى بالاتفاق على ذلك في

، حيث قرر الإقامة هنالك نهائياً ، بعد مدة طويلة قضاها في السفر و الترحال . وتقوم السنوسية على المبادئ التالية : العودة بالإسلام إلى نقائه الأول ، اعتبار الكتاب والسنة مصدرى الشريعة الإسلامية ، فتح باب الاجتهاد في الإسلام، واعتبار إغلاق هذا الباب سببا في تحجر الفكر الإسلامي ودخول البدع إليه ، تنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات ، الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف ، حصر الإمامة في قريش . أما التنظيم الحركي للحركة السنوسية فهو كالتالي : شيخ الطريقة أو شيخ النظام هو الرئيس الأعلى لها ، مجلس الخواص وكان يتكون في البداية من أشخاص لا ينتمون إلى الأسرة السنوسية ومهمته مساعدة شيخ الطريقة في تعيين شيوخ الزوايا ، الإخوة ومهمتهم استقطاب الأعضاء العاديين إلى الحركة أو الطريقة . توفي السنوسي عام 1859م في "الجغبوب"، بعد أن انتشرت دعوته في برقة وطرابلس ، وخلفه ابنه المهدي ( 1859م - 1902م ) . للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 55 وما بعدها .

(1) - علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 57.

(2) - محمد محمود بوعياذ وآخرون ، المرجع السابق ، ص 350 .

(3) - علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 70.

مؤتمر برلين 1878م ، اثر انهزام الدولة أمام روسيا ، وتزايد التدخل الأجنبي في أراضيها على المستويين العسكري والثقافي . كل ذلك كان باعثا هاما، لظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، التي استشعر دعائها الأبعاد الاستعمارية للسياسة الأوروبية في المنطقة ، خاصة بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر ، ورغبة تلك الدول في التغلغل عن طريق الغزو الاقتصادي والثقافي ، بممارسة المزيد من الضغوط ، وتفعيل دور الجمعيات والمؤسسات الدينية المسيحية . وهي الإستراتيجية التي لم يندفع لها قادة النهضة والجامعة الإسلامية ، الذين أدركوا بشكل جيد تلك المساعي ، فكشفوها وأماطوا اللثام عن أهدافها السياسية والثقافية ، مع تأكيد رفضهم التقليد الأعمى للغرب ، والانسلاخ عن أصالتهم؛ المتمثلة في رصيدهم التراثي والحضاري المكتسب .

ذهب أعلام النهضة ، إلى أن الجامعة الإسلامية هي الوسيلة المثلى ، للوقوف في وجه محاولات التوسع الغربي ، وتدخله في شمال إفريقيا، بعد أن استولى على أهم قاعدة فيه وهي الجزائر ، وسعيه للقضاء على مقوماتها الشخصية، ممثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية . كما أيقن أولئك الأعلام ، أن المقاومة الإقليمية والمحلية ، لا جدوى منها ، بالنظر إلى القدرات العسكرية والقتالية الهائلة ، التي كانت تحوز الدول الاستعمارية الغربية عليها . حيث أثبتت التجارب ، أن ميزان القوى الذي يميل إلى تلك الدول ، يشكل إحدى العوامل للتخلي عن النضال الفردي ، والتطلع إلى وسيلة أكثر فاعلية وهي العمل الجماعي .

ولذلك دافعوا عن موقفهم ، المتضمن أنه من مصلحة الشعوب الإسلامية مهما كانت أجناسها وألوانها وطوائفها ، أن تتبنى فكرة الجامعة الإسلامية ، بتعزيز الروابط فيما بينها وحمايتها ، فإن فشلت في ذلك ، فإن النتائج ستكون وخيمة على جميع الأقطار دون استثناء . الأمر الذي يستدعي ، مناصرة الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها ، وغض الطرف عن كل ما صدر من حكامها ؟ من أعمال تعسفية وسياسات ظالمة ، في حق الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة . وفي هذا كان السيد "جمال الدين الأفغاني" أحد أبرز دعاة الجامعة الإسلامية ، الذين شددوا على ضرورة الالتفاف حول شعار الجامعة الإسلامية، الممثلة بالسلطان والدولة العثمانية (1) . مستفيدا من ثقافته الإسلامية والعربية ، ومن التجربة السياسية التي اكتسبها ، بفضل إقامته في الكثير من الأقطار الإسلامية ، فجاءت آراؤه في التجديد الديني والإصلاح

(1) - منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 214 - 215 .

السياسي والاجتماعي غنية في هذا الإطار ، ونلمس ذلك التأثير في تحليله لأسباب تدهور الحضارة الإسلامية ، والتخلف الاجتماعي والضعف السياسي، اللذان كانا يعيشانهما المسلمون في القرون الأخيرة ، وفي الحلول التي اقترحها والتي جمعت بين آراء الإصلاحيين السلفيين من أمثال " محمد بن الوهاب " و " ابن علي السنونسي " و " محمد المهدي " ، وآراء المصلحين الاجتماعيين المعاصرين ، وقد تمحورت آراؤه الإصلاحية والتجديدية حول ما يلي :

- 1 - عودة المسلمين إلى دينهم النقي، هو السبيل استرجاع مجدهم .
- 2 - وحدة الشعوب الإسلامية ، وإزالة الفوارق بين الفرق الإسلامية .
- 3 - تحرير الفكر الديني ، من قيود التقليد وفتح الاجتهاد .
- 4 - التوفيق بين العلم والإيمان ، وتحرير العقل من الخرافات والأوهام ، وإسناد العقائد الدينية بالأدلة والبراهين، وتهذيب الأفراد وتربيتهم تربية حسنة .
- 5 - اعتماد القرآن الكريم ، وعلى الحديث المتواتر ، وإجماع المسلمين في صدر الإسلام ، في دراسة النصوص الدينية، بغية استخلاص الصحيح منها .
- 6 - رفض الانجرار وراء الغرب، في تقليد كل شيء ، دون الحاجة إلى ذلك ، ومن غير تمحيص وتدقيق .
- 7 - ضرورة إصلاح العلماء المسلمين ، على ما يشهده العصر من تيارات فكرية حديثة ، مع أخذهم بما يوافق الشريعة الإسلامية، ويعود على المسلمين بالفائدة ، وطرح ما ينافي عقيدتهم بالحجج العقلية وبالبراهين المنطقية .
- 8 - السبيل الحقيقي ، الذي يؤدي بالمسلمين إلى التقدم والرفق، ويخرجهم مما هم فيه من تخلف شديد ، هو الإصلاح الديني ، فحتى النهضة الأوروبية الحديثة ، لم تخلو من هذا الجانب . والذي يقوم على بث العقائد الدينية الصحيحة بين العامة ، وشرحها لها على الشكل الصحيح ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة من حيث ممارستها وتطبيقها في حياتها (1) .
- 9 - واجب توحيد الفرق الإسلامية ، المتصارعة فيما بينها لأسباب واهية ، وفي هذا استنكر انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ودعا إلى إزالة الخلاف بين الفريقين ، موجها التهمة لملوك

(1) - للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 73 وما بعدها .

السنة بتضخيم أمر الشيعة سعياً وراء مصالح شخصية؟، تتمثل في محاولة كسب العامة . كما رأى أنه لا مبرر لاستمرار الانقسامات بين المسلمين ، بسبب خلافات إسلامية تجاوزها الزمن . 10 - ضرورة الدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية ، وفي هذا عمل الأفغاني بكد من أجل إبراز دور الإسلام، في الحث على طلب العلم وتنمية الفكر الإنساني . فضلاً عن معالجة المفكرين الغربيين ، الذين كانوا يروجون لفكرة أن تخلف البلدان الإسلامية ، يرجع إلى تدينها بالإسلام الذي يدفع إلى الانغلاق الفكري، والجمود الذهني والتخلف العلمي (1) .

وانطلاقاً من ذلك ، يتجلى لنا أن فلسفة "جمال الدين الأفغاني" ، في إصلاح الواقع السياسي المتردي، والحضاري المتخلف للمسلمين في عصره ، تركز على : الإصلاح الديني من منطلق العقلانية الإسلامية ، اعتقاداً منه بأن الشرق لن يحقق النصر في صراعه مع الغرب الاستعماري ، إلا إذا تمكن من سلاح العقل ، الذي سمح للغرب بالتفوق عليه في هذا الصراع . ويرتكز على تفعيل الصلات الحضارية مع الغرب ، مع أخذ المناسب منها فقط ، إقتداءً بالعرب في العصر العباسي ، وهو شرط أساسي لاستعادة القدرة على التأثير والعطاء الحضاري . أما المرتكز الثالث ، فيتمثل عند "الأفغاني" في المحافظة على وجود الدولة العثمانية ، وتنمية العناصر الإيجابية فيها ، ليس من منطلق أنها تمثل الخلافة الإسلامية، وإنما من باب الضرورة التي يفرضها التحدي للعدو الرئيسي، وهو الاستعمار الغربي الأوروبي ، الذي يتربص بكل البلاد الإسلامية، سعياً من بسط سيطرته الكاملة عليها ، ومن ثمة يرى أنه ينبغي المحافظة عليها سياسياً ، والاجتهاد في تنمية قدراتها ، وفي المقابل من ذلك ، انتقاد سياستها الرجعية المتخلفة ، بغرض تطويرها وإعادة الشباب إليها (2) .

من أجل نشر أفكاره الإصلاحية، ودعوته إلى الجامعة الإسلامية ، زار الهند وإيران والحجاز وتركيا و العراق و مصر، حيث استقر بهاته الأخيرة سنة 1871م، مدة ثمان سنوات : (( يبصر العقول ، ويفتح الأذهان ، ويشدز الهمم ، ويصقل العزائم )) ، الأمر الذي أثار حفيظة وخشية السلطات المصرية ، فقامت بطرده عنوة ، بإيعاز من القنصل البريطاني ، الذي ضاق ذرعاً بنشاطه المعادي للاستعمار . انتقل بعدها إلى لندن وباريس ، وهناك وجد الجو مناسباً

(1) - للمزيد ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 73 وما بعدها .

(2) - محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل ، مرجع سابق ، ص 53 .

لنشر أفكاره السياسية ، التي تنتقد تدخل بعض الدول الغربية في شؤون البلدان الإسلامية ، خاصة الهند ومصر ، عبر مقالات تناقلتها الجرائد الكبرى ، مما مكن الجهات السياسية المشتغلة بشؤون الشرق من الإطلاع عليها . ليقوم بعد ذلك بإنشاء جريدة خاصة به ، بمعية تلميذه الشيخ "محمد عبده" هي " العروة الوثقى " ، التي ذاع صيتها بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، بغية إيقاظ الأقطار الإسلامية من ضعفها ، وتبنيها لكي تتولى أمورها بنفسها ، وتطرد الاستعمار من أراضيها (1) .

وقد لقيت دعوته ، تأييدا من قبل السلطان العثماني " عبد الحميد الثاني " الذي أرسل مبعوثيه إلى البلاد الإسلامية ، لحض قادتها على تبنيها والانخراط فيها ، لأنه كان في حاجة ماسة إليها ، لكي يحتمي بالتعاطف الإسلامي ، من التكالب الأوروبي المطبق عليه من كل الجهات . فأعطى انضمامه لها دفعا قويا ، مكنه من تقوية مركزه السياسي أمام خصومه السياسيين في الداخل ، ومن تدعيم السلطنة واعتبارها دولة الخلافة التي تدافع عن الإسلام والمسلمين ، كما تحصل على التأييد الديني الواسع كخليفة للمسلمين . خاصة بعد أن فاز بتأييد " شريف مكة " ، والأفغاني الذي نزل ضيفا عليه سنة 1892م ، وتمكن من إقناعه بأن يكون رسوله في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

لكن هذا التحالف ، لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما حدثت القطيعة بين الرجلين ، بعد أن أخذ "الأفغاني" في مهاجمة سياسة "عبد الحميد" ، والمجاهرة بعدائه له وكشف ادعاءاته ، ورفض حتى مقابلاته ، بحجة أنه لم يكن صادقا وكان يخدعه (2) . وكان يستغل جهوده في هذا الاتجاه لمصلحته ، إذ لم يتبنى أفكاره البتة ، وكل ما في الأمر ، أن "عبد الحميد" حاول التقرب من "الأفغاني" ، من أجل كسب التأييد لسلطته السياسية على الدولة العثمانية ، بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين ، وفي هذا المضمار ذكر "أنور الجندي" (3) ؛ أن العلاقة بين "الأفغاني" و"عبد الحميد" ، استغلت من بعض خصوم وأعداء السلطان للتشهير به .

(1)-جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص 26 .

(2)- منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 216 - 217 .

(3)- ينظر أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 144 وما بعدها .

وقد برر رأيه هذا بالقول ؛ أنه لا خلاف بأن اختلافا كبيرا، كان حاصلًا بين دعوة "الأفغاني" التي كانت تقوم على الربط بين الإسلام والدولة الحديثة ، وبين مفهوم الإسلام وبين الحضارة . على أن تنشأ الوحدة على أساس وضع دستور شوري ، قوامه وحدات لا مركزية ، تتجمع في مجلس أعلى ، يرأسه أكبر تلك الوحدات . وبطبيعة الحال أن "الأفغاني" ، لما عرض هذا المشروع على السلطان "عبد الحميد" ، رفضه لأنه خشي أن يقضي على نفوذه .

كما أن الاختلاف في مفهوم الوحدة الإسلامية ، كان جوهريا بينهما ، بحكم الاختلاف في الثقافة ، والعقلية والمزاج والهدف وموقع كل منهما . بالرغم من أنهما يجتمعان في الإخلاص والإسلام ، والسعي للإصلاح والتكثف لمقاومة الغزو الاستعماري الغربي ، بمعنى أنهما اشتركا في الهدف ، وتفرقا في النهج . وبالتالي فإن الذي مثل حسب "أنور الجندي" عامل تهديد وتقويض لفكرة الجامعة الإسلامية ، ليس الخلاف بين "الأفغاني" والسلطان "عبد الحميد" ، وإنما الحركة القومية التركية التي عرفت بالطورانية (\*) ، التي كانت نتاجا للمدرسة التركية ، التي اعتنقت الحضارة الغربية والفكر الغربي ، اعتناقا كاملا ، بإيعاز من الاستعمار الغربي ، بهدف تقويض بنیان الوحدة الإسلامية العثمانية ، واقتسام إرث الرجل المريض ، وإثارة المزيد من الخلافات بين المسلمين والأقوام الأخرى، داخل الدولة العثمانية ، لخلق دعوة مضادة لدعوة الجامعة الإسلامية .

وفي القضية ذاتها، أورد الدكتور "إسماعيل إبراهيم" (1) رأيا مغايرا ، إذ قال بأن السلطان "عبد الحميد الثاني" (1842م-1918م) ، كان حريصا على استضافة "الأفغاني" وإيقائه بالقرب منه ، حتى يتسنى له مراقبته ، وأنه تخوف منه أكثر، لما شاهده مسرورا بخبر اغتيال "الشاه" في إيران ، فأمر بتشديد الرقابة عليه . كما أنه لا يستبعد فكرة ،المساعدة على تصفيته بالسم (\*\*).

(\*) - اتخذت تسميتها من جبال طوران الشهيرة بتركيا .

(1) - إسماعيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 118 .

(\*\*) - وفاة الأفغاني كانت صبيحة يوم 09 مارس 1897م ، بمرض السرطان الذي أصاب فكه ، حيث أكد البعض أن وفاته لم تكن طبيعية ،ورجحوا أنه لقح في شفته بمادة سامة .وذكر في هذا الصدد أنه عقب موته مباشرة ، أرسل السلطان عبد الحميد ، بعض موظفيه ليستولوا على أوراقه ومؤلفاته . كما أنه أمر بدفنه بعد ساعتين من وفاته ، تحت حراسة مشددة ، مخافة من رد فعل أنصاره ، الذين ارتابوا في أسباب الوفاة ، إسماعيل إبراهيم ، المرجع نفسه ، ص 118 ، وكذلك الأفغاني ، عبده ، المرجع السابق ، ص ص 27-28.

ومجمل القول أن السيد "جمال الدين الأفغاني" ، أراد أن تكون الجامعة الإسلامية ؛ إطارا سياسيا : (( يضم جميع الدول والإمارات الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية حتى يتأتى لها - ... أن تقف في وجه الزحف الاستعماري ، وحتى تتمكن من المحافظة على خيرات العالم الإسلامي الاقتصادية ، وتمكين الشعوب الإسلامية من التمتع بتلك الخيرات ، دون الغرب الاستعماري )) . كما علق آمالا كبيرة على الخلافة العثمانية ، فتقوم بواجبها الذي يفرضه عليها الدين الإسلامي ، تجاه المسلمين في كل مكان ، فنتولى أمر حمايتهم وشد أزهم أمام الاستعمار الغربي المتربص بهم <sup>(1)</sup> . لكن تلك الآمال لم تتحقق ، بسبب الضعف الشديد الذي آلت إليه الإمبراطورية في تلك الأثناء ، واستسلامها للدول الاستعمارية الكبرى ، التي قامت بتفكيكها بالتدرج ، إلى أن ألغتها نهائيا من الوجود .

أما تلميذه الشيخ "محمد عبده" ، فقد كان منطلقه الفكري هو الانحلال الداخلي والحاجة إلى تجديد الإسلام ، حيث كانت تتراءى له صورتان متناقضتان للمجتمع الإسلامي ؛ صورة مشرقة تعود إلى العهد الأول للإسلام ، وصورة مهزوزة كان عليها المجتمع الذي عاصره ، فكان عليه أن يعمل على التوفيق ، بين المجتمع الإسلامي النموذجي الذي كان هدفه ، وبين المجتمع - المتخلف - الذي كان يعيش فيه . إنه مجتمع السعادة والفضيلة ، الذي يسوده العقل لا القانون ؛ يكون فيه المسلم معتمدا على العقل في شؤونه الدينية والدنيوية على حد سواء ، ومتقبلا لأوامر الله متمثلا ومفسرا لها تفسيراً عقليا ، وهو جوهر ما حث عليه الإسلام . ومنه فإن دعوة الشيخ "عبده" ، قد قامت على الأسس التالية :

1- تطهير الإسلام من البدع والضلالات ، والعودة به إلى صفائه الأول ؛ من خلال تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين كما فهمه السلف الصالح قبل أن يظهر الخلاف ، والرجوع إلى ينابيعه الأولى ، والحيلولة دون طغيان الفكر الغربي الحديث . وفي هذا اقتفى عبده خطى الدعوات الإصلاحية السلفية ، فأخذ بآراء كبار قادتها مثل الشيخ " ابن تيمية "

(1) - ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 186 وما بعدها .

- ( 1263م - 1328م ) وتلميذه " ابن القيم الجوزية " (\*) و"محمد ابن عبد الوهاب" (1) .
- 2- إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية بناء على الفكر الحديث ، بمعنى التوفيق بين الدين والعلم ؛ إذ لا يمكن أن يمثل الدين حاجزا أمام البحث في الأسرار الكونية، وطلب المعرفة عن طريق البرهان . ولهذا لجأ إلى توظيف العلوم الحديثة في تفسير القرآن الكريم ، وحث على إقامة التوازن بين العلم والإيمان .
- 3- الدفاع عن الإسلام ضد كل ما يستهدفه من مؤثرات غربية ، وحملات تبشيرية ومعتقدات ونظم أخلاقية . وتقديمه كدين يحمل أفكارا وقيما متحررة ، صالحة لكل الأزمنة (2) .
- 4- إصلاح التعليم الديني ، وعدم الاكتفاء بدراسة المؤلفات العربية التقليدية في الشرع الإسلامي ؛ والانفتاح على العلوم الحديثة وتاريخ الديانات في أوروبا ، لكي يتسنى للمسلمين فهم أسباب التقدم الغربي .
- 5- التمسك بالإسلام ؛ لإخراج المسلمين مما هم عليه من ضعف و شلل ، وتكالب استعماري .
- 6- الإصلاح بواسطة التربية والتعليم ، لتحرير العقل من جموده ، وإعادة هداية الدين . وبناء عليه ، يمكن القول أن الشيخ "محمد عبده"، قد اختار الإصلاح عن طريق التربية ؛ التي عدها أساسا لكل حركة إصلاحية ، انطلاقا من كون أن بناء الأجيال الجديدة هو الذي يحقق النهضة العامة ؛ التي تكون نتاجا لتغيير تدريجي في عادات وأخلاق وسمو التفكير . وليس عن طريق استبدال قادة الحكومات أو طريقة الحكم ، أو تحسين أشكاله الإدارية (3) .
- أما الجامعة الإسلامية عنده ؛ فهي نزعة بعيدة عن التعصب ، على عكس مما روج له بعض المسيحيين لسوء فهمهم للشرق ، والساسة الغربيين بفعل نواياهم السيئة - اتجاه الإسلام والمسلمين - ، قادها رجال من مختلف الأقطار الإسلامية ، ممن حز في أنفسهم ما وصل إليه قومهم، من تخلف وانحطاط في كل المجالات ؛ كان من مظاهره ؛ انتشار البدع والخرافات

(\*)- ابن القيم الجوزية : هو محمد ابن القيم الجوزية ( ت 751هـ / 1350م ) ، فقيه حنبلي دمشقي ، تلميذ ابن تيمية وقد سجن معه ، قاوم الفلاسفة . كتب الكثير من المصنفات منها : " مدارج السالكين " ، " إعلام الموقعين " ، " شفاء العليل " ، " روضة المحبين " ، " القواعد " . المنجد في اللغة والأعلام .

(1) - علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص ص 82- 83 .

(2)- ينظر أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق ، ص 140 وما بعدها .

(3)- ينظر علي المحافظة ، المرجع نفسه ، ص 82 وما بعدها .



وهيمنتها على العقائد الدينية والحياة اليومية للأفراد ، الذين أهملوا أمورهم الدينية والدينية ؛ وغرقوا في التواكل واليأس من أنفسهم ، وانقادوا لحكام مستبدين ومتسلطين ؛ لا هم لهم سوى استغلال شعوبهم وخدمة مصالحهم الشخصية ، وجمع الثروات لإنفاقهم على شهواتهم . فجاء أولئك العقلاء من رجال الإصلاح ؛ لإصلاح الوضع وإعادة ثقة المسلمين بدينهم ، واعتماد هذا الأخير، لتقويم ما فسد وأختل في حياتهم .

وهكذا فإن العودة إلى الدين في البلاد الإسلامية ؛ لا يعد من وجهة نظره ، محاولة لإثارة الفتن ضد الأمم المجاورة للمسلمين ، التي تحضى بالاحترام والتقدير، حتى ولو كانت غير مسلمة ، لأن الغرض الوحيد من الدعوة إلى جامعة الدين ، هو تمكين المسلمين من الاستعانة ببعضهم البعض ؛ لإصلاح ما تعرضت له عقائدهم من فساد ، وما شاب شؤونهم من اختلال ، وللدفاع عن أنفسهم من كل اعتداء . ثم أنه لا ريب في أن المسلمين ، إذا تهذبت أخلاقهم عن طريق الدين ، وانصرفت جهودهم إلى اكتساب العلوم والمعارف ، فإنهم سيلحقون بركب التقدم الأوروبي، وينافسون أصحابه فيه ، مما يؤدي إلى إمكانية الاتفاق في المصالح وسهولة التفاهم . ومعناه أن الجامعة الإسلامية في مفهومه ، تهدف إلى إحداث التوازن في العلاقات بين المسلمين والأوروبيين ، يحكمها منطق التكافؤ في القوى ، وليس منطق القوي والضعيف . وهو هدف لن يتحقق ؛ إلا بتطوير العقول وتكوين الأجيال (1) .

أما موقفه من الدولة العثمانية ، فقد تطابق مع موقف الأفغاني ؛ إذ أيد بقاءها ودعا إلى حمايتها من القوى الدولية ، التي كانت لا تتوقف عن تدبير المؤامرات والفتن ضدها ، ليس لأنه كان من المتحمسين لحكم الأتراك ، وإنما لأنه كان يعي جيدا أن إضعافها وتفكيكها ، يعني تمهيد الطريق أمام أوروبا الاستعمارية، للسيطرة عليها واحتلال كل أقاليمها وأملاكها . والحل باعتقاده يكمن في إصلاحها - من الداخل - ، بعد أن أظهرت عجزها التام في القيام بدورها المفترض إزاء الإسلام والمسلمين على حد سواء ، فتعالج الانحرافات التي أصابت سياستها من ظلم واستبداد ، وينقى الدين من الشوائب والطغوس التي التصقت به ، ويستفيد المجتمع الإسلامي من

(1) - للمزيد ينظر محمد طهاري : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، ج 1 ، مرجع سابق

العلوم العصرية والتربية الحديثة (1) . وجدير بالإشارة في هذا المضمرة ، أن الشيخ "محمد عبده" ، قد استمر في موقفه هذا من الدولة العثمانية ، على عكس أستاذه "الأفغاني" الذي جاهر بعدائه للسلطان العثماني ، بعد أن اكتشف أن هذا الأخير، لم يكن صادقاً في تبنيه لفكرة الجامعة الإسلامية ، وكل ما كان يريد منه هو إضفاء الشرعية لنظام حكمه، وتحصينه داخليا وخارجيا ، وهو ما لم يرضى به الشيخ "محمد عبده" كما مر بنا سالفاً .

ولقد اجتهد في الدفاع عن سلمية، وإنسانية فكرة الجامعة الإسلامية ، التي حاولت بعض الأقسام الفكرية وأغلب المنابر السياسية الغربية ، تشويهها برميها بالعصبية والعنصرية ومعاداة الآخرين . متناسية أن دولها ، هي التي أنتجت قوميات عرقية متعصبة خلال القرون الأخيرة ؛ كالنازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ، فحولت القارة الأوروبية وخارجها ، إلى ساحات لحروب دموية ، كانت نتائجها كارثية على الجميع، بشريا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

لأن فكرة الجامعة الإسلامية، في اعتقاده تستند إلى الإسلام كمرجعية ؛ فهو وإن حث على وحدة المسلمين وتكتلهم وتعاونهم ، على أساس الرابطة الدينية ؛ فإنه في المقابل من ذلك ؛ لم يدع إلى سيطرة قومية أخرى أو ابتلاعها ؛ بل قرر أن الهدف في كل ذلك هو ؛ تحقيق المساواة والعدل والأخوة والسلام ، خدمة للإنسانية كلها ، بغض النظر عن الأجناس والألوان والأحساب والأنساب . وبذلك يكون من الديانات التي تسعى دائما ؛ إلى القضاء على عوامل التعصب وأسباب الحروب القومية ، لتتعم البشرية بحياة الأمن والحرية والرخاء والسلام (2) .

ومن أنصار الجامعة الإسلامية أيضا الشيخ "محمد رشيد رضا" ، الذي اقتفى طريق أستاذه الشيخ "محمد عبده" ؛ في إصلاح المجتمع الإسلامي، عن طريق التربية والتعليم ، حيث قامت آراؤه الإصلاحية التي تضمنتها جريدة " المنار " التي أسسها سنة 1898م ؛ وكذلك عشرات الكتب (\*) التي ألفها ، على الأسس التالية :

(1) - منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 222 .

(2) - لأكثر تفاصيل حول هذه النقطة ينظر محمود حمدي زقروق : الوحدة العربية ما لها وما عليها ، ط 1 ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، بيروت : 1994م ، ص 59 وما بعدها .

(\*) - وهي : تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير المنار وهو في اثني عشر مجلدا ، التفسير المختصر المفيد ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ( ثلاثة أجزاء ) ، نداء للجنس اللطيف ( حقوق النساء في

- 1- استقلال الفكر وحرية العقل في العلم ونبذ التقليد : ذلك أن العقل باسمه وأفعاله ورد في القرآن الكريم حوالي خمسين مرة ، أما أولي الألباب أي العقول فذكرت أكثر من عشر مرات . في حين أن التقليد ، حجر على حرية التفكير واستقلال العقل ، وهو ما يتعارض وجوهراً الإسلام دين العلم والحكمة .
- 2- القضاء على البدع والخرافات والتقاليد والعادات ؛ التي أفسدت على المسلمين عقائدهم وأخلاقهم وشؤونهم ، ودفعت بهم إلى - مستنقع - الدجل والخرافات ؛ كالاحتفال بالموالد وعبادة القبور والمشاهد ؛ التي تعد حسبه من عبادة الوثنيين المنتشرة بشكل خاص في الهند .
- 3- تصحيح العقائد ، وتركيز النفوس وتهذيب الأخلاق ، باعتماد القرآن الكريم والحديث النبوي والاقتماد بالسلف الصالح ، وهو ما يتطلب إحياء علوم التفسير والسنة وآثار السلف .
- 4- وجوب إصلاح نظام التربية والتعليم، بتطوير وتحسين أساليب التعليم ، وتدريب العلوم العصرية التي تمثل دون غيرها مصدراً للثروة والقوة والعزة ، وذلك موازاة مع التعليم الديني الذي لا غنى عنه .
- 5- التصدي لأعداء الإسلام ؛ بالرد على الملاحدة وإبطال مزاعمهم وحججهم ، عبر تنقيح السنة النبوية من الأحاديث الموضوعية ؛ تفسير الآيات القرآنية ، وإصدار الفتاوى بشأن القضايا المطروحة ، ونشر المقالات في شتى المواضيع .
- 6- العمل على القضاء على التخلف والضعف والانحلال بين أوساط المسلمين ، ونقله إلى الحياة العصرية المتسمة بالقوة والتقدم أو التماسك الاجتماعي والقيم الأخلاقية ؛ بإزالة كل الأوهام والضلالات والبدع التي استحكمت على عقول الجميع ، وهو ما يقتضي الاهتمام بالوعظ والإرشاد الموجه لكافة الفئات الاجتماعية ، وبالتأليف في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب الدينية .
- 7- الاهتمام بالدعوة الإسلامية في العالم ؛ بإنتاج جيل من المثقفين ثقافة دينية صحيحة ،

( الإسلام ) ، الوحي المحمدي ، المنار والأزهر ، ترجمة القرآن وما فيها من المفاصد ، ذكرى المولد النبوي ، الوحدة الإسلامية ( محاورات المصلح والمقلد ) ، يسر الإسلام وأصول التشريع العام ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، الوهابيون والحجاز ، مناسك الحج وأحكامه وحكمه ، المسلمون والقبط ، رسالة في الصلب والفداء .

والملمين باللغات الأجنبية وبعلم العصر ، حتى يتسنى لهم القيام بذلك على أحسن وجه (1) . هذا بالنسبة لأفكاره وتصوراته الدينية والفكرية والعلمية والتربوية التي طرحها ، لإصلاح المجتمعات الإسلامية من الداخل ، والتي لا تختلف كثيرا عن نظيرتها لدى أستاذه الشيخ "محمد عبده" . أما بالنسبة للشق السياسي ، فقد كان "رشيد رضا" من أشد المدافعين عن الخلافة الإسلامية التي تعني عنده ((الإمامة العظمى)) وإمارة المؤمنين أو : ((رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا )) . وانطلاقا من ذلك فقد حدد مهام الخليفة أو الإمام في : (( نشر دعوة الحق ، وإقامة ميزان العدل ، وحماية الدين من الاعتداء والبدع ، والمشاورة في كل ما ليس فيه نهى-نواهي- ، وهو مسؤول عن عمله يراجع كل أحد من الأمة فيما يراه خطأ فيه يحاسبه عليه أهل الحل والعقد ... )) (2) . وكما بين أن حكومة الخلافة الإسلامية مدنية، تقوم على أساس العدل والمساواة ، ويكون فيها لغير المسلمين، جميع الحقوق الشرعية والعرفية والقانونية (3) .

ولأن الخلافة الإسلامية، تعني لديه الجامعة الإسلامية ، فإن "رشيد رضا" قد حرص على الدعوة إلى نبذ العصبية الجنسية ، التي قضى عليها الإسلام ، وتأييد بقاء الدولة الإسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية، بدل إلغائها، رغم الضعف والانحطاط الشديدين اللذان كانت عليهما ، بمحاولة إعادة الحياة إليها ؛ عن طريق تبني سياسة الشورى في الحكم ، ومحاربة الحكم الاستبدادي الذي كان يقوده السلطان "عبد الحميد" ؛ أو جمعية "الإتحاد والترقي" (\*) ، والعمل على مزج كل العناصر العثمانية ( ترك ، عرب ، روم ، أرمن ... ) في وحدة متكاملة، تنهض بالبلاد على قواعد المحبة والمساواة (4) .

والسبب في موقفه هذا المؤيد للدولة العثمانية ، هو كونه كان مدركا للنتائج الخطيرة التي يمكن أن تتجر عن انهيارها ، والمتمثلة في المخططات الاستعمارية التي كانت تدفع في هذا الاتجاه . وقد خص هنا بالتحديد بريطانيا ، التي اعتبرها : ((الخصم الأكبر الأشد الأقوى ))

(1)- ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 90 وما بعدها .

(2)- ينظر رشيد رضا ، المصدر السابق ، ص 16 وما بعدها .

(3)- ينظر المصدر نفسه ، ص 180 وما بعدها .

(4)- منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 223 .

من خصوم الخلافة الإسلامية ، والعلة في ذلك أنها (( تخشى أن تتجدد بها حياة الإسلام وتتحقق فكرة الجامعة الإسلامية فيحول ذلك دون استعبادها للشرق كله)). وبين أنه نشر الكثير من أقوال وتقارير الأوروبية في هذه القضية ; ومنها تقرير " كرومر " السنوي عن مصر و السودان سنة 1906 م ؛ الذي ذكر فيه أن المقصود من الجامعة الإسلامية بصورة عامة ، هو توحيد المسلمين في كل أنحاء العالم ، للوقوف في وجه القوات المسيحية ومقاومتها . وأضاف بأنها تعني أيضا، تهيج الأحقاد الجنسية والدينية ، فضلا عن السعي إلى إصلاح أمر الإسلام على النهج الإسلامي ، مما يعني إعادة مبادئ وضعت منذ ألف سنة، إلى حياة القرن العشرين، وختم بتحذير الأوروبين من الجامعة الوطنية ، حتى لا تلبس لباس الجامعة الإسلامية ، وتوجيه النصح إلى الأمم الأوروبية التي لها مصالح سياسية بالشرق، بضرورة مراقبة تلك الحركة مراقبة دقيقة ، لأنها قد تؤدي حربه إلى إضرار التعصب الديني، في جهات مختلفة من العالم .

وإذا كان الشيخ "رشيد رضا" ، لا يستغرب أن يطعن الاستعمار في الخلافة الإسلامية ، اعتقادا منهم أنها قد تؤدي إلى ثورة أهل البلاد الإسلامية عليهم ، وأن يعملوا على تفسير المسلمين منها مخافة أن تكون سببا في تحقيق الجامعة الإسلامية ، فإنه من زاوية أخرى ، أعرب عن اندهاشه من إحجام الأتراك عن إقامة الخلافة الإسلامية ، رعبا وخوفا من معارضة الدول الأوروبية الاستعمارية ؟ . وفي المقابل نصح رجال الدولة التركية ، الذين كانوا ضد تحريك أوتار الجامعة الإسلامية ، بأنه نهج يضر الدولة أكثر مما ينفعها ، وهو السبب الرئيس في اشتداد الهجمة الأوروبية عليها ، والبديل الذي اقترحه في هذا الصدد هو :

1- تأسيس حكومة إسلامية ، خالية من التقاليد والقوانين الغربية ، إلا ما اتفق مع الشريعة ولم يختلف اختلاف الأقسام ، وتمنح مقام الخلافة حقه المتمثل في : إحياء دعوة الإسلام ، وإقامة الحدود وحرية أهل الأديان .

2- أن تترك أمور الدين إلى جمعيات دينية حرة ، المستعد أفرادها للقيام بهذه المهمة ، مع بقائها بمعزل عن السياسة ، حيث لا تخصص لها إعانة من الدولة ، فتعتمد بالأساس على ما تجمعها هي من إعانات ومن ما يعطي لها من أوقاف المسلمين الخيرية (1) .

(1) - ينظر رشيد رضا ، المصدر السابق ، ص 190 وما بعدها .

واستنادا على ذلك ، يتضح لنا أن الشيخ "رشيد رضا" ، كان من أنصار إعادة الحياة إلى الخلافة الإسلامية التي تأخذ على عاتقها ، مهمة التأسيس لفكرة الجامعة الإسلامية على أرض الواقع ، بمعنى أنه كان يرى أنها كلاهما مرتبط بالآخر ، فلا يمكن أن تتحقق الثانية إلا بوجود الأولى على شكلها الصحيح . ولذلك حاربت الدول الاستعمارية الغربية وعلى رأسها بريطانيا قيام خلافة حقيقية ، حتى تمنع الجامعة الإسلامية من التبلور في شكل اتحاد إسلامي ، مناهض للاستعمار في أي بلد إسلامي ، بغض النظر عن لون أو عرق أو ثقافة شعبه . وهو الهاجس الذي كان يدفعها للتجند من أجل أن يبقى العالم الإسلامي ، منحطا ومتخلفا ، ومقطع الأوصال وفي المقابل من ذلك ، شجعت بقاء خلافة عثمانية شكلية ، لأنها لا تشكل أي تهديد ، طالما لم تكن على الصورة التي كان يريدتها الشيخ "رشيد رضا" ؛ وغيره من أقطاب الإصلاح والجامعة الإسلامية .

وإذا كان كل من "الأفغاني" و"محمد عبده" و"رشيد رضا" ؛ قد حملت دعوتهم إلى الإصلاح والتجمع طابع الإسلام ، فإن "عبد الرحمان الكواكبي" ( 1854م - 1902م ) قد خالفهم في ذلك ، إذ اختار الإصلاح والتجديد في إطار العروبة ، وهو التوجه الذي سار فيه كل المصلحين المجددين ، الذين عاشوا في البيئة الشامية في تلك الفترة من الزمن ، حيث انطلق مفهومهم للإصلاح من العروبة لغة وعرقا . فقد كرس الكواكبي جهوده ، لإصلاح المجتمع والبحث في أسباب تأخر العالم الإسلامي ، ومحاربة الاستعمار ، وإصلاح الحكم ودعم مبادئ الحرية ، بالإضافة إلى تطهير الإسلام من البدع والخرافات ، والعمل على يستعيد العرب مركزهم الطبيعي في قيادة الإسلام . وفيما يتعلق بهاته النقطة الأخيرة ، رأى أن الرابطة العربية ، قد تعد الحل الأمثل خاصة بعد فشل دعوة الأفغاني في الوحدة الإسلامية لعوامل كثيرة منها :

- 1- كون أن العرب هم الأجدر في تلك الفترة من غيرهم ، في بعث النهضة الحقيقية .
- 2- الآثار الايجابية التي أوجدتها رابطة اللغة والثقافة ، حيث أوجدت بينهم تقاربا يمكن أن يكون أرضية صلبة للفكرة<sup>(1)</sup>.

(1) - أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 166 .

- 3- رؤيته للقوميات على أنها قد تمثل عاملا مهما في توحيد الأمم ، وفي التأثير الفعال إزاء فكرة الوحدة الإسلامية ، التي تجتمع حولها عدة قوميات .
- 4 - اعتقاده بأن العمل في المجال العربي ، هو بداية لعمل أكبر ، حيث يتوحد العرب أولا قبل أن يوحدوا العالم الإسلامي.
- ومنه فإن "الكواكبي" (1849م-1902م) قد تميز عن غيره ، بدعوته إلى الوحدة العربية على أساس الفكر الإسلامي العربي ، مع اعتماد اللغة والتراث والتاريخ ،قاعدة للعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي . وزيادة على ذلك، كان يرى في الرابطة العربية القدرة على مواجهة النفوذ الأجنبي الزاحف ومقاومته ، ولا شك عنده أن العرب هم أحق الأمم بقيادة الإسلام وتجديده ، وبتزعم الخلافة الإسلامية ، وهو ما لا يتعارض حسبه مع الوحدة الإسلامية (1) .
- أما أسباب تخلف المسلمين التي توصل إليها، ونشرها في كتابيه الشهيرين " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد " و " أم القرى " ، فقد صنفها إلى ثلاثة أصناف : دينية وسياسية وأخلاقية ومنها نذكر :
- 1- هيمنة عقيدة الحبر على أفكار الأمة ، وتأثير مذهب الزهد الذي زرع الكسل والخمول والتواكل .
  - 2- الاعتقاد الخاطئ ، بكون أن العلوم الطبيعية والفلسفة تتعارض مع الدين الإسلامي .
  - 3- الاستبداد والحكم المطلق .
  - 4- انقسام الأمة إلى عصابات وأحزاب سياسية ؛ متنازعة ومتصارعة .
  - 5- الاستغراق في الجهل والركون إليه .
  - 6- عدم الاهتمام بالتربية الدينية والخلفية ، وعدم صلاحية التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد .
  - 7- غياب العدل الاجتماعي والمساواة ، بين مختلف الفئات الاجتماعية للأمة .
  - 8- عدم العناية بتعليم النساء ، وضعف الرأي العام بفعل القيود المفروضة عليه وبث التفرقة فيه (2) .

(1)- ينظر أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ، ص 166 وما بعدها .

(2)- المرجع نفسه ، ص 169 .

وهكذا يمكن القول أن ؛ "الكواكبي" يعد من المفكرين العرب والمسلمين، الذين عملوا على تجديد الحياة في العالم الإسلامي ، بقيادة العنصر العربي ، فقد رأى في الجامعة الإسلامية حركة مناهضة للأتراك العثمانيين (1) . المسؤولين المباشرين عن الانحطاط والتخلف الشاملين ، اللذان كانا يحياهما المسلمون بشكل عام، والعرب بصورة خاصة ، بفعل الاستبداد الذي كان السياسة العامة لحكامهم ، والتي كانت نتائجها سلبية وسيئة على كافة الجوانب والأصعدة . ولذلك هاجمهم بشدة ونقدهم نقدا لاذعا، على نحو لم يسبقه إليه أحد من المناهضين للحكم العثماني ، وهو ما كان ربما السبب في وفاته، التي حامت حولها الكثير من الشكوك .

أما مصطفى كامل ( 1874م - 1908م ) ، فقد حرص على سياسة حسن التقارب مع الدولة العثمانية ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها ، مبررا ذلك بكونها السبب في منع إعلان الحماية البريطانية على مصر ، بفضل رفضها التنازل عن سيادتها عليها ، رغم الضغوط التي تلقتها من إنجلترا في هذا الاتجاه . علاوة على إدراكه أن الصراع بين السلطة في مصر وبين السلطان العثماني ، قد استغلته إنجلترا في تكريس احتلالها للبلاد سنة 1882م .

وشعار الجامعة الإسلامية عنده ، لا ينبغي أن يتعدى حدود روابط التضامن والتعاطف ، ولا يرقى إلى مستوى الدولة أو العصبية الدينية ، ومن ثمة فإنه لا يشكل عقبة أمام استقلال مصر الكامل ، باعتبار أنها أمة تمتلك جل مقومات الأمم . وهو مفهوم يرمي ليس إلى جامعة على أساس العقيدة فحسب ، وإنما يتعدى ذلك إلى - وحدة الواقع - ، ووحدة المعركة التي كانت تخوضها الشعوب الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي ، الزاحف على أوطانها ، مستخدما كل الوسائل المتاحة له . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ان التضامن والتعاطف في إطار الجامعة الإسلامية أمر طبيعي لديه ؛ ولا يعني بأي حال من الأحوال، التعصب أو الحرب الدينية على أوروبا ، لأنه من حق المسلم أن يبدي تعاطفه وتضامنه مع أخيه المسلم في أي مكان ، بفعل وحدة الشعور الديني التي تجمعهما ، وبالتالي لا مجال للقول بأن الغرض من الجامعة الإسلامية هو تأليف عصابة إسلامية ضد المسيحية . لأن الحقيقة غير ذلك إطلاقا ، وهي محاولة النهوض من التأخر الحضاري بإحياء الإسلام على صورته الحقيقية ، باعتباره ليس عقيدة فحسب بل

(1) - محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية ، مرجع سابق ، ص 59 .



قانونا اجتماعيا يحث على نشر العلوم والمعارف .

ومنه نستطيع القول أن "مصطفى كامل" ، قد تميز عن غيره من دعاة الجامعة الإسلامية، بكونه رفع شعارها وناضل تحت رايتها ، ولكن من منطلق قومي ، فهو لم يراها رباطا يؤلف دولة واحدة للعالم الإسلامي ؛ سواء كانت عثمانية أم غير عثمانية ، لأنه لا ينفى الدائرة القومية كما نفاها زملائه ، كما أنه أدرك قيمتها السياسية في مواجهة الاستعمار ، كما رأى فيها أغلبهم أنها مجرد حركة روحية . وعلاوة على كل ذلك، فإنه سعى للمزج قدر الإمكان بين التراث الإسلامي وتقاليد الشرق ، وبين ما كانت تقدمه الحضارة الغربية والمدنية الأوروبية، من عطاء علمي ومعرفي ومادي ، في الوقت الذي أراد فيه الكثيرون أن تكون - الجامعة الإسلامية - جدارا حصينا يحمي الشعوب الإسلامية، من المؤثرات الحضارية، القادمة إليها من الغرب وأوروبا<sup>(1)</sup> .

وقد تأثر بدعوة هؤلاء الأقطاب ، عدد معتبر من قادة الفكر والرأي والإصلاح في المشرق والمغرب ؛ كمحمد فريد و"قاسم أمين" (1863م-1908م) و"أحمد لطفي السيد" (\*) ، و"عبد العزيز جاويش" في مصر ، والشيخ "طاهر الجزائري" (\*\*\*) في سوريا ، والشيخ "خير الدين التونسي" ( 1822م - 1890م ) (\*\*\* ) في تونس ، والشيخ البشير الإبراهيمي في الجزائر ، والأمير شكيب أرسلان في لبنان . وفي المبحثين الثاني والثالث من هذا الفصل ؛ سنستعرض مفهوم وفوائد الجامعة الإسلامية لدى الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ، بالإضافة إلى أفكارهما وتصوراتهما، للكيفية التي يمكن من خلالها للمسلمين حكومات وشعوب ، أن يبنوا الجامعة الإسلامية . وختمنا كل ذلك بإجراء مقارنة بين وجهات نظرهما ، للوقوف على نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما في هاته القضية .

(1) - ينظر محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكر القومية ، مرجع سابق ، ص 124 وما بعدها .

(\*) - أحمد لطفي السيد ( 1872م - 1963م ) : أديب وصحفي مصري ، أصدر سنة 1907 جريدة " الجريدة " التي كانت لسان حزب الأمة ، شغل منصب وزير ورئيس مجمع اللغة العربية ، ترك العديد من المؤلفات في الفلسفة والمقالات المشهورة ، من أهم آثاره " قصة حياتي " . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*) - الشيخ طاهر الجزائري ( 1852م - 1920م ) : أديب دمشقي من علماء اللغة ، له الكثير من المؤلفات في الأدب والحساب . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*\*) - للتعريف بالشيخ خير الدين التونسي، ينظر الصفحة 379 من هذه الأطروحة .

المبحث الثاني : مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى الإبراهيمي وأرسلان .2- مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى الإبراهيمي :

لقد ملكت وحدة المسلمين ، مشاعر الشيخ البشير الإبراهيمي ، وشغلت فكره ، وأخذت حيزا كبيرا من كتاباته، ومحاضراته وأحاديثه في المنتديات والأندية ، ونصائحه للحكام ولقادة الأحزاب في البلاد الإسلامية . وقد بنى نظرتة إليها من زاويتين ؛ فأما الأولى فهي الزاوية الدينية : انطلاقا من كون أن المؤمنين إخوة وأمة واحدة وفقا للنص القرآني ، وجسد واحد كما جاء في الحديث النبوي الشريف . أما الزاوية الثانية فهي سياسية ؛ بغرض التصدي للأخطار المحدقة بهم من كل جانب ، ومنها خطر الدول الغربية الاستعمارية التي يفرقها كل شيء ، ويوحدها الكيد للمسلمين ، الذي أضحى مثل الرحم يرعاها الغربي للغربي ، وهو السر في كون أن الأقلية الغربية، قد تمكنت من استعباد الأكثرية المسلمة .

وفي هذا الإطار ، جاءت رحلته إلى العالم الإسلامي سنة 1952م ، إحياء لفكرة الجامعة الإسلامية : (( التي كان الغرب يرتعد لمجرد ذكرها ، لأن معناها بروز كتلة سياسية على المسرح العالمي ، تهدي بالإسلام وتتخذة شرعة ومنهاجا ، ويتعاون أجزاءها للتخلص من السيطرة الأجنبية سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وتقدم للبشرية مشروعا حضاريا قويا يحررها من إرهاب الشيوعية ... وينقذها من استغلال الرأسمالية ... ))<sup>(1)</sup> .

والجامعة الإسلامية في مفهومه ، هي تلك الجامعة الواسعة التي لا تضيق بأحد ، لأنها تتسع لكل منتسب إلى روحانية الإسلام الخالصة ، ولا تقبل تلك الأقاليم الضيقة والوطنيات المحدودة ، منبع شقاء المسلمين ومبعث بلائهم<sup>(2)</sup> . الذين يشكلون في مجموعهم ما أطلق عليه الشيخ اسم : (الوطن الإسلامي) ، الذي يشمل كل مكان تقام فيه شعائر الإسلام ، مهما كان بعيدا أو قل عدد أهله<sup>(3)</sup> .

وبالنظر إلى ذلك ، نجد أن الإبراهيمي، قد جعل من الإسلام العامل الأساسي في وحدة المسلمين، رغم عمق الفرقة بينهم ، فأكد ذلك بقوله أن الدين الإسلامي لا يزال رغم ضعف

(1) - من مقدمة الأستاذ الهادي الحسني . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 13 .

(2) - المصدر نفسه ، ج3 ، ص 422 .

(3) - المصدر نفسه ، ج3 ، ص 420 .

آثاره في نفوس أهله وعجز عقولهم عن فهم حقائقه ، قادرا على الإشعاع من جديد بروحانياته التي تهزم المادة وتتفوق على سلطانها ، حتى في أوج قوتها وعظمتها - مثلما كان عليه الحال في عصر الإبراهيمي وبعده - ، وقادرا على جمع قلوب أبنائه على نوع من الأخوة الفريدة . - والسر الذي لا يخفى على عاقل - ، هو تلك القوة الروحانية التي يتميز بها الإسلام ، وتتغلب على كل عوامل الكيد للمسلمين ، والتشتيت لصفوفهم والتبعيد بين قلوبهم ، بتشجيع الخلافات المذهبية والدينية والدينيوية بينهم ، وباصطناع الحواجز والحدود الجغرافية ، التي جزأتهم إلى أقاليم ودويلات ، والحواجز اللغوية من خلال الإكثار من اللغات والرطانات ( اللغات الهجينة الركيكة ) (1) .

والإبراهيمي ، حينما اعتبر الإسلام هو : (الوطنية الكبرى) ، التي تجمع كل المسلمين ، مهما كانت أجناسهم وثقافتهم وأماكن تواجدهم ، فإنه ينطلق في ذلك من كون أن : (الوطنيات الضيقة) ، هي السبب الرئيسي في إضعاف الحمية الإسلامية ، حتى قضت عليها في النفوس ، وفي سقوط الأقطار الإسلامية بما فيها العربية ، في يد الاستعمار الأوروبي الحديث ، الذي اقتسمها فيما بين دوله ، تماما مثلما تقتسم الخبزة الواحدة إلى لقم سائغة ، يسهل مضغها وازدراؤها ثم هضمها في النهاية . وجعلت من الاتصال بين الأجزاء الإسلامية أمرا مستحيلا ، لموت ملكة التعاطف والتعارف بين أهلها منذ قرون . والنتيجة كانت تحول هذا الجسم الواحد إلى أشلاء ممزقة ، تعيش خارج الأحداث ، وتتخبط في دوامة من الانحطاط لا مخرج لها (2) . ومنه يصل إلى أن الوطنيات الضيقة ، صنيعة الاستعمار لا الإسلام ، يتوجب محاربتها قدر الإمكان ، لجمع تلك الأوصال الممزقة على كلمة الإسلام ، وإعادتها إلى حظيرته الواحدة كما هي غايته دائما (3) .

من هذا المنظور ، نستطيع القول أن الإبراهيمي ، كان ينشد تحقيق وحدة سياسية بين المسلمين ، بحيث لا تتصرف بلدانهم وأقطارهم بشكل منفرد خاصة في علاقاتهم الخارجية ، لأن ذلك قد يؤدي الاختلاف في المواقف - إزاء القضايا الكبرى والمصيرية كقضية الاستعمار

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، مصدر سابق ، ج2 ، ص 375 .

(2) - المصدر نفسه ، ج4 ، ص 102 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 89 .

مثلا - ، فيحدث أن يوالي بلد إسلامي دولة أجنبية قد تكون معادية - أو مستعمرة أو معتدية على بلد إسلامي آخر وهكذا - . وبمعنى آخر، أنه كان يحبذ أن تكون تلك البلدان على ولاء واحد ، وأن تتعامل مع غيرها مجتمعة كقوة دولية موحدة ، فلا تشد واحدة منها مع الأخرى . مع احتفاظها باستقلالها التام في سياستها الداخلية، لأن ذلك يخضع لظروف كل بلد (1) .

لكن المحرك في تلك الوحدة السياسية ، هو روح الإسلام الذي ينبذ الوطنية الضيقة التي يضعها في الاعتبار ولا يلغيها ، لأن ايجابيات وآثار الوطنية الإسلامية تفوقها بكثير، ولا مجال للمقارنة بينهما في هذا الجانب : (( وأن الوطنية مكرمة ، ولكن وطنية الإسلام أكرم وميدانها أوسع ، وصاحبها أعز نفرا ، وأقوى ناصرا ، وأكثر عديدا )) (2) .

ولتوضيح مفهومه أكثر للجامعة الإسلامية ، يحينا الإبراهيمي إلى "السيد قطب" (\*) ، الذي عده أكثر من إكتمته الفكرة، وآمن بها إيمانا لا تشوبه أية شائبة ، وظل يدعو المسلمين في الشرق والغرب ، بكتاباته القيمة ، إلى استلهاها والسير عليها في حركاتهم

(1) - محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص ص 314 - 315 .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الاثار ، مصدر سابق ، ج4 ، ص 428 .

(\*) - سيد قطب : هو سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسن شاذلي ، ولد سنة 1906م في قرية " موشا " بالصعيد المصري ، إحدى قرى المحافظة أسيوط ، نشأ في أسرة ميسورة الحال ، تحظى بمركز مرموق في القرية ، تخرج من دار العلوم سنة 1933م ، بشهادة الليسانس في الآداب ، مع دبلوم في التربية وب تخصص في اللغة العربية . عمل بعد ذلك في مدارس وزارة المعارف بين 1933م و 1939م ، ثم ترك بعدها التدريس واشتغل موظفا في الوزارة ذاتها في مراقبة الثقافة العامة ، لمدة ثماني سنوات ( 1940م - 1948م ) ، حيث شارك في تأليف بعض المناهج التي كانت تعتمد الوزارة في مدارسها . كان في الوقت نفسه ، يكتب مقالات صحفية سياسية عنيفة ، انتقد فيها الأوضاع الداخلية ، وهاجم من خلالها سياسية الدولة بصراحة كبيرة ودون خوف ، مما سبب له الكثير من المضايقات والغضب من رؤسائه ، وفعل الشيء نفسه مع الأحزاب المصرية ، التي أعلن عدم ثقته فيها. سافر إلى أمريكا في أواخر 1948م ، حيث قضى فيها سنتين متجولا في جامعاتها ومعاهدها ، ولما عاد إلى مصر ، أواخر سنة 1950 ، انظم إلى جماعة الإخوان المسلمين ، التي قنتع بفكرها بعد اغتيال مؤسسها حسن البنا سنة 1949م ، سجن سنة 1954م وحكم عليه لمدة خمسة عشر عاما مع الأشغال الشاقة ، ثم بالإعدام الذي نفذ فيه في 29 أوت 1966م . تعددت مؤلفاته وشملت مجالات ؛ الحديث والتفسير ، الفكر الإسلامي ، ومن أشهرها: " معالم في الطريق " . للمزيد ينظر عبد الله عوض الخباص : سيد قطب الأديب الناقد ، د ط ، دار الشهاب، الجزائر : د ت .

التحررية وكفاحهم بصورة عامة ، وإلى ضرورة التمسك بالأخوة الإسلامية ، التي تمثل السبيل الوحيد والمضمون ، لتحقيق كل ما يبتغونه من الأماني والآمال، في هذه الحياة . فهم كمسلمين لهم من التعاليم الإسلامية، والرصيد التاريخي الكافي، ما ينير لهم الطريق كلما واجهتهم العقبات، وحلت بها الأزمات والنوائب (1) .

وفي المضمار ذاته ، يرى الأستاذ "محمد الهادي الحسني" (2) ، أن فكرة الجامعة الإسلامية ، التي آمن بها الإبراهيمي ودعا إليها ، وابتغى لتحقيقها ، وحث على إحيائها قد تجسدت فيما بعد في منظمة المؤتمر الإسلامي (\*\*\*) ، حتى وإن كانت ذات تأثير ضعيف وفعالية قليلة ، بسبب عدم جدية القائمين عليها، والمروجين لها في العالم الإسلامي ؛ من حكام ومسؤولين وقادة . أما الإبراهيمي، فقد قام من جانبه بواجب العلماء من أمثاله ، بالبحث عن الفكرة وبيان مزاياها على الأمة . تلك الروحانية التي تجعل ، كل الأوطان الإسلامية وطنا مسلما بحكم الدين الإسلامي (3) .

لقد أولى الإبراهيمي، أهمية كبرى لفكرة الجامعة الإسلامية ، بل أنه جعلها مفتاحا لأغلب القضايا والتحديات، التي كانت تواجه المسلمين في عصره ، وهو السبب في رأيه الذي جعل الاستعمار الغربي، يحاربها بكل الوسائل والطرق ، حتى تمكن من التفرقة بين المسلمين والشرقيين ، ومنها إفساد دينهم ، الذي يحثهم على نصرته الأخ لأخيه ، وحماية الجار لجاره ، فهو دين يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه ، فيحدث التعاون والتناصر ، فهناك؛ جوار الدار، وجوار القرية للقرية، وجوار المدينة للمدينة، وجوار الوطن للوطن . فإذا اكتمل كل ذلك عم التعاون والتناصر ، وأغلقت المنافذ على العاملين لإحداث الفرقة والقطيعة . لكن الاستعمار بدسائسه كان يدعو إلى العكس : (( فهو يقول لك : أقصر اهتمامك

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، مصدر سابق، ج 4 ، ص 152 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 14 .

(\*) - ينظر بن عمر عادل : منظمة المؤتمر الإسلامي الواقع و الآفاق ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية و العلاقات الدولية، غير منشورة ، قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، جامعة بن يوسف بن خدة ، الجزائر : السنة الجامعية 2006م-2007م .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 184 .

على دارك ، ولا تلتفت إلى دار جارك ، ويوسوس للجار بمثل ذلك ، حتى إذا أطاعه خرب الدارين ، واستعبد الدارين )) .

ويمضي الإبراهيمي، في تحليله لهاته الإستراتيجية الاستعمارية ، فيقول أن الاستعمار لا يزال يحث المسلمين والشرقيين ، إلى قبول هذه الدسياسة ثم على استحسانها ، ثم على الأخذ بها في نهاية المطاف ، حتى أصبحوا أمما منقطعة ليس فيها أي أمة قوية ، فتنقسم تلك الامم بدورها إلى جماعات ، فإذا لمح منها الاستعمار أية بارقة أمل في النهوض ، سارع إلى تحريك دسائسه وإغراءاته لها ، كما أغرى الشيطان آدم وحواء بشجرة الخلد وملك لا يبلى ، أو كما يغرى الصبيان ؛ بألفاظ فارغة وأسماء وألقاب وعروش وهمية ، حتى تسنى له أن يضع يده على أوطانهم ويستعبد شعوبها، وينهب ثرواتها ومقدراتها الثمينة . في غفلة وتخاذل وتهاون واستهزاء من المسلمين ، الذين أعانوه على أكل العنقود حبة حبة ، وهي غاية ما كان يبتغيه . فوصل الأمر إلى الحد الذي يعتدي فيه على الجزء ، فلا تحرك الأجزاء الأخرى ساكنا ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وتطور إلى أخطر من ذلك ، حيث أصبح الأخ يقتل أخاه لصالح قاتلها معا ، يفعل ذلك دون اتعاظ أو إدراك، أن الاستعمار هو العدو المشترك ولا غيره (1) . ويلخص الإبراهيمي وسائل الاستعمار ، في سبيل منع قيام أية جامعة أو رابطة بين المسلمين ، مهما كان شكلها أو نوعها فيما يلي :

- 01- التفريق بين صفوفهم ، حتى أصبحوا أعداء لبعضهم البعض .
- 02- التخريب لضمائرهم ، حتى أضحت خيانة الوطن والدين لديهم ، عملا محمودا يتمادحون به.
- 03- التمزيق لجامعاتهم ، حتى صاروا أمما متناذرة ، تتعاضد سعيا لإرضائه ، وتتمادى في ذلك طمعا في التقرب منه .
- 04- التوهين لقواهم المعنوية ، إلى حد أصبح فيه حالهم كحال التماثيل الخشبية ، التي لا ترهب ولا تخيف .
- 05- الهيمنة التامة على ثرواتهم ومقدراتهم الاقتصادية ، مما جعلهم أمة تعيش عالية على مستعمرها ، فهي لا تنتج شيئا مما تستهلكه ، رغم أنها تمتلك كل مقومات ذلك .

(1)- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج3 ، مصدر سابق ، ص ص 422 - 423 .

06- التعقيم لعقولهم وأفكارهم ، الذي ترتب عنه التخلي عن كل ما هو ذاتي في مجالات العقل والفكر ، واستبدالهما بما هو لدى المستعمر ، حتى ولو كان تافها أو دون المستوى . والفكر ، واستبدالهما بما هو لدى المستعمر ، حتى ولو كان تافها أو دون المستوى .

07- ترويضهم على احتقار الذات ؛ فتجد منهم من يستهزأ بماضيه افتتاناً بحاضر غيره ، ويسخر من قادته العظام الذين حكموا العالم بالعدل مقابل إعجابه بقيادة الاستعمار ، والرفع من شأنهم ، ومنهم من ينسى تاريخ أمته المجيد ، ويمجد التاريخ الاستعماري ، ويحتقر لغته احتراماً للغة المستعمر... الخ .

وينتهي الإبراهيمي إلى القول ، بأن هذه الإستراتيجية، هي أخطر أنواع الاستراتيجيات الاستعمارية ، لأنها تستهدف استعمار العقول والأفكار ، وقد حالفها النجاح ، لأنها وجدت من المسلمين القابلية الكبيرة للتجاوب معها ، وهي التي مهدت الطريق لتجذر الوطنيات الضيقة المحدودة ، التي زينها للمسلمين ، كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله ، وحببها إليهم كما يحبب الطيب المزيف للمريض، تناول السم باسم الدواء . وهو الذي - المستعمر - يحرص على محاربة تلك الوطنيات في بلدانه ، لأنه يدرك جيداً أنها عامل يضعف قوته ، وهو ما كان يرمي إليه من خلال التشجيع عليها في البلاد الإسلامية (1) .

وعلى ضوء هذا التحليل ، نلاحظ أن الإبراهيمي، قد نبه إلى خطورة الغزو الفكري على المجتمعات الإسلامية ، وعده من أهم الوسائل التي يوظفها الاستعمار، بهدف إبقائها خاضعة لنفوذه ، وتابعة له تبعية تامة؛ سياسياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً وحضارياً . وبغرض إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين ، في شتى بلدانهم ، بواسطة إحياء القوميات التي كانت لهم قبل مجيء الإسلام ، وإيقاظ الخلافات والنعرات بين شعوبهم . علاوة على إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من ناحية ، وتأكيد تفوق المثل الغربية وعظمتها من ناحية أخرى ، وإظهار أية محاولة للتمسك بالإسلام، عقيدة وتراثاً ولغة وحضارة وقيماً وفكراً ، على أنها رجعية وتأخر (2) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الأثار ، ج 4 ، مصدر السابق ، ص 101.

(2) - ينظر أحمد عبد الرحيم السايح ، المرجع السابق ، ص 75 وما بعدها .

ويمضي الشيخ البشير الإبراهيمي ، في حديثه عن دور الاستعمار في التفرقة بين المسلمين ، والتضريب بين صفوفهم ، فيذكر أنه من مظاهر نجاح تلك السياسة ؛ كثرة الطوائف والمذاهب المفرقة ؛ وهو ما أنكره خلال زيارته لباكستان التي سبق وأن أشرنا إليها ، حيث وجد ذلك البلد الإسلامي يعج بالصراع الطائفي والمذهبي ، الذي وصل إلى حد امتلاك كل طائفة لمساجدها الخاصة ، التي يحق لأتباعها فقط دون غيرهم الصلاة فيها ، مما يزيد في تفرقة المسلمين ، وجاء ذلك في قوله : (( وقد أنكرت عليهم هذا في بعض محاضراتي إنكارا عنيفا ، وقلت لهم أن المساجد لله ، وأنها جامعة لا مفرقة ، وأنه لا يحسن تعددها إلا تعدد المحلات وتباعدها ، لا تعدد العلماء واختلاف نزعاتهم ، وأنه ما شئت شملت المسلمين إلا ملوك الطوائف ومساجد الطوائف )) . وزيادة عن ذلك قال : بأن هذه القضية هي من أكبر أسباب تشتيت صفوف المسلمين ، ومما يزيد خطورة ، وقوعها في بلد إسلامي ناشئ كباكستان ، مقبل على حياة جديدة ، تتطلب جمع الكلمة وليس تفرقتها . ومن ثمة يرى بأن سكوت العلماء هو جريمة ثابتة، فضلا عن تشجيعها لهم، لأن هذا الوضع يخالف ويناقض الحكمة من بناء المساجد في الإسلام ، والقاعدة المطلقة في كونها لله وليس لغيره (1) .

ولقد حمل علماء الدين، المسؤولية الكبرى في هذا المأزق الخطير ، خاصة علماء الإسلام خاصة منهم علماء الكلام و الفقهاء ، الذين فرقوا شمل المسلمين ، باختلافاتهم وصراعاتهم المذهبية ، فبلغ الأمر حد أن أصبح كل رأي في علم الكلام أو الفقه : (( يتحزب له جماعة ، فيصبح مذهباً فقهياً أو كلامياً يلتف حوله جماعة ويجادلون فيه ، فضعف سلطان القرآن على النفوس ، وأصبح العلماء لا يلتزمون في الاستدلال بآياته ، ولا ينتزعون الأحكام منها إلا قليلا : فعلماء الكلام صاروا يستدلون بالعقل ، والفقهاء أصبحوا يستدلون بكلام أئمتهم أو قداماء أتباعهم)) (2) .

لا جدال في أن الطائفية والمذهبية ، هي من أكبر المنافذ التي وظفها الاستعمار أحسن توظيف في البلاد الإسلامية ، وتمكن من خلالها من تحقيق الكثير مما خطط له ، أكثر مما حققه بالوسائل الأخرى . الأمر الذي يفسر استمراره في المراهنة عليها، حتى بعد حصول البلدان

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص 45 .

(2) - المصدر نفسه ، ج5 ، 315 .



الإسلامية على سيادتها السياسية ، كما كان عليه الحال في باكستان ، التي كان يؤمل منها أن تكون النموذج الذي يحتذى به ، في بناء الوحدة الإسلامية الشاملة .

ولذلك حث مثل غيره من العلماء المسلمين في تلك الأثناء ، الحكومة الباكستانية ، على ضرورة التصدي لكل المحاولات الرامية ، إلى إيقاف وإذكاء ، الصراعات القائمة على أسس مذهبية أو طائفية أو لغوية، أو ثقافية أو حضارية . لأنها تؤدي إلى تشتيت شمل البلاد ، وتمزيق مجتمعها الهادئ ، وتضريب القوى بعضها ببعض ، وتحريك العصبية الكثيرة التي كانت نائمة ، ودعوها إلى المراهنة على الوحدة الإيمانية للمسلمين الباكستانيين ، وعلى الجامعة الإسلامية التي تمثل فيها باكستان قطعة أساسية (1) .

وفي المحصلة ، أن النجاح في تجاوز أو احتواء ، تلك الصراعات المتجذرة لدى الشعوب الإسلامية المتخلفة ، يعني نجاح الجامعة الإسلامية ، التي لا يمكنها أن تكون كذلك ؛ إذا كان صوت الألوان والأجناس واللغات والأوطان ، - يعلو فوق صوتها - لكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك ، أن رابطة الإسلام ، يجب أن تلغي الروابط السابقة ، لأنها ستظل موجودة ، مثلما ذهب إليه بعض المشتغلين العرب المسلمين بهذه القضية ، الذين قالوا بأنه لا بقاء للرابطة الإسلامية، مع وجود الشعور بالقومية العرقية ، ومن المغالطة الزعم بأن إحداهما تساير الأخرى ولا تتناقضها (2) .

إن الحينيات السالفة الذكر ، كافية بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، لكي يدعو المسلمين إلى معاداة الاستعمار ، على كافة مستوياتهم ؛ الشعبية والرسمية ، وعدم موالاته لأنها خروج عن الإسلام ، أو تسليم أمرهم له في أي شأن من شؤونهم ، أو الثقة فيه وائتمان جانبه ، أو إقامة حلف معه لأن طبيعته تأبى عن ذلك ، كما أنهم بذلك يعينوه على أنفسهم وهو الذي أفلس من كل النواحي ، وسينتهي به الأمر إلى الزوال وقد بين ذلك بقوله : (( أيها المسلمون أفراداً وهيئات وحكومات : لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه ، ولا تتولوه في سلم

(1) -أبو الحسن علي الندوي : الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ، ط 4 ، مؤسسة الإسراء ، الجزائر : د ت ، ص 53 وما بعدها .

(2) - علي محمد جريشة ، محمد شريف الزبيق : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ط 3 ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر : 1979م ، ص 80 وما بعدها .

---

ولا حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم ، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له . ولا تأتمنوه فإنه لا أمن له ولا إيمان . إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدت في عمره يوماً بموالاتكم له . ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه (( <sup>1</sup> ) .

---

(<sup>1</sup>) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 70 .

**02- مفهوم الجامعة الإسلامية ومزاياها لدى أرسلان :**

أعطى الأمير شكيب عدة تعريفات للجامعة الإسلامية ، فذكر أنها بمعناها ومفهومها العام ، تعني الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، بين جميع المؤمنين في كل البلاد الإسلامية ، وهي تعود في أصولها ومنشئها إلى العهد النبوي ، أي منذ أن شرع الرسول " ص " في الجهاد ، والتفاف المهاجرين والأنصار حوله ، متعصبين معه بعصبة الإسلام ، لقتال المشركين الذين كانوا يحاولون القضاء على الرسالة الإسلامية في مهدها (1) . وقال عنها في مناسبة ثانية أنها : (( رابطة وجدانية في وجهها الديني ... ورابطة سياسية واقتصادية في وجهها السياسي )) (2) .

وزاد على ذلك، في رده على بعض القوميين السوريين ، بأنها لا تعني أن يقوم المسلمون في الشرق والغرب ، ويؤلفون كتلة واحدة ، ليقاتلون كل من ليس مسلما ، وإنما المراد منها أن : (( المسلمين يستفيد بعضهم من بعض في المأزق ، بسبب ما يجمعهم من رابطة الإسلام ، فإذا حصل لهم خطب أو نزلت بهم نازلة - كما هي في فلسطين اليوم - أمكنهم أن يتخذوا من سائر مسلمي الأرض أعوانا يمدونهم بالوسائل المادية والأدبية )) . فالجامعة أو الرابطة الإسلامية، هي التي تجعل مسلمي البوسنة وبلغاريا والهرسك ، يسألون عن حالة فلسطين ، فهل كان هؤلاء قحطانيين أو عدنانيين - يتساءل الأمير - ؟ ، فمنهم صقالبة أقداح مثل الروس وبلغار وترك يحنون إلى فلسطين ، يدفعهم في ذلك إسلامهم ، والأمر ذاته بالنسبة لمسلمي الهند ، فهل هم عرب لينتصروا لعرب فلسطين ؟ والإجابة طبعاً بلا ، فلا يجمعهم بعرب فلسطين إلا كلمة ( الإسلامي ) (3) .

وبناء على ما تضمنته هذه التعريفات ، تبدو الجامعة أو الرابطة الإسلامية عند الأمير شكيب ؛ جملة من المشاعر الدينية، التي يتبادلها المسلمون مع بعضهم البعض، في أي مكان كانوا فيه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك، البعد الجغرافي أو الحواجز السياسية أو الاختلافات

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، ج 1 ، م 1 ، ص 288 .

(2) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .

(3) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 383 - 384 .

العرقية والطائفية والتباينات الثقافية ، ولا حتى الظروف والأوضاع المحيطة بها . وهي مشاعر ظهرت بظهور الدين الإسلامي ، الذي حملها معه إلى كل الأقاليم والجهات والأوطان التي فتحها ، أو وصلت رسالته إليها ، وستستمر مادام هذا الدين موجودا .

كما أن افتراق المسلمين وتشنتهم ، وتصارعهم وتنازعهم في الكثير من الأحيان ، لا يلغي الوحدة الشعورية بينهم ، حتى ولو كانوا يقومون بما يناقضها في واقع الأمر ، لأن الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة، بمقتضى النصوص الدينية في الإسلام ، الذي لا يعرف الفرقة بالألوان أو العناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات . وظهور العصبية الإقليمية أو الشعورية، كما عرفت في التاريخ الإسلامي ، وتعاضمها في بعض فتراته ، لا ينفي الوحدة الإسلامية التي تبقى حقيقة لا جدال فيها، وإن ضعفت بفعل تبدل الظروف والأحوال <sup>(1)</sup> .

وإذا كان الأمير شكيب ، قد جعل من الدين الإسلامي ، عصب الجامعة الإسلامية ، فإنه نبه إلى أن ذلك لا يمثل تهميشا أو إقصاء " لغير المسلمين منها ، ويقصد العناصر المسيحية في الشرق ، الذين تربطهم بالمسلمين روابط كثيرة منها ؛ الرابطة الدموية واللغوية والمصالح المادية المشتركة . وعليه اعتبر مناوأة فئة كبيرة من المسيحيين للسياسة العربية ، سلوكا عقيما وسقيما ، يخالف العقل والكرامة والمصلحة ، فالعرب سواء كانوا مسلمين أم نصارى ، فهم في نهاية المطاف عرب ، لا يستطيعون التبرؤ من أصلهم ، ولا الانسلاخ عن أرومتهم العربية ، ولا خلاف عنده أن الرابطة الدموية ، كانت وستبقى من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب . ولا خلاف أيضا أن رابطة العقيدة الدينية ، لها تأثير بالغ في اجتماع الشعوب وانقسامها ، ولكنها لا تعارض رابطة الدم ، ولا تسعى للقضاء عليها ، خاصة إذا تعززت رابطة الدم برابطة الجوار ، ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة .

وواصل دفاعه عن رأيه بالقول، أن التجربة أكدت أن الرابطة الدينية على أهميتها ، أنها ليست هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة والدم لهما مكانة لا تقل عنها ، وفي بعض الأحيان كانت رابطة الجوار مع رابطة المصالح المادية ، أقوى من الرابطة الدينية ، أو ربما تفوقتا عليها وكان أثرهما أعمق في المجتمع . وبالنسبة إليه، توجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، جامعات كثيرة لا جامعة واحدة وهي كالاتي :

(1) - محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص 09 .

- وحدة الأصل : أهميتها ليست هينة ، ومثال ذلك ما قام به "أدولف هتلر " زعيم ألمانيا ، الذي وضع الرابطة الدموية الجرمانية فوق كل اعتبار .

- وحدة المصلحة الراهنة المشتركة : لا تقل أهمية عن الرابطين السابقتين ( الدينية و الدموية ) ، فلا يمكن أن تشمل المصلحة المادية ، المسلم دون المسيحي . كما أن الضرر الذي يقع على الوطن ، لا يمكن أن يصيب أحدهم ، ويستثني الآخر .

وبالاعتماد على ذلك، يتساءل شكيب كيف يرجع أحدهما إلى الأجنبي ، بسبب كونه يشترك معه في العقيدة ، ويتخلى عن شريكه في مقومات كثيرة . فإن لم يرتبط المسيحي بالمسلم بالرابطة الدموية ، فإنه يرتبط معه بالجامعة اللغوية ، أو بالرابطة الوطنية والمصالح المادية المشتركة . فهل يتجاهل كل ذلك؟ ، ويفضل فرنسا مثلا لكونها دولة أوروبية ، تدين بالمسيحية التي يدين بها أخونا المسيحي الشرقي ؟ الذي يعلم أن الأوروبي ، مهما تظاهر له بالقرب ، فإنه يحتقره في نفسه كما يحتقر المسلم ، ويعتبره كما يعتبر المسلم أجنبيا عنه ، في النسب والجغرافية واللغة والتقاليد والعادات (1) .

إن الحجج التي سردها الأمير شكيب ، وناقشها بشيء من التفصيل ، دفاعا عن موقفه الايجابي اتجاه المسيحيين الشرقيين، وموقعهم ضمن الجامعة الإسلامية، تبدو منطقية جدا ، إذ أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال ، أن يكون لهم مكان آخر خارج الإطار الإسلامي ، ولو اختلفوا مع المسلمين في العقيدة ، التي قال بشأنها الأمير أنه لا يمكن تجاهل أهميتها لدى المجتمعات والتكتلات . فالمسيحي الشرقي ، سيظل شرقيا مهما اجتهد في موالاته للمسيحي الغربي، الذي ينظر إليه دائما نظرة الغريب والأجنبي عنه ، حتى ولو اشترك معه في العقيدة المسيحية . ومن ثمة ، فإن تظاهر الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى ، بالتقرب إلى مسيحي الشرق، وبالحرص على مساعدتهم وحمايتهم ، لا يعدو أن يكون ، محاولة منها لتوظيفهم ، خدمة لأغراضهم الاستعمارية ليست إلا. مستغلة في ذلك ، الامتيازات ( Les capitulations ) التي منحها لها الدولة العثمانية بسخاء في هذا المجال .

فقد مارست فرنسا الحماية الدينية ، على كل المسيحيين الكاثوليك داخل الإمبراطورية ، وهي التي كانت تعتبر نفسها حامية كل الكنائس المسيحية في الشرق كاثوليكية أم غير كاثوليكية.

(1) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 136 .

أما روسيا فقد اهتمت بحماية المسيحيين الروم الأرثوذكس ، رغم أنها لم تجد منهم ترحيبا كبيرا ، بسبب ميولهم المذهبية والاقتصادية إلى اليونان . وفي المقابل من ذلك ، تشبثت بريطانيا بالدفاع عن حقوق المسيحيين البروتستانت ، الأقرب إليها مذهبيا (1) .

لقد فند الأمير شكيب مبرر العقيدة ، الذي قدمه بعض المسيحيين الشرقيين تبريرا لانحيازهم، إلى جانب الأوروبيين وتعاونهم معهم ، سواء أثناء الحكم العثماني، أم بعد تحول المنطقة العربية إلى مستعمرات أوروبية . لأنه يعتبر الحقيقة غير ذلك ، فالسبب في ظنه هو تلك العداوة، التي بدأت أوروبا بإشغالها بين الطرفين إبان الحملة الصليبية ، فكان الصراع بين الطرفين في الشرق الأدنى من ناحية ، وفي الأندلس من ناحية ثانية . ومنذ ذلك الوقت ، كلما هدأت حدة العداء بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، تتدخل الدول الأوروبية لإيقاد ناره . ولما انهزمت الدولة العثمانية ، هزيمتها الأخيرة في الحرب العالمية الأولى ، وتقلص نفوذها في البلاد العربية ، ظهرت الدول الأوروبية التي كانت تحارب العثمانيين، بحجة مساعدة العرب ، وأخذت تحارب العرب أنفسهم ، بعد أن كانت تدعي أنها تريد أن تحررهم من هيمنة الأتراك . لكنها في الواقع كانت ، تريد أن تتقلهم من عبودية فيها بعض المساواة ، إلى عبودية كاملة ، فيخضعون لقهر الأوروبي . ومع ذلك ، لا تفتأ تزعم أنها إنما جاءت ، لحماية الأقلية المسيحية من تسلط المسلمين عليها (2) .

والحاصل أن ، الأمير شكيب قد ذهب في حديثه، إلى إمكانية توسيع الرابطة الإسلامية إلى غير المسلمين ، إلى أبعد مما أوردناه فيما سبق ، فذكر أنه بإمكانها أن تشمل كل المستضعفين الذين يشتركون في نفس الأوضاع ، وأطلق عليها اسم : (رابطة المستضعفين) . وكل المجتمعات أو الأقوام ، التي تعيش تحت نير العبودية ، التي يتحتم عليها أن تتوحد مع من يرفع ذلك النير عن عنقها (3) .

(1) - للتفصيل ينظر مجموعة من الباحثين : الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م ، مرجع سابق .

(2) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 152 .

(3) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 2 ، ص 229 - 330 .

إن المزايا التي يتوخاها شكيب من الجامعة الإسلامية عديدة ، أهمها الوقوف في وجه السيطرة الاستعمارية ، فكل الظروف المحيطة بالعالم الإسلامي ، تدفعه لكي يتحد اتحادا دفاعيا تاما ، وتستمسك أطرافه استمساكا وثيق العرى ، حتى يتسنى له الدفاع عن كيانه، ووقايته من الزوال المنتظر في المستقبل (1) . وقد أدرك قادة الجامعة الإسلامية هذه الحقيقة، وأيقنوا أن الثورات المحدودة ، التي تتدلع في قطر مسلم دون الآخر ، لا يمكنها أن تضعف شيئا من قوة الدول الغربية الاستعمارية ، التي تتوفر على قوة حربية منظمة ومتطورة . وأدركوا حق الإدراك أن العالم الإسلامي، إذا أراد تحرير نفسه من الاستعمار الغربي ، الذي بسط سيطرته على بلدانه منذ زمن بعيد ، وجب عليه أن يعمل بشكل منظم ، وبخطى ثابتة في سبيل تحقيق الوحدة العامة والرابطة الكبرى .

وأيقنوا أيضا ، أنه لن يتم ذلك ، إلا إذا درس العالم الإسلامي علوم الغرب ، وأكنته عظمته وقوته وتقدمه، ونهج مناهجه وسلك سبله ، في كل ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة ، القائمة على قواعد العلم وأركانه . فلا سبيل غير هذا ، للإفلات من قبضة الاستعمار الغربي ، والتحرر من الحكم الأوروبي .

وفي هذا ، لا يرى الأمير حرجا على المسلمين ، أن يأخذوا عن الغرب ، ويقتبسوا الأفكار منه ، ويتبعون طريقه في كل ما هو ضروري ، لبلوغ أعلى درجات الرقي والتقدم . وهو موقف قادة الجامعة الإسلامية ، الذين رأوا أن الإسلام ، في حد ذاته صالح كل الصلاحية ، لكي يستمد منه المسلمون جميع ما يلزمهم لذلك ، ولهذا اقترح أمر الاقتباس من الغرب ، على محاكاته في مناهجه العلمية ، واستخدام وسائله العلمية فقط (2) .

وهكذا يكون الأمير شكيب ، قد ربط التحرر من هيمنة الاستعمار الغربي ، ليس بالجامعة الإسلامية فحسب ، وإنما بالنهضة العلمية أيضا ، أي أن الاتحاد لا يكفي وحده ولا يفي بالعرض ، إذا بقيت البلدان الإسلامية غارقة في التخلف والجمود والانحطاط ، مثلما كان عليه الحال في عصر الأمير . وهو في ذلك ، لم يخالف مفكري وسياسيي تيار الجامعة الإسلامية وأنصارها الذين رأوا : (( أن هناك عددا من التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي والشعوب ،

(1) - لوثرروب ستودارد ، مصدر سابق ، م 2 ، ج1، ص 307 .

(2) - المصدر نفسه ، ص ص 293 - 294 .

سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الإسلامية ، كالتخلف الفكري والروحي والانحدار السياسي، والصراعات الإقليمية والقبلية . أو آتية من الخارج، في شكل المد الاستعماري والإمبريالي، الذي زحف من أوروبا على الشرق ، وخاصة في القرن التاسع عشر (...)) . وتوصلوا إلى أن الحل لتلك التحديات الداخلية والخارجية ، هو الوحدة الشاملة ، والنهضة العلمية ، للعودة بتلك الشعوب ، إلى دائرة التأثير الإنساني والعطاء الحضاري ، كما كانت عليه قبل أن تقهرها التحديات السالفة الذكر (1) .

ولالإشارة ، فإن مفهوم التحرر لدى شكيب ، أو غيره من أقطاب ودعاة الجامعة الإسلامية ، لم ينحصر في الحصول على الاستقلال السياسي للشعوب الإسلامية ، بمقاومته بالسلاح وطرده نهائياً من البلاد ، بل يتعدى ذلك إلى مفهوم أشمل وهو التحرر الاقتصادي والثقافي والحضاري ، عن طريق توحيد الأمة الإسلامية ، فتتال حقوقها كاملة ، وتستعيد الريادة الحضارية والإنسانية ، التي فقدتها منذ عدة قرون . وهي نظرة شمولية ، جاءت كرد على الطموحات الغربية ، التي غزت المنطقة العربية والإسلامية ، وكحل لمعالجة مشاكل المجتمع سواء الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية، من غير تعصب للنزعات الطائفية والوطنية والقومية ، لأولئك الأقطاب والمفكرين (2) .

وهو ما يبهر، موقف الأمير شكيب من الحكم العثماني ، الذي رغم أنه كان مدركاً تمام الإدراك لمساوئه ومفاسده ، إلا أنه رأى أن تلك الخصائص على سوائها ، تبقى أقل شراً من الاحتلال الأوروبي المتربص ، ولذلك اعتقد ، بأن الإصلاحات كفيلة بإعادة الروح إلى الإسلام وإصلاح ما فسد . أما الاحتلال الأوروبي فهو شيء آخر، يمثل خطراً كبيراً على الأمة ، يجب التصدي له (3) .

موقف قال عنه ، أنه لم يكن شخصياً أو لجمهرة الأمة العربية ، وإنما لعقلاء العرب ، الذين أدركوا أنه إذا حدث الانفصال بين العرب والترك ، سقطت بلادهم تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية ، فاختراروا البقاء تحت الحكم العثماني ، خوفاً من الحكم الأجنبي واختياراً

(1) - محمد عمارة : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية ( نموذج مصطفى كامل ) ، مرجع سابق ، ص 50.

(2) - منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 223 - 224 .

(3) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 172 .



لأخف الضررين (1) ، فشق التأخي العربي العثماني ، لن يؤدي إلى الاستقلال المنشود ، وأنه سيكون مجرد تغيير احتلال بآخر . وبناء على معطيات تلك المرحلة ، رأى أولئك العقلاء ومعهم شكيب ، أن الحل ربما يكون في التفاهم مع العثمانيين على دولة اتحادية ، وحكم ذاتي ومطالب إصلاحية ، أفضل جدوى وأكثر نفعاً، من المراهنة على مساعدة الحكومات الاستعمارية الأوروبية ، فالجامعة الإسلامية كانت هي خشبة النجاة (2) ، في تلك المرحلة الشديدة الحساسية في تاريخ العلاقات الدولية بصورة عامة ، والبلاد الإسلامية بصورة خاصة .

وفي ذلك ، رد على بعض العرب الذين كانوا يقولون ، بأن الخلافة العثمانية ، لم تفد الإسلام بشيء ، وأنها كانت وبالاً على المسلمين ، في حين أن ما كان وبالاً عليهم في تصوره ، هو ابتلاؤهم بالشقاق والانقسام ، وخاصة العرب الذي هم كما قال " النعمان بن المنذر " (\* ) لـ : "كسرى" (\*\* ) : (( تراهم كلهم ملوكا ، وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ، ولا يبقى لها ملوكا )) (3) .

وقد بقي الأمير شكيب ، متمسكا بموقفه هذا من الخلافة العثمانية ، بل أنه قاتل إلى جانبها ضد الغزاة الأوروبيين ، إلى أن انتهت إلى الهزيمة وتصفية وجودها في المشرق العربي . حينذاك انتقل إلى الدفاع عن الجامعة العربية ، ليس انقلاباً في مواقفه، وإنما لأنه أدرك استحالة إعادة الروح إلى الخلافة العثمانية ، التي أصبحت مجرد ماضٍ، له إيجابيات ينبغي استثمارها، وسلبيات ينبغي على الجميع استخلاص الدروس والعبر منها .

(1) - شكيب أرسلان : سيرة ذاتية ، مصدر سابق ، ص ص 68 - 69 .

(2) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 131 .

(\* ) - النعمان بن المنذر ( 580-620 ) : من أشهر ملوك الحيرة اللخمييين وآخرهم ، مدحه النابغة الذبياني . خلع وسجن في المدائن من طرف كسرى أنوشروان . عرف بأبي قابوس ، وقيل أنه صاحب يومي " البؤس والنعيم " ، قتل الشاعر عدي بن زيد زوج ابنته هند . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\* ) - كسرى أوخسرو أنوشروان ابن قباد ( 531م - 579م ) : ملك ساساني ، حارب يوستينياس واحتل أنطاكية ، عقد هدنة مع البيزنطيين سنة 555م ، إستولى على اليمن سنة 570م ، عرف بعدله وإصلاحاته . المنجد في اللغة والأعلام .

(3) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 180 .

وجملة القول، أن الإبراهيمي و أرسلان ؛ قد كانا من أشد المتحمسين لفكرة الجامعة الإسلامية ، التي تعني عندهما توحيد المسلمين على أساس المشاعر الدينية ، التي تجعل من كل مسلم عضوا فيها مهما كان لونه أو عرقه ، أو خلفيته الاجتماعية والحضارية ؛ أي أنها تترفع عن كل الاعتبارات المعروفة عدا الدينية . وهي وإن كانت كذلك ، فإنها جامعة إيمانية إنسانية بناءة ، لا تستهدف تحقيق مصالح المسلمين فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى جميع الأجناس والشعوب غير الإسلامية ، حتى لا ينتهي بها الأمر ، مثل الوحدة الألمانية ، التي غالت في أهدافها العرقية الضيقة ، واتخذت من الاعتداء على حقوق الآخرين، وسيلة للوصول إليها ، وكانت النتيجة توريط الشعب الألماني والشعوب الأوروبية ؛ في حربين عالميتين مدمرتين ، كانتا وبالا على ألمانيا ذاتها ، التي فقدت وحدتها القومية بانقسامها إلى دولتين شرقية وغربية، متعاديتين لا تتفقان على أي شيء (1) .

والحق أن الإبراهيمي و أرسلان ؛ قد جعلنا من الجامعة الإسلامية ، فضاء دينيا وسياسيا واقتصاديا ، وعسكريا وحضاريا وإنسانيا ، يتسع للجميع عربا مسلمين ، ومسلمين غير عرب ، وعرب مسيحيين ، وكل المستضعفين في الأرض ، الذين تجمعهم مع المسلمين وحدة الواقع والمصالح المشتركة . وهو مفهوم شامل أكدا من خلاله أن الجامعة الإسلامية، ليست تكتلا عنصريا، كما يبدو للوهلة الأولى من خلال تسميتها . ولذلك قدرا ، أن الاختلاف في العقائد الدينية، لا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في العقائد السياسية ، بمعنى أن الاختلاف في الدين ، لا يمكنه أن يلغي الروابط الأخرى ، التي سبقت الإشارة إليها (2) . فالتحدي الاستعماري يدفع الجميع إلى الوحدة ، مهما كانت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم ، بل أنه الحل الوحيد الذي يمكنهم من التحرر من قيود الاستعمار التي، لا قبل لهم بها ، إذا حاولوا التخلص منها وهم منفردين ومنفرقين .

ومنه فقد اتفق الإبراهيمي و أرسلان ، على أن الوحدة بين المسلمين، ليست خيارا بقدر ما هي ضرورة وحتمية ، من أجل مجابهة الاستعمار الغربي ، الذي حاربها بالوطنيات الضيقة المجردة من العقيدة الدينية ، التي تشكل بطبيعة الحال ؛ تحديا أساسيا وخطيرا على مصالحه

(1) - ينظر أبو الحسن علي الندوي ، المرجع السابق ، ص 31 وما بعدها .

(2) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 147 وما بعدها .

الاقتصادية والسياسية في البلاد الإسلامية، ومن ثمة فقد راهن على استمرار الفرقة والتشتت لأمد أطول ، ضمانا لديمومة تلك المصالح .

واتفقا أيضا ؛ على أن الجامعة الإسلامية تبقى شعارا أجوفا ، إذا لم يتبعها تصميم وإرادة ، على الخروج من مأزق الجهل والتخلف والجمود ، باستيعاب الأسباب التي أدت إلى نهضة البلدان الاستعمارية نفسها ، مع المحافظة على المقومات الحضارية الذاتية ، التي تشكل صمام أمان ، أمام الذوبان في ثقافة الآخر المختلف عن المسلمين عقائديا وثقافيا . وبذلك تكون الوحدة أو الجامعة ، حتمية وليست خيارا ليس للمسلمين فحسب بل لغيرهم ، إن هم قصدوا فعلا هزيمة الاستعمار والتخلف معا .

والملاحظ أن الإبراهيمي، في تحديده لمفهوم الجامعة الإسلامية ، وقوله أنها يمكن أن تتسع لغيرهم من الأجناس الأخرى ، لم يشر إليهم أو يذكرهم بالأسماء . بينما فعل ذلك الأمير شكيب ، حيث خص بالاسم المسيحيين الشرقيين ، وأطنب في ذلك ، وقد تكون العلة في ذلك أن الإبراهيمي تحاشى الحديث عن الدور السيئ ، الذي قام به بعض المسيحيين الشرقيين ؛ خاصة في البلاد الشامية إزاء الخلافة العثمانية ، بدعم من الدول الاستعمارية الكبرى ، التي استغلت ارتباطها الديني بهم ، لكي تدفعهم إلى التمرد على السلطات العثمانية ، بل أن منهم من تحول أثناء احتدام المسألة الشرقية ، إلى أداة لزرع عدم الاستقرار والنهوض في المنطقة ، مما عجل بتسريع تجسيد المخططات الاستعمارية ، التي توجب بطرد العثمانيين ، وفرض الانتداب الإنجليزي والفرنسي كأمر واقع . في حين استفاض الأمير شكيب، في لوم المسيحيين الشرقيين على مسلكهم ذاك ، وتذكيرهم بأصولهم الشرقية ، وبمخاطر ما كانوا يقدمون عليه ، بحكم انتمائه إلى البيئة المشرقية عامة والشامية خاصة ، التي جعلته يحرص على إثارة هاته القضية الحساسة ، بكل شفافية وموضوعية .

وبالفعل، إن الدور المضاد للجامعة الإسلامية ، الذي قاده بعض المسيحيين الشرقيين ، قد شكل عقبة لا يستهان بها في هذا الاتجاه ، بل أنه كان إحدى الآليات الأساسية ، التي راهنت عليها الدول الاستعمارية الكبرى ، لوأد المشروع الوحدوي الإسلامي في مهده . وهو ما لم يرغب عن قادة الجامعة الإسلامية، ومنهم بطبيعة الحال أرسلان والإبراهيمي .

لقد حمل الإبراهيمي المسؤولية ؛ في استمرار الانقسام والتشردم، على الساحة الإسلامية إلى طرفين أساسيين هما : الأمة وقادتها الذين لم يواجهوا الإستراتيجية الاستعمارية ، التي كانت تعمل بدون هوادة على تكريس الفرقة في الجسد الإسلامي ، ومنع أي مظهر من مظاهر التقارب أو التعارف بين المجتمعات الإسلامية، مهما كانت بسيطة أو محدودة، وبكل الوسائل الممكنة والمتاحة . ولذلك ركز الشيخ على تحليل تلك الإستراتيجية، التي حاربت بها الجامعة الإسلامية ، ونبه إلى خطورتها وخاصة في جانبها الثقافي ، والمقصود به الغزو الفكري ، الذي يعد وسيلة مثالية وفعالة لنجاح ذلك . أما الطرف الثاني فهو علماء الدين، الذين وجه لهم سهام انتقاداته الشديدة ، للدور الذي كانوا يقومون به، في التكريس للطائفية والمذهبية ، طالباً منهم القيام بواجباتهم نحو الأمة، ممثلة في الدعوة إلى لم الشمل والتسامي عن الخلافات، ونبذ الصراعات ، وحثها كل مكوناتها العرقية والطائفية والمذهبية، والتقارب والتكاتف والتسامح، حتى تقطع الطريق أمام الاستعمار المتربص بالجميع ، وتسمح للأمة بالاستيقاظ من جمودها وانحطاطها ، وتلتحق بركب الأمم الراقية ، وهو ما ليس بمستحيل .

أما الأمير ، فقد أبدى تفاؤلاً أكبر من الإبراهيمي ، لأنه رأى بأن الجامعة الإسلامية، وإن كانت غير موجودة كمشروع اقتصادي وسياسي وحضاري، في أرض الواقع ، إلا أنها ظلت حسبه في وجدان المسلمين، منذ البعثة النبوية وحتى العصر الذي كان يعيش فيه ، وهو ما لم يستطع الاستعمار أن يقضي عليه ، وبالتالي أحد العوامل الهامة التي يمكن المراهنة عليها، في إنجاح هذا المشروع المصيري .

والحق أن الإبراهيمي و أرسلان ، لم يكتفيا بالتنظير للجامعة الإسلامية، بل سعيا بشكلين مختلفين، إلى الترويج لها والدفاع عن قناعاتهما وأفكارهما في هذا الصدد ، فقد وضعها الإبراهيمي على رأس أولوياته، في رحلاته إلى المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية ، أين استغل وجوده هنالك ، لجس نبض القادة وال جماهير الشعبية، إزاء موضوع الوحدة الإسلامية ، وللوقوف على شروط نجاحها من فشلها . وفي المقابل كان الأمير أكثر راديكالية ، من خلال

---

و في حروب البلقان التي اندلعت سنة 1912م ، وفي تقديم المؤازرة السياسية لها أثناء الحرب العالمية الأولى ، متحملا في ذلك كل المخاطر والانتقادات اللاذعة، التي ذهبت بعضها إلى حد اتهامه بخيانة الأمة العربية .

إن الجامعة الإسلامية ؛ فضاء ديني وسياسي وحضاري واقتصادي ، أجمع الإبراهيمي و أرسلان، على أنه يبني بالتدرج وليس بالتسرع والقفز على المراحل ، وهو تحد صعب ولكنه ممكن في نظرهما . وفي المبحث القادم، سنرى رؤية الرجلين للخطوات العملية، التي ينبغي مباشرتها والقيام بها ، لانجاز مشروع الجامعة الإسلامية و إخراجها من دائرة الحلم إلى دائرة التجسيد ، بعيدا عن الارتجال والحماسة ، لأن الفشل يعني انتظار الكثير من الوقت ، وهو أمر في غير صالح المسلمين.

**المبحث الثالث : كيفية بناء الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي وأرسلان****01- كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي الإبراهيمي :**

كانت الشعوب الإسلامية ، تشكل أمة بالمعنى التام خلال القرون الأولى، التي تلت ظهور الإسلام ، حيث امتزجت فيما بينها في مجال العلم و السياسة، و الإدارة الاقتصاد و المواصلات ، و سائر مجالات الحياة ، امتزاجا يدعو إلى الاندهاش و الإعجاب . و كان الشعور بالانتماء إلى الوطن الإسلامي و الثقافة الإسلامية ، أقوى بكثير من الشعور بالانتماء إلى الوطن الصغير أو القومية الضيقة ، فتجد في الفقهاء و المحدثين ، و في الأطباء و الفلاسفة و في الحكام ، سواء كانوا عربا أو هنودا أو فرسا أو تركمانا ، ملتقين على مستوى الثقافة و العقيدة الإسلاميتين، و حول المفاهيم و العادات الإسلامية (1) .

و هو أمر طبيعي ، لأن الإسلام أكد على وحدة العقيدة في المجتمع ، فالمجتمع و فقه لا يقوم على أساس اعتبارات الجنس أو اللون أو الأرض ، و إنما تجمعها أساسا وحدة العقيدة و الفكر ، و قد أدى ذلك إلى تماسك المجتمع و تضامنه ، بالإضافة إلى روح الإخاء و المساواة ، التي لعبت دورا كبيرا في اندماج كافة العناصر غير العربية، التي دخلت في الإسلام ، فانتشرت بينها اللغة العربية و العادات و التقاليد العربية ، و أصبحت تمثل جزءا مهما في كيان الأمة . و عليه فالإسلام هو الدعامة القاعدية ، التي بني عليها المجتمع في المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي ، و الرباط المتين الذي استلهمت منه الأمة العربية و الإسلامية وحدثها ، و من ثمة قوتها و تفوقها (2) .

و إذا كان، هذا هو حال الأمة الإسلامية في القرون الأولى ، فإنها على العكس من ذلك تماما في القرون الأخيرة من وجهة نظر الشيخ الإبراهيمي ، الذي ذهب إلى التأكيد بأن الأخوة الإسلامية ، ضعفت فيها و تلاشت إلى درجة قريبة من العدم ، حتى أضحت كلمة تلوكها الألسن و فقط ، دون أن تكون لها سلطة على القلوب . و حجتة في ذلك، أنه لو كانت لها منزلة و تأثير في نفوس المسلمين ، لتحولت الحكومات الإسلامية إلى حكومة متحدة في مواقفها

(1) - محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 34(2) - حكمت عبد الكريم فريجات ، إبراهيم ياسين الخطيب : مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن : 1999 م ، ص ص 27 - 28 .

و سياساتها ، ولرجع علمائها إلى الكلمة الجامعة في الدين ، و نبذوا كل ما يوسع من دائرة الخلاف . و الأمر نفسه مطلوب بالنسبة للشعوب و أهل الرأي و الكلمة فيها ، فالأولى يتعين عليها أن تسعى إلى تحقيق المصالح العليا للأمة ، و ليس مصالحها القطرية الضيقة ، أما الثانية فيفترض فيها أن تسترجع المكانة التي وضعها فيها القرآن الكريم .

و يمضي الإبراهيمي، في حديثه عن غياب الأخوة الإسلامية ، فيذكر بأن الحكام المسلمين انشغلوا بتوافه الأمور ، و بالتنافس على المناصب و مغريات السلطة ، يستهلكون كل طاقتهم، و يسخرون جل أوقاتهم في الخلافات و الصراعات ،التي تتوسع بشكل مطرد ، ممتنعين عن التفكير في الوحدة ، التي تحمي مصالحهم العليا ، و في التعاون الذي يحررهم من استغلال الأجنبي ، لمقدراتهم الاقتصادية ، يبيعون له المادة الأولية بأثمان بخسة ، و يشترونها من منتجات مصنعة بأسعار باهظة ، فإن أغلق أسواقه في وجوههم ، أفلس أغنياؤهم ، و مات فقراؤهم جوعا و عريا (1) . و معناه أنه يعتبر الحكام المسلمين ، المسؤول الأول عن هاته الوضعية ، لمسلكتهم الخاطيء و لنمط تفكيرهم العقيم ، و فساد أخلاق عدد منهم ، و تظاهرهم بالتحضر و المدنية، من خلال تجردهم من العقيدة الإسلامية ، التي تشكل الرابطة الجامعة بين كل المسلمين ، في أي زمان و مكان .

ومن أسباب ضعف الأخوة الإسلامية أيضا عند الإبراهيمي ، استفحال ظاهرة العصبية ، التي قضت عليها و على غيرها من الطبائع ، التربية الإسلامية التي أنشأت مجتمعا جديدا ، يختلف اختلافا جذريا عن المجتمعات العربية التي سبقت وجود الإسلام (2) ، حيث كانت العصبية القبلية و العرقية جارية و متأججة ، أساسها القول العربي المأثور : (( أنصر أخاك ظالما أو مظلوما )) ، و لذلك نجد أن الحرب و الغزو طبع متأصل فيهم ، و جزء لا يتجزأ من حياتهم اليومية (3) ، و لما جاء الإسلام أصبح ولاء الفرد أو المجتمع الوحيد هو الله ، لكن هذا

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 214

(2) - المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 110

(3) - أبو علي حسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، مرجع سابق ، ص 89 .

الوضع لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما عاد المسلمون إلى سالف عهدهم من التعصب (1) ، بفعل الانحطاط الديني ، وتأثير الآداب و الحضارة الغربية (2) .

لكن ذلك لا يعني أن الإسلام ، ينفي ارتباط المسلمين على اختلاف أقطارهم ، بعصببتهم أو جماعتهم ، و الجد في نصرتها و التعصب لمبادئها ، و إنما يدعو إلى الترفع عن العصببيات الضيقة ، و التمسك برباط العصبية الإسلامية . فالمعتق للدين الإسلامي متى رسخ في اعتقاده ، يتجاوز نسبه و شعبه ، و يلتفت عن الروابط الخاصة إلى الروابط الأشمل ، و هي علاقة المعتقد أو جامعة الدين . لهذا نرى العربي لا يرفض سلطة التركي ، و الفارسي يقبل سيادة العربي و هكذا . كما أن المسلم لا يأنف ، أو يستنكر انتقال الحكم من عرق لآخر ، أو من عصبية لأخرى ، مادام الحكم يحفظ الدين و يستلهم منه سياسته ، فإذا حدث العكس نراه يعرض عنه و ينفر منه ، فيضعه في خانة الأجنبي المعتدي ، و لو كان من أشد المتعصبين للوطنية (3) .

ومنه فإن الإبراهيمي يرى ، أن العودة إلى العصبية هي السبب الرئيس ، في ضعف الارتباط بين المجتمعات العربية و الإسلامية على حد سواء ، و هي أربعة أنواع : فأما النوع الأول فهو العصبية العرقية ، و يقصد بها التعصب لعرق و لو لم تكن له أية مكانة تذكر في التاريخ . و يتمثل النوع الثاني في العصبية إلى الرأي ، و إن كان أبعد ما يكون عن المنطق و الصواب . أما النوع الثالث فيسميه العصبية للأبناء ، و لو خلى تاريخهم من أي إنجاز يذكر مهما كانت ثقافته . و يتمثل النوع الرابع في التعصب للشيوخ ، حتى في المواطن التي زاغ فيها فكرهم و تعثر .

و بعد استعراضه لأنواع العصببيات ، التي انتشرت و نمت و تعاظمت لدى المجتمعات الإسلامية ، في مرحلة الانحطاط ، ينتقل إلى توضيح نتائجها السيئة على الأمة ، فيقول : بأنه بسببها أصبحت الأمة الواحدة أمما ، و الاتجاه الواحد اتجاهات ، فساءت الأوضاع و ضعفت الأخوة الإسلامية أولا ، و ضعفت سلطة الوازع الديني على النفوس ثانيا ، و ضعف هذا الأخير أدى بدوره إلى ضعف أعظم ركن في الدين الإسلامي ، و هو الأمر بالمعروف و النهي عن

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 110 .

(2) - أبو علي حسن الندوي ، المرجع نفسه ، ص 282 .

(3) - جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، المرجع السابق ، ص 49 و ما بعدها .



المنكر ، فطغت البدع على السنن حتى طمستها. و الأمر نفسه بالنسبة للعلوم الإسلامية، التي انتقلت إليها عدوى الفتور الذي أصيب به المجتمع الإسلامي . كما لابتست حقائق الدين شبّهات تحولت مع مرور الزمن إلى معضلات كبرى، ترتبت عنها آثار خطيرة . ليأتي التقليد في النهاية ، فيقضي على بنیان الاستدلال من قواعده، فيجفف منابع العلم و يصيب العقول بالعقم ، أما أخطر نتيجة لكل ذلك، فهي ابتعاد الأمة الإسلامية، عن هداية كتاب الله و سنة رسوله " ص " ، و سيرة السلف الصالح (1) .

و منه نستشف أن الإبراهيمي ، يذهب إلى أن العصبيات؛ لم تؤد فقط إلى إضعاف الأخوة الإسلامية ، و إنما انتقلت آثارها إلى الدين الإسلامي ككل ، فقوضت أركانه و شوّهت حقائقه و كبحت جماح الإبداع و الفكر فيه ، و حرمت الأمة من استلهايم القيم و العبر، التي يحفل بها القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ، بالإضافة إلى أعمال كبار الصحابة و التابعين ، الذين كانت لهم مساهمات كبيرة خلال القرون الأولى ، التي أعقبت ظهور الإسلام ، و تميزت بصعود الحضارة العربية و الإسلامية و ازدهارها .

أما السبب الثالث ، الذي (( أرخى حبال الأخوة )) الإسلامية على حد تعبير الشيخ ، فهو خوض العلماء فيما لا ينفع الأمة ، كالقدر و الذات الصفات الإلهية (2)، و الجنة و النار هل هي مخلوقة سابقا أم أنها ستخلق ... و غيرها من المسائل، التي لم تطرح في عهد الرسول " ص " و صحابته و تابعيهم ، ناهيك عن تركيزهم على القضايا الجزئية الخلافية ، و عدم محاولة تحقيق التقارب و الحوار و التفاعل مع المذاهب المخالفة . و هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المسلك قد، أدى في جانب آخر إلى حلول المذهب محل الشريعة (3) ، و تلك قضية تم التطرق إليها في عناصر سابقة .

لقد بالغ - في نظر الشيخ - العلماء و الفقهاء المسلمون في خلافاتهم ، التي طغت على كل مناحي الحياة ، ففي البيت يجلس الشباب إلى أبويه و أهله، فلا يسمع إلا المذهب و الخلاف ، و انتقاد المخالفين في المذهب قبل المخالفين في الدين ، و يجلس إلى علماء الدين فلا يسمع

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 110 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 164 و ما بعدها .

(3) - محمد المبارك : المجتمع الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 77 .

منهم إلا عبارة : ((عندنا و عندهم )) ، تحركهم : (( جرثومة التعصب )) فيصرفون جهودهم و ذكاءهم في الجدل الجاف و العقيم ، و قد عبر عن ذلك بمرارة قائلاً : (( و يمينا لو أن تلك الجهود التي تفرقت إلى الكلام تألفت على جهة عقلية أخرى لفتحت في العلم فتحا أغر زاهرا ، و لتعجلت به الفخر للإسلام و أهله )) (1) . و إن كان هنا، قد تحدث إجمالاً عن مسلك العلماء و الفقهاء ، فإنه في أمكنة أخرى قد خص الطرق الصوفية بمقالات كثيرة ، انتقدها فيها انتقاداً لاذعاً شديد اللهجة ، فوصفها في بعضها بـ : (( الطرق المشؤومة )) التي يرجع إليها الفضل الكبير في تفكيك روابط الأخوة ، و نشر العداوة و التضريب و البغضاء (2) . فقد شاهد بنفسه في موسم الحج، كيف يتجنب المسلم المتمذهب بالمذهب الحنفي (\*) ، الصلاة وراء المسلم الذي يتبع المذهب المالكي (\*\* ) ، و كيف يرفض الشافعي (\*\*\*) الصلاة وراء المالكي ، كل ذلك حسبه بسبب الطرق الصوفية المنحرفة التي عمقت هوة الخلافات ، حتى وصلت آثارها السيئة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الأثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 221 - 222 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 1 ، ص ص 164 - 172 .

(\*) - نسبة إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي ، الفارسي الأصل ، ولد بالكوفة سنة 80 هـ ، الفارسي الأصل ، عاش منها نحو 52 سنة في العصر الأموي و نحو 17 سنة في العصر العباسي ، عاصر بعض كبار الصحابة و التابعين ، ناصر العلويين ضد العباسيين خلال الفتنة التي قامت بينهما، فقد كان ناقماً على العباسيين لسطوتهم و شدتهم ، سلك مسلك التشدد في قبول الأحاديث النبوية و الحرية في وزن أقوال الصحابة و التابعين ، كما جعل القياس أساساً من أسس التشريع الإسلامي ، و لأن مذهبه كان جديداً بالنسبة للناس، بما تميز به من نزعة إلى حرية العقل، بالاعتماد على الرأي و القياس ، فقد أحدث ثورة فكرية جلبت له مؤيدين و معارضين، توفي ببغداد سنة 150 هـ . أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 176 و ما بعدها .

(\*\*) - مؤسس المذهب المالكي مالك بن أنس الأصبحي المدني ، العربي الأصل ، ولد سنة 93 أو 97 هـ ، عرف عنه أنه كان لا يشترط في الحديث الشهرة و إنما صحة السند و نحوها ، و من مسلكه في التشريع العمل بقول الصحابي إن صح نسبه إليه ، أهم آثاره كتاب: " الموطأ " الذي خصص جانباً منه للحديث و الجانب الآخر للفقهاء ، و كتاب: " المدونة " و هو مجموعة من الرسائل بلغت نحو ستة و ثلاثين مسألة ، توفي سنة 179 هـ . أحمد أمين ، المرجع نفسه، ص 206 و ما بعدها .

(\*\*\*) - الشافعي: هو محمد بن إدريس ، قرشي من جهة الأب ، يلتقي مع الرسول " ص " في عبد مناف ، ولد سنة 150 هـ / 767 م بغزة أو عسقلان ، لازم الإمام مالك في المدينة و درس عليه، عرف بعذوبة

إلى البقاع المقدسة في مكة المكرمة و المدينة المنورة ، و هي أمكنة إذا لم يتوحد فيها المسلمون، فما الجدوى باعتقاده من اجتماعهم بها : (( و كم كنت امتعض حين أرى الحنفي لا يصلي خلف الشافعي، و الشافعي لا يصلي خلف المالكي، بل كنت امتعض لتعدد الحلق الصوفية التي لا تجمع الناس لمدارسة علم ، و إنما تجمعهم لتحكيم وهم ، و أقول في نفسي إذا لم تجتمع قلوبنا في حرم رسول الله " ص " فهل ينفعنا اجتماع الأبدان ؟ )) (1) .

و تجدر الإشارة في هذه القضية، أن مواقف الشيخ من الطرق الصوفية المنحرفة، و ممارساتها في الجزائر على نحو خاص ، قد جعلته عرضة لعداء شيوخها و محلا للسخرية و الاستهزاء و الاحتقار ، و التعريض من لدن صحفها و منتسبيها ، شأنه في ذلك شأن سائر زملائه العلماء من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لما كان ينشره أولئك الشيوخ من عقائد مخالفة للدين ، هي كفر و إحاد صريح ، فجعلوا الناس يعتقدون فيهم أنهم واسطة تقربهم إلى الله ، كما أصبحوا لا يصلون و لا يخشعون إلا بين أيديهم تبركا بهم ، يتسابقون إلى تقديم العطايا و الهدايا بمزاراتهم و مقاماتهم ، و غيرها من الخرافات و البدع ، التي استحدثوها و استحكمت على عقول الناس ، ينهبون أموالهم باسم الدين لدرجة تجعل التفريق بين عصر عبادة الأصنام ، و ما آل إليه المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي ، الذي تحولوا إلى خدمته حفاظا على امتيازاتهم الاجتماعية أمرا مستحيلا (2) . فكانوا من بين أهم الوسائل التي وظفتها الإدارة الاستعمارية، لمحاربة الإسلام في الجزائر (3) ، و تفكيك أواصر الوحدة و الانسجام الاجتماعيين بها .

منطقه و حسن بيانه و ذكائه، و قدرته الفائقة على الجدل و قوته في التفكير، و مهارته في الاستنباط، نقد الإمام مالك نقدا قويا في مجال الحديث ، امتحن في مسالة خلق القرآن حيث عانى من الاضطهاد ، من آثاره: " رسالة في أصول الفقه " ، كتاب " الأم " في الفروع ، و " المسند " في الحديث و السنن ، توفي بمصر سنة 204 هـ / 820 م . أحمد أمين ، المرجع نفسه ، ص 218 و ما بعدها .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 191 .

(2) - مبارك الميلي : رسالة الشرك و مظاهره ، مرجع سابق ، ص 102 .

(3) - للمزيد ينظر عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931 م - 1945 م ، مرجع سابق . و ينظر أيضا رسالتنا : الشيخ الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م - 1965 م ، مرجع سابق .

أما السبب الرابع برأيه ، فيتمثل في الممارسات السلبية و المسلك الخاطئ للأحزاب (\*) و الهيئات ، و رجال السياسة المتواجدين آنذاك على الساحة السياسية في المشرق العربي خاصة ، بانخراطهم في الخلافات و الصراعات التافهة و المزمنة ، و إهمالهم لواجباتهم العظمى نحو الأمة ، التي يأتي على رأسها إيقاظها من تخلفها ، و السعي إلى إرساء أوامر الوحدة و التقارب و الأخوة بين شعوبها ، حيث فشلوا فشلا ذريعا في تحقيق تلك الأهداف ، بفعل جهلهم الذريع بجوهر السياسة التي يقسمها إلى قسمين :

- اللباب : و معناه إيجاد الأمة ، التي لا يمكن إيجادها إلا بتثبيت مقوماتها الستة و هي: الجنس و اللغة و الدين و التقاليد الصحيحة ، و العادات الصالحة و الفضائل الجنسية الأصيلة ، و بتصحيح ما يتصل بجانبها العقائدي و بإيمانها بالحياة ، و بتربيتها تربية تجعلها تعتد بنفسها و تفتخر بقوتها المعنوية ، و تغالي في إبراز قيمتها و تراثها . مع الحرص الشديد على ذلك كله حتى يتحول إلى عقيدة راسخة تناضل لأجلها ، و تستميت في الدفاع عنها ، و إلى قناعة تامة بأن وجود تلك المقومات شرط أساسي لوجودها ، و متى : (( اجتمعت تلاقت و متى تلاقت ولدت و طنا )) . و باختصار فلباب السياسة، هو الاشتغال بالأصول .

- القشور : معناه الاهتمام بالفروع بدل الأصول ، من خوض في السطحيات، و خوض في الخصومات و النزاعات و غيرها ... الخ .

و بإسقاطه لهذين المفهومين على أرض الواقع ، بالنسبة للأحزاب و الجمعيات و السياسة في المشرق العربي ، يسجل بكل أسف أن حظهم فيما يقومون به القشور و ليس اللباب حيث :

- غفلوا أو تغافلوا عن الاشتغال بالأصول السالفة الذكر .
- أهملوا تربية الجماهير و تصحيح مقوماتها ، حتى تصبح أمة أولا، و قوية ثانيا ، وذات رأي عام ثالثا .

(\*)- من أشهر الأحزاب السياسية في المشرق العربي، في عصر الشيخ الإبراهيمي : حزب اللامركزية السوري الذي أنشأ سنة 1912 م ، حزب الوطني 1907 م و حزب الوفد 1919 م ، حزب الأحرار الوفد 1919 م ، حزب الأحرار الدستوريين في مصر . أما بالنسبة للجمعيات فنذكر منها : رابطة الوطن العربي 1900م ، جمعية النهضة العربية 1906 م ، جمعية الإخاء العربي العثماني 1908 م ، الجمعية القحطانية 1909 م ، جمعية العربية الفتاة 1911 م ، الجمعية الإصلاحية 1913 م .

- ترويضهم إياها على طلب الحق قبل التفكير في استحقاقه ، و على إطلاق لفظ الخصم قبل إظهار الدليل، و لفظ العدو دون الاحتراس .
- اتصافهم بالغرور ، الذي يجعلهم يأخذون بظواهر الأمور قبل سبر بواطنها ، و بالسطحيات قبل إدراك الجوهريات ، و بالأقوال قبل أن تترجم إلى أفعال .
- و لا يكتف الشيخ البشير بهذا التحليل ، لحال الناشطين السياسيين في المشرق العربي ، من أحزاب و سياسيين و جمعيات ، بل يضرب (1) مثالا صريحا على ذلك ، فيذكر أنه في الوقت الذي كان في جمال الدين الأفغاني ( 1839 م - 1897 م ) ، يضع أساس الوطنية الإسلامية، على قواعد الإسلام الحقيقي ، و يدعو المسلمين إلى الثورة من ملوكهم و حكامهم و فقهاءهم ، لأنهم السبب الأول و الأخير في انحطاطهم و تخلفهم ، و في كل المآسي و العلل و الأمراض التي يعيشونها . وفي الوقت أيضا، الذي كان فيه الشيخ "محمد عبده" ( 1849 م - 1905 م ) ، يكمل بناء ما أنجزه أستاذه "الأفغاني" كان "مصطفى كامل" ( 1874م-1908 ) على إخلاصه لدينه و وطنه ، يدعو الأمة المصرية إلى الخلافة الإسلامية ، التي تجاوزتها الأحداث و عفا عنها الزمن و يخيف الدول الاستعمارية : (( بشبح لا يخيف ))، ثم جاءت الأحزاب المصرية، و نهجت منهاجا يصب في نفس الإطار :
- إهمال فضيع لمسألة تربية الأمة ، و تثبيت مقوماتها .
- تصارع و تطاحن، على مناصب الحكم و المسؤولية .
- ترديد جاف لشعار الوطنية ، و عدم الجدية في السعي لتثبيت دعائمها .
- تغن بمصالح الوطن ، التي ضاعت منذ زمن طويل .
- تبادل التهم، رغم أن الجريمة ثابتة في حق الجميع .
- تقديس الأشخاص ، و إهدار المبادئ .
- و يمضي في قوله ، فيذكر أن تلك الأحزاب، كانت تقوم بكل تلك الممارسات السلبية ، تحت أنظار قادة الاستعمار الذين يسخرون من الجميع ، و يطمئنون كل الاطمئنان على أن مصالحهم محفوظة و سياساتهم منفذة ، و أهدافهم المسطرة محققة ، طالما أنهم تمكنوا من

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 64 - 65 .

توجيههم نحو الوجهة الخاطئة ، و قد اختصر الموقف في العبارة التالية : (( والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شذقيه ، و ينام ملء عينيه )) .

و يتساءل ، أنه كان إذا الاستعمار من خصائصه ، أنه يحارب مقومات الأمة و يقضي عليها ، و أنه إذا كان من خصائص الأحزاب أنها تهملها و لا تعيرها أدنى اهتمام ، فهل نلوم العقلاء على أنهم اعتبروا الأحزاب و بالا أشد خطورة على الشرق من الاستعمار نفسه ؟ ، لأن هذا الأخير خصم معلوم بالنسبة إليه . و بالتالي فإنه يحذر و يحتاط منه ، لما يعرفه من أساليبه المختلفة، التي لا يتوان في توظيفها في سبيل تحقيق أهدافه و غاياته . أما الأحزاب فإنها تأتيه من حيث هو غافل و مطمئن، فإن اجتمعت الغفلة المستشرية استشرى الداء في الجسد ، مع الخلافات الحزبية و خصوماتها ، يكون من الطبيعي ما نراه و نسمعه عن الشرق ، الذي أصبح حاله بتعدد أحزابه السياسية، كحاله خلال الفترة العباسية ، التي كان فيها كل خلاف جدلي حول لفظة ، يؤدي إلى ظهور فرقة أو فرق ، وكل مجلس عقد للمناظرة (\*) بين فريقين يفرخ فرقا أخرى .

و بناء عليه ، يرى بأن الرأي القائل، بأن كثرة الأحزاب السياسية في أمة من الأمم دليل على حيويتها و حركيتها ، و ضمان لوصولها إلى حقوقها ، هو غير صحيح بالنسبة للبلاد العربية و الإسلامية ، التي لم يؤدي فيها تعدد الأحزاب ، إلا إلى أضعاف قوتها و ضرب وحدتها و إعانة الخصوم عليها ، و اشتغال تلك الأحزاب ببعضها البعض ، بدل قضايا الأمة المصرية ، و يستدل في حكمه هذا من القرآن الكريم الذي لا يكاد - حسبه - يذكر الأحزاب بصيغة الجمع إلا في مقام الخلاف و الهزيمة ، و من الأمثلة قوله تعالى : (( فاختلف الأحزاب

(\*)- ازدهرت المناظرات في العصر العباسي، بفعل الشغف بالعلوم و طمعا في عطاء الخلفاء و الأمراء ، و نيل الحظوة لديهم، و الرغبة في الوصول إلى الحقوق ، فكانت مجالس المناظرات تعقد في الدور و القصور و المساجد، و بين العلماء و في حضرة الخلفاء ، في الفقه و النحو و صرف و المسائل الدينية . و من الخلفاء الذين شغفوا بالمناظرات "المأمون" ،الذي اشتهر بثقافته الواسعة، و بإجادته فروعاً علمية كثيرة يناظر فيها . و على كل حال، فقد لعبت هذه المجالس دوراً كبيراً في الرقي العلمي ، و شجعت العلماء على البحث و النظر و حملتهم على الجد في حل المسائل ، حتى يظهروا في تلك المناظرات، بمظهر المتمكنين و الدقيقي النظر ، و حتى لا يفشلوا فيكون فشلهم قضاء على مكانتهم . ينظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 54 و ما بعدها .

من بينهم )) (\*) و قوله : (( جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب )) ، في حين لا يكاد يذكر الحزب بصيغة المفرد إلا في موقف الخير و الفلاح و من ذلك في قوله : (( ألا إن حزب الله هم المفلحون )) (\*\*).

لكن لا ينبغي ، أن نفهم من انتقاده الشديد هذا للتعددية الحزبية ، أنه يعارضها معارضة مطلقة ، حيث يستدرك الأمر فيقول: أنه من الغفلة و البله أن نضع الأحزاب في المشرق العربي و نظيرتها في الدول الأوروبية، في كفة واحدة ، لأن الأحزاب الأوروبية بإعتقاده ظهرت بعد أن توفرت لها شروط النجاح ، و منها إستكمال تربية مجتمعاتها ، و تصحيح مقوماتها بفضل قادتها الذين وحدوا صفوفها ، و علمائها الذين أحيوا لغاتها بعد أن كادت تندثر، و معلمها الذين ربوا الأجيال على كل ذلك ، و هو ما لا يتوفر بالنسبة للأحزاب العربية و الإسلامية : (( إن من الغفلة و البله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية ، فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم إستكملت تربيتها و صححت مقوماتها ، بدعوة دعاء جمعوا الكلمة ، و علماء أحيوا اللغة ، و معلمين راضوا الأجيال على ذلك و أين نحن و أحزابنا من ذلك ؟ )) (1) .

و منه نستخلص ، أن الأحزاب السياسية في المشرق العربي - بإعتقاد الشيخ - قد لعبت دورا سلبيا إزاء الإخوة الإسلامية ، ففي الوقت الذي كان فيه من الواجب عليها ، أن تعمل على تمثينها ، و رفعها إلى المستوى الذي يجعل منها عامل قوة، في عصر التكتلات و التحالفات ، فإذا بها تكون سببا في إضعافها ، بإهمالها للتربية الإجتماعية التي تسبق التربية السياسية ، و إنغماسها في الخلافات الحزبية الضيقة ، التي إستنزفت طاقاتها الفكرية و المادية ، و النتيجة أنها أضحت عقبة كأداء أمام نهضة بلدانها و رقيها ، و بالتالي فإن زوالها أفضل من بقائها ، و هو ما أشار إليه صراحة من خلال ما سبقت الإشارة إليه .

ولا شك أن الواقع نفسه ، كان في بقية البلاد العربية و الإسلامية الأخرى و منها الجزائر ، حيث طغت الخصومات و الحساسيات ، و النظرة الحزبية الضيقة بين أحزابها

(\*) - سورة مريم ، الآية 36.

(\*\*) - سورة المجادلة ، الآية 21.

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الأثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 65 - 66 .

السياسية وقادتها (\*)، رغم وحدة الواقع و الأهداف، و هو ما خدم الإستعمار خدمة عظيمة ، الأمر الذي دفع الشيخ الإبراهيمي ،إلى وصف سلوكياتها بالكذب و النفاق السياسي ، و انتقاد أساليبها؛ التي تقرن المبادئ بالخضوع المطلق للأشخاص ، و تقديس و عبادة الزعامات ، في حين تحقّر الأمة بعدم الالتفات و التقرب إليها، لتوجيهها الوجهة السليمة (1) .

أما السبب الخامس ، فأرجعه إلى كثرة الطوائف العرقية في المجتمع الإسلامي ، نتيجة لتوسع الفتوحات الإسلامية ، و بسط الإسلام لسلطانه على الكثير من الممالك ، التي كان لها السبق في الحضارة و القوة ، حاملة معها الكثير من الأفكار ، و الاعتقادات و الممارسات و التقاليد السلبية التي ورثتها عن أسلافها ، فما كادت تلك الطوائف أن تندمج في الحياة الجديدة و يؤثر الإسلام فيها ، حتى أسرعت إليها أعراض التفرق و الانقسامات المذهبية (2) .

و فعلا، فقد سمحت الفتوحات الإسلامية، بدخول أمم مختلفة في الدائرة الإسلامية ، فكان منها المغرب و مصر و الشام و جزيرة العرب و العراق و فارس ، و ما وراء النهر . و لأن الأمم تختلف في خصائصها ، اختلافا كالذي بين أفرادها، فيما يتصل بالعبادات و التجارب ، و في منهج التفكير، و في الجوانب العقلية و الثقافية و العاطفية و المزاجية ، فإن تلك الأمم قد حافظت على تلك الخصائص و الاختلافات ، رغم أنها ألفت فيما بينها أمة واحدة هي الأمة العربية الإسلامية ، والاختلاف في الأهواء و الميول السياسية، و في الشعائر و العادات و التقاليد و الآداب و غيرها .... (3) .

(\*)- و تتمثل في حزب " نجم شمال إفريقيا " الذي أسسه حاج علي عبد القادر ( 1883 م - 1957 م ) و مصالي الحاج ( 1898 م - 1974 م ) سنة 1926 م بفرنسا، و قد قامت السلطات الاستعمارية بحله بمقتضى مرسوم 26 جانفي 1937 م . فحل محله "حزب الشعب الجزائري" بتاريخ 11 مارس 1937 م ، و حزب "حركة أحباب البيان و الحرية" الذي انشئ في 1 مارس 1944 م بزعامة فرحات عباس ( 1899 م -1984م ) . و"حركة إنتصار الحريات الديمقراطية"، التي ظهرت سنة 1946 م، معوضة حزب الشعب المحل سنة 1939 م .

(1)- للمزيد حول إنتقاداته للأحزاب الجزائرية ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م-1965 م ، مرجع سابق ، ص ص 107 - 108 .

(2)- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق ، ص 164

(3)- ينظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج 2 مرجع سابق ، ص 5 و ما بعدها .



فالإشكال عند الإبراهيمي إذا ، لا يمكن في عدد الطوائف ، و إنما في كون أن كل طائفة منها احتفظت بشعائرها و عاداتها الخاصة ، التي قد تتصادم في الكثير من الأحيان ، مع جوهر الدين الإسلامي، و مع روح المجتمع الجديد ، الذي تشكل من خلال تمازج تلك المجموعات البشرية ، التي جمعها الانتماء إلى العقيدة الواحدة و الحضارة العربية الإسلامية . و برأينا فإن هذا التعارض ربما لم يكن مهما في بداية الأمر ، لما كان العرب و المسلمون فيأوج عطائهم الحضاري ، حيث ذابت و اضمحلت تلك الفروقات و النزاعات إلى حد كبير ، لكنها عادت إلى الظهور و النمو في عصر الانحطاط ، و لا تزال إلى غاية الآن .

و بالرغم من كل ما سبقت الإشارة إليه ، فإن الإبراهيمي قد أبدى نقاء لا كبيرا بإمكانية تجاوز حالة التشرذم و التشتت و الانقسام ، التي كان عليها أمر المسلمين في عصره ، ببناء وحدة إسلامية شاملة ، تتصهر فيها كل الخلافات و الحساسيات العرقية و الطائفية، و المذهبية و اللغوية و الثقافية ، ليس من باب الإختيار، و إنما بحكم الضرورة ، لأن العصر عصر تكتل و اندماج ، لا مكان فيه للضعفاء المنقسمين، مثل البلدان الإسلامية التي لم يعد يجمعها سوى الإسم ، و بعض الشعائر و العادات و التقاليد ، التي لا تغير من واقعها شيئاً . و عليه فإنه يرى أن الوحدة المنشودة ، لن تتحقق إلا من خلال ما يلي :

01 - أخذ العبرة من السيرة النبوية ، حيث تمكن الرسول "ص" من المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار على العروبة و الإسلام ، بصورة قل نظيرها في تاريخ البشرية ، بفضل سلطان القرآن الكريم ، الذي كانت هيبته كبيرة على القلوب (1) .

02 - أن يضطلع العلماء المسلمون ، بواجب الدعوة إلى الإتحاد ، و إحياء الحقائق الإسلامية السامية ، و إلى نهضة الشرق ، فإذا تقاعس احد منهم عن ذلك فإنه يعد خائناً لدينه و لأمانة الله ، لأنها مسؤولية عظيمة يحاسبون عليها يوم القيامة (\*) . فلا يمكن للأمة الإسلامية التي تفرقت بها السبل ، أن تجتمع مرة أخرى ، إلا بعلمائها الذين يجتمعون على إستقلال الفكر و إتحاد

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 473 .

(\*) - جاء ذلك في خطاب الإبراهيمي أمام الوفود العربية و الإسلامية ، على هامش إجتماع الجمعية العامة للأمم في باريس ، حيث أقامت شعبة جمعية العلماء مائدة عشاء بنزل العالمين ( DEW MONDE ) في شارع " الأوبرا " (OPERA) مساء يوم الثلاثاء 29 جانفي 1952 م ، و قد أقيمت خلال الحفل ثلاث خطب : الأولى للأستاذ "عبد الرحمان عزام" الأمين العام لجامعة الدول العربية ، و الثانية من طرف الإبراهيمي ،

الوجهة<sup>(1)</sup> تماما مثل العلماء الأوائل ، الذين كانت ترجع إليهم الأمة ، فتجدهم كتلة متماسكة في الدين ، لا تتفرق بها السبل، و لا تنتشعب بها الآراء<sup>(2)</sup> .

03 - تربية الشبيبة الإسلامية ، على الدين و الفضيلة و التقوى ، فإذا نشأت على التدين أحبت الدين ، و إذا أحبت ما فيه من فضائل و أخلاق حميدة ، عملت على غرسها في نفوس غيرها من الأجيال اللاحقة . فيكون كل ذلك دافعا ، لمحبة العروبة و الإسلام و الإعتزاز بهما و الدفاع عنهما . و من شأن ذلك أيضا، أن ينمي لدى الشباب المسلم ، الدافع إلى الإجتماع بإخوانهم في الدين و العروبة ، و هنا يحسن بالحكومات الإسلامية ، أن تدفع في هذا الإتجاه من خلال تشجيع التعارف بين أبناء الأمة ، بتقوية الرغبة لديهم في الأسفار و حب الرحلة و الإستطلاع، و الإستفادة من بعضهم البعض<sup>(3)</sup> .

04 - السعي إلى جمع كلمة المسلمين ، من خلال القضاء على الإختلاف في إحياء الشعائر الدينية ، و منها على الخصوص الصوم و العيدين ، و ذلك بقبول شهادة أي قطر إسلامي بالرؤية ، و تعميم الخبر بالإذاعات الرسمية ، على أن يقوم بالمهمة قضاة معينون من قبل حكومة إسلامية<sup>(4)</sup> : (( لأن الأقطار الإسلامية كلها دار واحدة ، فحيثما ثبتت الرؤية و علمت على وجهها الشرعي الصحيح ، قامت معها الحجة على الجميع ، و تعلق بها الحكم صوما و إبطارا ، و لا عبرة بما هو شائع من إختلاف المطالع ، فإن القواعد الفلكية تنقضه ))<sup>(5)</sup> .

فقد أدى الإختلاف في هاتين الشعيرتين ، إلى تشتيت كلمة المسلمين ، و توريث العداوة و البغضاء بينهم بشكل خطير ، و شيوع التعصب وسط العلماء على حد سواء ، و إلى إثارة الفتن و إيقاظ الأحقاد الدينية ، فضلا عن تقطع الروابط و الأواصر بين صفوفهم ، و إستخفاف الأجانب بهم و بدينهم . ففقد الصوم و العيد جمالهما و جلالهما في النفوس ، و طمست حكمة

والتالفة للأستاذ "فارس الخوري" رئيس الوفد السوري . للمزيد ينظر محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 472 .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 1 ، مصدر سابق، ص 224 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 309 .

(3) - المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 301 .

(4) - المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 81 .

(5) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 405 .

الإسلام بكونه : (( دين الإتحاد و الوفاق بكل عقائده و عباراته ، وآدابه ترمي إلى الوفاق و تربي على الوفاق و تدعوا إلى الوفاق )) (1) . و لعل السبب في كل ذلك، هو غياب المرجع الديني الذي يوحد الأمة في كل شؤونها الدينية (2) ، و طغيان الاعتبارات السياسية و الجغرافية بين الأقطار الإسلامية ، حتى في القضايا الدينية المفصول فيها (3) .

05 - تجاوز كل الخلافات بين المسلمين ، مهما كان نوعها أو حجمها ، لأنها طبيعية تمر بها كل الأمم في الأطوار الأولى من نهضاتها ، حتى لا يتصور البعض أنها تخص المسلمين وحدهم فقط ، و تكون عاملا مثبتا لجهود بناء وحدتهم . فالمطلوب إزالتها بالتدرج لأن : (( أول مراحل النهضة هو آخر مراحل الإنحطاط )) ، و إستبدالها بالرباط الجامع للأمة و هو المحبة ، التي إذا خلصت بين الأفراد ، تحول الخلاف إلى وفاق و تجانس و تآلف .

06 - واجب التقارب و التعارف بين المسلمين، فلكي يلتئم شمل هذه الأجزاء المتناشرة من الجسم الإسلامي الكبير ، يتوجب على كل مخلص لدينه، أن يعمل على جمع هؤلاء الإخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم . و في هذا الإطار تتواجد في العالم الإسلامي ، مؤسسات عديدة و جمعيات و أحزاب سياسية و جرائد محلية ، ينبغي عليها أن تتعارف فيما بينها، بتبادل الزيارات و الجرائد و الكتب و النشريات ، و أن توجه كل جهودها من أجل تعريف المسلم بأخيه المسلم ، و تقريب وسائل الإستفادة من بعضها البعض ، حتى يثمر التعاون إثمارا كاملا (4) ، مثلما كانت تقوم به جمعية علماء المسلمين الجزائريين في الجزائر . كما لا ينبغي إغفال دور البعثات العلمية بين الدول العربية والإسلامية، في تمتين التآخي العربي و الإسلامي ، فهي من الوسائل المثلى التي تقرب الأمزجة و توحد الشعور ، و تنمي الفضائل الأصلية و هي فضائل الإسلام ، و تقضي على مظاهر الغزو الثقافي الغربي، التي كان المراد منها تفكيك الإنسجام بين الشعوب العربية و الإسلامية (5) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 82 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 420 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 406 .

(4) - المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 79 - 97 .

(5) - المصدر نفسه ، ص 330 .

07 - وحدة الدعاة المسلمين ، لمواجهة التحلل و الإلحاد ، لأنها لا تزال متفرقة و متباعدة ، فتجتمع لتكون أقوى ، و توحّد قيادتها لكي تكون أرهب لخصومها و المتألبين على الإسلام، هذا من ناحية . و من ناحية أخرى ، يتوجب عليها أن تبني أمرها على العلم الصحيح و التربية الرشيدة ، فتبدأ بتثنية جيل مسلم جديد، منشعب بالتربية الإسلامية القوية ليكون قاعدة للأجيال الآتية بعده ، فتغرس فيه العقائد و الأخلاق الإسلامية منذ الصغر ، و يروض على الصبر و العفة و الجد و عموده لا يزال طريا ، و يوجه الوجهة الصحيحة في الدين و الحياة ، و يكلف بعظائم الأمور حتى ينشأ، و هو مسلح بالاستعداد لها غير عابئ بتكاليفها ، لأن انتشار الضلالات العقائدية و البدع في العبادات و الخلافات في الدين، هو الذي أوقع المسلمين فيما هم عليه من تحلل ديني ، و بعد عن روحه و حكمته و فضائله .

08 - وحدة التشريع في كل البلدان الإسلامية ، باعتماد التشريع الإسلامي المتصلة حلقاته من عقائد و عبادات و آداب و معاملات ، بغية إنشاء أمة متحدة في المبادئ و الغايات، فتضمن إستمراريتها إلى الأجيال اللاحقة ، كما وصلت إليها من الأجيال الإسلامية الأولى<sup>(1)</sup> .

09 - الدور الهام، الذي يمكن أن تلعبه الجامعات العلمية الدينية الإسلامية الكبرى مثل الزيتونة في تونس، و الأزهر في مصر ، و القرويين في المغرب الأقصى ، بالإضطلاع بدورها في تقوية الروابط بين الأخوة المسلمين في كل مكان ، عن طريق تلقين الشباب المنتمي إليها الدروس، التي تحبب إليه الترحال و السفر في البلاد الإسلامية في الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب ، لما لذلك من فوائد عظيمة في إحداث التعارف بين الشباب المسلم ، بإعتبارهم حملته و المؤتمون على الدعوة إليه في المستقبل .

10 - تفعيل دور وسائل الإعلام المختلفة في هذا الإتجاه ، و منها الجرائد و المجلات التي لا تزال قليلة في العالم الإسلامي ، و طرق نشرها محدودة، بالإضافة إلى الإذاعة التي تعد أهم أدوات التعارف الفعالة ، لو أحسن إستخدامها لجاءت بنتائج باهرة ، بأن تشرف عليها كفاءات

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص ص 203 - 359 .

من المرشدين و المربين ، الذين يتوجهون إلى الشبان المسلمين بمحاضرات و دروس ، حول أهمية الوحدة و مزايا التعارف و التقارب، بين كافة الفئات الشبانية في كل الأقطار الإسلامية ، على أن لا يقتصر الأمر على إذاعة بعينها و إنما جميع الإذاعات (1) .

---

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 298

**02 - كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي أرسلان :**

لم يمنع الانقسام و التشتت ، اللذان كان عليهما المسلمون في عصر الأمير شكيب ، من التفاؤل بإمكانية تحويل حلم الجامعة الإسلامية ، إلى حقيقة مجسدة في الميدان ، من خلال المبادرة السياسية ، التي تأخذ في عين الاعتبار ، أن المشروع يتطلب أولاً : الاقتناع التام بأن الجامعة ضرورة و ليست خياراً ، و من ثمة حشد كل الطاقات المادية و المعنوية لإنجاحه . و ثانياً : أخذ الوقت الكافي في نجاهه ، أي تجنب التسرع الذي من شأنه ، أن يؤدي إلى نتائج عكسية ، فيقضي على المشروع و الفكرة معا في مهدهما ، و هو ما كان يسعى إليه الاستعمار الغربي . و لذلك اقترح شكيب ، البدء بإنضاج الفكرة على المستويات الشعبية ، بتربية الفرد المسلم ، حتى يكون فاعلاً في العملية ، ثم بإحياء و تفعيل التضامن و الأخوة الإسلاميين ، بالإضافة إلى التكتل الاقتصادي و الإقليمي. كل هذه الخطوات ، سنستعرضها و نناقشها على الترتيب فيما يلي :

ذهب الأمير شكيب ، إلى أنه من الواجب أن يبدأ العمل من القاعدة ، فيربي الفرد المسلم و يعد ليكون عاملاً قائماً بالواجب المنوط به ، سواء كان مزارعاً أو صانعاً أو حاكماً أو معلماً أو مصلياً ... إلخ . و من هذا المجموع القائم بذاته ، يتألف البلد الراقي المزدهر ، و من مجموع البلدان الراقية المزدهرة ، تتألف المملكة القوية المهيبة ، التي لا تحصل على القوة إلا بحصولها على استقلالها . و من مجموع الممالك القوية المهيبة ، تتألف الخلافة ، و لا يشترط أن تكون جميع أجزاء العالم الإسلامي، ولايات تابعة لدولة الخلافة، فهذا غير ممكن و لا ينبغي العمل لأجله . و إنما لا بد لتلك الأجزاء ، أن تتصف بالعمل و النشاط و الجدية و النصر للخلافة .

و ضرب هنا مثلاً<sup>(1)</sup> على ذلك بإنجلترا ، التي تتقوى بقوة بريطانيا العظمى و الدومينيون و الهند ، فبالرغم من أن 400 مليون نسمة ، الذين هم تحت سلطة ملك إنجلترا ، حوالي 350 مليوناً منهم هم في الحقيقة أعداء للإنجليز ، و الإنجليز الذين يعملون لمجد هذه السلطنة هو 50 مليون فقط ، إلا أنهم كأفراد ، يقومون بكل ما يجب عليهم إزاء بريطانيا

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 259 .

العظمى و أضاف الأمير شكيب ، بأن هذا هو مذهبه لكي تنهض الأمة الإسلامية ، فقد كانت تأتيه رسائل كثيرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يقترح أصحابها عقد مؤتمر إسلامي ، أو انتخاب خليفة أو ما شابه ذلك من المقترحات ، و كانت إجابته دائما ، أنه ينبغي لنا البناء من القاعدة ، بتربية الفرد ثم البلد ، ثم القطر ثم المملكة ثم العالم الإسلامي . و لا مجال هنا للتسرع و استعجال النتائج ، فالتعليم الذي يهذب الفرد ، يجب أن نمنحه الوقت الكافي ، و إن كان طويلا بالنسبة للبعض ، حتى يعطي ثماره ، فما لفائدة : (( أن نعقد مؤتمرا لمجموع من الضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة و هو لا يقدر أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك ؟ أنريد نحن أن نجمع أصفارا ؟ )) . فقد اجتمع المؤتمر الإسلامي في مكة ، و قرر إعادة "العقبة" و "معان" إلى الحجاز ، و سكة حديد الحجاز كلها إلى المسلمين ، فهل نفذ أي شيء من ذلك يتساءل الأمير ؟ . و العلة في ذلك برأيه ، أن الدول الأوروبية ، تعلم ضعف العالم الإسلامي ، و أن الذين اجتمعوا خلال المؤتمر في المرة الأولى ، لم يجتمعوا بعدها ، و أي ضعف و أي تخاذل أكثر من هذا يتساءل الأمير ؟ (1) .

جوهر القضية إذن ، يتمثل في التربية الناجحة ، التي لن تتحقق إلا بنظام تربوي اجتماعي بناء و واضح المعالم . تكون ثماره أجيال من الأفراد ، متشعبة بقيم الوحدة و التضامن ، و هنا تلعب الفكرة الدينية الإسلامية دورا أساسيا ، بما لها من قوة في التأثير و التغيير ، فهي من جعلت من البدوي العربي إنسانا متحضرا و محضرا ، بمعنى أنها السبب في إعادة تنظيم و توجيه جهود الفرد و طاقاته و تفعيلها . و الأمثلة على ذلك كثيرة في بدايات التاريخ الإسلامي ؛ و منها ما حدث لما كان النبي "ص" منشغلا في المدينة بتجهيز جيش المسلمين لخوض معركة بدر ، حيث كان صحابته يأتون إليه و يقدمون له عن طيب خاطر ، جزءا من أموالهم قائلين له (( يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت ، و ما أخذته منها أحب إلينا مما تركت )) (\*) (2) .

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 260 .

(\*) - صاحب هذا القول هو الصحابي سعد بن عباد ( ت 14 هجرية / 635 م ) : صحابي أنصاري من الخزرج ، من الأمراء الأشراف في الجاهلية و الإسلام ، شهد العقبة و أحدا و الخندق . توفي في حوران . المنجد في اللغة و الأعلام .

(2) - مالك بن نبي : ميلاد المجتمع الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ص 78 - 80 .

و هو ما يحيلنا إلى القول أن شكيب أرسلان ، يوافق الرأي القائل؛ بأن أصل كل المشاكل التي واجهها المسلمون في عصور الانحطاط ، ومنها الانقسام و التشرذم و فشل كل المحاولات ، التي سعت إلى الجامعة الإسلامية ، هو أسباب نفسية و اجتماعية بالدرجة الأولى ، و أن تجاهلها لن يؤدي إلى تحقيق أية خطوة في هذا الاتجاه . أما علاجها فيكمن في التربية، التي تتولى إعادة تأهيل الفرد في المجتمع الإسلامي ، تأهيلا يسمح له بالتفاعل الإيجابي مع القضايا الكبرى لأمتة ، فينظر إليها بمنظار واقعي و ليس عاطفي، كما جرى في العصور الأخيرة من التاريخ الإسلامي .

و بلا شك أنه رأي صائب ، فقد فشلت كل التجارب و المبادرات و المحاولات السياسية في هذا الاتجاه ، لأنها لم تستند على قاعدة اجتماعية أو شعبية واعية بالتحديات، التي كانت مطروحة أمام الأمة آنذاك .

أعرب الأمير شكيب عن امتعاضه من الحال الذي آل إليه التضامن بين المسلمين ، حيث أضحى يتميز بالضعف و المحدودية ، لجملة من الأسباب تتمثل حسبه في : انصراف كل قطر من الأقطار الإسلامية إلى مشاكله ، و اشتغاله بقضاياها الوطنية الداخلية . فضلا عن الأزمة الاقتصادية العالمية ، التي ترتبت عن الحرب العالمية الأولى 1914 م - 1918 م ، و التي ظل مفعولها لزمنا طويلا في الشرق و الغرب . انتشار الاعتقاد الخاطئ في البلاد الإسلامية و العربية ، بأن سياسة الإتحاد الإسلامي لها ضرر على المسلمين ، و عامل محفز لأوروبا لكي تتألب عليهم ، و عائق يحول دون حصولهم على استقلالهم ، فلو قامت الشعوب الإسلامية ، بحركة وطنية أو قومية مجردة من الصيغة الدينية ، لما وجد حسب أصحاب هذا الرأي مانع من مناهجهم استقلالهم . ثم غلبة التشاؤم على المسلمين عامة ، و مفكريهم خاصة ، و فقدانهم كل ثقتهم في الإسلام ، فأصبحوا ينظرون إلى كل حركة إسلامية مقاومة لأي سلطة أوروبية أنها : (( من قبيل حركة المذبوح تحت السكين )) ، و يقولون أن أوروبا ستنتال لا محال من مترعميها ، إلى غير ذلك من العقائد السياسية ، التي زادت الإسلام ضعفا على ضعف ، و التي كان أولئك المفكرون ، يتنافسون فيها ، لإظهار مبلغ عقلانيتهم ، و بعد أفكارهم عن الخيالات<sup>(1)</sup>.

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2 ، ج 3 ، ص 193 .



أما السبب الأخير، في تحليل الأمير شكيب لضعف التضامن الإسلامي ، فهو محاربة الطورانيين (الحركة الطورانية) و الوطنيين المصريين ، للجامعة الإسلامية أو التضامن الإسلامي أو الإتحاد الإسلامي . فقد استفحلت هاته العقيدة في تركيا ، و لقيت رواجاً كبيراً ، بفعل الدعوة الطورانية ، التي تضمنت أن الأتراك، يتوجب عليهم أن يكونوا أتراكا في المقام الأول و مسلمين في الثاني ، بل ذهب بعض الغلاة منهم ، إلى العمل على محاربة الدين الإسلامي بشتى الوسائل و الطرق ، بغية اقتلاع مركزه و محو الصبغة العربية بين صفوف الأتراك . أما في مصر فقد ازدادت ، بسبب مراعاة جانب الأقباط الذين اشترط كبار زعمائهم ، نفض اليد من الجامعة الإسلامية ، مقابل اندماجهم الحقيقي في " الكتلة الوطنية المصرية " ، المعروف عنه غلوه في إتباع الزعماء (1) .

و كنتيجة لكل ذلك ، يقر الأمير شكيب؛ بأن غياب التضامن الإسلامي، و ضعف الأخوة الإسلامية ، هو الذي جعل المسلمين يقفون موقف المتفرج أمام قضاياهم المصيرية و منها القضية الفلسطينية ، حيث تمكن الصهاينة (\*) ، رغم قتلهم من تحقيق حلمهم بإنشاء وطنهم القومي المزعوم في أرض فلسطين ، بمساعدة من الدول الغربية و على رأسها بريطانيا ، التي تبنت الأطماع الاستعمارية ، من خلال الدعم السياسي و التآمر ، و الدعم

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م2 ، ج 3 ، ص 193 .

(\*) - الصهاينة : من الصهيونية ، جاءت هذه التسمية من جبل صهيون بالقدس ، الذي بنى عليه النبي سليمان عليه السلام الهيكل ، و فيه المسجد الأقصى و الصخرة ، و قد أصبح هذا الجبل مقدساً عند اليهود ، لاعتقادهم أن الرب يسكنه و يقيم فيه ، إذ ورد في سفر المزامير : (( رنمو للرب الساكن في صهيون )) . و الصهيونية حركة يهودية عالمية ، أعطاهـا " تيودور هرتزل " الحيوية ، خلال القرن التاسع عشر في كتابه: " الدولة اليهودية " ، فأعطى المبدأ صبغة دولية منذ ذلك التاريخ ، و أخذ يسري في الأفكار و يرسخ في أوروبا ، حتى جاء تصريح " بلفور " سنة 1917 م ، الذي استجاب لمطلب الحركة بتأسيس " وطن قوي لليهود " في فلسطين . و قد تمكنت في نهاية الأمر من تحقيقه سنة 1948 م ، مستخدمة كل الوسائل و الطرق غير المشروعة ، و منها ورقة الإضطهادات التي تعرض لها اليهود في أوروبا الوسطى ، و النقتيل و الإبادة اللذان لحقا بهم من طرف النازية خلال الحرب العالمية الثانية 1939 م - 1945 م ، مستفيدة من التواطؤ التام ، للقوى الكبرى و المجتمع الدولي . توفيق الواعي : اليهود تاريخ إفساد و إنحلال و دمار ، ط 1 ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1995م ، ص 151 . و للمزيد ايضاً، ينظر عبد الحميد بن أبي مزيان بن أشنهو ، المرجع السابق، ص 110 و ما بعدها .

المادي المتمثل في المساعدات العسكرية - التي لم تتوقف إلى الآن - ، و بالوقوف إلى جانبها في كل حروبها ضد العرب (1) .

و قد قابل المسلمون كل ذلك ، بالتقاعس و التخاذل ، و الإحجام عن تقديم المساعدة و العون لإخوانهم الفلسطينيين ، تاركينهم يواجهون مصيرهم لوحدهم . و من الأمثلة التي ساقها الأمير شكيب في هذا الإطار لتأكيد ذلك ، أنه خلال الاشتباكات الدموية ، التي حدثت بفلسطين سنة 1929 م بين اليهود و المسلمين ، هب اليهود و غيرهم في مختلف أنحاء العالم ، لنجدة نظرائهم في فلسطين ، حتى بلغت قيمة التبرعات مليون جنيه ، بينما قدرت تبرعات المسلمين في مجملها بثلاثة عشر ألف جنيه ، أي ما يعادل 1% من تبرعات اليهود .

و هو بلا شك تقاعس خطير ، تساءل الأمير عن سببه ، و أجاب عنه في مكان المسلمين و العرب قائلاً: بأنهم سيقولون أنهم لا يملكون الثروة التي يملكها اليهود ، و هو مبرر غير مقبول لديه ، لأنه يتوجب عليهم أن ينفقوا على إخوانهم بمنزل ما أنفقه اليهود و الأوروبيون ، و ليس بحجم ما يملكون من رؤوس أموال . أما الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد عن حاجتهم ، فليس من واجبهم التبرع لصالح الشعب العربي المسلم في فلسطين (2) . أي أنه يسقط مبرر الفقراء من المسلمين و قلة حيلتهم أمام اليهود و المسيحيين ، فبالنظر إلى العدد الهائل للمسلمين المقدر آنذاك بحوالي 400 مليون مسلم ، و الذي يفوق بأضعاف مضاعفة عدد اليهود ( 20 مليون ) ، و بالافتراض فقط أن كل مسلم يساهم بقرش واحد ، و هو مبلغ برأي الأمير شكيب زهيد جدا في متناول الفقراء ، فإنه من الممكن وفقا لذلك جمع حوالي ثلاثة ملايين و نصف مليون جنيه ، و هو مقدار يفوق ما تبرع به اليهود بثلاثة مرات و نصف . لكن الذي حدث كان العكس ، حيث استطاع اليهود و هم الأقلية ، أن يجمعوا من الأموال لصالح نظرائهم في فلسطين ، ما فاق بكثير ما جمعه المسلمون و هم الأكثرية ، فعلق الأمير على ذلك بأسلوب تهكمي ساخر قائلاً : (( أهذا ما تريدون أن تسموه " تضحية " ؟ . أو بمثل هذا تجاهدون في

(1) - محمود السيد : المرجع السابق ، ص 101 و ما بعدها .

(2) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 44 - 45 - 46 .

سبيل الله بأموالكم و أنفسكم ؟ . أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين و جيرانكم في الوطن و القائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين و أولى القبلتين ((<sup>1</sup>) .

و علاوة على ذلك ، يرى شكيب أنه من الأمور السخيفة ، وجود من يقول من المسلمين ، أن الغرب الذي يدعم اليهود ، يتفوق عليهم ماديا و معنويا ، و بالتالي لا سبيل للوقوف في وجهه . و يبرر ذلك بالقول أن حال المسلمين ، كان سيئا قبل أن يخترع الأوروبيون معدات القتال الحديثة ، و المدافع و الدبابات و الطائرات ، و قبل أن يصبحوا فيما هم عليه من القوة ، التي دانت لهم بفضل العلم . إنه أمر في منتهى السفه و حماقة ، فاكل عصر علم و صناعة و مدنية تماثله ؛ ففي العصور الوسطى ، كانت هناك علوم تماثلها مثل العلوم و الصناعات و المدنية المعاصرة ، فوجدت المنجنوقات و الدبابات و النيران المصنعة تصنيعا مجهولا في عصرنا ، فكانت في تلك الأثناء كما هي في أيامنا هذه ، المدافع و الرشاشات و قنابل الديناميت و غيرها ... إلخ . و بغض النظر عن ذلك ، فليست المعدات الحربية من دبابات و طائرات و رشاشات ، هي التي تحرك العزائم و توقظ الحمية في صفوف ، بل الحمية و العزيمة هي التي تأتي بذلك العتاد ، و دون ذلك عبث لأن المادة لا تعمل من تلقاء نفسها و إنما : (( الذي يعمل هو الروح ، فإذا هبت أرواح البشر و تحركت عزائمهم فعند ذلك نجد الدبابات و الطائرات و الرشاشات و الغواصات و كل أداة قتال و نزال على طرف التمام ))<sup>(2)</sup> .

و عليه فإن السبب في ضياع فلسطين ، لا يكمن في قوة اليهود ماليا و عسكريا ، و لا في الدعم الكبير الذي قدمته لهم الدول الغربية الكبرى ، و إنما في ضعف التضامن الإسلامي ، و انقسام عرى الأخوة الإسلامية ، فلو توفرت الإرادة اللازمة و هب المسلمون لنجدة الشعب الفلسطيني بإظهار التعاطف معه، و جمع التبرعات و حث الناس على التطوع في صفوف المقاومة ، لما تمكن الصهاينة من إنشاء دولتهم القومية . بمعنى أن نكبة فلسطين كانت نتيجة

(<sup>1</sup>) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص ص 46 - 47 .

(<sup>2</sup>) - المصدر نفسه ، ص ص 77 - 78 .

لتخاذل و تقاعس المسلمون ، لمبررات واهية كقلة المال و السلاح ، فندها الأمير و أعتبرها سخيفة عارية من الحقيقة .

فالأمير شكيب ، و إن سلم باختلال ميزان القوة العسكرية و المالية بين المسلمين و الصهاينة ، فإنه لم ير مبررا للاستسلام للأمر الواقع ، لأنه في أيدي المسلمين أسلحة أخرى ، لا تقل شأنًا و فعالية عن العتاد الحربي، و منها سلاح المقاطعة التجارية ، فمن غير المقبول حسبه أن يفضل المسلمون شراء البضائع من عند الأجنبي على العربي ، جريا وراء تخفيضات زهيدة ، يوفرونها عند الشراء من اليهودي و الإنجليزي ، غافلين عن الضرر العظيم ، الذي يلحقونه بأنفسهم ، مقابل قروش تافهة مؤقتة ، يجنونها من التاجر اليهودي أو الإنجليزي ، تاركين ابن جلدتهم أو ملتهم <sup>(1)</sup> . لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، بل وجد من الحكام المسلمين، من يعمل لصالح المشروع الصهيوني على حساب مصالح أمته ، و قد ذكر شكيب في هذا السياق حاكم مصر "الخدوي سعيد" ، الذي مارس ضغوطا على شكيب ، لكي يستجيب لطلبه المتمثل في نشر الدعوة إلى المصالحة بين العرب و اليهود ، بالإضافة إلى إقناع عرب فلسطين بالنزوح إلى شرق الأردن ، للاستقرار فيه بشكل نهائي ، و أن يسعى لدى الزعماء الفلسطينيين لإقناعهم بعدم جدوى مقاطعة اليهود ، لاختلال ميزان القوى بين الفريقين . مستغلا في ذلك الظروف المالية المتدهورة لشكيب ، بعد الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 م ، مهددا إياه بقطع المعونة المالية (\*) التي كان يدفعها له في حالة الرفض . و قد كان رده بطبيعة الحال ، الرفض و الغضب و الاستهجان و التعنيف للخدوي ، الذي نزل ضيفا عنده في منزله بجنيف ، مستغربا ذلك الطلب بقوله : (( كيف يؤمل من أمير مسلم أن يسعى إلى إخراج

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تاخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 48 .

(\*) - ذكر ظاهر محمد صكر الحسناوي ، أن تلك المعونة كانت تقدر بـ : 30 جنيها شهريا ، و هو مبلغ مهم حسبه لمهاجر مثل شكيب أرسلان . ظاهر محم صكر الحسناوي : شكيب أرسلان الدور السياسي الخفي ، ط 1 ، دار رياض الريس للكتب و النشر ، بيروت : 2002م ، ص 121 . نقلا عن : الحسن بوعباد : "إسبانيا و الإسلام بالمغرب الأقصى" ، مجلة الفتح ، السنة السابعة ، العدد 311 / جمادى الأولى 1351 هـ ، ص 2 .

المسلمين من فلسطين ؟ أبهذه المبادئ يرجو أفندينا أن يكون له شأن في بلاد الإسلام ؟ ) (1) ، فكانت تلك الزيارة الأخيرة بينهما ، حيث انقطع حبل الود بين الشخصيتين بإعلان الأمير المقاطعة التامة للخبديوي ، غير مكترث بتوقف المساعدة المالية ، التي كانت يقدمها له بدوافع صهيونية ، رغم الوساطات التي أطلقها هذا الأخير ، لإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الحادثة (2) .

و قياسا عليه ، فإن التضامن الإسلامي ، يقتضي لدى شكيب أرسلان ، أن يقوم المسلمون في كل مكان بتقديم الدعم العسكري و المالي للشعب الفلسطيني ، بالشكل الكافي الذي يمكنهم من طرد الاحتلال الصهيوني عن كل أرضهم ، التي هي حق عربي و إسلامي ثابت . و بالقيام بكل ما من شأنه ، إضعاف اليهود في المنطقة و عملائهم الإنجليز اقتصاديا ، كالمقاطعة التجارية ، التي رهن عليها كثيرا الأمير شكيب ، باعتبارها سلاحا فعلا لا يقل أهمية عن الأسلحة الأخرى. و قد تأسف كثيرا للتخاذل و اللامبالاة، اللذان كانا يبيدهما المسلمون في هذا الإطار ، حيث يساهمون بغير إدراك في تقوية أعدائهم، من خلال الإقبال على شراء سلعهم ، مستتكفين عن بضائع أبناء جلدتهم أو ملتهم ، رغم الخطورة الكبيرة التي تلحق بالجميع، جراء هذا المسلك الإقتصادي الخاطئ .

لكن الأخطر من كل ذلك ، وجود فئة من قادة المسلمين ، الذين تحولوا إلى أدوات في خدمة الإطماع الاستعمارية و الصهيونية، مقابل إغراءات مادية يحصلون عليها، كتمن لخيانة شعوبهم و أوطانهم و قضاياهم القومية ، هذا الصنف من القادة هو الذي أعان و مهد الطريق أمام الحركة الصهيونية ، للاستيلاء على فلسطين و إقامة الدولة اليهودية على أراضيها ، بعد أن كان ذلك مستحيلا عليها في الماضي. و لا عجب في تقدير شكيب أرسلان ، أن يتآخى المسلمون مرجعا ذلك لسببين أساسيين : فأما الأول فيتمثل في كون أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي

(1) - أحمد الشرباصي : أمير البيان شكيب أرسلان ، مرجع سابق ، ص 739 .

(2) - ظاهر محمد صكر الحسناوي ، المرجع السابق، ص 121 . نقلا عن ذوقان قرقوط : تطور الحركة الوطنية في سورية 1920 م - 1939 م ، ط 1، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت : 1975م ، ص

و لا يحتاج إلى مبرر ، حتى و لو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا كانوا يشتركون في عقيدة واحدة كالمسلمين . أما السبب الثاني ، فهو كون أن المسلمين يعتقدون بالشريعة الإسلامية ، و بالقرآن الكريم الذي يقول بأن المؤمنين إخوة ، فالأخوة الإسلامية فرض ، و مؤازرة المسلم أمر شرعي تاركه يؤثم عليه . على ألا تكون هذه الأخوة ، مانعا دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يعتقد البعض ، أو يدعي آخرون افتراء . لأن المسلمين يرتبطون بغير المسلمين برابطة الإنسانية ، فالنبي "ص" قال : (( الناس عيال الله و أحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله )) ، و لم يقل : (( المسلمون عيال الله )) (1) .

و منه فإن الواجب على المسلمين ، بأن يهتموا بإخوانهم في الدين و القومية في تلك البلدان البعيدة ، من الذين تقطعت بهم الأسباب و أعجزهم ضعف الحال ، و في هذا الصدد قال شكيب: أنه و غيره من الشخصيات الإسلامية ، قد رفعوا أصواتهم مرارا ، طالبين من المسلمين أن ينتفتوا إلى هؤلاء الإخوة ، و لكن كيف يتضامن المسلمون معهم ، و هم فيما هم عليه من تفرق في كلمتهم و تفكك لجامعتهم ؟ . إنه من الواجب على القادة المسلمين التفكير في مثل هذه القضايا ، و إيلائها العناية الكبيرة ، حتى لا ينقرض الدين الإسلامي في تلك البلدان (2) . كما لا ينبغي لهم أن يهملوا الشعوب و الطوائف غير الإسلامية ، الذين لا تمثل الجامعة الإسلامية أي خطر عليهم ، بل على العكس من ذلك فإنها تشكل عضدا قويا و سندا متينا لهم (3) .

و خلاصة القول ، أن الأمير شكيب، أكد على ضرورة إحياء التضامن الإسلامي و الأخوة الإسلامية، و تفعيلهما إلى أعلى المستويات، بعد أن كادا أن يندثرا في القرون الأخيرة ، بفعل الانحطاط العام الذي كان عليه المسلمون في كل المجالات ، و الدور السلبي لحكامهم و قادتهم في هذا الإطار ، حيث ساهموا عن جهل أو عن دراية، في توسيع الهوة بين المسلمين سواء كانوا عربا أم غير عرب ، و هو ما كان يبتغيه الاستعمار الأوروبي، الذي طبق سياسة فرق تسد داخل البلد الإسلامي الواحد من جهة ، و بين كل البلدان الإسلامية القريبة و البعيدة من جهة ثانية . و قد استمر ذلك الجفاء بين الأقطار الإسلامية ، حتى بعد تحررها من المستعمر

(1) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ؟ ، مرجع سابق ، ص 124 .

(2) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 2 ، ج 3 ، ص 384 .

(3) - أحمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 125 .

و حصولها على سيادتها ، الأمر الذي يتطلب جهودا كبيرة من أجل التقريب بينها ، و دفعها نحو التعاون و التعاضد ، لمواجهة تحديات العصر : السياسية و الاقتصادية و الحضارية ، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال التعامل معها، بالوضع الذي هو عليه أمر المسلمين . و لقد جرت عدة محاولات في سبيل ذلك ، لكنها آلت إلى الفشل الذريع ، لأنها انفرادية و لم تستند إلى كل جهود المجموع الإسلامي الهائلة .

و لقد أكد هذه الحقيقة الزعيم المصري " مصطفى كامل " ، الذي قال أن الجامعة الإسلامية هي التضامن و التعاطف الأدبي و السياسي و الفكري ، و هو أمر لا تعارض بينه و بين الجامعات الوطنية للشعوب الإسلامية ، و أعتبر أن : (( ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي و شرعي ، و لا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل )) . لكنه في المقابل لم يجعلها الحل السحري الوحيد، لمشكلة التخلف الحضاري، التي كان يعانيها المسلمون ، بل ذهب إلى أن المسلك الصحيح في ذلك، هو بإحياء الإسلام و إظهار حقيقته ، لأنه ليس عقيدة دينية فحسب ، بل قانون اجتماعي يصلح لأن يكون مرجعية ، فكرية للنهضة الإسلامية المنشودة (1) .

و لعل القضية الفلسطينية ، أكبر محفز يمكن استثماره بشكل إيجابي في هذا الصدد ، إذ لا يمكن أن يستمر الشعب الفلسطيني لوحده، في مواجهة الاحتلال الصهيوني ، الذي سلبه أرضه و شرده خارجها ، بالتقتيل و التهريب و التجويع ، و المسلمون جامدون ، لا يدركون أن القضية تتجاوز الفلسطينيين و العرب ، منقسمون بسبب اختلاف ولاءاتهم الخارجية ، فمنهم الموالي لأمريكا و منهم لدول غربية أخرى ، غافلين عن كون أن تلك الدول و إن اختلفت سياسيا فيما بينها ، فإنها متفقة على دعم اليهود ، و بذل كل شيء لتثبيت وجودهم في فلسطين (2) .

أما الخطوة الثالثة ، في بناء الجامعة الإسلامية بحسب الأمير شكيب ، فهي التكتل الإقليمي و الاقتصادي ، و يتحقق التكتل الأول ، بأن يبدأ كل قطر أو إقليم بنفسه أولا ؛ فيوطد أركانه ، فإذا تبين له أنه تقوى و نما و صار قادرا على النهوض ، التفت إلى جاره و مد له يد العون و المساعدة ، فتكون هذه الجامعة بين هذه الأقطار ، أمرا طبيعيا و ممكنا و سهلا ، و لا

(1) - محمد عمارة : الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية نموذج مصطفى كامل ، مرجع سابق ، ص 124 .

(2) - محمد أبو زهرة ، المرجع السابق ، ص 242 .

خشية عليها مادام القرآن موجودا ، فتكفي إشارة واحدة من تلك الأقطار ، حتى يتحرك جميعها و كأنها ثريا كهربائية ، تضيء بضغط على زر واحد ، لكن لا فائدة من كل ذلك ، إذا لم تكن الحياة فيها عامرة و متحفزة . و يقصد الأمير شكيب بالحياة العامرة و المتحفزة ، نشاط الجمعيات و الشركات و النقابات و الهيئات الممثلة بالشعوب ، التي إذا كانت مضطعة بوظائفها بصورة تامة ، تصبح إذا تحركت إزاء قضية من القضايا مثل البربر (\*) أو طرابلس (\*\*\*) أو غيرها ، كانت نتائجها فعلية و عملية و سريعة و مؤثرة و عامة ، على نحو يجعل الدول الأجنبية، تخشى جانب المسلمين و تنقاد لمطالبهم ، لأنها تدرك أن وراء تلك الحركة قوة عظيمة تعضدها (1) .

أما التكتل الاقتصادي ، فيرى أن له أهمية بالغة في الجامعة الإسلامية، بالموازاة مع الجانب السياسي ، و غايته أن تكون ثروة المسلمين للمسلمين ، و عائدات التجارة و الصناعة في جميع البلاد الإسلامية ، تكون لهم يستفيدون منها هم و ليس الدول الغربية . و هو أيضا امتناع عن رؤوس الأموال الغربية ، و استبدالها برؤوس أموال إسلامية . و فوق كل ذلك ، هو قضاء على الهيمنة الأوروبية على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، بعدم تجديد الامتيازات الممنوحة لهم ؛ في المناجم و الغابات و السكك الحديدية و الجمارك . فما دام كل ذلك في يد الغرب ، فسيظل العالم الإسلامي عالة على غيره (2) .

واضح أن شكيبا، كان يرمي من خلال ما سبق ، إلى تقوية الجبهة الداخلية لكل قطر أو بلد إسلامي ، قبل الإقدام على أية خطوة اتجاه ، إنشاء تكتل إسلامي سياسي و اقتصادي بالدرجة الأولى ، الذي لا يمكن أن يحقق الأهداف المتوخاة منه ، في غياب قاعدة صلبة يقف عليها ، المتمثلة في الرأي العام الحيوي، المدرك للدور المفترض فيه أن يلعبه في هذه القضية ، و المؤهل للتفاعل الإيجابي مع القضايا القومية المطروحة و المستجدة . و المتمثلة أيضا، في الحد الأدنى من النمو الاجتماعي و الرقي العلمي ، اللذان يوفران للبلدان الإسلامية هامشا

(\*)- يقصد بذلك الظهير البربري .

(\*\*) - يعني بقضية طرابلس، الاحتلال الإيطالي لليبيا الذي بدأ منذ سنة 1911 م .

(1)- نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص ص 258 - 259 .

(2)- محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 167 .



نسبياً ، من عدم التبعية الحضارية و الاقتصادية للدول الاستعمارية الكبرى ، فتمتع بالقدر المطلوب من الاستقلالية في القرار السياسي ، الذي يسمح لها بالتححرر الاقتصادي في نهاية المطاف ، و ممارسة السيادة الكاملة على ثرواتها الطبيعية، و قطاعاتها الاقتصادية الكبرى . و باختصار، فقد ربط بين قضية العلم و قضية التححرر الاقتصادي، و منه التححرر السياسي ، و لذلك ثمن قرار المؤتمر السوري الفلسطيني ، بإنشاء جامعة إسلامية في فلسطين ، معتبراً إياها من أهم القرارات ، خاصة بعد قيام اليهود بتأسيس "الجامعة العبرية" بالأرض الفلسطينية ، داعياً البلدان الإسلامية للمساهمة في هذا المشروع ، و مما قاله في هذا المضمار : (( أن العلم و الذل للأجنبي لا يتساكنان ، و أن المعرفة و الاستقلال توأمان ، فلتكن للمسلمين جامعتهم التي تسير فيها العلوم العصرية إلى جانب العقيدة الإسلامية الصافية ، على أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم الأولى في هذه الجامعة باعتبارها لغة الإسلام الدينية))<sup>(1)</sup> .

و حديثه هنا ؛ هو دعوة إلى الوحدة الثقافية، التي تشمل التعليم بكل مراحلها، و البرامج التعليمية و مناهج التدريس، و الإدارة التربوية و تكوين الإطارات ... و غيرها من أساسيات إنجاح العمل التربوي المشترك بين البلدان الإسلامية .

(1) - ينظر نجيب البعيني ، المصدر السابق .

وعلى ضوء، ما جاء في هذا المبحث الذي خصصناه ، لاستعراض رؤية كل من الإبراهيمي و أرسلان، للخطوات الواجب القيام بها ، لوضع بناء الجامعة الإسلامية على قواعد صلبة و متينة ، حتى تتمكن من تأدية الدور المنتظر منها على أكمل وجه ، و الخروج بها من دائرة الشعارات الجوفاء ؛ التي لم تغير شيئاً من حالة المسلمين، الذي كان يسير من السيئ إلى الأسوأ ، إلى موضع التنفيذ و التجسيد في الميدان ؛

يظهر لنا أن الإبراهيمي، قبل أن يستعرض تلك الخطوات ؛ قد ركز بشكل خاص ، على تحليل أسباب ضعف ما سماه بالأخوة الإسلامية ، التي أرجعها إلى ممارسات الحكام المسلمين ؛ الذين اسقط عنهم درجة الأهلية لقيادة الشعوب الإسلامية ، التي كانت تحت تصرفهم ، فلا هم لهم إلا النهب و الإستغلال و التعسف، و ممارسة القهر و الحرمان على رعيّتهم ، التي إستسلمت لهم فيما يبدو ، و الخضوع و الخنوع للأجانب إقتصاديا و فكريا و ثقافيا و حضاريا ، إلى الحد الذي حولوا فيه أوطانهم ، إلى مناطق ملحقة بالدول الأوروبية الكبرى ، لا تستطيع أن تحيي بدونها .

و أرجعها أيضا، إلى إستفحال ظاهرة العصبية ، التي صنفها إلى ثلاثة أقسام : عرقية ، و تعصب للرأي ، و تعصب للأجداد ، و التي أضعفت أواصر الإرتباط داخل المجتمعات الإسلامية و بينها . أما السبب الثالث، فكان برأيه ؛ خوض العلماء ، فيما لا ينفع الأمة في دينها أو حياتها . ثم جاءت الطرق الصوفية، التي نعتها بالطرق المشؤومة ، لتزيد الهوة إتساعا ، منطلقا في ذلك من الواقع الجزائري ، الذي يعد أفضل مثال ، على الدور السلبي التي كانت تقوم به في هذا الإطار . كما أعرب عن إمتعاضه و رفضه الشديد ، لتعدد الأئمة ، حيث أضحى المسلمون جراء ذلك طوائف و جماعات، ولاءها للإمام أو الشيخ، و ليس للدين أو للوطن أو الأمة .

أما السبب الأخير، فأرجعه إلى الأحزاب السياسية و الجمعيات ، التي كانت في نظره وبالا على الأمة الإسلامية ، تفرق بدل أن تجمع ، تستنزف جل طاقاتها و أوقاتها، في الصراعات و الخصومات التافهة ، التي تفترض أن لا تنزل إليها ، غير معتبرة بنظيراتها في

أوروبا ، لكي تساهم بفعالية في نهوض مجتمعاتها و قيادتها نحو الوجهة الصحيحة . كل ذلك برأي الإبراهيمي ، دفع ما أطلق عليه " جرثومة التعصب " ،إلى التعاضم على نحو أضحى و كأنها ظاهرة طبيعية ملتصقة بالمسلمين دون غيرهم .

أما أرسلان فقد إهتم بهاته القضية ، التي أطلق عليها عبارة : (( التضامن الإسلامي )) ،الذي ذهب على أنه أصيب بالوهن في الضعف في عصره ، لكنه اختلف جذريا في تحليل أسباب ذلك بالمقارنة مع أوردة الإبراهيمي ، حيث ذكر جملة من الأسباب ؛ منها الاشتغال بالقضايا الوطنية أي الداخلة و القطرية ،على حساب القضايا الإقليمية القومية . و الأزمة الإقتصادية العالمية 1929 م، التي أضعفت الجبهة الإقتصادية و الاجتماعية للشعوب العربية و الإسلامية ،و جعلتها عاجزة عن نجدة بعضها البعض بالمال و الغذاء و السلاح ، رغم وجود الرغبة في ذلك . و ذكر أيضا، الإعتقاد الخاطيء لدى بعض الفئات من المسلمين ، و مفاده بأن الجامعة الإسلامية، هي التي أجلت حصول بلدانهم على إستقلالها و سيادتها ، لكون الدول الأوروبية المستعمرة تعارضها، و لا تمنع في وجود دول عربية مستقلة لا تتبنى طرح الجامعة الإسلامية ، وهو إعتقاد حاول الأمير تفيده و إبطال صحته . و أخيرا ذكر الحركات المعادية للجامعة ، ومنها الطورانية في تركيا و الوطنية في مصر ، التي أضعفت هي الأخرى الإرتباط الإسلامي، و قللت من أهميته . ومنه فان الإختلاف جلي بين رؤيتي الرجلين، لأسباب ضعف الأخوة الإسلامية أو التضامن الإسلامي، اللذان يحملان نفس المدلول .

و واضح أيضا أنهما ، كانا ينظران إلى الجامعة الإسلامية ، كمشروع سياسي و إقتصادي و ثقافي و حضاري ، يتطلب بناءه التدرج فيه ، و عدم التسرع في جني ثماره ، فقد تتعاقب أجيال من المسلمين، و لا تحقق النتائج المرجوة . فالتحدي الكبير ، يكمن في الإنطلاقة الصحيحة ، و المنهج السليم ، و القادة المؤهلين من النواحي الفكرية و السياسية و النفسية ، المخلصين للفكرة ، المقتنعين بجدواها ، و بعد ذلك لا تهم المدة الزمنية التي إستغرقتها ، لأن العبرة بالنتائج المحققة ، لا باقتصاد الوقت .

و إذا كان الإبراهيمي، قد عبر بوضوح عن آرائه في بناء الجامعة الإسلامية، من خلال تركيزه على التربية الإجتماعية ، و جعلها الشرط الأساسي ، الذي لا يمكن إغفاله

أو التساهل فيه ، إذ آراء المسلمون فعلا تكوين جامعتهم على أسس متينة ، بعيدة عن العواطف و الحماسة و الارتجال . على أن تتولاها المؤسسات التعليمية من مدارس و معاهد و جامعات ، و الدينية المتمثلة في الجوامع و المساجد ، و الإعلامية المكتوبة و المسموعة ، وفق منهج تربوي موحد و منتقى بعناية فائقة . و هو بذلك، لم يدعو إلى منهج تربوي إسلامي ، يدفع بالمجتمعات والشعوب الإسلامية ، نحو الوحدة و الارتباط و التعاون فحسب ، و إنما إلى منهج شامل ، يعيد بناء الحياة لدى البلدان الإسلامية ؛ في جوانبها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الحضارية ، و يخرجها من الانحطاط و التقهقر الحضاري ، الذي لازمها لعدة قرون .

فإنه و في المقابل؛ قد أظهر أرسلان في تقديرنا بعض التردد ، في ما ينبغي البدء فيه حتى توضع الجامعة الإسلامية في الطريق الصحيح ، فتارة نجده يدعو إلى تفعيل المبادرة السياسية التي تعني بطبيعة الحال القرار السياسي ، فمن الضروري حسبه أن يقتنع القادة السياسيون المسلمون، مهما كانت أشكال الحكم التي يتبعونها ، بالفكرة إقتناعا كله صدق و إخلاص ، و يأخذون الوقت الكافي لإنضاجها وسط الجماهير الشعبية . و تارة أخرى، نجده يلح على الإهتمام بالقاعدة ، من خلال تربية الفرد و المجتمع ، و البلد و العالم الإسلامي . و قد يعود السبب في ذلك في رأينا ، إلى أن أرسلان كان يريد من الحكام و المسؤولين و السياسيين المسلمين ، أن يكونوا هم قادة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، و المشرفين على إنجازها مع توفر النية الحسنة و الصدق و الإخلاص و الجدية ، مثلما أشرنا إليه سالفا .

في حين أن إبراهيمي ، لم يكن متحمسا كثيرا لهذا المسلك ، ربما ليأسه من تغيير ذهنيات الحكام المسلمين ، الذين أعرب في أكثر من مناسبة عن عدم ثقته فيهم ، و عقده الأمل على علماء الدين و رجال الإصلاح الحقيقيين ، الذين كان ينظر إليهم على أنهم القادة الحقيقيين للأمة ، و من ثمة فقد دعاهم إلى استرجاع القيادة التي ضاعت منهم ، وأخذها من الحكام الجهلة و الفاسدين.

لعل الذي دفعه إلى ذلك ، هو إيمانه بأن الجامعة الإسلامية ، ليست مشروعا سياسيا ، يترك هكذا للسياسيين، يقررونه متى و كيف و أين يشاءون . بل مشروعا اجتماعيا حضاريا ،

تبنيه بالتراكم الأجيال المتعاقبة ، حتى يستوي بناءه و ينضج. دون أن يعني ذلك أن أرسلان، كان لا يسلم بفكرة ، إيجاد البيئة الاجتماعية المناسبة ، عن طريق التربية الاجتماعية ، التي تجعل الفرد يقتنع فكريا بالجامعة الإسلامية ، على نحو منطقي و هادئ<sup>(1)</sup> . تماما مثلما ما تقبلا لكثير من الحقائق الدينية الإسلامية ، فنتحول الجامعة إلى مطلب اجتماعي و ليس سياسي ، و هي إحدى الضمانات الكبيرة لنجاح المشروع .

و عليه فإن المنهج الإبراهيمي، في بناء الجامعة الإسلامية، يعتمد على جهود العلماء و المصلحين و المعلمين ، الذين يضطلعون بالتربية الاجتماعية، التي تنتج أجيالا مسلمة ، تؤمن بالمشروع ، فتدفع بحكامها و قاداتها، إلى تبنيه و بذل كل طاقاتهم وجهودهم لكي ينجح . بينما يقوم منهج أرسلان ، على المزوجة بينهما ، ربما إستثمارا للوقت ، أو ضمانا للفعالية و النجاعة لأنه لا يمكن بأية حال من الأحوال ، إغفال العامل السياسي، في مثل هذه القضايا الكبرى . و فيما دعا الإبراهيمي بالحاح ، إلى تجاوز الإعتبارات السياسية و الجغرافية و المذهبية ، وتأسيس مرجعية دينية موحدة ، تكون لها الكلمة العليا في كل الشؤون الدينية الإسلامية ، وتضع حدا للفوضى الكبيرة التي كانت تشهدها الساحة الدينية، و خاصة ما تعلق منها بالشعائر كالصوم والحج . تعضدها منظومة تشريعية واحدة ، تشرع القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى ، و تكون بديلا للقوانين السائدة، التي لا يتلاءم جانب كبير منها مع الخصوصية الاجتماعية و الدينية، و الثقافية للمجتمعات الإسلامية ، لأنها إستوردت من بيئات غربية مختلفة عنها إختلافا صريحا .

شدد أرسلان، على التكتل الإقليمي و الإقتصادي ، الذي يسمح للمسلمين بالظهور كقوة سياسية و إقتصادية ، قادرة على إستغلال ثرواتها الطبيعية الهائلة و تصنيعها بنفسها ، تمهيدا للقضاء على كل أشكال الإحتكار، و الهيمنة الغربية في هذا المضمار ، فلا إستقلال سياسي بدون إستقلال إقتصادي . و في هذا يبدو الأمير شكيب ، من أوائل المفكرين و المصلحين و السياسيين ، الذين إنفتوا إلى أهمية التحرر الإقتصادي ، في وقت كانت كل الأنظار و الجهود، موجهة صوب التحرر السياسي .

(1) - ينظر فاطمة خليل : " التربية الإسلامية أداة تغيير الإنسان " ، مجلة المستقبل الإسلامي ، لندن : العدد 03 / جويلية 1992 م ، ص 68 .

**خاتمة الفصل :**

من خلال ما تم عرضه و تحليله، و مناقشته في هذا الفصل ، الذي تطرقنا فيه إلى الجامعة الإسلامية في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان ؛ نخلص إلى النتائج التالية :

ان فكرة الجامعة الإسلامية ، جاءت كرد فعل من قادة الإصلاح و النهضة ، على الهجمة الإستعمارية الغربية ، التي إشتدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين ، ساعية إلى بسط سيطرتها التامة على الأقطار العربية و الإسلامية، في المغرب و المشرق العربيين ، مستفيدة من التردي الشامل، الذي آلت إليه الإمبراطورية العثمانية عسكريا و إقتصاديا و سياسيا ، و من الظروف الدولية، التي تميزت بالتنافس و الصراع و عدم الإستقرار .

بمعنى أن الفكرة لم تستفد من الظروف المناسبة ، و لم تأخذ الوقت الكافي ، حتى تحدد معالمها الفكرية و الفلسفية و السياسية ، كما هو مطلوب في مثل هذه المشاريع الكبرى . فضلا عن كونها لم تكن الجبهة الوحيدة التي ناضل، من أجل تجسيدها المفكرون و المصلحون المفكرون المسلمون الأوائل في عصر النهضة ، فثمة جبهات أخرى شغلتهم في نفس الوقت مثل : التخلف الحضاري ، الغزو الثقافي ، التبشير الديني المسيحي الغربي ، ... إلخ . و هو ما من شأنه أن يوزع الجهود ، و يشتت الأفكار ، و يفتح المجال واسعا أمام الإستعمار الخصم الحاضر في كل تلك الجبهات ، لكي يقوض كل المحاولات الرامية للتصدي للمخططاته ، فيكون في وضع المهاجم، و يكون المسلمون دائما في حال المدافع . و لا شك أن قادة الجامعة الإسلامية الأوائل ، قد استشعروا صعوبة التوفيق، بين كل تلك التطلعات دفعة واحدة ، و في نفس الوقت، كانوا يدركون أنهم يرتكبون خطأ إستراتيجيا فادحا ، إذا هم تخلوا عن جبهة واحدة من تلك الجبهات .

و مهما يكن، فقد مهدوا الطريق أمام القادة الذين جاؤوا من بعدهم ، لكي يغنوا فكرة الجامعة الإسلامية ، بضبط مفهومها ، و رسم الخطوات العملية لتحقيقها ، حتى لا تبقى مجرد شعار أجوف تلوكه الألسن ، و مشروعاً حبيس الكتب و الجرائد و المنتديات ،

و الأحزاب و الجمعيات ، التي لا تستقر على رأي، لإغراقها في التنظير أو في الخصومات و الصراعات ،التي لا تكاد تتوقف .

و إذا كان في غير الإمكان ، إنكار الجهود التي بذلها دعاة الجامعة الإسلامية، بداية من السيد "جمال الدين الأفغاني" ، في سبيل إنجاح هذا المشروع الحيوي لنهضة الأمة ، و إعادة الإعتبار لها ، إلا أنه و مع الأخذ في عين الإعتبار الظروف السالفة الذكر ، نسجل أن الفكرة لم تكن واضحة المعالم ، حيث اكتفى أصحابها بوضع أطر عامة ، تفنقد إلى مخطط تفصيلي و دقيق لتجسيد الفكرة . فالأفغاني ذاته؛ دفعه حماسه الشديد ، و رغبته الكبيرة في إنجازها ، إلى التحالف مع السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" ، و هو ما يعني انه كان يراهن على الدور السياسي لإنجاح حلمه ، لكن خيبته كانت كبيرة ، لما إكتشف أن السلطان كان يريد أن يتقوى سياسيا فقط بقيادة الجامعة ، للمكانة الشعبية التي كانوا يحضون بها . فدفعه ذلك إلى البحث عن سبل أخرى ، لكنه فشل ، و إنتهى به الأمر إلى أن يكون أحد ضحايا الجامعة الإسلامية ، كما جاء في حديثنا عن إغتياله بالسلم . و ربما كان ما حدث للأفغاني مع السلطان ، سببا كافيا لعدم تحمس الإبراهيمي ، للمبادرة السياسية في هذا الاتجاه ، على خلاف الأمير شكيب الذي أشار، إلى ضرورة المزوجة بين العمليتين السياسية و التربوية .

و الحق أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد إجتهدا في تحديد مفهوم واضح للجامعة الإسلامية ، كان في نظرنا أوسع و أشمل من مفهوم القادة الأوائل ، من خلال رسم عدة مستويات لها هما : المستوى الأول ؛ و يشمل جميع الشعوب المسلمة التي تنتمي إلى بلدان أو دول لامية . المستوى الثاني ؛ و ينضوي تحته كل المسلمين المتواجدين، كأقليات دينية في مختلف أنحاء العالم . المستوى الثالث ؛ و يضم الشعوب غير المسلمة، و خاصة المسيحية التي تعيش إلى جانب الشعوب الإسلامية . و أخيرا المستوى الإنساني؛ و يتعلق بالشعوب و الأمم التي تشترك مع الجميع في كونها مضطهدة من قبل الإستعمار ، و تسعى للحصول على حريتها و سيادتها ، و للحاق بركب الرقي و التقدم . و لا شك أنهما بنيا مفهومهما المبتكر هذا، على المفاهيم السابقة ، مع تطعيمه بمفاهيم الوحدة المعروفة آنذاك . و في هذا أبدى أرسلان إعجابه الشديد، و ميله إلى تفضيل النموذج الإنجليزي ، بينما إمتدح الإبراهيمي الوحدة التي حصلت بين

القوميات الباكستانية ، التي إنصهرت و كونت دولة باكستان الحديثة ، و أعرب عن أمله في أن تكرر في كامل البلدان الإسلامية، فتتشكل الجامعة الكبرى .

و بالرغم من ذلك ، لم يستقر الرجلان على مصطلحات أو تسميات، أو توصيفات ثابتة ؛ فالإبراهيمي للدلالة على الجامعة الإسلامية، يطلق عليها أحيانا: (( الرابطة الإسلامية )) و أحيانا أخرى : (( الوطنية الإسلامية الكبرى )) ، و حتى: (( الحكومة الإسلامية )) . و الأمر ذاته تكرر مع أرسلان حيث كان يوظف تسميات عدة مثل : (( المملكة الإسلامية )) ، أو (( الخلافة الإسلامية )) ... و غيرها من التسميات، التي يظهر أنها تحمل معاني أو مفاهيم مختلفة ، فلا ريب أن دقة المصطلحات لها أهمية مركزية في ذلك .

و يبدو أن أرسلان ، الذي تحدث مطولا إلى المسيحيين الشرقيين، مفندا كل مبرراتهم؛ بكون أن ولائهم للدول الغربية المسيحية ، هو أمر طبيعي ، يحكم العقيدة المشتركة ، طالبا منهم الانسواء تحت مظلة الجامعة الإسلامية ، التي عدها الفضاء المناسب لهم ، لإعتبرات جغرافية و عرقية و حضارية و مصلحية و تاريخية ، قد نسي أو تغافل عن توجيه الخطاب ذاته لشريحة من طائفته الدرزية ، التي كانت في خصام دائم مع الحكم العثماني ، و أبدت تعاونها مع الإنجليز و الفرنسيين . و حتى أرسلان نفسه ، كان كثيرا ما يتعرض لإنتقادات شديدة من بعض أقطابها ، تتهمه بخيانة مصالح طائفته ، بتحالفه مع خصومها العثمانيين . و لذلك وجدناه في حرج كبير ، وهو يحاول أن يثبت الإنتماء الإسلامي لطائفته، و ولائها السياسي للخلافة الإسلامية .

لقد فرق الإبراهيمي جيدا، بين الجامعة الإسلامية و الخلافة الإسلامية ، فالأولى تعني بالنسبة إليه تحول الحكومات الإسلامية إلى حكومة واحدة، متحدة في مواقفها السياسية . أما الثانية فهي إعتبره، نظاما سياسيا تجاوزته الأحداث ، و لم يعد صالحا عمليا ، و أن البديل الطبيعي له هو الجامعة الإسلامية . أما أرسلان ؛ فقد ظلت الخلافة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية ، تعني لديه الجامعة الإسلامية ، حتى تم إلغائها و إنشاء تركيا الحديثة بدلا عنها، و أثنائها حكم بنهاية الجامعة الإسلامية ، و إنتقل بعدها إلى الدفاع عن الجامعة العربية، التي رأى فيها الإطار السياسي الأمثل للعرب ، يكون الإنتماء فيه للعرق العربي و ليس للعقيدة الدينية



الإسلامية . و يبدو أن هذا الإنتقال منطقي، لأن أرسلان إستتمت في مواقفه المؤيدة لدولة الخلافة في أحلك ظروفها ، و تمسك بالأمل في أن تستعيد مكانتها السابقة ، مع مباشرة الإصلاح فيها . و الحق أن الإبراهيمي، قد كان موقفه واضحا منذ البداية في هاته المسألة ، بتصوره بأن الجامعة الإسلامية ، كيان سياسي و اقتصادي و اجتماعي، و ثقافي و حضاري جديد ، لا ينبغي تكيفه مع وضع الخلافة العثمانية ، و لذلك وجدناه يرشح دولة باكستان الحديثة، لتكون نقطة الانطلاق للجامعة و ليس تركيا ، لأن أمر هذه الأخيرة محسوم بالنسبة إليه . إذ من العبث محاولة إعادة الروح، لخلافة ظلت طيلة قرون ، عاجزة عن النهوض و العودة من جديد ، و هو و إن رأى ذلك، فإنه لم يعمل ضدها أثناء الحرب ، لكنه لم يخفي تعاطفه و تجاوبه، مع الحركة العربية الناشئة في المشرق .

بدا لنا الإبراهيمي و الأمير شكيب ، متفائلان ، في إستشرافهما لمستقبل الجامعة الإسلامية، رغم توجسهما من الوضع السيئ جدا ، الذي كان عليه حال المسلمين إبان عصرهما ، في كل في بلدانهم المستعمرة أو المستقلة على حد سواء . معربان عن امتعاضهما الكبير، من القادة السياسيين العرب ، الذين لم يفعلوا شيئا ذي بال للقضية ، و من الجبهة الداخلية المتمثلة في الأوساط النخبوية و الشعبية ، التي كانت تفتقد إلى الحد الأدنى من النضج الفكري و الوعي السياسي في هذا المضمار .

و من جهة ثانية، راهن الرجلان كثيرا على القضية الفلسطينية ، لتكون محفزا قويا لعودة التضامن و الارتباط الإسلامي، إلى مستواهما المطلوب ، لكن خيبة أملهما كانت كبيرة ، لما شاهدها كل يهود العالم غربيين و شرقيين، يهبون لنجدة و دعم الحركة الصهيونية ماليا و عسكريا و سياسيا ، في مقابل تقاعس و تخاذل العرب و المسلمين في نصرة إخوانهم في العقيدة ، و حتى تواطؤ البعض منهم . و قد شهدا معا كيف ، تمكنت العصابات الصهيونية المسلحة رغم قلتها ، من الإستلاء على أغلب أملاك و أراضي الفلسطينيين السكان الأصليين، بالقوة و العنف و إرتكاب المجازر و المذابح، بتواطير و حماية من بريطانيا . و من قمع كل الحركات الشعبية الفلسطينية المقاومة في مهدها ، لتتمكن في نهاية المطاف ، من تأسيس الوطن

القومي اليهودي المزعوم في شهر ماي 1948 م ، الذي شهدته الإبراهيمي و غاب عنه أرسلان بسبب وفاته .

لقد مثلت القضية الفلسطينية، إمتحانا أخيرا لاختبار التضامن و التعاطف الإسلاميين ، لكن الجميع سقط فيه بحسب الإبراهيمي و أرسلان ، و هما اللذان حذرا مبكرا من خطورة المؤامرات الدولية، التي كانت تحاك بين الحركة الصهيونية و الحكومات الاستعمارية الكبرى ، مؤكداين على أن التفريط في فلسطين يعني ضياعها على الأبد .

تمثل جملة الأفكار و التصورات ، التي طرحها الإبراهيمي، لوضع الجامعة الإسلامية على أسسها الصحيحة ، منهجا متكاملًا ، يعتمد على التنشئة الاجتماعية؛ من خلال دور مؤسسات: المدرسة و المسجد و الجامعة ، التي تتولى تخريج أجيال من الشبيبة الإسلامية ، تدرك أن أوطانها هي جزء لا يتجزأ من مجموعة إسلامية كبرى ، و أن من مصلحتها أن تتعارف و تتقارب و تتواصل، فيما بينها حاضرا و مستقبلا . و لعل الهدف الأساسي الذي توخاه من كل ذلك ، هو الوصول إلى مجتمعات موحدة التفكير و المنازع و الأهواء ، على عكس ما كان حاصلًا في تلك الثناء . و يبدو أن الإبراهيمي، يتقاطع في هذا كثيرا مع الشيخ "محمد عبده"، الذي إختار النهج التربوي في الإصلاح، أكثر من تقاطعه مع الأمير شكيب ، و إن كان هذا الأخير كما أسلفنا لم يهمل التربية الإجتماعية .

إن دعوة الإبراهيمي و أرسلان، إلى إستلهام الدروس و التجارب من التاريخ الإسلامي الأول ، يؤكد أنهما من النخبة المفكرة؛ التي تنظر إلى التراث الإسلامي، نظرة موضوعية علمية إستقرائية ، لا تمجده كله و لا ترفض جله ، ففيه من المحطات الحية التي لا زالت صالحة ، لكي تكون قاعدة لبعث الحياة من جديد في الجسد الإسلامي ، الذي تجمد منذ عدة قرون بصفة عامة ، و في إعادة اللحمة بين المسلمين على اختلاف أوطانهم و مذاهبهم و ثقافتهم بصورة خاصة ، باعتبار أن الإسلام قد حث على الوحدة في كل شيء، و جعلها معيارا للتقوى و الإيمان.

و الملاحظ أن الإبراهيمي، خص السيرة النبوية بالتحديد ، التي حفلت بالكثير من المواقف ، التي دلت بوضوح، على أهمية التآخي بين المهاجرين و الأنصار في المدينة

المنورة ، و بين قبيلتي "الأوس" و "الخرج" ، و التنافس الإيجابي الذي كان بين الجميع، من أجل إرساء دعائم الدولة الإسلامية الفتية و حمايتها، من الخصوم و الأعداء المتربصين بها في الداخل و الخارج ، و نشر الدعوة الإسلامية إلى أوسع نطاق .

إن إبداء أرسلان إعجابه بالنموذج الوندوي الإنجليزي، و إستفاضته في شرح خصوصياته و إيجابياته ، يدفعنا إلى القول أنه كان يفضل إتحادا فيدراليا، يخضع لسلطة مركزية ، تشترك دوله في السياسات العامة و القضايا المصيرية ، على أن تترك القضايا القطرية للحكومات المحلية ، لأنها أدري بإدارة شؤونها من السلطات العليا . و هو تصور، لا شك أنه بينه و بين تصور الإبراهيمي اختلاف بين ، سواء تعلق الأمر بالنموذج الباكستاني ، أو بمنظمة المؤتمر الإسلامي التي أنشأت سنة 1969 م، بهدف تعزيز التضامن الإسلامي و التعاون بين الدول العضوة فيها ، و دعم كفاح الشعوب الإسلامية، في سبيل المحافظة على كرامتها و إستقلالها و حقوقها الوطنية... إلخ<sup>(1)</sup> .

فالنموذج الأول - الباكستاني - أراد الإبراهيمي من خلال تطبيقه، تفعيل الوحدة في كل بلد إسلامي على حدى . أما النموذج الثاني ، فيمثل المرحلة الثانية من الوحدة ، أي أن الجامعة الشاملة تسبقها وحدة متينة بين شتى المكونات الدينية و الطائفية، و المذهبية و العرقية و الثقافية للقطر الواحد . و معناه أنه، رمى إلى جعل الجامعة الإسلامية، تبدأ من القاعدة ، و تنتهي إلى القمة ، بخلاف أرسلان الذي إرتأى أن تكون العملية على الجبهتين .

و في السياق ذاته ، يظهر أن الإبراهيمي و أرسلان، لم يكن يستهويهما النموذجان الوندويان الألماني و الإيطالي ، ربما لإيغالهما في العصبية العرقية أو الدموية من ناحية ، و لكونهما إستغلا تصاعد المد العنصري في القارة الأوروبية، عقب نهاية الحرب العالمية الأولى 1914 م - 1918 م ، و كان من نتائج حرب النهج ، الزج بأوروبا و العالم في حرب عالمية ثانية 1939 م - 1945 م ، كانت و بالا بالدرجة الأولى على الأمتين الإيطالية و الألمانية ، و على البلدان الأوروبية و العالم بدرجة ثانية . و منه فإن الجامعة الإسلامية بالمفهوم الإبراهيمي و الأرسلاني، ليست تكتلا عنصريا، أو عرقيا شبيها بالنازية أو الفاشية ، بل تجمعاً قوامه الروابط الدينية أولا، ثم الجوارية ثانيا ، ثم الإنسانية ثالثا .

(1)- للمزيد ينظر عادل بن عمر ، المرجع السابق .

و لا جدال، في أهمية التكتل الإقتصادي ، الذي تحدث عنه الأمير شكيب ، لأنه يسمح للأقطار الإسلامية و خصوصا العربية ، التي تتوفر على موارد إقتصادية هائلة ، من إستثمارها بنفسها ، بعيدا عن الشركات الرأسمالية الكبرى ، التي إستغلت التأخر الحاصل في هذا المجال ، و راحت تستنزف تلك الثروات الباطنية و السطحية، في ما يشبه عمليات نهب مقننة ، توفر لأصحابها مداخيل طائلة، و لإقتصادات دولها المواد الأولية الحيوية لصناعاتها ، مقابل أثمان رمزية تدفعها للحكومات لا تعكس قيمتها الحقيقية ، و لا تمكنها من تحقيق التنمية الإجتماعية و الإقتصادية المطلوبة . و لاشك أن التكامل، سيسمح للبلدان الإسلامية الفقيرة ، بتوفير ما تحتاج إليه من مواد أولية تفتقدها . لكن العقبة الكبيرة ستظل، في غياب نهضة إقتصادية حقيقية ، تحول تلكم الدول من مستهلكة للمنتوجات الأجنبية ،إلى منتجة لها. عندئذ يمكن الحديث عن تكامل إقتصادي حقيقي، مثلما هو حاصل في أوروبا و أمريكا، و رابطة المستعمرات البريطانية ( الكومنويلث ) . فالتبعية الإقتصادية، هي التي تفقد الدول و الأمم ، سيادتها السياسية و الإقتصادية و الثقافية ، و لعلها أحد أكبر أسباب فشل كل المحاولات التي جرت لحد الآن .

نعتقد أن اعتبار الانتماء الدين الإسلامي ، جوهر للجامعة الإسلامية ، سيظل يشكل نقطة تجاذب مع التيارات الاجتماعية و السياسية الممثلة للطوائف غير الإسلامية ، التي رغم أنها تشكل أقليات دينية و مذهبية ، إلا أن بعضها تمثل مركز ثقل سياسي و اجتماعي و إقتصادي معتبر ، و خصوصا في الشرق العربي . فلا يكفي دعوة هؤلاء، للانخراط في مسار الإتحاد ، دون التفكير ربما في أشكال و صيغ أخرى لانضوائها . كما لا يمكن أن نغفل الانقسامات ، الأساسية الحاصلة داخل المجموعة الإسلامية نفسها ، بين السنة و الشيعة ، بل أن منها من يلغي الآخر من الدائرة الإسلامية، و هكذا دواليك . و لسنا ندري إلى أي مدى، سيتمكن فيه علماء الدين الإسلامي ، من تقليص الفجوة الحاصلة بين المذهبين بشكل خاص ، و بين المذاهب الأخرى بصورة عامة ، كما ذهب إليه الشيخ البشير الإبراهيمي .

و صفوة القول ، أن الأمير شكيب، قد جعل من الجامعة الإسلامية ، فضاء دينيا و سياسيا و اقتصاديا و عسكريا، و حضاريا و إنسانيا ، يتسع للجميع عربا مسلمين ، و مسلمين

غير عرب ، و عرب مسيحيين ، و كل المستضعفين في الأرض ، الذين تجمعهم مع المسلمين وحدة الواقع و المصالح المشتركة . و هو مفهوم شامل ، أكد من خلاله أن الجامعة الإسلامية ، ليست تكتلا عنصريا كما يبدو للوهلة الأولى، من خلال تسميتها . كل ذلك من أجل مجابهة الاستعمار الغربي ، الذي حاربها بالوطنيات الضيقة ، المجردة من العقيدة الدينية ، التي تشكل تحديا أساسيا و خطيرا، على مصالحه الاقتصادية و السياسية في البلاد الإسلامية . و من ثمة، فقد راهن على إستمرار الفرقة و التشتت لأمد أطول ، ضمانا لديمومة تلك المصالح .

و لذلك قدر الأمير شكيب ، أن الاختلاف في العقائد الدينية ، لا يؤدي بالضرورة إلى الاختلاف في العقائد السياسية ، بمعنى أن الاختلاف في الدين ، لا يمكنه أن يلغي الروابط الأخرى التي سبقت الإشارة إليها <sup>(1)</sup> . فالتحدي الاستعماري ، يدفع الجميع إلى الوحدة ، مهما كانت أعراقهم و أديانهم و مذاهبهم ، بل أنه الحل الوحيد، الذي يمكنهم من التحرر من قيود الاستعمار ، التي لا قبل لهم بها ، إذا حاولوا التخلص منها و هم منفردين و متفرقين .

لكنه حل لا فاعليه له ، إذا لم يصاحبه تصميم و إرادة ، على الخروج من مأزق الجهل و التخلف و الجمود ، باستيعاب الأسباب التي أدت إلى نهضة البلدان الاستعمارية نفسها ، مع المحافظة على المقومات الحضارية الذاتية ، التي تشكل صمام أمان ، أمام الذوبان في ثقافة الآخر، المختلف عن المسلمين عقائديا و ثقافيا . و بذلك تكون الوحدة أو الجامعة الإسلامية، حتمية و ليست خيارا ، للمسلمين و لغيرهم ، إنهم قصدوا فعلا هزيمة الاستعمار و التخلف معا. و مهما يكن ؛ فإن الأفكار و التصورات التي أوردها الإبراهيمي و أرسلان، بشأن الجامعة الإسلامية ، عملية في الكثير من جوانبها ، تحتاج فقط إلى إرادة كل المكونات في البلدان الإسلامية : القادة السياسيون ، و النخبة المثقفة، و الفئات الاجتماعية العريضة ، التي يمكن لها أن تتخذ من الإرث الفكري، الذي خلفه مناصرو الجامعة الإسلامية ، نقطة ترتكز عليها في بعث المشروع ثانية ، مع تكيفه و أحوال العصر التي تغيرت كثيرا عنه ، بالمقارنة مع ما كانت عليه في عصر الإبراهيمي و أرسلان ، اللذان ربطا نجاح الوحدة ، بريح المعركة الاقتصادية و الثقافية و العلمية ، و هو ما لم يحصل بعد وفاتهما .

(1) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 147 .

الفصل السادس :  
الوحدة العربية في كتابات المفكرين  
الإبراهيمي و أرسلان

**تمهيد :**

عالجنا في الفصل المنصرم، موضوع الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان، و توصلنا إلى أنهما إختلفا نسبيا، في مفهومها و في خطوات أو مراحل إنجازها ، لكنهما إتفقا على أهميتها البالغة، في حاضر و مستقبل الشعوب العربية و الإسلامية، على كل المستويات و الأصعدة . و في هذا الفصل، الذي يتطرق إلى الوحدة العربية في آثار الشخصيتين ، سنحاول الوقوف من خلاله؛ على آرائهما و أفكارهما من قضية الوحدة العربية ، التي أخذت هي الأخرى حيزا كبيرا من إهتماماتهما الفكرية و نشاطاتهما السياسية ، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، التي أدت إلى طرد العثمانيين من المشرق العربي ، و فترة ما بين الحربين ، التي شهدت فيها العلاقات الدولية جوا من التوترات السياسية و العسكرية، بين القوى الإستعمارية الكبرى، انتهت باندلاع حرب كونية ثانية ، كانت نتائجها هذه المرة حاسمة و مؤثرة، في تشكيل صورة المجتمع الدولي .

و بطبيعة الحال لم تكن البلاد العربية ، طرفا مؤثرا في تلك الظروف و إنما متأثرا بها . و لعل أكبر عامل دفع بالإبراهيمي و بارسلان ، الى تبني الفكرة الوحودية العربية ، هو إلغاء الخلافة العثمانية على المستوى الرسمي، بعد أن إنتهت على أرض الواقع منذ زمن طويل . دون أن يعني ذلك، أنهما يطرحان الجامعة العربية كبديل للخلافة العثمانية ، و إنما كإطار طبيعي فرضته الأوضاع الجديدة، التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى.

و عليه فقد قسمنا هذا الفصل إلى أربعة مباحث ؛ قدمنا في الأول صورة عامة عن جذور تيار القومية العربية، التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن 19 م ، ثم عن أهم المراحل التي مر بها إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية . بينما تحدثنا في المبحث الثاني، عن بواعث الوحدة العربية بحسب الإبراهيمي و أرسلان ؛ حيث أجمعا على أنها عديدة، و يأتي على رأسها مقاومة الهيمنة الاستعمارية، و محاربة التخلف الشامل الذي كانت تحياه الشعوب العربية بدون إستثناء . أما المبحث الثالث، فقد تطرقنا فيه إلى دفاع الإبراهيمي و ارسلان -على الترتيب- عن عروبة عرب المغرب العربي و الطائفة الدرزية، و موقعهما الأساسي في حركة الوحدة العربية . أما المبحث الرابع، فقد إستعرضنا فيه، الخطوات العملية التي إقترحها الرجلان،

---

لوضع مشروع الوحدة العربية، موضع التجسيد في الميدان . هذا و قد أتبعنا كل مبحث من المباحث السابقة، بمقارنة شاملة بين ما أورده كل منهما و بخاتمة .

و حري بنا هنا إلى الإشارة أن، الشيخ البشير و الأمير شكيب ، لم ينظرا إلى الوحدة العربية، نظرة عرقية أو عنصرية ضيقة، كما يبدو من الوهلة الأولى ، بل نظرة سياسية و إقتصادية و ثقافية و حضارية، تتجاوز إلى أبعد الحدود العرق أو اللون، هذا من جانب . و من جانب آخر، أنهما لم يريا أي تعارض بين الوحدة العربية و الجامعة الإسلامية ؛ فالأولى كانت حسبهما مجرد خطوة أولى فقط، في طريق تشييد الثانية التي تعد الأوسع و الأشمل و الأكثر قوة و فعالية، على اعتبار أنها تضم كل المسلمين في العالم . بما فيهم المسلمين العرب ، و منه فقد ربطا نجاح الثانية بنجاح الأولى ، و هو لا شك تصور صائب ينم عن سعة في التفكير ، و بعد في النظر .

---



**المبحث الأول : تيار القومية العربية : الجذور و التطور :**

القومية رابطة إجتماعية و سياسية ؛ تعني انتماء الشخص إلى أمة معينة و ولاءه لها ، أي أنها تتضمن مدلولاً مزدوجاً : إجتماعي و سياسي كلاهما مرتبط بالآخر ؛ فالمدلول الإجتماعي : (( يبرز كيان القومية باعتبارها رابطة تربط الفرد بكائن إجتماعي ، هو الأمة ، يتحد أفرادها في اللغة و التاريخ و الثقافة و المصلحة المشتركة . و قوام هذه الرابطة ، يتكون من ذات المقومات التي تقوم عليها الأمة )) . أما المفهوم السياسي لها - القومية - فيفيد بأنها : (( عقيدة سياسية قوامها الشعور القومي ، الذي يدفع أبناء الأمة إلى الاعتقاد ، بأنهم مجموعة بشرية متميزة عن غيرها من الجماعات ، لها كيانها الذاتي و تطلعاتها القومية ، و من حقها أن تنتظم في وحدة سياسية مستقلة عن غيرها ، و تنتظم كيانها القومي تنظيمًا إجتماعيًا و سياسيًا و إقتصاديًا بما يحقق شخصيتها القومية )) . و لقد دفعا هذان المدلولان ، بالباحثين إلى التمييز بين القومية في حد ذاتها، و إلى التمييز بين القومية كرابطة إجتماعية من ناحية، و كمبدأ أساسي من ناحية أخرى ؛ فالمعنى الأول يشير إلى القومية في حالة سكونها ، بينما الثاني يرمز إلى القومية في وضعية الحركة، و سعي أبنائها إلى تنظيم كيانها القومي . و قد إستندوا في هذا التمييز ، إلى التطور التاريخي للقومية ، حيث لازمت بعض مظاهر القومية الإنسان منذ القدم ، في حين أن حركة القومية ، تعتبر ظاهرة سياسية حديثة ، عرفت الشعوب الأوروبية مع الثورة الفرنسية ، إذ لم يسبق لها أن وجدت قبل ذلك العهد <sup>(1)</sup> .

و للشعور القومي مظاهر عدة منها ؛ الإفتخار بفضائل الأمة و إظهار مساوئ أعدائها ، و التباهي بمنجزاتها و دورها في الحضارة البشرية ، و تخليد أعمال عظمائها الأبطال و الموهوبين من أبنائها ، الولاء الكامل لكل القضايا القومية و التضحية من أجلها، بغض النظر عن معارضتها أو موافقتها للمصالح الفردية أو الطبقية، أو المحلية أو الإقليمية .

يتفق أغلب الباحثين، على أن القومية فكرة حديثة ، ترجع في أقصى تقدير إلى نهاية القرن 18 م و بداية القرن التاسع عشر ، و بلغت أوجها خلال هذا الأخير ، بفعل إنتشار مبادئ

(1) - محمد محمود بوعياض ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 231.

الثورة الفرنسية ؛ و منها حق الشعوب في تقرير مصيرها ، و قيام التنظيم السياسي للمجتمع الدولي بناء على الدولة القومية، التي تشمل أبناء الدولة الواحدة . و هو السبب، في إطلاق تسمية " عصر القوميات " على هذا القرن . و تجدر الإشارة في هذا المقام ، أن فكرة القومية ، قد تعرضت لهجوم شديد في نهاية القرن التاسع عشر، و بداية القرن العشرين من جهات عدة ؛ منها دعاة الإتجاه العالمي و أصحاب النظرية الفكرية الشيوعية ، لكنها تمكنت من الإنتصار عليها ، بعد أن إنهار الاستعمار و إستقلت شعوب المستعمرات ، حيث عملت الدول المستقلة حديثا ، على إقامة دولها على أسس قومية (1) .

ينبغي الإقرار، انه من الصعوبة بمكان ، تحديد تاريخ لبداية الحركة القومية العربية ، بفعل إختلاف الظروف السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية في الأقاليم العربية ، بالنظر الى سقوط القسم الإفريقي منها تحت الهيمنة الإستعمارية الأوروبية إبان القرن 19 م ، في حين أن القسم الآسيوي ظل خاضعا للدولة العثمانية إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، ثم سقط هو الآخر في يد الإستعمار الأوروبي و من زاوية أخرى ، فقد إختلفت آراء الباحثين حول قضية تكييف ، تلك الحركات السياسية التي شهدتها البلاد العربية أثناء القرن 19 م ، فثمة من وصفها بكونها حركة قومية ، في مقابل البعض الآخر الذي نظر إليها، على أنها مجرد حركات سياسية فحسب ؛ تفتقد لبعض مقومات الحركات القومية . أما نقطة الإتفاق بينهم ، فهي إعتبار بداية القرن التاسع عشر ، و بالضبط الحملة الفرنسية على مصر ، البداية الحقيقية للحركة القومية العربية، ليس في كامل الوطن العربي ؛ بل في بعض أجزائه التي إنتفضت لبناء دولة عصرية من جهة أولى ، و لإستيقاظ الشعور الوطني ، الذي تطور فيما بعد إلى شعور قوي من جهة ثانية ، و لبروز يقضة فكرية مهدت الطريق للفكر القومي من جهة ثالثة (2) .

و بما أن الفكرة القومية، التي إعتنقها العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و بداية القرن العشرين أوروبية الأصل ، فإنها إنتقلت إليهم لأنها وجدت الظروف المواتية في تلك الفترة الزمنية بالذات ، حيث كانت بلاد الشام عامة مهددا الأول و لبنان تحديدا ، لعدة عوامل يمكن حصرها فيما يلي :

(1) - ينظر محمد محمود بوعياض ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 245 و ما بعدها .

(2) - ينظر المرجع نفسه ، ص ص 335 - 336 .

- 01 - وصول أصداء الحركات القومية ، التي اشتدت إبان القرن التاسع عشر في أوروبا الوسطى و الشرقية ، فقد وصف هذا القرن بقرن القوميات و التحرر القومي في أوروبا ، كما سميت سنة 1848 م بربيع الشعوب ، إذ عرف إندلاع حركات قومية و ليبرالية عنيفة في القارة الأوروبية عامة، و في وسطها و شرقها خاصة ، فضلا عن تحمس فئة هامة من الأوروبيين و الأمريكيين ، لتحرير اليونان مهد الحضارة الأوروبية و الغربية عموما من الهيمنة العثمانية .
- 02 - تمكن بعض القوميات الأوروبية، من الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية ، بعد نضال مرير معها ؛ مثل صربيا ( SERBIE ) في بداية القرن 19 م ، و اليونان سنة 1832م و بلغاريا عام 1878 م .
- 03 - نجاح الوجدتين الإيطالية و الألمانية، في الستينات و السبعينات القرن 19 م .
- 04 - حملة "نابليون بونابرت" على مصر ( 1798 م - 1801 م ) ، التي كانت حملة عسكرية و علمية ، جعلت النخبة المصرية ، تدرك الفرق الشاسع بين العالم الإسلامي و أوروبا (\*) .
- 05 - البعثات الطلابية ، التي أرسلها " محمد علي باشا " و الي مصر إلى أوروبا (\*\*) .
- 06 - بداية إنتشار التعليم العصري ، في الإمبراطورية العثمانية .

(\*) - فقد جاء مع الحملة عدد معتبرا من كبار العلماء ؛ مثل : " برتولاي " - BERTHOLLET - ، كونتاي - CONTE - ، دونان - DONON - ، مونج - MONGE - ، دولوميو - DOLOMIEU - ... إلخ . و ذهب بعض المؤرخين الى تقدير عددهم بـ : 4 مهندسين عمرانين ، 4 علماء فلك ، 3 علماء صيدلة ، 12 طبيبا و جراحا ، 15 أدبيا و عالما إقتصاديا و عالم آثار ، 8 كيميائيين و فزيائيين ، 10 مستشرقين ، 15 مهندسا جغرافيا ، 15 مهندسا في قياس الأراضي ، 21 ميكانيكيا ، 5 مهندسين في صناعة السفن ، 18 مهندسا في الجسور و الطرقات ، 4 علماء المعادن ، 5 علماء في النبات ، 8 غير معروف في الإختصاص ، 6 خبراء في الطباعة . و لاشك أنه عدد هائل من العلماء و المهندسين و الخبراء ، الأمر الذي يؤكد أنها لم تكن حملة عسكرية فحسب بل علمية أيضا، و حتى الفنانين و الموسيقيين كان لهم حضورهم أيضا ، حيث قدر عددهم بثمانية ، الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 56 .

(\*\*) - قدر عدد الطلبة الذين أرسلهم "محمد علي باشا" إلى أوروبا ، بين 1818 م و 1848 م بأكثر من 330 طالبا ؛ 230 طالبا منهم نحو فرنسا ، 95 إلى بريطانيا ، 14 نحو بقية الدول الأوروبية . للتخصص في مجالات الصناعات و العلوم الهندسية ( 310 طالبا ) ، الطب ( 15 ) ، العلوم الإنسانية ( 22 ) ، الزراعة ( 02 ) . الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 56 .

- 07 - إزدهار الترجمة و النقل ، اللذان سمحا بنقل جزء معتبر من التراث الأوروبي ، فضلا عن إنتشار الطباعة و الصحافة ، خاصة في مصر و لبنان و تونس .
- 08 - السياحة و الأسفار ، و الإحتكاك بالتجار و السياح الأوروبيين، الوافدين على الإمبراطورية العثمانية .
- 09 - رجوع بعض المهاجرين اللبنانيين من أمريكا ، حيث تعلموا هنالك مفهوم القومية ، باحتكاكهم بالقومية الأمريكية .
- 10 - دور حركة الإستشراق .
- 11 - تشبع بعض المثقفين العرب ، الذين استقروا بباريس، فرارا من بطش "السلطان عبد الحميد الثاني" ، بفكرة القومية السائدة هنالك، و التي كان قوامها الثأر من الألمان، الذين إستولوا على مقاطعتي "الألزاس" و "اللورين" في حرب 1870 م ، التي هزم فيها "بسمارك" فرنسا هزيمة مذهلة .
- 12 - ظهور تيار في أوساط المسيحيين السوريين ، مشكك و معادي للعقائد الدينية ، و مدافع عن الإلحاد . علاوة على التعصب الديني ، و الصراع العنيف الذي كان مستحكما، بين الطوائف الدينية المسيحية .
- 13 - قيام فرنسا و خاصة بريطانيا ، بتشجيع القومية العربية ، بفرض الضغط على الإمبراطورية العثمانية ، التي كانت سائرة في طريق التحالف مع ألمانيا، منذ أواخر القرن 19 م . و قد كانت إستراتيجية بريطانيا، ترمي إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقطاب ؛ القطب التركي و القطب الإيراني و القطب العربي ، و اجتهدت في تشجيع كل الأطراف المناوئة للعثمانيين، كالبروتستانت في لبنان ، و "آل الصباح" في الكويت ، و "آل سعود" في الحجاز و غيرهم (\*) .

(\*) - إحتضنت بريطانيا و فرنسا الحركة العربية الثائرة ، و تنافستا في السيطرة عليها ، فكان الإنجليز يتولون حماية كل متمرّد من مصر ، و يحولون دون أن يبطش به الأتراك ، و الأمر ذاته كان الفرنسيون يقومون به مع المتمردين المسيحيين في بلاد الشام ، مدعين الحق لأنفسهم في حمايتهم ، و قد وصل هذا التنافس إلى حد إحتضان بعض الضباط العرب لدى الطرفين . منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 187 .

كل هذه العوامل، ساعدت على ولوج الفكرة القومية إلى البلدان العربية ، و سمحت بظهور نخبة عربية مطلعة و متفتحة بشكل أو بآخر، على الفكر القومي الأوروبي . فلم تعد أسماء مثل " إرنست رينان " ( E . RENAN ) ( \*\* ) و مازيني " ( G. MAZZINI ) ، أو " غاريبالدي " ( GARIBALDI ) أو " فيخته " ( J. FICHTE ) (\*) ، غريبة عن الأوساط القومية العربية . و قد راجت الفكرة القومية على نطاق واسع ، و اتخذت عدة أشكال ؛ فمنها التي اقتصرت على مجالات جغرافية محدودة ( القومية اللبنانية، السورية، المصرية ، التونسية،... إلخ ) و منها من نظر إلى القومية نظرة أوسع ، تشمل العالم العثماني بأكمله، أو المجال العربي <sup>(1)</sup> .

و إذا كان في حكم المؤكد ، أن الفكرة القومية العربية الحديثة ، كانت انعكاسا للحركات القوميات الأوروبية التي مرت بها ، فإنها عرفت تأخرا قبل أن تظهر في نهاية القرن التاسع عشر ، لسببين أساسيين هما :

01 - غياب المفهوم القومي ؛ بفعل هيمنة خطاب الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، التي جعلت من الدين رابطة أمثل لجمع شمل الجميع و صيانة حريتهم و كرامتهم ، فهو العامل حسبهم الذي وحد بين القبائل و الأجناس و صهرهم في أمة واحدة . أما النظريات الحديثة من قومية و وطنية ، فهي في اعتبارهم ، حيل صنعتها القوى الأجنبية الاستعمارية و حلفائها ، لكي تنهب بواسطتها ثروات العرب و المسلمين الاقتصادية ، و تبسط سيطرتها على بلدانهم ، و لهذا أثر العرب عدم الثورة على الحكم العثماني .

(\*\*) - أرنست رينان ( E. RENAN ) ( 1823 م - 1892 م ) : أديب فرنسي ، إهتم بدراسة اللغات السامية و تاريخ الديانات بعد أن تخلى عن دعوته الإكليريكية . أعرب عن فقدانه الإيمان و إتجاهه للعقلانية التي عبر عنها في كتبه : " مستقبل العلم " ، " تاريخ نشأة المسيحية " ، المؤلف من عدة أجزاء و كان الجزء الأول منه بعنوان " حياة يسوع " ، الذي أحدث تأثير واسعاً في أوروبا . زرا كل من لبنان و فلسطين حيث قام بها بعدة تقنيات أثرية . المنجد في اللغة و الأعلام . .

(\*) - " يوحنا فيخته " ( J . FICHTE ) ( 1726 م - 1814 م ) : فيلسوف ألماني ، تأثر في بداية الأمر بتعاليم الفيلسوف " كانت " ، ثم تحول إلى فلسفة مثالية محورها " الأنا " . المنجد في اللغة و الأعلام .  
(<sup>1</sup>) - للمزيد ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 55 و ما بعدها .

02 - طبيعة النظام العثماني ، الذي تمكن من تغييب المفاهيم القومية، و طمس الرغبات المشتركة ، مستفيدا من التأخر الحاصل في قطاع خطوط المواصلات و وسائل النقل و الاتصالات الحديثة ؛ التي ظلت لفترة طويلة من الزمن شبه معدومة ، إلى غاية وصول "محمد علي باشا" إلى الحكم في مصر ، الذي قام بإصلاحات شاملة ، حطمت ركائز النظام الاقتصادي - الذي جمد الحياة و منع الاتصال و الاحتكاك بالخارج - ، و أعاد تجديد نمط العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية ، و أعرب صراحة عن رغبته في إقامة دولة الوحدة القومية بين سوريا و مصر (1) .

و هكذا يتبين أن الدولة العثمانية ، قد استطاعت بفعل رابطة الدين الإسلامي ، و نظامها الإقطاعي المتخلف و المنغلق ، أن تكبح جماح تطلعات القوميين العرب ، الذين كانوا شديدي التحمس للفكر القومي المتأجج في أوروبا ، و الرغبة في أن تكون لهم كياناتهم الخاصة بهم . لكنها وقفت عاجزة في نهاية المطاف ، عن مقاومة التيار القومي العربي المنتمي في المشرق العربي عامة و بلاد الشام خاصة ، الذي استفاد من التضعف العام الذي كانت عليه الإمبراطورية ، و تزايد الحمية العربية ضدها ، ردا على استمرارها في تجاهل المطالب القومية العربية ، تحت غطاء الجامعة الإسلامية ، و بفعل تعاضد دور العناصر التركية المعادية للشعوب العثمانية و بخاصة العربية . هذا و يمكن أن نحصر التطورات التي عرفتها فيما يلي :

كانت بلاد الشام ( سوريا ن لبنان ، فلسطين ، الأردن ) ، المهد الأول لليقظة الفكرية العربية ، التي كان من نتائجها بروز وعي سياسي، بين صفوف عدد من المثقفين الذين جمعوا بين الثقافتين العربية و الأوروبية ، تحول بمرور الزمن إلى وعي قومي، تجلّى في الثورة العربية التي اندلعت أثناء الحرب العالمية الأولى . و قد اختلفت ظروف الشام عن غيرها من البلاد العربية و خاصة الإفريقية منها ، ففي البلاد الشامية سجل الاحتكاك الدائم بين العنصرين العربي و التركي خصوصا ؛ مع تزايد تفهقر الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، و كان من نتائجه ازدياد التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية ، و استمرارها في التقاعس عن اللحاق بركب التقدم ، و إدارة ظهرها لكل دعوات الإصلاح الإداري و الدستوري في مقابل الانتشار الواسع لمبادئ الثورة الفرنسية، و الأفكار القومية في كل مكان من العالم .

(1) - للمزيد ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 175 و ما بعدها .

و اتجهت الأمور نحو المزيد من التآزيم ؛ مع ظهور الحركة الطورانية، التي كانت غايتها إعلاء شأن القومية التركية على حساب القومية العربية ، فأفرزت محاولات لتتريك الدولة العثمانية ، الأمر الذي حرك شعور العرب بالكراهية ضد الأتراك ، و دفعهم إلى التماسك للوقوف في وجه نظام الحكم العثماني المستبد و الفاسد ، بالحفاظ على مقوماتهم ، و إظهار خصوصيتهم الذاتية التي تختلف عن نظيرتها التركية .

و يعود الفضل في ذلك للأقلية المسيحية ، التي تشبعت بالثقافة الأوروبية عن طريق الإرساليات التبشيرية ، و أدركت عظمة التراث العربي و حاجته للإحياء و التجديد ، فراحت تتفاخر به و تعتر بنسبها العربي، و بالحضارة العربية الإسلامية ؛ التي اعتبرتها إرثا مشتركا بين المسلمين و المسيحيين و اليهود على حد سواء . و في الوقت ذاته ، أظهرت تيرمها من الحكم التركي و كراهيتها للأتراك ، لكونهم أجانب و دخلاء عن تلك الحضارة ، فحصلت لديها القناعة بضرورة الانفصال عن الدولة العثمانية ، يدفعها في ذلك إحساسها بأنها تعيش على هامش الحياة السياسية ، بسبب التمييز الممارس ضد أفرادها لكونهم عرب مسيحيين و ليس مسلمين .

كل ذلك، جعل البيئة الاجتماعية الشامية ، جاهزة لظهور الفكرة القومية لدى النخبة المسيحية المثقفة ، على خلاف المسلمين الذي لا زالوا إلى غاية تلك الأثناء، متمسكين بالفكرة الإسلامية ، رغم اتفاقهم على وجوب استعادة التراث العربي و الإسلامي و حمايته . و جوهر الخلاف بينهما، كان حول التنظيم السياسي للكيان العربي ؛ حيث كان المسيحيون من أنصار الانفصال التام عن الدولة العثمانية، و تكوين دولة خاصة بالعرب ، في حين كان المسلمون يعتقدون بإبقاء الارتباط معها . و قد استمر هذا الخلاف حتى مطلع القرن العشرين ، حيث ضم المسلمون صوتهم لصوت المسيحيين (1) .

هذا و قد ظهرت الفكرة في بادئ الأمر ، في صورة نهضة لغوية و أدبية ( ظهور الرواية و المسرح ... إلخ ) ، أساسها التعليم و التأليف و الصحافة ، بدافع من المبشرين المسيحيين ، و بتجاوب من أفراد الطوائف المسيحية ، و من المثقفين الذين نهضوا بالأدب و اللغة العربية في هذه المرحلة : " فرنسيس فتح الله " ، " مراش " و أمين الشميل " ، " يوسف

(1) - محمد محمود بوعياذ ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 352 ، 353 ، 354 .

الأسير " ، " ميخائيل مشافة " ، " بطرس البستاني " ، " ناصيف اليازجي " ، " إسحاق و يعقوب صروف " ، " عبد الرحمان الكواكبي " ، " أمين الريحاني " ... الخ . أما المبشرون فنذكر منهم : الطبيب و المبشر الأمريكي " كورنيليوس فاندايك " ( C.VANDYCK ) ( 1818 م - 1895 م ) ، الذي كان يتقن اللغات اللاتينية و اليونانية و الهولندية ، و العبرية و السريانية و اللغة العربية ، و إليه يعود الفضل في تحقيق العديد من الكتب العلمية بالعربية ، و سار على دربه المبشرون البروتستانت و الكاثوليك ، و أساتذة الجامعتين الإنجيلية و اليسوعية و خاصة الأمريكيين منهم ، الذين درسوا باللغة العربية علوم الطب و الفيزياء و الرياضيات .

هذا و لا يمكن أن نهمل في هذا الصدد ؛ دور الجمعيات الثقافية مثل : " الجمعية السورية لإكتساب العلوم و الفنون " ، التي تأسست عام 1847 م في بيروت من قبل وجهاء المدينة من المسيحيين بمعاونة المبشرين الأمريكيين ، و كان من أبرزهم " ناصيف اليازجي " و " بطرس البستاني " ، و " الجمعية المشرقية " ( 1850 م ) ، التي كان رائد فن التمثيل المسرحي العربي " مارون النقاش " أحد أهم أعضائها . و " الجمعية العلمية السورية " ( 1857 م ) ، التي تعد أول جمعية عربية جهرت بالقومية العربية ، عبر صوت شاعرها " إبراهيم اليازجي " الذي أطلق قصيدة في ذلك ، تحولت إلى نشيد لكل القوميين العرب ، و قد جاء في مطلعها :

تتهبوا واستفيقوا أيها العرب      فقد طمى السبيل حتى غاصت الركب  
فيم التعلل بالأمال تخذعكم      و أنتم بين راحات القنا (\*) سلب

و من الجمعيات أيضا : " زهرة الإحسان " ، " شمس البر " ، " زهرة الآداب " ، " المقاصد الخيرية " . و قد كانت المحاضرات و المسامرات و المناقشات ، التي تدور في هذه الجمعيات ، يتم التركيز فيها على الفضل الكبير للعرب على الحضارة الإنسانية ، و وجوب عودة العرب إلى مسرح الأحداث .

و لعبت بعض الصحف و المجلات ، التي اشتهرت بلغتها العربية القومية ، دورا لا يستهان به في إعادة الحياة للغة العربية و آدابها ، حيث اعتبرت الفترة الممتدة بين 1860 م - 1882 م ، من أغنى الفترات في تاريخ الصحافة العربية ، و من أكثرها تأثيرا في التكوين

(\*) - القنا: العبودية . المنجد في اللغة و الاعلام .



السياسي، للنخبة العربية المثقفة في الحواضر الكبرى مثل: تونس و حلب و دمشق و القاهرة و بيروت ، و منها على سبيل المثال : " حديقة الأخبار " التي أسسها "خليل خوري" عام 1858 م ببيروت ، " الجوائب " ( 1861م ) التي أصدرها " فارس الشدياق " في الأستانة ، " الجنان " ( 1870 م ) " لبطرس البستاني " ، " المقتطف " لفارس نمر" ( 1876 م ) و " يعقوب صروف " ، " المقطم " ( 1888 م ) بمصر ، " الهلال " ( 1892م ) " لجورجي زيدان " ، " الضياء " ( 1898 م ) بيروت " لإبراهيم اليازجي " .

و علاوة على ذلك ، فقد شهدت هذه المرحلة أيضا، إنتاجا أدبيا غزيرا ، ظهر في مؤلفات قيمة أغنت اللغة و الأدب العربي القديم ، كمعجم "محيط المحيط" ، و "دائرة المعارف العربية" التي جاءت في ستة أجزاء " لبطرس البستاني " (1) .

و من ذلك يتضح لنا، أن الرواد الأوائل للقومية العربية ، قد استندوا على العامل اللغوي و العلاقة الحضارية الثقافية ، التي من شأنها صهر أبناء الوطن الواحد ، مهما تباينت شرائعهم و دياناتهم في وحدة متجانسة ، معتبرين إياهما باعنا نهضويا للأمة العربية - المستغرقة في التخلف و الانحطاط - انطلاقا من إدراكهم أن العروبة ليست عرقا أو جنسا، و إنما لغة و حضارة (2) . لكن هذه المطالب الثقافية ، تحولت تدريجيا إلى مطالب سياسية كما سيتضح في المرحلة الموالية .

#### - مرحلة المطالبة بالاستقلال التام للشام 1875 م - 1908 م :

تعتبر سنة 1875م، بداية لاتجاه المثقفين العرب نحو العمل السياسي ، حيث تأسست " جمعية بيروت السرية " من قبل مجموعة من طلاب الكلية السورية الأمريكية البروتستانتية ( الجامعة الأمريكية ) ، التي باشرت نشاطها السري بتوزيع المنشورات في شوارع بيروت و دمشق و طرابلس و صور ، و كان من أعضائها " نمر فارس " و " يعقوب صروف " و الشاعر " إبراهيم اليازجي " ، و قد حصرت مطالبها فيما يلي :

01 - منح سوريا استقلالها ، متحدة مع لبنان .

02 - الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

(1) - الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 61 و ما بعدها .

(2) - ينظر منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 189 و ما بعدها .

03 - إلغاء كل أشكال الرقابة و القيود المفروضة، على حرية التعبير و نشر المعرفة .

04 - أن تكون الخدمة العسكرية محلية<sup>(1)</sup> .

كما دعت الجمعية إلى الثورة عند اللزوم ، و هاجمت فساد الحكم التركي حاثه العرب على الثورة لإسقاطه ، و أمام تعاضم تأثيرها<sup>(2)</sup> ، لجأ السلطان "عبد الحميد" إلى تقويض نشاطها بطريقتين : بإغراء أعضائها و المتعاطفين معها بالمناصب، و بكل أنواع الحظوة و التقريب من جهة ، و بالقمع و الإرهاب من جهة ثانية<sup>(3)</sup> ، و لما اشتدت وطأتها على القومين ، فضلوا الهجرة إلى خارج الإمبراطورية في باريس و لندن و جنيف ، أين ظهرت " جمعية حفظة حقوق الملة العربية " ( 1882م ) ، التي ناشدت العرب من مسلمين و مسيحيين تحرير : (( بلادهم من العبودية الأجنبية دون أن ينتظروا حتى يباعوا إلى الدول الغربية ))<sup>(4)</sup> . و حضت على التآخي بين الطوائف المسلمة و المسيحية ، و بينت أن تركيا تسعى إلى تعميق فجوة الخلافات المفتعلة بينها ، لأنها كانت تخشى من إتحادها<sup>(5)</sup> .

و مع نهاية القرن التاسع عشر ، ظهرت شخصية قوية و جذابة ، استطاعت أن تعطي للحركة القومية العربية نفسا جديدا ، و هي "عبد الرحمان الكواكبي" ، الذي بحث في أسباب ضعف العالم الإسلامي عامة و أقطاره العربية خاصة ، بأسلوب بارع و عميق ، و دعا إلى ضرورة استعادة العرب لمكانتهم اللائقة بهم ، و لدورهم في تقرير مستقبل الإسلام و مصيره . و تكمن أهمية دعوة "الكواكبي" ، في كونها ميزت بين القومية العربية ، و الدعوة العامة للنهوض بالعالم الإسلامي . فإذا كان "الأفغاني" قد اعتبر العلم الإسلامي، يمثل رقعة جغرافية واحدة ، يقتضي الأمر أن تتوحد جميع أجزائه بقيادة خليفة ما، يشترط فيه أن يكون مسلما و فقط و لا يهم إذا كان عربيا أو أعجميا . فإن تصور "الكواكبي"، يقع على النقيض من ذلك ، لأنه عمد على التمييز على نحو واضح بين الشعب العربي و الشعوب المسلمة من غير العرب ،

(1) - علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 130 .

(2) - محمد محمود بوعياذ ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 355 .

(3) - جورج أنطونيوس ، المرجع السابق، ص 164 .

(4) - الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص 75 .

(5) - منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص 180 .

مستوحيا ذلك من الدور الذي قام به العرب أثناء ظهور الإسلام و انتشاره ، و من العلاقة الوثيقة بين العبقريّة و روح الإسلام ، و من المكانة المتميزة التي حصل عليها العرب، بفضل لغتهم و نسبهم . و لذلك أيد "الكواكبي" فكرة الجامعة الإسلامية تأييدا تاما ، لكنه في الوقت ذاته نادى بإلغاء حق السلطان في لقب الخلافة ، مشترطا مبايعة رجل عربي من قريش . و قد ساهمت هذه الأفكار ، في تحول قيادة الحركة القومية العربية تدريجيا، من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين .

و بالإضافة إلى أفكار " الكواكبي " ، نسجل ظهور الحركة التي قادها " نجيب عازوري " و هو عربي نصراني ، بباريس سنة 1904م ، أين أسس جمعية تحت اسم " جامعة الوطن العربي " ( LIGUE DE LA PATRIE ARABE ) بغرض تحرير الشام و العراق من السيطرة التركية ، و كان لسان حالها مجلة شهرية بعنوان " الاستقلال العربي " ( L'Indépendance ARABE ) (1) . و نشر "نجيب" كتابا باللغة الفرنسية: ( le réveil de la nation ARABE ) " يقظة الأمة العربية " ، الذي تضمن دعوة صريحة إلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على أن يحتضن الحجاز مقر الخلافة العربية ، و أن يتوحد الشام و العراق في دولة موحدة عصرية ، و زيادة على ذلك ، طلب بوحدة الكنائس الكاثوليكية تحت عنوان الكنيسة الكاثوليكية العربية (2) .

و إذا كانت هذه الحركة قد استطاعت ، أن تحدث بعض التأثيرات في أوروبا في تلك الفترة ، فإن أثرها على مستوى القومية العربية ، اتسم بالمحدودية و الضعف ، لأسباب عدة منها : الرقابة اللاحقة التي وقفت حاجزا ، أما وصول نداءاته و منشوراته إلى البلاد العربية - على نطاق واسع - . و باختصار إن الوعي القومي العربي في هذه المرحلة في منطقة الشام ، قد تميز بالنمو البطيء بفعل سياسة السلطان "عبد الحميد الثاني" ، التي حالت دون ذلك ، باستثناء الزخم الذي أحدثته " جمعية بيروت السرية " ، و حركة " عبد الرحمان الكواكبي " ، و الحركة الفكرية في مصر التي بقيت بعيدة عن متناول السلطان ، و تحولت مع مرور الزمن

(1) - جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 172 - 173 .

(2) - علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص ص 134 - 135 .

بالإضافة إلى باريس ، مركزين لالتقاء اللاجئيين السياسيين من خصوم السلطان (1) .

### - المطالبة باللامركزية داخل الدولة العثمانية : 1908م - 1913م

استبشر القوميون العرب خيرا بعد دستور 1908م ، و تحمسوا له تحمسا كبيرا ، اعتقادا منهم أن ساعة الحرية و الخلاص، قد جاءت أخيرا ، فانتشرت مظاهر الابتهاج و الاحتفال به في كل مكان . و ترجمة لذلك تأسست سنة 1908 جمعية عرفت باسم : " الإخاء العربي العثماني " في القسطنطينية ، بهدف : المحافظة على الدستور ، و توحيد جميع العناصر العثمانية في الولاء للسلطان ، و السعي إلى تحسين الأوضاع في المقاطعات العربية على أساس من المساواة الحقيقية، مع العناصر العرقية الأخرى التي تضمها الدولة ، و العمل على نشر التعليم باللغة العربية و تنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية و إتباعها ... إلخ . لكن (( شهر العسل )) على حد تعبير " جورج أنطونيوس " ، لم يدم طويلا بين القوميين العرب و الحكام العثمانيين (2)، حيث جاء قانون 23 أوت 1909، الذي منع قيام الجمعيات و الأحزاب ذات الأهداف القومية ، مما دفع بالقوميين العرب إلى العمل على الجبهتين : جبهة العمل العلني، و العمل السري .

فمن الجمعيات العلنية التي شكلت نذكر : " جمعية المنتدى الأدبي " التي ظهرت في الأستانة سنة 1909 م ، و مارست النشاط السياسي تحت غطاء النشاط الأدبي و الفني ، مستلهمة أفكارها من شخصية " غاريبالدي " أحد أبطال الوحدة القومية الإيطالية . و كان على رأس أهدافها ، إحياء الجامعة العربية ، و زرع روح التعارف ، و إحياء عاطفة الأخوة و التعاون بين العرب ، بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم ، حيث يتسع الوطن العربي للجميع . و منها أيضا " جمعية العلم الأخضر " ( 1912 م ) : التي أسسها بعض القوميين العرب في الأستانة . و " الكتلة النيابية العربية " ( 1911 م ) ، و " جمعية بيروت الإصلاحية " ( 1912 ) ، و " جمعية البصرة الإصلاحية " ، و " حزب اللامركزية الإداري العثماني " الذي أنشأ في مصر ( أواخر 1912 م ) بدعم بريطانيا ، الذي طالب بأن تكون الدولة العثمانية دولة نيابية دستورية ، على أن تدار الولايات العربية فيها على أساس لا مركزي إداري .

(1) - جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 173 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 175 و ما بعدها .

أما الجمعيات العربية السرية، فنذكر منها: "الجمعية القحطانية" التي تأسست سنة 1909 م في الأستانة، من قبل ضباط عرب في الجيش العثماني، و تمحور برنامجها حول : قيام إتحاد تركي عربي، يماثل الإتحاد الذي كان قائما في الإمبراطورية النمساوية المجرية، يكون فيه للولايات العربية الاستقلال الداخلي . و " جمعية الجامعة العربية " ( 1910 م ) ، التي أنشأها الشيخ "رشيد رضا" ، بغرض تأليف تحالف بين أمراء الجزيرة العربية ، و العمل على إزالة الخلافات بينهم ، و تحقيق التعاون بين الجمعيات العربية في الشام و العراق . و " الجمعية العربية الفتاة " ، التي ظهرت في باريس سنة 1911 م، على يد مجموعة من الطلبة العرب غالبيتهم مسلمين ، بهدف إيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة أو المستقلة الكبرى ، من خلال تمكين العرب من الحكم الذاتي ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية ، و قد تعرض الكثير من أعضائها للإعدام ، على أيدي الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى (1) .

#### 04 - المؤتمر العربي الأول بباريس ( جوان 1913 م ) :

انعقد هذا المؤتمر بين 18 و 23 جوان 1913 بباريس ، بدعم من فرنسا لكونه يستجيب لتطلعاتها الاستعمارية في سورية و لبنان ، و بإعداد من " الجمعية العربية الفتاة " و " لجنة الإصلاح البيروتية " ، و " حزب اللامركزية العثماني " المؤيد من قبل بريطانيا ، و حضرته قرابة 25 شخصية من لبنان و مصر و الأستانة و العراق و الشام و فلسطين و الولايات المتحدة الأمريكية و المكسيك ، و الجالية العربية بباريس ، ترأسه "عبد الحميد الزهراوي" ( 1855 م - 1916 م ) ، في غياب ممثلين عن الجزيرة العربية و المغرب العربي . و قد تداول المؤتمر مسألتين أساسيتين هما : الحقوق العربية في إطار الإمبراطورية العثمانية ، و الإصلاح من خلال منحهم الحكم الإداري الذاتي ، أما مسألة انفصال الولايات العربية عن الإمبراطورية فلم يتم طرحها إطلاقا (2) .

كان رد فعل الحكومة العثمانية ، سلبيا إزاء انعقاد المؤتمر ، فعملت على إفشاله بكل

الوسائل و الأساليب ، كمهاجمته في الجرائد الموالية لها ، و الاتصال بالحكومة الفرنسية

(1) - ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص 86 و ما بعدها . و أيضا على المحافظة، المرجع السابق ، ص 135 و ما بعدها

(2) - الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 92 و ما بعدها .

لإقناعها بمنع عقده على أراضيها ، و تحريض دعاة الجامعة الإسلامية ضده ، و إرسال برقيات التنديد و الاستنكار . لكنها في النهاية رضخت للأمر الواقع ، و أرسلت مبعوثا عنها للتفاوض مع المؤتمرين . و قد تمخضت عن المؤتمر القرارات التالية :

01 - أن الإصلاحات الحقيقية واجبة و ضرورية للمملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة .  
02 - من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، و ذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتركا فعليا .

03 - يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية، تنظر في حاجاتها و عاداتها .

04 - كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة، صودق عليها في 31 كانون الثاني 1913 م بإجماع الآراء، و هي قائمة على مبدئين أساسيين هما :توسيع سلطة المجالس العمومية ، و تعيين مستشارين أجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ هذين المطلبين .

05 - اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، و يجب أن يقرر هذا المجلس ، إلا في الظروف و الأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

06 - يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل مالياتها .

07 - يصادق المؤتمر و يظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية .

08 - سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

09 - و تبليغ هذه القرارات أيضا للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية . و يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها (1) .

يستشف من هذه القرارات، أن المؤتمرين أرادوا الظهور بمظهر الاعتدال، كما أنها كانت في مجملها إعادة للإقتراحات و المطالب، التي سبق و أن طرحت على الحكام العثمانيين في أكثر من مرة ، مشفوعة بتأكيد الحقوق السياسية الكاملة للعرب ، و بنصيبهم في المشاركة الفعالة في إدارة شؤون الدولة (2) . و إذا أردنا أن نقيم نتائج هذا المؤتمر ، نقول أنه و إن مثل خطوة نحو الأمام في مسار التيار القومي العربي ، فإنه في المقابل لم يشكل نقطة تحول حاسمة و يمكن تفسير إكتفائه بالمطالب المشار إليها ، بخوف قادته من رد الفعل العربي و الإسلامي

(1) - ينظر علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 148 و ما بعدها

(2) - جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 192

برفض فكرة الاستقلال العربي الكامل ، و هو ما حدث بالفعل ، حيث واجه انتقادات كثيرة من لدن شخصيات فكرية و إصلاحية، و أدبية و علمية، عربية و إسلامية ذات صيت كبير كأمر البيان "شكيب أرسلان" و للشاعر "معروف الرصافي" و غيرها (1) . أما موقف الحكومة الاتحادية العثمانية ، فقد كان ظاهره القبول بتلك المطالب ، و باطنه المراوغة و عدم الاكتراث بالقضية (2) ، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى، التي خلقت تطورا نوعيا في تعامل التيار القومي العربي مع الحكم العثماني ، بتحوله إلى العمل المسلح الذي ظهر في الثورة العربية الكبرى بقيادة " الشريف حسين " سنة 1916 م .

#### 05 - الثورة العربية الكبرى 1916 م :

مثلت الحرب العالمية الأولى ، الفرصة المناسبة للتحرك العسكري ضد الأتراك ، الذين لم يكتفوا برفض مطلب العرب بالحكم الذاتي ، بل راحوا يمارسون سياسة جديدة ضدهم، تقوم على الإقصاء و الإذلال و التتريك .يدفع العرب في ذلك ،تشجيع الحلفاء لهم و خاصة بريطانيا ، بفتح جبهة عسكرية ضد الأتراك حلفاء ألمانيا في الحرب العالمية . و بروز شخص "الشريف حسين" و أبنائه و طموحهم الشديد للحكم ، و استمرار الحكم العثماني في القمع و التسلط ، خاصة في عهد والي الشام "جمال باشا" ( 1873 م - 1922 م )، الذي عمد إلى إعدام مئات القوميين العرب شنقا، في الساحات العمومية ببيروت و دمشق أعوام 1915 م و 1916 م . بالإضافة إلى الأحوال الاجتماعية، التي ازدادت سوءا في الشام و العراق و الحجاز ، بسبب الحرب ، و جعلت السكان يموتون جوعا .

انطلقت الثورة من الحجاز يوم 10 جوان 1916 ، بدعم من الفرنسيين و الإنجليز ، الذين أمدوا "الشريف حسين" بالمال و السلاح و بالخبراء العسكريين، و على رأسهم ضابط المخابرات البريطاني " توماس إدوارد لورانس " ( 1888 م - 1935 ) ، و قد تمكن الجيش العربي بفضل تلك المساعدات ، و بفضل شجاعة بعض المقاتلين العرب ، من تحرير أغلب الجزيرة العربية و دخول الشام ، فيما احتل الجيش البريطاني فلسطين في ديسمبر 1917 م ، بعد معارك طاحنة مع الأتراك ، خلفت آلاف القتلى من الجانبين . و بعد انتهاء الحرب ، تنكر الحلفاء و خاصة

(1) - ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 97

(2) - جورج أنطونيوس ، المرجع السابق ، ص 194 و ما بعدها

بريطانيا ، من كل الوعود التي قدموها " لشريف حسين " ، حيث تبين أن اتفاقيات سرية انعقدت بين تلك الدول من أجل تقاسم المنطقة العربية فيما بينها من ناحية ، و بزرع اليهود في فلسطين بعد أن تضع الحرب أوزارها " اتفاقية سايكس بيكو 16 ماي 1916 م " . و بذلك تكون الثورة العربية، قد عجزت عن تحقيق هدفها الأساسي الذي اندلعت لأجله ، و هو قيام دولة عربية على الأقل في المشرق العربي ، و الحيلولة دون تقسيم المنطقة بين الدول الكبرى . وقد أوعز الدكتور الهادي التيمومي <sup>(1)</sup> ذلك إلى عوامل خارجية، و أخرى داخلية و هي :

- العوامل الداخلية : و تتمثل في :

01 - معارضة الدول الاستعمارية الكبرى ( فرنسا و بريطانيا )، نشوء دولة عربية موحدة ، تمتد على مساحة جغرافية كبيرة مثل المشرق العربي ، قد تهدد مصالحها في المنطقة .

02 - وقوف غالبية العرب و المسلمين ضد الثورة ، اعتقاد منهم أنها تعد تمردا على الدولة الشرعية و على الإسلام .

- العوامل الخارجية : و تتمثل في :

01 - عدم إدراك قادة الثورة العربية لحقيقة الإمبريالية ( بريطانيا و فرنسا ) ، و اغترارهم بوعودها الكاذبة .

02 - التخلف الاقتصادي و العسكري و الثقافي .

03 - الطبيعة البدوية للحركة .

04 - عدم الاستفادة من عامل الزمن ( التأخر في إعلان الثورة ) .

05 - استبداد "الشريف حسين" ، الذي جعل الكثير من الضباط و القوميين الأكفاء ينفرون منه .

06 - محدودية الصلابة النضالية ، بفعل نقص التجربة السياسية .

07 - فقدان الحركة لأغلب قادتها و مؤطريها ، بفعل إعدامهم من قبل " جمال باشا " .

08 - وجود فجوة بين الحجازيين و الشوام ( أهل الشام ) ، أدت إلى استحالة التعاون بينهم .

09 - حصر مطلب الوحدة العربية و الاستقلال في الجزء الآسيوي فقط من المنطقة العربية دون الجزء الإفريقي .

(1) - ينظر الهادي التيمومي ، المرجع السابق ، ص 103 و ما بعدها .



- 10 - غياب برنامج واضح للثورة ، و افتقادها لأي مضمون اقتصادي و اجتماعي .
- 11 - اقتصار الدعاية فيها على المرجعية الإسلامية ، و إغفالها للمرجعيات القومية ، الأمر الذي قلل من حماس العرب المسيحيين .
- فترة ما بين الحربين العالميتين :

تميزت هذه المرحلة، من تاريخ الحركة القومية العربية في بدايتها، بظهور الوعي السياسي الإقليمي و الولاءات الإقليمية ،بالموازاة مع الوعي القومي و الولاء القومي ، مع طغيان الأول على الثاني . أما في أواخرها، فقد شهدت بروز تيارات فكرية جديدة في المجتمع ، بتأثير الأفكار الثورة البلشفية التي انتصرت في روسيا ، و الحركتين النازية في ألمانيا و الفاشية في إيطاليا ، زيادة على التيارات الفكرية الأوروبية، التي قامت على المذهب الفردي و النظام الديمقراطي . فقد تحولت الجمعيات السرية، و الحركات السياسية ذات الصبغة القومية ، إلى أحزاب سياسية على شاكلة الأحزاب السياسية الأوروبية ، و ركزت مطالبها في الاستقلال و الحياة الدستورية ، إقتداء بالنظم الديمقراطية الأوروبية .

كما ظهرت أحزاب، اتخذت من الفكر النازي أو الفاشي أو الشيوعي، مرجعية لها ، و أخرى نادى بالقومية في إطار الديمقراطية السياسية، أو في إطار الديمقراطية الاجتماعية .

كما ظهرت حركات من نوع آخر ، كالدعوة إلى المغرب الكبير في شمال إفريقيا ، و وادي النيل في مصر و السودان ، و سوريا الكبرى ... و غيرها (1) .

#### - فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

ظل الوعي القومي العربي، رغم كل شيء ، حيا في النفوس و خاصة لدى المثقفين ، لكنه استمر في حالة السكون و الضعف، لدى عامة الناس مغلفا بالعاطفة الدينية ، بسبب الظروف الدولية ، و خضوعه لإرادة الزعماء السياسيين و طموحاتهم الشخصية . و لعل أبرز حدث على الساحة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، هو ميلاد جامعة الدول العربية في 22 مارس 1945 م ، التي ورد في ميثاقها أنها جاءت : (( تنبيها للعلاقات الوثيقة و الروابط العديدة بين الدول العربية و حرصا على دعم هذه الروابط و توطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول و سيادتها و توجيهها لجهودها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة و صلاح

(1) - ينظر محمد محمود بوعياذ ، و اخرون ، المرجع السابق ، ص 360 و ما بعدها

أحوالها و تأييد مستقبلها و تحقيق أمانيتها و آمالها و استجابة للرأي العربي العام في جميع الأقطار العربية )) .

و قد بعثت هذه المبادرة ،الأمل لدى الشعوب العربية ، في أن تكون خطوة تتبعها خطوات أخرى، لوضع مشروع الوحدة العربية موضع التجسيد في أرض الواقع ، لكنها لم تكن كذلك ، بفعل طغيان المصالح الطائفية أو الحزبية ، و استشراف الخلافات و الصراعات السياسية بين الأنظمة العربية الحاكمة (1) . ليظل حلم الوحدة العربية، يراود الكثير من أبناء و مفكري الوطن العربي ، و هو : (( أمل كلما اقتربت السبل إلى تحقيقه ، تكاثفت الظروف لتبديده ، و تبقى دائما المعضلة الصعبة في أن أشد مناطق العالم اتصالا بوحدة الدين و اللغة و الثقافة و التراث الحضاري و الامتداد الجغرافي و الترابط العضوي اقتصادا و أمنا ، هي أشدها تعثرا في إيجاد صيغة لوحدة شتاتها في عصر ذابت فيه الكيانات الصغيرة في تجمعات أكبر ، و تسامت على عوامل فرققتها و ماضي الصراعات بينها دول عديدة في مختلف المناطق الأخرى من العالم )) (2) .

و منه نستنتج، أن الحركة القومية العربية ، قد كانت انعكاسا لعوامل داخلية، يمكن حصرها في الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية السيئة، التي كانت تعيشها الشعوب العربية في ظل الحكم العثماني، الذي أمعن خلال فترة ضعف الإمبراطورية ، في الفساد و القمع و التعسف، و إسكات الأصوات المتطلعة إلى الحرية و الاستقلال . و قد أخذت العلاقات بين الطرفين أشكالا صدامية ، تمكن الحكام العثمانيون من حسمها لصالحهم، في أغلب الأحيان . و كانت انعكاسا لعوامل خارجية ، لتأثرها بالمد القومي الذي اجتاح القارة الأوروبية ، بعد نجاح الثورة الفرنسية سنة 1789 م ، و بالتشجيع المادي و المعنوي الذي كانت تتلاقاه من الدول الاستعمارية الكبرى، ممثلة في بريطانيا و فرنسا ، التي استطاعت احتواء الحركة القومية العربية ، و وجهتها الوجهة التي تخدم تطلعاتها الاستعمارية في المنطقة .

(1) - ينظر محمد محمود بوعياذ ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص ص 372 - 373 .

(2) - أحمد محمود جمعة : إنشاء جامعة الدول العربية : مقدماتها و تطورها ، ج 1 ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 2006 ، ص 07 .

و لقد استقطبت تلك الحركة، شريحة واسعة من رجال الفكر و الإصلاح العرب ، الذين انقسموا فيما بينهم إلى؛ فريق تبني كل طروحاتها الفكرية و السياسية و أهدافها المعلنة، و فريق أيدها من حيث المبدأ، لكنه تحفظ على بعض توجهاتها و ممارساتها ، خاصة ما تعلق منها بالثورة المسلحة على الأتراك ، و التعاون مع بريطانيا و فرنسا .

## المبحث الثاني : بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي و أرسلان

### 01- بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي :

استهل الشيخ البشير الإبراهيمي حديثه ، عن بواعث الوحدة العربية ، و الفوائد التي يجنيها العرب من ورائها ، بالقول أنه حينما يفكر في قومه العرب ، يجدهم يتخبطون في مشاكل و أزمات لا نهاية لها ، يمتحنون في كل عام مرة أو مرتين ، لكنهم لا يستخلصون الدروس و لا يعتبرون منها ، لا يكادون يقطعون خطوة إلى الأمام ، إلا و تأخروا خطوات إلى الوراء ، فلقد أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة وضيعة <sup>(1)</sup> .

و يعتبر أن أكبر علة أصابت العرب ، انقسامهم إلى دويلات و إمارات يحكمها ملوك و أمراء ، الأمر الذي منع أن تكون لهم دولة واحدة جامعة ، لأنهم في الأصل أمة واحدة ، تسكن رقعة جغرافية واحدة ، لو حدث ذلك لما تجرأ الاستعمار على التفكير ، في غزوهم و احتلال بلدانهم .

و يضيف مواصلا حديثه ، بأن أصل داء العرب التفرق و الخلاف ، بدأ بسيطا في الدين ، ثم أخذ يكبر في الأمور الدنيوية ، ثم تشعب و تعاضم و شمل كل مناحي الحياة ، و كان من مظاهره :

- 01- التخاذل و الأنانية ، و وهن العزائم .
- 02- عدم الاعتداد بالنفس ، و عدم الثقة بالأخوة .
- 03- تعدد الزعماء و الأحزاب ، في البلد الواحد .
- 04- ضعف العقيدة ، و فساد الرأي .
- 05- بيع الذمم و الضمائر ، و التفريط في المصالح الوطنية .
- 06- التفكير السطحي ، و اعتبار التضحية أقوالا .
- 07- إتباع الأهواء ، و الزعامات المزيفة .
- 08- اعتبار النصر تصفيقا .
- 09- مقابلة القضايا المصيرية ، بالاستهتار و اللامبالاة <sup>(2)</sup> .

(1)- محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص 483 .

(2)- المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 301 و ما بعدها .

و من الواضح، أنه يعتبر أن غياب الوحدة الجامعة بين العرب ، هو السبب في كل ما يعانونه من مشاكل و أزمات ، و أن التفرق و الخلاف يمثلان أكبر المعوقات ، في سبيل تحقيقها في أرض الواقع ، و أن كان قد أقر بأنهما بدأ بداية بسيطة في الدين ، قبل أن يستقحلا و يشملا كل المجالات و الميادين ، فإنه أرجعهما إلى القادة و الحكام، الذين حملهم نسبة كبيرة من المسؤولية في ذلك .

و الواقع، أنه في الوقت الذي كان فيه الإبراهيمي ، و غيره من قادة الفكر و الرأي العرب ، ينادون بالوحدة و التكتل ، لمواجهة تحديات العصر السياسية و الاقتصادية و الحضارية ، كانت هناك اتجاهات فكرية متنوعة تغذي النزعة الإقليمية الضيقة في البلاد العربية . ففي مصر ظهرت فئة المتشددين من المصريين ، الذين غالوا كثيرا في الحديث عن جمال مصر و مصالحتها الوطنية ، و قد أخذت الحركة منحى تصاعديا بعد ثورة "سعد زغلول" ( 1857 م - 1927 م ) سنة 1919 م (\*) ، و أصبحت تدعوا إلى الفرعونية ، و إلى إقامة جامعة مصرية ، و إلى انسلاخ مصر عن الأقطار العربية ، و الانطواء على الهوية المصرية البحتة <sup>(1)</sup> .

و على حد قول الإبراهيمي ، فإن هذه الحركات العنصرية، تستهدف في حقيقة الأمر العروبة ، التي تحولت في حد ذاتها لدى العرب المتأخرين ، إلى مشكلة تتفرع عنها مشكلات أخرى غاية في التعقيد و التداخل ، فقد أصبحت وسيلة لكل ذي مصلحة ، و لكل طاعن فيها ، و سبيلا لأبنائها الذين يتسللون من خلالها لتحقيق نواياهم العنصرية الضيقة ، فمنهم من ناشد الفرعونية أو الفينيقية ( \*\* ) أو البربرية ( \*\*\* )، فيتخذ البعض من شعره الأشقر و عينيه

(\*) - دعا متزعمو الحركة الفرعونية ، إلى إقامة أدب مصري خاص يتميز عن الأدب العربي ، إتخذوا من الصحف و الندوات منبرا لدعايتهم ، رسموا رأس " ابي الهول " على الطوابع البريدية و الأوراق النقدية ، مثلما فعل الأتراك بالذئب الأغير ، كما وضعوا امام كل كلية من كليات الجامعة المصرية تمثالا و معبودا من المعبودات الفرعونية ، شجعوا إستخدام الزخرفة و النقش المصري القديم في الأبنية الحكومية ، نقلوا رفاة سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بني علي الطراز الفرعوني . ينظر محمد محمد حسين ، المرجع السابق ، ص 50 و ما بعدها .

(<sup>1</sup>) - منذر معاليقي ، المرجع السابق ، ص ص 167 - 168 .

(\*\*) - الفينيقية : نسبة إلى الفينيقيين ، و هم شعب سامي إستوطن لبنان في القرن الثامن الميلادي ، وإمتزج

الزرقاوين حجة لنفسه ، من تلك العنصريات <sup>(1)</sup> . و قد وصف هذا الصنف من أبناء العرب ، بضعفاء الفكر و النفس من الذين : (( أشربوا في قلوبهم الذل فرئموا الذل ، فرئموا الذل و المهانة ، و استحبوا الحياة الدنيا فرضوا بسفاسفها ، و نزل الشرق بنفوسهم بدار غريبة فلم يقم ، و نزل الهوان منها بدار إقامة فلم يرم ، و أصبحوا يتوهمون كل حركة من إسرائيل ، أشباحا من عزرائيل )) <sup>(2)</sup> .

و من المنطقي بالنسبة إليه ، أن يكون لهذا الوضع آثار سيئة و عميقة على المجتمع العربي برمته ، حيث توسعت الهوة بينهم و بين الأمم الأخرى ، التي أضحت رائدة في العلم و العمل و الصناعة و الحضارة ، بفضل أبنائها المخلصين ، بينما نجد أبناء العروبة يستحون من الانتساب إليها ، و يتبرؤون منها ، إذا ما خالطوا أبناء تلك الجنسيات ، لما يشعرون به أمامهم من ضعف و استصغار لأنفسهم . و حتى العروبة كلغة ، باتت مهددة بالطرانات الأعجمية التي

بشعوب ما قبل التاريخ ، إنتشر على سواحل البحر الأبيض المتوسط بين أوغاريت ( راس شمرا ) و جبل الكرمل ، أنشأ مدنا دولا من أهمها : ( جبيل ، صور ، صيدا ، بيروت ، أرواد ) ، إرتبطوا بعلاقات وطيدة مع الفراعنة ، مدوا نفوذهم التجاري حتى " حماه " و " دمشق " ، أسسوا المصارف و المتاجر و المستعمرات على شواطئ المتوسط ، وصلوا إلى إسبانيا ( بلاد ترشيش ) بحثا عن الفضة و القصدير ، شيّدوا مراكز هامة على الشاطئ الإفريقي من أهمها : ( قرطاجة ، سبراطة ، حضرموت ) ، في أوروبا : ( ملقة و قادش في إسبانيا ، و مالطة ) . إكتشفوا الأبجدية في أوغاريت و طوروها ، برعوا في صناعة الصوف المصبوغ بالأرجوان و الفخار ، و أدوات الزينة و التبرج ، خلفوا آثار هندسية رائعة : ( الهياكل ، الأسوار ، القبور ، النواويس ، الرسوم الناتئة ، التماثيل ) . قامت ديانتهم على القوى الطبيعية ، و من أهم آلهتهم : البعل و البعلة ، عشتروت و هداد . المنجد في اللغة و الإعلام .

(\*\*\*) - البربرية : نسبة إلى البربر ، و هم قدماء سكان شمال إفريقيا من " برقة " إلى المحيط الأطلسي ، عرفوا منذ العهد الروماني بتمردهم و ثوراتهم ، من أشهر ممالكهم القديمة نوميديا و موريتانيا ، اعتنق أغلبهم الديانة الإسلامية على يد الصحابي الفاتح " عقبة بن نافع " ، شاركوا في فتح إسبانيا بقيادة " طارق ابن زياد " ، أنشأوا خلال العهد الإسلامي عدة دول منها : الأغالبة و الرستميين ، و المرابطين و الموحديين . المنجد في اللغة و الإعلام .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص ص 149 - 150 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 483 .

غمرتها ، و اللهجات العامية التي مزقتها ، و اللهجات الأجنبية التي نافستها ، عن طريق أبنائها من ضعفاء الهمم و العزائم <sup>(1)</sup> .

و بالتالي، فإن غياب الوحدة من وجهة نظره ، ليس لها نتائج سلبية على الصعيد السياسي فحسب ، بل تعدت إلى الأصعدة الحضارية و النفسية ، فأصبح الانتساب إلى العروبة مجلبة للشعور بالنقص و التخلف ، لدى أبناء العرب عامة و الشباب منهم خاصة ، و ذهب إلى أكثر من ذلك، حينما اعتبر اللغة العربية مهددة بالانقراض ، إن استمروا بالتعامل معها مثلما هم عليه في تلك الأثناء .

و الحق أن اللغة العربية ، قد تعرضت في عصر الشيخ الإبراهيمي ، إلى انتقادات كثيرة من الناشئة و الشباب على وجه الخصوص ، واصفين إياها بالضعف لسببين هما :

- كونها لغة صعبة و معقدة ، لا يماثلها في تعقيدها ، شيء من اللغات الموجودة في العالم .  
- أن العرب بين سائر الأمم يعانون من ازدواج ، ناشئ من كونهم يفكرون و يستخدمون في معاملاتهم لغة عصرية عملية ، ثم ينقلون ذلك التفكير إلى اللغة العربية القديمة و المعقدة ، لما يكتبون أدبهم و يسجلون علومهم .

و ينتهي أصحاب الرأي الأول ، إلى المطالبة بإعادة النظر في قواعد اللغة العربية ، نحوها و صرفها ، و إعادة تبويبها و تشكيلها ، و حتى باستبدال الخط العربي و اعتماد الحروف اللاتينية . بينما انتهى أنصار الاتجاه الثاني ، إلى اعتبارها لغة ميتة عاجزة عن التفاعل مع الحياة ، و مسايرة تطوراتها ، و غير صالحة لتدوين العلوم و المعارف الحديثة ، و وضع المصطلحات لمبتكرات الحضارة المعاصرة ، و أن الازدواج يعطل الملكات ، و يشل و يكبح انطلاقها ، و هو في نظرهم أحد أسباب تخلف العرب و عجزهم عن الابتكار <sup>(2)</sup> .

لقد دافع الشيخ البشير الإبراهيمي في كتاباته ، عن خيار الوحدة العربية بحماسة شديدة ، بتعدد و شرح الدوافع التي تجعل منها ضرورة و حتمية للعرب ، و بتبيان الفوائد الجمة التي يجنونها منها ، فأما الدوافع فقد حصرها في ثلاثة و هي:

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، ج 5 ، مصدر سابق، ص ص 149 - 150

(2) - للمزيد ينظر محمد محمد حسين ، المرجع السابق ، ص 146 و ما بعدها .

فأما الدافع الأول : فيتمثل في أن العصر الذي نعيشه ، ينفرد بكونه عصر التكتل و القوة العددية ، فالأمم القوية تسعى جاهدة لكي تتكتل و تتكاثر عدديا ، رغم أنها تفتقر إلى مقومات الوحدة ، فكيف بالعرب و هم إخوة يشتركون فيما بينهم في الدم و اللغة و الخصائص العرقية ، لا يتكتلون و لا يتحدثون ؟ <sup>(1)</sup> . و في هذا السياق، دعا عرب المغرب العربي ، إلى التمسك بخيار الوحدة و التكتل ، قائلًا بأن بلدانهم قطع متجاورة متصلة الأجزاء بالمشرق العربي ، و أن سكان هذه القطع يمثلون نصف عدد العرب تقريبا ، فإذا استمرت القطيعة و عدم التعاون بينهم و بين المشرق كما هو حاصل ، وجدت في ذلك أوروبا فرصة سانحة لبسط سيطرتها على بلاد المغرب ، و ضمها إلى سيادتها إلى الأبد ، و النتيجة أن العرب سيخسرون بذلك نصف عددهم <sup>(2)</sup> .

أما الدافع الثاني : فهو حتمية الوحدة لطرد الاستعمار الغربي من بلادهم ، الذي وعدهم خلال الحرب العالمية الأولى ( 1914 م - 1918 م ) ، بوحدة تكون جامعة لشملهم ، و مناهم بخلافة تعيد لهم مجدهم الضائع ، و ملك لا حدود له يجعلهم سادة و أقوياء ، شريطة أن يكونوا وقودا للحرب التي أشعلها . فلما تحقق له الانتصار ، قام بتمزيق بلدانهم ، و تجزئة أوطانهم إلى أمم شتى ، و ضرب بعضهم ببعض ، ليتسنى له السيطرة عليهم ، و استغلال خيراتهم و ثرواتهم جميعا دون استثناء ، فتحولوا بذلك من طامعين في الغنيمة إلى غنيمة .

و لما جاءت الحرب العالمية الثانية ( 1939 م - 1945 م ) ، التي تمثل امتدادا للأولى في الأسباب و الملابسات ، قام الاستعمار بتجديد عوده و عهوده لهم بشكل آخر ، و قد نجح في ذلك ، لأنه وجد في العرب سرعة الانخداع بحيله و أكاذيبه ، بعد أن هياهم لتقبلها أثناء الفترة الفاصلة بين الحربين . و لما انتصر مرة ثانية، كافأهم على تضحياتهم ، بانتزاع فلسطين منهم و إهدائها لليهود على مرآهم و مسمعهم ، جاعلا من الدولة الإسرائيلية شوكة في جسدهم ، لا يقر لهم معها قرار و لا يهدأ لهم بسببها مضجع ، فإن تركوها أهلكتهم و إن حاولوا إستزاعها آلمتهم <sup>(3)</sup> .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 279 .

(2) المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 156 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 81 .



و يضيف الإبراهيمي في هذه النقطة ، أنه إذا كان الاستعمار على درجة كبيرة من القوة ، كما يتصور العرب ، فإنهم في الحقيقة إنما يزيدونه قوة بتخاذلهم و تفرقهم ، و تطاحن هيئاتهم ، و إضاعة أوقاتهم في الجهل الفارغ ، و الانسياق مع الأهواء المضللة ، التي فوتت عليهم فرصة استغلال الكفاءات الذاتية التي في حوزتهم : (( و هيئات أن يحي وطن ، أو يستقل بالهتافات المتوددة من الحناجر ، بين يحيا فلان و يسقط فلان )) (1) .

و يظهر لنا هنا ، أن الشيخ يسخر من الشعور العام، الذي كان سائدا لدى العرب آنذاك ، من أن الاستعمار قوة لا تقهر ، و لذا وجب الاستسلام له و الانقياد إليه ، و قد وظف الاستعمار هذا الوضع من أجل إبقاء هيمنته ، و تأمين وجوده .

و مثلما كان غياب الوحدة سببا مباشرا أو عاملا أساسيا ، في فرض الهيمنة الاستعمارية الغربية على بلاد المغرب في العصور السابقة (2) ، فإنه برأي الإبراهيمي أن العرب لو تحلوا بشيء من روح التضامن ، لما تركوا مثلا الجزائر تواجه مصيرها لوحدها أمام الاستعمار الفرنسي ، و لأدركت ضمائرهم أن الاستعمار : (( غول )) ، إن تركوه يتغذى بالجزائر فسوف يأتي الدور عليهم ليتعشى بهم ، و قد كشفت الأيام صحة ذلك (3) .

أما الدافع الثالث للوحدة : فهو القضية الفلسطينية ، التي عدها وصمة عار في جبين العرب ، فضحت تخاذلهم رغم أنهم مجتمعون ، فكان وقعها شديدا على أنفسهم . لكنها و رغم ذلك يمكن أن تكون عاملا إيجابيا لهم ، فلا شيء يجمع القلوب مثل المصائب ، التي من شأنها أن توقظ المشاعر و الأحاسيس ، إذا كانت عامة .

و في هذا الصدد، طرح جملة من التساؤلات إزاء نكبة فلسطين ، التي عدها من أكبر المصائب التي حلت بالعرب منها: إن أدت إلى جمع مشاعرهم ؟ ، أو أعادت الإدراك إلى عقولهم ؟ ، و هل أزلت ما كان في أنفسهم من أنانية و أثره ؟ ، و ما كان يسود بينهم من تنافس و صراع لا يخدم إلا عدوهم ؟ .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 303 .

(2) - ناصر الدين سعيدوني : الجزائر منطلقات و آفاق ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م ، ص ص 416 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 301 .

و يجيب قائلا: بأنها إن كانت كذلك ، فإنها تكون عندئذ نعمة ، ينبغي أن نشكر عليها الصهاينة شكرا جزيلا ، فقد جلبوا لنا الخير بينما أرادوا منا الشر : (( و أي نعمة أعظم من نعمة تجمع شمل العرب ، و توحد كلمتهم ، بعد هذا التفرق الذي ترك الجزيرة رقعا ملونة بألوان شتى )) (1) .

نستشف من ذلك، أنه كان ينظر إلى نكبة فلسطين نظرة إيجابية ، بررها بكونها قد تكون بداية لجمع المشاعر المتفرقة ، و إعادة الإدراك الغائب إلى العقول ، و القضاء على الأمراض النفسية المستفحلة ، من أنانية و أثره و تنافس و صراع .

فهي قضية الجميع ، خاصة إذا علمنا أن الاستعمار الغربي ، أراد من خلال إنشاء الكيان الإسرائيلي في أرض فلسطين ، جعله حاجزا بين قسمة الوطن العربي الإفريقي و الآسيوي ، أي لمنع قيام أي كتلة أو وحدة عربيين (2) .

و بعد استعراضه لدوافع الوحدة ، يوجه الإبراهيمي جملة من النصائح للعرب استكمالاً لما قاله سالفا و منها :

01 - أنه على العرب أن يدركوا أن عدوهم واحد ، فليواجهوه في الميدان برأي واحد و صف واحد ، و لو فعلوا ذلك و أخلصوا لسعت إليهم الحرية تركض ، و لكن عدوهم على علم و دراية بتلك النقائص المتفشية فيهم ، و لذلك فهو نائم ملء عينيه ، مادام يراهم مستغرقين في تلك الحال ، و الحل هو أن يبادروا إلى إزعاجه و قض مضاجعه : (( أزعجوه و أفضوا مضاجعه بإتحاد لا يتزعزع ، و عزائم لا تنزل ، و أخلاق يذعن لها الجبابرة ، و يومئذ تجدون الاستعمار و قوته و أساليبه و تخيلاتكم كلها باطلا في باطل ، و تجدون منها ما يجده الخائف من الغول الذي لا حقيقة له )) (3) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق، ص 242 .

(2) - عبد الوهاب محمود أطرش : " الصهيونية من الخداع الإيديولوجي إلى الرؤية القاصرة " ، مجلة العربي ، الكويت : العدد 516 / 2001 م ، ص ص 168 - 169 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 303 .

02- ضرورة استبدال الوطنيات الضيقة بالوطنية الجامعة الواسعة ، لأن الاستعمار لو وجد العرب كتلة موحدة ، لما تسنى له أن يستولي على بلدانهم الواحد تلو الآخر : ((... و لما رأيناه يطير كالديك من غصن إلى غصن ، و يؤذن على كل غصن بأذان ... ))<sup>(1)</sup> .

3 - أن اللغة الوحيدة التي يفهما هذا الاستعمار المتاله ، ليست لغة المجاملات ، و إنما لغة القوة و المعاملة بالمثل ، و التي تجعله يحترم حقوق العرب ، و لا يتعدى عليها<sup>(2)</sup> .

4 - أنهم لن ينالوا الحرية ، إلا ببذل مهرها و هو المال ، و بالدماء التي تراق و النفوس التي تزهرق ، و توطين الأنفس على تحمل الشدائد و مواجهة المكاره فتحرير الوطن يتطلب تقديم الثمن الباهظ ، و هو واجب لا يتم إلا بالإخلاص و الإتحاد و الكلمة الجامعة ، و الصفوف الموحدة ، و الخطط المنظمة ، و الصبر على البلاء الذي يحل بهم في الأنفس و الأموال ، و هو بلاء مهما عظم فإنه يبقى في نظر الشيخ دون جسامة بلاء الاستعمار<sup>(3)</sup> .

5 - إن السبيل الوحيد لانتزاع شوكة إسرائيل المنغرزة في الجسم العربي ، لا يكون إلا بقطع اليد التي غرزتها و هي الاستعمار : (( و ليت شعري بماذا يعد هذا الشيطان العرب في الحرب الثالثة و نذرنا تتوالى ؟ إنه سيغير الأسلوب ، و يأتي كطالب الغيث بالرداء المقلوب ، فهل يلدغ العرب من جحر واحد ثلاث مرات ؟ ))<sup>(4)</sup> .

من الواضح هنا، أن الإبراهيمي ، يجعل من الوحدة الحل الأفضل لكل المشاكل و التحديات الكبرى ، التي كانت تواجه العرب في عصره ، و التي وضع على رأسها الاستعمار ، الذي تعد محاربتة مفتاحا لحل و تصفية كل القضايا ، فقد أقنعهم بالانخراط في مخططاته في المنطقة العربية ، مقابل وعود لم يوف بأي منها ، بل أكثر من ذلك أنه بسط سيطرته التامة عليها ، و أهدى فلسطين للحركة الصهيونية العالمية ، لتقيم و طنا قوميا لها عليها. و في هذا يتفق مع السيد "جمال الدين الأفغاني" ، و تلميذه الشيخ "محمد عبده"، اللذان نبها إلى خطر الاستعمار الغربي المحدق بالجميع ، و حذرا من استمرار الانقسامات و تشتت الآراء،

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الإثار، ج 2 ، مصدر سابق، ص 233 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 303 .

(3) - المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 233 .

(4) - المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 93 .

و تعاضم الخلافات ، خاصة بين الأمراء و الحكام العرب و المسلمين على حد سواء ، التي كان الاستعمار يذكرها بشتى الأساليب و الطرق ، و حثا على توحيد الكلمة و الرأي : كسيل و حيد للوقوف في وجه الاستعمار الأوروبي المتربص بهم <sup>(1)</sup> .

و قد أقسم الإبراهيمي، في ختام حديثه في هذه القضية ، أن لا مخرج للأمة من قبضة الاستعمار بمواجهته فرديا ، و إنما المخرج الوحيد هو الالتفاف عليه كأمة واحدة ، موحدة في الرأي و القيادة و العواطف ، و دون ذلك مستحيل : (( أما و الله لن نفلت من مخلب الاستعمار فرادى ، و لن نفلت منه إلا يوم نصبح أمة واحدة تلقى عدوها برأى واحد ، و قائد واحد ، و قلب واحد ، فإن لم نفعل فلا نلم الاستعمار ، و لنلم أنفسنا )) <sup>(2)</sup> .

(1) - ينظر محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 186 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 93 .

**02- بواعث الوحدة العربية في كتابات أرسلان :**

بدأ الأمير دعوته إلى الجامعة العربية سنة 1922 م ، عندما حاول رفقة بعض رفاقه المنشغلين في تلك الأثناء بالقضية العربية ، كشف النقاب عن حقيقتها . و في سنة 1923 م ، نشر بيانا بليغا موجها إلى العرب شعوبا و ملوكا ، وزعت منه آلاف النسخ ، دعا فيه الجميع إلى الجامعة العربية ، طالبا منهم تكوين كتلة عربية موحدة ، مبينا الخطر المحدق بهم ، إن إستمروا في تخاذلهم و تفرقهم . و قد عاد سنة 1931 م ، مبشرا بالجامعة أو الحلف العربي ، و داعيا إليهما ، و من جملة ما قاله في هذا الإطار ، أن حلم الجامعة العربية قد طال انتظاره ، و أنه لا جدال في أن لا حياة و لا وجود للعرب في هذا العصر، و ما يأتي بعده إلا بالإتحاد و التكتل ، لكونهما الوسيلة الوحيدة ، لمواجهة الاستعمار ، الذي بسط سيطرته على أجزاء هامة من الوطن العربي ، و هو مستعد لضم المتبقية منها إلى دائرة نفوذه (1) .

و في سنة 1937 م ، ألقى محاضرة عن الوحدة العربية في النادي العربي بدمشق ، قرر خلالها أن الوحدة العربية ضرورة حيوية ، لتحقيق الأمن و الاستقرار لدى الشعوب العربية ، و لكي تتمكن من الوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية . فلم يعد ممكنا حسبه أن يعيش العرب مشتتين ؛ مليوننا في هذا القطر ، و مليونين في ذاك القطر ، و ثلاثة ملايين في ذلك القطر ، لا يرتبطون فيما بينهم إلا باللغة ، و هم على علم بأن القوى الكبرى الهائلة التي تمتلكها الدول الاستعمارية ، التي تقود مائة مليون من البشر، و منها ما يحصي أربعمائة مليون ، أن لا أمل لثبات العرب أمام هذه الدول ، إلا إذا اتحدوا في جبهة واحدة ، تقف في وجه الأجنبي الطامع . و قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، قال بأن كل المؤشرات تدل على أن حربا أوروبية على وشك الاندلاع ، و أن نتائجها ستكون كارثية و خطيرة على الأمم الضعيفة ؛ و منها الأمة العربية التي ليس لها مخرج ، لدرء هذا الخطر الداهم ، سوى الإتحاد في كل شيء (2) .

(1) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .

(2) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 97 - 101 .

و هو بذلك، قد جعل من الوحدة العربية حتمية لا خيارا ، كما أنه حث على الإسراع في تحقيقها ، لأن الظروف الدولية بعد الحرب العالمية الأولى ، لم تكن في صالح الأقطار العربية ، حيث أفرزت أوضاعا جديدة ، جعلتها مستهدفة بالغزو و الاحتلال . و قد صح ما تنبأ به ، فلم تمضي إلا سنوات قليلة، حتى أحكمت الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى ، سيطرتها على كافة البلاد العربية، باسم الحماية أو الوصاية أو الانتداب ، و هي مسميات متعددة و النتيجة واحدة وهي الاحتلال .

ومن المعلوم أن الأمير شكيب ، كان قبل ذلك من أنصار الخلافة العثمانية، ومن أشد المعارضين للثورة العربية ، و قد برر امتناعه عن المشاركة في الحرب ضد الأتراك، باعتقاده أن البلاد العربية، ستصبح نهبا مقسما بين انجلترا وفرنسا ، وأن فلسطين ستكون وطنا قوميا لليهود ، وهو ما حصل بعد انتصار الحلفاء . لذلك صرح، بأنه يفضل البقاء في ظل الدولة العثمانية ، على الوقوع في يد الاحتلال الأوروبي . ولما صدق حدسه عقب نهاية الحرب ، اعترف له الكثيرون ببعده نظره ومنهم من اعتذر له ؛ ومن أبرزهم الملك "فيصل" ، الذي وجه إليه رسالة بعد إسقاطه من عرشه في دمشق، يشيد فيها بإخلاصه للقضية العربية ، و يعترف له فيها أنه أول من تكلم معه في قضية الوحدة العربية . أما سبب تحوله في تأييد الخلافة ، و مناداته بالوحدة العربية ، فقد أرجعها الأمير إلى إدارة الأتراك ظهرهم للعرب ، و إلغائهم للخلافة الإسلامية ، واختيارهم للمنهج العلماني (1) . فأكد ذلك التحول ، بقوله أن الخلافة العثمانية ، قد اندثرت و ذهبت إلى غير رجعة ، أما العروبة و وحدتها فلا تزالان قائمتين (2) .

و الحق أن الأمير شكيب ، في وقوفه ضد هذه الثورة العربية ، كان حريصا على أن لا يقاتل العرب مع بعضهم البعض، لصالح الأهداف الاستعمارية الإنجليزية الفرنسية الصهيونية في المنطقة ، فجاءت انتقاداته شديدة اللهجة إلى الأمير "علي بن الحسين" الذي أغار على أطراف حوران و جبل الدروز في لبنان ، من أجل الانضمام إلى الإنجليز الذين كان متحالفا معهم ، و مما قاله له في هذا الصدد : (( أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير حتى تكون ثمرة دمائهم و مقتولهم استيلاء انجلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا ، و اليهود

(1) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 99 .

(2) - شكيب أرسلان : الإرتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 279 .

على فلسطين )) (1) .

لقد كانت اللعبة واضحة، لدى الأمير شكيب، لذلك لم ينجر وراء عواطفه، و يركب قافلة الثائرين على الأتراك المتحالفين مع بريطانيا و فرنسا ، الذين عجزوا عن فهم أن مبدأ تلك الدول ؛ لا يقبل أن يتوحد العرب، ويتحولون إلى قوة سياسية و عسكرية و اقتصادية ، قد تسبب لها مشاكل ومتاعب . و بالتالي، العجز عن إدراك الطبيعة الاستعمارية للدول الكبرى ، التي تتماشى مع مصالحها الاقتصادية الجوهرية، و ليس مع مصالح العرب أو غيرهم (2). و لذلك كان موقفه وسطيا ، تضمن الإبقاء على الخلافة مع الإصلاح ، أي التوفيق بين العثمانية و العربية ، أو الإسلامية و العربية ، و عدم الانخداع لما يروج له الاستعمار بصفة عامة، و الإنجليز بصفة خاصة (3) .

فلقد كانت بريطانيا منذ أواخر القرن 19 م ، إستراتيجية تهدف إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقطاب : القطب التركي ، القطب الإيراني ، القطب العربي . فعملت على تشجيع كل الحركات و القوى المناهضة للعثمانيين ، في البلاد العربية ، بهدف الضغط على تركيا ، التي كانت كل المؤشرات تدل، على أنها ماضية في طريق التحالف مع ألمانيا ، و قد سلكت فرنسا النهج ذاته الذي سلكته بريطانيا (4) ، لكن الأمير يبدو أنه كان يستشعر الخطر الأكبر من هذه الأخيرة، دون أن يقلل من خطورة الأولى .

يستند الأمير، في حكمه بحتمية الوحدة العربية ، إلى كون العالم العربي موحد النزعة و اللغة و الغايات ، و من ثمة فالطبيعة تدفع به دفعا إلى الوحدة ، فهذه الممالك التي مزقتها الاستعمار الأوروبي ، إلى أجزاء من السنغال إلى الموصل ، ستعود واحدة كما كان الأمر في الخلافة العباسية (5) .

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 151 .

(2) - الهادي التيمومي ، المرجع السابق، ص 55 .

(3) - احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 93 .

(4) - الهادي التيمومي ، المرجع نفسه ، ص 59

(5) - احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 71 .

وفي رده على الأمير "علي بن الحسين" ، الذي قاتل العرب لصالح الإنجليز ، قال: أن العرب سيقون عبيدا للأجانب مهما فعلوا ، إذا ما بقوا مبعثرين و مشتتين كما هو حاصل في تلك الأثناء ، و في هذا المضمار دافع كثيرا عن وحدة سورية مع العراق ، و انتقد بشدة النخبة السورية ، التي ترفض الوحدة مع العراق لمصالح ضيقة (1) .

و بحسبه فإن العدو الحقيقي هو الاستعمار الإنجليز ، الذي استخف بهم بسبب تفككهم وتمزقهم ، و الأسباب أخرى قال أنها كثيرة ، ومنها النزاع الدائم و الخصام المستمر بين العرب ، حيث وجدت بريطانيا أمة كثيرة العدد متوقدة الذكاء ، لكنها مفككة الأوصال ، إلى حد أن بعضها لا علم له ببعض ؛ أمة قوية البأس ، لكن بأسها موجه فيما بينها ، يشغلها تماما عن الخارج ، أمة متوقدة الذكاء ، لكن ذكاءها تصرفه إلى كيد بعضها البعض (2) .

وهو بذلك يقر بأن العرب أمة عظيمة ، تتوفر فيها كل شروط القوة و الكمال ، من مجد و ذكاء ، لكنها لا تستثمرها في بناء نفسها، و إعادة مجدها ، ومجابهة الاستعمار المترصد لها ، و إنما توجهها لاستنزاف قدرتها الذاتية و ضرب بعضها البعض ، أمام مرأى بريطانيا التي صدقوا و عودها الكاذبة ، بأنها ستعمل على بناء عالم عربي ، يسود فيه القانون و الشرع محل الظلم العثماني . و لما انتصرت في الحرب الكونية الأولى رفقة حليفها فرنسا، رمت بتلك الوعود و العهود جانبا ، و شرعت في تقسيم المنطقة رفقة فرنسا ، فأصيب العرب الذين كانوا يعلقون عليها ، آمالهم و أحلامهم القومية ، بخيبة أمل كبيرة و منهم "الشريف حسين" قائد الثورة العربية الكبرى (3) .

و في حقيقة الأمر ، أن بريطانيا لم تنتظر نهاية الحرب، لتتقلب على وعودها إزاء العرب ، باستقلالهم عن تركيا و تكوين دولة عربية واحدة ، ففي الوقت الذي كانوا فيه يقاتلون في صفها و يشددون عضدها ، راحت هي تعقد اتفاقا سريا بينها و بين فرنسا و روسيا عام 1916 م ، عرف باتفاق "سايكس بيكو" ، الذي تضمن تقسيم أراضي الدولة العثمانية فيما

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 169 .

(2) - احمد الشرباصي ، المرجع السابق ، ص 98 .

(3) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 112 .



بينها . كما قطعت على نفسها في عام 1917 م ، عهدا يحقق لليهود وطنهم القومي المزعوم في فلسطين عرف ب: " وعد بلفور " .

و لم ينكشف الستار عن تلك الاتفاقيات السرية ، إلا بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا سنة 1917 م ، و هناك تؤكد للعرب أنهم راحوا ضحية مؤامرة استعمارية، قادتها بريطانيا ، التي أصدرت تصريحاً مشتركاً مع فرنسا في 1918/11/08 م ، يقضي بتقسيم الأراضي العربية ، و إنشاء دول بها ، و تزكية معاهدة الصلح في "فرساي" لمشروع التجزئة<sup>(1)</sup> . و بذلك يكون قد حدث بالضبط ما نبه إليه ، و حذر منه الأمير شكيب قبل و خلال الحرب العالمية الأولى ، فضع الأمل في تحقيق الدولة العربية في المشرق العربي .

ومتلما اعتبر الإنجليز أكبر أعداء الوحدة العربية ، لأن هذه الأخيرة هي الوحيدة الكفيلة بمواجهتهم و طردهم من بلاد العرب ، فإنه أشار إلى أعداء آخرين ؛ و منهم من سماهم بالشيوخيين ، الذين عرفهم بأنهم أولئك الذين لا يتركون فرصة تمر ، إلا و انتقصوا فيها من فضل العرب ، و حطوا من منزلتهم في التاريخ ، و من مدنيتهم العريقة ، لا يرون جانبا سلبيا للعرب ، إلا و تهافتوا على إظهاره ، كما يتهافت الذباب على الحلواء<sup>(2)</sup> .

و يضيف إلى أولئك خصوما آخرين ؛ و منهم الأتراك الكماليون ، الذين كان لسان حالهم يقول : (( إذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين ، فليكن إسلامنا تركيا ، و لنرفع منه كل ما فيه من رائحة عربية )) . و في سبيل ذلك، ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، و أجازوا الصلاة بها، كما منعوا الحج، و ألغوا التقيد بالشريعة الإسلامية في مجال المعاملات مهما كانت، و اعتمدوا القانون المدني السويسري<sup>(3)</sup> .

و هي أسباب كانت كافية للأمير ، ليهاجمهم بشدة ؛ و اصفا إياهم بالملاحدة الأتراك تارة، و بالطائفة الكمالية أو الفئة الضالة، التي تتكرت للعرب تارة أخرى . و ليطالب تركيا مرارا ، بأن تعيد "لواء الإسكندرونة" الذي أخذته دون وجه حق ، لأنها أرض عربية سورية حسبه<sup>(4)</sup> .

(1) - ينظر محمد محمود بوعيايد ، و آخرون ، المرجع السابق ، ص 352 و ما بعدها .

(2) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق، ص 88 .

(3) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص ص 211 - 212 .

(4) - احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 72 .

بمعنى أنها أصبحت بلدا محتلا ، شأنها في ذلك كشأن الدول الاستعمارية التي كانت تحتل أغلب البلاد العربية ، فقد كان يفرق بين العثمانية و التركية . و معناه أن تخلي الأتراك عن الخلافة ، أسقط عنهم مبرر الوجود في الأراضي العربية ، و من ثمة يصبح ينظر إليهم على أنهم محتلون أو معتدون .

و ينتهي شكيب بعد كل ما سبق، إلى القول بأن استقلال البلدان العربية و تحررها من قبضة الاستعمار ، لن يتحقق إلا بالوحدة الشاملة ، و ليس بالأمة المجزأة المفككة المبعثرة <sup>(1)</sup> . و أنه لا حياة لها في المستقبل ، في عصر القوميات كما أصطلح على تسميته ، و ختم كلامه متسائلا إن كانت للعرب نجاة بغير الإتحاد ؟ <sup>(2)</sup> .

و في الأخير نستطيع القول ؛ أن الإبراهيمي و أرسلان ، قد اجتهدا في تقديم مبررات موضوعية، في دفاعهما عن فكرة الوحدة العربية ، كخيار استراتيجي ، و حل طبيعي ومنطقي ، من شأنه أن يسمح للعرب بمعالجة قضاياهم الأساسية، و على رأسها الاستعمار و التخلف و القضية الفلسطينية من جهة ، و من التمتع في عالم أخذ فيه المجتمع الدولي، يتشكل أكثر من أي وقت مضى ؛ من تجمعات و تكتلات سياسية و بشرية و اقتصادية و عسكرية ، من جهة ثانية .

و عليه فلقد أقر الإبراهيمي ، بتأزم و تردي الأوضاع العربية في كل المجالات ، و بين أن الانقسام هو علة العلل في ذلك ، معتبرا أن غياب الوحدة ، هو السبب في عجزهم عن الخروج من الضعف السياسي و التخلف الحضاري ، اللذان لازماههم منذ عدة قرون . كاشفا عن خصوم الوحدة ، الذين حددهم في الشعبويين ؛ ممثلين في الحركات العنصرية كالفرعونية و البربرية ، و وصفهم الفكر و النفس . ليخلص، إلى أن الوحدة تعد الحل الأمثل ، إن لم تكن الوحيد ، لكل المشاكل و الأزمات و التحديات التي كانت تحياها الأمة العربية ، و قد برر ذلك بمتطلبات العصر، الذي يصعب فيه على الأمم أو الشعوب أو الأقوام المنقسمة و المشتتة ، أن

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 263 .

(2) - احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 93 .

تواجه التحديات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و الحضارية و العسكرية ، التي فرضتها الثورة العلمية و التكنولوجية .

أما المبرر الثاني الذي ساقه ، وهو طرد الاستعمار، الذي جثم على أجزاء هامة من البلاد العربية ،ويستعد للاستيلاء على الأجزاء المتبقية ، أي أنه حث على الوحدة لإنقاذ ما تبقى من البلاد العربية من مصيرها المنتظر ، ولتحرير المستعمرة منها . أما المبرر الثالث في تقديره ، فهو القضية الفلسطينية ، التي رأى فيها أن الصهاينة شذاذ الأفاق ، ما كان لهم ليجرؤوا على تهويد فلسطين و غزوها تدريجيا ، لو وجدوا أمة عربية متحدة في الرأي و العمل ، و لما تحولت الأحلام اليهودية و أوهاهم القومية إلى حقيقة عام 1948 تاريخ ميلاد دولتهم العنصرية .

أما الأمير شكيب ؛ فقد ذهب إلى أنه لا سيادة ولا استقلال، و لا نهضة للعرب في المستقبل ، إذا لم ينظروا إلى الوحدة العربية، على أنها خيار استراتيجي و ضرورة حتمية ، يتوجب الإسراع في انجازها في الميدان دون تأخير ، على أسس متينة و قوية حتى تستمر وتتحقق الأهداف المنشودة منها .كما وضح أن أكبر خصوم الوحدة العربية، الاستعمار بصورة عامة و الانجليزي بصورة خاصة ؛ الاستعمار الذي ساعد حسبه العرب على طرد العثمانيين من أراضيهم ، ليس لتحررهم من الاستبداد العثماني و تخلفه ، وإنما ليحل محله ، و ليوطن اليهود في الأراضي الفلسطينية . وهو السبب الذي جعل شكيبا ، يرفض تأييد الثورة العربية المتحالفة مع الانجليز ، و يفضل الدفاع عن الخلافة العثمانية ، رغم اتهامه بخيانة القضية العربية و بالعمالة للأتراك . وقد أظهر بموقفه هذا ؛ وعيا سياسيا كبيرا بمجريات الأحداث العالمية ، بفضل ثقافته العالية ، التي اكتسبتها من تعليمه الجيد ، و من سفره و ترحاله الدائم في الولايات العثمانية ، و البلدان الأوروبية ، التي أقام طويلا في أكبر عواصمها واهم حواضرها كما أشرنا إليه في الفصل الثاني، في المبحث الذي أدرجناه للحديث عن حياته و آثاره، من هذه الدراسة .

و فيما يبدو ، أن الإبراهيمي ، في حديثه عن خصوم الوحدة العربية، الذين حصرهم كما مر بنا ،في الحركات العنصرية، التي ظهرت في أكثر من بلد عربي، و نمت مع تعاقب الزمن ، بفضل الظروف الداخلية السيئة التي تساعد على ذلك ، و الدعم الخارجي الذي راهن على دورها

في بسط الطريق أمامه للغزو أو للبقاء . أنه لم يتوقف كثيرا عند الاستعمار ، كخصم أساسي من خصوم الوحدة ، انطلاقا من إدراكه بأن الاستعمار ، يجتهد في خدمة مصالحه لا غير ، و أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات قدرا محتوما لا مناص منه . و بالتالي ، فمن الطبيعي أن يوظف الوسائل التي يراها كفيلة ، بتأمين جانبه؛ ومنها ضرب القومية العربية ، مستفيدا من القابلية النفسية و الذهنية ، التي وجدها لدى أبناء العروبة ، لمسائرة مخطط التفارقة ، الذي أعده لهذا الغرض . و من طبقة الحكام و الأمراء بتأليب بعضهم على بعض ، وإغرائهم بالأمانة على أقاليم أخرى ، إن هم انخرطوا في دائرته ، وحتى بشراء ضمايرهم عن طريق الرشوة ، و بهذا تمكن من إضعاف الجميع و احتلال الجميع . وفي ذلك لا فرق عنده بين الاستعمارين الإنجليزي او الفرنسي ، على خلاف الرأي السائد في تلك الأثناء ، المتضمن أن الأول أرحم من الثاني وأكثر تمدنا و إنسانية منه ، في أغلب الأقطار التي احتلها ومنها العربية ، وقد عمل الإنجليز أنفسهم على الترويج لهذا الرأي ، فلكي صدى كبير في البلاد العربية وفي غيرها من البلدان .

و في النقطة ذاتها ، خص أرسلان الاستعمار الإنجليزي دون غيره من الاستعماران الأخرى ، فاعتبره خصما لدودا للعرب ودافعا لتسريع قيام وحدتهم القومية ، التي تسمح لهم بالوقوف في وجهه ، وإبطال مخططاته في بلدانهم ، التي تعمل على إدامة الفرقة و الانقسام إلى أبعد مدى . و المسارعة إلى تقويض أيه بادرة للوحدة في مهدها ، بتدبير المكائد و الدسائس ، وإثارة الفتنة و النعرة العصبية بين العرب ، فينخرق الإجماع العربي ، و تتبخر الجامعة العربية . و بطبيعة الحال ، لا وجود لاستعمار رحيم و آخر عكس ذلك ، فان وجد اختلاف بينهما ، فلا شك أنه في الاستراتيجيات ، و ليس في الأهداف التي تظل واحدة ، لا تخرج عن نطاق استغلال ونهب مقدرات الشعوب ، ولو باستعبادها و أعمال القمع و الإبادة بين صفوفها ، وإنزالها منزلة الأنعام .

و إذا كان أرسلان ؛ قد تجنب تحميل جانب من المسؤولية ، في الواقع العربي المتسم بالانقسام و التشرذم ، إلى الفئات المثقفة في الوطن العربي . فإن الإبراهيمي ، أكد على دورهم السلبي الذي أضعف كثيرا الأمة ، و منعها من أن تنهض و تستعيد مكانتها وسط الأمم القوية و الراقية ، بسبب نفوسهم الضعيفة وفكرهم المريض ، اللذان جعلاهم يحتقرون مقومات أمتهم؛

---

من لغة ودين و عادات، وقيم حضارية مهما عظمت ، و ينبهرون بكل ما هو غريب مهما كان تافها . حتى وصل بهم الأمر حد شعورهم بالنقص الشديد أمام الغربي في كل شيء ، واعتقادهم الجازم بأنه يستحيل عليهم التفوق ، أو حتى الوصول إلى ما وصل إليه من إنجازات مادية و تقنية ، و خجلهم من عروبتهم و شرقيتهم ، كما لو أن الحياة الغربية هي مطلب كل من يرمي إلى الرقي و التقدم . ومنه فقد دأب الإبراهيمي، على انتقادهم نقدا لاذعا، كلما سنحت له الفرصة، لأن المجتمع الجزائري في عصره، قد عرف وجود ذلك الصنف من المثقفين ، الذين تشبعوا بالثقافة الغربية ، وأرادوا الاندماج التام في الحياة الفرنسية، التي مثلت بالنسبة إليهم غاية ما يسعون إليه .

وفي المبحث الموالي ، سنرى كيف دافع الإبراهيمي عن عروبة المغرب العربي و أرسلان عن عروبة طائفته الدرزية ، وعن كونهما يشكلان قطعة أساسية في الوحدة العربية المنشودة، ردا على المشككين في ذلك من العرب و الغربيين على حد سواء .

المبحث الثالث : عروبة عرب المغرب العربي و الدروز وموقعهم من الوحدة العربية01- عروبة عرب المغرب العربي و موقعهم من الوحدة العربية (الإبراهيمي) :

بدأ الشيخ البشير الإبراهيمي ، كلامه عن وضع المغرب العربي، إزاء الوحدة العربية ، بالتأكيد على أنه لا جدال في عروبة الشمال الإفريقي ، مهما كانت الأصول التي إنحدر منها سكانه، و الخصائص الاجتماعية التي يتميزون بها؛ كالعادات و التقاليد و الأخلاق ... و غيرها ، و هي عروبة أثبت و أنقى من إنجليزية الإنجليز و ألمانية الألمان .

و بالإشادة بالفضل الكبير للأبجدية العربية ، في تثبيت و تمكين اللسان العربي في المنطقة ، و حفظ أصول الدين و متون اللغة ، و في تدوين الآداب و الشرائع ، و كتابة التاريخ و تسجيل الأحكام و الحقوق ، و فتح أبواب العلم ، كما كانت الطريق إلى الحضارة (1) .

و عروبة المغرب العربي ، كما تطرق إليها العديد من الباحثين ، تقوم على جملة من الأسس هي : اللغة و الدين و التاريخ ، و الأغلبية الساحقة من البربر تتكلم اللغة العربية ، و بها يتفاهم الجميع على إختلاف لهجاتهم المحلية . و لقد ظل البربر، يحرصون على تعلم اللغة العربية ، بإعتبارها لغة دينهم ، و لكونها اللغة العلمية و القومية الوحيدة ، التي تمكنهم من الرقي الفكري ، بينما إقتصروا استخدام لهجاتهم المحلية في التخاطب فقط .

و الواقع، أن رسوخ اللغة العربية و الدين الإسلامي ، هو العامل الأساسي الذي يسر عملية الارتباط بين العنصرين العربي و البربري من ناحية ، و أدى إلى فشل حركة الفرنسة في بلدان المغرب العربي ، رغم كل الأساليب و الطرق، التي إتبعها الإستعمار الفرنسي في ذلك ، لجعلها أوربية أو مسيحية أو مزيجا بينهما من ناحية ثانية (2) .

العنصران العربي و البربري منذ أربعة عشر قرنا و إمتزجا إمتزاجا تاما و قد جمعهما الإسلام و اللغة العربية )) .

و قد حاول الإبراهيمي تنفيذ تلك الحجج ، فأعتبرها باطلة لا تستند إلى أي أساس صحيح ، و دليله في ذلك أن الدول التي قامت في المغرب العربي كاللمتونية (\*)

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 428 - 429 .

(2) - أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 83 و ما بعدها .

(\*) - لمتونة : قبيلة من البربر من صنهاجة ، و منها خرج المرابطون .



البلدان المتباينة ، فكيف لا تجمع بين أبناء الوطن الواحد ؟ . و أن التفرق الحاصل بين أجزاء الوطن العربي ، ليست ناجمة من طبيعتها ، و إنما بسبب أمزجتنا ، و تأثرنا بكل ما هو دخيل و غريب عنا <sup>(1)</sup> .

و الظاهر هنا ، أن الشيخ يحصر أسباب الفرقة و التشرذم ، اللذان كان يشهدهما الوطن العربي في عصره في سببين أساسيين ، فأما الأول فيتمثل في أمزجة العرب في عصور الإنحطاط، الذين أصبحوا ميالين إلى العصبية العرقية و الإنقسام و الذاتية ، و أما السبب الثاني فيعود إلى الغزو الفكري و الثقافي ، الذي حمل معه أفكار و مبادئ تحث على الفرقة و الإنقسام بدل الوحدة .

فلم تحاول تلك الأفكار و المبادئ الوافدة ، التشكيك في وحدة المشرق و المغرب العربي فحسب ، بل عملت على تمزيق وحدة هذا الأخير ، بإختلاق قضايا و مسائل، تصوره على أنه لا يشكل وحدة بشرية و إجتماعية و حضارية متجانسة ، بمعنى أن كل قطر منه له من الخصوصيات التي تحول دون إتحاده ، أو تكتله مع الأقطار الأخرى <sup>(2)</sup> .

و الحق أن الشيخ، كان كثير التذكير بقضية التقليد ، إذ لاحظنا من خلال إطلاعنا على آثاره ، أنه يعتبرها في كل مرة أحد الأسباب الأساسية ، ليس في غياب الإتحاد و التعاون بين أجزاء الوطن العربي ، و إنما في كل القضايا و المشاكل و الأزمات التي عايشها بنفسه ، و لذلك كان يعاتب المشاركة بصفة خاصة ، على إسرائفهم في تقليد الغرب دون حكمة أو تبصر في ابسط الأمور ، و خاصة مصر التي تعد في نظره : (( إمامة المشرق )) ، و يطمئنهم بأن المغاربة سيبقون تلامذة لهم ، لكن في غير ما هم فيه تلامذة للغرب ، أي كمشاركة <sup>(3)</sup> .

و لقد أفردنا في هذه الدراسة حيزا ، لمواقف الشيخ البشير الإبراهيمي ، و الأمير شكيب

أرسلان ، من قضية الغزو الثقافي و الفكري في البلاد العربية و الإسلامية ، التي كانت هدفا

<sup>(1)</sup> محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 2-467 .

<sup>(2)</sup> - أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 100 و ما بعدها.

<sup>(3)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 333 .



لاستعمار الغربي ، و مسرحا لحضارته و مفاهيمه عن الحياة ، يسوقها بثتى الوسائل، تحت شعار العلم و الإنسانية و التبشير الديني (1) .

و يقر الإبراهيمي ، بأن المغرب العربي بصورة عامة، و الجزائر بصورة خاصة ، فرغم الظروف الإستعمارية القاسية التي يحيونها ، إلا أن ذلك لا يسقط عنهما مسؤولية المساهمة في بناء الوحدة العربية ، فيذكر أن جريدة البصائر و هي لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ترى في المشرق العربي : (( شركة مساهمة )) يحق للمغرب العربي أن يساهم فيها برأسمال ، و قد ترجمت الجمعية ذلك في أرض الواقع من خلال جريدتها ، حيث أن هذه الأخيرة تعد المؤسسة الوحيدة، التي التزمت بتقديم مساهمتها كاملة: (( للشركة العربية )) ، بما بذلته من مجهودات جبارة، لتقريب أواصر الأخوة بين عرب المغرب و المشرق ، و ما بنته في الجزائر من مؤسسات تربوية ، أخذت على عاتقها إحياء اللغة العربية ، التي حاول الإستعمار الفرنسي القضاء عليها .

و يستدرك فيقول ، أنه و إن قال هذا الكلام و هو حقيقة لا غبار عليها ، فإنه لا ينتقص من جهود المؤسسات الأخرى العاملة في هذا الميدان ، و إنما هو إشارة إلى أن المساهمة في رأس مال الشركة العربية ، لا يكون عن طريق البرقيات أو إقامة الإحتفالات بيوم العروبة ، و إنما بإثبات أننا عرب (2) .

و على ضوء هذه الفكرة ، تجلى لنا أن الشيخ الإبراهيمي ، أراد أن يبين بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت لها نظرتان : نظرة وطنية من خلال مقاومة الإستعمار في الجزائر ، و إثبات أن الكيان الجزائري يختلف عن الكيان الفرنسي في الدين و اللغة و العادات و التقاليد ، و نظرة قومية تتمثل في الإهتمام بالقضايا المطروحة آنذاك على الساحة السياسية و الفكرية ، و منها الوحدة العربية (3) . كما أوضح لنا أن العروبة مشروع حضاري ، يبنى بالتخطيط و الإجتهد و بذل الطاقات ، و ليس بإطلاق الشعارات و إقامة التظاهرات الإحتفالية ،

(1) - ينظر غازي التوبة ، المرجع السابق ، ص 292 و ما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 232 .

(3) - محمد طهاري : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص 93 - 95 .

و الأطناب فيها بذكر العروبة و التغني بمحاسنها و أمجادها ، على النحو الذي كان يحدث في ذلك الوقت .

و العروبة عند الإبراهيمي ، تستوجب تقديم النصح و التوجيه للأخوة ، و لذلك وجدناه يدعو حزبا " الشورى " و " الاستقلال " المغربيان في عدد أفريل 1951 م من جريدة البصائر ، اللذان إستفحلت بينهما الخلافات السياسية ، إلى إلتزام الحكمة و العقل و التبصر ، مراعاة لمصلحة أحزابهم و بلدهم الذي يرزخ تحت وطأة الإستعمار ، معتبرا ذلك واجبا دينيا و قوميا : (( ... و أن منطقنا الصحيح في هذه القضية ... ، أن كل عربي لم يمتعض لها ضنين في نسبه - مشكوك في نسبه - ، و ان كل وطني لم ينتصر لإخوانه الوطنيين المقصودين بالشر فيها ، كاذب في دعواه )) .

و لذلك أيضا، سارع إلى الترحيب بقيام الأحزاب المغربية الأربعة ( الإستقلال ، الشورى و الإستقلال ، الإصلاح ، الوحدة المغربية ) ، بالإعلان عن موقفها الموحد إزاء قضية المغرب مع إحتفاظ كل حزب بشخصيته و إستقلاله ، بقوله أن هذه الخطوة هي حلم كنا نحلم به ، و قد عملنا لأجله بالأقوال و الأفعال ، إنطلاقا من إعتقادنا الراسخ بأن الإتحاد هو السلاح الوحيد الذي نستطيع به، أن نقضي على الإستعمار .

فمن حظ الإستعمار في هذه الأمة، وجود عناصر من المرتزقة و الأئمة ، والعلماء و الموظفين و شيوخ الطرق الصوفية ، الذين وضعوا أنفسهم في خدمته ، فإذا إختلفت العناصر الصالحة زاد ذلك في حظه . و بالتالي، فإن هذا الإتحاد الذي وحد مواقف الأحزاب المغربية - السالفة الذكر - ، يعد خسارة جسيمة للإستعمار ، و ضربا لسياسته و إستراتيجيته في المنطقة ، و إحقاقا لحقوق الوطن ، فقد كان يعتمد على الفئة الأولى ، و على إنشقاق و تشرذم الفئة الثانية ، فلما توحدت هاته الأخيرة فقد كل شيء <sup>(1)</sup> .

كما توجه إلى قادة الأحزاب السياسية الجزائرية ، بالقول أن المبادئ التي يتمسكون بها دسائس دخيلة ، مصدرها أفكار تنتشر العداوة الحزبية بين الأخوة ، بحجة واهية هي الحفاظ على المبدأ . و دعاهم إلى نبذها، بضرورة الإتحاد و تقدير الظروف و دحضها ، إستجابة للمصلحة

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الإثار ، ج 2 ، مصدر سابق، ص ص 393 - 400 .

الوطنية . و أضاف أنه بين الصفوف رجال مندسون، يبحثون عن المنافع المادية الشخصية ، و المناصب السياسية، على حساب المصلحة العامة ، فينبغي طردهم من الصفوف ، و الإستغناء عن العمل بآرائهم ، لأن طردهم ( إخراجهم ) لا يترتب عنه نقصان في العدد أو ضعف في القوة ، بل قطع لدابر الفساد من الصفوف ، و إستئصال لعنصر الضعف من الأتباع .

و ختم خطابه، بالتنبيه إلى أن الأمة الجزائرية من وراء تلك الأحزاب ، و قد إمتد إليها الخلاف بسبب إختلافاتها ، فإذا بادروا إلى الوحدة إتحدت ، و أنها مستاءة من تلك الخلافات في تلك الأوقات بالذات ، و قد يدعوا ذلك الإستياء إلى اليأس و عدم الثقة بكم : (( فأنعشوا آمال أمتكم بإتحادكم و قوا معنوياتها بجمع كلمتكم )) (1) .

و منه نستطيع القول، أن الإبراهيمي ، كان يعتبر أن الخلافات السياسية و الصراعات الحزبية في بلدان المغرب العربي - و قد ذكر منها المغرب الأقصى و الجزائر - ، كلها تصب في خدمة المستعمر و تستجيب لأهدافه ، و سياسته القائمة على ضرب الوحدة الداخلية لتلك البلدان ، حتى ينفرط عقد الوحدة المغاربية و من ثمة الوحدة العربية .

و تجدر الإشارة هنا أيضا ، الى أنه قد نبه إلى قضية في غاية الأهمية ، و هي وجود عناصر فعالة داخل المجتمعات العربية في مختلف المجالات : السياسية و الدينية و الثقافية ، تعمل بالتعاون مع الإستعمار للحيلولة دون قيام أي إتحاد ، بإثارة النعرة الحزبية و المذهبية و العنصرية و الإقليمية . و شدد على خطورة الدور الذي تؤديه ، و حث على الإسراع في إبعادها بكل حزم و صرامة .

فهذه الفئة بما كانت تحمله من أفكار و توجهات ، و ما تقوم به من ممارسات ، هي التي هيأت الطريق للإستعمار الخارجي، - و التي تحرص كل الحرص على بقائه و إستمراره ، لأن وجودها مرتبط بوجوده - ، رغم معاملة الجور و الظلم و التعسف ، و مصادرة الحريات و الثروات و الأملاك ، التي كان يمارسها في مجتمعاتها (2) .

لقد عاتب الإبراهيمي كثيرا العرب و المسلمين ، على سكوتهم المطبق إتجاه سقوط الجزائر في يد الإستعمار الفرنسي، بشكل أوحى له و كان الأمر لا يعينهم ، رغم أن الجزائر

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق، ص 302 .

(2) - محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص ص 120 - 122 .

قطعة أساسية في الوطن العربي و العالم الإسلامي . و قد إعتبر موقفهم هذا خطيرا جدا ، سيؤدي إلى نتائج وخيمة على الجميع ، حيث تنبأ بأن يد الإستعمار ستمتد إلى كافة البلاد العربية ، و هو ما حدث فيما بعد (1) .

و إذا كان السكوت عن الإحتلال ، هو موقف الأغلبية من البلاد العربية و الإسلامية - كما ذكر الشيخ - فإن البعض و منهم " محمد علي باشا " ( 1769 م - 1849 م ) حاكم مصر ، قد عرض كل المساعدات المادية و المعنوية لفرنسا في حملتها لغزو الجزائر ، بل أنه وافق على إحتلال الجزائر بقيادة إبنه "إبراهيم باشا" ( 1789 م - 1848 م ) ، ثم تونس و طرابلس ، بدلا عن فرنسا التي تتحمل فقط الأعباء المالية و تقدم الدعم السياسي اللازم ، مقابل ثمن زهيد هو 04 سفن حربية ذات 80 مدفعا ، و 20 مليون فرنك ؟ (2) .

و منهم أيضا حاكم تونس " حسين باي " ، الذي إلتزم موقف الحياد الميال للحكومة الفرنسية ، و قام بإرسال وفد لتقديم تهاني النصر إلى الجنرال " دي بورمون " ( DE BOURMONT ) بعد سقوط العاصمة ، متحديا الإحتجاجات الشعبية . و زيادة على ذلك منع موفد السلطان العثماني من النزول بميناء " حلق الوادي " ، حتى لا تجد القضية الجزائرية حلا لها . أما السلطان المغربي " مولاي عبد الرحمان " ، فقد رخص للقوات الفرنسية أن تتمون من موائى مملكته ، و لم يصدر منه أي تضامن أو تعاطف مع الدولة الجزائرية (3) .

و مهما يكن ، بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي ، فإنه من حق الجزائر على العرب ، أن يعرفوها و يتواصلوا معها ، و أن يدرسوا تاريخها الذي هو جزء من التاريخ العربي المشترك ، و أن يعدوا محنتها محنتهم ، و قضيتها جزءا من قضيتهم ، فإذا كانت قضايا البلدان العربية في

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 78 .

(2) - ينظر عمار هلال ، المرجع السابق ، ص 41 ، 42 ، 43 . و ينظر أيضا بوضرساية بوعزة : " موقف حاكم مصر محمد علي باشا من الإحتلال الفرنسي للجزائر من خلال إحدى التقارير السرية الفرنسية " ، الذاكرة ، مجلة الدراسات التاريخية للمقاومة و الثورة ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر : 1995م ، ص 185 و ما بعدها .

(3) - فتحي دردار : الأمير عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائرية ( 1832 م - 1847 م ) ، د ط ، الجزائر : 2001 م ، ص ص 17 - 18 .

المشرق ممكنة الحل، دون طلب المساعدة من بقية العرب ، فإنه من الخطاء الاعتقاد أن كل القضايا في الإمكان حلها لوحدها ، بل من المستحيل تحقيق ذلك ، و عليه فإنه لا مجال إلا بجعل كل تلك القضايا قضية واحدة ، و عندئذ يتيسر حلها، بفضل الوحدة و التلاحم و الحديث بصوت واحد (1) .

إن السبب برأيه، الذي جعل الإخوة العرب ، يقفون ذلك الموقف إتجاه القضية الجزائرية هو الغرب الذي عمد إلى تخذيرهم بالوطنيات الضيقة ، و قد نجح في ذلك ، إذ أصبح كل فريق عربي يقتنع بقطعة صغيرة من الأرض أشبه : (( بجلد الضب )) ، و يدافع عنها : (( بسلاح الضب )) ، فإذا تمزقت الأطراف ، فكيف لنا أن نسعى لأن تبقى العواطف موحدة . فأصبح " المصري " يتغنى ببلده مصر ، و " اللبناني " لا يرى أبعد من " الجبل " ، و دمشق تفخر بأمجادها التي أقامها خلفاء بني أمية " مروان " و " عبد الملك " ، و بغداد مزهوة بعهد " هارون الرشيد " دون أن تسعى إليه .

و يضيف، بأن الغرب لجأ إلى هذا النوع من التخدير ، حتى يستطيع أن يقسم الخبزة إلى لقم عديدة ، فيسهل عليه مضغها و ابتلاعها ثم هضمها ، و قد أفلح في تحقيق غايته في الأولى و الثانية ، و هو الآن بصدد الثالثة ( الأخيرة ) أي الهضم : (( فإما أن نكون مغصا في أمعائه و علة لموته ، و إما أن يهضمنا فنستحيل غذاء له و مزيدا في قوته )) .

و يختم حديثه في هذا الصدد ، بالإقرار أن الغرب أغرانا بترك و إستهجان الجنسيات و إعتناق المبادئ ، في حين يؤمن هو بالجنسيات و يحارب المبادئ ، فالكيان الصهيوني تأسس على العنصرية الإسرائيلية ، و الحركة " النازية " قامت على العنصر " الجرمانى " ، و روسيا اليوم و رغم أنها تدعي النزعة العالمية إلا أنها قائمة على " السلافية " ، و الأمر ذاته بالنسبة لإنجلترا القائمة على " السكسونية " ، و أمريكا التي تعد " ككشكولا " (\*) من الأقوام جمعتهم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 101 .

(\*) - الكشكول و الكشكولة : وعاء المتسول يجمع فيه رزقه ( و الكلمتان آرميتان ) ، و به سمي كتاب : " الكشكول " لـ : " بهاء الدين العاملي " ، لأنه جمع أشياء كثيرة ، مختلفة المواضيع . المنجد في اللغة و الاعلام .

المصالح المادية ، و سيأتي اليوم الذي تستفحل فيه النزاعات و التناحرات بينهم فينفرط ذلك الإجتماع .

و عليه فإن العرب، ليسوا سابقة في هذا المجال ، فلهم نفس المقومات و الإستعدادات ، حتى يكونوا مثل تلك الشعوب الغربية ، التي بنت دولها على أساس العنصرية و القومية . لكن هذا لا يعني أن الإبراهيمي ، من العلماء الذين يدعون إلى العصبية الجنسية و الوطنية الضيقة ، و إنما يدعوا الى ما يسميه : (( الوطنية الواسعة ، و العقيدة الروحية الجامعة )) ، فإذا إكتملت و رسخت في النفوس ، فإنها لا تتعارض مع التمسك بالجنسيات دون تعصب ، فنكون بذلك قد حققنا سنة الله ، التي جعلت الناس شعوبا و قبائل ليتعارفوا<sup>(1)</sup> .

و هكذا نجد أن الشيخ الإبراهيمي ، ينتقد بشدة العصبية العنصرية ، و الوطنية الضيقة ، التي إستشرت في البلاد العربية ، و تعاضمت إلى الحد الذي تحولت فيه إلى أداة في يد الإستعمار الغربي ، يوظفها في الإستفراد بأجزاء الوطن العربي الواحد بعد الآخر ، فبعد أن إحتل الجزائر سنة 1830 م ، جاء الدور على تونس سنة 1881 م ، و مصر سنة 1882 م ... إلخ ، إلى أن إحتلها جميعا .

و مع ذلك فإنه لا ينفي ، وجود دول عربية مستقلة بذاتها ، لأن الأمة قد تتألف من دول عديدة ، كل واحدة مستقلة بنفسها ، على أن تجمعها رابطة القومية ، التي تتجاوز حدود تلك الدول المتفرقة ، و تسعى إلى ربطها كلها برباط معنوي عام ، يسمو فوق كل الوطنية الخاصة<sup>(2)</sup> .

كما أنه دافع بشدة أيضا ، عن حق العرب في أن تكون لهم وحدتهم الخاصة ، على شاكلة الأمم الأخرى و منها الغربية ، و أوضح أن عناصر النجاح و الديمومة كبيرة بالنسبة إليهم ، إذا ما قورنت بأمم أخرى جمعت شعوبها المصلحة المادية ، و أعطى مثالا بالولايات المتحدة الأمريكية .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 5 ، مصدر سابق ، ص 102 .

(2) - أبو خلدون ساطع الحصري ، المرجع السابق ، ص 10 .

و لهذا رأى ، أن تضامن العالم العربي مع المغرب الأقصى في محنته ، أمر طبيعي لا غرابة فيه ، لأنه جاء إستجابة لنداء الدم و القرابة ، و العواطف و الفطرة الإنسانية ، التي لا يمكن كبح جماحها ، فلا يلام فيها العرب ، مثلما لا يلام اليهود في أمريكا على تضامنهم مع إخوانهم يهود ألمانيا ، و يهود فرنسا إذا تألموا لكارثة أو مصيبة ، قد تحل بإخوانهم في فرنسا (1) .

و لإعطاء الدليل ، على إرتباط شعوب المغرب العربي بالمشرق العربي ، و من ثمة بالوحدة العربية ، إستشهد بميثاق "جبهة تحرير الجزائر" ، الذي إعتبر الجزائر جزءا لا يتجزأ من المغرب العربي ، الذي هو جزء من العالم العربي الكبير ، و أن توجهها نحو العروبة ، و تعاونها مع الشعوب و الحكومات و الجامعة العربية، هو أمر طبيعي. كما حث الميثاق، على الإيمان بوجوب توحيد الكفاح ضد الاستعمار، بين أقطار المغرب العربي الثلاثة : ( تونس ، الجزائر ، مراکش ) (2) .

و بالفعل، فقد ظل المغرب العربي ، على إتصال دائم ببلاد المشرق ، حتى في أحلك فترات القمع و التضيق التي فرضها الإستعمار عليه ، حيث كانت مقصد أعلامه و مجاهديه ، يكتبون المقالات حول القضايا المغاربية ، في صحفه و مجلاته ، و يكشفون مساوئ الإستعمار الفرنسي و الإيطالي و الاسباني في الشمال الإفريقي، في أندية و مجالسه (3) .

و قد أكد الشيخ في الختام، على هذا الارتباط و متانته ، بقوله: أنه رغم ما يقوله عنا الغربيون بأننا برابرة و متوحشون ، فإننا متشددون في تمسكنا بالروابط الشرقية في الكثير من مناحي الحياة ، و لقد تعرضنا للإستعمار مدة طويلة فاقت قرنا من الزمن ، لكنه لم يستطع أن يقطع تلك الأواصر (4) . فبقيت كل قلوب شعوب المغرب تهفوا إلى المشرق العربي ، و تتطلع أنفسهم إلى كل ما يأتي منه من أنوار ، و تعترف عقولهم بما أنتج و أبدع في حقول العلم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 3 ، مصدر سابق ، ص ص 429 - 430 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 54 .

(3) - ينظر أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 105 و ما بعدها .

(4) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 333 .

و المعرفة ، و الفن و الحضارة ، و تعترف بفضل العراق على العروبة و الإسلام ، و تنتظر اليوم الذي تزول فيه : (( الحواجز المزيفة )) ، فتتصل الأطراف ببعضها البعض كما تتصل القلوب (1) .

---

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 202 .



**02 - عروبة الدروز و موقعهم من الوحدة العربية ( ارسلان ) :**

أوردنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، في المبحث الذي كرسناه للحديث عن نسب الأمير شكيب أرسلان ، أنه ينحدر من الأسرة الأرسلانية ، التي تنتمي إلى الطائفة الدرزية ، إحدى الطوائف الأساسية المؤلفة للنسيج الإجتماعي و الديني في لبنان ، التي تضاربت الآراء و الكتابات حول نسبها ؛ فمنها من قال بأن نسبها عربي صميم ، و منها من أرجعه إلى أصول فارسية ، و ذهب بعضها إلى القول بأنها من بقايا الصليبيين و اليهود في بلاد الشام . و إجتهد كل فريق في سرد الأدلة التاريخية و المادية ، لتأكيد صحة رأيه أو نظريته .

أما مترجمنا الأمير شكيب، فقد دافع بشدة عن عروبة طائفته ، فتصدى بالكتابة و النقد لكل من نفى عنها العروبة أو الإسلام ، مبينا الخلفيات و الغايات التي تحركها . مظهرا غضبه و إمتعاضه الكبير، من بعض العرب و المسلمين، الذين إنساقوا حسبه لتلك المحاولات المغرضة التي تستهدف إبعاد الدروز عن الدائرة العربية و الإسلامية ، خدمة للمصالح الإستعمارية ، التي تتغذى و تتقوى من التفرقة و التشتيت و التقسيم .

فبعد أن وردت إليه مقالة مترجمة لكاتب ألماني سنة 1925 م ، زعم فيها أن الدروز كسائر أهل سوريا ينتمون إلى أجناس مختلفة ، سارع الأمير إلى الرد عليها بمقالة عنوانها : " الدروز أو بنو معروف بأجمعها عرب صراح " ، بدأها بالقول أن الدروز في نسبهم عرب أفحاح ، و أن عروبتهم أصح و أقدم و أمتن ، من كل عرب الجزيرة العربية قاطبة ، معتبرا الإقرار بأنهم من بقايا الصليبيين و اليهود ، رأي سخيف ، مستغربا و متسائلا عن الدلائل و الإشارات التي استندوا إليها في حكمهم ذلك، التي تجعلهم شبيهين بالإفرنج الصليبيين ؛ هل هي سنحتهم أم ألوانهم أم شكل رؤوسهم ، أم أخلاقهم أم عاداتهم، أم لغتهم العربية الفصيحة التي لا توجد في كامل سورية ، من يتكلمها أحسن منهم ؟ . و يضيف إلى ذلك متسائلا أيضا ، كيف أمكن أن يتحول الدروز ذلك التحول العظيم ، من أفرنج صليبيين إلى عرب أفحاح ؟ و ما هو الزمان و المكان اللذان حدث فيهما ذلك التحول المزعوم ؟ (1) .

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 71 .

و أعرب عن تحديه ، لأولئك الكتاب و المؤرخين ، أن يجدوا له و لو إشارة ، على ما ذهبوا إليه و زعموه بشأن قومه ، في كتابات كبار المؤرخين العرب و المسلمين ، من أمثال: عز الدين علي بن الأثير ( 1160 م - 1234 م ) ، عبد الرحمان ابن خلدون ( 1332 م - 1406 م ) ، ياقوت الحموي ( 1179 م - 1229 م ) ، إسماعيل أبو الفداء ( 1273 م - 1331 م ) ، أبو القاسم علي ابن عساكر ( 1105 م - 1176 م ) ، شمس الدين محمد الذهبي ( 1274 م - 1348 م ) ، عبد الرحمان بن إسماعيل أبو شامة ( 1203 م - 1268 م ) ، عز الدين محمد ابن شداد ( 1217 م - 1285 م ) أبو بكر ابن قاضي شهبة ( ت 1448 م ) ، محمد ابن النديم ( ت بعد 1000 م ) ، أحمد ابن خلكان ( 1211 م - 1282 م ) ، شمس الدين ( محمد ) ابن طولون ( 1483 م - 1546 م ) ، صلاح الدين خليل الصفدي ( 1296 م - 1362 م ) ، كامل الغزي ( 1853م - 1933 م ) ... و غيرهم . و حتى لدى المؤرخين اللبنانيين: كأبو سعد السمعاني ( 1113 م - 1167 م ) ، إبراهيم الحاقلاني ( 1605 م - 1664 م ) ، صلاح الدين خليل الصفدي ( 1296 م - 1362 م ) ... و غيرهم من المؤرخين، المشهود لهم بالتمكن في الكتابة التاريخية عامة ، و في الانساب خاصة . أما الدلائل التي تثبت حسبه عروبة الدرور ، فهي كالآتي :

01 - سحنتهم العربية الخالصة ، و تشابههم فيما بينهم ، حيث يمكن التمييز بين الدرزي و غيره بسهولة كبيرة .

02 - فصاحة لغتهم العربية ، و إخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة ، فتجد الدرزي البسيط يتحدث لغة فصيحة ، تفوق فصاحة المتخصص في النحو ، وفيها إصطلاحات تدل على أنهم من عرب اليمن .

03 - كون أن كل المصادر الدرزية و غير الدرزية ، تتفق على أنهم من نسل إثنتي عشر قبيلة عربية ، هاجرت من حلب الى لبنان ، في أوائل العهد العباسي .

04 - كونهم من " الشيعة السبعية " ، أي القائلين بالأئمة السبعة ، و هم فرقة من الشيعة ، مع العلم أن شيعة سورية هم عرب أقحاح ( من عرب اليمن )<sup>(1)</sup>.

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 85 .

05 - وجود بطون و أفخاذ في المجتمع الدرزي ، تتصل أنسابها إلى قبائل عربية ، و منها من ما زالت الصلات بينها لغاية الآن (1).

06 - لا اختلاف بين جماجم الدروز و عرب البادية ، بحسب الأطباء الذين فحصوها .

07 - بقاء القرابات بين الدروز و الشيعة إلى عصرنا هذا ، لا ينفي وجود عائلات درزية أصلها من أهل السنة .

08 - كون أن أخلاق و عادات و منازع و مشارب ، آل معروف ( الدروز ) كلها عربية خالصة (2) .

إنطلاقاً من ذلك ، نلاحظ أن الأمير شكيب، لم يدع مؤشراً أو دليلاً ، يثبت به انتماء الدروز إلى القومية العربية ، إلا أتى به و بينه ؛ حتى نتائج الأبحاث العلمية في ميدان الطب و السلالات ، التي تعني بدراسة الأجناس البشرية ، و تصنيفها و تتبع تطورها ، من خلال فحص الجماجم و بعض الأعضاء الأخرى ، و مقارنة بعضها ببعض . مما يدل على أنه كان منزعاً كثيراً ، من تلك الكتابات و الآراء ، التي رأى أنها سخيصة و مغرضة ، لا تستند على أية حقائق تاريخية أو علمية . ما كان لها أن تنتشر و تلقى الرواج ، لو لا انسياق بعض المؤرخين لها ، دون تدقيق أو تمحيص ، كما يفترض في ناقل الخبر أو المعلومة التاريخية . و في هذا، ذكر المؤرخ اللبناني " فيليب حتي " ، الذي لامه كثيراً على نقله لتلك المغالطات في كتابه عن الدروز، التي ما فتئ المؤرخون الأوروبيون يروجون لها ، و التي وصفها بالخط و أصحابها بالخالطين الإفرنج ، الذين إجتهدوا في سوق التبريرات الكثيرة ، التي و رغم كثرتها إلا أنها بقيت ضعيفة و عاجزة عن قلب الحقائق ، لأنها إنصرفت إلى البحث عن الرأي الطريف الذي لا وجود له ، و جعله نظرية علمية جديدة غير مسبوقة . فيحسن بالمؤرخ أن يتحلى بالدقة ، في كل ما يطلع عليه من رأي ، و أن لا يقبل به مهما بلغ من شهرة ، إلا بعد تمحيص تظمن به نفسه ، و تحقيق يودي به إلى عين اليقين . و في المقابل أكد أنه لا أسوأ و لا أضر بالعلم و المتعلمين ، أن يستغرق الباحث كل جهوده في : (( الإتيان ببدع و السبق

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 85 .

(2) - احمد الشرباصي: شكيب ارسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ص ص 67 - 68 .

إلى رأي لم يقل به أحد أو تقوية رأي ضعيف )) .

إن الباحث الذي يتعمد مخالفة الرأي المتعارف عليه ( المشهور ) لأنه مشهور ، و يحاول أن يكسب الشهرة بالإتيان برأي جديد يحل محل القديم ، يكون بذلك في نظر الأمير شكيب، قد خالف الشروط العلمية على الإطلاق . فإذا كان في الإمكان ، تفهم أو قبول الأمر في بعض الجوانب : الأزياء و الألبسة و المساكن و المطاعم و المشارب ، و غيرها مما يتصل بالمعيشة ، مما ترتاح إليه الأنفس التي تتطلع دوماً إلى التغيير و تمل من النمطية ، و تسأم الثبات في الأذواق ، و لا شك أن كل ذلك جد طبيعي و مقبول و معقول . لكنه غير ممكن في الحقائق التاريخية، التي لا يجوز الإختراع فيها لمجرد الإختراع، أي من أجل المخالفة و الشهرة لأن : (( إختراع الآراء التاريخية حبا بجدة الآراء و البحث عن خبر جديد نأتي به و لو لم يركب في عقل و لا نقل و نؤيده و لو كان متداعيا لمجرد اللبح كل هذا ولوعا منا بالإطراف و الإبداع ، هذا جناية على العلم )) .

و لهذا توجه بالتحذير للدكتور " فيليب حتي " ، من الإنسياق في هذا المسلك الذي لا يؤدي إلى أي شيء بنظره ، و نصحه بإعتماد التحقيق الذي لا يبالي بما يجيء في طريقه سواء أكان موافقا للرأي القديم أم مخالفا له . و توجه بالتحذير أيضا لعامة العرب ، من التهافت على ما وصفه بالإغراب الذي هو عكس التحقيق ؛ و معناه الإتيان بما هو مخالف للحقائق حبا في الشهرة و تعمدا للمخالفة ، و ليس بغرض تأكيد أو نفي، أو تعديل القديم، بعد توافر الأدلة القاطعة <sup>(1)</sup> .

و الحال أن الأمير شكيبا ، في نقده التاريخي لأراء المؤرخين الغربيين حول أصول الدروز ؛ و لمسلك بعض المؤرخين العرب بصفة خاصة و الشرقيين بصفة عامة ، المتمثل في نقلهم و تبنيهم لتلك الآراء و الأطروحات، دون إعمال للقواعد العلمية المتفق عليها في هذا الميدان ؛ من تحقيق و تدقيق و تمحيص و إصدار للأحكام، بناء على الأدلة القاطعة ، و ليس على المشكوك فيها . قد أظهر، أنه كان يتمتع بوعي تاريخي عال جدا ، بل إن ما جاء في مقاله تلك - التي أشرنا إليها فيما سبق - ، بين أنه كان على دراية كبيرة بعلم التاريخ و مناهجه و مدارسه، في القديم و الحديث . حتى و إن كان بصدد الدفاع عن الأصول

(1) - ينظر شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق، ص 79 و ما بعدها .

العربية الخالصة لقومه الدروز ، فإنه في مقابل ذلك؛ أكد على أن التاريخ علم قائم بذاته ، ينبغي على المشتغل فيه، أن يلتزم الموضوعية و الحياد قدر الإمكان . فالمؤرخ عالم مثل بقية العلماء في الحقوق العلمية و المعرفية الأخرى ، لكنه يختلف عنهم في كونه إذا أخطأ مع التعمد، فإن لخطئه نتائج فكرية خطيرة على حاضر و مستقبل الأفراد، و الجماعات و الشعوب و الأمم ، يصعب تصحيحه بعد أن يتمكن من الأذهان .

و من الصفات التي شدد على توفرها في المؤرخ ، ملكة النقد ، فليس كل ما ورد إليه صوابا ، إذ ينبغي عليه : أن يتفحص كل ما يقع تحت يده من أصول، و أن يخضعها لكل أنواع النقد و التحليل، على ضوء المصادر الأخرى، و طبيعة العصر، و منهج البحث العلمي المنزه عن الهوى . فإذا أغفل المؤرخ هذا الجانب، سقطت عنه صفة المؤرخ ، و أصبح مجرد شخص يكتب ما يقع تحديده ... لأن - من واجبه - أن يقدم كل ما أمكن عن الحقيقة .

كما شدد أيضا، على ضرورة أن يتحلى المؤرخ بالأمانة و الشجاعة ؛ فالأولى تعني نقل المادة التاريخية دون تحريف أو زيادة أو نقصان ، أما الشجاعة فيقصد بها ، الإحتكام للضمير في نقل الحقائق التاريخية . فإذا فعل العكس لا يعد مؤرخا ، و سوف يقدم نتائج مخالفة للحقيقة ، ثم يأتي باحث آخر و يكشف الحقيقة ، فينسخ ما قدمه لعدم إلتزامه بالأمانة و الشجاعة (1) . و لذلك اعتبر البعض ، ما يقوم به المؤرخ مهنة شاقة ، و صناعة مثل باقي الصناعات ، تحتاج الى المهارة و الدقة و الإلتقان ، ليخرج المنتج في أحسن صورة ، و هو ما تحتاج إليه الحقيقة التاريخية (2) .

و ختم الأمير شكيب دفاعه ، عن عروبة الدروز ، بمخاطبة الأجانب الذين يقصد بهم الغربيين ، بأن سعيهم لفصل طائفته عن الجسم العربي من خلال زرع تلك الأكاذيب و الإفتراءات ، هو مسعى مآلة الفشل ، فما إن تجد ساعة الجد ، حتى يسارع الدروز ،

(1) - ينظر محمود سعيد عمران : منهج البحث التاريخي و مصادر العصور الوسطى ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، مصر : 2006م ، ص 14 و ما بعدها .

(2) - ينظر غني تويليبه ، جان تولار : مهنة المؤرخ ، تعريب عادل العوا ، ط 1 ، عويدات للنشر و الطباعة ، بيروت : 2001م .

إلى الانضمام إلى الجامعة العربية و الجامعة الإسلامية ، لأنهما المكان الطبيعي لهما، و الذي يقول عكس واهم و كذاب و مفتري (1) .

و في المقابل من ذلك ، خاطب أهل طائفته بالقول : أنه ليس من اللائق بالطائفة الدرزية ، التي عدها أصفى الطوائف السورية ، عروبة و أثبتها نسبا ، أن تتكر العروبة و تفضل عليها الأجانب ، فهو أمر مخجل إن فعلته ، فلا بد لها أن تقدم الجامعة العربية على كل إعتبار ، و كل مسعى خارج هذا الإطار ، يحط من شأنها و يسجل عليها . فتبعية جبل الدروز للشام ، لا يعني أنهم عبيدا للشام ، بل يعني أنهما يؤلفان مملكة واحدة ، فإذا كانت مرسيليا تابعة لباريس عاصمة فرنسا ، فلا يعني ذلك أنهم عبيدا لأهل باريس (2) .

ورد في المضممار ذاته ، على من كان يدعو إلى جعل الدروز خارج الوحدة السورية ، بأن جبل الدروز لا يمكنه أن يكون منفصلا عن سورية ، و لا يمكنه أن يحيى مستقبلا ، إذا كانت تحت حماية الأجنبي ، فلماذا تستنقل علينا نحن الدروز الأمة العربية الإنضمام إليها و نسبنا عربي طاهر ؟ يتساءل الأمير شكيب ؟ (3) .

و جدير بالإشارة ، أن الدروز لم يتعرضوا للتشكيك في أصولهم العربية فحسب ، بل إمتد ذلك إلى عقيدتهم الإسلامية ، فقد أجمعت بعض الكتابات أن عقائدهم تتسم بالغموض و السرية الشديدين ، و ذهب بعضها الى حد إخراجهم من الدائرة الإسلامية ، بل و رميهم بالكفر و المروق عن الإسلام ، و هو ما حاول الأمير شكيب التصدي له أيضا .

حيث نفا ذلك نفيا شديدا ، في مقالة بعنوان : " و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مسلما " ، نشرتها جريدة الشورى عدد 31 ديسمبر 1925 م ، فذكر أن الدروز هم فرقة من الفرق الإسلامية ، أصلهم من الشيعة الإسلامية الفاطمية ، التي أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، و هو مسلمون كما لا يخفى على أحد . فإذا قيل أنهم من الفرق الباطنية غير المسلمة ، فالجواب على ذلك ؛ أنهم مسلمون و يلتزمون بإقامة كل الشعائر الإسلامية ،

(1) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ، ص 68 .

(2) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 405 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 388 .

و يربطون مصيرهم بمصير المسلمين في السراء و الضراء ، و يعتبرون كل من خرج عن ذلك منهم ، أنه ليس بمسلم .

و تبعا لذلك يصل شكيب إلى أنه ، يستحيل على المسلم الحقيقي ، الذي فهم الإسلام صحيحا كما فهمه السلف الصالح ، و الذي سمع بالحديث النبوي الشريف : (( فهلا شققت على قلبه )) ، أن يخرج الدروز من الإسلام . و قد جاء في القرآن الكريم : (( ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا )) ، و هؤلاء القوم - الدروز - لا يلقون السلام فحسب ، بل يقولون أنهم مسلمون ، يحفظون القرآن ، و يلقنون موتاهم : (( إذا جاء منكر و نكير و سألك ما دينك و من نبيك و ما كتابك و ما إخوانك و ما قبلك . فقل لهما الإسلام ديني و محمد "ص" نبيي و القرآن كتابي و الكعبة قبلتي و المسلمون إخوتي )) ، و ليست هناك شعيرة من الشعائر الإسلامية لا يقيمونها <sup>(1)</sup> .

و ذكر الأستاذ " فليب حتي " أيضا ، أن الدين عند الدروز أسرار و ألغاز ، إذ يستحيل على غير الدرزي الإطلاع عليها ، لأنها غير مكتوبة في الغالب ، و المكتوب منها غير قابل للفهم ، و الكلام عندهم ظاهر و باطن ، فقد حدث أن ضابط إنجليزيا جاء ليعتق المذهب الدرزي ، فطلب وساطة صديقه الدرزي الذي رد عليه قائلا : (( أغلق الباب و من دخل دخل ، و لا يدخل علينا جديد )) . و السبب حسب " حتي " ، هو أن الدروز يعتقدون أنهم في غنى عن التبشير لمذهبهم ، حيث بشروا به حسبهم في فترة معينة من الزمن ، ثم إنتهى ذلك ، فهم قانعون بعددهم القليل، و لا يرغبون في إنضمام الآخرين إليهم .

و من المعروف، أن طبقة رجال الدين في المذهب الدرزي ، تتألف من ثلاثة فئات : الفئة الأولى هي : " المجربون " و هم مستعدون لتقبل أسرار الدين، و يلبسون لفة صغيرة من القماش الأبيض . أما الفئة الثانية فهي : " البارعون في علوم الدين " ، و يقومون بتعليم الأطفال و بالوعظ و الإرشاد ، و يشرفون على مراسيم الزواج و الموت " . أما الفئة الثالثة فتدعى : " الأجاويد " مفردها " جويد " ، و هم النخبة الصالحة ، و يتميزون باللفة المبرومة و الثياب

(1) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص 75 .

السوداء أو الزرقاء ، تحت العبادة الصوفية البيضاء ، و يتوكلون على العكاز<sup>(1)</sup> ، و بعضهم يعيشون عيشة الزهد و التقشف و التصوف في الخلوات ، كما أن إجتماعاتهم تتم في غاية السرية<sup>(2)</sup> .

و يعتقد الدروز أن جوهر الدين ، هو أن يتمتع الإنسان بضمير نقي زاهد متجرد ، حتى تكون عبادته خالصة لله سبحانه و تعالى ، فمن العبث و الحرام أن يعبد الله ربه و هو آثم . كما أنهم يؤمنون بعقيدة التناسخ و التقمص ، و كذلك الحلول ؛ فالتناسخ هو إنتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، و التقمص هو أن الجسم قميص للنفس ، و بالتالي فإن الموت عند الدروز يشبه النوم أي أن الموت لا يبطلها . أما الحلول، فهو نوع من التقمص ، لكن النفس المنتقلة فيه، تنتقل من جسم لآخر في بعض الأحيان ، بجميع صفاتها أو بعض صفاتها البارزة<sup>(3)</sup> .

و تساءل بإستغراب عن الأهداف المتوخاة ، من طرح من مسألة ديانة الدروز ، و إظهار ما فيها من مخالفة للإسلام ، في الوقت الذي يقاتل فيه الدروز إلى جانب إخوانهم المسلمين ، من الطوائف الإسلامية الأخرى ، دفاعا عن سورية ضد الأطماع الإستعمارية الفرنسية ، و هو دليل قوي بنظره ، على مولاة الدروز للمسلمين ، و معادتهم للصليبيين منذ الحروب الصليبية . و أضاف بأن النباش في عقيدة طائفته و إنتمائها العقائدي ، حملة مغرضة قادتها الجرائد السورية المفرنسة ، بإيعاز من السلطات الفرنسية ، التي تعمل على ضرب وحدة المسلمين ، بإثارة الخلافات و الحساسيات ، التي ينبغي على المسلمين الترفع عنها ، خدمة لمصالحهم العليا<sup>(4)</sup> .

و إذا كان الأمير ، قد نفى نفيا قاطعا ، تعارض المعتقدات الدرزية مع العقيدة الإسلامية كما مر بنا ، فإن الكثير ممن كتبوا عنهم في هذا الجانب ، يتفقون على أن الشعائر الدرزية ، تخالف صراحة الدين الإسلامي ، فقد أورد المؤرخ " فيليب حتي " - الذي إنتقده و عاتبه الأمير

(1) - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 10 ، 496 ، 497 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 32 .

(3) - أمين طلع ، المرجع السابق ، ص ص 110 - 112 .

(4) - شكيب أرسلان : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، مصدر سابق ، ص ص 76 - 77 .



بشدة - في كتابه " تاريخ لبنان " : أنهم لا يصومون و لا يحجون إلى مكة ، و لا يحضرون صلاة الجمعة ، و يحرمون تعدد الزوجات ، و الطلاق ميسر لهم . كما أن للدرزي الحق ، في أن يوصي بما له كما يريد ، مثله مثل النصراني (1) .

و على ضوء ما استعرضناه في هذا المبحث، نصل إلى إن الإبراهيمي ، حاول أن يبرز بالأدلة عروبة الشمال الإفريقي ، ردا على الآراء و الأفكار و النظريات ، المشككة في ذلك ، سواء كانت غربية أو محلية ، فبين أنه لا تعارض بين البربرية و العروبة ، بإعتبارهما خرجا من منبع واحد ، و هو ما يفسر بحسبه الإندماج الإجتماعي و الحضاري السريع ، بين العنصرين : العرب الفاتحين و البربر السكان الأصليين لمنطقة شمال إفريقيا ، و قد أدهشت تلكم السرعة في الإندماج و التجانس ، حتى المؤرخين الغربيين الذين قالوا : أنه لا يوجد مثل لها في التاريخ . كما أبرز أيضا فشل المحاولات الإستعمارية عبر التاريخ ، التي سعت إلى تمزيق وحدة الشمال الإفريقي ، بفضل الشخصية المغاربية، التي إمتلكت دوما طاقة قوية و روحا صلبة ، لصد الهجمات الواردة من الخارج (2) .

ثم أكد على الإرتباط العرقي و الثقافي و الحضاري، للمغرب بالمشرق العربي ، و أثبت أنه جزء لا يتجزأ منه ، و أن الوحدة العربية المنشودة ، لا تتم إلا بإنضمامه إليها ، و مساهمته الجادة في بنائها ، وفق تصور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي وضعت من أهدافها : أن تبني القومية على أساس متين أو تفسر الوطنية تفسيراً صحيحاً ، و تشرح للأمة معنى الأمة شرحاً عملياً (3) .

و المسلك ذاته، إتخذه الأمير شكيب ، الذي و بالرغم من كل التضارب الحاصل ، و الجدل الكبير الذي أثير حول عروبة و إسلام الدروز ، إستتمت في تأكيد أن طائفته الدرزية، عربية العرق مسلمة الدين ، معتمدا على ثقافته التاريخية عامة و في مجال الأنساب خاصة ،

(1) - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص 496 - 497 .

(2) - أنور الجندي : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 98 ، 99 ، 104 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، ص 246 .

بأسلوب هادئ تارة و بالثورة و الغضب تارة أخرى . مما يدل على أنه كان يخشى العواقب الوخيمة، لتلك الآراء و النظريات و الطروحات ، ليس لأنها تقوم على حجج قوية ، و إنما لكونها حركت في فترة زمنية على درجة عالية من الحساسية ، و هي نهاية الحكم العثماني للبلاد العربية ، و دخولها في مرحلة جديدة ؛ تتميز بتكالب الدول الإستعمارية الكبرى عليها ، و سعيها لمنع أي شكل من أشكال الوحدة فيما بينها . و من الوسائل التي وظفتها في ذلك برأي أرسلان : التشجيع على الكتابات التاريخية ، التي تحرض على التفرقة و الإنقسام بين طوائف الأمة العربية ، بإبراز الإختلافات العرقية و العرقية و المذهبية ، و التشكيك في وحدتها العرقية و الدينية و الثقافية .

فتجد لهذه المهمة ، عدد لا بأس به من المؤرخين و المستشرقين الغربيين ، الذين طبقوا : (( معايير منمطة جاهزة على تاريخ عربي ، قد لا يستجيب لهذه المعايير و المقاييس )) ، عبرت عن الموقف الغربي الفوقي أي المتعالي ، الذي ينظر نظرة دونية إلى الماضي العربي الإسلامي ، من خلال الشعور بحرية إستثمار تاريخيه ، ليس لمصلحة العرب و المسلمين ، بل لإثارة المشاكل و بث الفوضى و الإضطراب ، و للإستجابة للحاجات الإستعمارية ، التي لا تمت بأية صلة للعرب أو للإسلام ، و بهذا صادر الفكر الإستشراقي ، تاريخ العرب و المسلمين ، لصالح ثقافته و حضارته ، و مشاريع دوله ، كما حدث أثناء الحقبة الإستعمارية (1) .

و إذا كان الأمير شكيب ، قد دافع عن الإنتماء العرقي العربي و الديني الإسلامي لطائفته الدرزية ، التي تمثل أقلية عديدة في لبنان و الشام ، فإن الإبراهيمي كان يدافع عن كل سكان المغرب العربي ، الذين يمثلون نسبة كبيرة من الإجمالي السكاني في الوطن العربي ، موزعين على الجزائر و تونس و ليبيا و المغرب و موريتانيا و الصحراء . عملت فرنسا بلا هوادة ، لفصلهم عن إمتدادهم الطبيعي في المشرق العربي ، بالزغم أنهم برابرة و ليسوا عربا، و أن أصولهم العرقية تتصل بالأصول اللاتينية ، لتصل الي نتيجة مفادها أن العرب الفاتحين دخلاء و غزاة . و عليه فمن الطبيعي العودة إلى أصولهم الأولى ، و التتكر لعروبتهم التي إعتبرتها

(1) - ينظر محمد الدعي : الإستشراق الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي ، ط 1 ، م د و ع ، بيروت : 2006م .

إنتماء مصطنعا و طارئاً ، جاءت هي لكي تخلصهم منه ، و ترجع الأمور إلى طبيعتها . دون ان نقلل من خلال ذلك ، من أهمية حملات التشكيك التي تعرضت لها الطائفة الدرزية ، التي ينحدر منها الأمير شكيب .

و فيما يتعلق، بالأدلة التي ساقها كل واحد منها ، لتأكيد صحة ما ذهب إليه ، إكتفى الإبراهيمي بالقول: أن أكبر دليل على عروبة السكان الأصليين لشمال إفريقيا، سهولة تواصلهم و إندماجهم مع العرب الفاتحين ، حيث لم تشكل على الإطلاق اللغة عائقا بين الفريقين ، و هو حسبه دليل كاف ، للإقرار بأن البربر هم فرع عربي صميم، ساهمت العوامل الجغرافية في تشكيل خصوصيته الثقافية و اللغوية ، التي لا يمكن إلا إدراجها ضمن إطار التنوع في التراث العربي الثقافي و اللغوي . و هو دليل نحسه يحمل الكثير من الموضوعية و المصادقية ، اذ لا يمكن بأية من الأحوال ، إنكار سهولة و سرعة الإندماج و الإنصهار، التي حدثت بين البربر و العرب الفاتحين ، و كان من أبرز مظاهرها تبني اللسان العربي كلغة رسمية و شعبية ، و الدين الإسلامي بدلا عن الديانات المحلية من يهودية و مسيحية و وثنية، التي إختفت بالسرعة ذاتها التي إنتشر بها الإسلام و اللغة العربية .

فيما أحال أرسلان، المشككين في نقاوة عرق طائفته ، على أمهات مصادر التاريخ العربي و الإسلامي و علم الأنساب ، و تحداهم أن يجدوا دليلا أو إشارة واحدة فيها تؤكد صحة إفتراضاتهم . و أستشهد حتى بالنظريات الطبية ، التي تفيد تطابق السمات الفيزيولوجية للدروز مع نظيرتها لدى العرب ، رغم أن كون ذلك يبقى نسبيا، بالنظر إلى النزوح و الهجرات و الإحتكاك بالأجانب، عن طريق التجارة و الغزو. و خلص إلى القول بأن عروبة الدروز ، أنقى و أصفى من عروبة كل عرب الجزيرة العربية . و بذلك يكون أرسلان قد عمد إلى التشكيك في عروبة عرب الجزيرة، الذين يعدون قياسا على عوامل كثيرة العرق العربي النقي و الصافي، و لسنا ندري هل حماسته هي التي دفعته إلى ذلك ، أم يقينه بأن قومه الدروز هم العرب الحقيقيون ؟ . وهم ما لم يخض فيه الإبراهيمي ، الذي إنتهى بعد كل ما أورده إلى الإستنتاج بأن اللغة البربرية فرع من اللغة العربية ، و أن بلاد المغرب جزء لا يتجزء من الوطن العربي ، و قطعة أساسية في هيكل الوحدة العربية المنتظرة .

و في المقابل أيضا ، بدأ الإبراهيمي غير متحمس كثيرا للخوض في المسألة العرقية ، ربما لحساسيتها و لصعوبته الخوض فيها ، ليس على الساحة العربية فحسب ، و إنما بالنسبة لكل القوميات و الجماعات العرقية ، فقد أدت التحولات السياسية و الإجتماعية و الثقافية و الحضارية ، الى إختلاط الشعوب ببعضها البعض ، و أصبح من الصعب الجزم بنقاوة جنس بعينه ، و هو ما شار إليه الشيخ البشير ، لما ذكر بأن العروبة ليست لونا أو عرقا أو شعارات ، و إنما سلوكات عملية قصد بها التقارب و التعارف، و التعاون و التضامن و التعاضد ، و لعله المفهوم الأقرب إلى الصحة .

و الواقع أن أرسلان ، بالرغم من التأكيدات التي سردها، ليدلل على عروبة الدروز ، إلا أن ذلك لم ينزع الغموض و التضارب عنها ، و حتى هو ذاته اظهر إمتعاضه من المسلك السياسي لأبناء جلدته، المتمثل في التعاون مع الإنجليز على حساب مصالح الأمة ، فراح يؤنبهم على صنيعهم، و يطلب منهم بيان أحقيتهم بلقب العروبة ، فينتزعون تلك الحجة من يد خصومهم و المشككين، في إنتمائهم العرقي و الدين و الحضاري .

و في الأخير ، ان تأكيد عروبة الشمال الإفريقي بالنسبة للإبراهيمي و الدروز بالنسبة لأرسلان ، يعني لديهما أن ينخرطا الجميع في مسار الجامعة العربية ، و يساهم في بناءهما بفعالية و إخلاص ، و هو ما سنتعرض إليه في البحث التالي .

**المبحث الرابع : خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي وأرسلان .****01- خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي :**

لم يكتب الشيخ البشير الإبراهيمي ، بحث العرب على الوحدة والتكتل ، واستعراض الفوائد الجمة التي ستترتب عنها ، على كافة المستويات والأصعدة ، بل اجتهد في إعطاء تصورات وأفكاره بشأن الخطوات التي يتوجب على العرب القيام بها ، لتحقيق حلم الوحدة العربية الشاملة ، وقد حصرها في خمسة خطوات هي : إزالة أسباب التنافر بين الشعوب العربية ، التقارب والتواصل بين البلدان العربية ، والتعريب الشامل لكل مناحي الحياة في المجتمع العربي ، واستقلال الأمة أدبيا وفكريا ولغويا ، ونبذ الانقسام واستبداله بالوحدة الشاملة .

**- إزالة أسباب التنافر بين الشعوب العربية :**

يرى الإبراهيمي أن أولى خطوات أو مراحل الوحدة ، تضافر الجهود من أجل إزالة أقوى أسباب التنافر بين الشعوب العربية ، في ميدان الثقافة والتفكير والاتصال بالعصر ، وأسباب الثروة ونهم الحياة وأوضاع الاجتماع . من خلال الاجتهاد في تشكيل رأي عام لدى كل شعب من الشعوب العربية ، ليتسنى لها تكوين رأي أعم ، يتولى التوجيه والإرشاد والتنشئة ، إذ أن بعض الشعوب العربية مازالت إلى تلك اللحظة ، لم يتكون فيها رأي عام ، وما زالت تحت سيطرة الزعامات الفردية ، التي تمثل مؤشرا للتفكك وأساسا للتخاذل ، كما أن بعض الشعوب تشهد وجود رأي عام ، لكنه يفتقد إلى النضج ، لأن الرأي العام لا ينضج إلا في مناخ يسوده الاستقرار ، والثقافة الهادئة التي تأخذ على عاتقها مهمة التوحيد ، ومقاومة التيارات الأجنبية المهذمة؛ كالشيوعية والمذاهب الفكرية الغربية التي تربك الأفكار<sup>(1)</sup> .

ووفقا لذلك، يبدو لنا أنه انتبه إلى قضية محورية ، وهي التفاوت في الواقع الاجتماعي والحضاري بين البلدان العربية ، التي تختلف اختلافات عديدة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لكل بلد ، بما يتضمنه ذلك من اختلافات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والإيديولوجي ، ولاشك أنها تشكل معوقا من المعوقات الأساسية ، في سبيل قيام الوحدة العربية على أسس

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4، مصدر سابق ، ص ص 374 - 375 .

متينة (1) .

ويبدو أيضا ، أنه من المؤيدين لفكرة أن الوحدة العربية، يجب أن يكون منطلقها شعبيا وليس فئويا ، تشارك فيه جميع شرائح المجتمعات العربية وطبقاتها، ومختلف أطيافها ، فضلا عن كل التيارات الفكرية والتنظيمات السياسية ، و الاجتماعية والاقتصادية، الموجودة في كل قطر ، والوسيلة في ذلك هي الجهد الثقافي، الذي يتولى التوعية وتكوين رأي عام، في اتجاه التوحيد (2) .

#### - التقارب والتواصل بين البلدان العربية :

اعتبر الشيخ الإبراهيمي : (( التقارب بريد الاتحاد ، والتزاور دليله ، والتحاور بشيره ، والتشاور مفتاح بابه )) ، كل هذه الأمور كانت تقع في تلك الأيام بين الرؤساء العرب وأصحاب الرأي منهم ، التي تكررت وأسفرت عن بعض المؤشرات الايجابية، التي أوجت باقتراب حلم تحقيق الوحدة الشاملة ، التي تخيف أعداء العرب ومنهم الصهاينة ، فيقولون أن في الجزيرة العربية قوما (( جبارين )) .

ومن الأحداث الهامة - حسبه - في هذا الصدد، زيارة الأمير "عبد الله الجابر الصباح" رئيس معارف الكويت لمصر ، والتي كان لها دور جلي في التقارب بين العرب ، لما لبلده الكويت من مكانة في تاريخ الجزيرة العربية ، ولعائلته من منزلة في العائلات العربية الكبرى ، ولما يتمتع به شخصه من مزايا وخصائص استمدها من فطرة الإنسان العربي ، و من همته وشهامته ونبله و بساطته وسماحة نفسه ، و من الآداب و الاخلاق الإسلامية ، و تواضعه وصدقته في القول والفعل .

وقد شكر الإبراهيمي الحكومة المصرية ، على احتفائها بزيارة الأمير الكويتي ، وقيامها بتكريمه رسميا وشعبيا ، معتبرا أن ما قامت به، عكس لأول مرة تواصلها مع الشعب المصري

(1) - السيد يسن : الوعي القومي المحاصر ( أزمة الثقافة السياسية العربية المعاصرة ) ، د ط ، مركز

الدراسات السياسية العربية بالأهرام ، القاهرة : 1991م ، ص ص 90-91 .

(2) - سعدون حمادي : مشروع الوحدة العربية ما العمل ؟ ، د ط ، م د و ع ، بيروت : 2006م ، ص ص

فقد كان في السابق يقوم هذا النوع من الاحتفالات ، على المجاملة والنفاق بدل الإخلاص والمحبة ، وعلى الرهبة والتملق بدل الرغبة والصدق . وختم كلامه بالقول: أن هذا السلوك الحسن الذي بدر من الحكومة المصرية ، باستقبالها الحار لشخصية عربية مرموقة ، هو في حقيقة الأمر : (( وصل لأرحام كانت مجفوة ، والرحم إذا تنبعت أسبابها تأتي بكل عجيب ، وتجرف كل ما كان يحجبها من حجب ، وما كان يغطي عليها من عقوق وقطيعة ))<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا الأساس ، اعتبر مصر أكثر البلدان العربية أهلية لقيادة العرب ، فهي التي احتضنت العروبة ، ونبت في أرضها لسانها ، وتفتقت فيها حضارتها وآدابها ، ولكل ذلك فمن الوفاء لها ، أن يعترف كل عربي بهذا الفضل والسبق ، فيقر لها بالقيادة والزعامة)<sup>(2)</sup> . وقد برر ترشيحه لمصر، لتكون قائدة و متزعمة للوحدة العربية ، بقوله أنه ينبع من التجربة كونها أكثر من غيرها من الأقطار العربية وحتى الإسلامية ، القادرة على لعب هذا الدور ، فكل آمال العرب بصفة، خاصة والمسلمين بصفة عامة ، معلقة عليها لقيادتهم ولم شتاتهم<sup>(3)</sup> .

ولا شك أن هذا الاختيار صائب ، ففي تلك المرحلة كانت مصر هي البلد العربي الوحيد القادر على لم شتات العرب ، ومن ثمة تزعم الوحدة العربية ، بالنظر إلى موقعها الجغرافي، الذي جعلها في مركز البلاد العربية الإفريقية والآسيوية ، ولما كانت تشهده من نهضة ثقافية وفكرية وأدبية وحركة سياسية ، كل ذلك أهلها لتكون (( الزعيمة الطبيعية )) للقومية العربية على حد تعبير "ساطع الحصري"<sup>(4)</sup> .

وفي حقيقة الأمر ، كان ذلك رأي أغلب المفكرين والمصلحين العرب والمسلمين ، ومنهم على سبيل المثال "أبو الحسن علي الندوي" ، الذي قال<sup>(5)</sup> في مصر : أنها تتفرد بخصائص كثيرة لا يشاركها فيه أحد ، ومنها تقدير العلم والحكمة ، وريادتها في اللغة العربية ، والعلوم

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج4 ، مصدر سابق ، ص ص 442 - 443 .

(2) - المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 493 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 377 .

(4) - أبو خلدون سطع الحصري ، مرجع سابق ، ص 89 .

(5) - أبو الحسن علي الندوي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ،

مرجع سابق ، ص ص 81 - 82 .

الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود جامع الأزهر الذي يعد بنظره أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي .

### - التعريب الشامل لكل مناحي الحياة :

يرى الإبراهيمي أنه من أهم خطوات تحقيق الوحدة العربية ، تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي؛ بدءا بتعريب الألسنة والأفكار ، والعقول والأذهان و التصورات، وحتى اللباس ووسائل النقل وأساليب المعاش ، وهيئات الأكل والشرب والنوم ، أثاث البيوت (1) ، و الأسرة. ولا يتم ذلك إلا عن طريق تعريب المدرسة ، بدءا من الكتاب إلى الجامعة، وتعريب التعليم من المعلم إلى الكتاب .

ويضيف بأن التعريب الشامل ، هو أكبر غايات كل من يعمل بإخلاص للعروبة ، إذ لا يتم على وجهه المطلوب إلا بالعلم وحده ، حتى وإن بلغنا فيه درجات متقدمة جدا ، فلا فائدة من العلم وحده ، إذا لم يتطعم في كل خطوة منه بتربية نفسية ؛ على ما للعرب من شمائل وهمم وبطولات ، ووفاء وصدق في القول وتقان في العمل ، وتضحيات وإباء وإيثار ، وكرم وشجاعة. وقد حث الإسلام على هذا النوع من التربية في قوله تعالى : (( ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ))(\*) .

وقد شدد على أن هذا النوع من التعليم ، ينبغي أن يقوم به فقط ، جماعة من خطباء المساجد، ومن الوعاظ ومن كتاب العرب المسلمين ، الذين يتوجب عليهم جميعا أن يتفقا على : (( نعمة واحدة و هي أن الإسلام عرب جميع معتقيه بالانتساب إليه ، وأن كل من تكلم العربية فهو عربي ، وأن العربي لا يكون عربيا ، حتى يكون فيه ما أثر عن العرب من شمائل وأخلاق )) (2) .

ومنه يظهر ، أن الإبراهيمي، يشترط أن يكون التعريب ذا محتوى عربي وإسلامي كامل ، مع إيكال هذه المهمة الحضارية لمعلمين ومدرسين مخلصين للعروبة والإسلام ، يتميزون بالعلم والإطلاع الواسع على تاريخ العرب وتراثهم ، وأخلاقهم وشمائلهم التي اكتملت

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصدر سابق ، ص 267 .

(\*) - سورة البقرة ، الآية 150.

(2) - المصدر نفسه ، ص 266 .



بمجيء الإسلام ، الذي هذبها وأصبغها بصبغته . هذا يقودنا إلى القول ، أنه ممن يضعون التاريخ واللغة العربية (1) والدين الإسلامي ، كمقومات أساسية للوحدة العربية .

ويمكن أن نبرر موقفه هذا، إزاء مسألة التعريب ، بما تعرضت له اللغة العربية في المغرب العربي على يد الاحتلال الفرنسي ، الذي استهدفها بكافة الطرق والوسائل، وفي جميع الميادين ، حتى تحل اللغة الفرنسية محلها ، فيضمن بذلك بقاءه- إلى الأبد- (2) .

وفي السياق ذاته ، أشاد الإبراهيمي كثيرا، بالخطوات التي قام بها مؤتمر التعريب بالرباط ، معتبرا إياها واجبا يقوم به المؤتمرون، نيابة عن جميع الأقطار العربية ، حاثا المؤتمرين على الجدية والتحلي بالصبر والإرادة والعزيمة ، وإقران الأقوال بالأعمال ، قائلا: بأننا أمضينا أعمارنا في الأقوال ، دون أن نترجمها إلى أفعال ، حتى تسلل إلينا القنوط وكدنا أن نياس ، فكم من الاجتماعات التي دعي إليها لهذا الغرض قبل هذا الاجتماع ، وانتهت دون نتيجة ، فالفرصة مناسبة إذن لاستدراك الموقف ، بالجد والعزم والحسم والانجاز (3) .

وأضاف قائلا : بأنه في السابق كانت اللغة العربية ، تتعرض للأذى من الغريب المتمتر ومن القريب المتتكر لها ، فيسارع لنصرتها البعض من أبنائها الأوفياء وجنودها المتخفين ، لكن دون أن يسمع لهم صوت ، لتشرذمهم في الأقطار العربية المترامية الأطراف ، إلى أن جاء مجمع اللغة العربية إلى الوجود ، ساعيا إلى إعادة الشباب إلى اللغة العربية ، وتجديد معالمها ، وجمع أنصارها ، رغم الصعوبات التي واجهها في السنوات الأولى من إنشائه ، شأنه في ذلك كشأن أي هيئة فنية ، تفنقذ إلى التجربة والخبرة اللازمين ، وظل ينمو ويتطور كلما انظم إليه المزيد من أنصار العروبة وفرسان بيانها ، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه حاليا .

(1) - ومنهم الدكتور محمد عابد الجابري ؛ الذي لا ينفي أهمية اللغة والتاريخ، كمقومين أساسيين من مقومات الوحدة العربية ، لكنه يعتبر حصرهما في قالبين صوريين مجردين افقار مفهوم الأمة : ينظر محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2 ، بيروت : 2006م ، ص 97 وما بعدها .

(2) - أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 166 وما بعدها .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج5 ، مصدر سابق ، ص 267 .

وقد تمنى في الأخير ، أن يكتمل بناء مجمع اللغة العربية ، حتى يكون وسيلة فعالة في توحيد العرب ، فلا عجب أن أقوى جامع لصف العرب لغتهم ، وان تحقق ذلك ، فإنه يمكن اعتبار أسرة المجمع أكثر عروبة من كل العرب (1) .

وقد بدا الشيخ الإبراهيمي، مرتاحاً للنتائج المحققة ، فقال بأننا مهدنا للوحدة العربية الشاملة بالتعريب الشامل ، الذي أزاح العقبات من سبيلها، وجمع ما فرقته السياسة والساسة ، فضلا عن الأجانب ، حيث أصبحنا بفضلنا إما طلبنا معلما أو خطيبا أو واعظا أو طبيبا ، أو صيدليا أو محاميا أو قاضيا، أو جنديا أو شرطيا ، أو كل من يقوم بالمصلحة العامة ، وجدناهم عربا باللسان والشمائل والأخلاق والهمم ، قبل أن نجد فيهم الموظف الشخص (2) .

ومنه فإن التعريب الشامل ، في كل المجالات بما فيها الحياة العامة ، هو خطوة أساسية وحيوية في مسار الوحدة العربية في رأي الإبراهيمي ، لأن : (( اللغة هي روح الأمة وحياتها ... ومحور القومية وعمودها الفقري . وهي أهم مقوماتها ومشخصاتها )) (3) .

وهو ما يفسر، كون أن القضاء على اللغة القومية للعرب ، كان من أهم الوسائل التي عول عليها الاستعمار كثيرا ، بغية فرض نفوذه وبسط سيطرته ، بتكوين جيل موالي له ، يحتقر لغته وثقافته القومية (4) .

#### - استقلال الأمة العربية أدبيا وفكريا ولغويا :

كان الشيخ البشير الإبراهيمي ، خلال المؤتمرات الأدبية والمنتديات الفكرية واللقاءات العلمية ، كثير الحرص إلى دعوة الأمة إلى ضرورة استقلالها أدبيا وفكريا ولغويا ، أكثر من حرصه على الجوانب السياسية والاقتصادية ، التي لا تبرز على نحو كاف خصائص الأمم ومميزات الشعوب لأن، الذي يبرزها ويستعرضها أكثر من الأمم الأخرى ، آدابها وأفكارها ولغاتها (5) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج 5 ، ص ص 294 - 295.

(2) - المصدر نفسه ، ص 267 .

(3) - محمد عابد الجابري : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، مرجع سابق ، ص ص 97 - 98 .

(4) - محمد دراجي ، المرجع السابق ، ص 112 .

(5) - مقدمة الهادي الحسني . محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، المصدر نفسه ، ص 26 .

ويعرف الأدب العربي أنه : (( ... الوشيحة القوية والوثيقة الباقية التي لم تنقطع طوال القرون وعبر الأزمان ... فهذه هي الأيام تطوي الدول ، وتقرب البعيد ، أو تبعد القريب ، وتنقطع السبب أو ذلك من علاقات الأفراد أو روابط الجماعات ، ويبقى اللسان العربي والبيان العربي والشعر العربي رسلا صادقين وروابط قوية بين أبناء العروبة كلهم )) (1) .

وبناء على هذا التعريف ، نستخلص أن الأدب العربي ، ظل همزة الوصل المعنوية بين أبناء العروبة ، عبر العصور المتعاقبة ، وبرغم كل الظروف والأحوال ، على اعتبار أن الأدب بصفة عامة هو : (( هو الصورة الدائمة الخالدة التي تحفظ وجود أمة في صورتها الفكرية والحضارية )) (2) .

وعليه يرى الإبراهيمي ؛ أن الأدب العربي مثل الرباط ، الذي عجزت السياسات الإقليمية المفرقة على حل عروقه ، وسيظل على مر الأزمنة جامعا للعروبة ، موحدا لآلامها وآمالها . شريطة أن يبقى عربيا في أصوله وقواعده لا شرقيا ولا غربيا ، يستمد شخصيته وأهدافه من الحاجات الواقعية للمجتمعات العربية ، وليس من تلك المفتعلة أو المزيفة (3) .

ومن ثمة، يخلص إلى أن القومية العربية، تستمد قوتها من واقع الأدب العربي وسلطانه ، أما وحدة الأمة العربية فتظهر في وحدة الأدب على نحو عملي . كما أن قضية الوحدة العربية ليست كما يتصور الكثيرون ، أنها ميدان سلاح أو حرب ، وإنما هي ميدان لإعمال العقل والفكر ، فالأديب في ميدان الفكر مثل القائد وسط المعركة ، يوجهها بما لديه من خبرة ويديرها بالحكمة ، ويقودها بمواهبه ومعارفه ، إلى أن يتحقق النصر المنشود (4) .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الإثار ، ج5، مصدر سابق، ص 210 .

(2) - عبد الله شريط : تاريخ الثقافة والادب في المشرق والمغرب ، د ط ، م و ك ، الجزائر: 1983م ، ص26 .

(3) - محمد البشير الإبراهيمي ، المصدر نفسه ، ص 213 .

(4) - المصدر نفسه ، ص 211 .

وعلى ضوء ذلك ، نستنتج أن الشيخ البشير الإبراهيمي ، قد راهن كثيرا على دور الأدب والأديب العربيين في إحياء القومية العربية ، وتمتين أواصرها من جهة ، وفي الدفع بمشروع الوحدة العربية في مساره الصحيح من جهة أخرى ، انطلاقا من مسلمة مفادها انه إذا كان الأدب يمثل : (( المرآة العاكسة التي تعكس عليها حضارة أمة بجميع قيمها النفسية والعقلية والاجتماعية )) ، فإن الأديب هو الذي يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصورة الخالدة لأمته (1).

### - نبذ الانقسام واستبداله بالوحدة الشاملة :

دعا الشيخ البشير الإبراهيمي، إلى نبذ الانقسام الحالي، واستبداله بالوحدة الشاملة لجميع أجزاء البلاد العربية ، وفي هذا يتساءل كيف يتسنى ذلك ، وقد أفرز ذلك التقسيم أوضاعا جديدة وممالك وملوكا ؟ فمن الصعب جدا تغيير الممالك ، ومن الأصعب حرمان الملوك من لذة الملك ؟ ويجب على تساؤله بالقول: أن البداية تكون بما هو ميسر ومتوفر ، وهو توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وشؤونها ، وإزالة الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد ، وإعتبار المعتدي على جزء منها معتديا على كامل الأجزاء ، وعدو الشعب العراقي هو عدو للشعب المغربي ، وهكذا مع أخذ العبرة من إيطاليا في ضم أجزائها ، وألمانيا ، وفرنسا التي لم يهدأ لها بال في قضية الأناضول واللورين (\*) ، وأيضا من انجلترا الشبيهة بجزيرة العرب ، والتي لو أن دولة اعتدت على جزء منها ، لتسارع الإنجليز في كل مكان لاسترداده ، فلما لا يفعل العرب مثل ذلك ؟ (2) .

ويواصل متسائلا عن المانع من أن تكون دولة واحدة ؟ ، في وجود الأمة الواحدة التي لا تحتاج في غالبيتها ، إلى ما قام به اليهود من جمع لشتاتهم من مختلف أنحاء العالم ، المتباينة أعراقهم وأفكارهم وميولاتهم ، ولا تحتاج إلى وسيط محتل للتعمير كلجوء الصهاينة إلى

(1) - عبد الله شريط ، المرجع السابق ، ص 26 .

(\*) - الأناضول والنورين : خسرتهما فرنسا خلال حرب 1870م - 1871م مع بروسيا ؟ ، التي احتفظت بهما بموجب معاهدة فرانكفورت 10 ماي 1871 . ينظر عبد العزيز سليمان نوار : التاريخ الحديث أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب البروسية الفرنسية 1789م - 1871م ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت : 2002م ، ص 379 وما بعدها .

(2) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 2 ، مصدر سابق ، 471.

الاستعمار البريطاني ، فمن الممكن جدا تحقيق الحلم في أقصر زمن ، شريطة وجود قادة يتحلون بالإرادة والعزيمة اللازمين لذلك (1) .

ولا ريب، أن الهدف الذي توخاه ، من وراء إعطاء أمثلة بالوحدتين الإيطالية والألمانية من جهة ، وبالحركة الصهيونية من جهة أخرى ، هو دعوة العرب لأخذ العبرة واستخلاص الدروس منها . فقد كانت إيطاليا بمقتضى مؤتمر فيينا 1815م، مقسمة إلى سبعة دول (\*) ، خاضعة للنفوذ الأجنبي وغارقة في جو من الفساد والرشوة ، وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية . والأمر ذاته ينطبق على ألمانيا ، التي كانت غداة الثورة الفرنسية 1789م ، مقسمة إلى أربعمئة ولاية تقريبا . ورغم ذلك استطاعتا تخطي كل العقبات ، وتحقيق وحدتهما القوميتين على مراحل (2) .

أما بالنسبة للحركة الصهيونية الحديثة ، فقد تمكنت من إقامة كيائها القومي في الأرض الفلسطينية عام 1948م ، وبالتالي من لم شتات اليهود في مختلف أنحاء العالم ، وخاصة يهود أوروبا الشرقية ، معتمدة في تبرير احتلالها لفلسطين على إدعاءات تاريخية ، وضعت خططها الصهيونية القديمة ، عندما قامت بتحريف التوراة ، ورسمت حدودا موهومة للدولة العبرية ، تمتد من الفرات إلى النيل . موظفة الانتداب البريطاني ، الذي سلمهم إياها بعد انتهائه (3) .

ولا يرى الإبراهيمي، في الملوك والأمراء العرب وقادة الرأي فيهم ، رغم تعدد واختلاف مشاربهم وأهوائهم ، إلا أنهم أمناء على مجد العروبة ، وأنه عليهم تقع مسؤولية إعادته ، خاصة وأن وسائل تحقيق ذلك متوفرة وميسرة لهم ، لا تتعدى طرح الأنانية جانبا ، لا يحاسبون على أسباب الإضاعة لأنها متقدمة فهم ليسوا مسؤولين عنها ، وإنما المطلوب منهم إعادة ما ضاع

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، ج5 ، مصدر سابق، ص 211 .

(\*) - منها : مملكة نابولي وتشمل صقلية وعدد سكانها 7,5 مليون نسمة ، بدمونت وتشمل سردينيا وعدد سكانها 4 ملايين نسمة ، لمبارديا وعدد سكانها 25,4 مليون نسمة ، الولايات البابوية وعدد سكانها 3,5 مليون نسمة ... الخ . شوقي الجمل ، عبد الله عبد الرزاق : تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة : 2004م ، ص 181 .

(2) - ينظر شوقي الجمل ، عبد الله عبد الرزاق ، المرجع نفسه ، ص 181 وما بعدها .

(3) - للاطلاع على المراحل التي مرت بها الحكومة الصهيونية بالتفصيل ينظر سهيل حسين الفتلاوي : جذور الحركة الصهيونية ، د ط ، دار وائل للطباعة والنشر ، عمان ، الأردن : 2002م .

من ذلك المجد ، ولا يشكل تعددهم عائقاً أمام هذا الهدف ، إذا ما اتحدوا في الوجهة والعمل ، واشتركت أيدي الجميع في عملية البناء على منهاج صحيح ، فليتعددوا أشخاصاً ، وليتحدوا على النحو الذي يؤدي إلى الإيفاء بحق الدين وحق العروبة ، ويعيد المجد الذي أضاعوه ، والحق الذي نهب منهم (1) .

ولهذا وجدناه، يسارع إلى إرسال برقية من القاهرة ، يهنئ فيها " جمال عبد الناصر " ( 1918م - 1970م ) رئيس جمهورية مصر العربية و " شكري القوتلي " ( 1891م - 1967م ) رئيس الجمهورية السورية ، بمناسبة الإعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة في فيفري 1958 م جاء فيها : (( أن وحدة العرب هي الأصل والقاعدة وما سواهما شذوذ وانحراف ... فباسم الإسلام وباسم العروبة أهنيكم بنجاح مساعيكم الصادقة في الخطوة الأولى بتوحيد العرب ، من أثر التفرق والاختلاف ، وسيكون لحاق المتخلفين بها عملاً صالحاً كله ، فيا بشرى للسابقين )) .

وختم كلامه، بتقديم مجموعة من النصائح ، والتوجيهات للحكام والقادة العرب ، وتتمثل في ضرورة استئصال النقائص المتأصلة في النفوس ، والسعي إلى جمع الصفوف المتفرقة ، وإسكات الأصوات الداعية إلى التفريق ، وقمع الشهوات الجامحة ومحو الألقاب المهينة ، وتقوية العزائم المتراخية (2) .

و على ضوء ذلك ، نستنتج أن دور القادة والحكام العرب في انجاز الوحدة العربية ، يعد أساسياً في اعتقاد الشيخ البشير الإبراهيمي ، شريطة أن يكونوا على درجة كبيرة من الوعي بالمسؤولية ، والتحلي بالصدق و الاخلاص في التعامل مع المصالح العليا، والقضايا المصيرية للأمة . كل ذلك ممكن ، بالرغم من الخلافات العميقة، والصراعات المستشرية بينهم .

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص ص 242 - 243 .

(2) - المصدر نفسه ، ج5 ، ص ص 45-211 .

**02- خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات أرسلان :**

أبدى الأمير شكيب تفاقؤلا كبيرا ، بإمكانية تجسيد حلم وفكرة الوحدة العربية، بصورة عملية ، فخلال تواجده ببرلين ، كتب مقالا في شهر أوت 1925م ، جاء فيه أنها ليست قضية حكام أو ملوك ، وإنما هي قضية الأمة العربية ، التي ينبغي أن تكون مصالحها فوق كل اعتبار ؛ وأنه خير للإنسان أن يكون راعيا للضأن في عز قومه ، من أن يكون سلطانا عظيما على قوم مذلولين ، فهل من سلطان لمن هيمن الأجنبي عليه ؛ وقاده كما يقاد البعير يتساءل ؟. وقد جعله موقفه هذا مطاردا من قبل تركيا ، لاهتمامه بشؤون العرب ، وهجومه الشديد على حكامها الذين تنكروا للعرب والمسلمين (1) .

ومبعث تفاقؤله ، أن العرب أمة كاملة ، تتوفر على جميع العناصر، التي يتطلبها كيان الأمم من الناحية السياسية والاجتماعية ، فهي أحادية العرق واللسان ، وغالبيتها تدين بدين واحد ، ولها مصالح ومنافع وآمال واحدة . ولكن الذي أضعف جانبها وأخرها، وأعاق لحاقها بمواكب المدنية ؛ تفككها واستعمار الأجنبي لها . ولذلك اعتبر نفسه : (( أنه جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح : الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبحث )) (2) .

وجلي أنه، وضع الوحدة على رأس الأولويات ، فبدونها لا يمكن أن تتحرر البلاد العربية ، الواقعة غالبيتها تحت الهيمنة الإستعمارية ، وبدون استقلال وسيادة لا يمكن الحديث عن النهضة والرقي والتقدم ، معادلة ثلاثية الأطراف ؛ وكل طرف منها مرتبط بالطرف الآخر إلى أن تتحقق كاملة . ولكي تتحقق الوحدة الحقيقية، اشترط شكيب ؛ تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم ، غرس الفكرة في الأذهان، ونبذ الخلافة الشخصية ، والتدرج فيها .

(1) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 39 - 43.

(2) - علي الطاهر ، المصدر السابق ، ص 242 .

**- ضرورة تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم :**

يرى الأمير شكيب أن كل إنسان ، يحرص على التمسك بعاداته وميزاته القومية ، لا شك أن الذي يدفعه لذلك ، هو الشعور بالعزة والإباء اللذان تشبعت بهما روحه ، فقد سئل الروائي الفرنسي " بيار لوتي " ( Pierre LOTI ) (\*) وهو مشرف على الموت ، عن أي الأمم التي يحب ؟ ، وكان من المتوقع أن يذكر الأتراك لكتاباته الكثيرة عنهم ، ولإعجابه الشديد بهم ، ولكنه أجاب : (( العرب لأنهم قوم متشبثون بشخصيتهم )) ، وقيل أنه قال لأنهم لم يتغيروا منذ آلاف السنين (1) .

ولذلك وجدناه، حينما قصد سنة 1929م البقاع المقدسة حاجا، يعرب عن فخره بأنه عربي ، حيث قال بأنه عربي في بلاد عربية حرة ، وأنه في غاية السعادة لأنه خاضع لحكومة عربية بحتة ، يوجد على رأسها مسؤولون هم منه وهو منهم ، ومعنى ذلك بالنسبة له أنه خاضع لنفسه وليس غيره . ومما قاله أيضا تكلمة لذلك ، أنه شعر في الحجاز أن راية عربية تظلمه . وهو فخر يفترض أن يصدر عن كل العرب ، الذين أوصاهم بالمحافظة على قوميتهم ومقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وحذرهم من تقليد الإفرنج تقليدا أعمى ، أو تتبع خطواتهم في شيء يخصهم دون تبصر . على أنه لم يرى مانعا ، من أخذ النافع منهم ، مع التمسك بشخصية الأمة ومميزاتها وخصائصها التي لا تقوم إلا بها ، وتميزها عن الأمم الأخرى . فإذا كنا فعلا نريد أن نصبح أوروبيين ، فلنقتفي آثارهم ، في البحث والتمحيص ، ونحذو حذوهم في تقدير الأمور قبل اعتمادها ، وطرق أسباب المدنية ، ونهج منهجهم في البحث العلمي إلى ما استطاعوا تحقيقه من انجازات ، دون أن يتخلوا عن مقوماتهم القومية : من عادات وتقاليدهم وأذواق ، التي بقيت كما هي ولم تتغير رغم التقدم المذهل ، فنعمل نحن مثل ذلك : (( فإذا كنا حقا نريد أن نتفرنجه فلنقتد بهؤلاء القوم في البحث والتمحيص ، وعدم قبول نظام ولا قانون إلا بعد قتل فائدته خبرا ، وإذا كنا نريد أن نتفرنجه فلنحذو حذو هؤلاء القوم في عروجهم معارج المدنية كلها ،

(\*)- بيار لوتي - Pierre Loti - ( 1850م - 1923م ) : بحار وروائي فرنسي ، قام في رواياته بوصف

البحر والبلدان البعيدة . له عدة روايات منها " صيادو ايسلاندا " و " رحلة إلى الشرق " . المنجد في اللغة

والأعلام . و ايضا : Le Nouveau Larousse élémentaire

(1)- احمد الشرباصي : شكيب ارسلان داعية العروبة و الاسلام ، مرجع سابق ، ص ص 68 - 69 .



وسلوكلهم طرق التحقيقات العلمية ، إلى آخر ما وصلت إليه ، مع حفظهم لعاداتهم ونزعاتهم وأذواقهم وبقائهم كما كانوا إفرنجا . إذا كنا فعلا نريد أن نتفرنج تحتم علينا أن نبقي عربا ))<sup>(1)</sup> .

ولقد أسهب الأمير شكيب في الحديث ، عن محافظة الشعوب الأوروبية على قوميتها ، فذكر الإنجليز الذين يرغبون في أن يبقوا إنجليزا ، والفرنسيين الذين يرغبون في أن يبقوا فرنسيين ، والألمان الذين لا يريدون إلا أن يكونوا ألمانا ، والاطليان الذين لا يقبلون أن يكونوا طليانا ، والروس منتهى غايتهم أن يكونوا روسا وهكذا . ومن الأمثلة التي يرى أن لها تأثيرا نفسيا كبيرا : الأمة الأيرلندية الصغيرة المجاورة للإنجليز ، الذين بذلوا كل ما يمكن تصوره من الجهود مدة سبعمائة عام ، بغية دمجهم في المجتمع الإنجليزي ، لكنهم قاوموا كل تلك المحاولات بشدة ، رافضين أن يصبحوا إنجليزا ، وبقوا أيرلنديين متمسكين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم . والأمر ذاته بالنسبة للأمم الصغيرة " كالبروتون " ، و " الباشكنس " جنوبي فرنسا ، الذين احتفظوا بقوميتهم أمام العرب ثم الإسبان ثم الفرنسيين ، رغم أن عددهم الإجمالي مليون نسمة فقط ، وما يزالون كما كانوا في السابق على لغتهم وأزيائهم وعاداتهم وكل أوضاعهم . وهناك " الفلمنك " ، الذين ظلوا يكافحون من أجل جعل اللغة الفرنسية لغتهم القومية والثقافة الفرنسية ثقافتهم ، حتى أجبروا بلجيكا على الاعتراف لهم بكل ذلك . وفي سويسرا ، يتواجد مليونان وثمانمائة ألف يتكلمون الألمانية ، وأكثر من مائتا ألف ناطقون بالإيطالية ، بقوا محافظين على لغتهم وقوانينهم ومنازلهم ، بالرغم من اتحادهم في المصالح السياسية وعيشهم في مملكة واحدة . أما في بلاد الدانمارك والإسكندناف وهولندا ، فانتشرت فروع عرقية ألمانية خالصة ، ومع ذلك لا تريد الإندماج ولا التخلي عن قومياتها السالفة الذكر . أما التشيك ، فقد بقوا مائتين من السنين تحت الحكم الألماني ، دون أن يصبحوا ألمانا ، وتمكنوا من تحقيق استقلالهم السياسي بعد الحرب العالمية الأولى ( 1914م - 1918م ) ، بعد أن مهدوا لذلك بالمحافظة على لسانهم وتميزهم العرقي مدة خمسة قرون .

ومن الأمثلة أيضا ، التي ساقها الأمير في هذا الصدد ، أمة المجر التي ورغم أن الألمان نشروا بينها علومهم وطوروها ، إلا أنهم عجزوا على إدماجها في الأمة الألمانية ، فتجدهم أكثر

(1) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 69 .

الأمم حرصا على لغتهم المغولية الأصلية وعلى قوميتهم المجرية . أما الأمة البولونية ، فقد حاول الروس الذين حكموها قرابة الثلاثة قرون ، إدخالها في الجنس الروسي ، وحمل أفرادها على نسيان قوميتهم الخاصة ، بحجة أن الجنس السلافي يجمع بين البولونيين ، دون جدوى ، حيث أصبحوا أمة مستقلة بنفسها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، لأنهم لم يستجيبوا لكل تلك المحاولات . والخيبة نفسها وجدها الروس ، مع سكانهم الاستوائيين ذوي الأصول المغولية ، ومع أمم بحر بلطيق من " ليتوانيين " و " ليتونيين " .

كما حافظ " الكرواتيون " على استقلالهم العرقي ، رغم أنهم محاطون بأمتين كبيرتين اللاتين والجرمان ؛ والصرب مع تركيا التي ظلت سيدة عليهم لعدة قرون ، و" الأرناؤوط" مقابل اليونان والصقالبية ( السلاف ) ، والبلغار أمام الروم والسلاف واللاتين والأتراك (1) .

فقد باءت بالفشل ، كل المحاولات الرامية إلى إدماج تلك القوميات الصغيرة ، في قوميات غير قومياتهم : (( لأن كل شعب مهما كان صغيرا لا يرضى بإنكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي )) . وقد برر الأمير شكيب ، استشهاده بأمثلة من أوروبا ، لكي لا تقول الفئة الجامدة من العرب ، أنها لا تريد أن تجعل أمما متأخرة قدوة لها . فالأمم التي استشهد بها كلها أوروبية ، بلغت مبلغا عظيما في العلم والرقي والتمدن ، وتحوز على عدد هائل من الجامعات والأكاديميات ، والجمعيات العلمية ، والجيش والأساطيل .

ويضيف بأنه على العرب ، أن يأخذوا العبرة أيضا من الأمة اليابانية ، التي تدرجت في سلم التقدم، إلى أن تمكنت من الوصول إلى ما وصلت إليه أوروبا ، من غير ان تفرط في لسانها وآدابها وحريتها ودينها ، وكل ما يقع في دائرتها القومية . فقد اندمج وتناغم الياباني العصري، بسرعة كبيرة ومذهلة مع مستجدات الحياة العصرية ، وظل مع ذلك دائم العودة إلى ماضيه ، والتمسك الشديد بقوميته ، غير ملب لنداء التغريب ( Occidentalisme ) ، لأنه لا يريد أن يأخذ من الغرب إلا ما هو ضروري ، لكي يقارع سائر الأمم بنجاح ، وهي لا شك تجربة جديرة بالاهتمام والإتباع من قبل العرب يقول الأمير شكيب (2) .

(1) - شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ، مصدر سابق ، ص 89 وما بعدها .

(2) - المصدر نفسه ، ص 91 وما بعدها .

وعلى هذا الأساس ، بين الأمير شكيب أن اقتفاء أثر الأمم الغربية ، في مجالات العلوم والمعارف والتقنيات ، لا يمثل عائقا على الإطلاق ، أمام الحفاظ على المقومات الشخصية للعرب بكل مكوناتها . ومن ثمة فقد رد بوضوح على أصحاب الرأي القائل بأن : اللحاق بالركب العالمي المتقدم ، ركب الدول الصناعية والأمم الراقية <sup>(1)</sup> ، لن يكون إلا بالإستجابة للتغريب، الذي يعني الانسلاخ عن كل الموروث اللغوي والتاريخي والأدبي، والديني والحضاري المكتسب <sup>(2)</sup> ، واستبداله بالقيم الجديدة، الوافدة مع التقنية والمعارف المجلوبة من الغرب . وحتى لو كانت قيما شديدة التباين مع القيم الذاتية العربية ، فقد نبتت في بيئات لا تمت بأية صلة بالبيئات الجديدة، التي يراد لها أن تستزرع فيها .

ومن مظاهر عناية الأمير شكيب بالعروبة ، إهتمامه بالبحث في أصل العرب وسبب تسميتهم ، وإعتزازه باللغة العربية ، الأمر الذي كان يدفعه دائما ، إلى التحدث والخطابة بها في كل الدول الغربية التي سافر إليها أو قام بها ، رغم إجادته لأكثر من لغة أجنبية كما هو معروف <sup>(3)</sup> . وتمجيده في كل مناسبة أو موقف لأمة العرب ، التي قال عنها أنها لم تتأهب للنهوض والاتحاد ، ولم تتطلع إلى هاته الدرجات السامية ، لو لا تاريخها المشرق ، الذي يشهد على أنها أمة عريقة ، من حقها أن تطمح نحو الأفضل في الحاضر والمستقبل <sup>(4)</sup> .

وللإشارة فإن اللغة العربية ، التي كانت لدى العرب القدامى؛ مصدرا للفخر والإعتزاز ، والشعور بتفوقها، وقدرتها على التعبير عن أغراضهم ومتطلبات حياتهم الإجتماعية، والعقدية والعلمية ، وعاملا لإرتقائهم الحضاري ، خلال العهد الإسلامي . قد أصبحت أثناء عصور الإنحطاط والغزو الإستعماري ، مستهدفة بإسم الحداثة والتغيير ، ومن شدة الهجمات التي تعرضت لها ، تحولت الى لغة تعاني الغربة لدى أهلها ، الذين كانت فئة لا بأس بها منهم، تنظر إليها بعين الإحتقار والإزدراء ، مفضلة لغة الغازي والمستعمر، التي مثلت لها قمة التفوق اللغوي . متجاهلين أن التمسك باللغة القومية ، وإن اعترأها طارئ الضعف والاضمحال ،

(1) - محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 78 .

(2) - طارق البشري ، المرجع السابق ، ص 37 .

(3) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان من رواد العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص ص 85 - 87 .

(4) - شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، مصدر سابق ، ص 04 .

أفضل بكثير من استبدالها بلغة أخرى أجنبية، وإن بدت متفوقة وراقية . لأن اللغة ليست ألفاظا وتعابيرا وحسب ، وإنما شعورا وإحساسا مشتركا ، وثقافة وحضارة وتفكيراً وشخصية ، بكل قسماتها وسماتها وذاكرتها وفلسفتها ورؤيتها. ومثلما تضعف الأمة وتراجع ، فاللغة تضعف وتراجع أيضا ، ومنه فمن غير المنطقي تبرير التخلف بتخلف اللغة (1) .

واستهداف اللغة العربية ، هو في واقع الأمر استهداف للحضارة العربية والإسلامية ، بوسائل شتى: ومنها التحريض على النزعات المعادية للعروبة، ومنها النزعة الفرعونية ، التي انتقدها الأمير شكيب . فقد ظهرت عند بعض الناشئة المصرية ، بغية إعادة ارتباط مصر بالعهود القديمة ممثلة في الحضارة الفرعونية ، مع ميل لنفض اليد من الانتماء الحضاري العربي . أخذا طابعا تعصبيا ، بحجة أنه ليس على المصريين ، أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهن إشارة إلى الإسلام ، وهي حجة مدحوضة برأي الأمير شكيب، لأن الإسلام دين لا يفرق بين عربي وأعجمي ، وأن مبدأه الأساسي التقوى ، وأن النبي "ص" الذي جاء به، لم يبعث إلى العرب وحدهم وإنما للبشرية جمعاء ، فإذا كانت هناك مساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى ، فقطعا في الإسلام (2) .

ومهما تزايد خصوم الوحدة العربية وتعاضمت قوتهم ، فلا أحد يستطيع بنظر الأمير شكيب، أن يستحوذ على العرب المنتشرين في كل أنحاء العالم، فالمستقبل لهم ، لأن المستقبل هو للأمم ذات الأعداد الكبيرة، والعرب يقدر عددهم بسبعين مليوناً متصلون بعضهم ببعض؛ من السوس (\*) الأقصى إلى الأهواز (\*\*\*)، ومن حلب (سورية) إلى الخرطوم (السودان) ، وورائهم مائتان وخمسون مسلماً يناصرونهم (3) .

(1) - للمزيد ينظر عبد الرحمن بودرع ، وآخرون : اللغة وبناء الذات ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر : 2004م .

(2) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 168 .

(\*) - السوس : واد في جنوب المغرب الأقصى ، طوله 180 كلم ، ينبع من سفح جبل طوبقال بالأطلس الأعلى ، يروي سهل سوس جنوبي تارودانت ويصب في المحيط الأطلسي جنوبي أغادير . المنجد في اللغة والأعلام .

(\*\*\*) - الأهواز : مدينة في جنوب غربي إيران ، عاصمة خوزستان بها النفط . المنجد في اللغة والأعلام .

(3) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 71 .

**- غرس فكرة الوحدة في الأذهان ونبذ الخلافات الشخصية :**

أوصى الأمير شكيب سنة 1929م ، بتكوين رأي عربي يقتنع بفكرة الوحدة ، ويخدمها ولا يبالي بالعوائق التي تعترضها ، كالإنقسامات الداخلية والأهواء الشخصية ، اعتبارا بالألمان والاطاليين ، الذين ظلوا لمئات السنين منقسمين ومتشاكسين ، ولم يتمكنوا من تحقيق وحدة بلدانهم ، إلا بتتمية الفكرة وتدريب شعوبهم لأمرائهم عليها، وحملهم على الانقياد لإرادة الأمة . فتألفت من تلك الإمارات المنقسمة ، أمتان عظيمتان إيطاليا وألمانيا . والأمة العربية التي تعد عشرات الملايين من الأفراد ، ليست باعتقاد شكيب ، بأقل منها عددا وذكاء وقوة ، بل تتفوق عليهما في ذلك <sup>(1)</sup> .

وفضلا عن ذلك ، حث في رسائله المتبادلة مع كل من الملك "فيصل" والملك "ابن سعود" ، على نبذ الأمور الشخصية وتنزيه مشروع اتحاد العرب منها ، إذ ينبغي -حسبه - أن ينظر إلى الأمة ومصالحها بدل الأشخاص فالأمير "فيصل بن الحسين" عدو "الابن سعود" لأسباب شخصية ، لأن "ابن سعود" استولى على ملك آباءه . لكنهما تقابلا وتصافيا ، بصفة أحدهما ملكا للعراق والآخر للحجاز ونجد : (( فالمصلحة العربية قضت بهذا وهما بهذا غلباها على الميول الشخصية وهكذا ينبغي أن يكون وقد بدأ هذان الملكان بأنفسهما )) <sup>(2)</sup> . وفي السياق ذاته ، سعى إلى الإصلاح بين ملكي اليمن والسعودية <sup>(3)</sup> ، وحرص ملك العراق للاتحاد مع ملكي السعودية واليمن وجميع العرب ، حفاظا على الأمة وتجديد لمجدها ، واستنهاضا لهما ، فترجع إلى سالف عزها <sup>(4)</sup> .

ومنطلقه في ذلك ، أن الوحدة مشروع كبير لن يتحقق إلا بالتدرج ، وقد بين ذلك سنة 1940م بقوله: أنه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهو يوجه مساعيه في هذا الإتجاه . وأنه منذ عشرين سنة ، كان يتصل بكل من ملك السعودية وإمام اليمن وملك العراق في هذه القضية ، بينما كان أكبر قادة العرب يعارضونها بكل الطرق والوسائل ، أو يقولون عنها انها

(1) - احمد الشرباصي: شكيب ارسلان داعية العروبة و الاسلام ، مرجع سابق ، ص 104 .

(2) - الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص ص 124 - 125 .

(3) - محمد شيا ، المرجع السابق ، ص 208 .

(4) - شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، مصدر سابق ، ص 06 .

خيال في خيال . وأقر بأن تلك الرسائل المتبادلة، بينه وبين أولئك الزعماء الذين ذكرهم ، تزيد عن مائة وخمسين رسالة ، ليس من باب الفخر ، وإنما رغبة منه لتأكيد جدية مساعيه ، التي تعهد بأنها لن تتوقف ، إلا بانجاز الوحدة واكتمال بنائها (1) .

وهكذا يكون الأمير شكيب ، قد حث العرب الذي يأملون في الوحدة القومية ، إلى الاقتداء بالنموذجين الألماني والإيطالي ، فيما يتعلق بتهيئة الأذهان حتى تستوعب الفكرة وبتجاوز الخلافات والحزازات والحساسيات الشخصية والطائفية ، التي أضرت كثيرا بالعرب ، وجعلتهم هدفا سهل المنال لدى الاستعمار الأوروبي . دون التقليل من الجهود العسكرية والسياسية والدبلوماسية ، التي بذلها قائدا الوجدتين " بسمارك " و " كافور " داخليا وخارجيا ، أثمرت ظهور دولتين جديدتين هما الإمبراطورية الألمانية والمملكة الإيطالية ، ساهمتا في إحداث تغيير كبير في خارطة السياسة الأوروبية ، وفي تحفيز القوميات الأخرى داخل القارة ، على النهضة والتطلع إلى تحقيق أهدافها القومية (2) .

- التدرج في الوحدة :

جاء في رسالة، بعث بها شكيب إلى مفتي القدس " الحاج أمين الحسيني " سنة 1931م ، أن الحلف العربي مشروع لا ريب أنه لا يتم دفعة واحدة ، لكنه وضع في الأساس ، وأصبح واجبا على الأمة العربية ، أن تبذل المزيد من الجهود لأجل إكمال بنائه ، فتحوله إلى حقيقة بعد أن كان خيالا ، خاصة وأن المخلصين من العرب ، انفقوا على وجوبه ، وعلى أن يكون عربيا خالصا . فالوحدة الألمانية، بدأت باتفاقيات اقتصادية وإدارية ، وظلت تنمو وتتطور حولي ثلاثين سنة ، حتى أصبحت وحدة سياسية .

وفيها أيضا، انتقد الرأي القائل ، بأن الجزء الناقص استقلاله ، لا يستطيع أن يتحالف مع الجزء التام استقلاله ، لأن الغرض من التحالف ، أن يكتمل الناقص بالكامل ، ويتقوى الجزء عن طريق الكل ، لأننا لا ننتظر من الأجنبي ، أن يقول من تلقاء نفسه ، اليوم أكملت لكم استقلالكم . وعليه يتوجب على العرب ، أن يبادروا إلى التحالف والتفاهم ، من أجل إعلاء شأن الأمة العربية .

(1) - أحمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 99 .

(2) - ينظر فرانسوا جورج دريفوس ، وآخرون ، المرجع السابق ، ص 312 وما بعدها .

كما فند صحة الرأي الذي يقول أصحابه ، بعدم إمكانية الحلف العربي ، لأن الأمة العربية جاهلة ، وأنه لا بد أن يسبق ذلك تربية علمية ، و أن العلم ضروري ومفيد في مثل هذه القضية. فأجاب بأن الحلف العربي ، فعلا في حاجة إلى العلم ، لكنه لا يشكل عائقا أمامه ، وأنه ليس ضروريا أن تصل الأمة العربية ، درجة الرقي الذي بلغته الأمة الألمانية حتى تستوعب أهمية الحلف ، كما أنها من الجهل الذي يجعلها لا تفقه معنى الإتحاد وضرورته ، فحتى الحيوانات لها الشعور بحس الدفاع عن نفسها ، وتتحد في مواجهة الخطر العام . ووفقا لذلك خلص إلى أنه ، من كانت له مشكلة مع الوحدة العربية ، فعليه أن يتحدث في موضوع آخر غير هذا (1) .

وفي لقائه سنة 1930م مع الأمير " فيصل " ، الذي دام عدة أيام وبحث في عدة قضايا ، ومنها قضية الإتحاد العربي ، وكيفية البدء به بين سورية والعراق والسعي لضم "ابن سعود" فيه استعرض الأمير شكيب عدة وجوه ممكنة للإتحاد وهي : الإتحاد النمساوي المجري ، الإتحاد الألماني ، الإتحاد السويسري ، الإتحاد الأمريكي ، وحث على الاقتداء بأحد منها . مقترحا البدء بالوحدة الجمركية ، والمواصلات والصحة والنقد والجوانب الاقتصادية . مع تكوين تحالف دفاعي عسكري ، والعمل على توطيد العلاقات الودية بين العراق ونجد والحجاز (2) .

ورأى أن نواة الوحدة العربية ، تبدأ بإتحاد سورية مع العراق كمملكة ، ثم مع مملكة الحجاز ونجد حتى اليمن ، مع إحتفاظ كل مملكة باستقلالها ، أما التحالف بينها فيشمل الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية الخارجية ، وهو أمر ممكن حصوله برأيه لولا وجود فئة من العرب أنفسهم تعمل عكس ذلك : (( وليس في هذا الإتحاد ملك يسود على ملك بل كل ملك يبقى على حاله وعلى استقلاله ، وإنما تقع المحالفة العسكرية والاقتصادية ، وتكون سياستهم الخارجية بالتفاهم مع بعضهم البعض ، وكل هذا ممكن لو لا فساد المفسدين من العرب أنفسهم فلا خوف على العرب إلا من العرب )) (3) .

(1) - نجيب البعيني ، المصدر السابق ، ص 267 .

(2) - الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص 123 - 124 .

(3) - نجيب البعيني ، المصدر نفسه ، ص 170 .

واقترح سنة 1940م على الدول الأربع : العراق والسعودية ، اليمن ومصر ، طرح موضوع الوحدة العربية ، والدخول في تحالفات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية ، تجعل منها كتلة واحدة ، تدافع عن مصالح العرب والشرق الإسلامي (1) .

وهو في ذلك، يرمي إلى بناء وحدة عربية على مراحل ، تشمل كل المجالات : المالية والتجارة والاقتصاد والثقافة والسياسة والميدان العسكري . فلا تأخذ شكل الدولة الواحدة ، وإنما دولا متحدة تحافظ على شخصيتها السياسية ، خاصة في سياستها الداخلية ، بينما تتصرف في سياستها الخارجية والدفاعية، وفقا للمصالح العربية وليس لمصلحتها القطرية . بمعنى أن الوحدة تكون في خدمة الدولة القطرية ، مثلما حدث في بلدان المغرب العربي ، التي وظفت فيها الحركات الوطنية التحررية ، فكرة الوحدة - وحدة المغرب العربي - على نحو إيجابي ، في نضالها ضد الاستعمار الفرنسي . فلقد أدى التنسيق بين الحركات الوطنية في كل من الجزائر والمغرب وتونس ، إلى إفشال المخططات الاستعمارية في المنطقة ، بداية من سياسة التجنيس ، والسعي إلى الفصل بين العرب والبربر ... الخ . مما كانت نتيجته التزام تلك الحركات الوطنية ، بوحدة الهدف وهو الاستقلال التام ، زيادة على إنشاء هيئات للتنسيق تمثلت في مكتب " المغرب العربي " ، ثم " لجنة تحرير المغرب العربي " بالقااهرة (2) .

وقد برر اختياره للجزيرة العربية ، لتكون مهدا للوحدة ، ومناطا للأمة العربية جمعاء بكونها بقيت بعيدة عن الاحتلال ، فلا يخفى على أحد أنه من السهل تقوية الموجود ، من استعادة المفقود إشارة إلى البلاد العربية المحتلة (3) . لكنه غير موقفه هذا فيما بعد ، حيث اعتبر مصر البلد العربي الوحيد ، الذي يمكن اتخاذه أساسا لبناء " دولة عربية كبرى " ، وهنا استخدم هذا المصطلح لأول مرة بدل " الوحدة " أو " الجامعة العربية " أو " الإتحاد " أو " الحلف العربي " كما اعتاد على ذلك ، مرجعا السبب في ذلك ، إلى كون مصر تضم جانبا كبيرا من إفريقيا وجانبا أكبر من آسيا ، ولتوفرها على جملة من العوامل ، التي تمثل مواد لبناء الدول الضخمة ؛ كاليد العاملة الوفيرة ، والأراضي الخصبة الغنية بالثروات ... الخ . وهي كلها وسائل بإمكانها

(1) - احمد الشرباصي : شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، مرجع سابق ، ص 67 .

(2) - محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، مرجع السابق ، ص ص 91 - 92 .

(3) - احمد الشرباصي ، المرجع نفسه ، ص 100 .



أن تجعل مصر دون غيرها ، قادرة على تحقيق آمال العرب ، ولا ينقص في ذلك إلا الاستقلال الحقيقي (1) .

وواضح ، أنه بنا موقفه الأول على أسباب سياسية تتمثل: في تمتع أغلب أقطار الجزيرة العربية بالاستقلال والسيادة السياسية ، رغم كونها كانت آنذاك ، لا تزال لم تظهر أهميتها الاقتصادية بعد ، حيث أن اكتشاف وإنتاج الثروات البترولية الضخمة التي تحويها أراضيها ، مازال في بدايته . أما موقفه الثاني ، فقد بناه على أسس جغرافية وإستراتيجية واقتصادية ، ممثلة في موقع مصر الجغرافي ، الذي يشكل همزة وصل بين قسيمي الوطن العربي ( المشرق والمغرب ) ، على خلاف الجزيرة العربية التي تقع في أقصى الشرق . وفي توفرها - مصر - على عدد سكاني هائل هو الأول عربيا ، يمكن توظيفه في قطاع الزراعة خاصة ، في وجود مساحات شاسعة من الأراضي ، تتميز بدرجة خصوبتها العالية ، فضلا عن المياه الكافية التي يوفرها نهر النيل . كل ذلك ، من شأنه أن يحقق الاكتفاء الغذائي ، ليس لمصر وحدها ، بل لكل البلاد العربية ، وهو ما قصده الأمير شكيب .

ولأن الوحدة في نظره مشروع مقدس ، فقد ذهب إلى أن الأمة العربية ، سائرة في طريق تحقيقها ، مهما وضع (( اللثام )) من أعدائها العوائق أمامه ، والمتنلسفون من أبنائها. فالوحدة آتية دون ريب ، مهما طال الزمن ولو بعد مائة سنة ، إذا جسدت أهم شروطها في أرض الواقع (2) .

ومجمل القول ، بعد كل ما جاء في هذا المبحث ، أن الإبراهيمي وشكيبا ، قد أظهرنا تفاؤلا كبيرا ، بإمكانية تغيير واقع البلاد العربية في عصرهما ، عن طريق الوحدة التي اعتبرها ؛ مفتاحا لكل القضايا والتحديات المتمثلة في : الاستعمار والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والحضاري . وربطنا نجاحهما ؛ بالافتتاح بالفكرة اقتناعا تاما ، على المستويات القيادية والشعبية

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، ج 2 ، م 2 ، ص 120 .

(2) - شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص 207.

على حد سواء ، وبسلوك المسلك الصحيح المؤدي إليها ، باتخاذ قرارات عملية حازمة ، بعيدة عن الارتجال والفوضى . وأجمعا على أن العرب سائرون في تحقيق وحدتهم ، رغم الصعوبات والعوائق الكثيرة ، التي تقف في سبيل ذلك .

وفي معرض حديثهما عن الخطوات ، الواجب إتباعها لبناء الوحدة العربية ، ذهب كل من الإبراهيمي وأرسلان، إلى ضرورة تشكيل رأي عام يؤمن ويدافع ويسعى إلى الوحدة ، بل هو الذي يدفع الحكام العرب إليها، كما حدث بالنسبة للشعبين الألماني والإيطالي ، اللذان كانا العامل الأساسي في نجاح المشاريع الوحدوية في بلديهما ، على خلاف ما كان يحدث من قبل ، أين كان السياسيون والقادة العسكريون والدينيون ، هم الذين هم الذين تزعموها ، ولم يهتموا بدور الرأي العام أي الشعبي في ذلك . ومنه فقد أكدوا على أن منطلق الوحدة شعبي وليس فئويا أو نخبويا ، ولعل هذا التوجه يشبه إلى حد كبير، إستراتيجية الشهيد "العربي بن مهدي" في توسيع نطاق الثورة التحريرية الجزائرية وتقوية شوكتها، حتى تعجز الجيوش الفرنسية المدججة بالسلاح والعتاد المتطور من القضاء عليها ، التي لخصها في قوله المشهور : (( أرموا الثورة إلى الشارع فسيحتضنها الشعب )) . لأن احتضان الجماهير العربية العريضة ، لمشروع الوحدة هو من أضمن العوامل لإنجاحها، دون التقليل من أهمية العوامل الأخرى ، التي تحدث عنها الإبراهيمي وأرسلان .

وتميز الإبراهيمي عن أرسلان، بكونه أولى أهمية كبيرة للوحدة الثقافية ، من خلال استفاضة في الحديث عن ضرورة تعريب : كل أوجه الحياة في المجتمع العربي ، بدء بالألسنة وانتهاء بمقتنيات البيوت . ربما لأنه ممن يعتقدون ؛ بأن معظم القضايا والإشكالات في الوطن العربي ، مصدرها ثقافي بالدرجة الأولى ، خاصة وأن الثقافة شكلت إحدى الأدوات المثلى ، لمنع أي تكتل عربي من قبل الاستعمار الغربي . فدفعه حرصه على أن تتال اللغة العربية ، مكانتها في كل ما يتصل بشؤون الحياة في البلاد العربية ، إلى إيكال مهمة التعريب فقط إلى فئة حددها في الأئمة والوعاظ والكتاب العرب والمسلمين ، على أن يكون منهجهم ذا محتوى عربي إسلامي كامل . ومنه فقط وضع التاريخ واللغة العربية والدين الإسلامي ؛ كمقومات أساسية للوحدة العربية . هذا يقودنا إلى التساؤل ، عن تصوره الذي لم يفصح عنه المتمثل في موقع

عرب المشرق العربي المسيحيين في الوحدة العربية ، اذا كان التاريخ والدين الإسلاميين، يشكلان ركيزة أساسية في العملية، وفقا لما ذهب إليه ؟ .

بينما ركز أرسلان، على أهمية تماسك الأمة العربية بعناصر هويتها وشخصيتها، التي تميزها عن الأمم الأخرى ، منتقدا الرأي الشائع بكون أن التقدم يعني التغريب ؛ أي تقليد الغرب في كل شيء ، مفصحا عن مفهومه الخاص للتغريب ؛ وهو اقتفاء آثار الأمم الغربية في طرق أسباب التفوق العلمي والصناعي والبحث، مستشهدا بشعوب وقوميات صغيرة في أوروبا ، ظلت محافظة على هويتها، رغم ما تعرضت له من محاولات لإذابتها في قوالب أخرى . وبالنموذج الياباني، الذي عده نموذجا رائدا في التعامل مع الحضارة الغربية ، حيث أخذ أسرار الرقي العلمي والمادي ، وأدار نظره عن القيم الثقافية والأخلاقية الغربية، مفضلا قيمه الذاتية رغم إيغالها في القدم .

وفيما سبق ، ظل أرسلان متمسكا بالحديث باللغة العربية، حتى في الدول الغربية والأمريكية والأسبوية التي أقام فيها أو زارها ، رغم إتقانه للعديد من اللغات الأجنبية كتابة وقراءة ، مثلما تطرقنا إليه في الفصل الثاني من هذه الدراسة. والواقع أن أرسلان قد إكتفى بالعموميات، في قضية حفاظ الأمة العربية على مقوماتها الشخصية ، على خلاف الإبراهيمي الذي تطرق إليها بالتفصيل .

وتميز أرسلان عن الإبراهيمي، في رسمه لشكل الوحدة على نحو عملي ، عبر استعراضه للنماذج الوجودية التي أنجزت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ، خاصة منها النموذج الألماني الذي بدأ باتفاقيات اقتصادية وجمركية وانتهى إلى وحدة شاملة ، جمعت شمل الشعب الألماني، الذي عانى الفرقة والانقسام، والتجاذبات الإقليمية والدولية لعدة قرون . فاقترح مخططا يشمل السياسة الخارجية ، وتتويج كل ذلك بتحالف دفاعي عسكري، دون إغفال أهمية زيادة العلاقات الودية ، التي من شأنها تعزيز قوة الاتحاد وإبقائه في أعلى مستوياته . مع احتفاظ كل الدول العربية بشخصيتها السياسية ، أي سياستها الداخلية بحكم الخصوصيات الحاصلة في هذا الجانب .

هذا وقد شذ الإبراهيمي عن أرسلان، في هاته النقطة الأخيرة ،حيث طرح فرضية الدولة الواحدة ، متسائلا عن المانع ، إذا كان اليهود وهم دون العرب مكانة وارتباطا ، من تكوين دولة قومية موحدة في أرض ليست لهم . استوعبت كل اليهود المشتتين في العالم ؛ المتباينين في الألوان والعراق واللغات والثقافات، والأوضاع الاقتصادية، والولاءات السياسية والانتماءات الإيديولوجية؟.

وفيما يظهر أن الإبراهيمي ، كان أكثر تمسكا بمطلب استقلال الأمة أدبيا وفكريا ولغويا إضافة إلى الوحدة الثقافية ، فقد قدمها على المطالب السياسية والاقتصادية ، بفعل تكوينه اللغوي والأدبي والديني ، وربما لأنه شهد فشل جل التجارب الوحدوية العربية التي جرت في عهده ، مثل التجربة السورية العراقية والسورية المصرية ، لأن أصحابها تجاهلوا حقائق الواقع ، فقفزوا في تقدير الإبراهيمي على المراحل، وأرادوا الوصول إلى جني الثمار بسرعة، وهو ما لم يتحقق .لكن ذلك لم يمنع الإبراهيمي وأرسلان ، إلى الإعراب عن دعمهما لتلك المبادرات السياسية وتممينها ، عن طريق البيانات التي أصدرها الأول، والرسائل الكثيرة التي وجهها الثاني في هذا الإطار .

لقد كان الإبراهيمي، واضحا منذ البداية ، في ترشيحه لمصر لتكون نواة وقائدة وحاضنة الوحدة العربية، لعوامل تاريخية وثقافية وعلمية وجغرافية وسياسية ، كانت تتوفر عليها مصر دون غيرها من البلدان العربية في تلك الأثناء . فيما اختار أرسلان، في المرة الأولى الحجاز الذي كان في منأى عن الاستعمار والتدخلات الأجنبية ، ثم سوريا والعراق ، ثم الحجاز ، ثم العراق والسعودية ومصر ، ويمكن تفسير عدم استقراره على رأي واحد في هذه القضية ، ربما لكونه أنه كان يراعي الاعتبارات السياسية، أكثر من الاعتبارات التاريخية والاقتصادية والثقافية والجغرافية ، وهو جوهر الاختلاف بينه وبين الإبراهيمي في المسألة .

ولا غرو أن اختيار الإبراهيمي ، كان رأي الغالبية من المفكرين والمصلحين والمتقنين السياسيين العرب ، الذين كانوا يدركون جيدا الموقع الجيوستراتيجي لمصر في الوطن العربي ، والدور المحوري والريادي ، الذي يمكن لها أن تلعبه في قيادة الأمة العربية ، في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والحضارية ، مستفيدة من تجارب بلدان عربية وأخرى محورية

---

مثل سورية والعراق على سبيل المثال. و بطبيعة الحال ، لا يمكن التقليل من اختيارات ارسلان في القضية، لكونه أخضعها للمتغيرات السياسية ، التي لا جدوى من تجاهلها.

**خاتمة الفصل :**

على ضوء كل ما تقدم ؛ يمكن القول أن تيار القومية العربية ، قد ظهر كرد فعل على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، السيئة التي كانت تعيشها الأقاليم العربية في المشرق العربي، أثناء النصف الثاني من القرن 19 وأوائل القرن 20م ، في ظل الحكم العثماني الذي فشل فشلا ذريعا في احتواء الوضع ، بالقيام بإصلاحات سياسية واقتصادية حقيقية . حيث تبين أن ما قام به ، لا يعدو أن يكون مجرد محاولات شكلية لم تمس الجوهر ، فالإشكال الحقيقي كان في طبيعة العثماني ككل ، الذي كان يرفض التغيير من الداخل ، لكي يتمكن من التكيف مع مستجدات العصر ، ربما لأن قاداته لم يقدرُوا حجم التغيرات، والانقلابات السياسية والفكرية والحضارية ( التقنية )، التي كانت تحصل بتسارع شديد، في تلك المرحلة الدقيقة جدا من تاريخ العلاقات الدولية . أو ربما لكونهم كانوا يرفضون التغيير، من منطلق الحفاظ على المصالح الشخصية لزمرة النظام ، والمنفعيين منه؛ من النخبة العسكرية والسياسية والطائفية والبرجوازية، في الولايات العربية .

ومهما تكن، مبررات تعثر الإصلاحات التي تمت مباشرتها ، فإن ظهور وتنامي الفكر القومي العربي ، كان في غير الإمكان الوقوف في وجهه ، وإنما التوافق معه ، وهو ما لم يحدث ، حيث تظاهر الباب العالي ، بتفهمه لجملة المطالب العربية المرفوعة إليه ، والاستعداد للإستجابة إليها ، لكنه في واقع الأمر ، كان يريد ربح الوقت ليس إلا ، حتى يتسنى للنظام العثماني أن يسترد زمام المبادرة ، ويواجه الضغوط الهائلة التي كان يتلقاها من الدول الاستعمارية الكبرى ، التي كانت طرفا أساسيا في الدفع بالعلاقات بين القوميين العرب والسلطين، إلى مزيد من التوتر والتأزم ، ربما لأنها نجحت فيما فشل فيه الباب العالي ، من احتواء للحركة القومية العربية الناشئة، وتوجيهها لخدمة مصالحها الاستعمارية في المنطقة ، التي لم تكن خافية على أحد .

ولعل أكبر أخطاء السياسة العثمانية في المنطقة ، سعيها المستمر إلى قمع أو التضييق على كل الأصوات المنادية بالإصلاح الجذري، الذي يكفل للشعوب العربية حقوقها السياسية، ويحفظ لها عناصر شخصيتها وهويتها ، دون أن يعني ذلك خروجها عن الدائرة العثمانية . فكان

من الطبيعي ، أن يتحول الرفض العثماني المستتر لتلك المطالب ، إلى شعور بالكرهية إزاء كل رموز الحكم العثماني في الأقاليم العربية ، بما فيها القيادات المحلية المنتفعة من الوضع . وكانت النتيجة ، انخراط العديد من القوميين العرب ، في لعبة الصراع العثماني الغربي ، حيث وجدوا أنفسهم من حيث لا يدرون ، أنهم أطراف أساسية في المعادلة ، وأن تحقيق تطلعاتهم القومية لن يكون إلا بالتحالف أو التعاون مع فرنسا وبريطانيا بصورة خاصة ، بل أن هاتين الأخيرتين تحولتا إلى ناظقتين رسميتين باسم القوميين العرب ، ووسيطا بينهم وبين سلاطين الدولة العثمانية ، لتبليغ مطالبهم القومية .

فلقد تحولت باريس و لندن إلى قبلتين ، لأولئك القوميين المطاردين من قبل السلطات العثمانية ، المهددين بالإعدام شنقا في الساحات العمومية ، كما حدث في الولايات الشامية ، بتهمة الخيانة والتعامل مع العدو . فما لم يستطيعوا أخذه ، بالحوار والتفاهم مع حكام الباب العالي ، كانوا يضغطون به عليهم عن طريق الدول الكبرى ، التي كانت تدفع بالعلاقات بين الفريقين إلى المزيد من التوتر و القطيعة ، لأن هدفها كان واضحا هو تأجيج الكراهية ضد الأتراك ، حتى تجتمع الظروف المناسبة لطردهم ، وهو ما حدث عقب الحرب العالمية الأولى ، التي استبدلت فيها المنطقة التخلف والاستبداد العثماني ، بالاستعمار الغربي الذي أخذ تسمية مهذبة في الظاهر وهي الانتداب .

والحق أن اللوم يقع على الطرفين ، العثماني والعربي ، فبالنسبة للطرف العثماني ، لا يمكن بأية حال من الأحوال تبرير المحافظة على الأمن والاستقرار في الدولة ، بالقمع العنيف لكل شكل من أشكال التعبير عن التطلعات القومية والمطالب السياسية والاجتماعية ، التي كانت في أغلبها موضوعية وممكنة التحقيق ، كما أنها في جوهرها لم تكن تصادمية أي ضد الوجود العثماني في المنطقة العربية . فقد وجد من القوميين العرب ، من إترف صراحة بالانتماء السياسي العثماني ، مع التسليم بالتعددية الإيجابية فيه ، ودعا صراحة إلى بقاء الدولة العثمانية مظلة يحتمي بها الجميع ، ومنهم الأمير شكيب أرسلان على سبيل المثال ؛ الذي لم يأبه بالكره العام لها ، ولا بخصوماتها مع الدروز الذين ينتمي إليهم طائفا ، وبذل جهود جبارة في الدفاع

عنها سياسيا وعسكريا ودبلوماسيا وإعلاميا ، ولم يتخلى عنها إلا بعد أن قام الكماليون بإلغاء الخلافة نهائيا، بعد نهاية الحرب الكونية الأولى .

أما الإبراهيمي ، وإن لم يدافع عنها مثلما دافع عنها أرسلان ، إلا أنه هو الآخر لم يوظف قلمه أو لسانه، لصالح الأطراف المعادية لها . أما الطرف الثاني الذي يقع عليه اللوم في القضية ؛ فهي فئة محددة من القوميين العرب ، وخاصة منهم المسيحيين الذين لا يمكن في كل الحالات ، تفهم رغبتهم في التخلص من الاستبداد العثماني ، بالتحالف مع الدول الاستعمارية الكبرى ، التي كانوا يدركون جيدا مراميها وأهدافها . ولسنا ندري هل يمكن تبرير مسلكهم ذلك ، بسذاجتهم التي جعلتهم يثقون في الوعود الغربية التي دفعتهم إلى الحلم بمملكة عربية، تنشأ على أنقاض الحكم العثماني، الذي سيطرد بالتعاون بينهم وبين الغرب ، أو لإعتقادهم بأن الاستعانة بتلك الدول هو حتمية لا مفر منها .

لا تعارض بين الوحدة العربية والجامعة الإسلامية، عند الإبراهيمي وأرسلان ، كلاهما مكملتان للأخرى ، بل ذهبا إلى أن الأولى خطوة نحو الثانية ، باعتبار أن نواة الجامعة الإسلامية هي الدول العربية التي تشكل الجامعة العربية . وقد أكدا على هذا الطرح، ردا على الآراء المحلية و الغربية، التي ذهبت إلى أنهما مشروعين مختلفين في الشكل والمضمون ، وبالتالي فإن السعي لربطهما ببعضهما البعض رهان فاشل . وهم في حقيقة الأمر بنظر الإبراهيمي وأرسلان ، يحاولون ضرب المشروعين معا ، فلا يتهيكل العرب في جامعتهم العربية، ولا المسلمون في جامعتهم الإسلامية .

ولا شك أن الطرح الإبراهيمي والأرسلاني، في هذه النقطة ، سليم جدا ، فلا يمكن للجامعة الإسلامية أن تتم أو تتجح في غياب الدول العربية التي تمثل في نفس الوقت؛ كبرى الدول الإسلامية وأعرقها تاريخيا ودينيا وثقافيا وحضاريا، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، ليس في إمكان الجامعة العربية ، أن تستغني عن رابطة أقوى هي الرابطة الإسلامية ، التي تمنحها فضاء سياسيا واقتصاديا وعسكريا أكبر ، وتنوعا إيجابيا ، بالنظر إلى أن نسبة كبيرة من البلدان الإسلامية، ليست عربية وتنتمي إلى بيئات جغرافية وثقافية وحضارية مختلفة ، حيث تتوزع على القارات الثلاث : إفريقيا وآسيا وأوروبا ، دون أن تغفل المسلمين المتواجدين في كل



أنحاء العالم كأقليات دينية ، الذين حث الإبراهيمي و أرسلان على الالتفات إليهم حماية لهم ، وتقوية للجامعة الإسلامية .

و في الصدد ذاته ، افترضا أن الوحدة العربية، ليست تكتلا عنصريا معاديا للأمم والأقوام غير العربية ، بل هي إطار سياسي واقتصادي وثقافي وحضاري، يتطلع إلى خدمة المصالح العربية ، وإلى تنمية التعاون والتبادل مع الوحدات والتنظيمات والتكتلات، الموجودة في الساحة الدولية ، على أساس الاحترام والمنفعة المشتركة . فلا يمكن بأية حال من الأحوال ، تشبيه الوحدة العربية بالوحدتين الإيطالية والألمانية ، اللتان ربطتا المصالح القومية لألمانيا وإيطاليا ، بمعادة القوميات الأخرى ، والدخول معها في حروب مدمرة ، كانت نتائجها كارثية على الجميع.

إن الشيخ البشير الإبراهيمي ، حينما شدد على ضرورة أن تكون الجامعة العربية، ذات محتوى عربي إسلامي كامل ، فإنه في حقيقة الأمر ، وكأنه يدعو إلى جامعة إسلامية مصغرة ، وهو ما لم يتبناه أرسلان ، الذي اشترط فقط العروبة للانضمام إلى الجامعة العربية ، مثلما أكد عليه القوميون العرب الأوائل ، الذين كانوا في غالبيتهم مسيحيين ، فجعلوا العروبة أساسا لدعوتهم ، وأقصوا الدين سواء كان الإسلام أو المسيحية . وعليه فإن رؤية الإبراهيمي هنا ، تصطدم بالمعسكر المسيحي ، الذي قد يتقبل فكرة الانضواء في إطار الجامعة الإسلامية على أساس التعاون لا التبعية ، لكنه في المقابل سيرفض لا محالة جامعة عربية قوامها الدين الإسلامي، الذي ليس دينهم بالضرورة .

لقد غطى تفاؤل الإبراهيمي وأرسلان ، وحماسهما الشديد للوحدة العربية ، على العقبات العملية الموجودة في الميدان ، والتي لا يمكن تجاهلها مثل: التعددية الدينية (الإسلام و المسيحية ) و الطائفية و المذهبية ، و حتى القبلية والإيديولوجية ، التي أدت إلى انقسام في الولاءات السياسية، والتباين في المرجعيات الفكرية . فقد تعرضت المنطقة العربية مع نهاية الحرب الكونية الأولى، إلى محاولات جدية لاستقطابها سياسيا وإيديولوجيا؛ فانقسمت النخبة المثقفة والسياسية فيها، إلى يسارية تتبنى المنظومة الاشتراكية المدعومة من طرف الاتحاد السوفيتي ، وإلى ليبرالية حاولت ربط مصالحها المحلية والعربية بالمنظومة الرأسمالية . فكان من الطبيعي

أن تتأثر الدعوات إلى الوحدة العربية، بتلك التجاذبات الإيديولوجية ، زيادة على طرف إيديولوجي ثالث وقف ضد الفريقين، تمثل في عدد معتبر من قادة النهضة والحركة والإصلاحية العربية ومنهم: الشيخ البشير الإبراهيمي ، الذي رفض صراحة في أكثر من مرة، مسألة الاستقطابات الإيديولوجية والسياسية ، لأنها بحسبه مجرد غطاء، تستخدمه الدول الكبرى لفرض هيمنتها على المنطقة، وتحقيق ما عجزت عنه بالاستعمار . وقد ذهب بعيدا في موقفه هذا ، حيث جهر بمعارضته الشديدة للنهج الاشتراكي، الذي اختاره قادة الجزائر بعد الاستقلال ، الأمر الذي كلفه الإقامة الجبرية وقطع معاشه إلى أن توفي (1) .

اتفق أرسلان و الإبراهيمي ، على أن الأمة العربية ، تملك كل المقومات التي تجعل منها أمة موحدة الأجزاء، متكاملة في علاقاتها البينية والخارجية ، تنقصها فقط الإرادة السياسية، والوعي الاجتماعي بأهمية الوحدة وحتميتها ، لمجابهة تحديات العصر على كافة الأصعدة والمستويات . لكنهما اختلفا في الأولويات ؛ فالإبراهيمي رأى ضرورة إنضاج الفكرة شعبيا، عن طريق التربية الاجتماعية والتوعية السياسية . أما أرسلان، فإنه وإن لم يقلل من أهمية تصور الإبراهيمي ، فإنه أظهر ميلا واضحا، إلى العمل السياسي في هذا الاتجاه ، واستعجالا في إنجاز الوحدة ، لأن الأوضاع التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى ، والتي لم تكن في صالح العرب ، ومنها استعداد الدول الكبرى لبسط احتلالها على ما تبقى من البلاد العربية ، لم تكن في نظره تنتظر أي تأخير . أما موقف الإبراهيمي السابق ، فقد بررناه بعدم ثقته كثيرا في القادة السياسيين، والحكام العرب في تلك الأثناء ، لما أظهره من ضيق في الأفق السياسي ، ولانشغالهم بمصالحهم الضيقة ، واستغراقهم في إثارة الخلافات والحساسيات ، التي لا طائل منها ، ولا تؤشر إلا على انحطاطهم ، وعدم إدراكهم للتحديات التي كانت تواجهها الأمة حاضرا ومستقبلا .

وفي الأخير نستطيع القول ، ان التصورات والأفكار التي قدمها أرسلان و الإبراهيمي ، لتجسيد مشروع الوحدة العربية في أرض الواقع ، عملية وممكنة ، تتطلب فقط وفق ما ذهبنا إليه

(1) - للتفصيل في هذه القضية ينظر رسالتنا : الشيخ البشير الإبراهيمي ودوره في القضية الوطنية 1920 م -

الجدية والمثابرة ، والافتتاع بأن قوة العرب في وحدتهم ، وليس في انقسامهم إلى وطنيا صغيرة متنازعة فيما بينها ، وقد تأكد للجميع أن الاستمرار في ذلك الوضع غير السليم ، خطأ استراتيجي كبير ، ينبغي تداركه بالوحدة العربية الشاملة <sup>(1)</sup>.

فالتاريخ شهيد على العرب إما لهم وإما عليهم ، كما ذكر الإبراهيمي، الذي أضاف أنه من المحزن أنه شهيد عليهم بالتخاذل والتفكك، والركون إلى الكلام والأعمال غير المجدية ، وهو الذي لا يسجل إلا الأعمال العظيمة على حد تعبيره <sup>(2)</sup> .

هذا وقد كشف الإبراهيمي وأرسلان، من خلال تطرقهما المستفيض لحال الأمة العربية ، وواقع الارتباط والتضامن فيما بينها، عن حجم التحديات الداخلية: (( الفرقة والانقسام المفتعل عبر التاريخ )) والخارجية التي تواجه العرب ، وتفرض عليهم الإسراع في انجازها للتصدي لتلك التحديات : (( فإذا ما تمت تهيأت لهم أسباب القوة والتقدم والتكامل في ميادين الحضارة ، وتبوؤوا المكانة الممتازة التي تليق بهم ، وبما كان لأسلافهم من أمجاد عظمى سياسيا وعسكريا وأدبيا واجتماعيا ، ودر عليهم من الخير ما يجعلهم في مقدمة أمم الأرض قوة وحضارة ورفاها )) . فإن استمروا في تقاعسهم ، فسوف يظلون عرضة لكل أنواع الازدراء والاعتداء، والاستغلال من قبل أعدائهم <sup>(3)</sup> .

<sup>(1)</sup> - فايد بشير : " خطوات تحقيق الوحدة العربية في تصور الشيخ البشير الإبراهيمي ( 1889م - 1965م )" ، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر: العدد 07 / السداسي الثاني / 2008 ، ص 228 .

<sup>(2)</sup> - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 376 .

<sup>(3)</sup> - هادي حسن عليوي : الاتجاهات الوجدانية في الفكر القومي العربي المشرقي ( 1918م - 1956م ) ، م د و ع ، ط 1 ، بيروت ، 2000م . نقلا عن محمد عزة دروزة : الوحدة العربية ( مباحث في معالم الوطن العربي الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها ) ، د ط ، القاهرة : د ت ، ص ص 304 - 92 .

خاتمة البحث

## خاتمة البحث

من خلال ما سبق عرضه و شرحه ، و تحليله و مناقشته و مقارنته، في هذه الدراسة التي تتدرج ضمن الأبحاث التاريخية الفكرية المقارنة، يمكن استخلاص النتائج التالية :

- أولاً : يبدو من خلال هذه الدراسة ان البيئة السياسية و الاقتصادية، و الاجتماعية و الثقافية و الدينية ، التي شب فيها الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب ارسلان ، قد كان لها تأثير جوهري، في بلورة مواقفهما الفكرية و السياسية من قضايا عصرهما عامة ، و العربية الإسلامية خاصة . و هي ميزة لا تقتصر عليهما فحسب ، بل شملت معظم رجال الفكر و الإصلاح العرب و المسلمين ؛ لأن التنشئة الأولى للفرد، هي التي تتحكم فيما بعد، في الكثير من معالم فكره و نظرتة و تصورہ، فإن حدث بعض التغيير أو التعديل ، بفعل الاحتكاك ببيئات أخرى مختلفة عن البيئة الأولى ، فلا شك أنه سيكون طفيفا أو بسيطا . دون أن يعني ذلك ، إسقاط فرضية إمكانية أن يتخلى رجل الفكر أو العالم، عن قناعاته أو رؤيته ، جملة واحدة أو بشكل جزئي ، التي اكتسبها من بيئته الأصلية .

فالأمتلة عن ذلك عديدة ، أوردنا بعضها في هذه الأطروحة ، و منها مثال الاديب المصري الالمعي "طه حسين" ، الذي عاش حياة تقليدية محافظة في كل شيء ، في البيت و الحي و المدرسة و البلد مصر ، فكان في بداية الأمر نموذجا للأديب المثقف الشرقي ، الملتزم بالقيم الحضارية الشرقية؛ في سلوكه اليومي أو في إنتاجه الأدبي و الفكري و الثقافي، دون إشكال ، فظل على هذا النهج في أغلب فترات حياته . لكن كل ذلك تغير فجأة ، لما سافر إلى باريس، التي فتحت أمامه آفاقا حياتية و أدبية و ثقافية و فكرية و سياسية و قيمة جديدة ، لم يعدها في مصر أو في الشرق . فتحول من مدافع عن ما سلف من مكتسبات، إلى مهاجم و منتقد ، لكل الموروث الشرقي حتى الايجابي منه، بل انه عمد الى التشكيك في الكثير من المسلمات، التي تعلمها في الكتاتيب المصرية أو في جامع الأزهر، أو من أمهات كتب الأدب و السير و التراجم و التاريخ و الدين . فلقد مثلت فرنسا بالنسبة إليه، إعادة لإكتشاف الذات، و الحياة التي ظلت مجهولة لديه، لما أمضى نسبة كبيرة من عمره في مصر، التي عدها طليعة التخلف و الإنحطاط الشرقي .

في حين كان الإبراهيمي و أرسلان ، مثل غيرهما من نخبة الفكر و الإصلاح و التجديد ، يعتبرانها المركز الإشعاعي و التنويري، الأول في العالم العربي الإسلامي ، و لذلك سافرا إليها كما كان يفعل الكثيرون ، من أجل إستكمال تكوينهما العلمي و الفكري ، و لتتمة آفاقهما السياسية ، بفضل عراقتها في ميادين العلم و الدين و الثقافة و الأدب و الإبداع ، و للمؤسسات العلمية و الدينية التي كانت تحوز عليها ، و تعد في تلك الأوقات مراكز إشعاع علمي و حضاري، يقصدها طلاب العلم و المعرفة من كافة أنحاء البلاد العربية و الإسلامية ، و لموقعها الجغرافي الممتاز ، الذي جعلها منطقة إتصال بين الشرق و الغرب ، و لا تزال كذلك إلى غاية الآن .

و إذا كان "طه حسين" و غيره من الأعلام ، الذين دفعهم إنبهارهم الشديد بالحضارة و الحياة الغربية ، إلى الإنقلاب كلية على آرائهم و أفكارهم السابقة ، فإن أرسلان و الإبراهيمي كانا على العكس من ذلك ، فبالرغم من أن الأول قد عاش جزءا كبيرا من حياته في أوروبا ، التي إستطاع أن يندمج فيها بسهولة لكونه كان يتقن العديد من لغاتها ، و لشخصيته المتميزة ، التي سمحت له بالإقتراب حتى من الأوساط الحاكمة بها . و بالرغم من أن الثاني قد زار و أقام مدة معينة، في فرنسا التي تعتبر آنذاك ، عاصمة أوروبية و عالمية للفكر و الأنوار ، إلى أنهما لم ينتهيا إلى ما إنتهى إليه "طه حسين" ، بل أنهما أظهر تمسكا أكثر بخصوصيتهما الشرقية، و بقيهما الدينية و الحضارية ، و توصلا كما إتضح في هذه الدراسة ، إلى أن محاربة التخلف و الانحطاط ، لا يكون بالتجرد من كل ما أكتسبه العرب و المسلمون من تراث عبر الزمن ، و إنما من خلال مراجعة نقدية شاملة له ، للوقوف على الصالح منه القابل للبعث و الإحياء ، و ترك الفاسد الذي تجاوزه الزمن ، مع أخذ العناصر الإيجابية من الحضارات الأخرى و على رأسها الغربية ، و المتمثلة في التطور العلمي و التكنولوجي ، الذي لا غنى عنه للحاق بركب الأمم المتعدنة .

**ثانيا :** تميزت البيئة اللبنانية التي ترعرع فيها الأمير شكيب ، بمزيج من الإيجابية و السلبية ، و مرد ذلك الى أن لبنان في عصر شكيب عاش مرحلتين مختلفتين نسبيا ؛ المرحلة الأولى عثمانية والثانية فرنسية استعمارية . ولأنه عاش أغلب فترة شبابه في العهد العثماني،الذي استمر

---

حتى الحرب العالمية الأولى ، فإنه لم يتأثر بتبعات الاحتلال الفرنسي للبنان ، إلا و هو في نهاية العقد الخامس من عمره .

و هو ما لم يتوفر للبشير الإبراهيمي ، الذي ولد و الجزائر قد مضى على إحتلالها تسع و خمسون سنة ، كانت كافية لإخضاع الشعب الجزائري عسكريا، و سياسيا و إقتصاديا وثقافيا . فحتى و إن كان النظام العثماني في لبنان، و في غيره من الولايات العربية التي كانت تحت حكمه ، نظاما فاسدا و مستبدا و خاصة في سنواته الأخيرة ، إلا أنه و مع ذلك لم يخلو من بعض الإيجابيات، بالمقارنة مع الوضع الذي كان سائدا في الجزائر ؛ و منها فتحه المجال السياسي لبعض الفئات الإجتماعية و الطائفية في لبنان، لكي تشارك في الحياة السياسية المحلية و حتى العثمانية ، كما حدث مع أسرة آل أرسلان، الذين حكموا لوحدهم منطقة الجبل و الشوف طيلة الوجود العثماني ، أكثر من ذلك أنهم كانوا يحضون بمعاملة خاصة على أعلى مستوى لدى الباب العالي ، سمحت للأمير شكيب- كما مر بنا- أن يصبح عضوا في "مجلس المبعوثان" العثماني، و مقربا من كل السلاطين إلى غاية إلغاء الخلافة . و هي سياسة دأبت عليها الأوساط الحاكمة في الدولة العثمانية، خصوصا في الولايات الشامية ، بسبب تركيبتها الإجتماعية و العرقية و المذهبية و الدينية الخاصة . و لا جدال في أن الأمير شكيب، قد إستفاد كثيرا من هذا الوضع السياسي المتميز في البلد بصورة عامة ، و بالنسبة لعائلته بصورة خاصة ، مثله مثل أبناء العائلات الكبرى الأخرى : المسلمة بشقيها السني و الشيعي ، و المسيحية بفروعها الكاثوليكية و الأرثوذكسية .

و في المقابل إكتشف الشيخ البشير، و هو في سن مبكرة ، أنه يعيش في ظل نظام إستعماري، لا يعترف بأية حقوق سياسية للجزائريين ، و لم يكتف بذلك، بل عمد إلى منع قيام أية نخبة سياسية في البلد ، و هو ما يفسر غياب مقاومة سياسية حقيقية، موازية للمقاومة الشعبية إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى 1914 م - 1918 م . فلقد تعرض إلى التهميش و الإقصاء و التضييق ، حتى أولئك المثقفون و السياسيون الذين سعوا للتقرب من إدارة الإحتلال ، بعرض خدماتهم عليها ، و إبداء حسن نواياهم إتجاهها ، على أمل أن تلين من نظرتها إليهم ، فتتعامل معهم كشريك محترم ، و هم الذين أعربوا صراحة عن إعترافهم بالسيادة

الفرنسية و إنبهارهم بالقيم و المدنية الأوروبية بشكل عام، و الفرنسية بشكل خاص ، و رغبتهم في الاندماج فيها . لكنهم لم يجدوا منها إلا الرفض و الصد التامين ، لأنها كانت تخشى من أن يؤدي ذلك إلى تهديد مصالحها في المستقبل ، فهي لا تثق في الجزائري الذي كانت تصفه " بالأهلي " ( L'indigène )، حتى و إن كان متعاوناً معها تعاوناً تاماً، و متتكرراً تماماً كاملاً لقيمه الوطنية و القومية .

و منه فقد سمح الجو السياسي العام، الذي كان سائداً في لبنان للأمير شكيب، أن يتمتع بحقوق المواطنة في إطار السيادة العثمانية ، و أن يحقق بعض طموحاته السياسية؛ المتمثلة في تولي المناصب المهمة، و المشاركة في النشاط السياسي على مستوى أعلى . و في هذا نعتبر الأمير شكيب كان محظوظاً جداً ، لأن المجتمع الجزائري الذي ينتمي إليه الشيخ البشير ، كان أفراداً يخضعون لقوانين عنصرية ( قانون الأهالي )، جعلتهم في مرتبة العبيد الذين يعملون فقط، لصالح مجتمع المعمرين، المتمتعين بكل المزايا و الحقوق المدنية و السياسية . و حتى فترة الإحتلال الفرنسي في لبنان، لم تكن بالسوء الذي كانت عليه في الجزائر ، حيث أن الإدارة هناك أبقت تقريباً على نفس السياسة العثمانية ، مع تقوية دور و نفوذ العائلات المسيحية، و إضعاف العائلات المسلمة، التي لا تقدم الدعم المطلوب للسياسة الإستعمارية ، أو بمعاينة بعض أفرادها الذين لا يقومون بذلك، مثل الأمير شكيب الذي تعرض للمطاردة و النفي، ليس لأنه ينتمي إلى أسرة درزية مسلمة ، و إنما لكونه جهر بعدائه الشديد ليس لسلطات الإحتلال الفرنسي في لبنان فحسب، و إنما لجميع الدول الإستعمارية و في مقدمتها فرنسا .

أما في الجزائر، فقد اختلف الأمر عنه في لبنان ، إذ صدت الإدارة الفرنسية الأبواب في وجوه الجميع، و لم تعامل أية شريحة إجتماعية، بمعاملة تفضيلية كما فعلت في لبنان . فحتى بعض الجزائريين، الذين تمكنوا بعد محاولات كثيرة و مساعي حثيثة، من ربط علاقات مع قادة الإحتلال، مقابل خدمات متنوعة يسدون لها ، إنتهى بهم الأمر في نهاية المطاف، إلى الإقصاء و اليأس .

و عليه نستطيع القول، أن البيئة السياسية اللبنانية ، كانت أفضل بكثير منها في الجزائر، في عصر الأمير شكيب و الشيخ البشير ، سواء لما كان لبنان ضمن السيادة العثمانية، أم تحت



الإنتداب الفرنسي . فقد كان متاحا للأمير، الإختيار بين معاداة الإستعمار الفرنسي مثلما فعله، أو مهادنته، كما كان نهج الكثير من أبناء الأرسقراطية اللبنانية، و خاصة المسيحية منها. بينما كان الشيخ البشير، شأنه في ذلك كشأن كل الجزائريين، مجبرا على محاربة الإستعمار الفرنسي، الذي هضم حقوق المجتمع بأكمله، و مارس عليه كل أصناف القمع و التعسف و الإستبداد ، و هي السياسة التي لم يتخل عنها إلى غاية إخراجها من البلاد لسنة 1962 م، بعد ثورة مسلحة دامت سبع سنوات و نصف .

**ثالثا :** و لأن الأمير شكيبا، نشأ نشأة أرسقراطية بإمتياز ، فقد ظهر تأثير ذلك بوضوح في شخصيته، و في طموحاته المستقبلية التي رسمها لنفسه، و هو لا يزال شابا يطلب العلم في المدارس اللبنانية ، حيث كان كثير الإهتمام، بأدق التفاصيل المتعلقة بحياته اليومية؛ من أكل و لباس و عناية بصحته ، و بمسكنه الذي بناه على الطراز الأندلسي، و أنفق عليه ثروة كبيرة و جلب له متخصصين في ذلك الطراز العمراني القديم من المغرب الأقصى ، و حتى أنه لجأ إلى استيراد بعض مواد البناء المفقودة في لبنان، من أجل إنجاز المشروع وفق ما كان يحلم به . و بالرجوع إلى كتاب نجيب البعيني : " من أمير البيان إلى كبار رجال العصر " ،الذي ضمنه مئات الرسائل التي كان يبعث بها إلى أصدقائه و إلى عائلته ، نجد عددا معتبرا منها يستفسر فيها اخوته عن وصول الأموال، التي كان يرسلها من منفاه خصيصا لإتمام إنجاز البيت ، و عن كفاءة البنائين و العمال... الخ، و غيرها من الإستفسارات التي تشير إلى إهتمامه الكبير بهذه القضية .

أما بشأن طموحاته ، فقد لخصها في قوله أنه جاء لهاته الحياة، لكي ينقذ الأمة العربية الإسلامية، مما هي فيه من تخلف و إنحطاط ، مع تأكيده على أن ذلك ليس أضغاث أحلام، و إنما حقيقة لا جدال فيها . و هو ما يفسر كونه، أنه كان يقحم نفسه بإستمرار في أي قضية عربية أو إسلامية مهما كانت ، و يعتبر نفسه ناطقا بإسمها و محاميا عنها، و الأمثلة على ذلك كثيرة و منها : إتصالاته التي أجراها مع السياسيين الإيطاليين، و على رأسهم الزعيم "موسيليني" بشأن القضية الليبية ، و الأمر ذاته كان يقوم به لصالح القضيتين السورية و الفلسطينية ... و غيرهما .

و هي الميزات، التي لم نعثر لها على أي أثر لدى الإبراهيمي ، الذي نشأ في وسط عائلي ريفي متفتح على الآخر، ممثلا في الشرائح الاجتماعية الفقيرة ، بعيدا عن حياة الرفاهية التي عاشها شكيب . و لذلك وجدناه في جانب معتبر من آثاره، يتحدث عن الفقر و الفقراء، و البطالة و الأمراض الاجتماعية، المنفسية في الجزائر آنذاك بقوة ، بفعل سياسة التجهيل و الاستغلال و التفقير، التي طبقتها فرنسا في الجزائر . و في المقابل، كان يحث على الأخوة و التعاون الاجتماعي، و محاربة الآفات الاجتماعية، عن طريق التعليم و تقوية الوازع الديني، و مساعدة الأفراد على إيجاد فرص للعمل مهما كانت بسيطة، لمساعدة أهاليهم على متطلبات الحياة، التي جعلها المستعمر صعبة إن لم تكن مستحيلة . و لملء الفراغ الذي إعتبره الحقل الخصب لكل الأمراض و الآفات الاجتماعية الفتاكة؛ كتعاطي الخمر مثلا ، بتشجيع من الاستعمار، لأنها تصب في مصلحته المتمثلة في تفكيك المجتمع، و إغراقه في الفساد و الانحراف ، حتى لا يلتفت إلى حقوقه المهضومة، و لا إلى وطنه المغتصب . و لذلك أيضا وجه عنايته، على غرار بقية العاملين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، إلى نشر التعليم على نطاق واسع بين صفوف الجماهير الشعبية، في الأرياف و المدن ، و تنمية المعرفة و الثقافة بين أوساطهم ، لتنشأ أجيال واعية بواقعها، مدركة للتحديات التي تنتظرها ، فتعمل على طرد المحتل كشرط أول لنهوضها فيما بعد .

في حين غلبت على إهتمامات و مسيرة إرسال ، القضايا السياسية بصورة خاصة ، و لذلك قلما نجد له حديثا عن موضوع اجتماعي، أو تحليلا لظاهرة إجتماعية، كما كان يقوم به الإبراهيمي ، الذي و ان كان يعالج من خلال ذلك، أمراض المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي ، فإنه كان يسقطها على كل البلدان العربية و الإسلامية، التي كانت أوضاعها تتشابه إلى حد كبير مع الوضع في الجزائر .

**رابعاً :** بالرغم من أن فرص التعليم بالنسبة للجزائريين، كانت محدودة جدا ، نظرا لأن التجهيل و نشر الأمية، كانا إحدى دعائم السياسة الفرنسية في البلاد ، و التي عبر عنها الجنرال " بيجو " بمقولته الشهيرة : (( السيف و المحراث و القلم )) ؛ حيث قصد بالسيف القوة العسكرية، و المحراث الاستيطان الزراعي ، أما القلم فأشار من خلاله إلى ما ينبغي القيام به في

---

المجال التعليمي و الثقافي و هو : حرمان كل الفئات الاجتماعية الجزائرية، من أية فرصة للتعليم و التنقيف و لو كانا بسيطين ، مع بعض الاستثناءات، لما تطلب الأمر تكوين بعض الكتاب و المترجمين و الأئمة و القضاة، إستجابة لحاجة الإدارة لمثل هاته الوظائف ، التي لا يستطيع الفرنسيون أو الأوروبيون القيام بها ، لأنها تتعلق بشؤون الأهالي و ليس المعمرين . أو فيما يتصل بتأهيل اليد العاملة الجزائرية، العاملة في الميدان الزراعي ، تحقيقا لرغبة المعمرين في زيادة مردودية الإنتاج و تحسين نوعيته .

و بالرغم من كل ذلك، استطاع البشير الإبراهيمي ، بفضل المستوى التعليمي و العلمي الممتاز، الذي كانت تقدمه عائلته لأبنائها، و لقاصديها من مختلف أنحاء البلاد ، من أن يتجاوز العقبات السالفة الذكر، التي كانت تحول بين الجزائريين و تحصيل العلم و المعرفة، و بفضل إصراره على إستكمال تكوينه خارج البلاد ، حيث هاجر قاصدا المراكز العلمية الكبرى في المشرق العربي في سبيل ذلك . ليتمكن في النهاية، من تحقيق رغبة فحسب ، بل من التفوق على معاصريه من المشاركة، في تخصصات كانت حكرا عليهم و هي اللغة العربية و آدابها، اللذان كان له فيهما إجتهدات شخصية، لم يسبقه إليها أحد ، فولي إمارة البيان العربي، التي تنازل له عنها الأديب اللبناني "أمير الريحاني" .

و لم يقتصر تفوقه في هذا المجال ، بل تعداه إلى مجالات أخرى مثل الفقه ، الذي أبان فيه عن إمام كبير بالتراث الفقهي الإسلامي، منذ بداياته الأولى و إلى غاية عصور الإنحطاط ، و كانت له فيه مواقف نقدية، لم يجرأ أحد من قبل على إتيانها ، الأمر الذي يجعله من أوائل المجددين فيه في الفترة الحديثة و المعاصرة . أما في المجال الفكري ، فقد أظهر مستوى رفيعا، في معالجة القضايا السياسية و الاجتماعية و الإقتصادية، التي كانت مطروحة للنقاش على الساحتين العربية و الإسلامية في تلك الأثناء ، فشكلت آراؤه و أفكاره و مقترحاته، إضافة نوعية في بعض الجوانب، و خاصة الدينية و الاجتماعية منها . و هي في حقيقة الأمر لم تمثل فكر الإبراهيمي فحسب، الذي لا جدال في تميزه ، بل فلسفة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي إتخذت من الإصلاح أداة للنهوض بالمجتمع، من ركوده و جموده و إنحطاطه ، و هو نهج أثبت نجاعته بعد مدة من الزمن ، لما إستطاعت أن تكون الآلاف من الطلبة، تكويننا جيدا

نال التقدير و الإحترام، في المؤسسات العلمية في تونس و المغرب و مصر و الشام و الحجاز .  
- **خامسا** : جلي أن الاختلافات الأساسية ، بين المجتمعين اللبناني و الجزائري ، فيما يتعلق بالتركيبة الدينية و المذهبية ، قد كان لها هي الأخرى دورا هاما، في صياغة نظرتي الرجلين من المسألة الدينية على نحو خاص . فقد ظهر الأمير شكيب، أكثر لنا و إنفتاحا في مناقشته و معالجته، للواقع الديني في العالم العربي و الإسلامي ، المتسم بالتردي و الإنحطاط، مثله مثل الميادين الأخرى . و السبب في ذلك، هو تميز المجتمع الجزائري، الذي ينفرد بالأحادية الدينية و المذهبية العرقية ؛ و هي خصائص انعكست بشكل واضح على فلسفة و فكر الشيخ البشير ،المتصلين بالإصلاح الديني في البلاد العربية و الإسلامية ؛ إذ أنه في غالب الأحيان، ينطلق من الخصوصية الجزائرية أو المغاربية، ثم يعممها على كافة أقطار العرب و المسلمين ، في حين أن الوحدة الدينية و المذهبية و العرقية السائدة، في الجزائر أو بلاد المغرب ، لا تشمل بلاد المشرق أو بقية البلدان الإسلامية .

فعلى سبيل المثال، نجده حينما يتحدث عن مسلك علماء الدين المتأخرين، و ما يجب عليهم القيام به، لكي يستعيدوا قيادتهم للأمة ، يدعوهم إلى ترك كل إختلافاتهم جانبا ، و الإقتداء بالعلماء الأوائل الذين بنوا الحضارة العربية الإسلامية ، متجاوزا واقع الحال الذي يتسم بالإنقسام المذهبي، الذي تكرر منذ عدة قرون ، حتى أصبح حقيقة لا يمكن إلا التكيف معها، هذا من ناحية . و من ناحية أخرى ، فإنه تجنب الإشارة في أغلب أحاديثه و كتاباته، عن حقيقة أخرى ، و هي الوجود المسيحي، الذي لا يمكن الإستهانة به في المشرق العربي خاصة ، حيث أنه في كثير من الأحيان يضعهم في الدائرة الإسلامية، في حين أن ما كان يحدث في الميدان عكس ذلك فقد كانت ولاءات نسبة كبيرة منهم بإتجاه الدائرة المسيحية الغربية، و ليس العربية الإسلامية .  
و هي الإشكالية التي لا تطرح بالنسبة للأمير شكيب ، الذي كان أكثر وضوحا في هاتاه القضية ، و نستشف ذلك في تركيزه على دورهم الأساسي في الحضارة العربية الإسلامية، هذا في الماضي ، و في الدور ذاته الذي يمكن أن يلعبوه، في محاربة الإستعمار و التخلف، و إستعادة الأمجاد الحضارية السابقة ، و ليس دعوتهم إلى الإنضواء تحت المظلة الإسلامية، و تبني خيارات سياسية، ليست بالضرورة ضمن خياراتهم ؛ كالجامعة الإسلامية، التي جعل

الإبراهيمي العاطفة الدينية شرطا أساسيا للانتماء إليها ، أو الجامعة العربية التي نظر إليها على أنها مجرد جامعة إسلامية مصغرة، بمعنى أن نواتها الصلب تتكون من العرب المسلمين بالدرجة الأولى . و بطبيعة الحال، أن هذا الطرح الإبراهيمي، يثير حفيظة العرب المسيحيين، حتى أولئك الذين لهم ميولا شرقية . و لا ريب أنها إشكالية معقدة، تحتاج إلى معالجة دقيقة و واضحة . و الحق أن ما طرحه أرسلان في هذا الصدد ، هو برأينا أكثر عملية، مما جاء به الإبراهيمي ، فقد إشتراط العروبة فقط للانضمام إلى الجامعة العربية، و العروبة و الإسلام للتكامل في إطار الجامعة الإسلامية . و هكذا كان للبيئة الدينية، دور بارز في تحديد و توجيه رؤيتي الرجلين، فيما يخص المسائل السابقة .

سادسا : كان جيل الأمير شكيب و الشيخ البشير، شاهدا على تلك التحولات الكبرى، و الأحداث المفصلية التي عرفها العالم ،خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين ، التي أثرت بشكل عميق على الحياة العالمية، في المجالات السياسية و العسكرية و الإقتصادية و الإجتماعية، و الثقافية و الحضارية ، و مست كل البلدان و الأقطار بدون إستثناء، و إن كانت بدرجات متفاوتة . و بطبيعة الحال ، كان العالم العربي الإسلامي، أكثر البقاع التي تأثرت تأثرا مباشرا، بنتائج تلك التحولات و الأحداث ، لأسباب جيوسياسية؛ تتعلق بالموقع الجغرافي، الذي جعل أقطاره في إحتكاك مباشر مع القوى الإستعمارية الكبرى ، التي كانت تتطلع لإحتلاله عسكريا ، بغية الإستفادة من المزايا الإقتصادية و الإستراتيجية ، التي يمنحها ذلك الموقع .

و لأسباب تاريخية و ثقافية ، متمثلة في الصراع الأبدي بين الشرق و الغرب ، لدوافع حضارية و دينية التي يعبر عنها بالحروب الصليبية ، كان من الطبيعي أن تنصب اهتمامات المفكرين و المصلحين و العلماء العرب و المسلمين ، على التصدي لتبعات هذا الوضع الذي أفرزته العوامل السابقة ، و هو ما يعبر عنه في الأوساط السياسية الأكاديمية بفكر الصدمة ، حيث تجد النخبة المفكرة و المثقفة نفسها، وجها لوجه أمام أوضاع و مواقف ، قد تتجاوزها من حيث التعقيد و التشاكل ، فتأتي محاولاتها لمعالجتها في شكل ردود أفعال، تفتقد إلى النضج المطلوب ، لأن عامل الزمن لم يكن إطلاقا إلى جانب تلك النخب ، التي حملت على عاتقها

تراكمات إرث قرون من التخلف و الفساد و الانحطاط ، يستوجب الأمر قرونا مماثلة من أجل عمليات التقويم أو الإصلاح أو التجديد .

و بالتالي نعتقد أن أرسلان و الإبراهيمي، على غرار جيلهما من قادة النهضة و الإصلاح ، لم توفر لهم الأوضاع السالفة الذكر، الظروف المناسبة لكي يعالجوا قضايا الأمة العربية الإسلامية ، على نحو يجعل ما اجتهدوا فيه، قابلا للتطبيق من الناحية العملية ، في وجود الكفاءة الفكرية و العلمية المطلوبة في هذا الصدد . و مع ذلك اضطلعوا بالمهمة ، و لم يتركوا مجتمعاتهم تواجه مصيرها لوحدها ، في غياب القادة السياسيين المؤهلين أكثر من غيرهم في مثل تلك الأوضاع، لقيادة حركات مقاومة الإستعمار و سياساته، و النهوض بالأمة من كل النواحي . فقد وجدنا الأمير شكيب، في طلائع المجاهدين ضد الإحتلال الإيطالي للبييا ، و إلى جانب الجيش العثماني لإخماد ثورات البلقان ، و على رأس الدبلوماسية العربية و الإسلامية، المدافعة عن فلسطين و سوريا و الحجاز ، و من جملة المفكرين المشتغلين بقضايا التخلف و النهضة، على المستويين العربي و الإسلامي .

و لم يختلف الأمر كذلك، بالنسبة للشيخ الإبراهيمي، الذي ناضل على أكثر من صعيد ؛ ففي الجزائر كافح من أجل إستعادة حق الجزائريين، في تعلم دينهم و لغتهم، و ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ، و عمل على التصدي للآفات و الأمراض الإجتماعية، التي كانت تتخر المجتمع ، كنتيجة منطقية لسياسات التقفير و التجهيل، و زرع الأمية و التهميش، بين صفوف الجماهير دون إستثناء . و فضلا عن ذلك دافع بنفس الإرادة و العزيمة ، عن قضايا المغرب و المشرق العربيين و العالم الإسلامي ، و حتى بعض القضايا الإنسانية، التي لا تعني العرب و المسلمين بأي شكل من الأشكال .

و منه يمكن القول، أن جيل أرسلان و الإبراهيمي، من المصلحين و المفكرين و العلماء ، قد ناضل على جبهات عدة ، من المفيد جدا الوقوف على جميعها، حتى يكون تقييمنا للرصيد الفكري لذلك الجيل، تقييما موضوعيا .

**– سابعا :** كشف الإبراهيمي، عن كفاءة كبيرة ، في التوفيق بين النضال الوطني و القومي ؛

---

فالقضية الوطنية الجزائرية، التي كانت على رأس الأولويات ، بحكم الوضع الجزائري الخاص الذي ربما كان الأكثر سوءا و تأزما، من أي بلد عربي أو إسلامي آخر ، لم تشكل عقبة بالنسبة إليه، لتكريس جزء من جهوده و أوقاته ، للتمعن في الإشكالات و القضايا و التحديات، التي كانت تحياها الأمة العربية الإسلامية في ذلك العصر ، ليس لأنه كان يرغب في أن يكون له حضور سياسي و فكري في أكثر من مستوى و صعيد، و إنما إنطلاقا من رؤيته الخاصة؛ التي تتمحور حول فكرة أن النضال الوطني ،هو جزء من النضال القومي ، فمعالجة الجهل و الأمية في الجزائر، هو سبيل لا غنى عنه لتحريرها من الهيمنة الإستعمارية ، و في نفس الوقت فهو خطوة أساسية لمعالجة ظاهرة التخلف، و تحقيق النهضة الشاملة المنشودة ، ليس في الجزائر و حدها، و إنما في كل الأقطار العربية و الإسلامية ، التي تشترك معها في الأوضاع ذاتها .

هكذا كانت إذن، نظرة الشيخ البشير للأمر ، و هي لا ريب إحدى نقاط الإختلاف الجوهرية بينه و بين الأمير شكيب ، الذي و إن لم يقلل من أهمية الإشتغال بالقضايا الوطنية ، التي كان له فيها نشاط معتبر و متميز ، إلا أنه أبدى في المقابل إهتماما و تركيزا أكبر، على جبهة العمل العربي و الإسلامي ، ربما لأن الأوضاع في لبنان و الشام، لم تكن على نفس القدر من الإستعجال الذي كانت عليه في الجزائر ، أو لكونه كان يتصور أن إصلاح الجزء، يبدأ بإصلاح الكل .

و في واقع الأمر، أن القضية الوطنية الجزائرية ، لم تسمح للإبراهيمي بإبراز مواهبه الفكرية ، رغم أنه كان يمتلك المؤهلات المطلوبة لذلك ، و هو ما يفسر عدم إشتغاله بالكتابة و التأليف ، فإقتصر جل ما خلفه من آثار، على أحاديث و مقالات و خطب فحسب ، تضمنت موضوعات شتى ، شكلت المادة المصدرية لهذه الدراسة التاريخية الفكرية المقارنة . لكنه و رغم قلة المنتوج الفكري الإبراهيمي ، إلا أن المتوفر منه ، يكشف النقاب عن مستوى رفيع في الأسلوب و المنهج ، لا زالا محط إهتمام الدراسات العلمية الأكاديمية، خاصة في السنوات الأخيرة .

- **ثامنا** : يبدو لنا بشكل جلي ، حضور البعد الديني عامة، و الفقهي خاصة، في مجموع ما كتبه الشيخ البشير من مقالات، و ما ألقاه من دروس و محاضرات ، حيث وظف ثقافته

الإسلامية الواسعة، بشتى فروعها العلمية من عقيدة و تفسير و حديث و فقه، و أصول و لغة و غيرها ، توظيفا فاعلا في كل قضايا الواقع العربي الإسلامي ، التي كان شاهدا عليها و حاول علاجها . لأنه كان ينظر إلى الدين الإسلامي، بإعتباره منظومة حياتية شاملة ، لا تقتصر على الشعائر و العبادات، مثلما هو الحال بالنسبة للديانات الأخرى كالمسيحية مثلا ، و إنما يتعدى دورها إلى مجالات السياسة و التربية و الإقتصاد و الإجتماع و الثقافة . و ليس أدل على ذلك، تأكيده على أن علماء الدين هم الأولى و الأجدر ، و المؤتمنون أكثر من غيرهم، على قيادة الأمة نحو الإستقرار الإجتماعي و الرقي الحضاري . و عليه فقد تناول قضايا الواقع العربي الإسلامي، في عمومياتها و جزئياتها ، بنظرة و فكر عالم الدين المصلح و المفكر ، و سعى في كل مرة إلى تفنيد و محاججة كل النظريات و الآراء، التي أرجعت تخلف العرب و المسلمين إلى الدين الإسلامي، الذي زعمت بكونه دين جبر و جمود . و أقرّ بأن غياب روح الدين الإسلامي، في حياة العرب و المسلمين المتأخرين، هو السبب في تخلفهم و ليس العكس ، و أن ما إنطبق على أوروبا لا ينطبق بالضرورة على المسلمين ، إشارة إلى الدور السلبي الذي لعبته الكنيسة و رجالها في أوروبا، خلال العصور الوسطى ، فتطلب الأمر الثورة على كل الرموز الدينية لتلك الفترة ، من أجل تحرير الشعوب الأوروبية من العبودية، التي مورست عليهم بإسم الدين ، و من الجمود الفكري و العلمي، الذين كانوا نتاجا لإلغاء العقل، و تكريس ثقافة الخرافات و الأساطير .

وحقا إن الإبراهيمي ، أثبت جدارة كبيرة في الدفاع عن نظرتة الدينية هاته ، ليس كما يدافع عادة الخطباء و الوعاظ، الذين تغلب عليهم العاطفة و الخماسة الجياشة ، و إنما بإستخدام الحجة العقلية و الدليل العلمي و الإستنتاج المنطقي ، و هي الخصائص التي كثيرا ما ينتقد فيها علماء الدين من قبل خصومهم ؛ حيث ينعنون في أغلب الأحيان، بالإندفاع و بالجهل بشؤون الحياة و السياسة ، و بالإبتعاد عن الدقة و المنهجية العلمية في طروحاتهم و تصوراتهم . و نحن هنا لا ندعي أن الأمير شكيبا، كان بعيدا في معالجاته للقضايا العربية و الإسلامية، عن النظرة الدينية ، التي نقر بأنها كانت حاضرة عنده ، دون أن ترتقي إلى ما كانت عليه لدى الشيخ البشير فقد زواج في حقيقة الأمر، بين النظريتين الدينية و السياسية ، مع تغليب نسبي للثانية ، لأن



تكوينه العلمي لم يكن دينيا و لغويا صرفا ، كما هو الحال لدى الشيخ البشير ، و إنما كان سياسيا أيضا؛ سواء من خلال إحتكاكه بالحياة السياسية في لبنان و الشام و مصر ، أو عن طريق إنخراطه في النشاط السياسي، و العمل الدبلوماسي في أوروبا و أمريكا و آسيا، دفاعا عن القضايا السياسية العربية و الإسلامية .

و تبعا لما سبق ، نصل إلى أن خوض الإبراهيمي في المسائل السياسية و الإقتصادية ، بذلك المستوى العالي من المناقشة و التحليل و الإستنباط ، يفند الرأي القائل بأن علماء الدين لا ينبغي لهم أن يخوضوا في تلك المسائل، التي ليست من اختصاصهم ، بحجة أن الدين و السياسة ضدان لا يلتقيان ، و هو ما حاول الإبراهيمي طيلة مشواره الفكري، تأكيد خطئه .

**تاسعا :** نقر بأن أرسلان و الإبراهيمي، لم يكونا دقيقين في تحديد أو ضبط بعض المفاهيم، مثل " العرب " و " المسلمين " على سبيل المثال ؛ فأحيانا يقصدان بالعرب مجموع العناصر البشرية المتواجدة في المغرب ، العربية العرق أو اللسان ، و أحيانا أخرى يشيران من خلاله إلى المسلمين . و العكس صحيح بالنسبة لمفهوم " المسلمين " ، الذي يعني لديهما تارة كل الأجناس التي تدين بالدين الإسلامي، و تارة أخرى العرب المسلمين .

و هي إشكالية منهجية كبيرة صادفناها ، في التعامل مع المادة الخبرية و المصدرية المستقاة من نصوص الرجلين . و لذلك تعذر علينا، الفصل بين القضايا العربية و الإسلامية ، لأنها عندهما قضايا واحدة ، فحتى الوحدة العربية التي يفترض أنها قضية عربية ، فهي قضية إسلامية وفق تصورهما . فيجد الباحث و الدارس نفسيهما، أمام تداخل كبير في المفاهيم ؛ فحين يعالجان على سبيل المثال قضية التخلف ، يجدان أن المقصود هو المسلمين بما فيهم العرب ، لكن الواقع المتحدث عنه لدى الشخصيتين هو الواقع العربي في أغلب الأوقات . لأنهما ينطلقان دائما من فرضية، أن واقع العرب بسلبياته و إيجابياته إن وجدت ، هو الواقع ذاته للمسلمين . لكن هذا لا يبرر عدم الدقة في تحديد أو ضبط المفاهيم ، كما أن وحدة الواقع أمر نسبي و ليس مطلقا .

و الإشكال ذاته وجدناه في قضية النهضة ، فكلاهما وضع شروطا في شكل اقتراحات، للخروج من التخلف، و تحقيق النهضة العربية الإسلامية ، و من تلك الشروط على سبيل

التوضيح : ضرورة تكتل العرب سياسيا و إقتصاديا و حتى عسكريا بالنسبة للأمر ، و الأصح هو تكتل المسلمين بما فيهم العرب و ليس العرب فقط ، لأن الأمر يتعلق بالعرب و المسلمين معا ... الخ ، و غيرها من الإشكالات التي وقفنا عليها ، و حاولنا التعامل معها وفق ما يقتضيه موضوع هذه الدراسة .

و في ختام هذه النقطة، من المفيد الإشارة إلى ، أن ما أوردناه هنا لا يقتصر على آثار الإبراهيمي و أرسلان ، و إنما يشمل عددا معتبرا من مفكري النهضة العرب و المسلمين، الذين اتسمت كتاباتهم في بعض المواضيع، باضطراب المفاهيم و المصطلحات ، الذي يرجع في الأساس، إلى التكوين العلمي التقليدي، الذي تتميز به المدرسة الفكرية التي ينتمون إليها .

- **عاشرا** : نظر الإبراهيمي و أرسلان ، إلى التخلف الحضاري الشامل، الذي كان يحياه العرب و المسلمون في عصرهما ، على أنه ليس وليد القرنين التاسع عشر و العشرين ، و إنما كنتيجة منطقية لعدة قرون من التراجع و التقهقر في شتى المجالات، يأتي في مقدمتها المجالان الديني و السياسي ، حيث تحولوا تدريجيا من أساتذة للعالم على حد تعبير الأمير شكيب ، إلى مجرد متفرجين على دورة الزمن، التي أقصتهم من دائرة الأمم الراقية، و وضعتهم في صف المتخلفة منها ، و أعادت للبلدان الغربية المسيحية مقاليد الريادة الحضارية ، بعد أن كانت قد فقدتها بإنكسار شوكة الإمبراطورية الرومانية عسكريا و حضاريا، فاسحة المجال أمام الحضارة العربية الإسلامية الناشئة ، التي أسهمت إسهاما متميزا في مسار الحضارة الإنسانية، على المستويين العلمي و الأخلاقي ، بفضل الدين الإسلامي، الذي فجر طاقات التفكير و الإبداع ، بتحريره للعقل من العبودية و الوثنية، اللتان جمدته طويلا في الفترة التي سبقت مجيئه . و بحثه على طرق أسباب الرقي و التقدم ، و دعوته إلى أخلة العلاقات الدولية و الإنسانية .

و إذا كانت السنن الكونية ، تقتضي صعود الحضارات و سقوطها، فإن الذي آثار إستغراب الشيخ البشير و الأمير شكيب ، هو عجز العرب و المسلمين المتأخرين عن تقليص تلك الفجوة الحضارية العظيمة، التي أضحت تفصلهم عن الدول المتقدمة . بالرغم من أن فرص تحقيق ذلك، كانت متوفرة في كل مرة ، و كأنهم سلموا يقينا بأنهم ليسوا أهلا للتمدن و التطور ، اللذان ليسا في حقيقة الأمر حكرا على سلالة بشرية بعينها . لأن المنافسة في هذا المضمار،

متاحة للجميع دون إستثناء ، لكن الوصول إلى ذلك المبتغى لن يكون بطبيعة الحال ؛ إلا للمتخلف لصناعة حاضره و مستقبله ، من خلال الوعي بالهدف و بالوسائل الموصلة إليه ، أو ما يسميه علماء الحضارة بـ : (( شروط الحضارة )) ، تلك الشروط يدركها العرب و المسلمون أكثر من غيرهم من الأمم ، حيث تعج بها أدبياتهم و فلسفاتهم، و إرثهم الثقافي الإنساني و قبل ذلك مرجعهم الديني الأول المتمثل في الدين الإسلامي .

- حادي عشر : كشف أرسلان، في معالجته لقضيتي التخلف و النهضة في البلدان العربية و الإسلامية ، عن ثقافة علمية و تقنية عالية جدا، خاصة في مجال الكهرباء و الجيولوجيا و صناعة النسيج ، حيث كان يترجم كل ما يصادفه في سفره و ترحاله في أوروبا، من مخططات و كتيبات في هذا الإطار ، و يقوم بإرسالها إلى أصدقائه العرب، للإستفادة منها .ملحا عليهم بضرورة الإسراع ، في تحويلها إلى مشاريع صناعية في الميدان ، لتكون نواة أولى لقيام نهضة صناعية كبرى، كذلك الحاصلة في أوروبا و اليابان ، مشددا على عدم الإستخفاف بتلك المشاريع لبساطتها ؛ لأن الأمم المتقدمة لم تحقق ما حققتها، إلا بعد أن مرت بتلك المرحلة من التصنيع . و قد أكد على أن نجاح العملية، مشروط بثلاثة شروط أساسية هي : الإدارة أولا، توفير رؤوس الأموال اللازمة ثانيا، و الحرص على جودة المنتج لكي ينافس نظيره الأجنبي ثالثا .

أما الإبراهيمي، فلم نجد مؤشرات في آثاره ، تدل على أنه كان على إطلاع مثل أرسلان ، على المجالات العلمية و التقنية الدقيقة السالفة الذكر ، التي تفوق فيه شكيب ليس على الإبراهيمي فحسب، بل على كل مفكري النهضة العربية الإسلامية، الأوائل و المتأخرين على حد سواء ؛ الذين إصطبغت آثارهم بالصيغة الدينية بدرجة أولى، و الصبغة السياسية بدرجة ثانية .

و في المقابل، أظهر الإبراهيمي، تفوقا كبيرا على أرسلان ، فيما يتعلق بالثقافة الدينية و التاريخية ، حيث كان يلجأ باستمرار إلى توظيفها، خاصة في مقارنته بين حال العرب و المسلمين المتأخرين و نظرائهم الأوائل ، حتى في أدق التفاصيل . فالتاريخ العربي الإسلامي وفق تحليله، ينقسم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة الإزدهار و الريادة الحضارية ، و مرحلة

التقهقر و الإنحطاط التي كان شاهدا على جانب منها ؛ و رأى أن الخروج منها، لا يكون إلا باستلهاام عوامل القوة و التفوق، التي توفرت في المرحلة الأولى .  
و منه فقد حاول إرسال، معالجة قضايا التخلف و النهضة، في العالم العربي الإسلامي من زوايا مختلفة : سياسية و علمية و تقنية و نفسية، و دينية في الأخير ، بينما تميز عنه الإبراهيمي، بتركيزه الكبير على الجوانب التاريخية و الدينية ، لأن التخلف عنده تمتد جذوره زمنيا إلى أبعد مما حدده إرسال ، و أن أهم أسبابه إستبعاد الدين من حياة العرب و المسلمين، على المستويين الرسمي أو الشعبي ، و أن معالجته لن تتم إلا بإستعادة مكانته من جديد .

- **ثاني عشر** : شكل الإستعمار عامة، و الفرنسي و الإنجليزي خاصة ، محورا هاما في تناول الأمير شكيب و الشيخ البشير، للقضايا العربية الإسلامية التي أدرجناها في هذه الدراسة ، حيث ذهب الى إعتبره أكبر أسباب التخلف، و أول المعوقات التي تقف في طريق النهضة، و الوحدة بشقيها العربي و الإسلامي . و إذا كان من المنطقي، أن يركز الإبراهيمي على مهاجمة و إنتقاد و كشف سياسات و مخططات و جرائم فرنسا، التي عدها شيطان الإستعمار ، بحكم أنها الدولة التي كانت تحتل الجزائر منذ سنة 1830 م . فإن إرسال، الذي كان يفترض به أيضا أن يكون له الموقف ذاته مع فرنسا ، قد خالف هذه القاعدة إلى حد كبير ، إذ أننا نجده ينتقد و يهاجم بريطانيا أكثر من فرنسا ، ليس لأنه كان يعتبر هاته الأخيرة أقل إجراما، و هي التي جعلته يعيش في المنفى إلى غاية خروجها من لبنان و سوريا ، و إنما لإعتقاده بأن الإستعمار البريطاني، أكثر خطورة من نظيره الفرنسي، و إن بدأ أقل عنفا و قسوة منه . و للتدليل على صحة موقفه هذا ، كان دائما يستحضر التحالف الإنجليزي الصهيوني، من أجل إقامة الدولة العبرية في أرض فلسطين، بدعم فرنسي بطبيعة الحال ، حيث قدمت حكومات الإنتداب البريطاني في فلسطين منذ سنة 1977 م ، كل التسهيلات المادية و المعنوية للصهاينة ؛ لتحقيق حلمهم القومي في غفلة من العرب و المسلمين ، الذين كانوا يعتقدون أن بريطانيا صديق ينبغي الوثوق به . فقد نجحت في إبعاد الشكوك حول مخططاتها، بفضل الحنكة و الدبلوماسية

العالميتين، اللتان كان يتحلى بهما مسؤولوها ، و لسذاجة شريحة هامة من العرب و المسلمين، بما فيهم قادتهم الذين كانوا يصدقونهم رغم أن وضوح أهدافهم .  
و بدون شك، أن المبررات التي استند إليها إرسالان صحيحة ، و لكن موقف الإبراهيمي كان برأينا أكثر انسجاما مع حقيقة الاستعمار ، إذ أنه و إن كان يستهدف بشكل خاص الاستعمار الفرنسي، في أغلب أحاديثه و كتاباته و محاضراته ، بحكم خصوصيته الواقع الجزائري ، فإنه مع ذلك لم يكن يفرق بين استعمار و آخر ؛ فالاستعمار هو الاستعمار على حد تعبيره ، و لذلك كان يعمد في كل مرة يتحدث فيها عن الاستعمار الإنجليزي، إلى وصف بريطانيا بخبيثة الاستعمار . و لم يكتف بذلك، بل أنه حاول لفت الانتباه إلى استعمار آخر تتبأ له بخلافه بريطانيا و فرنسا، و هو الولايات المتحدة الأمريكية ، التي حذر من تنامي طموحاتها في المنطقة العربية و الإسلامية . و هو ما حدث بالفعل بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، التي دحرجت فرنسا و بريطانيا إلى المرتبة الثانية، في ترتيب القوى الكبرى ، و دفعت بالولايات المتحدة الأمريكية و الإتحاد السوفياتي إلى المرتبة الأولى ، الأمر الذي يوحى بأن الشيخ البشير، كان يتمتع برؤية إستشرافية و نظرة مستقبلية دقيقتين، لمجريات الأحداث و صيرورة العلاقات الدولية .

- **ثالث عشر** : إن حديث الإبراهيمي و إرسالان ، عن التخلف و النهضة، إكتفته الكثير من الإشكالات المنهجية ، إذ أنه من غير المنطقي أن نطرح القضيتين، و غالبية البلدان العربية و الإسلامية كانت تحت الهيمنة العسكرية الاستعمارية الأوروبية . بمعنى أن القضية الأساسية، لم تكن التساؤل عن أسباب التخلف، و البحث عن السبل لمعالجته قصد الخروج منه، و للوصول إلى أعلى درجات التقدم و الرقي . و إنما حول كيفية التحرر و طرد الاستعمار، و في بعض الأحيان نجد الرجلين، يعمدان إلى جعل الواقع الاستعماري مرادفا للتخلف ؛ و النهضة للتعبير عن أية حركة أو مبادرة تهدف إلى تحريك الجمود الفكري و الديني ، أو الحس الوطني و القومي أو الوعي السياسي، لمقاومة الاستعمار . و بشيء من التوضيح نقول ؛ أن التخلف العلمي الفكري و الاقتصادي و الاجتماعي و الديني ، الذي كان واقعا مكرسا في الحياة العربية و الإسلامية، في عصر الإبراهيمي و إرسالان ، و إن كان نتاجا للقرون السابقة كما أشرنا إليه

سالفًا ، فإن معالجته قد تكون في جوانب كثيرة وفق ما ذهب إليه المفكران . و لكن ليس في ظل الاستعمار، الذي فاقم من الوضع، لأنه ينسجم مع أهدافه في المنطقة العربية و الإسلامية ، و إنما في ظل الاستقلال و السيادة اللذان يمثلان البيئة المنطقية، للحديث عن التخلف و النهضة. و لعل بعض هذه الإشكالات، التي أشرنا إليها، تخص الأمير شكيب أكثر من الشيخ البشير ، و نستطيع أن ندلل على ذلك، بإلحاحه على ضرورة الاهتمام بالتقريب عن المعادن في الأردن التي كانت تديرها بريطانيا ، و بالتركيز على صناعة النسيج في المغرب الذي وقع تحت الحماية المزدوجة الفرنسية و الإسبانية ، و باستغلال البترول في الخليج الذي وضعت بريطانيا يدها عليه تدريجيا .

و عليه نعتقد أن الحراك الفكري و الثقافي و السياسي، الذي دعا إليه الإبراهيمي و أرسلان ، يخص في العديد من مضامينه التحرر من قيود الاستعمار بكل أشكاله، و ليس النهضة . و منه فإن الاستقلال هو خطوة ضرورية ، لكي يفكر العرب و المسلمون، فيما ينبغي عليهم القيام به لإستعادة السيادة المسلوبة، دون أن يعني ذلك النهضة التي تأتي تبعا لذلك، في المرتبة الثانية ضمن الأولويات .

- رابع عشر : يبدو أن أهم ما ميز منهج المصلحين، في معالجتهم لقضايا العرب و المسلمين، هو مسألة الوقت ، حيث ظهر أرسلان، و كأنه يستعجل الأمر بأقصى سرعة ممكنة ، بإحداث تغييرات جذرية في الأوضاع السياسية و الاقتصادية، و العلمية و الاجتماعية ، تؤدي إلى تحول المجتمعات العربية و الإسلامية ، من مجرد مجموعات بشرية و عرقية، غارقة في التخلف و الانحطاط ، لا تجتمع على وحدة قومية أو دينية ، إلى قطب سياسي و اقتصادي و علمي و حضاري متميز، و قوة عسكرية كبيرة ، يزاحمان القوى الكبرى الرئيسية في تلك الأثناء ، خاصة و أن شروط تحقيق ذلك متوفرة و أكثر ؛ المادية و المعنوية منها .

و لعل أرسلان في ذلك، كان من الذين إفتنعوا أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت من أهم الفرص التي أتاحت للبلاد العربية و الإسلامية، لكي تغير من واقعها المزري ، الذي لازمها لعدة قرون. و هو ما يدفعنا إلى القول، أن الأمير كان ينظر إلى كل القضايا نظرة سياسية بالدرجة الأولى ،على خلاف الإبراهيمي، الذي راهن على التربية الاجتماعية ، ليس لأنه

كان يقلل من العامل السياسي ، و إنما لرغبته في بناء قاعدة صلبة للنهوض و الوحدة ، حتى و لو تطلب الأمر وقتاً أطولاً ، و هو بلا شك لن يكون الوقت ذاته الذي استهلكه القادة العرب و المسلمون السابقون، دون أن يعود ذلك بالفائدة على مجتمعاتهم في أي شيء يذكر .

و بلا شك أن كلاهما قد أصاب في موقفه ، لكن الإشكال يكمن بالنسبة لموقف الأمير، في غياب قادة سياسيين حقيقيين في تلك الأثناء، مؤهلين لقيادة الأمة و الدفاع عن سيادتها و مصالحها ، فالموجودون منهم كان ينقصهم النضج الفكري، لفهم أبعاد الصراع القائم آنذاك ، و الحنكة السياسية اللازمة، لإدارة الوضع السياسي الذي نجم عن مخلفات الحرب العالمية الأولى ، حتى تحول بعضهم من حيث لا يدرون، إلى أداة توجهها القوى الاستعمارية، لتنفيذ مشاريعها في المنطقة العربية و الإسلامية ؛ كما حدث مع " الشريف حسين " و أبنائه .

فلو توفر القادة، الذين هم في مستوى الرهانات و التحديات المطروحة ، لكان ما ذهب إليه الأمير شكيب أجدى مما طرحه الشيخ البشير على المدى القصير . لكن و بما أن هذا الشرط كان مفقوداً ، فإن التربية الاجتماعية للجماهير العربية و الإسلامية عن طريق التعليم و التنقيف و التوعية السياسية ، كانت برأينا النهج الأنسب ، خاصة و أن الأوضاع التعليمية و الثقافية في البلدان العربية و الإسلامية، قد بلغت درجة كبيرة من التردّي و الانحطاط، و هو ما لا يشجع إطلاقاً، حتى على وجود كفاءة سياسية على مستوى القادة و الحكام . فمشروع الوحدة في ألمانيا و إيطاليا على سبيل المثال، ظل حلماً بعيد المنال مدة طويلة من الزمن، رغم تبنيه من قبل زعماء كانوا على درجة عالية من الكفاءة و الإخلاص ، و لم يتحقق إلا بعد أن نضج على مستوى الجماهير الشعبية، التي رأت فيه مطلباً حتمياً، لأخذ ألمانيا و إيطاليا مكانتهما بين الأمم القوية و المتحضرة ، و هو ما حدث فعلاً .

الملاحق



الملحق رقم 01 : حول قبر الإبراهيمي (1)

" لست أنسى "

أي خطب هز البلاد عويلا  
أي رزء أصابنا منه ماكا  
أي خسف طوى البلاغة والسؤدد  
أي هول تشيب منه النواصي  
يم شاء البشير أن يترك الدينـ  
أترى هذه المنية أغرتـ  
حين همت به دعت إليها  
فحنا الشعب من بكاه رؤوسا  
ورأيت الرجال تكسى حدادا  
وتبدت على الوجوه معان  
كلنا تاكل يعزي أخاه  
زمزمات وهمهمات توالى  
في مصابب الجزائر المتفادى

ودهاها فما تفيق ذهبولا ؟  
ديك الجبال دكا مهولا  
والمجد والكفاح الطويلا ؟  
يوم شاء عنا البشير الرحيلا ؟  
يا ويمضي لربه مستقيلا  
ه دعوة حبيب إليه القبولـ  
بمجد مؤثـل تأثيلا ؟  
وتداعت له العيون همولا  
وتسام الصدور هما وبيلا  
ملؤها الحزن حسرة وذبولـ  
كلنا يسأل العزاء جميلا  
كل نفس تتلو الأسى إنجيلا  
وبلايا تغشى الحمى تطفيلا

\* \* \*

أيهذا البشير أنت بشير ؟  
أترانا - وأنت قائدنا الشهـ  
أم خشيت الجحود من فئة قا  
أم مللت الحياة ؟ أم مل فيها  
أم سئمت الجسم المنقل بالضر  
أم أعدت لك السماء قصورا

أم نذير قتلتنا تقتيلا ؟  
م قعدنا على النهوض فتيلا ؟  
لت أقاويل أولت تأويلا ؟  
عزمك الرائد الطموح النزولا ؟  
ر - وقد كنت للجسيم حمولا - ؟  
من نضار معمورة تبجيلا ؟

(1) - محمد الطاهر فضلاء : الامام الراحل محمد البشير الابراهيمى ، مرجع سابق ، ص 78 و ما بعدها .







الملحق رقم 03 : داء المسلمين ودواؤهم<sup>(1)</sup>

الباحث في أحوال المسلمين بحث تقص واستقرأ رجل من اثنين ، رجل من أنفسهم ورجل من غيرهم ، وكلا الرجلين يجتمع بصاحبه في نقطة تبعث الحيرة وهي : كيف يسقط المسلمون هذا السقوط المريع وفيهم كل أسباب الصعود وبين أيديهم كل ما ارتقى به أسلافهم ، فأصول الدين من كتاب وسنة محفوظة لم يضع منها شيء ، وأسباب التاريخ واصلة لم ينقطع منها شيء ، واللغة إن لم ترتق لم تتحدر ، والعرب الذين هم جذم الإسلام ما زالوا يحتفظون بكثير من الخصائص الجنسية ومعظمها من المكارم والفضائل ، والأرحام العربية ما زالت تجد من بين العرب من يبلاها ببلالها ، فلم تجف الجفاء كله وإن لم توصل الوصل كله ، والتجاوب الروحاني الذي تردد صداه كلمة الشهادة في نفوس المسلمين وكلمة التلبية في جنبات عرفات لم يتلاش تماما ، والأرحام المتشابكة بين المسلمين لم تجف الجفاء الذي يقطع الصلة ، ومن السنن الكونية المقررة في سقوط الأمم وعدم امتداد العزة والرقى فيها أن ينسى آخرها مآثر أولها فينقطع التيار الدافع فيتعطل التقدم . والمسلمون لم ينسوا سلفهم ، بل هي بينهم مدونة محفوظة مقطوع بها بالتواتر ، بل هم أكثر الأمم احتفاظا بمآثر السلف وتدوينا لها ، ولا يعرف بين أمم الأرض أمة كتب علماؤها فيما يسمونه الطبقات والسير مثل ما كتب المسلمون في ذلك .

والباحث الأجنبي معذور إذا تحير ، وقد يخفف عنه ألم الحيرة ابتهاجه بهذا السقوط وأن بحثه عن الداء ليس بقصد الدواء ، فقد عودنا كثير من هؤلاء الباحثين الأجانب أنهم لا يبحثون لذات البحث ولا يدرسون هذه المواضيع لوجه التاريخ الخالص ، فضلا عن أن تجد عندهم ما يطلب من العالم المخلص ، وهو أن يرمي ببحثه وإعلان نتائج بحثه إلى تنبيه الضال ليهتدي والمريض ليسعى في الاستشفاء والساقط ليأخذ بأسباب الصعود والنهوض ، وإفهامه أن الأيام دول وأن من سار على الدرب وصل ، بل نرى أكثرهم يتعمد إضلالنا في تحليل الأشياء كي لا يقف المريض على حقيقة دائه فيغفل مغترا ، أو يعالج داءه بداء أضر ، أو يضع الدواء في غير موضعه ، وقد نرى منهم من ينتهي من بحثه بنتيجة وهو أن سبب انحطاط المسلمين هو الإسلام نفسه ... وأن من يستطب لدائه بإشارة عدوه لحقيق بأن يسمع مثل هذه النصيحة ...

(1) - محمد البشير الابراهيمي : الآثار ، ج 4 ، ص 309 و ما بعدها .

## الملاحق :

أما الباحثون في أحوال المسلمين من المسلمين فهم ينقسمون إلى فريقين - بعد اتفاقهم على أن الجسم الإسلامي مريض وأن مرضه عضال - فريق منهم هدي إلى الحق فعرف أن الجسم الإسلامي لا مطمع في شفائه إلا إذا عولج بالأشفية القديمة التي صح بها جسم سلفه ، وغذي بالأغذية الصالحة التي قوي عليها سلفه ، وذلك أنه أقام الدين فاستقامت له الدنيا ، وانقاد له عباد الله بقوة ، فمشى على نوره إلى السعادة في الدارين ، وأرشده إلى أن سعادة الدنيا عز وسلطان ، وعدل وإحسان ، وأن سعادة الآخرة حياة لانصب فيه ولا نهاية ، واطمئنان لا خوف معه ولا كدر في أثنائه ، ورضوان من الله أكبر .

وفريق منهم ضل عن الحق في الدواء ، لأنه ضل قبل ذلك في تشخيص الداء ، وضل من قبل ذلك في طريقة البحث فتلقاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية ، وضل من قبل ذلك في طريقة البحث فتلقاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية ، وضل من قبل أولئك في أسلوب التفكير ، فهو يفكر بعقل ملثات بلوثات هذه الحضارة الخاطئة الكاذبة المستمدة من أصول الاستعمار الذي يسقي الأقربين ما يرويههم ، ويغذي الأبعدين بما يرديههم ، ثم يجتثهم من أصولهم ولا يلحقهم بأصوله ، ويتركهم متعلقين بأسباب هذه الحضارة مفتونين بها ، مهجورين منها ، وقل ما شئت في العاشق المهجور ، الذي لا يملك من أسباب الحب إلا القشور ، ولا يملك من أسباب الوصل شيئاً . وقد علمنا من سنن الحب أن أعلاه ما كانت معه كبرياء تزرع ، واعتداد بالنفس يأخذ ويدع ، وقوتان إحداهما تدلل ، والأخرى تذلل ، أما هؤلاء العشاق المتيمون بحضارة أوروبا وعلومها وتهاويلها فقد فقدوا الشخصية التي تحفظ التوازن في ميدان العشق وتحفظ لصاحبها خط الرجوع .

هذا الفريق المزور على الإسلام ، الذي لا صلة له به إلا بما لا كسب له فيه كاسمه ولقبه ، يرى أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالانسلاخ عن ماضيهم ودينهم ، والانغماس في الحضارة الغربية ومقتضياتها من غير قيد ولا تحفظ ، وهو يعمل لهذا جاهدا يسره المسر كيدا ، ويعلنه المعلن وقاحة ، وأنت لتعرف ذلك منهم في لحن القول ، وفي مظاهر العمل ، وفي إدارة الكلام على أنحاء معينة ، وفي البداوات الخاصة ، وفي اللفات العامة ، حتى لتعرفه في أسباب معيشتهم الشخصية ، ولكنهم يتناقضون ويتهافتون ، فيبندئون من حيث انتهى سادتهم ، فسادتهم

يرون أن اللعب إنما يحلو بعد الجد ، وأن القشور إنما يلتفت إليها بعد تحصيل اللباب ، وأن الكماليات تأتي بعد الضروريات ، وأن الوقت رأس مال لا يجوز تبديده في غير نفع ، ولكن هذه الطائفة منا تفعل عكس ذلك كله وتختصر الطريق إلى اللهو ، لأنه يروي شهواتها ، وإلى الكماليات والمظاهر لأن لها بريقا هو حظ العين وإن لم يكن للعقل منه شيء ، وأن عصارة رأيهم في علاج حالة المسلمين تترجم بجملة واحدة ، هي : أن النجاة في الغرق .

هؤلاء الدارسين لعلل المسلمين منهم هم علة علل المسلمين ، وهم أنكى فيهم من المستعمرين الحقيقيين ، فلقد كان دهاة الاستعمار في القرن الماضي يباشرون الشعوب الإسلامية كفاحا ووجها لوجه ، صراعا في الحرب ، وحكما في السلم ، فيمارسون منها خصما شديد المراس ، قوي الأسر ، متين الأخلاق ، فلم ينالوا منها إلا ما تتاله القوة من الضعف ، وهو محصور في التسلط على الماديات ، أم القلوب والعقول والعقائد والاعتزاز بالقوى والخصائص فلم يستطع سلطانهم أن يمتد إليها ، وهي عناصر المقاومة ، المدخرة ليوم المقاومة ، ولن تجد فيها ما ترى وما تقرأ أمة قاومت الغضب فدحرتة ولو بعد حين إلا لأن هذه العناصر بقيت فيها سليمة قوية وبقيت هي عليها محافظة ، ولكن أولئك الدهاة أتونا من جهات أخرى فهادنونا على دخن ، وحببوا إلينا مدنيتهم من جهاتها القوية ، ثم أعشونا ببريقها وابتلونا بما لا يلائم النفوس الضعيفة الحيوانية من شهواتها ، وقالوا : إن وراء هذه المدنية علما هو أساسها ، وأن وراء العلم ما وراءه سعادة ، وفتحوا لناشئتنا أبوابا أمامية يدخلون منها ، وأبوابا خلفية يخرجون منها إلى عالم غير عالمهم الأصلي وجاءت البلايا تزحف ، فنقلتها تلك الناشئة تجري ركضا ، ودعت الكأس الأولى إلى ما بعدها وأصبحنا نتنافس في تقديم هذه القربان من ناشئتنا للاستعمار ، وما زدنا بسفها على أن جهزنا له جيشا من أبنائنا يقتل فيه خصائصنا وروحانيتنا ، ليقاتلنا به ، وليولييه ما عجز عنه لصعوبة مراسنا وشدة احتراسنا ، وليرجع إلى أهليه مملوء النفس باحترام أستاذه ، مصمم العزم على التمكين له ، وقد كنا لا نحترمه ولا نصادقه ولا نصافيه ولا ندمت له موضع الإقامة .

ما هو موقع الغلط في أبنائنا ؟ أنهم بتعلمهم في الغرب ، بلغة الغرب ولباسهم لباس الغرب ، وانتحالهم رسومه في الأكل والشرب ، ظنوا أنهم أصبحوا كالغربيين فانسلخوا في مظاهرهم

ومخابرههم عن خصائصهم الأصلية الموروثة ، فخسروها ولم يربحوا شيئاً ، إذن لم يقع في تقديرهم أن جل الأحوال التي قلدوا فيها الأوروبي هي ألوان إضافية اصطبغ بها بعد أن استكمل وسائل عزه وقوته ، فلا تحسن في العين ، ولا ترجح في الوزن إلا ممن وصل إلى درجته ، وقطع المراحل التي قطعها في الحياة ، وأنهم ظنوا غلطا في الفهم أن هذه الحضارة غربية ، وأخطأوا فإن الحضارات ليست شرقية ولا غربية ، وإنما هي تراث إنساني متداول بين الأمم تتعاقب عليه فيزيد فيه بعضها ، وينقص منه بعضها ، ويبتكر بعضها بعض الفروع فينسب إليه ، ويلونها بألوان ثابتة فتبقى شاهدة له حتى تضمحل .

إن جل أبنائنا الذين التقطتهم أوروبا لتعلمهم عكسوا آية فرعون مع موسى ، ففرعون التقط موسى لينفعه ويتخذه ولدا ورباه صغيرا وأحسن إليه ، فكان موسى له عدوا وحرنا وسخنة عين ، أما أبنائنا فقد التقطتهم أوروبا وعلمتهم وربتهم فكانوا عدوا لدينهم ، وحرنا لأهله ، وسخنة عين لأهليهم وأوطانهم ، إلا قليلا منهم دخل النار فاحترق ، وغشي اللج فأمن الغرق . والسبب في هذا البلاء هو استعداد فينا كاستعداد المريض للموت ، وشعور بالنقص في أنفسنا ، لبعد عهدنا بالعزة والكرامة ، ولموت أشياء فينا تصاحب موتها في العادة يقظة أشياء ، ففقد الإحساس بالواجب تصحبه يقظة الشهوات الجسدية ، وقوة الإحساس بالواجب هي التي أملت على بعض خلفائنا أن يعتزل النساء كلما هم بالغزو ، وهي التي حملت كثيرا من قضاة سلفنا على أن يقمعوا شهوتهم الجسدية بالحلال قبل أن يجلسوا للخصوم في مجالس الحكم ، وموت النخوة تصحبه سرعة التقليد وعادة الخضوع للغالب وسرعة التحلل والذوبان .

إن الغرب لا يعطينا إلا جزءا مما يأخذه منا ، ولا يعطينا إلا ما يعود علينا بالوبال ، ولقد أعناه على أنفسنا فأصبح المهاجر منا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه لا عقل في دماغه ، ثم يأتينا يوم يأتي بعقل غربي ، ومنهم من يأتي بعقل غربي ، ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ ...



**الملحق رقم 04 : تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم<sup>(1)</sup>**

بسم الله الرحمن الرحيم :

أيها المستمعون الكرام :

أبعث لكم على أمواج الأثير بواسطة راديو بغداد تحيات الإسلام الطيبات الزكيات ، وأعرفكم في جمل قصيرة بمغزى رحلتي ، وبشيء من أعمال الجمعية التي أوفدتني ، وسأحدثكم بعد الليلة بشيء من أحوال الشمال الإفريقي الذي هو قطع عزيزة من أوطان الإسلام .

الغرض الأساسي من رحلتي هو التعرف إلى إخواني المسلمين بالوصف الجامع بيننا وهو أخوة الإسلام . ودراسة أحوالهم في مواطنهم ، والاتصال بعلمائهم وزعمائهم وقادة الفكر والرأي فيهم ، لننظر ونتبادل الرأي في إصلاح الفاسد من أحوالهم ، وإكمال الناقص من أعمالهم ، والتعاون على تبديل حالتهم بما هو أحسن منها ، وإزالة هذا التناكر الذي يسود مجتمعاتهم ، وتهيئة الوسائل الممكنة لتعارف الأخ بأخيه .

بدأت بباكستان ، وأطلت فيها لأن لها من مركزها ونشأتها وأحوالها الداخلية ما يقتضي هذا التطويل ، وسأنتشر آرائي فيها بواسطة الصحافة إن شاء الله ، ليعرف إخواننا البعيدون عنها أشياء من حقائقها .

وأنا الآن في العراق ، وسأواصل رحلتي لبقية الأقطار الإسلامية لهذا الغرض الشريف ، وهو الدراسة والتعرف ، فإن من النقائص التي لازمت المسلمين قرونا وفوتت عليهم خيرا كثيرا وكانت سببا في إطالة آلامهم وأمراضهم ، هذا التناكر الذي يسود مجتمعاتهم ، وقد آن الأوان لأن تتعارف هذه الوجوه المتناكرة ، وتتقارب هذه النفوس المتنافرة ، ووجب على كل مسلم مخلص لدينه ، مالك لوسيلة من وسائل التأليف بين مسلم ومسلم أن يسعى في ذلك بإخلاص ، وأن يوجه كل مسلم إلى أخيه ، وأن يؤذن فيهم بالتعارف الذي هو يريد التعاون ، الذي هو يريد القوة والعزة ، وأن ينذرهم بأن هذا التقاطع بينهم ليس من روح دينهم ، وإنما هو من آثار البعد عن دينهم ، وأنهم أضاعوا حقيقتهم يوم أضاعوا هذه المعاني التي كانت تربط أجزاءهم ، وتحفظ

(1) - محمد البشير الابراهيمي : الإثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 96 و ما بعدها .











## الملاحق :

يتكلمون بها و يتأدبون و يتعبدون ، فليت شعري ، أيهما أقرب إلى الواقع : البربري المستعرب أم السوداني المتفرنس ؟ و أيهما أنفذ ؟ حكم الله أم حكم الإستعمار ؟ .  
و من آيات بغض الإستعمار لكلمة العروبة و نفوره منها ، أنه لا يريد أن يعترف بأثر من أثارها الطبيعية من تراحم و تعاطف ، فهو في محنة المغرب الأقصى الأخيرة ، و ما أثارته من غضب العرب و سخطهم و إجماعهم على الإستتكار ، لا يرد ذلك إلى مرده الطبيعي ، و هو التعاضد الجنسي ، و إنما يرده على شيء آخر تتكره روح هذا العصر المنافق ، و هو التعصب الديني ، كل ذلك ليبعد عن خواطره - و لو بالتوهم - خيال العروبة مجتمعة الشمل ، متصلة الأسباب ، موصلة الأرحام ، معلنة لعروبة الشمال الإفريقي ، و تعمى الأهواء عينيه على حقيقة مجردة ، و هي أن حظ العرب المسيحيين في مصر و الشام من التألم لمحنة المغرب الأقصى ، لم يكن من أقل حظ إخوانهم المسلمين .

إن الإستعمار - على ذلك كله - ليعرف عروبة هذا الشمال و يعترف بها ، و لكنه ممن يكتمون الحق و هم يعلمون ، فقد أحتل هذا الوطن فكانت أقواله في الحرب و السلم ، و أحكامه في العدل و الظلم ، كلها جارية بأنه عربي ، و على أنه عربي ، و كلمة العرب Les Arabe التي يطلقها على أهله تمييزاً أو نيزاً أكبر حجة عليه ، و لكنه في مبتدأ أمره و منتهاه رجس من عمل الشيطان ، و هل في عمل الشيطان خير أو حق ؟ إنما هو عناد للحق ، و تزيين للباطل ، و نقض للخير و بناء للشر ، و ما شاء الشيطان من النقائص .

**البشير الابراهيمي**

**الملحق رقم 06 :**

**تقارب العرب ... بشير إبراهيم<sup>(1)</sup>**

سماحة العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كبير علماء الجزائر ذو قلم ناطق بالصدق قائل بالحق ، فضلا عن فصاحة اللسان وحلو البيان ، وقد تفضل مشكورا فحلى جيد هذا الكتاب بالكلمة التالية :

(( لم يمر على العرب عهد كانوا أحوج فيه إلى الاتحاد وجمع الكلمة من هذا العهد ، لأن المصائب التي جرّها عليهم التفرق كانت تأتي متفرقة المواقع متباعدة الأزمنة ، بحيث لا يحس بوقعها المؤلم جميع العرب إلى أن وقعت واقعة فلسطين ، وسود عارها وجوه العرب كلهم ، وزاد في افتضاحهم بها أن القارعة حلت بهم وهم مجتمعون ، فكانت صاخة خرقت الأذان ونفذت إلى مواقع الإحساس من العرب جميعا .

لا يجمع القلوب شيء كالمصائب ولا يعم التنبه والإحساس إلا بعمومها ، ولا أعم ولا أطم في تاريخ العرب من واقعة فلسطين ، فهل جمعت قلوب العرب ؟ وهل رجعت بعقولهم إلى مستقر الإدراك ؟ وهل غسلت ما كان فيهم من أنانية وأثرة وما كان بينهم من تنافس لا ينفع إلا عدوهم ؟ إنها إن أثمرت هذه الثمرة ستصبح نعمة علينا ؟ نكافئ عليها صهيون بالشكر الجزيل ، فقد ساق إلينا الخير من حيث أراد بنا الشر ، وأية نعمة أعظم من نعمة تجمع شمل العرب ، وتوحد كلمتهم بعد هذا التفرق الذي ترك الجزيرة رقعا ملونة بألوان شتى ! .

التقارب بريد الإتحاد ، والتزاور دليله ، والتحاور بشيره ، والتشاور مفتاح بابه ، وكل هذا يقع في هذا الأيام بين رؤساء العرب وأولي الرأي فيهم ويتكرر وتصحبه مبشرات مؤذنة بقرب تبلج فجر من الإتحاد تعقبه الوحدة الشاملة التي ترهب أعداء العرب ويقول معها صهيون عن جزيرة العرب : إن فيها قوما جبارين .

كانت زيارة الأمير عبد الله الجابر الصباح رئيس معارف الكويت لمصر حدثا له آثاره الجليلة في تقارب العرب ، لأن لبلاده مكانة في تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، وليبته مكانة في البيوتات العربية البارزة ، ولشخصه منزلة مستمدة من فطرة العربي وهمة وشهامته ونباله وبساطته وسماحة نفسه ، ومن أدب المسلم وتواضعه وصدقه في القول والفعل والحال ، وكان

(1) - محمد البشير الإبراهيمي : الآثار ، ج 4 ، مصدر سابق ، ص 242 و ما بعدها .







الملاحق :

ب - ملاحق أرسلان :

الملحق رقم 01 :

قالوا... في رثاء الأمير (1)

صبحت شكيبا برهة لم يفز بها	سواي على أن الصحاب كثير
( أحمد شوقي )	
هذا الذي رفع اليراع منارة	غمرت سماء الشرق بالأنوار
لو دان أحرار البلاد لسيد	ناديته يا سيد الأحرار
( باشتر الخوري )	
العالم العربي من أطرافه	بادي الوجوم منكس الأعلام
يبكي أمير بيانه فتى	فتيانه في الكر والإقدام
( خليل مطران )	
أبا الفدنيين صوتك لم يزل	في الشرق وحي يراعة وحسام
روح تهز الشرق من أعماقه	وسنى يمزق عنه كل ظلام
ويد تعانقه برغم منية	وفم يقبله برغم حمام
( علي محمود طه )	
أدي الرسالة يا عصفورة الوادي	وباكري الحي من قولي وانشادي
لعل نغمة ود منك شائعة	تهز عطف شكيب كوكب النادي
هو الهمام الذي أحيا بمنطقه	لسان قوم أجادوا النطق بالضاد
( محمود سامي البارودي )	
لما لمست بنا المواطن حرة	أغمضت من فرح لها أجفانك
الله يشهد والزمان مؤيد	أن العدى قد قدروا ميزانك
( محمود ستينية )	

(1) - شكيب أرسلان : مختارات نقدية في اللغة و الأدب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 9 - 10 .



**الملحق رقم 02 : الدول المستعمرة والإسلام: (1)**

من الغريب أن فارس عرضت على إنجلترا المحالفة ، والدخول إلى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت إنجلترا مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريس . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العالمية أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانجليزي عن مصر بعد الحرب، فأبت إنجلترا أيضا ذلك . وأن الشريف حسين بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة إنجلترا منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت إنجلترا محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العالمية تتردد في الميل إلى أي الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما إلى الحلفاء ، والآخر إلى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء في الأستانة أنها تخشى إذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركيا مدة ثلاثين سنة ( تأمل ) وتقال تركيا بعض المساعدات الأخرى ليس لها طائل كبير . وبديهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الإسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثناء الحرب العالمية ، لما كان لائقا أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الإسلام الباقية الاقتسام الأخير ، كما كانوا يبنون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب فلو رضوا بدخول تركية معهم في الحلف و قبلوا عضدها لهم في ذلك الموقف، لما كان يجوز بعد الحرب إنفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررا بين إنجلترا وفرنسا منذ 1912م ، ومن جملته قسمة سوريا وفلسطين . ولو رضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاونتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الإجهاز الأخير بعد الحرب كما كانت النية ، بل كان دينا عليهم إخلاء العجم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا إقتراح مصر في الدخول في الحرب إلى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو إستلحاق

(1) - لوثرروب ستودارد ، المصدر السابق ، م 1 ، ج 1 ، ص 329 ، 330 ، 331 .

مصر تماما لا إعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالقوة والقسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد للجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلابا واغتصابا لم يغتتمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حالفوا سنة 1915م الشريف حسينا ، وهذا ملك من ملوك الإسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه بادئ ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركيا ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواما ، وتأتي على الحرث والنسل وأن العالم الإسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا إلى قبول مخالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملئوا عهدهم للشريف إبهاما وغموضا ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع كون قسم من العرب حالف الحلفاء مخالفة فتت في عضد الأتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للمكابرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا إليه بعض المعتمدين لمفاوضته فيه من جملتهم الجنرال حداد باشا ، وإن حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون في كون الحلفاء أبوا مخالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العالمية ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو أميركا في تركيا لأول نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال أن أقصى ما طالب الحلفاء به تركيا هو لزوم الحياد فحسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا أثناء الحرب العالمية العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول



**الملحق رقم 03 :** **الشرق والغرب : (1)**

لم يعهد التاريخ دورا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين ، وخلطة الغربيين بالشرقيين ، ونسخ كل فريق عن الآخر ، واقتباس هذا من ذلك : أخذوا وردا ، وجزرا ومدا ؛ حتى في أعرق الأدوار في القدم وأوغل الأطوار في الظلم .

وقد عم هذا التحاك جميع أحوال الحياة ، وأركان العمران : من التجارة ، إلى السياسة ، إلى الصناعة ، إلى الثقافة . فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتاجر ، فقد تناقلوا الحكم والخواطر . وكما حمل بعضهم إلى بعض المهن والصناعات ، فقد حملوا الاختراعات والبراءات . وكما تسلط منهم الأشجع على الأجبين والأشك على الأعزل (\*) ؛ فقد تسلط الألحن على الألكن (\*\*). والأعلم على الأجهل .

وإذا أخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولي اليوم الأمس ، لم ينحصرا في الأمور المادية والحوالات المالية والآثار اليدوية ، بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية . وما ترققت في سلم الاجتماع في شرق ولا غرب إلا كان الآخر عيالا عليها ، جادا محاكاتها ومتحسرا على مناغاتها . فقد أخذت اليونان عن مصر ، وأخذت بغداد عن اليونان ، وأخذت أوروبا عن الأندلس ، ثم أخذ الشرق في جدته الأخيرة عن أوروبا . إلا أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى - أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية - دورا أنت (\*\*\*) فيه العلائق بين الشرق والغرب ، وارتفعت فيه الحواجز على البعد والقرب ، وتشارك فيه الناس في تناول كل مادي ومعنوي ، كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق ، ورأى الشرق أن لا قبل له بمناهضة الغرب على وجهه كافل لنجاحه إلا أن يقاتله بسلاحه . فاضطر الشرق إذا في يأخذ عن الغرب طوعا أو كرها - والضعيف مولع بتقليد القوي - كل ما يتسنى له أخذه من أسباب المدنية ، كأداة الحرب والمتاع

(1) - شكيب ارسلان : مختارات نقدية في اللغة و الادب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 13-14 .

(\*) - الأشك : لابس السلاح التام . والأعزل : من لا سلاح معه .

(\*\*) - الألحن : الأفطن والأفصح . والألكن عكسه .

(\*\*\*) - كثرت والتقت .





**الملحق رقم 04 : التسامح والتعصب بين الإسلام وأوروبا<sup>(1)</sup>**

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة 1683 م للأمر شكيب

ما زلنا نؤكد أن الأوروبيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح 70 ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل حتى صدورها في الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الأندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عفا الأوروبيون كل أثر للإسلام في أوروبا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال أنهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم عن الجلاء ؛ كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال أن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا أن السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب إخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا يا ليت شعري لم يذهب الإنجيل الشريف أقوام أوروبا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة إيزابيلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكتلثة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقي على ديانتهم سرا إلى أن جلوهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذي أوطنه العرب زهاء 820 سنة ، مع أن الإنجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئا من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الإنجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم ....

لا نريد أن نعزو إلى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوروبيين انصافا وتحريا ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوروبي

(1) - شكيب ارسلان : مختارات نقدية في اللغة و الادب و التاريخ ، مصدر سابق ، ص ص 21-22 .









الفاطميين . ولكن هذه العائلات ، والتي أصلها واحد ، معروف كثير منها إلى هذا اليوم يعرفون أنهم أقارب . و هؤلاء دروز وأولئك متاولة أي شيعة . وذلك مثل أبي علوان وبني عبد الصمد وبني المصري وبني القنطار وغيرهم . وكذلك موجود قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين السنيين وإن كانت هذه القرابات أكثر منها بين الشيعيين والدروز ، وذلك مثل بني أبي شقرا وبني الأعور وغيرهم . ولا يخفى أن الشيعة في سورية هم عرب أقحاح أيضا وبلادهم جبل عاملة ، إنما سميت كذلك لنزول عاملة قبيلة من عرب اليمن بذلك الجبل . كذلك نجد أسماء كثيرة منسوبة إلى قبائل يمانية مثل السكسية في ساحل عاملة بقرب صيدا وهي نسبة إلى السكاسكة من عرب اليمن وغيرها مما لم يحضرنى بدون مراجعة كتب . ونجد بيوتات كثيرة محفوظة أنسابها إلى قبائل العرب مثل إخواننا الأمراء آل الحرفوش في بعلبك المنسويين إلى خزاعة ، ومثل إخواننا البكوات آل علي الصغير المنسويين إلى عرب . أما الذين أصلهم من أهل السنة فلا بد من أن يكونوا من أهل السنة العرب أيضا بدليل السحنة إذ أن السحنة العربية لا تخفى ، ثم بدليل أنهم منذ تسعمائة سنة أي منذ وقع هذا الإنشقاق من الشجرة الواحدة لا يزال بعضهم يعرف بعضا ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون العديدة إلا عند العرب .

فلو كان أولئك المسلمون الذين تشعب من دوحة نسبهم كثير من بني معروف هم من الآراميين أو الكلدانيين أو من الذين أسلموا من اليونان أو الرومان أو من الترك أو من الكرد ما كان نسبهم محفوظا .

خامسا : في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الأنساب إلى قبائل العرب ، هذا إلى لحم وذلك إلى طي ، وأنس إلى تميم وأناس إلى كلب ومنهم من لا تزال معروفة مثل بني عزام الذين لهم أقارب في الشرارات ومثل بني قعيق وبني ركين وبني خميس الذين لهم أقارب في عرب العراق .

نعم ، يوجد في الدروز بعض عائلات وجبهة أصلهم من الأكراد والأتراك وهم معروفون وعددهم قليل جدا وهذا لا يخرج هذه الطائفة عن صراحة النسب العربي لأن العبرة بالسواد الأعظم كما لا يخفى .

# بيلوغرافية البحث



## بيلوغرافية البحث

### أولا المصادر :

- القرآن الكريم.

### أ - مصادر الشيخ البشير الإبراهيمي :

- 01 - الإبراهيمي أحمد طالب : مذكرات جزائري ، ج 1 ( أحلام و محن 1932 م - 1965 م ) ، د ط ، دار القصة ، الجزائر : 2006 م .
- 02 - الإبراهيمي أحمد طالب : مذكرات جزائري ، ج 2 ( هاجس البناء 1965 م - 1978 م ) ، د ط ، دار القصة ، الجزائر : 2008 م .
- 03 - الإبراهيمي محمد البشير : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، 05 أجزاء ، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م .
- 04 - الإبراهيمي محمد البشير : في قلب المعركة ( 1954 م - 1964 م ) ، جمع و تقديم سعد الله أبو القاسم ، ط 1 ، شركة دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر و التوزيع ، الجزائر : 1994 م .
- 05 - بن العقون عبد الرحمان بن ابراهيم : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، ج 2 ( 1936 م - 1954 م ) ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1984 م .
- 06 - بن العقون عبد الرحمان بن ابراهيم : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، ج 3 ( 1947 م - 1954 م ) ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1986 م .
- 07 - بن عمر باعزيز : من زكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي ، ط 2 ، منشورات الحبر ، الجزائر : 2007 م .
- 08 - التبسي العربي : مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ج 1 ، جمع و تعليق الرفاعي شرفي ، د ط ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1981 م .
- 09 - حماني أحمد : صراع بين السنة و البدعة ، ج 2 ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 م .
- 10 - خير الدين محمد : مذكرات الشيخ محمد خير الدين ، ج 2 ، د ط ، م و ك ، الجزائر : دت .

- 11- المجلس الأعلى للغة العربية : مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ( كتاب أصدره المجلس بمناسبة اليوم الدراسي : الإمام البشير الإبراهيمي منور الأذهان و فارس البيان المنعقد بالجزائر العاصمة في 2009/06/01 م ) ، د ط، دار الخلدونية للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر : 2009 م .
- 12 - المدني أحمد توفيق : حياة كفاح ( مذكرات ) ، ج 1 ( 1905 م - 1925 م ) ط 2 ، م و ك ، الجزائر : 1988 م .
- 13 - المدني أحمد توفيق : حياة كفاح ( مذكرات ) ، ج 2 ( 1925 م - 1954 م ) ، د ط، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م .
- 14 - المدني أحمد توفيق : حياة كفاح ( مذكرات ) ، ج 3 ( مع ركب الثورة التحريرية ) ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1982 م .
- 15 - الورثياني فضيل : الجزائر الثائرة، د ط، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر: 1982 م .
- 16- AHMED TALEB – IBRAHIMI : mémoires d'un Algérien , T1 ( Rêves et épreuves 1932 – 1965 ), Casbah édition , Alger , 2006 .

**ب - مصادر الأمير شكيب أرسلان :**

- 01 - أرسلان شكيب : الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، مطبعة ابن زيدون ، ط 1 ، دمشق : 1936 م .
- 02 - أرسلان شكيب : بنو معروف أهل العروبة و الإسلام ، إعداد و تقديم سعيد المولى ، ط 1 ، دار العودة ، بيروت : د ت .
- 03 - أرسلان شكيب : تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا و ايطاليا و جزائر البحر المتوسط ، ط 1 ، بيروت : 1966 م .
- 04 - أرسلان شكيب : الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية ، 3 أجزاء ، د ط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : د ت .
- 05 - أرسلان شكيب : سيرة ذاتية ، د ط ، دار الطليعة ، بيروت : 1969 م .
- 06 - أرسلان شكيب : شوقي أو صداقة أربعين سنة ، مطبعة عيسى بابي الحلبي ، القاهرة : 1936 م .
- 07 - أرسلان شكيب : لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ د ط ، مطبعة رحاب ، الجزائر : 1989 م .
- 08 - أرسلان شكيب : مختارات نقدية في اللغة و الأدب و التاريخ ، جمعها و قدمها سعود المولى ، ط 3 ، دار الكلمة للنشر ، بيروت : 1983 م .
- 09 - البعيني نجيب : من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر ، ط 1 ، دار المناهل ، بيروت : 1998 م .
- 10 - بنونة الطيب : نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان و بين الحاج عبد السلام بنونة ، ط 1 ، مطبعة دار الأمل ، تونس : 1980 م .
- 11 - لوثرود ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق شكيب أرسلان ، مجلدان ، ط 4 ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت : 1973 م .

**ج - تقارير وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية حول الأمير شكيب :**

1 – Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales, les archives nationales de Tunisie ,  
26 Janvier 1934 .

2 - Rapport du ministère des affaires étrangère : direction des affaires politiques et commerciales , les archives nationales de Tunisie ,  
22 Février 1937 .

ثانيا : المراجع :

أ - الكتب باللغة العربية :

- 01 - إبراهيم إسماعيل: مشايخ ضد السلطة و السلطان ، د ط ، دار الكتب ، القاهرة : 2004 م .
- 02 - إبراهيم عبد العزيز عبد الغني : محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث ( عصر النهضة ) ، منشورات ELGA ، مالطا : 1999 م .
- 03 - أبو زهرة محمد : الوحدة الإسلامية ، ط 2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة : 1977 م .
- 04 - أبو شادي أحمد زكي : ثورة الإسلام ، د ط ، مكتبة الحياة ، بيروت : د ت .
- 05 - أبوظة أنور و آخرون : خطاب التجديد الإسلامي الأزمنة و الأسئلة ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق : 2004 م .
- 06 - أجيرون شارل روبير : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر : 1986 م .
- 07 - أرشد يسري محمد : حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2006 م .
- 08 - أعمال الملتقى الدولي : الإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ، الجزائر 23 مارس 2005 م ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1984 م .
- 09 - الأفغاني جمال الدين ، عبده محمد : العروة الوثقى ، ط 1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت : 1977 م .
- 10 - أمير علي سيد : روح الإسلام ، ترجمة عمر الديراوي ، ط 6 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1980 م .
- 11 - أمين أحمد : ضحى الإسلام ، ج 2 ، ط 10 ، دار الكتاب العربي ، بيروت : د ت .
- 12 - أمين جلال : التنوير الزائف ، سلسلة إقرأ ، د ط ، دار المعارف ، القاهرة : 1999 م .
- 13 - أمين طلع : تاريخ الموحدين الدروز ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1986 م .

- 14 - الأنصاري محمد جابر : مراجعات في الفكر القومي ( مدخل لدراسة توصيفية لمحنة شعبنا و مقاومته البطولية ) ، د ط ، د م ج ، الجزائر: 1999 م .
- 15 - أنطونيوس جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عباس ، ط 8 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1987 م .
- 16 - أوساريس بول : شهادتي حول التعذيب ( مصالحي خاصة : الجزائر 1957م-1959م ) ترجمة مصطفى فرحات ، د ط ، دار المعرفة ، الجزائر : د ت .
- 17 - إيلز : الإسلام و العصر الحديث ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1984 م .
- 18 - باشا سعيد حليم : لماذا تاخر المسلمون ؟ ، ترجمة عبد الرزاق بركات ، ط 1 ، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية ، القاهرة : 1993م .
- 19 - بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبويه أمين فارس و منير البعلبكي محمد ، د ط ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1984 م .
- 20 - بزيان سعدي : جرائم فرنسا في الجزائر ، د ط ، دار هومة ، الجزائر : 2009 م .
- 21 - البشري طارق : ماهية المعاصرة ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2006 م .
- 22 - بقطاش خديجة : الحركة التبشيرية في الجزائر 1830م -1871م ، د ط ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1992 م .
- 23 - بن الشيخ الحسين : ماذا قدمت أمريكا و الغرب أين الطريق ، د ط ، د م ج ، الجزائر: د ت .
- 24 - بن عاشور محمد الفاضل : روح الحضارة الإسلامية ، ط 4 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية : 2005 م .
- 25 - بن العقون عبد الرحمان بن إبراهيم : الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ( الفترة الأولى 1920 م - 1936 م ) ، م و ك ، الجزائر : 1986 م .
- 25 - بن نبي مالك : تأملات ، ط 5 ، دار الفكر ، الجزائر ، 1991 م .
- 26 - بن نبي مالك : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، د ط ، دار الفكر ، دمشق : د ت .

- 26 - بن قينة عمر : شخصيات جزائرية ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1983 م .
- 27 - بن نبي مالك : المسلم في عالم الإقتصاد ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1978 م .
- 28 - بن نبي مالك : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة و أحمد شعيبو ، إشراف و تقديم عمر مسقاوي ، دار الفكر ، الجزائر : 1992 م .
- 29 - بن نبي مالك : مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط 4 ، دار الفكر ، دمشق : 1984 م .
- 30 - بن نبي مالك : ميلاد المجتمع الإسلامي ، د ط ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق : 1984 م .
- بن أشنهو عبد الحميد بن أبي مزيان : أصول الصهيونية و مآلها ، د ت ، ش و ن ت ، الجزائر : د ت .
- 31 - بن نبي مالك : القضايا الكبرى ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991 م .
- 32 - بن نبي مالك : في مهب المعركة ، ط 1 ، دار الفكر ، الجزائر : 1991 م .
- 33 - بودرع عبد الرحمان ، و آخرون : اللغة و بناء الذات ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 2004 م .
- 34 - بوكروشة حليلة : معالم تجديد المنهج الفقهي ( النموذج الشوكاني ) ، سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، قطر : 2002 م .
- 35 - بوازار مارسيل " إنسانية الإسلام ، ترجمة عفيف دمشقية ، د ط ، دار الآداب ، بيروت : د ت .
- 36 - بوعياد محمد محمود ، و آخرون : المجتمع العربي و القضية الفلسطينية ، تقديم و اعداد حسن الساعاتي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981 م .
- 37 - بيان فاضل : العولمة العثمانية في المجال العربي ( دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية حصرا مطلع العهد العثماني - أواسط القرن 19 م ) ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2007 م .

- 38 - تركي رابح : التعليم القومي و الشخصية الجزائرية 1931 م - 1956م، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1981 م .
- 39 - تشيكو آمنة : مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أنولد توينبي ، د ط، م و ك ، الجزائر : 1989 م .
- 40 - التوبة غازي : الفكر الإسلامي المعاصر دراسة و تفويم ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت : 1977 م .
- 41 - تويلبيه غي تولارجان : مهنة المؤرخ ، تعريب عادل العوا ، ط 1 ، عويدات للنشر و الطباعة ، بيروت : 2001 م .
- 42 - التيمومي الهادي : في أصول الحركة القومية العربية ( 1839 م - 1920 م ) نحو إعادة التأويل ، ط 2 ، دار محمد علي الحامي ، تونس : 2006 م .
- 43 - الجابري محمد عابد : إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط 5 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2005 م .
- 44 - الجابري محمد عابد : المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية ، ط 2 ، م د و ع م ، بيروت : 2000 م .
- 45 - جبر حسن : أسس الحضارة العربية الإسلامية و معالمها ، د ط ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة : 1999 م .
- 46 - جريشة علي محمد ، الزبيق محمد الشريف : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ط 3 ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر : 1979 م .
- 47 - الجمل شوقي ، عبد الرزاق عبد الله : تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة ، د ط ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة : 2004 م .
- 48 - الجندي أنور : آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ، ط 3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت : 1987 م .
- 49 - الجندي أنور : الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، د ط ، دار الكتاب ، القاهرة : د ت .



- 50 - الجندي انور : اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار ( منذ ظهورها الى اوائل الحرب العالمية الاولى ) ، ط 2 ، دار بوسلامة للطباعة و النشر و التوزيع ، تونس : 1985 م .
- 51 - حتي فيليب : تاريخ لبنان ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : 1986 م .
- 52 - حربي محمد : الثورة الجزائرية سنوات المخاض ، ترجمة صالح عياد و صالح المثلوثي ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1994 م .
- 53 - الحجى عبد الرحمان علي : أضواء على الحضارة و التراث ، د ط ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت .
- 54 - الحسن كريم جبر : عملية النهوض الحضاري ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1993 م .
- 55 - حسين محمد محمد : أزمة العصر ، د ط ، دار عكاظ للطباعة و النشر ، جدة ، السعودية : 1979 م .
- 56 - حمادة عبد المنعم : الأستاذ الإمام محمد عبده ، د ط ، مطبعة الإستقامة ، القاهرة : 1945 م .
- 57 - حمادي عبد الله : مساءلات في الفكر و الأدب ( محاضرات ) ، د ط ، د و م ج ، الجزائر : 1994 م .
- 58 - حمادي سعدون : مشروع الوحدة العربية ما العمل ؟ ، د ط ، م د و ع ، بيروت : 2006 م .
- 59 - حوراني ألبرت : تاريخ الشعوب العربية ، ج 2 ، ترجمة نبيل صلاح الدين ، مراجعة عبد الرحمان الشيخ ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1997 م .
- 60 - الحصري أبو خلدون ساطع : آراء و أحاديث في الوطنية و القومية ، ط 2 ، م د و ع ، بيروت : 1985 م .
- 61 - حوراني ألبرت : الفكر العربي في عصر النهضة ، دار النهار ، بيروت ، 1977 م .
- 62 - خالدي مصطفى ، فروخ عمر : التبشير و الإستعمار في البلاد العربية ( عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للإستعمار الغربي ) ، ط 5 ، المكتبة العصرية ، بيروت - صيدا ، 1973 م .

- 63 - الخباص عبد الله عوض : سيد قطب الأديب الناقد، د ط ،دار الشهاب ، الجزائر : د ت .
- 64 - خرفي صالح : الجزائر و الأصالة الثورية ، د ط ، ش و ن ت ، الجزائر : 1977 م .
- 65 - الدراجي محمد : جمال الدين الأفغاني : الأسس الفكرية لمشروعه الحضاري ، ط 1 ، دار غبريني للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر : 2005 م .
- 66 - دراق زبير : المفيد الغالي في الأدب الجاهلي ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1994 م .
- 67 - دردار فتحي : الأمير عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائرية ( 1832 م - 1847 م ) ، د ط ، الجزائر : 2001 م .
- 68 - الدسوقي منى حسين : الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية ، ط 1 ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، بيروت : 1999 م .
- 69 - الدعيمي محمد : الإستشراف الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2006 م .
- 70 - رشا عبد الغفار : التقليدية و الحداثة في التجربة اليابانية ، ط 1 ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت : 1984 م .
- 71 - الزبيري العربي : المتفقون الجزائريون و الثورة ، د ط ، م م و م ، م و ن ا ، الجزائر : 1995 م .
- 72 - زريق قسطنطين : في معركة الحضارة ، ط 3 ، دار العلم للملايين ، بيروت : 1977 م .
- 73 - زغبنة محمد : المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ( 1926 م - 1953 م ) ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2005 م .
- 74 - زقزوق محمد : الوحدة العربية مالها و ما عليها ، ط 1 ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، بيروت : 1994 م .
- 75 - زكار سهيل : تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، د ط ، التلوين للدراسات و الترجمة و النشر ، دمشق - حلبوني : 2006 م .
- 76 - سالم السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ، ط 3 ، دار المعارف ، مصر : 1986 م .

- 77 - السايح أحمد عبد الرحيم : في الغزو الفكري ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1414 هـ .
- 80 - سعد الله أبو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 1 ، القسم الأول ، م و ك ، الجزائر : 1992 م .
- 81 - سعد الله أبو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية ( 1900 م - 1930 م ) ، ج 2 ، ط 3 ، م و ن ت ، الجزائر : 1983 م .
- 82 - سعد الله أبو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية ، ( 1930 م - 1945 م ) ، ج 3 ، ط 3 ، م و ك ، الجزائر : 1986 م .
- 83 - سعد الله أبو القاسم : خلاصة تاريخ الجزائر ( المقاومة و التحرر 1830 م - 1962 م ) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2007 م .
- 84 - سعد الله أبو القاسم : رحلة إين حمادوش الجزائري ، م و ك ، الجزائر : 1982 م .
- 85 - سعود الطاهر : التخلف و التنمية في فكر مالك بن نبي ، ط 1 ، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 2006 م .
- 86 - سعيدوني ناصر : الجزائر منطلقات و آفاق ( مقاربات و آفاق للواقع الجزائري من خلال قضايا و مفاهيم تاريخية ) ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 2000 م .
- 87 - سعيدوني ناصر ، البوعبدلي المهدي : الجزائر في التاريخ ( العهد العثماني ) ، ج 4 ، م و ك ، الجزائر : 1984 م .
- 88 - سفر محمود محمد : دراسة في البناء الحضاري ( محنة المسلم مع حضارة عصره ) ، د ط ، سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الشؤون الإسلامية و الأوقاف ، قطر : 1409 هـ .
- 89 - سلوادي عبد الرحمان : عبد الحميد ابن باديس مفسرا ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1988 .
- 90 - السيد رضوان ، برقاوي أحمد : المسألة الثقافية في العالم العربي الاسلامي ، ط 2 ، دار الفكر ، دمشق : 2001 م .
- 91 - شابري لورانت ، شابري أني : سياسة و أقليات في الشرق الأدنى ( الأسباب المؤدية إلى الانفجار ) ، ترجمة نوقان قرقوط ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة : 1991 م .

- 92 - شارل مالك : لبنان في ذاته ، د ط ، مؤسسة بدران و شركائه للطباعة و النشر ، بيروت : 1984 م .
- 93 - شريط عبد الله : تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1983 م .
- 94 - صاري أحمد : شخصيات و قضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ، د ط ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر : د ت .
- 95 - صاري الجيلالي ، قداش محفوظ : المقاومة السياسية 1900 م - 1954 م ( الطريق الإصلاحية و الثوري ) ، د ط ، م و ك ، الجزائر : د ت .
- 96 - الصعيدي عبد المتعال : القضايا الكبرى في الإسلام ، د ط ، دار شريفة للنشر و التوزيع ، الجزائر : د ت .
- 97 - الصنهاجي أبي عبد الله محمد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق و تعليق جلول أحمد البدوي ، د ط ، م و ك ، الجزائر : 1984 م .
- 98 - ضاهر مسعود : النهضة العربية و النهضة اليابانية ( تشابه المقدمات و إختلاف النتائج ) ، د ط ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1999 م .
- 99 - طعيمة صابر : أخطار الغزو الفكري في العالم الإسلامي ، ط 1 ، عالم الكتب ، بيروت : 1984 م .
- 100 - طهاري محمد : الحركة الإصلاحية في الفكر العربي المعاصر ( جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده و مدرسته ) ، الكتاب الأول ، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر : 1999 م .
- 101 - طهاري محمد : الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، ج 1 ( جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده و مدرسته ) ، ط 1 ، دار الامة ، الجزائر : 1999 م .
- 102 - عباس فرحات : ليل الإستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال ، د ط ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب : د ت .
- 103 - عباس محمد : البشير الإبراهيمي أدبيا ، د ط ، د م ج ، الجزائر : د ت .

- 104 - عبد الدايم عبد الله : في سبيل ثقافة عربية ذاتية (الثقافة العربية و التراث ) ، ط 1 ، دار الآداب ، القاهرة : 1983 .
- 105 - العبد عارف : لبنان و الطائف ( تقاطع تاريخي و مسار غير مكتمل ) ، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : 2001 م .
- 106 - عروة أحمد : الإسلام في مفترق الطرق ، ترجمة عثمان أمين ، د ط ، و ن ت ، الجزائر : 1981 م .
- 107 - العقاد صالح : المغرب العربي ، ط 3 ، المكتبة الأنجلو المصرية ، مصر : 1969 م .
- 108 - عكاشة شايف : الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ( مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1993 م .
- 109 - عليوي هادي حسن : الإتجاهات الوحوية في الفكر القومي العربي المشرقي ( 1918 م - 1956 م ) ، م د و ع ، ط 1 ، بيروت : 2000 م .
- 110 - عمارة محمد : الإسلام بين التثوير و التثوير ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت : 1995 م .
- 111 - عمارة محمد : الجامعة الإسلامية و الفكرة القومية - نموذج مصطفى كامل ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة : 1994 م .
- 112 - عمارة محمد : الطريق إلى اليقظة الإسلامية ، ط 1 ، دار الشروق ، القاهرة : 1990 م .
- 113 - عمران محمود سعيد : منهج البحت التاريخي و مصادر العصور الوسطى ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، مصر : 2006 م .
- 114 - عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة : 2005 م .
- 115 - العمري أكرم ضياء : قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي ، ج 2 ، سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1994 م .
- 116 - عميرايوي حميدة : دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية ( 1827 م - 1840 م ) ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1987 م .

- 117 - عويمر مولود : أعلام و قضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر ، تصدير سعد الله ابو القاسم ، ط 1 ، دار الخلدونية ، الجزائر : 2007 م .
- 118 - غربي الغالي : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي (1288م - 1916م) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 2007 م .
- 119 - الغزالي محمد : سر تأخر العرب و المسلمين ، د ط ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1985 م .
- 120 - غليسي جوان : الجزائر الثائرة ، تعريب خيرى حماد ، ط 1 ، دار الطليعة ، بيروت : 1961 م .
- 121 - الفتلاوي سهيل حسين : جذور الحركة الصهيونية ، دار وائل للطباعة و النشر ، عمان ، الأردن : 2002 م .
- 122 - فتوني على عبد : البلاد العربية و التحديات التعليمية الثقافية ، ط 1 ، دار الفارابي ، بيروت : 2007 م .
- 123 - فضلاء الطاهر : الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى ، د ط ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1967 م .
- 124 - فلاديمير لوتسيكي : الحرب الوطنية التحريرية في سوريا 1925 م - 1927 م ( صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الأمبريالية الفرنسية ) ، د ط ، تعريب محمد ذياب ، سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث ، دار الفارابي ، بيروت : 1987 م .
- 125 - فريحات حكمت عبد الكريم ، الخطيب إبراهيم ياسين : مدخل الى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، د ط ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن : 1999 م .
- 126 - قاسم أحمد نجيب : التاريخ الحديث و المعاصر ، د ط ، دار المعارف مصر ، د ت .
- 127 - قربان ملحم : تاريخ لبنان السياسي الحديث ( الإستقلال السياسي ) ، ج 1 ، د ط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت : 1981 م .

- 128 - قدورة زاهية : تاريخ العرب الحديث ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1975 م .
- 129 - قطب محمد : قضية التنوير في العالم الإسلامي ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة : 2002 م .
- 130 - قطب محمد : هل نحن مسلمون ، د ط ، دار الشروق ، بيروت : 1986 م .
- 131 - قطب محمد : واقعنا المعاصر ، د ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر : د ت .
- 133 - كنعان محمد : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، ط 1 ، مركز البحوث و المعلومات ، قطر : 1990 م .
- 134 - كنفاني محمد عبد السلام : الحضارة العربية طابعها و مقوماتها العامة ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1970 م .
- 135 - الكواكبي عبد الرحمان : طبائع الإستبداد و مصارع الإستعباد ، تقديم محمد خالد ، سلسلة الأنيس ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1991 م .
- مراد علي : الإسلام المعاصر ، د ط ، مطبعة دحلب ، الجزائر : 1995 م .
- 136 - كولر جون : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، د ط ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت : 1995 م .
- 137 - لوبون غوستان : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتير ، ط 3 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة : 1965 م .
- 138 - لوبون غوستاف : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت : د ت .
- 139 - المبارك محمد : المجتمع الإسلامي المعاصر ، ط 5 ، دار الفكر ، لبنان : 1980 م .
- 140 - محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر ، ج 2 ، د ط ، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية ، الجزائر : 1983 م .
- 141 - المحجوبي علي : النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر لماذا فشلت بمصر و تونس و نجحت في اليابان ، د ط ، مركز النشر الجامعي ، تونس : 1999 .

- 142 - المحافظه علي : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ( 1798 م - 1914 م ) ، ط 2 ، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت : 1978 م .
- 143 - مرحبا عبد الرحمان : أصالة الفكر العربي ، ط 2، د م ج ، الجزائر : 1983 م .
- 144 - محمود السيد :
- 145 - مجموعة من الباحثين : الأقليات و القوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516 م ، ط 1 ، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية، الفنار ، لبنان : 2001 م .
- 146 - مرتاض عبد المالك : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ( 1925 م - 1954 م ) ، ط 2 ، م و ن ت ، الجزائر : د ت .
- 147 - مركز دراسات الوحدة العربية : الأعمال القومية لساطع الحصري ( آراء و أحاديث في الوطنية و القومية ) ، ط 2 ، بيروت : 1985 م .
- 148 - مسبيرو فرانسوا : سانت آرنو أو الشرف الضائع ، ترجمة مسعود حاج مسعود ، د ط ، دار القصبه للنشر ، الجزائر : 2007 م .
- 149 - معاليقي منذر : معالم الفكر العربي في عصر النهضة ، تقديم ياسين الايوبي ، د ط ، دار اقرأ ، بيروت : د ت .
- 150 - مصطفى محمد ، حميداتو محمد : عبد الحميد ابن باديس و جهوده التربوية ، سلسلة كتاب الأمة ، د ط ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، قطر : 1997 م .
- 151 - منسي محمود صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، د ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة : 1975 م .
- 152 - المودودي أبو الأعلى : بين يدي الشباب، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1985 م .
- 153 - المودودي أبو الأعلى : نحن و الحضارة الغربية ، د ط ، دار الفكر ، بيروت : د ت .
- 154 - موسى سلامة : ما هي النهضة و مختارات أخرى ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1990 م .
- 155 - نايت بلقاسم مولود قاسم : ردود الفعل الأولية داخلا و خارجا على غرة نوفمبر ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر : 1984 م .



- 156 - الندوي أبو الحسن علي الحسين : الطريق إلى السعادة و القيادة للدول و المجتمعات الإسلامية الحرة ، ط 4 ، مؤسسة الإسراء الجزائر : د ت .
- 157 - الندوي أبو الحسن علي : الصراع الفكري بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 2006 م .
- 158 - الندوي أبو الحسن علي : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، ط 5 ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر : 1987 م .
- 159 - نوار عبد العزيز سليمان : التاريخ الحديث - أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب البروسية الفرنسية- 1789 م - 1871 م ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت : 2002 م .
- 160 - هلال عمار : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر (1830م - 1962م) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1995 م .
- 161 - هويدا فريدون : الإسلام المعطل ، د ط ، دار النشر مارينور ، الجزائر : 1996 م .
- 162 - الورثياني الفضيل : الجزائر الثائرة ، د ط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر : 1992 م .
- 163 - وعلي محمد الطاهر : التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 م - 1904 م ( دراسة تاريخية تحليلية ) ، د ط ، منشورات دحلل ، الجزائر : 1997 م .
- 164 - ولاية سطيف : محاضرات ملتقى مجازر 08 ماي 1945 م في الذاكرة الوطنية ، د ط ، الجزائر : 2005 م .
- 165 - ولد خليفة محمد العربي : المحنة الكبرى ( مدخل لدراسة توصيفية لمحنة شعبنا و مقاومته البطولية ) ، د ط ، د م ج ، الجزائر : 1999 م .
- 166 - يحي جلال : العالم العربي الحديث و المعاصر ( الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين ) ، ج 2 ، د ط ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية : 1998 م .
- 167 - يحي جلال : المغرب الكبير ( العصور الحديثة و هجوم الإستعمار ) ، ج 3 ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت : 1981 م .

- 168 - يحي جلال : المغرب الكبير ( الفترة المعاصرة و حركات التحرر و الإستقلال ) ، ج 4 ، د ط ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت : 1981 م .
- 169 - يس السيد : الوعي القومي المحاصر ( أزمة الثقافة السياسية العربية المعاصرة ) ، د ط ، مركز السياسات الدراسية العربية الأهرام ، القاهرة : 1991 م .
- 170 - يوسف عبد التواب : الحضارة الإسلامية بأقلام غربية و عربية ، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية : 1994 م .
- 171 - الواعي توفيق : اليهود تاريخ إفساد و انحلال و دمار ، ط 1 ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت : 1995 م .

ب : الكتب باللغة الفرنسية :

- 01 - A - NOUSHI : CONSTANTINE A LA VEILLE DE TUNISIE , N:° 11 , TR , 1955 , PP 210 - 214 .
- 02 - ANDRE NOUSHI : LA NAISSANCE DU NATIONALISME ALGERIEN , LES EDITIONS DE MINIUT , PARIS , 1962 .
- 03 - BERGER - LEVRAULT : LA SYRIE ET LE LIBAN SOUS L'OCCUPATION ET LE MONDAT FRANÇAIS 1919 - 1927 , EDITIONS NANCY , PARIS , STRASBOURG , 1929 .
- 04 - CHARLES ROBERT AGERON : HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE ( 1871 - 1945 ) ; T 2, 1ere ed , PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE , PARIS , 1997 .
- 05 - CHARLES ROBERT AGERON : LES ALGERIENS MUSULMANS ET LA France ( 1871 - 1919 ) , T2 , P. U . F , PARIS , 1968 .
- 06 - CHARLES ROBERT AGERON : LES POLITIQUE COLONIALES AU MAGHREB , P.U.F , PARIS , 1972 .
- 07 - JACQUES BERQUE : LES ARABES D'HIER A DEMAIN , 3 ème EDITION , EDITIONS DU SEUIL, PARIS , 1969 .
- 08 - CLAUD COLLOT : LES INSTITUTIONS DE L'ALGERIE DURANT LA PERIODE COLONIALE ( 1830 - 1962 ) , ED C.N.R ET O.P.U , ALGER .
- 09 - CHERIF BENHABYLES : L'ALGERIE FRANCAISE VU PAR UN INDIGENE , ED ORIENTALE , ALGER , 1914 .
- 10 - DJILALI BENAMRANE : L'EMIGRATION ALGERIENNE EN France ( PASSE , PRESENT , DEVENIR ) , S.N.E.D , ALGER , 1983 .
- 11 - FANNY COLONNA : INSTITUTEURS ALGERIENS ( 1883 - 1839 ) , O.P.U , ALGER , 1975 .
- 12 - FANNY COLONNA : LETRES , INTELLECTUELS , ET MILITANTS EN ALGERIE ( 1880 - 1950 ) , O.P.U , ALGER , 1988 .

- 13** – GEORGES CORNE : L'EUROPE ET L'ORIENT ( DE LA BALCANISATION A LA LIBANISATION : HISTOIRE D'UNE MODERNITE INACCOMPLIE ) , EDITION BOUCHENE , ALGER , 1990 .
- 14** – GUSTANE LEBON : LA CIVILISATION DES ARABES , IMAG , SYRACUSE ,Italie , 1961 .
- 15** – JAQUES CARRET : L'ASSOCIATION DES OULEMAS D'ALGERIE , EDITION ALAM EL AFKAR , ALGER , 2007 .
- 16** – MAHFOUD KADDACHE : HISTOIRE DU NATIONALISME ALGERIEN ( QUESTION NATIONALE ET POLITIQUE ALGERIENNE ) , T1 , SNED , ALGER , 1980 .
- 17** – MUSTAPHA CHERIF , JEAN SUR : JACQUES BERQUE ORIENT-OXIDENT , EDITIONS ANEP , ALGERIE , 2004 .
- 18** – TAHAR GAID : REFLEXION SUR LA PENSSEE ISLAMIQUE , OFFICE DES PUBLICATION UNIVERSITAIRES , ALGER 1999 .
- 19** – WILLIAM L . CLEVELAND : ISLAM AGAINST THE WEST SHAKIB ARSLAN AND THE CAMPAINGN FOR ISLAMIC NATIONALISM , FIRST PUBLISHED AL SAQI BOOKS , LONDON , GREAT BRITAIN , 1985.

**ج - الدوريات :**

**أ - المجلات :**

- 01 - مجلة الآداب و العلوم الإجتماعية ، كلية الآداب و العلوم الإجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 04 / جوان 2006 م .
- 02 - مجلة : الآداب و العلوم الإجتماعية، كلية الآداب و العلوم الإجتماعية ، جامعة فرحات عباس سطيف ، الجزائر : العدد 07 / جوان 2009 م .
- 03 - مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 85 / جانفي / فيفري 1985 م .
- 04 - مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 87 ماي / جوان 1985 م .
- 05 - مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 95 / سبتمبر / أكتوبر 1986 م .
- 06 - مجلة حضارة الإسلام ، العدد 06 / ديسمبر 1965 م .
- 06 - مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر : العدد 101 / 1988 م .
- 07 - مجلة الحوار الفكري ، مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية ، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر : العدد 05 / أوت 2003 م .
- 08 - مجلة الدراسات الإسلامية ، المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر : العدد 01 / جوان 2002 م .
- 09 - مجلة الذاكرة للدراسات التاريخية للمقاومة و الثورة ، م و م ، الجزائر : 1995 م .
- 10 - مجلة الرواسي ، جمعية الإصلاح الإجتماعي و التربوي ، باتنة ، الجزائر ، العدد 07 / فيفري / مارس 1993 م .
- 11 - مجلة الشهاب الجديد ، مؤسسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، الجزائر : العدد 03 / أبريل 2004 م .
- 12 - مجلة العربي ، الكويت : العدد 343 / أكتوبر 1995 م .
- 13 - مجلة العربي ، الكويت : العدد 461 / أبريل 1997 م .
- 14 - مجلة العربي ، الكويت : العدد 463 / أكتوبر 1997 م .
- 15 - مجلة العربي ، الكويت : العدد 516 / 2001 م .

- 16 - مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت : العدد 12 / مارس 1981 م .
- 17 - مجلة الفكر العربي ، لبنان : العدد 39 - 40 / جوان / أكتوبر 1985 م .
- 18 - المجلة العربية للثقافة ، المنظمة العربية للثقافة و التربية و العلوم : العدد 26 / مارس 1994 م .
- 19 - مجلة المستقبل الإسلامي ، لندن : العدد 03 / جويلية 1992 م .

**ب - الجرائد :**

- 01 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد 106 / 22 - 29 جويلية 2002 م .
- 02 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد : 108 / 02 - 09 سبتمبر 2002 م .
- 03 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد 109 / 09 - 16 سبتمبر 2002 م .
- 04 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد : 110 / 16 - 23 سبتمبر 2002 م .
- 05 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد 111 / 23 - 30 سبتمبر 2002 م .
- 06 - جريدة البصائر ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجزائر : العدد 112 / 30 - 06 أكتوبر 2002 م .
- 07 - جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر : العدد 542 / 15 - 24 جويلية 2009 م .
- 08 - جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر : العدد : 543 / 22 - 28 جويلية 2009 م .
- 09 - جريدة الخبر الأسبوعي ، الجزائر : العدد 545 / 05 - 11 أوت 2009 م .

**ثالثا : الرسائل و الأطروحات الجامعية :**

- 01 - بن عمر عادل : منظمة المؤتمر الإسلامي الواقع و الآفاق ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، جامعة بن يوسف بن خدة ، الجزائر : السنة الجامعية 2006 م - 2007 م .
- 02 - بورغدة رمضان : الجزائريون و العدالة الفرنسية في عمالة قسنطينة خلال القرن 19 م ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر غير منشورة ، قسم التاريخ ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : السنة الجامعية 1999 م - 2000 م .
- 03 - بو الصفصاف عبد الكريم : الأبعاد الثقافية و الإجتماعية و السياسية في حركتي محمد عبده و عبد الحميد ابن باديس ، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة ، ج 1 ، جامعة تونس الأولى ، تونس : السنة الجامعية 1996 م - 1997 م .
- 04 - بو الصفصاف عبد الكريم : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى ( 1931 م - 1945 م ) ، د ط ، منشورات م . و . م ، م و ن إ ، الجزائر : 1997 م .
- 05 - جمعة أحمد محمود : إنشاء جامعة الدول العربية : مقدماتها و تطورها ، ج 1 ، أطروحة دكتوراه دولة منشورة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر : 2006 م .
- 06 - الدهان سامي : شكيب أرسلان حياته و أثاره ، رسالة ماجستير منشورة ، ط 2 ، دار المعارف ، مصر : 1976 م .
- 07 - السحمراني أحمد : الإستبداد و الإستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي ، رسالة ماجستير منشورة ، ط 1 ، دار النفائس ، بيروت : 1984 م .
- 08 - الشرباصي أحمد : أمير البيان شكيب أرسلان ، أطروحة دكتوراه دولة منشورة ، د ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963 م .
- 09 - الشرباصي أحمد : شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، رسالة ماجستير منشورة ، د ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة : 1963 م .
- 10 - شيا محمد : شكيب أرسلان و مقدمة الفكر السياسي ، رسالة ماجستير منشورة ، سلسلة كتاب الفكر العربي ، د ط ، بيروت : 1983 م .

- 11 - ظاهر محمد صكر الحسنائي : شكيب أرسلان الدور السياسي الخفي ، رسالة ماجستير منشورة ، ط 1 ، دار رياض الرئيس للكتب و النشر ، بيروت 2002 م .
- 12 - عباس محمد : البشير الإبراهيمي أديبا ، أطروحة ماجستير منشورة ، كلية الآداب جامعة بغداد ، د ط ، د و م ج ، الجزائر ، د ت .
- 13 - فايد بشير : الشيخ البشير الإبراهيمي و دوره في القضية الوطنية 1920 م- 1965 م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ و الآثار ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر : السنة الجامعية 2000 م - 2001 م .
- 14 - مهراوي محمد : البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه ، رسالة ماجستير منشورة ، د ط ، دار الفكر ، دمشق : 1988 م .
- 15 - بلاصي نبيل أحمد : الإتجاه العربي و الإسلامي و دوره في تحرير الجزائر ، أطروحة جامعية منشورة ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر : 1990 م .

رابعاً : الموسوعات و المعاجم و القواميس :

- 01 - البغدادي أبي الفوز محمد أمين : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، ط 2 ، تحقيق كامل مصطفى الهنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت : 2005 م .
- 02 - بيرنجيه جان : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 2 ، ط 1 ، منشورات عويدات ، بيروت ، 1995 م .
- 03 - الحوتي سعد أبو سيف : الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية ، ط 1 ، مطبعة أبو العزم ، مصر : 2002 م .
- 04 - دانيال ريغ : السبيل ، معجم عربي فرنسي - فرنسي عربي ، مكتبة لاروس ، باريس : 1983 م .
- 05 - دريفوس فرانسوا جورج ، و آخرون : موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ج 3 ( أوروبا من عام 1789 م حتى أيامنا ) ، ترجمة حسين حيدر ، ط 1 ، منشورات عويدات ، بيروت : باريس ، 1995 م .
- 06 - الزركلي خير الدين : معجم الأعلام ، ج 4 ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت : د ت .
- 07 - الزركلي خير الدين : معجم الأعلام ، ج 5 ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت : د ت .
- 08 - المسعودي علي بن الحسين : مروج الذهب و معادن الجواهر ، ج 3 ، سلسلة الأنيس ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر : 1999 م .
- 09 - نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، د ط ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر ، بيروت : 1980 م .
- 10 - هادية علي ، و آخرون : القاموس الجديد للطلاب ، تقديم محمود المسعدي ، ط 7 ، م و ك ، الجزائر : 1991 م .



# فهارس البحث

الفهارس :

أولا : فهرس الأعلام :

- أ -

- إبراهيم ( النبي ) ص : 196 .  
- إبراهيم إسماعيل ( كاتب ) : 394 .  
- الإبراهيمي أحمد طالب ( نجل البشير ) : 86 ، 98 ، 148 ، 151 .  
- إبراهيم حافظ ( الشاعر ) : 103 .  
- الإبراهيمي السعدي ( عم البشير ) : 102 .  
الإبراهيمي محمد البشير ( الشيخ ) : 1 ، 9 ، 12 ، 20 ، 27 ، 28 ، 36 ، 41 ، 44 ، 56 ،  
63 ، 69 ، 77 ، 79 ، 82 ، 85 ، 86 ، 109 ، 110 ، 111 ، 117 ، 118 ، 119 ، 121 ،  
122 ، 130 ، 131 ، 145 ، 146 ، 147 ، 148 ، 149 ، 150 ، 151 ، 155 ، 163 ،  
164 ، 165 ، 166 ، 167 ، 168 ، 169 ، 170 ، 171 ، 172 ، 174 ، 184 ، 185 ، 186 ،  
187 ، 188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 194 ، 195 ، 196 ، 197 ، 198 ،  
199 ، 200 ، 201 ، 202 ، 203 ، 204 ، 205 ، 206 ، 207 ، 218 ، 219 ، 220 ،  
221 ، 222 ، 223 ، 224 ، 225 ، 226 ، 227 ، 228 ، 229 ، 231 ، 232 ، 233 ،  
234 ، 235 ، 237 ، 238 ، 239 ، 241 ، 244 ، 251 ، 270 ، 271 ، 272 ، 273 ،  
274 ، 275 ، 276 ، 277 ، 278 ، 279 ، 280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 285 ،  
302 ، 303 ، 304 ، 305 ، 306 ، 307 ، 309 ، 310 ، 311 ، 313 ، 314 ، 315 ،  
316 ، 317 ، 318 ، 319 ، 320 ، 322 ، 323 ، 324 ، 325 ، 326 ، 327 ، 328 ،  
329 ، 330 ، 334 ، 335 ، 336 ، 337 ، 338 ، 339 ، 341 ، 342 ، 370 ، 371 ،  
372 ، 374 ، 375 ، 376 ، 377 ، 379 ، 381 ، 382 ، 383 ، 384 ، 385 ، 386 ،  
387 ، 405 ، 406 ، 407 ، 408 ، 409 ، 410 ، 411 ، 412 ، 413 ، 422 ، 423 ،  
424 ، 425 ، 426 ، 427 ، 428 ، 429 ، 431 ، 433 ، 435 ، 436 ، 437 ، 454 ،  
455 ، 456 ، 457 ، 458 ، 459 ، 460 ، 461 ، 462 ، 463 ، 464 ، 465 ، 466 ،  
467 ، 487 ، 488 ، 490 ، 491 ، 492 ، 493 ، 495 ، 501 ، 502 ، 503 ، 504 ،

- 505 ، 506 ، 507 ، 508 ، 509 ، 510 ، 511 ، 513 ، 524 ، 526 ، 527 ، 528 ،  
529 ، 532 ، 534 ، 535 ، 536 ، 537 ، 548 ، 549 ، 550 ، 555 ، 556 ، 557 ،  
558 ، 559 ، 560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 564 ، 565 ، 567 ، 568 ، 569 ، 570 ،  
571 ، 572 ، 573 ، 574 ، 575 ، 576 ، 577 .
- الإبراهيمي محمد المكي ( عم البشير ) : 100 ، 105 .  
- أبو جعفر المنصور ( خليفة عباسي ) : 93 .  
- أبو شامة عبد الرحمن إسماعيل ( مؤرخ ) : 96 ، 517 .  
- أبو الغداء إسماعيل : 517 .  
- أبي عبد الله ( ملك أندلسي ) : 159 .  
- أتاتورك مصطفى كمال : 125 ، 127 ، 206 ، 207 ، 250 ، 251 ، 252 ، 272 ،  
276 ، 348 ، 349 ، 350 ، 351 ، 555 ، 373 .  
- أجيرون شارل روبير ( مؤرخ فرنسي ) : 24 .  
- إدريس بن عبد الله : 88 .  
- الإدريسي ( أمير ) : 259 .  
- آدم ( نبي ) : 369 .  
- أرسطو : 236 .  
- أرسلان ( الجد الأكبر لآل أرسلان ) : 93 ، 95 .  
- أرسلان أحمد ( شقيق شقيب ) : 92 .  
- أرسلان بن مالك المنذري ( أحد أجداد شقيب ) : 93 .  
- أرسلان حسن ( شقيق شقيب ) : 92 .  
- الأرسلاني حمود بن حسن ( والد شقيب ) : 91 .  
- أرسلان عادل ( شقيق شقيب ) : 92 .  
- أرسلان شقيب : 1 ، 12 ، 16 ، 19 ، 20 ، 27 ، 36 ، 44 ، 61 ، 62 ، 63 ، 73 ، 78 ،  
79 ، 82 ، 85 ، 86 ، 87 ، 90 ، 92 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98 ، 112 ، 113 ، 114 ،  
115 ، 116 ، 117 ، 118 ، 123 ، 124 ، 125 ، 128 ، 129 ، 130 ، 131 ، 132 ،

، 155 ، 154 ، 153 ، 152 ، 146 ، 145 ، 144 ، 143 ، 142 ، 141 ، 140 ، 133  
، 169 ، 168 ، 167 ، 166 ، 165 ، 164 ، 163 ، 162 ، 160 ، 159 ، 158 ، 157  
، 247 ، 246 ، 245 ، 244 ، 243 ، 242 ، 241 ، 240 ، 184 ، 174 ، 171 ، 1702  
، 259 ، 258 ، 257 ، 256 ، 255 ، 254 ، 253 ، 252 ، 251 ، 250 ، 249 ، 248  
، 274 ، 273 ، 272 ، 269 ، 268 ، 267 ، 265 ، 264 ، 263 ، 262 ، 261 ، 260  
، 348 ، 347 ، 346 ، 345 ، 344 ، 343 ، 342 ، 301 ، 288 ، 287 ، 285 ، 275  
، 362 ، 361 ، 359 ، 358 ، 357 ، 356 ، 354 ، 353 ، 352 ، 351 ، 350 ، 349  
، 377 ، 376 ، 375 ، 374 ، 373 ، 372 ، 369 ، 368 ، 367 ، 366 ، 364 ، 363  
، 416 ، 415 ، 405 ، 387 ، 386 ، 385 ، 384 ، 383 ، 382 ، 381 ، 379 ، 378  
، 444 ، 443 ، 442 ، 425 ، 424 ، 423 ، 422 ، 421 ، 420 ، 419 ، 418 ، 417  
، 459 ، 458 ، 457 ، 456 ، 455 ، 454 ، 452 ، 451 ، 450 ، 449 ، 448 ، 447  
، 498 ، 479 ، 496 ، 487 ، 467 ، 466 ، 465 ، 464 ، 463 ، 462 ، 461 ، 460  
، 521 ، 520 ، 519 ، 518 ، 516 ، 507 ، 505 ، 504 ، 503 ، 502 ، 501 ، 500  
، 543 ، 542 ، 541 ، 540 ، 539 ، 538 ، 528 ، 527 ، 526 ، 524 ، 523 ، 522  
، 560 ، 559 ، 557 ، 556 ، 555 ، 554 ، 551 ، 549 ، 548 ، 546 ، 545 ، 544  
، 575 ، 574 ، 573 ، 572 ، 571 ، 569 ، 568 ، 567 ، 564 ، 563 ، 562 ، 561  
، 577 ، 576

- أرسلان مصطفى ( أمير لبناني ) : 17 .

- أرسلان نسيب ( شقيق شقيب ) : 112 ، 113 ، 114 ، 116 ، 157 ، 162 ، 167 ،  
168 .

- الاسكندر المقدوني : 91 .

- الأسكوبي ابراهيم : 104 .

- الأسير يوسف : 475 .

- 
- الأفغاني جمال الدين : 115 ، 118 ، 302 ، 386 ، 390 ، 392 ، 394 ، 395 ، 398 ، 402 ، 433 ، 458 ، 477 ، 494 .
  - الأفغاني عبد الباقي : 104 .
  - أفلاطون : 72 ، 73 ، 94 .
  - آل خليفة محمد العيد ( شاعر ) : 146 .
  - أمين جلال ( أكاديمي ) : 300 .
  - أمين الشميل : 474 .
  - أمين طلع ( أكاديمي لبناني ) : 94 ، 95 .
  - أمين قاسم : 405 .
  - أنطزنيوس جورج ( أكاديمي ) : 479 .
  - الأنطيوخس ( قائد مقدوني ) : 91 .
  - أنور الجندي ( أكاديمي ) : 393 ، 364 ، 506 .
  - الأوزاعي أبو عمر ( إمام ) : 157 .
  - أيوب ( نبي ) : 91 .
  - الأيوبي ( تلميذ البشير الإبراهيمي ) : 110 .
  - الأيوبي صلاح الدين : 160 ، 195 ، 196 ، 215 .

- ب -

- الباروني سليمان ( زعيم ليبي ) : 124 .
- باستور لويس : 351 .
- باشا إبراهيمي : 511 .
- باشا أحمد : ( والي عثماني بصيدا ) : 14 .
- باشا أحمد زكي ( أديب مصري ) : 115 .
- باشا أحمد عرابي : 114 .
- باشا أنور ( قائد عثماني ) : 123 ، 126 .

- 
- باشا جمال ( والي عثماني على الشام ) : 17 ، 109 ، 110 ، 140 ، 141 ، 243 ، 482 .
- باشا خير الدين ( باي تونسي ) : 378 .
- باشا محمد علي : 300 ، 359 ، 360 ، 361 ، 373 ، 470 ، 511 .
- باشا مظفر : 158 .
- بخيت محمد ( شيخ أزهرى ) : 103 .
- البرادعي ( راهب سوري ) : 71 .
- برنابا ( قديس ) : 70 .
- برنو موريس ( كاتب فرنسي ) : 348 .
- بروفنسال ليفي ( كاتب ) : 162 .
- برونسون جون جاك ( أديب ) : 157 .
- بريان دو شاتو ( كاتب فرنسي ) : 156 .
- البستاني بطرس ( أديب لبناني ) : 58 ، 60 ، 61 ، 112 ، 475 ، 476 .
- بسمارك : 471 ، 545 .
- بسيوني أحمد ( الشيخ ) : 157 .
- البشري سليم ( عالم أزهرى ) : 103 .
- بطرس ( قديس ) : 70 .
- بطرس الناسك ( راهب فرنسي صليبي ) : 95 .
- البعيني أحمد نجيب ( مؤلف ) : 162 ، 563 .
- البغدادي : 258 .
- بلافريج أحمد ( زعيم مغربي ) : 553 .
- ابن أبي الأحمر أبي الحسن علي ابن نصر ( ملك أندلسي ) : 159 .
- ابن أحمد الخليل : 253 .
- بن اسماعيل محمد الدرزي ( داعية فارسي ) : 14 .

- 
- ابن باديس عبد الحميد : 77 ، 105 ، 134 ، 136 ، 142 ، 168 ، 197 ، 275 ، 311 ، 371 .
  - ابن تيمية : 395 .
  - ابن حمادوش ( متقف جزائري ) : 50 .
  - بن حورة ( قاضي جزائري ) : 135 .
  - ابن الخطاب عمر ( صحابي ) : 235 .
  - ابن الخطيب ( كاتب ) : 101 .
  - ابن خلدون عبد الرحمن : 96 ، 162 ، 157 ، 517 .
  - ابن خلكان أحمد : 517 .
  - ابن رشد : 215 ، 235 .
  - ابن سعود ( ملك ) : 171 ، 258 ، 359 ، 361 ، 373 ، 544 ، 546 .
  - ابن سينا : 215 .
  - ابن شداد عز الدين محمد ( مؤرخ ) : 517 .
  - ابن طولون شمس الدين محمد ( مؤرخ ) : 517 .
  - بن عاشور طاهر ( الشيخ ) : 196 ، 197 .
  - بن عبد الوهاب محمد : 391 .
  - ابن عربي ( صوفي ) : 75 .
  - ابن عساكر ( مؤرخ ) : 96 ، 517 .
  - ابن عقيل ( نحوي مصري ) : 113 .
  - بن العقون عبد الرحمن بن ابراهيم ( كاتب ومناضل جزائري ) : 08 .
  - ابن علي السنوسي : 391 .
  - ابن العنابي ( متقف جزائري ) : 50 .
  - ابن القيم الجوزية : 396 .
  - ابن كثير ( مؤرخ ) : 96 .

- ابن مالك ( صاحب الألفية ) : 100 ، 149 .
- ابن المقفع : 156 .
- بن مهدي العربي : 156 .
- بن نبي مالك : 178 .
- ابن النديم محمد ( مؤرخ ) : 96 ، 517 .
- البنزرجي أحمد ( شيخ ) : 104 .
- بنونة الحاج عبد السلام ( مناضل ) : 162 ، 163 ، 356 .
- ابن هشام : 104 .
- البهلولي محمد بن يحيى ( لشيخ ) : 191 .
- ابن الوليد خالد ( صحابي ) : 93 .
- بوجو ( جنرال فرنسي ) : 22 .
- بورقيبة الحبيب ( رئيس تونسي ) : 143 .
- بوعمامة ( الشيخ ) : 192 .
- بولس ( قديس ) : 70 .
- بونابرت نابليون : 300 ، 344 ، 470 .
- بوازار مارسيل ( كاتب ) : 292 .
- بيرك جاك : 345 .
- البيطار عبد الرزاق ( عالم سوري ) : 104 .

- ت -

- التركي محمد علي عباس ( أحد كبار أثرياء الجزائر ) : 138 .
- التوحيدي أبو حيان : 213 .
- التونسي خير الدين ( باي ) : 405 .
- التونسي عبد العزيز الوزير ( شيخ ) : 104 .
- تيودولي ( مركيز ) : 127 .



- ج -

- الجابري إحسان : 127 ، 158 .
- جان داراك ( قديسة وبطلة قومية فرنسية ) : 54 ، 235 .
- جاويش عبد العزيز : 405 .
- جريجوريوس الثالث عشر ( بابا ) : 14 .
- الجزائري محمد العمري ( أديب ) : 104 .
- جمال عبد الناصر : 537 .
- جورج بيكو ( سياسي فرنسي ) : 17 .
- جوناك ( حاكم فرنسي في الجزائر ) : 67 .
- جيمس وليام ( عالم نفساني ) : 151 .

- ح -

- الحاج أحمد مصالي : 130 ، 143 .
- الحاج أمين الحسيني ( مفتي القدس ) : 129 ، 130 ، 545 .
- الحاكم بأمر الله الفاطمي : 73 ، 94 ، 95 .
- الحاكم أبي علي المنصور ابن عبد العزيز ( خليفة فاطمي ) : 94 .
- الحاقلائي إبراهيم : 517 .
- حتي فيليب ( أكاديمي لبناني ) : 94 ، 518 ، 519 ، 522 ، 523 .
- حدة بنت محمد ( والدة البشير الإبراهيمي ) : 89 .
- حسين باي : 66 ، 511 .
- الحسن بن علي : 308 .
- الحسن الثاني ( ملك المغرب ) : 159 .
- الحسنني محمد الهادي ( أكاديمي جزائري ) : 409 .
- الحداد ( الشيخ ) : 192 .
- حمدان بن عثمان خوجة ( مثقف جزائري ) : 50 .

- حمزة عبد المالك بك : 251 .
- الحمودي ياقوت ( مؤرخ ) : 96 ، 517 .
- الحكيم محمد ابن عزوز ( مؤلف ) : 162 .
- حواء : 396 .

- خ -

- خالد ( أمير جزائري ) : 8 .
- خان أمان الله : 252 ، 273 .
- خديجة ( ض ) : 235 .
- الخديوي سعيد ( حاكم مصري ) : 160 ، 448 .
- الخطابي عبد الكريم ( بطل مغربي ) : 256 ، 258 .
- الخوري بشارة ( رئيس لبناني ) : 153 .
- الخوري بولس عواد ( معلم ومطران لبناني ) : 113 .
- خوري خليل : 153 ، 476 .
- خير الدين محمد ( مصلح جزائري ) : 138 ، 146 .

- د -

- داروين تشارلز ( عالم نفساني ) : 151 ، 204 .
- الدبس يوسف ( مطران لبناني ) : 58 ، 112 .
- الدرزي أبي محمد : 94 .
- الدوق دروفيقو ( حاكم عام فرنسي بالجزائر ) : 60 .
- دولاد بيه ( رئيس وزراء فرنسي ) : 135 .
- دي بورمون ( جنرال فرنسي ) : 511 .
- ديكارت : 236 .

- ذ -

- الذهبي شمس الدين ( مؤرخ ) : 96 ، 517 .

- ر -

- رضا رشيد ( الشيخ ) : 103 ، 118 ، 123 ، 126 ، 128 ، 159 ، 302 ، 386 ، 398 ،  
400 ، 401 ، 402 ، 480 .

- الريحاني أمين ( أديب ) : 475 .

- رينان أرنست ( مفكر ) : 472 .

- رينو ( مستشرق فرنسي ) : 158 .

- ز -

- الزاهري السعيد ( مصلح جزائري ) : 142 .

- زيدان جورجى ( أديب لبناني ) : 58 ، 476 .

- زغلول سعد ( أديب وسياسي مصري ) : 115 ، 488 .

- زغينة محمد ( أكاديمي جزائري ) : 150 .

- الزمخشري ( مؤرخ ) : 213 .

- الزهراوي عبد الحميد ( كاتب ) : 480 .

- زويمر ( كاتب ) : 341 .

- زيهر كولد ( مستشرق ألماني ) : 209 .

- س -

- سارتر جون بول ( فيلسوف ) : 240 .

- السايح أحمد عبد الرحمن ( أكاديمي ) : 317 .

- سبينوزا باروك ( فيلسوف ) : 204 .

- ستودارد لوثرروب ( كاتب أمريكي ) : 158 .

- سر كيس خليل ( كاتب لبناني ) : 60 .
- سعد الله أبو القاسم ( أكاديمي ) : 382 .
- سعيد بن المسيب : 308 ، 309 .
- السكري نسيب ( تلميذ البشير الإبراهيمي ) : 110 .
- سلمان مرعي شاهين ( معلم شكيب أرسلان ) : 112 .
- سليم الأول سلطان عثماني : 13 .
- سليمي ( زوجة شكيب أرسلان ) : 162 .
- السمالوطي ( شيخ أزهرى ) : 103 .
- السمعاني أبو السعد : 517 .
- السموأل : 326 .
- السنوسي أحمد الشريف : 160 .
- سيويه : 253 .
- السيد أحمد لطفي : 405 .
- السيد قطب : 408 .
- سيرفي ( ضابط فرنسي ) : 122 .

- ش -

- شارل ديغول ( زعيم ورئيس فرنسي ) : 9 ، 18 ، 137 .
- شاکر عون ( معلم لبناني ) : 113 .
- الشدياق فارس ( أديب لبناني ) : 60 ، 476 .
- الشريف حسين ( أمير ) : 106 ، 109 ، 140 ، 243 ، 244 ، 482 ، 483 ، 499 .
- الشماخ ( مؤرخ ) : 253 .
- الشنفرى : 253 .
- الشنقيطي عبد الله ( شيخ ) : 104 .
- شهبه أبو بكر ابن قاضي : 517 .

- شهبندر عبد الرحمن ( أكاديمي سوري ) : 109 .
- شوقي أحمد ( شاعر ) : 103 ، 115 ، 159 ، 162 .

- ص -

- الصابي أبي اسحاق : 156 ، 160 .
- الصالحي السعيد ( مصلح جزائري ) : 143 .
- صروف اسحاق يعقوب ( أديب ) : 475 ، 476 .
- الصفدي صلاح الدين خليل ( مؤرخ ) : 517 .
- صليبا جميل ( أكاديمي سوري ) : 108 ، 110 .

- ط -

- الطائي حاتم : 325 .
- الطاهر محمد علي ( صديق شكيب أرسلان ) : 154 .
- الطبري أبو جعفر : 212 .
- طه حسين ( أديب ) : 252 ، 559 ، 560 .
- الطهطاوي رفاعه رافع ( أديب ) : 301 .

- ع -

- عائشة ( ض ) : 235 .
- عازوري نجيب ( سياسي ) : 478 .
- عبد الحميد الثاني ( سلطان عثماني ) : 393 ، 394 ، 400 ، 459 ، 471 ، 477 ، 478 .
- عبد الرحمان مولاي : 511 .
- عبد القادر ( أمير ) : 55 ، 74 ، 192 .
- عبده محمد : 97 ، 114 ، 115 ، 116 ، 118 ، 302 ، 311 ، 386 ، 393 ، 396 ، 398 ، 402 ، 433 ، 494 .

- عبد السلام بكمين الشام 0 ضابط ومعلم تركي ) : 113 .
- عبد المجيد الثاني ( سلطان عثماني ) : 362 .
- عبد الملك بن مروان ( خليفة أموي ) : 512 .
- عبد الله الجابر الصباح ( أمير كويتي ) : 529 .
- عبد العزيز آل سعود ( ملك سعودي ) : 128 .
- العراقي ( صاحب الألفية ) : 101 .
- عز الدين علي بن الأثير ( مؤرخ ) : 517 .
- عضد الدولة ( خليفة عباسي ) : 156 .
- العظمة نبيه : 357 .
- العقبي الطيب ( مصلح جزائري ) : 142 .
- علي بن أبي طالب ( صحابي ) : 14 .
- علي بن الحسين ( أمير ) : 497 ، 499 .
- عمر المختار ( بطل ليبي ) : 17 ، 192 .
- عنتر بن شداد : 326 .
- عون ( جد شكيب أرسلان ) : 93 ، 95 .

- غ -

- غاريبا لدي ( زعيم ايطالي ) : 472 ، 479 .
- الغزي كامل : 511 .
- غلاد سطنون ( كيميائي ) : 351 .
- الغلابيني مصطفى ( مصلح لبناني ) : 58 ، 61 .
- غورو ( المفوض السامي الفرنسي على سوريا ولبنان ) : 17 .

- ف -

- الفارابي : 215 .
- فاران ( سياسي فرنسي ) : 23 .
- الفاسي علال ( زعيم مغربي ) : 130 .
- فاندريك كورنيليوس ( طبيب ومبشر أمريكي ) : 475 .
- فتح الله فرنسيس : 474 .
- فيخته ( فيلسوف ) : 472 .
- فرانس أناتول ( أديب فرنسي ) : 157 .
- فرحات عباس ( سياسي جزائري ) : 35 ، 137 ، 138 .
- فرعون : 233 .
- فرويد سيغموند ( عالم نفساني ) : 204 ، 214 .
- فضلاء محمد الطاهر ( تلميذ البشير الإبراهيمي ) : 147 .
- الفيضي أبادي حسين أحمد ( شيخ ) : 104 .
- فيصل بن الحسين ( أمير ) : 109 ، 129 ، 170 ، 197 ، 544 ، 546 .
- فيصل أسعد أفندي ( شيخ ) : 112 .
- فيري جول ( سياسي فرنسي ) : 7 .
- فيليب سانت ( قديس ) : 66 .
- فيليب لويس ( ملك فرنسي ) : 4 .

- ق -

- القاسمي جمال الدين ( عالم سوري ) : 107 .
- القوتلي شوكري ( رئيس سوري ) : 5.37 .

- ك -

- كافور ( زعيم ايطالي ) : 545 .

- كامل مصطفى ( سياسي مصري ) : 301 .
- كرومر ( لورد ) : 400 .
- كريم جبر الحسن ( أكاديمي ) : 260 .
- كريمبو ( وزير فرنسي يهودي ) : 39 .
- كسرى ( ملك ) : 421 .
- كنعان سليمان : 158 .
- الكونت درو ( قائد صليبي ) : 95 .
- الكواكبي عبد الرحمن : 216 ، 297 ، 302 ، 386 ، 402 ، 403 ، 404 ، 475 ، 477 ، 478 .
- الكيلاني رشيد عالي ( وزير سوري ) : 130 .

- ل -

- لافيغري شارل ( كاردينال مسيحي فرنسي ) : 65 ، 68 ، 390 ، 333 ، 338 .
- لامارتين ( شاعر فرنسي ) : 90 .
- لاون العاشر ( بابا ) : 291 .
- لطف الله ميشيل : 158 .
- لوتي بيار ( روائي فرنسي ) : 539 .
- لورانس توماس ادوارد ( ضابط مخابرات بريطاني ) : 482 .
- لوبون غوستاف : 219 ، 345 ، 370 .
- لوندروف ( جنرال ألماني ) : 126 .

- م -

- مازيني ( قائد إيطالي ) : 472 .
- مالك ( الإمام ) : 104 .
- مالك ( أمير لبناني ) : 95 .



- مراش ( أديب ومناضل ) : 474 .
- مروان ( خليفة أموي ) : 512 .
- محمد " ص " : 72 ، 196 ، 212 ، 220 ، 271 ، 305 ، 306 ، 315 ، 343 ، 382 ،  
415 ، 429 ، 437 ، 450 ، 522 ، 543 .
- محمد الثاني ( سلطان عثماني ) : 291 .
- محمد بن عبد الوهاب : 396 .
- محمد فريد ( سياسي ومصري ) : 55 ، 405 .
- محمود عبد الغني ( شيخ أزهرى ) : 103 .
- المدني توفيق ( مصلح جزائري ) : 138 ، 142 .
- مرتاض عبد المالك ( أكاديمي جزائري ) : 53 ، 150 .
- مسلم ( صاحب الصحيح ) : 104 .
- المسيح عليه السلام ( نبي ) : 351 .
- مصطفى باشا التركماني ( أحد كبار أعيان لبنان ) : 29 .
- مصطفى كامل ( سياسي مصري ) : 404 ، 405 ، 433 ، 451 .
- مطران ( وزير فرنسي ) : 55 .
- مطران خليل ( شاعر لبناني ) : 154 .
- معوية بن أبي سفيان ( صحابي ) : 307 .
- المقرئ ( وزير ) : 258 .
- المنذر بن ماء السماء اللخمي : 93 .
- المهدي بن محمد : 391 .
- الموجي سعيد ( شيخ الأزهرى ) : 103 .
- موسى عليه السلام ( نبي ) : 233 .
- موسى سلامة ( مفكر ) : 233 .
- موسيليني ( زعيم ايطالي ) : 129 ، 563 .
- المولى سعود ( أكاديمي ) : 159 ، 162 .

- ميترز آدم ( عالم اقتصاد ) : 345 .
- ميكيافيلي ( فيلسوف ) : 148 .
- ميل جون ستيوارت ( عالم نفساني ) : 151 .
- الميلي مبارك ( مصلح جزائري ) : 143 .

- ن -

- نابليون بوناپرت : 54 ، 230 ، 235 .
- نابليون الثالث : 3 .
- النجار إبراهيم ( أديب لبناني ) : 60 .
- الندوي أبو الحسن علي ( مفكر ) : 530 .
- نسطوريوس ( بطريرك القسطنطينية ) : 71 .
- النعمان بن المنذر ( ملك ) : 421 .
- نعيم باشا ( متصرف لبناني ) : 16 .
- النقاش مارون ( أديب ومسرحي لبناني ) : 61 ، 475 .
- نمر فارس ( أديب لبناني ) : 476 .
- نويهض عجاج ( كاتب ) : 158 .

- ه -

- هارون الرشيد ( خليفة عباسي ) : 512 .
- هتلر أدولف : 417 .
- هونكة زغريد ( مستشرقة ألمانية ) : 345 .
- هويدا فريدون ( مفكر ) : 194 .

- و -

- وات منتغمري : 345 .

- وايزمان حايم ( زعيم صهيوني ) : 129 .
- الورثيلاني فضيل ( مصلح جزائري ) : 143 .
- وعلي محمد الطاهر ( كاتب ) : 338 .
- ولسن وودرو ( رئيس أمريكي ) : 8 .

- ي -

- اليازجي إبراهيم ( أديب ) : 475 ، 476 .
- اليازجي ناصيف ( أديب ) : 475 .
- يزيد ابن معاوية : 308 .
- يوسف علي ( صاحب جريدة المؤيد ) : 115 .
- يوليوس ( بابا ) : 291 .

#### ثانيا : فهرس الأماكن والبلدان :

- أ -

- الاتحاد السوفياتي : 264 .
- الاتحاد النمساوي المجري : 546 .
- أثينا : 236 .
- أجنادين : 93 .
- الأرجنتين : 48 ، 161 .
- الأردن : 258 ، 356 ، 357 ، 440 ، 473 .
- أرمينيا : 71 .
- الأزهر ( جامع ) : 103 ، 122 ، 170 ، 195 .
- إسبانيا : 129 ، 157 ، 180 ، 191 ، 142 ، 218 ، 256 ، 257 ، 345 ، 514 ، 576 .
- اسرائيل : 266 ، 315 ، 366 ، 493 ، 494 ، 512 .
- الأستانة ( عاصمة الدولة العثمانية ) : 13 ، 115 ، 123 ، 125 ، 476 ، 479 ، 480 .

- اسطنبول : 17 .
- الإسكندرية : 71 .
- الإسكندرونة ( لواء ) : 127 ، 500 .
- آسيا ( قارة ) : 131 ، 132 ، 170 ، 180 ، 218 ، 292 ، 483 ، 493 ، 530 ، 550 ، 555 ، 571 .
- الأغواط ( مدينة في جنوب الجزائر ) : 37 .
- أفريقيا ( قارة ) : 131 ، 135 ، 136 ، 144 ، 170 ، 180 ، 218 ، 292 ، 493 ، 330 ، 338 ، 530 ، 555 .
- أفغانستان : 252 ، 273 .
- الألزاس ( مقاطعة فرنسية ) : 471 ، 535 .
- ألمانيا : 125 ، 126 ، 141 ، 142 ، 159 ، 160 ، 246 ، 368 ، 398 ، 417 ، 463 ، 470 ، 482 ، 484 ، 498 ، 535 ، 536 ، 556 ، 557 .
- الإمبراطورية النمساوية المجرية : 480 .
- أمريكا ( قارة ) : 48 ، 131 ، 132 ، 170 ، 311 ، 471 ، 550 ، 571 .
- أمريكا اللاتينية : 130 ، 155 ، 163 .
- إنجلترا : 442 .
- الأندلس : 37 ، 141 ، 157 ، 158 ، 162 ، 163 ، 191 ، 195 ، 215 ، 418 ، 563 .
- أندونيسيا : 180 .
- أنطاكية ( تركيا ) : 71 ، 127 .
- أنقرة : 251 ، 348 ، 350 ، 373 .
- الأهواز ( إيران ) : 543 .
- الأوراس ( الجزائر ) : 149 .
- أوروبا : 1 ، 42 ، 50 ، 129 ، 131 ، 132 ، 143 ، 155 ، 160 ، 163 ، 173 ، 234 ، 245 ، 251 ، 264 ، 266 ، 283 ، 290 ، 292 ، 293 ، 300 ، 301 ، 311 ، 333 ،

، 379 ، 378 ، 375 ، 374 ، 369 ، 368 ، 366 ، 365 ، 362 ، 361 ، 339 ، 338  
، 469 ، 463 ، 454 ، 444 ، 443 ، 421 ، 418 ، 417 ، 401 ، 398 ، 390 ، 389  
، 562 ، 560 ، 555 ، 550 ، 541 ، 502 ، 497 ، 490 ، 478 ، 473 ، 473 ، 470  
. 575 ، 573 ، 571

- أوروبا الشرقية : 536 .

- أولاد براهيم (قبيلة جزائرية) : 88 .

- إيطاليا : 17 ، 30 ، 61 ، 123 ، 124 ، 126 ، 127 ، 132 ، 140 ، 157 ، 180 ،  
، 514 ، 470 ، 463 ، 384 ، 398 ، 373 ، 349 ، 348 ، 346 ، 290 ، 257 ، 252  
. 577 ، 556 ، 536 ، 535

- إيران : 14 ، 75 ، 78 ، 215 ، 283 ، 392 .

- أيرلندا : 540 .

- إيجيل علي (الجزائر) : 330 .

- ب -

- باب الواد (حي بمدينة الجزائر العاصمة) : 139 .

- بئر السبع (فلسطين) : 124 .

- باريس : 3 ، 6 ، 17 ، 115 ، 119 ، 127 ، 129 ، 135 ، 143 ، 157 ، 236 ،  
. 554 ، 478 ، 477 ، 471 ، 392

- باكستان : 119 ، 120 ، 199 ، 412 ، 413 ، 460 ، 461 .

- البحر المتوسط : 141 ، 157 .

- البحر الميت : 358 .

- بحر البلطيق : 541 .

- بجاية (الجزائر) : 26 ، 50 ، 330 .

- البرازيل : 48 .

- برقة (ليبيا) : 124 ، 160 .

- برلين ( ألمانيا ) : 125 ، 127 ، 129 ، 141 ، 142 ، 252 .
- بروسيا : 16 .
- بريطانيا : 16 ، 19 ، 71 ، 76 ، 124 ، 126 ، 129 ، 130 ، 132 ، 141 ، 170 ، 180 ، 259 ، 264 ، 300 ، 362 ، 364 ، 392 ، 400 ، 442 ، 445 ، 461 ، 464 ، 471 ، 479 ، 480 ، 482 ، 483 ، 485 ، 486 ، 497 ، 499 ، 500 ، 536 ، 554 ، 574 ، 575 .
- بسكرة ( مدينة في جنوب الجزائر ) : 37 .
- بسكنتا ( لبنان ) : 94 .
- البصرة : 119 .
- بعلبك ( لبنان ) : 15 ، 94 .
- بعقلين ( لبنان ) : 95 .
- بغداد : 62 ، 119 ، 121 ، 195 ، 512 .
- البقاع : 17 ، 73 ، 94 .
- بلجيكا : 128 .
- بلغاريا : 124 ، 415 ، 470 .
- البلقان : 78 ، 124 ، 129 ، 140 ، 169 ، 425 .
- بني إسماعيل ( الجزائر ) : 330 .
- بني ربيعة ( قبيلة في شبه الجزيرة العربية ) : 94 .
- بنغازي ( ليبيا ) : 124 .
- بني نصر ( دولة أندلسية ) : 157 .
- البوسنة : 160 ، 415 .
- بولونيا : 264 ، 541 .
- بـيـروت : 17 ، 33 ، 58 ، 90 ، 97 ، 112 ، 114 ، 115 ، 116 ، 153 ، 156 ، 161 ، 476 ، 481 ، 482 .
- بيرن ( سويسرا ) : 130 .

- ت -

- تركيا : 70 ، 106 ، 124 ، 125 ، 127 ، 206 ، 348 ، 349 ، 350 ، 351 ، 353 ، 357 ، 358 ، 359 ، 373 ، 276 ، 392 ، 394 ، 455 ، 476 ، 478 .
- تطوان : 142 ، 356 .
- تلمسان ( غرب الجزائر ) : 26 ن 50 ، 134 ، 135 ، 136 ، 161 ، 284 .
- تونس : 48 ، 102 ، 144 ، 180 ، 197 ، 378 ، 405 ، 440 ، 471 ، 472 ، 476 ، 511 ، 514 ، 525 ، 547 .

- ج -

- الجامع الأموي ( سوريا ) : 107 .
- الجامع العمري ( بيروت ) : 153 .
- الجبل ( لبنان ) : 512 ، 561 .
- الجبل الأسود ( البلقان ) : 124 .
- جبل حوران ( لبنان ) : 74 .
- جبل جرمون ( لبنان ) : 73 .
- جبل الدروز ( لبنان ) : 47 ، 94 ، 154 .
- جبل طارق : 235 .
- جبل عامل ( لبنان ) : 15 ، 18 ، 73 ، 94 .
- جبل الكرمل ( فلسطين ) : 94 .
- جبيل ( لبنان ) : 73 .
- الجزائر : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 9 ، 13 ، 21 ، 24 ، 25 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 42 ، 48 ، 49 ، 50 ، 51 ، 55 ، 56 ، 57 ، 62 ، 63 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 75 ، 77 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 99 ، 100 ، 102 ، 105 ، 106 ، 110 ، 117 ، 119 ، 120 ، 121 ، 122 ، 137 ، 138 ، 142 ، 143 ، 144 ، 146 ، 147 ، 148 ، 149 ، 159 ، 161 ، 164 ، 166 ، 167 ، 168 ، 169 ، 171 ، 180 ، 190 .

- ، 334 ، 333 ، 331 ، 330 ، 311 ، 284 ، 280 ، 279 ، 274 ، 266 ، 198 ، 197  
، 508 ، 491 ، 439 ، 431 ، 405 ، 382 ، 379 ، 372 ، 372 ، 338 ، 337 ، 335  
، 569 ، 568 ، 565 ، 564 ، 561 ، 557 ، 549 ، 547 ، 514 ، 511 ، 510  
- الجزيرة العربية : 35 ، 95 ، 259 ، 343 ، 388 ، 436 ، 480 ، 526 ، 548 .  
- جنيف : 125 ، 143 ، 349 .  
- الجنوب ( لبنان ) : 154 .  
- جنوة ( إيطاليا ) : 127 .  
- جيجل ( الجزائر ) : 37 .

- ح -

- حاصيا ( لبنان ) : 74 ، 94 .  
- الحبشة : 71 .  
- الحجاز : 63 ، 109 ، 130 ، 158 ، 361 ، 362 ، 373 ، 392 ، 482 ، 539 ، 546 ،  
565 ، 568 .  
- الحديدية : 305 ، 306 .  
- حلب : 13 ، 476 ، 543 .  
- الحلفاء : 138 ، 140 .  
- حلق الوادي ( تونس ) : 511 .  
- حماه ( سورية ) : 13 ، 29 .  
- حمص ( سورية ) : 13 ، 29 ، 94 .  
- حيدرة ( حي بمدينة الجزائر ) : 146 .  
- حيفا ( فلسطين ) : 104 .

- خ -

- خراطة ( الجزائر ) : 41 ، 138 .



- الخرطوم ( السودان ) : 543 .

- د -

- داركور ( مقهى بباريس ) : 115 .

- الدانمارك : 540 .

- دمشق : 13 ، 15 ، 75 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 110 ، 118 ، 121 ، 129 ،

130 ، 157 ، 161 ، 362 ، 373 ، 476 ، 482 ، 496 ، 512 .

- الدول الأوروبية : 123 ، 157 .

- الدول العباسية : 95 ، 96 .

- الدولة العثمانية : 1 ، 16 ، 17 ، 20 ، 31 ، 32 ، 33 ، 37 ، 43 ، 44 ، 57 ، 59 ،

60 ، 65 ، 71 ، 74 ، 75 ، 76 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 82 ، 97 ، 106 ، 117 ، 123 ،

124 ، 125 ، 140 ، 165 ، 167 ، 170 ، 181 ، 254 ، 284 ، 285 ، 350 ، 392 ،

393 ، 394 ، 395 ، 397 ، 400 ، 404 ، 417 ، 418 ، 420 ، 421 ، 423 ، 460 ،

466 ، 470 ، 473 ، 479 ، 480 ، 481 ، 482 ، 485 ، 497 ، 499 ، 501 ، 502 ،

525 ، 553 ، 554 ، 555 ، 561 .

- الدولة الصفوية ( إيران ) : 75 ، 78 .

- دول المحور : 135 ، 136 .

- دول الوفاق : 244 .

- ديار بكر ( تركيا ) : 349 .

- ديترويت ( الو.م.أ ) : 128 .

- دير قزحيا ( لبنان ) : 60 .

- دير القمر ( لبنان ) : 74 ، 95 .

- ر -

- رأس الوادي ( الجزائر ) : 88 .

- راشيا ( لبنان ) : 94 .

- الرباط ( المغرب ) : 141 ، 532 .

- روسيا : 16 ، 71 ، 126 ، 128 ، 390 ، 418 ، 484 ، 512 ، 499 ، 500 .

- روما : 119 ، 129 ، 130 .

- الروميلي ( البلقان ) : 125 .

- ريغة ( الجزائر ) : 100 .

- الريف ( المغرب ) : 256 ، 257 ، 258 .

- ز -

- زحلة ( لبنان ) : 58 .

- زواوة ( الجزائر ) : 330 ، 335 .

- الزيتونة ( جامع ) : 440 .

- س -

- سافواي بيمونت ( سويسرة ) : 158 .

- سان ريمو ( إيطاليا ) : 17 .

- سطيف ( الجزائر ) : 41 ، 88 ، 137 ، 138 .

- السعودية : 121 ، 171 ، 361 ، 544 ، 547 .

- السند : 177 .

- سورية : 15 ، 17 ، 33 ، 70 ، 71 ، 72 ، 94 ، 96 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ،

110 ، 114 ، 116 ، 117 ، 118 ، 125 ، 127 ، 130 ، 132 ، 161 ، 168 ، 243 ،

405 ، 453 ، 472 ، 473 ، 476 ، 480 ، 484 ، 499 ، 497 ، 516 ، 521 ، 537 ،

543 ، 550 ، 551 ، 568 ، 574 ، 546 ، 563 .

- السودان : 388 ، 484 ، 401 ، 543 .

- سيواس ( تركيا ) : 349 .

- السوس ( المغرب ) : 543 .
- سويسرة : 125 ، 127 ، 129 ن 130 ، 157 ن 158 ، 252 ، 346 ، 348 ، 349 ، 373 ، 500 ، 540 .
- سيدي محمد ( الجزائر ) : 146 .

- ش -

- الشام : 13 ، 14 ، 29 ، 30 ، 63 ، 94 ، 97 ، 106 ، 107 ، 110 ، 117 ، 124 ، 125 ، 167 ، 169 ، 195 ، 244 ، 259 ، 284 ، 332 ، 423 ، 436 ، 462 ، 469 ، 473 ، 478 ، 480 ، 482 ، 483 ، 516 ، 525 ، 554 ، 561 ، 566 ، 571 .
- الشرق الأردني : 71 ، 180 .
- شمال إفريقيا : 106 ، 120 ، 197 ، 484 ، 505 ، 514 ، 524 ، 526 ، 527 .
- شمّر ( الحجاز ) : 259 .
- شهباء ( لبنان ) : 95 .
- السوف ( لبنان ) : 16 ، 73 ، 90 ، 94 ، 95 ، 154 ، 561 .
- الشويفات ( لبنان ) : 90 ، 91 ، 112 ، 116 ، 154 .

- ص -

- الصحراء الغربية : 525 .
- صربيا : 124 ، 470 .
- صفا ( فلسطين ) : 94 .
- صقلية : 345 .
- صور ( لبنان ) : 17 ، 476 .
- صيدا ( لبنان ) : 13 ، 17 ، 31 .
- الصين : 245 .

- ط -

- طاغستان : 126 .
- طرابلس ( لبنان ) : 13 ، 15 ، 17 ، 31 ، 72 .
- طرابلس ( ليبيا ) : 124 ، 160 ، 452 ، 476 ، 511 .
- طنجة ( المغرب ) : 142 .

- ع -

- العالم الإسلامي : 104 ، 139 ، 155 ، 160 ، 163 ، 168 ، 169 ن 170 ، 1714 ، 180 ، 190 ، 402 ، 404 ، 405 ، 406 ، 409 ، 419 ، 439 ، 442 ، 443 ، 456 ، 470 ، 477 .
- العالم العربي : 163 ، 169 ، 170 ، 171 ، 190 ، 514 .
- العالم العربي الإسلامي : 64 ، 72 ، 283 ، 292 ن 294 ، 370 ن 576 ، 568 ، 574 .
- عدن : 180 .
- العراق : 71 ، 120 ، 161 ، 215 ، 358 ، 392 ، 436 ، 478 ، 480 ، 482 ، 499 ، 546 ، 547 ، 551 .
- عسير : 239 ، 259 .
- عمان : 121 .
- العمروسية : 112 .
- عين التركي ( الجزائر ) : 12 .
- عين عنوب ( لبنان ) : 112 .

- غ -

- غاليبولي ( شبه الجزيرة ) : 125 .
- غرداية ( مدينة في جنوب الجزائر ) : 68 .
- غرناطة : 156 ، 157 ، 159 ، 191 .

- غوطة دمشق ( لبنان ) : 94 .

- ف -

- الفاتكان : 333 ، 337 ، 338 .

- فارس : 76 ، 436 .

- فاس : 258 .

- فخ ( وادي بالقرب من مكة المكرمة ) : 88 .

- الفرات ( نهر ) : 536 .

- فرساي ( فرنسا ) : 8 ، 500 .

- فرنسا : 1 ، 3 ، 7 ، 8 ، 9 ، 10 ، 11 ، 12 ، 16 ، 17 ، 18 ، 19 ، 26 ، 27 ، 36 ،

38 ، 41 ، 42 ، 43 ، 50 ، 53 ، 62 ، 65 ، 66 ، 69 ، 71 ، 76 ، 77 ، 80 ، 82 ، 84 ،

117 ، 121 ، 122 ، 126 ، 127 ، 129 ، 130 ، 131 ، 132 ، 133 ، 134 ، 136 ،

138 ، 139 ، 140 ، 141 ، 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 148 ، 151 ،

153 ، 156 ، 157 ، 158 ، 164 ، 166 ، 169 ، 170 ، 180 ، 220 ، 230 ، 231 ،

243 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 264 ، 266 ، 271 ، 280 ، 290 ، 292 ، 334 ،

335 ، 336 ، 337 ، 338 ، 362 ، 370 ، 372 ، 382 ، 396 ، 469 ، 480 ، 482 ،

483 ، 485 ، 486 ن 487 ن 498 ، 499 ، 504 ، 505 ، 508 ، 510 ، 511 ، 514 ،

523 ، 535 ، 447 ، 549 ، 554 ، 560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 564 ، 574 ، 575 ،

576 .

- فلسطين : 17 ، 71 ، 94 ، 104 ، 123 ، 126 ، 127 ، 129 ، 130 ، 132 ، 161 ،

164 ، 170 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 265 ، 277 ، 314 ، 257 ، 415 ، 445 ،

447 ، 448 ، 449 ، 451 ، 453 ، 461 ، 462 ، 473 ، 480 ، 482 ، 483 ، 492 ،

493 ، 494 ، 497 ، 500 ، 501 ، 502 ، 536 ، 563 ، 568 ، 574 .

- فلورنسا ( ايطاليا ) : 31 .

- ق -

- قاعة ابن خلدون ( الجزائر ) : 147 .
- قازاغستان : 126 .
- قالمة ( الجزائر ) : 41 ، 138 .
- القاهرة : 103 ، 119 ، 127 ، 149 ن 154 ، 156 ، 157 ، 160 ، 161 ، 170 ، 357 ، 476 .
- القبائل ( منطقة في الجزائر ) : 12 ، 330 ، 334 ، 335 .
- قبرص : 71 .
- القدس : 121 ، 128 ، 196 ، 329 ، 545 .
- قرة حصار ( تركيا ) :
- قرطاج : 346 .
- القرويين ( جامع ) : 440 .
- القسطنطينية : 291 : 479 .
- قسنطينة ( الجزائر ) : 3 ، 9 ، 26 ، 40 ، 50 ، 66 ، 134 ، 137 ، 139 .
- قناة السويس : 140 .

- ك -

- كتشاوة ( مسجد بمدينة الجزائر ) : 66 .
- كراتشي ( باكستان ) : 119 ، 120 .
- كسروان ( لبنان ) : 73 ، 154 .
- كشمير ( باكستان ) : 120 .
- الكومنولث : 464 .
- الكويت : 121 ، 529 .

- ل -

- لبنان : 1 ، 2 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 ، 20 ، 29 ، 30 ، 31 ، 34 ،  
35 ، 36 ، 43 ، 44 ، 45 ، 48 ، 49 ، 57 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 70 ، 71 ،  
73 ، 74 ، 75 ، 77 ، 79 ، 82 ، 83 ، 84 ، 95 ، 96 ، 99 ، 116 ، 117 ، 126 ،  
130 ، 131 ، 132 ، 135 ، 140 ، 141 ، 144 ، 153 ، 154 ، 155 ، 166 ، 167 ،  
168 ، 169 ، 284 ، 382 ، 405 ، 471 ، 472 ، 473 ، 497 ، 516 ، 524 ، 525 ،  
560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 571 ، 574 ، 480 ، 481 .
- لندن : 127 ، 255 ، 392 ، 554 .
- اللورين ( مقاطعة فرنسية ) : 471 ، 535 .
- ليبيا : 78 ، 123 ، 124 ، 130 ، 132 ، 140 ، 161 ، 169 ، 180 ، 257 ، 505 ،  
525 ، 563 .

- م -

- المتن ( لبنان ) : 94 ، 154 .
- المجر : 541 .
- محطة البرامكة ( دمشق ) : 110 .
- المدرسة الأمريكية ( بيروت ) : 112 .
- مدرسة الحكمة ( بيروت ) : 112 ، 114 ، 116 .
- المدرسة السلطانية ( سوريا ) : 107 ، 114 ، 116 .
- المدينة المنورة : 102 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 362 ، 431 .
- مراكش : 76 ، 514 .
- مرج دابق ( موقع في بلاد الشام ) : 13 .
- مرسين ( بلدة تركية ) : 125 ، 127 .
- المسجد الأقصى : 447 .

- المشرق العربي : 63 ، 64 ، 72 ، 102 ، 111 ، 117 ، 119 ، 131 ، 134 ، 139 ،  
148 ، 150 ، 153 ، 155 ، 166 ، 167 ، 168 ، 195 ، 196 ، 405 ، 421 ، 435 ،  
464 ، 483 ، 490 ، 500 ، 507 ، 508 ، 513 ، 524 ، 525 ، 548 ، 550 ، 566 .  
- مصر : 15 ، 63 ، 71 ، 115 ، 116 ، 117 ، 118 ، 119 ، 122 ، 123 ، 125 ،  
128 ، 158 ، 161 ، 167 ، 177 ، 195 ، 230 ، 251 ، 252 ، 257 ن 284 ، 292 ،  
300 ، 301 ، 359 ، 361 ، 373 ، 378 ، 390 ، 392 ، 393 ، 401 ، 404 ، 405 ،  
434 ، 436 ، 440 ، 455 ، 470 ، 471 ، 472 ، 473 ، 476 ، 480 ، 483 ، 488 ،  
507 ، 511 ، 512 ، 513 ، 529 ، 530 ، 547 ، 548 ، 559 ، 566 .  
- المغرب الأقصى : 48 ، 76 ، 129 ، 88 ، 142 ، 144 ، 161 ، 162 ، 180 ، 191 ، 257 ،  
258 ، 356 ، 410 ، 436 ، 480 ، 509 ، 510 ، 511 ، 513 ، 525 ، 547 ، 563 ، 566 ،  
576 .

- المغرب الأوسط : 88 .

- المغرب العربي : 64 ، 99 ، 121 ، 143 ، 168 ، 180 ، 191 ، 195 ، 283 ، 301 ،  
323 ، 405 ، 420 ، 484 ، 504 ، 505 ، 506 ، 507 ، 508 ، 513 ، 514 ، 524 ، 526 ،  
532 ، 547 ، 548 .

- مكتبة آل الصافي ( المدينة المنورة ) : 104 .

- مكتبة آل القاسمي ( سوريا ) : 108 .

- مكتبة بشير آغا ( المدينة ) : 104 .

- مكتبة رباط سيدنا عثمان ( المدينة ) : 105 .

- مكتبة السلطان محمود ( المدينة ) : 104 .

- مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ( المدينة ) : 104 .

- مكتبة الشيخ الوزير ( المدينة ) : 104 .

- مكتبة عبد الجليل برادة ( المدينة ) : 105 .



- مكتبة الوزير التونسي العربي زروق ( المدينة ) : 105 .
- مكة المكرمة : 121 ، 128 ، 130 ، 141 ، 431 .
- المكسيك : 48 ، 480 .
- موريتانيا : 180،525 .
- موسكو : 126 ، 128 .
- الموصل ( العراق ) : 358 .
- ميزاب ( منطقة في جنوب الجزائر ) : 37 .
- ميونيخ (ألمانيا ) : 142 .

- ه -

- الهرسك : 415 .
- هولاندة : 119 ، 180 ، 475 ، 540 .
- الهند : 120 ، 161 ، 245 ، 283 ، 356 ، 364 ، 374 ، 392 ، 393 .

- ن -

- النادي الشرقي ( ألمانيا ) : 126 ، 252 .
- النادي العربي ( سوريا ) : 109 ، 110 .
- نجد ( الحجاز ) : 546 .
- النمسا : 16 .
- نيويورك : 128 ، 161 .
- النيل ( نهر ) : 484 ، 536 .

- و -

- وادي الأردن : 124 .
- وادي التيم ( لبنان ) : 46 ، 94 .
- وادي العجم ( لبنان ) : 94 .
- ورقلة (منطقة جنوب الجزائر ) : 330 .
- الولايات المتحدة الأمريكية : 48 ، 112 ، 128 ، 157 ، 257 ، 266 ، 362 ، 380 ، 512 ، 480 ، 475 ، 513 ، 575 .
- وهران ( مدينة غرب الجزائر ) : 3 ، 135 .

- ي -

- اليابان : 157 ، 268 ، 303 ، 311 ، 358 ، 364 ، 347 ، 355 ، 356 ، 373 ، 374 ، 375 ، 377 ، 378 ، 483 .
- اليمن : 130 ، 517 ، 544 ، 546 ، 547 .
- يوغسلافيا : 161 ، 264 .
- اليونان : 124 ، 470 ، 475 ، 418 ، 541 ، 573 .

**ثالثا : فهرس الشعوب و التنظيمات ( الأحزاب ، الجمعيات ، القبائل ، المؤسسات ،**

المذاهب ، المنظمات ، الهيئات ) .

- أ -

- الآباء اليوسوعيون ( جمعية ) : 331 .
- الإباضية ( مذهب ) : 68 .
- الإتحاد و الترقى : 400 .

- الأتراك : 13 ، 17 ، 37 ، 75 ، 89 ، 98 ، 109 ، 110 ، 126 ، 140 ، 157 ، 206 ، 207 ، 244 ، 251 ، 259 ، 276 ، 348 ، 400 ، 404 ، 445 ، 471 ، 473 ، 474 ، 480 ، 482 ، 486 ، 500 ، 501 ، 502 ، 539 ، 554 .
- الإخاء العربي العثماني ( جمعية ) : 479 .
- أخوات القديس جوزيف دي لبارسيون : 331 .
- أخوات العقيدة المسيحية : 331 .
- أخوات القديس فانسان دي بول : 332 .
- إخوان القديس جوزيف دي مانس : 332 .
- الإدارة الفرنسية : 7 ، 34 ، 56 ، 67 ، 266 .
- الأدارسة : 88 .
- الأرثوذكس : 561 .
- الأرمن : 93 ، 400 .
- الأرنأوط : 541 .
- الإسبان : 256 ، 257 ، 258 .
- الإستقلال ( حزب مغربي ) : 509 .
- الإسرائيليون : 117 .
- الإسكندافيون : 540 .
- الإشتراكية ( مذهب ) : 279 .
- الأشراف الحسينيون : 88 .
- الإغريق : 91 ، 296 .
- الأقباط : 71 ، 302 ، 445 .
- الأكاديمية الفرنسية : 135 .
- الأكراد : 96 .
- الإكليروس : 368 .
- آل أرسلان : 561 .

- آل حبيش ( أسرة مارونية عريقة ) : 14 .
- آل الخازن ( أسرة مارونية عريقة ) : 14 .
- آل الرشيد : 259 .
- آل سعود : 259 ، 362 ، 471 .
- آل الصباح : 471 .
- الألمان : 463 ، 471 ، 505 ، 540 ، 516 ، 544 ، 545 ، 446 ، 549 ، 550 .
- الأمريكيون : 470 ، 546 .
- الأمويون : 215 ، 309 .
- الإنجليز : 15 ، 18 ، 31 ، 97 ، 125 ، 129 ، 140 ، 170 ، 254 ، 255 ، 256 ، 258 ، 259 ، 277 ، 358 ، 423 ، 442 ، 449 ، 459 ، 460 ، 463 ، 497 ، 499 ، 500 ، 502 ، 503 ، 505 ، 522 ، 535 ، 540 ، 574 .
- الإنجيل : 60 ، 245 ، 376 .
- أوديسا ( كنيسة ) : 71 .
- الأوروبيون : 4 ، 5 ، 6 ، 9 ، 18 ، 20 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 ، 38 ، 54 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 183 ، 226 ، 231 ، 232 ، 233 ، 235 ، 250 ، 251 ، 252 ، 253 ، 254 ، 262 ، 264 ، 269 ، 276 ، 284 ، 291 ، 292 ، 294 ، 300 ، 301 ، 303 ، 329 ، 336 ، 338 ، 338 ، 347 ، 348 ، 351 ، 352 ، 353 ، 354 ، 355 ، 359 ، 362 ، 363 ، 364 ، 367 ، 368 ، 369 ، 374 ، 376 ، 384 ، 388 ، 389 ، 391 ، 392 ، 393 ، 417 ، 418 ، 420 ، 421 ، 435 ، 450 ، 452 ، 470 ، 471 ، 472 ، 474 ، 495 ، 496 ، 505 ، 518 ، 540 ، 565 ، 98 ، 140 ، 267 .
- الأوس ( قبيلة عربية ) : 463 .
- الإيرانيون : 471 .
- الإيرلنديون : 540 .

- الإيطاليون : 463 ، 549 ، 540 ، 544 ، 545 ، 563 .
- الأيوبيون : 73 .

- ب -

- الباب العالي : 16 ، 561 .
- الباشكنس : 540 .
- الباكستانيون : 199 ، 413 ، 460 .
- البراهمة : 126 .
- البربر : 301 ، 335 ، 452 ، 488 ، 501 ، 505 ، 506 ، 524 ، 525 ، 526 ، 547 .
- البرلمان الفرنسي : 6 .
- البرهمية ( ديانة ) : 315 .
- البروتستانت : 70 ، 71 ، 418 ، 471 ، 475 ، 476 ، 540 .
- البلاشفة : 459 ، 500 .
- البلغاز : 541 .
- بنك باريس و البلاد المنخفضة ( فرنسي ) : 34 .
- بنك الشراكة الجزائرية ( فرنسي ) : 34 .
- بنك الشرك العامة الفرنسية ( فرنسي ) : 34 .
- بنك القرض الزراعي الجزائري التونسي ( فني ) : 34 .
- البنك القومي اليهودي : 266 .
- بنو أمية ( قبيلة عربية ) : 512 .
- بنو تميم الله بن ثعلبة ( قبيلة عربية ) : 94 .
- بنو كلب ( قبيلة عربية ) : 94 .
- بنو عجل ( قبيلة عربية ) : 95 .
- بنو لحم ( قبيلة عربية ) : 95 .

- بنو مروان ( قبيلة عربية ) : 308 .
- بنو مرين : 506 .
- بوذا : 347 .
- البوذية ( ديانة ) : 365 .
- البولونيون : 541 .
- البيت العربي ( مدريد ) : 129 .
- بيروت الإصلاحية ( جمعية ) : 479 .
- البيزنطيون : 91 ، 290 ، 338 .

- ت -

- التركمان : 426 ، 428 .
- التنوخيون ( قبائل عربية ) : 95 .
- التوراة : 60 .

- ج -

- الجامعة الأمريكية : 476 .
- الجامعة الإنجيلية ( بيروت ) : 475 .
- الجامعة العبية 453
- جامعة الملك فؤاد ( مصر ) 119 .
- جامعة الوطن العربي ( جمعية ) : 478 .
- الجامعة اليسوعية ( بيروت ) : 478
- الجبهة التأسيسية ( فرنسا ) : 139 .
- الجرمان : 177 ، 417 ، 512 ، 541

الجزائريون : ص : 5 ، 6 ، 7 ، 8 ، 10 ، 11 ، 20 ، 21 ، 23 ، 24 ، 26 ، 27 ، 34 ،  
35 ، 38 ، 39 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 ، 49 ، 52 ، 53 ، 54 ، 62 ، 63 ، 65 ، 66 ،  
69 ، 77 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 85 ، 86 ، 87 ، 89 ، 100 ، 102 ، 111 ، 117 ،  
121 ، 122 ، 130 ، 131 ، 132 ، 134 ، 138 ، 146 ، 168 ، 169 .

الجمعية الإسبانية الإسلامية : 129

جمعية بيروت السرية : 476

جمعية الترابست ( مسيحية ) : 332 .

جمعية الجامعة العربية : 480 .

الجمعية السورية لاكتساب العلم و الفنون : 475

الجمعية العربية الفتاة : 480 .

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : 77 ، 86 ، 106 ، 119 ، 121 ، 122 ، 130 ، 136

، 137 ، 143 ، 144 ، 148 ، 150 ، 155 ، 164 ، 165 ، 220 ، 275 ، 278 ، 371 ،  
336 ، 431 ، 439 ، 508 ، 524 ، 564 ، 516 .

الجمعية العلمية السوري : 475 .

الجمعية المشرقية ( بيروت ) : 475 .

الجمهورية الثالثة ( فرنسا ) ، 3 ، 4 .

الجمهورية الرابعة : 3

الجمهورية الخامسة : 3

الجنس الأبيض : 117 .

الجنس الأسود : 177 .

الجيش الفرنسي : 6 ، 41 ، 55 ، 148 .

- ح -

الحجاز : 471 .

- الحجازيون : 361 .
- الحداد ( عائلة جزائرية ) : 42
- حزب الشعب الجزائري : 143 .
- حزب اللامركزية العثماني : 479 ، 480
- حركة أحباب البيان و الحرية ( حزب جزائري ) : 137 .
- الحنفية ( مذهب ) : 65 ، 430 .
- الحكومة الفرنسية : 8 ، 20 ، 48 ، 67 ، 68 ، 141 ، 143 .

- خ -

- الخزرج ( قبيلة عربية ) : 463 .
- خلقيدونية ( مجمع مسيحي ) : 71 .
- الخوارج : 72 .
- الخلوتية ( طريقة صوفية ) : 75 .

- د -

- دار الحديث ( مدرسة بتلمسان ) : 135 .
- دار الغرب الإسلامي ( دار نشر بيروت ) : 151
- الدروز ( طائفة لبنانية ) : 14 ، 15 ، 70 ، 73 ، 74 ، 76 ، 77 ، 78 ، 89 ، 93 ، 94 ، 96 ، 97 ، 98 ، 99 ، 154 ، 159 ، 333 ، 460 ، 466 ، 497 ، 504 ، 516 ، 517 ، 518 ، 520 ، 521 ، 522 ، 523 ، 524 ، 526 ، 527 .

- ر -

- راهبات الباستور الطيب ( جمعية مسيحية ) : 332 .
- الراهبات الثالوثيات : 331 .



- راهبات القلب المقدس : 332 .
- الرايستاغ ( مجلس الشعب الألماني ) : 368 .
- الرحمانية ( طريقة صوفية ) : 334 .
- الرستميون : 506 .
- الروم الأرثوذكس : 16 ، 49 ، 70 ، 71 ، 93 ، 418 .
- الرومان : 70 ، 91 ، 208 ، 280 ، 291 ، 293 ، 367 ، 400 ، 541 ، 571 .
- الروم الكاثوليك : 16 ، 49 ، 58 ، 70 ، 71 .
- الروس : 540 ، 541 .

- ز -

- الزرادشتية ( ريانة الفرس ) : 94 .
- زهرة الإحسان ( جمعية ) : 475 .
- زهرة الأدب ( جمعية ) : 475 .
- الزيانيون : 506 .

- س -

- السريانية ( لغة قديمة ) : 475 .
- السكسون : 512 .
- السلاف : 512 .
- السوريون : 48 ، 70 ، 415 ، 471 ، 546 .
- السنة ( مذهب ) : 16 ، 37 ، 49 ، 70 ، 72 ، 74 ، 93 ، 195 ، 197 ، 283 ، 391 ، 392 ، 561 .
- السنوسية ( طريقة صوفية ) : 388 .
- سفتوا ( مذهب ياباني ) : 347 .
- سايكس بيكو ( إتفاقية ) : 17 ، 483 ، 499 .

- ش -

- الشاذلية ( طريقة صوفية ) : 75 .
- الشافعية ( مذهب ) : 195 ، 430 ، 431 .
- شركة الهند الشرقية : 180 .
- الشركس : 92 ، 126 .
- الشوري ( حزب مغربي ) : 509 .
- سمش البر ( جمعية ) : 475 .
- الشهابيون ( حكام لبنانيون ) : 13 ، 46 .
- الشيعة : 16 ، 18 ، 37 ، 49 ، 70 ، 72 ، 73 ، 74 ، 75 ، 93 ، 94 ، 195 ، 283 ، 391 ، 392 ، 561 .
- الشيعة الإسماعيلية ( مذهب ) : 14 ، 72 ، 73 ، 94 .
- الشيعة السبعية ( فرقة ) : 96 ، 517 ، 521 .

- ص -

- الصرب : 541 .
- الصقالبة ( السلاف ) : 541 .
- الصليبيون : 14 ، 71 ، 72 ، 73 ، 93 ، 95 ، 96 ، 98 ، 181 ، 195 ، 196 ، 329 ، 338 ، 372 ، 418 ، 516 ، 523 .
- الصهبيونية : 129 ، 132 ، 170 ، 277 ، 445 ، 449 ، 451 ، 462 ، 494 ، 497 ، 512 ، 535 ، 536 ، 574 .
- صنهاجة ( قبيلة ) : 506 .

- ط -

- الطاوية ( مذهب ) : 366 .
- الطورانية ( حركة تركية ) : 207 ، 394 ، 455 ، 474 ، 445 .

- ظ -

- الظهير البربري ( قانون ) : 258 .

- ع -

- العباسيون : 88 ، 498 .

- عبد القيس ( قبائل ) : 95 .

- العثمانيون : 13 ، 14 ، 15 ، 17 ، 19 ، 29 ، 44 ، 47 ، 59 ، 74 ، 76 ، 77 ، 78 ،  
97 ، 106 ، 125 ، 141 ، 157 ، 170 ، 291 ، 292 ، 362 ، 389 ، 404 ، 418 ،  
423 ، 459 ، 460 ، 471 ، 472 ، 473 ، 479 ، 480 ، 485 ، 498 ، 499 ، 502 ،  
511 .

- العدنانيون : 415 .

- العراق : 259 ، 544 .

- العرب : 2 ، 12 ، 14 ، 64 ، 94 ، 96 ، 98 ، 109 ، 119 ، 122 ، 123 ، 126 ،  
127 ، 129 ، 130 ، 131 ، 132 ، 140 ، 141 ، 143 ، 145 ، 147 ، 149 ، 155 ،  
156 ، 157 ، 160 ، 163 ، 164 ، 171 ، 172 ، 173 ، 174 ، 179 ، 180 ، 183 ،  
184 ، 185 ، 186 ، 190 ، 196 ، 199 ، 200 ، 204 ، 211 ، 217 ، 218 ، 219 ،  
220 ، 221 ، 222 ، 224 ، 225 ، 226 ، 227 ، 228 ، 231 ، 232 ، 233 ، 234 ،  
235 ، 236 ، 238 ، 240 ، 241 ، 242 ، 245 ، 246 ، 248 ، 249 ، 250 ، 251 ،  
252 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 260 ، 261 ، 262 ، 263 ،  
265 ، 266 ، 267 ، 268 ، 269 ، 270 ، 271 ، 272 ، 273 ، 274 ، 277 ، 278 ،  
279 ، 280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 285 ، 286 ، 286 ، 287 ، 288 ، 291 ، 292 ،  
293 ، 294 ، 295 ، 298 ، 300 ، 301 ، 302 ، 303 ، 304 ، 313 ، 314 ، 318 ،  
319 ، 322 ، 323 ، 324 ، 327 ، 335 ، 341 ، 342 ، 343 ، 344 ، 345 ، 346 ،  
347 ، 348 ، 350 ، 351 ، 352 ، 353 ، 354 ، 355 ، 356 ، 357 ، 358 ، 359 ،

، 374 ، 373 ، 372 ، 371 ، 370 ، 369 ، 368 ، 366 ، 365 ، 364 ، 363 ، 362  
، 403 ، 400 ، 385 ، 384 ، 383 ، 382 ، 381 ، 380 ، 379 ، 377 ، 376 ، 375  
، 437 ، 436 ، 435 ، 434 ، 428 ، 426 ، 422 ، 421 ، 418 ، 416 ، 415 ، 404  
، 469 ، 467 ، 466 ، 465 ، 464 ، 461 ، 460 ، 455 ، 451 ، 449 ، 448 ، 439  
، 482 ، 481 ، 480 ، 479 ، 478 ، 477 ، 476 ، 475 ، 474 ، 473 ، 472 ، 471  
، 495 ، 494 ، 493 ، 492 ، 491 ، 490 ، 489 ، 488 ، 487 ، 486 ، 485 ، 483  
، 508 ، 506 ، 505 ، 504 ، 503 ، 502 ، 501 ، 500 ، 499 ، 498 ، 497 ، 496  
، 525 ، 524 ، 521 ، 518 ، 517 ، 516 ، 515 ، 514 ، 513 ، 512 ، 511 ، 510  
، 539 ، 538 ، 537 ، 536 ، 535 ، 534 ، 532 ، 530 ، 529 ، 528 ، 527 ، 526  
، 554 ، 553 ، 550 ، 549 ، 548 ، 547 ، 546 ، 545 ، 544 ، 543 ، 542 ، 541  
، 571 ، 575 ، 569 ، 567 ، 566 ، 564 ، 563 ، 560 ، 558 ، 557 ، 556 ، 555  
. 577 ، 576 ، 574 ، 573 ، 572

- عصابة الأمم : 127 ، 126 .

- العلم الأخضر ( جمعية ) : 479 .

- العلمانية : 322 .

- العلويون : 88 .

- غ -

- الغنوصية ( مذهب ) : 73 .

- ف -

- الفاشية : 484 ، 463 .

- الفاطميون : 521 ، 195 .

- الفراغنة : 501 ، 543 ، 488 ، 343 ، 203 .

- الفرس : 14 ، 73 ، 92 ، 94 ، 426 ، 428 ، 516 .
- الفرنسيون : 2 ، 5 ، 6 ، 9 ، 11 ، 12 ، 19 ، 25 ، 26 ، 27 ، 31 ، 35 ، 44 ، 46 ، 47 ، 48 ، 52 ، 54 ، 59 ، 71 ، 125 ، 140 ، 141 ، 218 ، 219 ، 256 ، 257 ، 258 ، 382 ، 423 ، 460 ، 540 ، 565 .
- الفلسطينيون : 48 ، 259 ، 447 ، 448 ، 451 .
- فيشي ( حكومة فرنسية ) : 18 .
- الفينيقيون : 443 ، 488 .

- ق -

- قائمقام ( رتبة إدارية ) : 16 .
- قانون الأهالي : 4 .
- قانون التجنيد الإجباري : 6 .
- القحطانية ( جمعية ) : 480 .
- القحطانيون : 415 .
- القرين الكريم : ( 60 ، 150 ، 195 ، 201 ، 202 ، 203 ، 204 ، 205 ، 206 ، 212 ، 213 ، 217 ، 267 ، 270 ، 271 ، 271 ، 276 ، 316 ، 318 ، 333 ، 363 ، 364 ، 367 ، 368 ، 371 ، 388 ، 391 ، 396 ، 437 ، 450 ، 500 ، 522 ، 89 ، 97 ، 478 .
- القضاء الإسلامي : 11 ، 12 .
- القضاء الفرنسي : 11 ، 12 .
- القنصلية الفرنسية ( تطوران المغرب ) : 142 .
- القوط ( شعب جرمانى قديم ) : 22 .
- القولقوا ( سكان فرنسا الأقدمون ) : 54 .

- ك -

- الكاثوليك : 349 ، 417 ، 478 ، 561 .
- الكتلة النيابية العربية : 479 .
- الكتلة الوطنية المصرية : 445 .
- الكراغلة : 37 .
- الكنيسة الإنجليكانية : 364 .
- الكنيسة الكاثوليكية : 14 .
- الكونفوشيوسية ( مذهب ) : 365 .
- الكويت : 471 .
- الكويتيون : 529 .

- ل -

- اللاتينيون ( شعوب ) : 475 ، 525 ، 541 .
- اللبنانيون : 1 ، 16 ، 18 ، 19 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 44 ، 45 ، 46 ، 48 ، 61 ، 73 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 82 ، 83 ، 85 ، 86 ، 93 ، 98 ، 99 ، 141 ، 145 ، 168 .
- 471 ، 512 ، 518 ، 566 .
- لجنة الإصلاح البيروتية : 480 .
- لجنة تحرير المغرب العربي : 547 .
- اللتونيون ( شعب ) : 541 .
- اللمتونية ( دولة ) : 505 .
- الليتونيون ( شعب ) : 541 .

- م -

- المؤسسة القومية اليهودية : 266 .

- الماسونية : 198 .
- المالكية ( مذهب ) : 65 ، 68 ، 69 ، 430 ، 431 .
- المتاولة ( طائفة لبنانية ) : 14 .
- مجلس المبعوثان ( عثماني ) : 561 .
- مجلس العقوبات ( فرنسي ) : 12 .
- مجمع اللغة العربية ( القاهرة ) : 149 .
- المخزن ( قبائل جزائرية ) : 38 .
- مدرسة دوفو ( فرنسية بالجزائر ) : 135 .
- المسيحية : 280 ، 283 ، 338 ، 346 ، 365 ، 368 ، 372 ، 373 ، 390 ، 471 ، 556 ، 570 .
- المسلمون : 2 ، 9 ، 11 ، 12 ، 14 ، 15 ، 37 ، 39 ، 49 ، 55 ، 59 ، 67 ، 70 ، 73 ، 74 ، 77 ، 96 ، 114 ، 120 ، 122 ، 123 ، 126 ، 127 ، 129 ، 131 ، 132 ، 140 ، 141 ، 143 ، 145 ، 147 ، 155 ، 156 ، 157 ، 158 ، 160 ، 163 ، 164 ، 171 ، 172 ، 173 ، 174 ، 179 ، 180 ، 181 ، 182 ، 183 ، 184 ، 185 ، 186 ، 187 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 196 ، 197 ، 198 ، 199 ، 200 ، 202 ، 203 ، 204 ، 205 ، 207 ، 208 ، 211 ، 212 ، 213 ، 214 ، 216 ، 217 ، 218 ، 219 ، 220 ، 221 ، 222 ، 223 ، 224 ، 225 ، 226 ، 228 ، 229 ، 231 ، 232 ، 233 ، 234 ، 235 ، 236 ، 238 ، 240 ، 241 ، 242 ، 243 ، 245 ، 246 ، 247 ، 248 ، 249 ، 250 ، 251 ، 252 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 260 ، 261 ، 262 ، 263 ، 264 ، 265 ، 266 ، 267 ، 268 ، 269 ، 270 ، 271 ، 272 ، 273 ، 274 ، 277 ، 278 ، 279 ، 280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 285 ، 286 ، 287 ، 288 ، 289 ، 291 ، 292 ، 293 ، 294 ، 295 ، 298 ، 299 ، 300 ، 301 ، 302 ، 304 ، 306 ، 310 ، 311 ، 313 ، 314 ، 315 ، 316 ، 317 ، 319 ، 322 ، 323 ، 324 ، 327 ، 329 ، 334 ، 338 ، 339 ، 341 ، 342 ، 343 ، 344 ، 345 .

- ، 362 ، 359 ، 357 ، 356 ، 355 ، 354 ، 353 ، 352 ، 350 ، 348 ، 347 ، 346  
، 375 ، 374 ، 373 ، 372 ، 371 ، 370 ، 369 ، 368 ، 367 ، 365 ، 364 ، 363  
، 389 ، 388 ، 387 ، 385 ، 384 ، 383 ، 382 ، 381 ، 380 ، 379 ، 377 ، 376  
، 402 ، 401 ، 400 ، 399 ، 398 ، 397 ، 395 ، 394 ، 393 ، 392 ، 391 ، 390  
، 416 ، 415 ، 413 ، 412 ، 411 ، 410 ، 409 ، 408 ، 407 ، 406 ، 404 ، 403  
، 428 ، 427 ، 426 ، 425 ، 424 ، 423 ، 422 ، 421 ، 420 ، 419 ، 418 ، 417  
، 445 ، 444 ، 443 ، 441 ، 440 ، 439 ، 438 ، 437 ، 436 ، 435 ، 434 ، 433  
، 459 ، 458 ، 457 ، 456 ، 454 ، 453 ، 452 ، 451 ، 450 ، 449 ، 448 ، 447  
، 480 ، 477 ، 474 ، 472 ، 467 ، 466 ، 465 ، 464 ، 463 ، 462 ، 461 ، 460  
، 522 ، 521 ، 516 ، 511 ، 510 ، 506 ، 500 ، 498 ، 495 ، 483 ، 482 ، 481  
، 567 ، 566 ، 563 ، 562 ، 561 ، 560 ، 556 ، 555 ، 550 ، 530 ، 525 ، 523  
، 568 ، 569 ، 570 ، 571 ، 572 ، 573 ، 574 ، 576 ، 577 .
- المسيحيون : 15 ، 16 ، 36 ، 38 ، 46 ، 59 ، 63 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73 ، 74 ، 76 ،  
77 ، 78 ، 80 ، 81 ، 84 ، 126 ، 158 ، 251 ، 256 ، 264 ، 276 ، 322 ، 328 ،  
329 ، 330 ، 341 ، 363 ، 347 ، 349 ، 355 ، 365 ، 366 ، 372 ، 374 ، 375 ،  
379 ، 382 ، 401 ، 416 ، 417 ، 418 ، 423 ، 458 ، 460 ، 465 ، 471 ، 474 ،  
475 ، 477 ، 478 ، 483 ، 505 ، 524 ، 526 ، 550 ، 555 ، 562 ، 566 .
- المصريون : 258 ، 488 ، 512 ، 529 ، 543 .
- مطبعة ابن زيدون ( دمشق ) : 157 ، 159 .
- المطبعة السلفية ( مصر ) : 158 .
- مطبعة عيسى بابي الحلبي : 159 .
- المعتزلة ( فرقة إسلامية ) : 94 .
- المعنويون ( حكام لبنانيون ) : 13 ، 46 .
- المغاربة : 127 ، 257 ، 353 ، 379 ، 509 ، 541 ، 566 .



- المقاصد الخيرية ( جمعية ) : 475 .
- الممالك : 73 ، 216 .
- المنتدى الأدبي ( جمعية ) : 475 .
- المهدية ( حركة ) : 388 .
- الموازنة ( طائفة لبنانية ) : 14 ، 16 ، 46 ، 49 ، 70 ، 73 ، 74 ، 93 ، 112 .
- الموحدون ( الدروز ) : 14 ، 16 ، 506 .
- المونوفيزية ( كنيسة ) : 71 .

- ن -

- النازية : 398 ، 463 ، 484 ، 512 .
- النظام الأساسي ( قانون حكم به لبنان ) : 16 .
- النقشبندية ( طريقة صوفية ) : 75 .

- ه -

- الهلال الأحمر : 124 ، 125 .
- هلال بني عامر ( قبائل عربية ) : 89 ، 149 .
- الهندوكية ( ديانة الهنود ) : 94 .
- الهنود : 315 ، 316 ، 426 .

- و -

- الوثنية : 368 ، 526 .
- وزارة العدل الفرنسية : 11 .
- وعد بلفوز ( تصريح بريطاني لليهود ) : 500 .
- الوهابية ( حركة ) : 134 ، 388 .

- ي -

- اليابانيون : 255 ، 355 ، 378 ، 384 ، 541 .
- اليعقوبية ( كنيسة ) : 70 .
- اليهود : 37 ، 38 ، 39 ، 59 ، 70 ، 73 ، 95 ، 126 ، 255 ، 256 ، 265 ، 266 ، 277 ، 315 ، 316 ، 357 ، 369 ، 366 ، 367 ، 374 ، 447 ، 448 ، 453 ، 462 ، 474 ، 483 ، 497 ، 500 ، 502 ، 516 ، 526 ، 535 ، 536 .
- اليونانيون ( شعب ) : 70 ، 291 ، 296 .

رابعاً : فهرس الدوريات :

- أ -

- ألف باء ( جريدة ) : 161 .
- الأخبار ( جريدة ) : 161 .
- الإخوان المسلمون ( جريدة ) : 161 .
- الأديب ( جريدة ) : 161 .
- الأسبوع ( جريدة ) : 161 .
- الاستقلال ( جريدة ) : 161 .
- الاستقلال العربي ( مجلة ) : 478 .
- الإصلاح ( جريدة ) : 161 .
- الأمة العربية ( مجلة ) : 128 ، 143 .
- الأهرام ( جريدة ) : 159 ، 160 .

- ب -

- البصائر ( جريدة ) : 148 ، 149 ، 150 .
- برقة الجديدة ( جريدة ) : 161 .
- البلاد ( جريدة ) : 161 .
- البيرق ( جريدة ) : 154 .

- ج -

- الجامعة الإسلامية ( جريدة ) : 161 .
- الجامعة العربية (جريدة) : 161 .
- الجبل ( جريدة ) : 161 .
- الجنان ( صحيفة ) : 161 .
- الجهاد ( جريدة ) : 161 .
- الجوائب ( صحيفة ) : 476 .

- ح -

- حديقة الأخبار ( جريدة ) : 476 .
- الحرية ( جريدة ) : 161 .
- الحياة ( جريدة ) : 154 .

- د -

- الدفاع ( جريدة ) : 161 .

- ر -

- الرأي العام ( جريدة ) : 161 .

- ز -

- الزهراء ( جريدة ) : 161 .

- س -

- السجل ( جريدة ) : 161 .

- ش -

- الشباب ( جريدة ) : 161 .

- الشرق ( جريدة ) : 140 ، 161 .

- الشرق الجديد ( جريدة ) : 142 .

- الشهاب ( جريدة ) : 143 ، 161 .

- الشورى ( جريدة ) : 161 .

- ص -

- الصفاء ( جريدة ) : 161 .

- ض -

- الضياء ( صحيفة ) : 476 .

- ع -

- العرب ( جريدة ) : 161 .
- العروبة الوثقى ( مجلة ) : 393 .
- العلم ( جريدة ) : 161 .
- العلم العربي ( جريدة ) : 161 .

- غ -

- غلاسنيق ( جريدة ) : 161 .
- الفتح ( جريدة ) : 161 .

- ف -

- فتى العرب ( جريدة ) : 161 .

- ك -

- الكتلة القاهرية ( جريدة ) : 154 .
- كوكب الشرق ( جريدة ) : 161 .

- ل -

- لاتروبين دولوريون ( جريدة ) : 161 .

- م -

- المؤيد ( جريدة ) : 161 .

- مجلة المجتمع العربي (دمشق) : 161 .
- مرآة الغرب ( جريدة ) :18.
- المقتبس ( جريدة ) : 161 .
- المقتطف ( جريدة ) : 161 ، 476 .
- المقطم (جريدة) : 476 .
- منبر الشرق ( جريدة ) : 161 .
- المنار ( جريدة ) : 157 ، 159 ، 398 .

- ن -

- نداء الوطن ( جريدة ) : 154.

- و -

- الوحدة ( جريدة ) : 161 .

**خامسا : فهرس الموضوعات :**

- الإهــــــــداء .
- شكر و تقدير .
- المختصرات .
- مقدمة البحث و خطته .
- \* - **الفصل الأول : الجزائر ولبنان في عصر البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان...1-84**
- \* - **المبحث الأول : الوضع الإداري و السياسي** ..... 3-21 .
- 01 - الوضع الإداري و السياسي للجزائر ..... 3 .
- 02 - الوضع الإداري و السياسي للبنان ..... 13 .
- \* - **المبحث الثاني : الوضع الإقتصادي** ..... 22-36 .
- 01 - الوضع الإقتصادي للجزائر ..... 22 .
- 02 - الوضع الإقتصادي للبنان ..... 29 .
- \* - **المبحث الثالث : الوضع الإجتماعي** ..... 37-79 .
- 01 - الوضع الإجتماعي للجزائر ..... 37 .
- 02 - الوضع الإجتماعي للبنان ..... 44 .
- \* - **المبحث الرابع : الوضع الثقافي** ..... 50-64 .
- 01 - الوضع الثقافي للجزائر ..... 50 .
- 02 - الوضع الثقافي للبنان ..... 70 .
- \* - **المبحث الخامس : الوضع الديني** ..... 65-78 .
- 01 - الوضع الديني للجزائر ..... 65 .
- 02 - الوضع الديني للبنان ..... 70 .
- \* - **خاتمة الفصل** ..... 79 .
- \* - **الفصل الثاني : البشير الإبراهيمي وشكيب أرسلان حياتهما و آثارهما ... 85-173**
- \* - **المبحث الأول : مولدهما و نسبهما** ..... 88-99 .
- 01 - الإبراهيمي مولده و نسبه ..... 88 .

- 02 - أرسلان مولده و نسبه ..... 90.....
- \* - المبحث الثاني : نشأتها و تعليمها ..... 118-100.....
- 01 - الإبراهيمي نشأته و تعليمه ..... 100.....
- 02 - أرسلان نشأته و تعليمه ..... 112.....
- \* - المبحث الثالث : رحلاتها و أسفارها ..... 133-119 .....
- 01 - الإبراهيمي رحلاته و أسفاره ..... 119.....
- 02 - أرسلان رحلاته و أسفاره ..... 123.....
- \* - المبحث الرابع : موقف الاستعمار الفرنسي منهما ..... 145-134 .....
- 01 - موقف الإستعمار الفرنسي من الإبراهيمي ..... 134.....
- 02 - موقف الإستعمار الفرنسي من أرسلان ..... 140 .....
- \* - المبحث الخامس : وفاتها و آثارها ..... 165-146 .....
- 01 - وفاة الإبراهيمي و آثاره ..... 146.....
- 02 - وفاة أرسلان و آثاره ..... 153.....
- \* - خاتمة الفصل ..... 166 .....
- \* - الفصل الثالث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الإبراهيمي وأرسلان .
- . 287-173 .
- \* - المبحث الأول : مفهوم التخلف لغة و إصلاحا و مظاهره في البلاد العربية و الإسلامية ..... 184-176 .....
- 01 - مفهوم التخلف لغة ..... 176.....
- 02 - مفهوم التخلف إصطلاحا ..... 176.....
- 03 - مظاهر التخلف في البلاد العربية و الإسلامية ..... 179.....
- \* - المبحث الثاني : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار الإبراهيمي ..... 239-185 .....
- 01 - فساد علماء الدين و إنحرافهم ..... 187 .....
- 02 - تعطيل العمل بالدين الإسلامي ..... 200 .....
- 03 - الحجر على الإجتهد و النزوع إلى النقل و التقليد ..... 208 .....



- 04 - فساد الأخلاق و العادات و وهن العزائم ..... 217 .
- 05 - الإستعمار الروحي ..... 227 .
- \* - المبحث الثالث : أسباب تخلف العرب و المسلمين في آثار أرسلان ..... 240-286 .
- 01 - العلماء و الفقهاء المعطلون للرفي ..... 241 .
- 02 - الجمود و الجحود ..... 245 .
- 03 - فساد الحكام ..... 250 .
- 04 - ضعف الروح القومية و الخيانة ..... 254 .
- 05 - عدم الثقة بالنفس و التقاعس و التواكل و التخاذل ..... 261 .
- \* - خاتمة الفصل ..... 281 .
- \* - الفصل الرابع : شروط نهضة العرب و المسلمين عند الإبراهيمي وأرسلان. 287-386.
- \* - المبحث الأول : مفهوم النهضة لغة و اصطلاحا و مضامينها في الفكر العربي الإسلامي
- الحديث المعاصر ..... 290-301 .
- 01 - مفهوم النهضة لغة ..... 290 .
- 02 - مفهوم النهضة اصطلاحا ..... 290 .
- 03 - مضامينها في الفكر العربي الإسلامي الحديث و المعاصر ..... 294 .
- \* - المبحث الثاني : شروط النهضة عند الإبراهيمي ..... 303-341 .
- 01 - إصلاح علماء الدين ..... 304 .
- 02 - إحياء الدين الإسلامي ..... 313 .
- 03 - تفعيل دور المثقفين ..... 320 .
- 04 - التصدي للتبشير الديني المسيحي الغربي ..... 328 .
- \* - المبحث الثالث : شروط النهضة عند أرسلان ..... 342-380 .
- 01 - أخذ العبرة من الماضي ..... 343 .
- 02 - إقحام غمار العلوم و الإقتصاد ..... 352 .
- 03 - التحلي بروح الإرادة و التضحية ..... 359 .
- 04 - الموازنة بين العقيدة و العلوم ..... 364 .

- خاتمة الفصل ..... 381 .
- \* - الفصل الخامس : الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان ..... 387-466 .
- \* - المبحث الأول : حركة الجامعة الإسلامية و أبرز دعائها ..... 389-406 .
- 01 - جذور الجامعة الإسلامية ..... 389 .
- 02 - أبرز دعائها ..... 391 .
- \* - المبحث الثاني : مفهوم الجامعة الإسلامية و مزاياها لدى الإبراهيمي و أرسلان ... 407-426 .
- 01 - مفهوم الجامعة الإسلامية و مزاياها لدى الإبراهيمي ..... 407 .
- 02 - مفهوم الجامعة الإسلامية و مزاياها لدى أرسلان ..... 416 .
- \* - المبحث الثالث : كيفية بناء الجامعة الإسلامية في آراء الإبراهيمي و أرسلان 427-458 .
- 01 - كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي الإبراهيمي ..... 427 .
- 02 - كيفية بناء الجامعة الإسلامية في رأي أرسلان ..... 443 .
- \* - خاتمة الفصل ..... 459 .
- \* - الفصل السادس : الوحدة العربية في كتابات المفكرين الإبراهيمي و أرسلان 467-559 .
- \* - المبحث الأول : تيار القومية العربية : الجذور و التطور ..... 469-487 .
- 01 - الجذور ..... 469 .
- 02 - التطور ..... 474 .
- \* - المبحث الثاني : بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي و أرسلان .. 488-505 .
- 01 - بواعث الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي ..... 488 .
- 02 - بواعث الوحدة العربية في كتابات أرسلان ..... 497 .
- \* - المبحث الثالث : عروبة المغرب العربي و الدروز و موقعهم من الوحدة العربية... 506 .
- 01 - عروبة المغرب العربي و موقعه من الوحدة العربية (الإبراهيمي) ..... 506 .
- 02 - عروبة الدروز و موقعهم من الوحدة العربية (أرسلان) ..... 517 .
- \* - المبحث الرابع : خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي و أرسلان... 529 .
- 01 - خطوات تحقيق الوحدة العربية في كتابات الإبراهيمي ..... 529 .

- 02 - خطوات تحقيق الوحدة في كتابات أرسلان ..... 539
- \* - خاتمة الفصل ..... 554 .
- \* - خاتمة البحث .....
- \* - ملاحق البحث ..... 609-579 .
- أ - ملاحق الإبراهيمي : ..... 596-579 .
- الملحق رقم 01 : حول قبر الإبراهيمي لست أنسى للشاعر محمد العيد آل خليفة .... 579 .
- الملحق رقم 02 : ذكرى الأمير شكيب ..... 581 .
- الملحق رقم 03 : داء المسلمين و دواؤهم ..... 583 .
- الملحق رقم 04 : تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم و عزتهم ..... 587 .
- الملحق رقم 05 : عروبة الشمال الإفريقي ..... 590 .
- الملحق رقم 06 : تقارب العرب بشير إتحادهم ..... 594 .
- ب - ملاحق أرسلان : ..... 609-597 .
- الملحق رقم 01 : قالوا في رثاء الأمير ..... 597 .
- الملحق رقم 02 : الدول المستعمرة و الإسلام ..... 599 .
- الملحق رقم 03 : الشرق و الغرب ..... 602 .
- الملحق رقم 04 : التسامح و التعصب بين الإسلام و أوروبا ..... 604 .
- الملحق رقم 05 : الرد على حساد المدنية الإسلامية المكابرين ..... 606 .
- الملحق رقم 06 : الدروز أو بنو معروف بأجمعهم عرب صراح ..... 608 .
- ج - الوثائق الأرشيفية : ( تقارير وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية حول الأمير شكيب ) .

- بيلوغرافية البحث :** ..... 633-610 .
- \* - أولا : المصادر : ..... 613-610 .
- أ - مصادر البشير الإبراهيمي ..... 611-610 .
- ب - مصادر شكيب أرسلان ..... 612-612 .
- ج - تقارير وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية حول شكيب أرسلان ..... 612 .
- \* - ثانيا : المراجع : ..... 630-614 .
- أ - الكتب باللغة العربية ..... 627-614 .
- ب - الكتب باللغة الفرنسية ..... 628-627 .
- ج - الدوريات : ..... 630-629 .
- \* - ثالثا : الرسائل و الأطروحات الجامعية : ..... 632-631 .
- \* - رابعا : الموسوعات و المعاجم و القواميس ..... 633 .
- \* - **فهارس البحث :** ..... 693 - 634 .
- أولا : فهرس الأعلام ..... 634 .
- ثانيا : فهرس الأماكن و البلدان ..... 651 .
- ثالثا : فهرس الشعوب و التنظيمات ( الأحزاب ، الجمعيات ، القبائل ، المؤسسات ، المذاهب ، المنظمات ، الهيئات ) ..... 666 .
- رابعا : فهرس الدوريات ..... 682 .
- خامسا : فهرس الموضوعات ..... 687 .